

آيْريسْ مَردُوخ
تَرجَمَة: فؤاد كامِل
البَحْر
البَحْر
رِوَايَة
دار الآداب

آيريس مردوخ

البحر، البحر

رواية

ترجمة : فؤاد كامل

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩١

ما قبل التاريخ

البحر الذي يمتد أمامي وأنا أكتب يتوهج بأكثر مما يـأتلق في أشعة شمس أيَّار (مايو) الوانية. ومع المدّ المنسحب يرتمي برفق على الشاطىء لا تكـاد تشوبـه مويْجات أو زبد. وعلى مقربة من الأفق انساب وشاح أرجواني فاخـر تتخلله عروق منتظمة من خضرة زمردية. واصطبغ الأفق نفسه بلون أزرق قـاتم. وبـالقـرب من الشـاطىء، حيث انحصرت رؤيتي في إطـار الأكـداس المتصاعدة من الصخر الأصفر المدبَّب، امتد شريط أقـل اخضراراً، يكسوه الثلج والنقاء، وإن يكن أقل إشراقاً، بل يكاد يكون معتماً، لا شفافية فيه. إننا الآن في الشمال، وأشعة الشمس المتلألئة لا تستطيع أن تنفذ في البحر، وحيث تُرَبِّت المياه الرفيقة عـلى الصخور، مـا برح هنـاك سطح جِلْديٌّ من الألوان. والسماء الخالية من السحب شاحبة عند الأفق العميق الزرقة الذي تخط عليـه برفق خـطوطاً فضيـة. وتشتد زرقتهـا حين تتجـه نحو السمت، وهنـاك تنتشر فيها تمـوجات. غـير أن السماء تبـدو بـاردة، بـل إن الشمس نفسها تبدو باردة.

كتبتُ ما سبق حتى يكون الفقرة الافتتاحيـة لمذكـراتي، وحينئذٍ وقـع أمر كان من الغرابـة والرعب بحيث لم أستـطع أن أستجمع نفسي لـوصفه حتى بعـد أن انقضت عليـه الآن مهلة من الـزمن، وحتى بعـد أن تـوصلت إلى تفسير ممكن له، وإن لم يكن مُـطَمْئِنَاً كـل الاطمئنان. وربمـا أحسست بأنني أهدأ نفساً، وأصفى تفكيراً بعد فترة أخرى من الزمن

وقد أشرت فيما سبق إلى أنني أكتب مذكرات. أهذا هو ما يُطْلق عـلى ما

أكتبه؟ الزمن وحده كفيل ببيان ذلك. وفي هذه اللحظة، بعد أن أصبح عُمْر ما كتبتُ صفحة واحدة، فإنني أشعر بالأحرى أنه يوميات لا مذكرات. فليكن يوميات إذن. وما أشد أسفي لأنني لم أحتفظ بدفتر يوميات قبل هذا، فما كان أحراه بأن يكون سجلاً حافلاً! غير أن الأحداث الرئيسية في حياتي قد ولّت الآن، ولم يعد باقياً منها سوى «التذكر الهاديء». أتراني نادماً على حياة ملؤها الأنانية؟ كلا، إنها لم تكن كذلك بالضبط، ولكنها شيء من هذا القبيل. وبالطبع لم أقل هذا لسيدات المسرح وسادته، وإلاّ لأغرقوا في الضحك دون انقطاع.

والحق أن المسرح مكان يتعلم فيه المرء إلى أي حد يكون فيه المجد الإنساني قصير العمر: واأسفاه.. على كل تلك الإيمائيات Pantomime المدهشة المتألقة المتلاشية تماماً! والآن، سأتنكّر للسحر، وأنقلب راهباً: أضع نفسي في موقف أستطيع أن أقول فيه بأمانة إنني لا أفعل شيئاً سوى أن أدرِّب نفسي على أن أكون صالحاً. ويقال بحق عن المرحلة الأخيرة من الحياة بأنها فترة تأمل. هل ينتابني الأسف لأنني لم أبدأها بأسرع من ذلك؟.

من الضروري أن أكتب، هذا شيء واضح، وأن أكتب بطريقة تختلف عن كل طريقة اتبعتها من قبل. ذلك أن كل ما كتبته من قبل كتبته على الماء، وعن عَمدٍ فعلتُ ذلك. أما هذا فأكتبه للبقاء، شيء لا يسعني إلا أن أرجو له الدوام. أجل، هاأنذا أشخِّص فعلاً هذا الشيء، هذا الدفتر الصغير، هذا الكتيِّب، هذا المخلوق الذي أمنحه الحياة، والذي يبدو ـ على الفور ـ أن له إرادة خاصة به. إنه يريد أن يعيش، ويسعى إلى البقاء.

دار فكري حول كتابة يوميات ـ لا عن أحداث، لأنه لا يوجد منها شيء، وإنما عن تسجيل لأفكار تمتزج بملاحظات يومية: عن «فلسفتي»، أفكاري على مهادٍ من أوصاف بسيطة للطقس وبعض الظواهر الطبيعية الأخرى. وتبدو لي هذه الفكرة الآن على أنها فكرة طيبة مرة أخرى.

البحر. إنني أستطيع أن أملأ مجلداً بأكمله بصوري اللفظية عنه ولا شيء غيرها. ومن المؤكد أنه يطيب لي أن أكتب وصفاً مدعَّماً للأشياء المحيطة بي، من نبات وحيوان. وقد يكون في هذا الوصف شيء من الأهمية والتشويق إذا ثابرت عليه، حتى وإن لم أكن «وايت أوف سلبورن» White of Selborne. فمن نافذتي المواجهة للبحر أستطيع أن أشاهد في هذه اللحظة ثلاثة أنواع مختلفة من طيور النورس، والسنونو، والغاق، وفراشات لا حصر لها تطوف بالزهر الذي ينمو فيها يشبه المعجزة فوق صخوري الصفراء..

لا ينبغي - على كل حال - أن أحاول شيئاً من «الكتابة المنمَّقة» التي يمكن أن تُفْسِد مشروعي، والتي يمكن أن تجعلني - فضلا عن ذلك - مخادعاً لنفسي، هازئاً بها.

أيُها البحر الشمالي المبارك، البحر الحقيقي الذي تغشاه حركات المد النظيفة الرحيمة، والذي لا يشبه البحر الأبيض المتوسط بعطنه ولزوجته!.

يقولون إن هاهنا تعيش عجول البحر، ولكنيِّ لم ألمح شيئاً منها حتى الآن.

لا داعي بالطبع إلى الفصل بين «المذكرات» و«اليوميات» أو «اليوميات الفلسفية». فأنا أستطيع أن أحدثك - أيُها القارىء - عن حياتي الماضية وعن «رؤيتي للعالم» أيضاً، وأنا أمضي في الكتابة. ولِمَ لا؟ إنني أستطيع أن أفصح عن نفسي جميعها على نحوٍ طبيعي أثناء تفكيري. وبدون قلق (ألست الآن تاركاً القلق وراء ظهري؟) سأكتشف «صورتي الأدبية». وعلى أي حال، لماذا أقرر هذا الآن؟ فربما استطعت فيها بعد، إذا طاب لي الأمر - أن أنظر إلى هذه الشوارد على أنها مسوَّدة ملاحظات تمهِّد لكتابة أكثر اتساقاً. من يدري حقًا إلى أي حد يمكن أن أجد حياتي الماضية شائقة عندما أشرع في حكايتها؟ فربما أوصلت قصتي إلى الحاضر تدريجياً بحيث يطفو حاضري على ماضيّ؟.

وحتى يكفِّر المرء عن أنانيته: أتكون كتابة السيرة الذاتية هي أفضل الطرق؟ لأنني لست فيلسوفاً، فأنا لا أملك إلا التفكير في العالم من خلال مغامراتي الخاصة فيه. وأشعر أن الوقت قد حان لكي أفكِّر في نفسي آخر المطاف. وقد يبدو غريباً أن شخصاً وُصِف في الصحافة الرائجة بأنَّه «طاغية» و«تَتَري» أو كما أتذكر «مسخ مجنون بالسلطة» ـ قد يبدو غريباً أن يشعر مثل هذا الشخص أنه لم يفعل شيئاً من هذا حتى الآن! غير أن هذه هي القضية. والواقع أن إحساسي بالهوية ضئيل للغاية.

والحق أنني لم أشعر إلا مؤخراً بحاجتي إلى كتابة شيء يكون شخصياً وتأملياً في آن معاً. وفي الأيام التي كنت أكتب فيها على الماء تصورت أن الكتاب الوحيد الذي يمكن أن أنشره سيكون كتاباً عن الطهي؟.

يحق لي الآن أن أقدِّم نفسي ـ لنفسي أولاً وفي المقام الأول، وهذا ما خَطَر لي. فيا لها من سيرة ذاتية نظامية تلك التي انصرفت إليها محاولتي! ذلك أنه بالنسبة للآخرين، لو أن هذه الكلمات طُبِعت في المستقبل القريب ـ لن يكون هناك ـ بمعنىً سطحي ـ «ما يدعو إلى التقديم» كما يقولون في اللقاءات. إلى متى تدوم الشهرة الفانية؟ نوع الشهرة الذي أتمتع به لا يدوم طويلاً، ولكنه يطول بما فيه الكفاية. أجل، أجل، أنا تشارلز آروبي Charles Arrouby، وفي أثناء كتابتي هذا الكلام أكون قد تجاوزت الستين من عمري. بلا زوجة، وبلا أبناء، وبلا إخوة، وبلا أخوات، أنا ذاتي المعروفة جيداً، التي قامت الشهرة بتلميعها وتحطيمها. وقد عقدت عزمي منذ فترة طويلة على أن أتقاعد من المسرح حين أتخطى الستين(كان وِلْفرد يقول لي: «أبداً، لن تستطيع ذلك». ولكنه كان مخطئاً). والواقع أنني تعبت من المسرح، وقد نلت منه ما يكفيني. وهذا ما لم يكن أحد يتنبأ به أو يتخيله من المحيطين بي الذين يعرفونني حق المعرفة من أمثال سيدني أو برجراين أو فريتزي؛ أو ولفرد أو كليمنت عندما كانا حيَّيْن ولم يكن الأمر مجرَّد رحيل حصيف وأنا «على ذروة الموجة» (ما أكثر

الممثلين والمخرجين الذين يمكثون بعد سن التقاعد نزولاً عند الترحيب الذي يلقونه). أما أنا فقد سئمت من هذا كله. ثمة تغيير أخلاقي طرأ عليّ.

قالوا: «فليكن.. إذهب. ولكن لا تتخيل أنك تستطيع الرجوع». أنا لا أريد الرجوع، شكراً لكم! «إنك إذا انقطعت عن العمل، وعشت وحدك، فلا بد أن تصاب بالجنون» (وكان هذا هو إسهام سيدني). على العكس، أشعر أنني سليم العقل تماماً، وحر وسعيد للمرة الأولى في حياتي!.

وليست المسألة أنني انتهيت إلى «استنكار» المسرح، كما كانت أمي - على سبيل المثال - تعلن ذلك دون انقطاع. كل ما في الأمر أنني عرفت أن بقائي فيه أكثر من ذلك سيجعلني أذوي روحياً، وسيُفْقدني شيئاً صاحبني في شيء من الصبر حتى الآن، ولكنه قد يفارقني إن لم أتمسك به حتى النهاية: هذا الشيء لا ينتمي إلى الانشغالات التي ترتبط بعملي، ولكنه منفصل عنها إلى حد بعيد. وإني لأتذكر شيئاً قاله «جيمس» عن أناس ينهون حياتهم في الكهوف. فليكن، هنا إذن، وهذا كهفي. وقد وصلت إليه حاملاً ذلك الشيء النفيس الذي أتى معي، وكأنه طلسم أستطيع الآن أن أَفُكَّ عقدته. يا لها من كلمات ضخمة فخمة! ومع ذلك أعترف بأنني لا أكاد أعرف لها معنى. فلنقطع حبل هذه الخواطر الخرقاء لحظة من الزمن.

الملاحظات السابقة كُتِبَتْ في سلسلة من الأيام المختلفة، أيام عجيبة جوفاء تسودها الوحدة، مثل الأيام التي أذكر الآن أنني اشتقت إليها كثيراً، دون أن أعتقد أبداً أنني أردتها بشدة جعلتني أحصل عليها في نهاية المطاف.

ذهبت للسباحة مرة أخرى، غير أنني ما زلت عاجزاً عن اكتشاف المكان الصحيح. وفي هذا الصباح، غُصْت في المياه العميقة عند أقرب الصخور المحيطة بالمنزل، حيث تنحدر انحداراً يكاد يكون عمودياً، وإن تخللته أفاريز وحنايا كافية لصنع درجات سُلَّم محفوف بالمخاطر. وأطلقت عليها اسم «صخرتي»، وإن لم تكن ذات ارتفاع لا يزيد عن عشرين قدماً في المد

المنخفض. المياه شديدة البرودة بالطبع، ولكن بعد لحظات قلائل يبدو أنها تكسو الجسم بنوع من الجلد الدافىء المغضن، وكأن المرء قد اكتسب حراشف غرانق الماء Merman. وتبتهج الدماء التي تحدثها البرودة ـ بقوة جديدة. أجل، هذا هو عنصري الطبيعي. وما أشد عجبي كلما خطر لي أنني لم أشاهد البحر إلا بعد أن بلغت من العمر أربعة عشر عاماً.

والواقع أنني سبَّاح ماهر لا يهاب شيئاً، ولا يخشى من الأمواج العاتية. واليوم كان البحر لطيفاً إذا قيس بالمحيطات الواقعة على الجانب الآخر من الكرة الأرضية حيث مارست الرياضة مثل درفيل. وكانت مشكلتي في معظمها مشكلة فنية. إذ إنه على الرغم من أن الأمواج كانت وديعة بما فيه الكفاية، إلا أنني لاقيت قدراً من المشقة المضحكة في الرجوع فوق الصخور مرة أخرى. فقد كانت «الصخرة» منحدرة أكثر من اللازم، والأفاريز أضيق من اللازم. وأخذت الأمواج الهيِّنة تغيظني، فترفعني صوب وجه الصخرة، ثم تقتلعني بعيداً. وأصابعي التي كانت تبحث عن فجوة، تُنْتَزَع المرة تلو المرَّة. فلما أصابني الكلل، سبحت حول الصخرة محاولاً في أماكن أخرى يجري فيها البحر داخلاً خارجاً دون استقرار، غير أن الصعوبة تزايدت، إذ كانت تحتي مياه عميقة، وحتى لو كانت الصخور أقل انحداراً، فإنها كانت أشد نعومة وانزلاقاً إذ غطَّتها الأعشاب، فَشَقَّ عليّ الإمساك بها. وتمكنت أخيراً من الصعود فوق صخرتي، متشبثاً بأصابع يديّ ورجليّ، فرقدت لاهثاً في الشمس، وألفيت أن يديّ وركبتيّ تسيل منها الدماء.

وقد استمتعت منذ وصولي بالإستحمام عارياً. فهذه السواحل الصخرية لا تجتذب ـ والحمد لله ـ أحداً من هواة الرحلات «بأطفالهم». وليس فيها أثر لرمال كريهة في أي مكان. وقد سمعتُ من يسميها «ساحلاً قبيحاً». وربما دام قدرُها على هذا النحو فترة طويلة. والواقع أن صخورها التي تمتد في كلا الإتجاهين لا تؤلف مشهداً جديراً بالإعجاب. فهي رملية صفراء من حيث اللون، تكسوها بقع بللورية، وتُطْوى على هيئة أكوام

ضخمة غليظة تفتقر إلى التناسق. وتحت خط المد توجد شرائط معلقة من الأعشاب الزلقة المتنامية اللامعة ذات لون بني داكن. وتفوح منها رائحة منفِّرة. وفوق هذا على كل حال، في بقاع قريبة، تزوِّد المتسلق بعدد مدهش من المسرَّات المستسرَّة. فهناك وهاد كثيرة تتخذ شكل حرف V وتحتوي على غدران صغيرة أو على حصباء مكَّونة من أحجار شديدة التنوع والجمال. وهناك أيضاً زهور تجاهد لمد جذورها على نحو ما في تصدعات الأرض وشقوقها. ومنها زهور قرنفلية، والخبَّاز البنفسجي، ونوع من المنثور البحري المنتشر، ونبات أخضر مُشْرب بزرقة ذو أوراق تشبه أوراق الكرنب، وهناك أيضاً ذلك الجنس من الزَّهر الدقيق الذي يكسر الحجر بأوراق وزهور تستعصي لصغرها على الرؤية بالعين المجردة. فلا بد من العثور على نظارتي المكبرة لفحصها كما ينبغي.

ومن سمات الساحل أن المياه قد استهلكت الصخور فأحالتها إلى فجوات هنا وهناك، فجوات لا أفخِّمها فأسميها كهوفاً، غير أنها من وجهة نظر الشخص السبَّاح تتخذ مظهراً باعثاً على الدهشة قليلاً من الوحشة. وعند إحدى النقاط القريبة من منزلي قام البحر فعلاً بتكوين جسر صخري مقَّوس يهدر تحته داخل سياج عميق مفتوح من جانب شديد الانحدار وراءه. وكان من دواعي سروري العجيب أن أقف فوق هذا الجسر لأراقب القوى العنيفة التي تولِّدها الأمواج المزبدة في اندفاعها وانسحابها داخل ذلك المكان المحصور من الفجوة الصخرية.

انقضى يوم آخر منذ أن كتبت الكلام السابق. والطقس ما برح في أكمل أحواله. ولم أكن قد تلقيت أية رسائل منذ وصولي، وهذا أمر غريب على نحو ما. وكانت سكرتيرتي السابقة ـ الآنسة كاوفمان ـ هي التي تتكرم باحتجاز السيل الذي أخذ يتناقص من بريد العمل في لندن. ولكن، ممن أنتظر أن أسمع شيئاً ـ على أية حال ـ إن لم يكن ذلك من ليزي **Lizzie** التي من المحتمل أن تقوم بجولة في الخارج؟

وقد واصلت استكشاف الصخور في اتجاه بُـرْجي. أجل، فـأنا لا أملك الآن منـزلاً وعدداً من الصخـور فحسب، بل أمتلك أيضـاً برجـاً «دائريـاً» Martello متهدماً!. وهو لا يزيد ـ للأسف ـ عن مجـرد هيكل. وأود أن أقوم بإصلاحه وبناء سلّم حلزوني يؤدي إليه، وحجرة سامقة للدراسة، كل ما في الأمر أنني على عكس ما يُشاع عني لست غنياً. وقـد استنفد منـزلي ـ البحري معظم مدخراتي. ولكنني ـ على كل حـال ـ أتقاضى معـاشاً طيِّبـاً بفضل الحس العملي الذي تتمتع به كليمنت الحبيبة منذ أمد طويل. فلا بد من أن أدَّخر شيئاً من المال. وعلى مقربة من البرج. عثرت على قطعة بديعة من الآثار تعد أيضـاً دليلاً عـلى أنني لست الشخص الوحيـد الذي اكتشف صعوبة الخروج من هذا البحر. ففي منفذ سريّ صغير تحت البرج، لا تراه العـين إلا بالنـظر مباشرة من فـوق، قُطِعت بضـع درجـات في جـانب من الصخرة بحيث ينزل منها المرء إلى الماء ويحيط بها درابزين حديـدي. ولسوء الحظ كان الجزء السفـلي من الدرابـزين محطَّماً، ولـما كانت صفحـة الصخرة ملساء فقد كانت الدرجات المنحدرة عديمة الفائدة، اللهم إلاَّ في المدّ المرتفع، وكانت الأمواج قوية. والأمواج تنتزع المرء ببساطة. والشيء المدهش هـو ما يمكن أن يكون عليه بَحْري الرياضي هذا من قـوة وإحكام! غـير أن الفكرة واضحة الامتياز، فـلا بد لي من العمـل على مـد الدرابـزين، وخطر لي أن بعض دعامات حديديـة قلائـل يتم إدخالهـا في وجه «صخـرتي»، يمكن أن توفِّر مقابض كافية للأيدي والأقدام من أجل التسلق، أياً كانت حالة المد. ولا بد لي من البحث في القرية عن العمال.

سبحت من سلَّم الـبرج، أثنـاء المـد المـرتفـع، ثم رقـدت عـاريـاً عـلى الحشائش إلى جانب البرج، يغمرني شعور بالراحة والسعـادة. ويؤسفني أن أقول إن البرج يجتـذب السائـح العابـر، غير أنني أمقت تعليق لافتـة عليها كلمة «خاص». وهذه الغيضة الصغـيرة هي قطعـة الحشائش الـوحيدة التي أملكها، باستثناء رقعة صغيرة تقع خلف المنزل مباشرة. هذه الحشائش التي

يضطهدها ريح البحر بلا شك ـ قصيرة إلى أقصى حـد، وتنتشر نصالها في جدائل دائرية صغيرة لها خشونة تكاد تكون أشبـه بخشونـة الصبَّار. وعنـد قاعدة البرج تنمو زهور الناردين الحمراء والبيضاء، وثمـة نوع أرجـواني من الـزعتر المـزدهر يختلط بـالحشائش ويستقـر هنا وهنـاك وسط الصخور عـلى الجانب المتجه صوب اليابسة. وقد فحصت هذا، وكذلك الزهـور الدقيقـة كاسرات الحجر، من خلال منظاري المكبِّر. وكنت أريد أن أكـون عالِماً في النبات وأنا في العـاشرة. وأبي يعشق النباتـات عشق الجاهـل، فكنا نتـأمل العديد من الأشياء معاً. وإني لأعجب مـاذا كنت صانعـاً بحياتي لـو لم أكن مولعاً بالمسرح إلى حد الجنون؟.

وفي أثناء عودتي تفحصت غدراني المتعددة. ما أعجب ذلك القدر البديع الشـائق من الحياة الـذي تحتويـه! يجب أن أبتاع بعض الكتب التي تتنـاول هـذه الموضـوعات إذا أردت أن أكـون ـ لإشبـاعي الشخصي المتـواضـع ـ جيلبرت وايت هذه المنطقة. وقد التقطت أيضاً عـدداً من الأحجار البـديعة وحملتهـا معي إلى مَـرْجتي الأخـرى. كـانت ملسـاء، إهليليجيـة، عــذبـة التناول. وهذه واحدة منهـا حمـراء مرقشـة تقطعهـا خطوط بيضـاء منقوشـة بدقة ـ ترقد أمامي أثناء الكتابة. أعتقـد أن أبي كان سيحب هـذا المكان ـ ما زلت أفكر فيه وأفتقده.

الوقت: بعد الغداء، وسأقوم الآن بوصف المنزل. وكان الـطعام الـذي تناولته للغداء، واستمتعت به كثيراً كالآتي: معجون الأنشوجـة على شريحـة من «التوست» الساخن المدهون بالزبدة، ثم فول مخبوز ولوبيـاء مع كـرفس مفـروم، وبـطاطس، وعصـير الليمـون، وزيت الـزيتـون (الحق أن زيت الزيتون الجيـد أساسي، ذلـك الصنف ذو المذاق الـذي أَحْضرتُ منـه كمية للتخزين من لندن). ويعد الفلفل الأخضر إضـافة سعيـدة، غير أن دكـان القرية (على بُعْد ميلين من المسيرة الممتعة) لا يستطيع إمـدادي بها. (فليس هناك من يستطيـع تسليم السلع حتى «شراف إند» Shruff End ، ومن ثَمّ

كنت أذهب لإحضار كل شيء ـ حتى اللبن ـ من القرية). ويأتي بعد ذلك الموز والقشدة بالسكر الأبيض. (يجب تقطيع الموز، ولا ينبغي سحقه أبداً، كما ينبغي أن تكون طبقة الكريمة رقيقة). ثم نوع من بسكويت الماء الناشف مع الزبدة النيوزيلاندية وجبنة ونسليديل. وأنا لا ألمس بالطبع أنواع الجبن الأجنبية إطلاقاً. ذلك أن أصنافنا للجبن هي أفضل الأصناف في العالم. ومع هذه الوليمة، شربت معظم زجاجة من «الموسكاديت» Muscadet أحضرتها من «قبوي» المتواضع. أكلت وشربت على مهل كما ينبغي للمرء أن يفعل (إطهِ بسرعة، وكُلْ على مهل) ودون مشتِّتات مِثل المحادثة أو القراءة (ولله الحمد). والحق أن الأكل شيء ممتع إلى درجة ينبغي فيها على الإنسان أن يحاول إخماد الفكر. طبعاً، القراءة والتفكير من الأمور المهمة، غير أن الأكل ـ وحق الله ـ مهم أيضاً. وما أسعد حظنا بأننا حيوانات مستهلكة للطعام. ويجب أن تكون كل وجبة وليمة ممتعة، كما ينبغي على المرء أن يبارك كل يوم يجلب معه هضماً جيداً، وتلك الهبة النفيسة.. هبة الجوع.

وأسائل نفسي إن كنت سأكتب يوماً «كتاب تشارلز آروبي للطهي في أربع دقائق»؟ هذه الدقائق الأربع تشير بالطبع إلى الوقت الفعلي للتحضير، ولا تشمل الوقت الذي يتم فيه الطهي. وقد تصفحت كتباً عديدة عما يسمى «النظام القصير» لطهي الطعام، غير أن هذه الكتب تميل إلى الخداع، إذ تطول «الخمس عشرة دقيقة» حين التطبيق الفعلي إلى ثلاثين، كما تحتوي على تعليمات مثل «فليكن مَخْضُك هيِّناً». فالأشخاص الأمناء الجادين الذين سأوجه إليهم كتابي لن يكونوا قادرين بالضرورة على المخض الهينّ أو حتى أن يعرفوا ما هو ذلك المخض. وإنما سيكونون من أنصار مذهب المتعة. وفي الطعام والشراب، وفي كثير (لا جميع) غيرهما من الأشياء الأخرى، المتع البسيطة هي الأفضل، كما يعرف ذلك كل إنسان ذكي محب لنفسه. وقد تطوع «سيدني آسن» ذات مرة ليطلعني على مباهج نبيذ الكروم.

فرفضت باحتقار. فقد كان سيدني يمقت النبيذ العادي، ويظل تعساً إن لم يشرب نوعاً باهظ الثمن سُجِّل عليه التاريخ. لماذا ندمِّر في استهتار ذوق الإنسان الذي يميل إلى النبيذ الرخيص؟ (ولا أعني بهذا طبعاً الجعة التي لها مذاق الموز). وأحد أسرار الحياة السعيدة هو تلك الولائم الصغيرة المستمرة، وإذا أمكن أن تكون بعض هذه الولائم زهيدة التكاليف وسريعة الإعداد، كان ذلك أفضل. والحياة في المسرح تحول دون الولائم الكبيرة، ولم أكن قادراً في الماضي على أن أتناول طعامي دائماً على مهل، ولكنني تعلمت بكل تأكيد كيف أطهو بسرعة. وليس من شك أن طرائقي (وبخاصة استعمالي الحر لفتاحات العلب) قد تصدم الحمقى، وهناك أشخاص عديدون (معظمهم من الفتيات: جين ودوريس وروزماري وليزي) كانوا يحرِّضونني على نشر وصفاتي - كانوا يفعلون ذلك بشيء من المجاملة المقصود بها التسلية. مجرد اسمك سيعمل على رواج الكتاب، بهذا القول يعمدون إلى الإلحاح في غير كياسة. وقالت ريتا جيبونز ذات مرة: «وجبات تشارلز عبارة عن أكلات في نزهات».. أجل أكلات طيبة في نزهات بل أكلات عظيمة. واسمحوا لي أن أقول هنا إن ضيوفي بالطبع كانوا يجلسون دائماً على الموائد بعضهم في مواجهة البعض الآخر، وغير مرغمين على الاحتفاظ بتوازن أطباقهم فوق ركبهم، كما كانت لهم دائماً فوط السفرة الصحيحة، ولا أقدم لهم أبداً الفوط الورقية.

والطعام موضوع عميق، موضوع لا يكذب فيه الكاتب أبداً، وإني لأسائل نفسي من أين أخذت هذا الذكاء الرائع في تذوق الطعام؟ زوَّدتني طفولة شحيحة برعب من الطعام المُبَرَّد. وكنت أستمتع استمتاعاً تاماً بالطعام المتواضع المتاح لنا في منزلنا. وكانت أمي «طاهية جيدة عادية» غير أنها كانت تفتقر إلى تلك البساطة المُلْهِمة التي تعد في نظري جوهر الأكل الطيب. وأعتقد أن استنارتي جاءت - كما جاءت استنارة القديس أغسطين - اشمئزازاً من ضروب الإسراف. وعندما كنت مخرجاً صغيراً كنت من الحماقة والتبعية للتقاليد، بحيث أستضيف الناس في مطاعم

شهيرة. وتبينت تدريجياً أن الكميات المسرفة في الضخامة من الطعام الباهظ التكاليف، المقصود به التظاهر، والمتوسط الجودة في كثير من الأحيان - الذي يُقدَّم في الأماكن العامة - مثل هذا الطعام لم يكن لاأخلاقياً، ولا صحياً، ولا جمالياً فحسب، بل كان أيضاً خالياً من الاستمتاع. وفيما بعد كنتُ أقدِّم لضيوفي مُتَعاً بسيطة في منزلي Chez moi. أي شيء ألذ من التوست الساخن الطازج المدهون بالزبدة، مع إضافة سمك الرنجة عليه أو بدونه؟ أو البصل المقلي العادي مع قليل من اللحم البقري البارد إذا كان مرغوباً فيه؟ والپوريدج المطهية جيِّداً بالسكر المحروق والكريمة طبق يليق بالملوك. وحتى في هذه المرحلة من التحوّل، أخذ بعض الأشخاص الذين فسدت أذواقهم للأسف الشديد، أخذوا نزعتي الذكية هذه إلى اللذة على أنها شذوذ مصطنع، مجرَّد تحايل غريب الأطوار. (وأطلق عليها أحد الصحفيين اسم «ريح في شجر الصفصاف»). واعتبرها آخرون إهانة فعلاً.

ومهما يكن من أمر، فقد يكون ما دفعني حقاً إلى النفاذ خلال الأسطورية الزائفة «للمطبخ الراقي» هو حفلات الغداء بأكثر مما كانت المطاعم. وقد حاولت طويلاً - وبلا جدوى عادة - إقناع أصدقائي بألا يقوموا بالطهي بالأسلوب الفخم. وتبديد الوقت وحده أمر من قبيل العبث واللامعقول؛ وإن كنت أفترض أنه من الحق أن بعض النسوة سيئات الحظ لا يجدن ما يفعلن سوى الطهي. وهناك أيضاً ذلك الوهم القائل بأن الطهي المعقَّد أكثر «إبداعاً» من الطهي البسيط. وبالطبع (واسمحوا لي أن أكون واضحاً) أنا لست همجياً. غير أن طعام الريف الفرنسي، الذي ما برح المرء يجده من حين إلى آخر في تلك الأرض المباركة - جيِّد جداً، وإنما ترجع جودته إلى تراث وغريزة لا سبيل إلى انحسارهما. والمضيفة الانجليزية المحبة للادعاء لا تخطىء فحسب حين تأخذ التعقيد والطقوس على أنهما فضيلة، بل إنها تمارس أيضاً في كثير من الأحيان فنها الموهوم لمصلحة أولئك الذين لا يستمتعون إطلاقاً بالطعام، وإن كانوا - بكل

تأكيد - لا يعترفون بهذا العجز. ومعظم أصدقائي في المسرح كانوا عادة في حالة من الشرود حين يجلسون لأكل وجبة مهمة إلى درجة فقدان الشهية، وقلّما كانوا يعرفون - على كل حال - نوع الطعام المقدَّم أمامهم. لماذا يُنْفَق اليوم كله تقريباً لإعداد طعام لأناس يأكلونه (أو بالأحرى يلعبون به ويتركونه) وهم في تلك الحالة؟ والانسان الأكول الجاد شارب معتدل. كما أن الشهوة إلى الطعام تفسد في حفلات الغداء نتيجة للمحادثة المصطنعة. وأفضل ما يأمله المرء في تلك الحالة هو أن يحشر نفسه في ثقب من تلك «الثقوب» حيث ينهمك جاراه في موضوع آخر، ومن ثمَّ يستطيع أن يركِّز على الطبق الذي أمامه. كلا، لست من أنصار تلك المشاهد «الرسمية» التي تنتسب أكثر ما تنتسب إلى الغرور والتظاهر بالمكانة وإلى الإحساس الخاطىء «بالملكية» الاجتماعية، لا إلى غرائز الضيافة الصادقة. بل إن «المطبخ الراقي» يكبت كرم الضيافة ما دام أولئك الذين لا يستطيعون ممارسته، أو لن يقوموا بممارسته يتردَّدون في دعوة أنصاره خوفاً من الفشل أو الظهور بمظهر الوقاحة. إن أفضل طريقة لتناول الطعام تكون بين الأصدقاء الذين لا يأبهون لمثل تلك «الاعتبارات الاجتماعية»، أو بالطبع حين يكون المرء بمفرده تماماً. فأنا أمقت ما يكتنف حفلات الغداء «الفخمة» من زيف، حيث يكون هناك «مظهر» العلاقات الحميمة - وسط كل هذه القبلات المتبادلة - دون أن يوجد شيء منها في واقع الأمر.

بعد كل هذا الاستطراد، يبدو أن وصف المنزل سينتظر يوماً آخر. وقد أضيف هنا (كما سيتبيَّن ذلك فعلاً) أنني لست نباتياً. والواقع أنني آكل قليلاً جداً من اللحم، وأفزع من «آكل اللحوم في دار المشويات»، ولكن هناك بنود معيَّنة (مثل معجون الأنشوجة، والكبد، والسجق، والسمك) تحتلّ مواقع استراتيجية في نظامي للتغذية، ويؤسفني أن أعيش بدونها. وهنا تنتصر نزعة اللذة Hedonism على الإحساس الأخلاقي العنيد الذي يناضل عبثاً. وربما كان ينبغي عليَّ أن أقلع عن أكل اللحوم. ولكن الآن، بعد أن قطع الجدال هذا الشوط الطويل، لا أظنني سأفعل ذلك أبداً.

والآن، سأقوم بوصف المنزل. إنه يسمَّى «شراف إند» Shruff End (نهاية شراف). أما أنه «نهاية»، فذلك حق، إذ هو يجثم على قُنَّة تل صغيرة، لا تؤلِّف بالضبط شبه جزيرة، ولكنه ينتصب حقاً على الصخور نفسها. من ذلك المجنون الذي بناه؟ وربما كان تاريخ بنائه عام ١٩١٠. ولكن لماذا اختار كلمة «شراف» بالذات؟ سألت اثنين من أصحاب المعلومات المحليين القلائل: صاحبة المتجر، وصاحب حانة القرية، فقال كل منهما، دون أن يضيف المزيد لتفسير هذه التسمية - إن «شراف» shruff تعني «الأسود» (المشتقَّة على الأرجح من كلمة schwartz شڤارتس الألمانية). ولم أتمكَّن بعد من الكشف عن أي شيء يتعلَّق بتاريخ المنزل، فأنا لم ألتق أبداً بالشخص الذي اشتريته منه، ويوصف بأنه سيدة عجوز تُدْعى السيدة تشورني Chorney. أما الثمن فلم يكن منخفضاً، كما أرغمت على شراء الأثاث الذي لا قيمة له تقريباً، وبعض التركيبات. وإذا نظرنا إلى «شراف إند» بوصفه «منزلاً»، فإننا سنتبيَّنُ فيه عيوباً واضحة لم أتقاعس عن ذكرها لوكيل المنزل. إذ تغشاه رطوبة غامضة، وموقعه مكشوف ومنعزل. ولكنه - بحمد الله - مزوَّد بالمياه الجارية والصرف الرئيسي (عشت بدون هذين المرفقين في أمريكا)، وإن كان غير مزوَّد بالكهرباء وجهاز التدفئة. ويتم الطهي بالغاز. وهناك أيضاً بعض الغرائب في البناء سأصفها في الوقت المناسب. وكان الوكيل يستطيع - وقد علت وجهه ابتسامة - أن يتبينَّ أنني أحببت المكان، وأن هذه العيوب لا تعني شيئاً، ولهذا قال: «إنه شيء فريد، يا سيدي.» أجل، إنه فريد حقاً.

كان الموقع موحياً، وإن كان «جيراني» في القرية يلذ لهم أن يخبروني بأنه بارد عاصف في الشتاء. ولم يكونوا يدركون كم أتلهف إلى هذه العواصف، حين تضرب الأمواج الضارية بابي! ومنذ أن حضرت إلى هنا (انقضى الآن على ذلك عدة أسابيع قلائل) كان الجو هادئاً بصورة تدعو إلى الحزن. وبالأمس، كانت صفحة البحر ملساء بلا حراك بحيث حملت أسطولاً

بأكمله من الذباب الأزرق الذي بدا وكأنه يزحف فعلاً على التوتر السطحي. ومن النوافذ العليا المطلة على البحر (حيث أجلس في هذه اللحظة) كان المنظر يستغرقه البحر كله ولا شيء سواه، إلا إذا أطل المرء إلى تحت ليلمح الصخور السفلى. ومن النوافذ الواطئة يكون البحر - على كل حال - لا مرئياً، ولا يشاهد المرء سوى الصخور الساحلية، التي تشبه الفيلة في أحجامها وأشكالها، والتي تحيط بالمنزل. ومن الباب الخلفي الذي هو باب المطبخ - يخرج المرء إلى «الغيضة» الصغيرة المحوطة بالصخور، وهي تضم الحشائش الصبارية ونبات الزعتر. وهذه سأتركها للطبيعة. فلست على أي حال بستانياً. (هذه أول أرض أملكها في حياتي). وقد أمدَّتني الطبيعة هنا بمقعدٍ حجري، وضعت عليه وسائد، ووعاء صخري بجواره كنت أضع فيه الأحجار البديعة التي أجمعها؛ وذلك حتى يستطيع المرء أن يجلس على المقعد وأن يفحص تلك الأحجار.

ومن واجهة المنزل، ثمة ممر يفضي إلى طريق صخري منحدر الجانب، نوع من الجسر المتحرك الطبيعي يؤدي إلى الطريق المفخَّم باسم «طريق الساحل» وهو طريق مُسَفْلت (مُمَهَّد)، غير أنه من النوع الذي تميل الحشائش إلى النمو من منتصفه. وقلما تغشاه السيارات حتى في شهر مايو. ويجدر بي أن أضيف هنا أن أحد أسرار حياتي السعيدة هو أنني لم أرتكب خطأ تعلم قيادة السيارات. ولم أفتقر قط إلى أناس، هم عادة من النسوة - يشتاقون إلى توصيلي بسياراتهم حيثما أشاء. لماذا تحتفظ بالكلاب، إذا كنت أنت الذي ينبح؟ وتحت الطريق الصخري - وعلى كل جانب منه، تقوم بَرِّية من الصخور الصغيرة التي كدستها الطبيعة عشوائياً بعضها فوق بعض، ولكنها لا تؤدي إلى البحر. وهذا المنظر أقل جاذبية، ولا يخلو من عدد قليل من علب الصفيح الصدئة والزجاجات المكسورة التي ينبغي عليّ ذات يوم أن أهبط لإزالتها. وعبر الطريق تجثم الصخور الصفراء المحدودبة، وبعضها شديد الضخامة يظهر مرة أخرى بين

الحشائش الرطبة الشبيهة بالأسلاك، ووسط أدغال متوهجة بنبات الجَوْلق. وهناك أيضاً كمية كبيرة (لا أدري إن كانت من وضع الإنسان أم من صنع الطبيعة؟) من شجيرات الفوشيا الجلدية ومن الفيرونيكا الكثيفة، مزدهرة كلها، ونوع آخر أكثر جاذبية من المريمية ذات الأوراق الرمادية. وفيها وراء هذه «المجنبة» مرجة أشدّ قفارة، يغطّيها نبات الجولق والخَلَنج، وتحتوي على بِرَكٍ سَبِخَة خادعة تنبعث منها رائحة كريهة وتمتلىء بطحالب قاسية الخضرة، وضاربة إلى الاحمرار. غير أنني لم أستكشف بعد هذا البلد الداخلي. ولست من «المشائين الكبار»، كما أنني مستغرق وقانع بفردوسي البحري. وفوق هذه المرجة، وعلى بعد ميل ونصف الميل من «شراف إند» يقع أقرب مكان للسكنى، ويُدْعى «مزرعة أمورن»، ومن نوافذ الواجهة العليا أستطيع أن أرى أنوارهم ليلاً.

ولو أنك تابعت الطريق الساحلي إلى اليمين لوجدته ينحرف مستديراً إلى الخليج الثاني الذي لا يُرى من أراضي «شراف إند»، إلا إذا صعدت البرج الرابض على قُنّة التل. وعلى مسافة ثلاثة أميال أو أربعة تقع مؤسسة تسمّى «فندق ريفن» (فندق الغراب الأسحم) Raven Hotel، وهو مكان تخالجني نحوه مشاعر مختلطة إذ هو مكان على شيء من الإدعاء الذي يجتذب السيّاح. والخليج نفسه غاية في الجمال إذ تحفه جلاميد تكاد تكون كروية الشكل. ويُعْرف محلياً باسم «خليج ريفين» Raven Bay (خليج الغراب الأسحم) على اسم الفندق وإن كان له اسم آخر، شيء ينطقونه «شاهور» Shahor باللهجة المحلية (خليج الشاطىء؟ لماذا؟). فإذا تابعه المرء على اليسار من «شراف إند» وجد طريق الساحل يمر من خلال شِعْب ضيق غريب سمّيته «ممر خيبر»، حيث تقطع الطريق صخرة ضخمة بارزة تغزو الأرض في هذه النقطة إلى مسافة كبيرة. ووراء هذه الصخرة يمتد شاطىء صخري صغير جداً، وهذا هو الشاطىء الوحيد في المنطقة، إذ ترتطم المياه العميقة بالصخور في أية حالة من حالات المد، وهي سمة

اجتذبتني أصلاً إلى هذا الساحل. وفيما وراء الشاطىء، هناك طريق للسابلة يفضي عمودياً إلى القرية التي تتوغل قليلاً في الداخل، غير أن المرء - إذا مضى متابعاً للطريق - يصل إلى مرفأ صغير آية في الجمال له رصيف حجري ملتو مشيَّد بطريقة فخمة ولكنه امتلأ كله بالطمي، فأصبح مهجوراً تماماً. وقد استنتجت أن قوارب الصيد اعتادت أن ترسو على هذا الرصيف، ولكن عملية الصيد لا تمارس الآن إلاّ من ناحية الشمال: وأحياناً أشاهد هذه الزوارق على شريطي الآخر الخالي من البحر. وفيما وراء المرفأ نحت في الصخر منحدر مسطَّح طويل، وعريض تماماً، ليؤلف ما يعرف باسم «حمَّام السيدات». بيد أنني لم ألمح سيدة واحدة هناك، بل رأيت من حين إلى آخر بعض الفتيان. (السكان المحليون قليلاً ما يسبحون؛ ويبدو أنهم ينظرون إلى هذا النشاط بوصفه ضرباً من الجنون). والواقع أن «حمَّام السيدات» قد غمرته الآن الأعشاب البنِّية الزلقة، وتناثرت فيه الجلاميد التي لفظها البحر بحيث لم يعد «أكثر أمناً» من أي مكان آخر. وهكذا أصبح طريق الساحل هنا مساراً (مناسباً للسيارات، لسوء الحظ) يتسلق للوصول إلى منطقة وحشية لم يتح لي استكشافها حتى الآن، وحيث تتحول صخوري الصفراء إلى منحدرات صخرية فاتنة ذات ضخامة هائلة. أما الطريق المسفلت فينعطف إلى الداخل متجهاً إلى القرية الرابضة وراء ذلك.

هذه القرية تسمى «نارودين» Narrowdean (ومعناها الوادي الضيق). والشكل القديم للاسم كان Nerodene، وما زال هناك مَعْلَم أنيق على طريق الساحل يحتفظ بهذا الهجاء. ويضم المكان الصغير قليلاً من الشوارع تتألف من أكواخ مشيدة بالحجارة، وبعض الشاليهات البحرية القائمة على سفح الجبل، وحانوت عام واحد. ولم أستطع الحصول على نسخة من التايمز، أو أية بطاريات لاستعمال جهازي الترانزستور الذي استهلك بطاريته، غير أن هذا لم يزعجني كثيراً، كما لم يضايقني عدم وجود محل

جزارة على الإطلاق. وهناك حانة واحدة تسمى «الأسد الأسود». والأكواخ ساحرة، مبنية على نحوٍ متماسك بالصخور المحلية الصفراء، والمبنى الوحيد الذي يثير اهتماماً معمارياً خاصاً هو الكنيسة، فهي بناء بديع يرجع إلى القرن الثامن عشر ويضم رواقاً (چاليري). ولست بالطبع من المترددين على الكنيسة، بيد أنني سعدت لإقامة الشعائر الدينية، وإن لم يكن ذلك سوى مرة واحدة في الشهر. والكنيسة جيدة الصيانة وتزوَّد بالزهور على نحوٍ منتظم، وصوت الأجراس البعيد الذي يتناهى إلى سمعي أحياناً يأتي على ما أظن من قرية أخرى مشابهة في الصغر، تقع في الداخل وراء «مزرعة أمورن» حيث يزداد الريف رقة ولطفاً، فترعى فيه الماشية. ولا وجود في «نارودين» لبيت مخصص للقسيس، أو قصر لمالك القرية. وليس معنى ذلك ـ إطلاقاً ـ أن شطراً من خطتي كان يرمي إلى مخادنة القسيس أو المالك! كما سررت كثيراً حين لم يصادفني أحد من «المثقفين» في هذا المكان، وهي مصادفة تحدث في كل مكان هذه الأيام. وأعود إلى الكنيسة فأقول إنها تضم «مقبرة بحرية» أشد ما تكون جاذبية، مما يدل على أن هذه القرية «ذات الحصان الواحد» تمتلك ماضياً أكثر رحابة مما يتوقع المرء. وكثير من شواهد القبور يحمل نقوشاً لسفن شراعية، ومزخرفة بأشكال من المراسي (حجر مرساة)، والحيتان البديعة على نحو غريب. أكان الناس يصطادون الحيتان من هذا المكان؟ واسترعت نظري إحدى الصخور. إذ كانت تحمل «مرساة غريبة» بديعة، وعليها نقش بسيط: «دامي Dummy ١٨٧٩ ـ ١٩١٨». وحيَّرني هذا كله حتى أدركت أن «دامي» هذا لا بد أن يكون بحاراً أصم أبكم لم يستطع أبداً أن يحدد هويته بصورة أخرى.. فيا له من مسكين!.

فلنعد الآن مرة أخرى إلى «شراف إند». أظن أن الواجهة التي تشرف على الطريق ليست في حد ذاتها شيئاً يسترعي النظر، غير أن موقعها الموحش متنافر على نحو غريب. فالمنزل عبارة عن ڤيلا مبنية بالطوب الأحمر وذات واجهة مزدوجة، مع نوافذ بارزة في الطابق الأرضي، وقمَّتين على

السطح. وقوالب الطوب داكنة الحمرة؛ ومن النادر أن يسترعي الأنظار في ضاحية من ضواحي برمنجهام، غير أن قيامه منفرداً على هذا الشاطىء الموحش، يضفي عليه مظهراً غريباً بكل تأكيد. وقد تحطمت خلفيته بالحصى تحطيماً مروِّعاً، بفعل الطقس دون ريب. ويستطيع الخبير أن يؤرخ المنزل اعتماداً على ستائر النوافذ الحائلة اللون التي بقيت في كل حجرة تقريباً، وفي حالة ممتازة بوصلاتها الخشبية المنزلقة على الحبال الرفيعة، وشُرَّاباتها الحريرية، وحوافها ذات الشرائط المزركشة عند القاع. وحين تسدل هذه الستائر، يتخذ «شراف إند» - منظوراً إليه من الطريق - مظهراً سحرياً من الغموض الراضي عن نفسه، في حين أنه - من الداخل - يذكِّرني الضوء الأصفر الذي يلفّ الحجرة «المسدلة الستائر» تذكيراً حزيناً بطفولتي، لعلّه أشبه بالجو الشائع في منزل جدِّي في لنكولنشاير.

أما الحجرات ذات النافذتين البارزتين فقد سميتها: حجرة الكتاب (حيث وضعت صناديق كتبي دون أن أفتحها بعد)، وحجرة الطعام التي قمت فيها بتخزين خموري، غير أنني أعيش بأكملي في الجانب البحري من المنزل، في الطابق العلوي، في حجرة نومي التي أعتزم تسميتها بحجرة الجلوس، وفي الطابق السفلي، في المطبخ، وفي حجرة صغيرة ملحقة به، أسميها «الحجرة الصغيرة الحمراء». وهنا توجد مدفأة جيدة تحمل آثاراً من نيران اشتعلت بالخشب، ومدفأة محترمة من المامبو، ومقعد بمساند من المامبو أيضاً. وعلى الجدران، ألواح خشبية بيضاء في شطرها الأسفل، وفوقها طلاء أحمر بلون الطماطم، وهذه لمسة غريبة لا يضارعها أي مكان آخر في المنزل. والمطبخ، بموقده الغازي - مرصوف بأضخم صفائح من الأردواز وقعت عليها عيناي. ولا توجد ثلاجة كهربائية بالطبع، وهذا شيء محزن لشخص من أكلة الأسماك. وهناك مخزن كبير مليء بسوس الخشب. وتميل كل الأعمال الخشبية الموجودة في الطابق الأرضي إلى الرطوبة. وقد رفعت بعض اللينوليوم الذي فرشت به أرضية القاعة واستبدلته برعشة، إذ

انبعثت منه رائحة مالحة. أيكون من المتصور أن البحر يرتفع من خلال قناة خفية تحت المنزل؟ لقد كان ينبغي عليّ - على ما أظن - أن أتلقى تقريراً من خبير في المساحة، غير أنني كنت في عجلة شديدة من أمري. وهناك جرس آلي من الطراز القديم عند واجهة الباب بمقبض من النحاس، وسلك طويل، هذا الجرس يرن في المطبخ.

وأعجب شيء في المنزل، والشيء الذي لم أستطع أن أهتدي إلى تفسير عقلاني له، هو أنه في الطابق الأرضي، وفي الطابق الأول توجد «حجرة داخلية»، وأعني بهذا أنه بين الحجرة الأمامية والحجرة الخلفية توجد حجرة بلا نافذة خارجية، وإنما تضاء بنافذة داخلية تطل على الحجرة البحرية المجاورة لها (حجرة الجلوس في الطابق العلويّ، والمطبخ في الطابق السفلي)، وهاتان الغرفتان الداخليتان العجيبتان تسودهما ظلمة مطبقة، كما أنها خاليتان تماماً، فيما عدا أريكة كبيرة غائرة في الحجرة السفلية، ومنضدة صغيرة في الحجرة العلوية، حيث يوجد حامل حديدي مزخرف لمصباح، وهو الحامل الوحيد في المنزل. وبالطبع، لن أشغل هاتين الحجرتين؛ وبإزالة الجدران فيما بعد، يمكن أن تقوما بتوسيع حجرة الجلوس، وحجرة الطعام. والحق أن المنزل قليل الأثاث، كما أنني لم أجلب إليه إلّا قليلاً من الأثاث الذي أملكه (هناك سرير واحد فحسب، إذ إنني لا أتوقع زوّارا!) وهذا الخواء يلائمني؛ فأنا على خلاف جيمس، لست جامعاً للأشياء أو مكدِّساً لها. بل إنني أصبحت مغرماً ببعض الأشياء التي شكوت كثيراً من اضطراري إلى شرائها. وأرتبط ارتباطاً خاصاً بمرآة بيضاوية كبيرة في القاعدة. ويبدو أن أشياء السيدة تشورني «منتمية»؛ والواقع أن ممتلكاتي - وهي قليلة - هي التي تبدو لا منتمية إلى هذا المكان. وقد بعت كثيراً من الأشياء حين غادرت شقتي الكبيرة في بارنز، ونقلت معظم ما تبقى في حجرة بدروم صغيرة في «شبردز بوش» Shepher's Bush (دغل الراعي) حيث ألقيت بها جزافاً وأوصدت الباب. وأشعر بالفزع كلما فكرت في العودة إلى هناك. بل لا أستطيع أن أفكر لماذا أضايق نفسي بالاحتفاظ

بقاعدة لي في لندن على الإطلاق؛ كل ما في الأمر أن أصدقائي أوصوني بأنه «ينبغي» أن تكون لي واحدة.

وأقول «أصدقائي»: ولكن ما أقلهم حقًّاً بعد أن أفنيت عمري في المسرح! كم يستطيع المسرح أن يبدو ودوداً «دافىء القلب»، وما أشد جفاءه في واقع الأمر! أصدقائي العظام افترقوا عني: كليمنت ماكين ماتت، ولفرد دانِنج مات، سيدني آسن رحل إلى ستراتفورد، أونتاريو، فريتزي آيتل نجح في كاليفورنيا وأخفق فيها. وبقيت حفنة ضئيلة: بيري، وآل، وماركوس، وجيلبرت، وما تبقّى من الفتيات... لقد بدأت بالهذيان... الوقت مساء، والبحر الذهبي ترصِّعه نقاط بيضاء من النور، يلعق الشاطىء بنوع من الرضا الآلي عن الذات تحت سماء خضراء شاحبة. ما أضخمه! وما أشد خواءه، هذا الفضاء الرحب الذي اشتَقْتُ إليه طيلة حياتي كلها!.

وحتى الآن، لم تصلني أية خطابات.

البحر اليوم أشد صَخَبَاً، وطيور النورس تعالى صياحها. والحق أنني لا أحب السكون إلا في المسرح. والبحر ثائر، وزرقته قاتمة تعلوها أعراف بيضاء.

ذهبت أبحث عن الأخشاب التي تقذفها الأمواج حتى بلغت الشاطىء الصخري الضيق. وكان المد منخفضاً، ومن ثمَّ لم يكن في مقدوري السباحة بعيداً عن سلَّم البرج؛ وحتى أتمكن من تثبيت بعض المقابض، لن أغادر «صخرتي» إلا في الطقس الهادىء. عُمْت على الشاطىء، غير أن سباحتي لم تكن ناجحة، فالحصى قد جرح قدميّ، كما وجدت مشقة شديدة في الخروج، إذ كان الشاطىء يتحدَّر والأمواج لا تكف عن قذفي بالحصى. رجعت شاعراً بالبرودة ساخطاً -حقاً، وقد نسيت الأخشاب التي جمعتها.

والآن، أتناول غدائي (شوربة عدس، تتلوها شرائح من السجق بالبصل المغلي والتفاح المطهي في الشاي، ثم حبات من المشمش المجفف، وبسكويت الكعك: بوجوليه خفيف)، وأشعر بتحسن (المشمش الطازج أفضل بالطبع، غير أن الصنف المجفف المنقوع لمدة أربع وعشرين ساعة، والمجفف جيداً يؤلف مصاحبة رائعة لأي نوع من البسكويت المعتدل الحلاوة أو للكعك. كما أنه يطيب بوجه خاص مع أي شيء مصنوع من اللوز، ومن ثمّ يتناغم في سعادة مع النبيذ الأحمر. ولست صديقاً حميماً للخوخ، ولكنني أظن أن المشمش هو ملك الفاكهة).

سأذهب الآن لشيء من الراحة في فترة القيلولة.

أقبل الليل. مصباحان زيتيان يخرخران في خفوتٍ شديد، ويلقيان ضوءاً هادئاً ناعماً على السطح المليء بالخدوش والبقع لشيء كان يوماً منضدة بديعة من خشب الورد، ومن الأملاك السابقة للسيدة تشورني. هذه هي المنضدة التي أعمل عليها عند نافذة غرفة الجلوس، وإن كنت أستخدم أيضاً المنضدة الصغيرة القابلة للطيّ التي أحضرتها إلى هنا من «الحجرة الداخلية» لكي أضع عليها الكتب والأوراق. وكان لا بد لي من إغلاق النافذة حتى لا تتسرب الهوام إلى الحجرة، إذ كانت هذه الهوام ضخمة الحجم وذات أجنحة بيج وبرتقالية، وتقتحم الحجرة كأنها هليوكوبترات (حوامات) صغيرة. والمصابيح ـ وعددها الإجمالي أربعة وفي حالة جيدة للاستعمال ـ من أملاك السيدة تشورني أيضاً ـ وهي مصابيح أنيقة من الطراز القديم، ثقيلة نوعاً ما، ومصنوعة من النحاس وتعلوها مظلات زجاجية أنيقة معتمة. وقد تعلمت السيطرة على المصابيح الزيتية في الولايات المتحدة الأميركية، في ذلك الكوخ الذي كنت أقطنه مع فريتزي. وكان في الطابق الأرضي سخانان يشتعلان بزيت البارافين، وما برحا سراً، على كل حال. ولا مناص من الحصول على سخانات جديدة قبل حلول الليالي الأشد برودة. وكانت الليلة الماضية باردة بما فيه الكفاية، فحاولت

أن أشعل النار بخشب الطفو في الحجرة الصغيرة، غير أن الخشب كان رطباً جداً، فأَرْسلت المدفأة دخاناً كثيفاً.

أعتقد أنني سأعيش في الطابق الأرضي عندما يقبل الشتاء. ما أشد تطلعي إلى هذا الفصل! وما برحت حجرة الجلوس أشبه بنقطة استطلاع منها بحجرة. إذ تسودها مدفأة خشبية طويلة مطلية باللون الأسود، مع مقدار كبير من الرفوف الصغيرة التي تحمل مرايا صغيرة فوقها. لا ريب أنها كانت هواية لأحد الجامعين، وإنها لتبدو أقرب إلى محراب تتعبد فيه طائفة سحرية (وعليها أيضاً ذلك الكتاب الشرقي عن الخضراوات).

قبل أن أشعل المصابيح هذه الليلة، أمضيت وقتاً طويلاً محدِّقاً في ضوء القمر دون أن أفعل شيئاً آخر سوى هذا التحديق، فهو دائماً مبعث دهشة وحبور لساكن القرى. وهو الآن على درجة من السطوع فوق الصخور بحيث أستطيع أن أقرأ فيه. كل ما في الأمر ـ وهذا شيء غريب بما فيه الكفاية ـ أنني لا أجد من نفسي دافعاً إلى القراءة منذ أن أقمت هنا. هذه علامة طيبة. إذ يبدو أن الكتابة قد حلت محل القراءة. غير أنني أبدو أيضاً مؤجلاً باستمرار اللحظة التي ينبغي أن أبدأ فيها في تقديم نفسي تقديماً رسمياً. (وُلِدْتُ في انعطافة القرن، في بلدة كذا. . أو حيثما كان). سيتاح لي الوقت والدافع الكافيان للكتابة عن حياتي عندما أتمكن من توليد سحابة كافية من التأمل. فما زلت خجولاً من عواطفي، خجولاً من القوة العارمة التي تنطوي عليها بعض الذكريات. بل إن مجرد حكاية أعوامي مع كليمنت يمكن أن تملأ مجلداً.

إن وعيي لشديد بالمنزل القائم هادئاً حولي. استعمرت بعض أجزائه، بينما بقيت منه أجزاء أخرى غريبة عني ومعتمة في عناد. قاعة المدخل مظلمة لا معنى لها، فيما عدا حضور المرآة البيضاوية الضخمة التي أشرت إليها آنفاً. (هذا الشيء الأنيق يبدو أنه يتوهج بنوره الخاص). كما أنني لا أحب درجات السلَّم بتاتاً. (أرواح من الماضي تحوم حول السلالم).

وهذه الدرجات تؤدي عن طريق سلّم ضيق فرعي في المنتصف ـ إلى حمّام واسع يبعث على الدهشة، ويواجه الطريق، ومنه ـ خلف باب صغير غريب ـ يفضي مزيد من الدرجات إلى القبو. ويضم الحمّام مربعات أصيلة جيدة من القيشاني تمثل بجعاً وزنابق متماوجة. وفيه حوض للاستحمام (بانيو) كثير البقع تحمله مخالب الأسود، ومزود بصنابير نحاسية ضخمة ممتازة. (وعلى كل حال ليس هناك جهاز لتسخين الماء! وأظن أن وجود حوض للاستحمام في دولاب للأواني في الطابق الأرضي يمثل حقيقة الموقف). وهناك أيضاً ملحوظة مكتوبة بخط قاري Continental تعطي تعليمات مفيدة عن كيفية استعمال دورة المياه. وتنعطف درجة السلم الرئيسية لتصل إلى فضاء البسطة العليا. وأسمي هذا «فضاء»، لأنها منطقة غريبة نوعاً ما، ولها طابع خاص بها، وكأنها جهاز مسرحي. وأشعر أحياناً أنني رأيتها منذ زمن بعيد في حلم من إحلامي. فهي على شكل مستطيل ضخم بلا نوافذ، تضاء أثناء النهار من خلال الأبواب المفتوحة، ويُزيِّنها ـ في مقابل «الحجرة الصغيرة» مباشرة ـ حامل من البلوط الصلد تنتصب عليه آنية ضخمة خضراء قبيحة بشكل خاص، ذات عنق سميك وحافة مروحية وتتدلى على جانبيها ورود حمراء. وقد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بهذا الشيء الضخم. ووراء هذه الآنية توجد فجوة ضحلة تبدو وكأنها ينبغي أن تضم تمثالاً، ولكنها وهي خاوية تشبه باباً. وبعد ذلك تأتي أشد سمات البسطة فتنة: مدخل مقوَّس يحتوي على ستار من الخرز. ولا يختلف هذا الستار عن الستائر التي تذود الذباب في حوانيت بلدان البحر الأبيض المتوسط. والخرزات مصنوعة من الخشب ومطلية بالأصفر والأسود، وتنبعث منها خشخشة خفيفة حين يمر من خلالها أحد. وبعد المدخل المقوَّس تأتي أبواب حجرتي للنوم، وحجرة الجلوس.

حان وقت النوم. ومن خلفي ترتفع النافذة الأفقية الطويلة عدة أقدام في الجدار الذي يؤدي إلى «الحجرة الداخلية». وعند نهوضي ألفيت نفسي

مُكْرهاً على النظر نحوها، مشاهداً وجهي منعكساً في الزجاج الأسود كما ينعكس في مرآة. ولم أكن قد عانيت قط من المخاوف الليلية. وأستطيع أن أتذكر أنني لم أَخْش أبداً من الظلام أثناء طفولتي. وأقنعتني أمي في وقت مبكر أن الخوف من الظلام خرافة لا يعانيها أولئك الذين يتوكلون على الله. ولم أكن بحاجة إلى أن يحميني الله، إذ كان والديّ هما الدفاع المُطلق ضد كل فزع. وليس معنى ذلك أنني كنت أجد «شراف إند» «مفزعة» بحال من الأحوال. وإنما كل ما في الأمر ـ وهذا ما خطر لي الآن بغتة ـ هو أن هذه هي المرة الأولى في حياتي أجد فيها نفسي وحيداً حقاً أثناء الليل. بيت طفولتي، الجولات المسرحية في الأقاليم، شقق لندن، الفنادق، الشقق المأجورة في عواصم البلاد: عشت حياتي دائماً في خلايا النحل، محوطاً بالحضور الإنساني وراء الجدران. وحتى عندما عشت في ذلك الكوخ (مع فريتزي) لم أكن وحدي أبداً. وهذا أول منزل أقتنيه، وأول وحدة حقيقية أستقر فيها، أليس هذا هو ما أردته؟. المنزل حافل طبعاً بأصوات قرقعة خفيفة متوترة، وحتى في أية ليلة تخلو من الرياح يمتلىء أي منزل قديم بهذه الأصوات، والتيارات تهب خلاله من أطر النوافذ ذات الفجوات والأبواب غير المُحْكمة. وهكذا أستطيع أن أتخيل وأنا راقد في فراشي أثناء الليل ـ أنني أسمع وقع خطوات ناعمة في القبو الذي فوقي، أو أن ستار الخرز المُسدل في البسطة يخشخش في هدوء لأن شخصاً تسلل من خلاله.

لعل هذه أن تكون لحظة حمقاء.. أن أختار في هذا الوقت المتأخر من الليل تناول هذا الموضوع، غير أنه اقتحم رأسي بغتة وبقوة. وقد يتساءل القارىء ـ إن كان هناك قارىء ـ لماذا لم أشر مرة أخرى إلى «التجربة المرعبة» التي عانيتها هنا بجانب البحر دون أن أستطيع إقناع نفسي بوصفها. ربما يبدو الآن أنني «نسيتها»؛ والواقع أنني أعتقد ـ على نحوٍ غريب ـ أنني نسيتها: وهو اتجاه ربما قام دليلاً على نظرة ممكنة إلى الظاهرة. فلتسمح لي الآن بوصف ما حدث.

كنت جالساً ـ وهذا الدفتر بجانبي ـ فوق الصخور التي تعلو «صخرتي» مباشرة، أتأمل صفحة المياه فحسب. وكانت الشمس ساطعة والبحر ساجياً. (كما وصفت ذلك في الفقرة الأولى من دفتري). وقبل هذا بقليل كنت أنظر بإمعان في بِرْكة صخرية، أراقب دودة طويلة من ديدان البحر، طويلة يميل لونها إلى حمرة خفيفة يكسوها شعر كثيف استجمعت نفسها في عدة لفات غريبة قبل أن تختفي في جحر. اعتدلت في جلستي، وأقررت نفسي في مواجهة البحر، وأخذت عيناي تطرفان في ضوء الشمس. ثم بعد دقيقتين تقريباً، دون أن يحدث ذلك دفعة واحدة، بينما اعتادت عيناي على الوهج شاهدت مسخاً يصعد من الأمواج.

لا أستطيع أن أصف هذا بصورة أخرى. فمن بحر هادىء خاوٍ تماماً، وعلى بُعْد رُبْع ميل (أو أقل) رأيت مخلوقاً هائلاً يشق سطح الماء، ويصعد مقوِّساً نفسه إلى أعلى. بدا لأول وهلة مثل أفعوان أسود، ثم تبع العنق المتطاول جسد طويل سميك بظهرٍ مضلَّع شوكي. وكان هناك شيء لعله زعنفة أو ذراع. لم أكن أستطيع أن أرى المخلوق بأكمله، غير أن بقية جسده، أو ربما كان ذيلاً طويلاً، أخذ يحرك المياه المُزْبدة حول القاعدة التي ارتفع منها الآن من البحر إلى ارتفاع عشرين أو ثلاثين قدماً (على ما يبدو). والتف هذا الكائن حول نفسه بحيث انعقدت الرقبة الطويلة مرتين، لتنخفض الآن بالرأس البارز إلى ما فوق سطح البحر. وكنت أستطيع أن ألمح السماء من خلال تلك الالتفافات. كما استطعت أن أرى الرأس بجلاء مبين، إنه نوع من رأس أفعوان يعلوه عُرْف، أخضر العينين، فاغر الفم ليكشف عن الأسنان وعن حَلْق أحمر اللون. وكان الرأس والعنق يلتمعان بألق أزرق. وفي لحظة واحدة، تداعى ذلك الشيء كله، وسقطت اللفات، وما فتيء الظَّهر المتموِّج يشق الماء، وأخيراً لم يتبق شيء سوى بركة هائلة مزبدة دوَّامة اختفى فيها ذلك المخلوق.

كانت الصدمة والرعب الذي أحدثته من الشدة بحيث لم أستطع أن أتحرك

زمناً طويلاً. أردت أن أعدو بعيداً، فقد كنت أخشى أكثر من أي شيء آخر أن يعود الحيوان إلى الظهور بأقرب من ذلك إلى الأرض، وربما ظهر مرة أخرى عند قدميّ. غير أن ساقيّ توقفتا عن العمل، وأخذ قلبي يخفق بعنف، بحيث أن أي مزيد من الجهد كان كافياً لكي أفقد وعيي. وثاب البحر إلى هدوئه، ولم يحدث شيء آخر. وأخيراً نهضت من مجلسي، وسرت متمهلاً عائداً إلى المنزل. صعدت إلى الطابق الأعلى، ودخلت حجرة الجلوس حيث جلست فترة من الزمن وأنا أتنفس بعناية وأمسك بقلبي. وما كنت أحتمل اتخاذ موقعي المعتاد عند النافذة، ومن ثم فقد جلست إلى المنضدة الصغيرة المقابلة لجدار الحجرة الداخلية، مستنداً برأسي إلى الحائط. وبعد انقضاء نصف ساعة تمكنت من كتابة ما يظهر الآن بوصفه الفقرة الثانية في دفتر المذكرات هذا.

وفي غضون هذا الوقت، عندما تمالكت نفسي وتنفست وارتجفت، تمكنت تدريجياً من «التفكير» فيما حدث. لقد عاد التفكير، التفكير العقلاني الذي كان قد استؤصل تماماً ـ عاد رويداً رويداً إلى نجدتي. شيء ما قد حدث، وللأحداث تفسيرات. وتواردت أمامي تفسيرات عدة ممكنة، وما إن شرعت في إحصائها وتصنيفها وربطها حتى واتاني شيء من الارتياح، وانحسر عني ذلك الرعب الرهيب الذي لم يكن قابلاً للتصور. كان من الممكن أن أكون قد تخيلت «ببساطة» ما رأيتُه. غير أن المرء لا يمكن ـ بالطبع ـ أن يتخيل ببساطة شيئاً مفصَّلاً ومرعباً إلى هذا الحد. واسترعى نظري فيما بعد بوصفه شيئاً ذا دلالة أن هذا المخلوق ظهر لي في الحال على أنه مخيف تماماً بدلاً من أن يكون باعثاً على الدهشة أو حتى على الاهتمام. كنت خائفاً على نحوٍ مفرط. وأنا شارب معتدل للخمر، ولست ـ بكل تأكيد ـ شخصاً غير متزن، أو «خيالياً» إلى حد الجنون. وثمة إمكانية أخرى وهي أنني شاهدت ـ «ببساطة» مرة أخرى ـ وحشاً غير معروف للعلم. هذا مجرد شيء ممكن. أو: أكان ما رأيته أفعواناً مائياً هائل الحجم

بصورة مطلقة؟ وهل يمكن أن يوجد مثل هذاالأفعوان المائي؟ وهل تخرج الثعابين من البحر وتجْدل نفسها في لفّات وتتوازن عالياً في الهواء؟ لم أكن أستطيع أن أتصور بفكري أن هذا الشيء كان أفعواناً مائياً، ذلك شيء مستحيل. لقد كان له جسد حقيقي، وقد رأيت ظهره. وكنت على يقين أيضاً من أنني لم أشاهد مجرد أفعوان مائي - أياً كانت ضخامته - مثل هذا الوحش الملتف الذي نظرت من خلاله إلى السماء.

إلى أي حدٍ كان الحيوان بعيداً، وإلى أي ارتفاع صعد من الماء؟ وكلما أمعنت في التفكير، لم أعد متأكّداً كل التأكيد من انطباعاتي الأولى، وإن ظللت متأكداً أنني أبصرت شيئاً غريباً للغاية. أما التفسيرات التي تنحصر في أن ما رأيته لم يكن سوى أعشاب بحرية طافية، أو خشباً بارزاً، فكانت مستبعدة. وفحصت إمكانية أخرى. قبل أن أرى هذا الوحش الهائل مباشرة كنت أفحص عن كثب في البركة الصخرية حيواناً صغيراً، الدودة الحمراء الكثيفة الشعر التي ظهر جسمها الملتوي - الذي لا يزيد عن خمس أو ست بوصات - ضخماً في مكان البركة المنحصر. أمن الممكن أنه من خلال ميكانيزم بصريٍّ صرف، حيلة غير عادية من شبكة العين، «أسقطتُ» صورة الدودة على صفحة البحر؟ هذه فكرة شائقة، ولكنها غير معقولة تماماً، لأن الدودة الحمراء لا تشبه في شيء الوحش الأسود الضارب إلى الزرقة إلا من حيث أن كلاً منهما تَضَفَّرَ في لفّات. وفضلاً عن ذلك، لم أسمع قط عن شيء مثل هذه «الحيل السينمائية» تقوم بها شبكة العين. واسترعى انتباهي أيضاً أنني كلما أوغلت في التفكير تبيَّنت أنني أتذكَّر ذلك المخلوق بوضوح لا مزيد عليه، على حين أنني شعرت في الوقت نفسه بأنني لا أستطيع تحديد المسافة التي كان بها بعيداً عني.

والحل الذي أعتقد الآن أنه أكثر احتمالاً، وإن كنت لا أعلم أنني سأظل أفكر فيه على هذا النحو أم لا، فذلك أمر سننظر فيه فيما بعد - هذا الحل هو هذا، وأنا أسجله بشيء من الخزي. أنا لست سكيراً ولا مدمناً

للمخدرات. ونادراً ما أتعاطى المشروبات الروحية، وقد دخّنت «الحشيش» مصادفة في أميركا. ومع ذلك، في مناسبة ما منذ أمد بعيد، كنت من الحماقة بحيث أخذت جرعة من مخدر الـ «L S D» (فعلتُ ذلك لإدخال السرور على امرأة) فانتابني ما يعرف بأنه «رحلة سيئة». وكانت رحلة سيئة جداً. ولن أحاول أن أصف ما عانيته في تلك المناسبة البشعة المخزية (وإنما سأضيف فحسب: أنها تتعلق بالأحشاء. والواقع أنه من الصعوبة إلى غير حد، بل من المحال، التعبير عنه في ألفاظ. . كان شيئاً أخلاقياً روحياً مروِّعاً وكأن عفونة المرء في الداخل قد ظهرت وأصبحت الكون كله: فيض متدفق من الشر الروحي الأسود آخذ في التشكل، شيء لا سبيل إلى الفرار منه إطلاقاً وإلى الأبد. وأتذكر كلمة «لا انفصام له» وهي كلمة «جاءت عابرة» مع الانطباع الذي يمثّلها. والواقع أن الصور البصرية المرتبطة بهذه التجربة كانت واضحة بشكلٍ مخيف، كما كانت صوراً متسلطة وتنتصب أمامي الآن في هذه اللحظة، ولن أكتب عنها. لم أتناول - بالطبع - عقار L S D بعد ذلك أبداً. ولم تظهر عليّ أية أعراض بَعْدية After - Effects ومن رحمة الله أنني بدأت بعد فترة قصيرة في نسيان التجربة على النحو الهادىء الذي ينسى به المرء حلماً. ومع ذلك، فمن الممكن، بل ربما كان من المعقول، أن أفترض أن وحش البحر الذي «أبصرته» لم يكن سوى هلوسة نتجت عن تجربتي الوحيدة الطائشة مع ذلك المخدر الرهيب.

ومن الحق أن الوحش الملتف حول نفسه الصاعد من البحر لم يكن يشبه ما رأيته في المناسبة الأولى، كما لم يكن يشبه في شيء الدودة الحمراء التي شاهدتها في البِرْكة. غير أن شعور الفزع كان متماثلاً من حيث الكيفية، أو على أي حال بدأ يبدو كذلك بعد التجربة نفسها فوراً. وكذلك تبدو لي الآن كيفية الميل إلى النسيان متماثلة في كلتا الحالتين. فمن الممكن أن تعود رحلة سيئة على هذا النحو، كما قيل لي. فيا أيها القراء، خذوا حذركم. ومهما يكن من أمر، يجب أن أعترف بأنني عندما أفكر في الأمر برمته في هذه

اللحظة، فإن أقوى دليل على صحة هذا التفسير هو اللامعقولية التامة للتفسيرات الأخرى جميعاً.

قلبي يدق بعنف مرة أخرى. ينبغي أن أذهب للفراش. ربما كان يجب عليّ أن أنتظر صباح غد لأروي هذه القصة. سآخذ قرصاً منوِّماً.

انقضى يومان على ما كتبته آنفاً. نمتُ جيداً بعد أن كتبت عن الوحش الذي ظهر لي، وما زلت أعتقد أن تفسيري هو التفسير السليم. على كل حال، إنه يتراجع، والرعب قد تولَّى. ولعل كتابتي عن الموضوع كله هي السبب في تحسّني. وقد قررت أن «وقع الخطوات» في القبو ما هو إلا فئران. يوم مشمس آخر. ولم تصلني بعد أية رسائل.

سبحت مرة أخرى على الشاطىء الصخري الصغير، ورغم أن البحر كان هادئاً نوعاً ما فقد صادفت نفس المشقة المثيرة في الخروج منه. كان عليّ أن أتسلق الشاطىء المنحدر المليء بالحصى المتحرك البهلواني، على حين كانت كل موجة متعاقبة تغمرني من الخلف. ابتلعت كمية من المياه، وجرحت قدمي، عثرت على ربطتي المهجورة من خشب الطفو، وحملتها إلى البيت. أحسست ببرودة شديدة، غير أنني كنت مرهقاً بحيث لا أستطيع أن أُعد حوض الاستحمام الذي يبدو أنه مصنوع من حديد الزهر. ولا يستحق الأمر أن أحمل الماء الساخن إلى الحمام العلوي.

لقد خطر لي أنني لو ربطت حبلاً بالدرابزين الحديدي في درجات البرج فسوف أتمكّن من استخدام درجات السلم حتى في الطقس الرديء، ولو استطعت أن أجد شيئاً أربطه به فإنني أستطيع أن أدلِّي حبلاً فوق «صخرتي» ليساعدني هناك على الخروج من الماء. ويجب أن أرى إن كان متجر القرية يبيع حبالاً. كما لا بد أن أكتشف أيضاً أين يمكنني الحصول على مزيد من اسطوانات غاز الكالور.

كان جدي من ناحية أبي بستانياً يعمل في سوق لنكولنشاير. (هاأنذا قد شرعت بغتة في كتابة سيرتي الذاتية، ويا لها من جملة استهلاكية فخمة!

كنت أعلم أن هـذا سيحدث لـو أنني انتـظرْت فحسب). وكـان يعيش في منـزل يسمى شاكستـون. وكنت أعتقد أن من أسبـاب الامتيـاز أن يكـون للمرء منزل له اسم. ولا أعرف مـاذا كانت مهنـة جدي لأمي، فقـد مات ولَّما أزل طفلاً صغيراً. وأظن أنه كان «يعمل في مكتب»، كما كان أبي يعمل أيضاً. وليس من شك أنه كان كاتباً إدارياً، كما كـان والدي بكـل تأكيـد، وإن لم نستخدم كلمة كـاتب Clerk في البيت على الإطـلاق. وكان لجـدي من نـاحية أبي إبنـان، آدم وهابيـل. ولم يكن يبـدو عـلى الإطـلاق أنـه من أصحاب الخيال، غير أن هناك في هذين الاسمين لمسـة شعر. وفيهـما دليل مبكـر على أن عمي (هـابيـل) كـان يلقى من الحب والحظ نصيبـاً أكـبر من نصيب أبي (آدم). كيف يفطن طفل لمثل هذه الأشيـاء، أو بالأحـرى كيف تظهر هذه الأمور للإدراك والجلاء على هذا النحو لطفل يقرأ علامات - كما يفعـل الكلب - أصبحت لامرئيـة وسط مواضعـات عـالم الكبـار، ومن ثمّ يتغاضى عنها البالغون في حملتهم للخـداع؟ وكنت أعلم أن أبي - وهو أكـبر الابنـين بقدر طفيف - كـان نوعـاً من الفاشلين الـذين لا حظ لهم قبل أن أعـرف معنى الفشـل، وقبـل أن أعـرف أي شيء عن المـال، والـوضـع الاجتماعي، والنفوذ، والشهـرة، أو أي شيء من تلك الجوائـز المشتهاة التي قادتني أشكالها التي لا حصر لها خلال حياتي كلها، تلك الرقصة الدرويشية التي أوقن الآن أنها انتهت. وبالطبع عندما أقول إن أبي العزيز كان فاشلاً، فإنما لا أعني ذلك إلا بالمعنى الدنيوي الغليظ. فقـد كان رجـلاً ذكياً طيبـاً، نقي السيرة.

أما جَّداي من ناحية أمي، فكـانا يعيشـان في كارليسـل Carlisle، ولا أكاد أعرفهما. وفي هذه المـدينة أيضـاً عاشت شقيقتـان لأمي، هما «خـالتيّ» الشـاحبتان. وتـوفيِّت جدتي لأبي في شرخ الشبـاب، وتبدو في ذكـرياتي عن شاكستون على هيئة صورة فوتـوغرافيـة. والواقـع أن جدي الـذي كنت لا أحبـه وأهـابُـه - يبـدو لي الآن في صـورة حـذاء بـرقبـة طـويلة من طـراز

ولنچتون، وعلى هيئة صوت مرتفع. أما آدم وهابيل فكانا يزحمان عالمي الطمولي، ويسيطران عليه كإلهين توأمين. وكانت والدتي قوة منفصلة، منفصلة دائماً. ثم كان هناك بالطبع ابن عمّي جيمس الذي كان ـ مثلي ـ طفلاً وحيداً.

وافترقت طرق الشقيقين. فقد انتقل أبي إلى ووروبكشاير Warwickshire واشتغل في «الحكومة المحلية». أما عمي «هابيل» فقد أصبح محامياً ناجحاً بالمحاكم العليا في لنكولن وعاش في منزل بالريف يُدْعى رامسدنز Ramsdens : مكان آخر ممتاز له اسم. وكان رامسدنز أرحب من شاكستون. وما زال كلا هذين المنزلين يراوداني في أحلامي. وانتقلت عائلة عمي هابيل بعد ذلك إلى لندن، ولكنها احتفظت برامسدنز بوصفه ما يسمونه «كوخاً ريفياً». وتزوج عمي هابيل بفتاة أمريكية ثرية وجميلة تُدْعى «إِيثِلْ». وأتذكر أن أمي كانت تشير إليها بوصفها «وارثة». وتزوج أبي من أمي التي كانت تعمل سكرتيرة في مزرعة، وكان اسمها «ماريان».. ويناديها أبي «العذراء ماريان». فقد كانت مسيحية إنجيلية متزمتة. وكان أبي مسيحياً أيضاً بالطبع، وكذلك كنت أنا، وكان عمي هابيل مغموراً حتى جرَّته خالتي إستل إلى عالم الأضواء. ولم أكن أستطيع أن أرى أمي بوصفها فتاة حبّوبة، أو باعتبارها العذراء ماريان التي نبتت في دروب ووروبكشاير. وإنما كنت أرى وجهها ـ في ذكرياتي المبكرة ـ بوصفه قناعاً للقلق. كانت هي الطرف القوي. وكنت أنا وأبي يحبّ كلّ منّا الآخر ويطيعه ويجلب إليه العزاء في السر. الحق، أننا نحن الثلاثة جميعاً كنا يحب بعضنا البعض الآخر ويعزِّيه. كنا فقراء وحيدين وجلين. . معاً.

أصابني رعب شديد في المطبخ هذا الصباح حين رأيت ما ظننته عنكبوتاً ضخماً سميناً لحياً يخرج من خزانة اللحوم والخضروات. غير أنني تبينت فيما بعد أنه ضفدع أشد ما يكون جاذبية. أمسكت به في يسر وحملته عبر الغابة إلى البرك المعشوشبة الموحلة فيها وراء الصخور. وهنا أخذ يبتعد على

مهل. كيف يمكن لمثل هذه الحيوانات اللطيفة المجردة من وسائل الدفاع أن تحافظ على بقائها؟ تسكعت هنيهة بعد أن رحل الضفدع، وجعلت أتأمل الطحالب التي تعلوها عناقيد حمر، وأستعرض الزهور: زهور الذيلية التي أتذكرها منذ صباي، والزهرة السحرية الصفراء التي تتصيد الذباب. أما الزعتر فينمو فوق الربى الداخلية، المتجهة صوب «مزرعة آمورن». وكان وكيل المنزل قد أخبرني أن السحلبيات تنمو في المنطقة المجاورة، غير أنني لم أر شيئاً منها. لعلها أسطورية أيضاً مثل عجول البحر.

وذهبت فيما بعد إلى القرية لأبتاع شرائح من السلمون التي يمكن حفظها في التبريد العميق (السلمون المدخّن للرجل المسكين). فمن المستحيل طبعاً شراء السمك الطازج هنا، وفقاً لما أخبرني به القرويون جميعاً وهم يشعرون بالزهو. كما قمت ببعض التحريات التي لم تنته إلى شيء حاسم عن مغسلة. فلقد غسلت بنفسي كل شيء حتى الآن، بما في ذلك الملاءات التي كنت أنشرها على المرجة لتجفيفها. وربما كان عليّ أن أستمر في هذا العمل، إذ ينطوي أداء هذه الواجبات البسيطة على كثير من الرضا. وقد نسيت أن أسجل أنني وجدت متجراً ثانياً في القرية، وكان متجراً للحديد وللأدوات المعدنية في صف الأكواخ الذي يوجد خلف الحانة. وقد أطلق على نفسه اسم «مخازن الصيادين» ولا شك أنه كان يبيع ذات مرة أدوات الصيادين. ولقد اكتشفت هذا الصباح أن هذا المتجر يبيع زيت البارافين وغاز الكالور. وابتعت منهم أيضاً بعض الشموع، ومصباحاً زيتياً جديداً، وحبلاً طويلاً. ودلفت إلى حانة «الأسد الأسود» حاملاً هذه السلع وأنا في طريقي إلى المنزل. وقد خيم السكون على المشرب حين دخلته، وانفجر في عاصفة من الثرثرة حين غادرته، غير أنني اقترحت على نفسي الالتزام بعادة المجيء رغم كل شيء. ذلك أن العداء الوديع الذي يضمره القرويون لا يزعجني. وبالطبع، إنهم يعرفون مَنْ أكون، بفضل التلفزيون، غير أنهم وجدوا مشقة كبيرة في إظهار عدم اكتراثهم، والحق أنهم ـ مع كل ما يميزهم من بساطة جديرة بالتقدير ـ يستطيعون أن يكونوا لا مبالين. ولعلي

بالنسبة إليهم شيء «غير حقيقي»، شيء لحقته «اللاواقعية»، وسيلة الاتصال نفسها. ولم يحاول أحد ـ بحمد الله ـ أن يتودَّد إليّ.

أكلت غدائي المكون من شرائح الرنجة ـ التي فككت تجمدها بسرعة في الماء المغلي (قامت الشمس بالشطر الأكبر من هذا العمل) ـ والتي تبَّلْتُها بعصير الليمون والزيت وبعض الأعشاب الجافة المرشوشة رشاً خفيفاً. وشرائح الرنجة ألذ مذاقاً من السلمون المدخَّن، إلا إذا كان هذا السلمون من صنف جيد جداً. ومع هذا الطبق أضفت البطاطس المحمرة المعَّلبة حديثاً. (لم يكن هناك بطاطس حقيقية جديدة بعد). والبطاطس بالنسبة لي طبق من أطباق الولائم، لا مجرد وصفة يومية رتيبة. ثم ثنيت بالجبن الويلزي المذاب فوق خبز محمص مع جذور الشمندر الساخنة. وكانت شرائح الخبز التي اشتريتها من المتجر لا ترقى إلى درجة الكمال، ولكنها محمَّصة على الوجه الصحيح، مع الزبدة النيوزيلندية المملحة الجيدة. وأحب ـ لحسن الحظ ـ تشكيلة واسعة من ذلك البسكويت الإسكندينافي الهش الذي يُفْترض فيه أن يجعلك نحيفاً (وبالطبع لا يفعل ذلك. فإذا كان من المقدر لك أن تكون بديناً، فسيجعلك الطعام بديناً. غير أنني لم أعان قط من مشكلة الوزن). وحيث أنني أمتلك الآن قطعة من الأرض، فلا بد من أن تكون لي حديقة من الأعشاب. ذلك أن الحصول على تموين من الأعشاب الناضرة كان دائماً مشكلة من مشاكل حياتي بوصفي آكلاً مستنيراً. (بالطبع لم تدخل فكرة زراعة الأعشاب في رأسي عندما كنت طفلاً ألهو في حديقة والديّ: وأظن أن الأطفال لا يستطيعون فهم الطعام). ولكن أين أضعها؟ فأنا أتردد في حرث أية مرجة من مروجي الصغيرة، كما أنها ـ على كل حال ـ أقرب ما تكون إلى البحر. ولو أنني اقتطعت لنفسي رقعة سرية على الجانب الآخر من الطريق، فهل يسلبها مني فلاح أو حيوان؟ ينبغي أن أفكر ملياً في هذه الأمور: خواطر سعيدة وبريئة لا تشبه الخواطر المعذَّبة التي كانت تراودني في الماضي!.

وبعد الغداء، قطعت طولاً من حبلي وربطته بالدرابزين الحديدي عند سلّم البرج، وهو يتدلى الآن إلى البحر في متناول اليد، ويتحرك قائماً داخل الأمواج. وقد عَقَدْت الطرف المتجه إلى البحر حتى يكون الإمساك به يسيراً. وكان نجاحي أقل فيما يتعلق «بالصخرة» لسبب بسيط وهو أنه لا يوجد شيء هنا يمكن أن يربط إليه الحبل. فالصخور ملساء كثيرة النتوءات، والحبل ليس طويلاً بما يكفي للوصول إلى المنزل. هل أشتري قطعة أطول وأربطها بباب المطبخ أو بالعمود الموجود في قاع السلالم، وأسحب الطرف المبلل إلى المطبخ كل ليلة؟ هذه المشاكل أيضاً ليست بلا أهمية. والحبل نفسه مصنوع من مادة جميلة، ومصقول صقلاً خفيفاً وتفوح منه رائحة شبيهة بالرتسينا. وقيل لي إنه صناعة محلية.

أمضيت شطراً من فترة العصر راقداً على «جسري» الصخري، بين المنزل والبرج، مراقباً الأمواج التي تأتي طائرة من خلاله تحتي، لتغتال نفسها في نوبات من الغضب في المنطقة الصخرية العميقة المغلقة في الجانب الداخلي من الأرض. وجعلني منظر المياه المُزْبدة المندفعة أشعر بعد برهة بخفة في الرأس وكأنما أصابني دوار وتعرضت للسقوط. شعور أشد ما يكون إمتاعاً. وقد غشيني حزن طفيف حين اكتشفت من دراسة بطاقات المناظر الطبيعية في البحر أن جسري ودوامته من الملامح المحلية الشهيرة. ومن حسن الحظ أن البطاقات تبدو عتيقة بالية، وقد ابتعت المجموعة كلها بأقل من جنيه. فأنا لا أريد سائحين يبحثون هنا عن «موقع بديع». والواقع أن الجسر ليس شيئاً في حد ذاته، إنه مجرد صخرة محدبة فيها فجوة، ووراءها حفرة مفتوحة. وفي حالات معينة من المدّ، تحدث المياه التي تشق طريقها خلال الفجوة ضجة جوفاء عالية. وأرجو ألا يسترعي هذا انتباه الناس إلى المكان. وعلمت من البطاقات أن الدوامة المحصورة تسمّى «مرجل مين» Minn's Cauldron. وسألت سيِّدة المتجر عمَّن تكون «مين» فأجابتني بأنها لا تعرف.

وذكرتني البيانات التي أصدرتها أجراس الكنيسة البعيدة بأن اليوم يوم الأحد. وكانت السماء ملبدة بالغيوم في هذا اليوم. وكنت أراقب السحب، فخطر لي أن هذا أمر لم أفعله في حياتي من قبل أبداً: أن أجلس على هذا النحو وأراقب السحب. فعندما كنت طفلاً كنت على درجة من التلهف تمنعني من «تبديد الوقت» على هذا النحو، وربما حالت أمي بيني وبين ذلك. وبينا أكتب هذا، أجلس على بقعتي من الحشائش خلف المنزل، حيث وضعت مقعداً ووسائد وسجاجيد. الوقت مساء. سحب كثيفة متكتلة اردوازية الزرقة تميل انتفاخاتها إلى أزرق فاتح - تتحرك متباطئة عبر سماء موحلة وإن كانت ذهبية لامعة بحيث تترك أثراً مذهَّباً باهتاً. وعلى الأفق خط فضي مغلول يتألق تألقاً خافتاً، أشبه بالمجوهرات الحديثة. وتحت الأفق ينبسط البحر زاخراً بالحياة ويكتسي لوناً بنيّاً مذهباً شاعرياً متقلباً، متواثباً بنقاط بيضاء. والجو دافىء. يوم سعيد آخر. (وكانوا يسألونني: «ماذا ستفعل هناك بحق السماء؟»).

وعلى نحو متطير تماماً، أشعر بأنني راضٍ عن نفسي كل الرضا.

يوم آخر، قررت ألا أضع تواريخ حتى لا أقطع الإحساس بالتأمل المتصل. كنت أعيد قراءة الصفحات الافتتاحية من سيرتي الذاتية! ما أشد امتلاء تلك التصريحات - بالنسبة لي على كل حال - التي أدليت بها بنبرة مخيفة، بجو غريب مفاجىء من السلطة، عن طفولتي. لم أحسب نفسي مطلقاً مُهِمّاً إلى هذا الحد. وكنت أنوي الكتابة عن كليمنت. أتراني أرغب حقاً في وصف طفولتي؟.

لم أسبح اليوم. وإنما ذهبت إلى سُلَّم البرج فيما بعد الظهيرة عازماً على السباحة، غير أنني وجدت الحبل الذي قمت بتثبيته في الدرابزين مفكوكاً بطريقة ما بحيث أخذ يطفو بعيداً، مما ضايقني. لست بارعاً في مسألة العُقَد. وعلى كل حال، لعل الحبل سميك ولهذا لا يُعْقد بسهولة. وخطر لي أن قطعة طويلة من قماش النيلون يمكن أن تكون أكثر طواعية.

شعـرت بشيءٍ من الاكتئاب، غـير أن معنويـاتي ارتفعت بحلول مـوعـد العشاء: سباچتي مع قليل من الزبدة والريحان الجاف (الريحـان هو بـالطبـع ملك الأعشاب). ثم الكرنب الربيعي مطبوخاً على مهل مع الشبت. بصل مسلوق يقـدَّم مع النخـالة والأعشـاب وزيت الصويـا والطماطم مـع بيضـة واحدة مضروبة مع هذا كله. بـالإضافـة إلى شريحة أو شريحتـين من اللحم البقـري المعّلب البـارد. (والحق أن اللحم مـا هـو إلا ذريعـة لأكـل الخضروات). وشربت زجاجة من الرتسينا في نخب الحبل الذي لا يستحق التقدير.

الليل الآن قد مضى أكثره، وأنا جالس في الطابق العلوي مـع واحد من مصابيحي الزيتية القديمة، ومع المصبـاح الجديـد، وهذا المصبـاح لا يعطي ضـوءاً جميلاً، ولكنـه يسير الحمـل. يجب أن أحصل عـلى مـزيـد من هـذه المصابيح، وإن كنت أعتقد أنني لن أستطيـع أبداً الاستغنـاء عن الشموع. وقد تركت لي السيـدة تشورني دستـة من الشمعدانـات، هيِّنة الاستعـمال، ولكنهـا ليست تحفاً جميلة، وقـد وضعتها ـ كـاملة بـالشمـوع والثقـاب، في مـواقع اسـتراتيجية متفـرقة في المنـزل. وتذكّـرني رائحـة المصبـاح الجـديـد بفريتزي. وسأواصل الآن تقديم سيرتي الذاتية.

ولدت في استراتفـورد على نهر آڤـون Stratford - Upon - Avon. أو لكي أكون دقيقاً ـ بالقرب منها، أو لكي أكون أكثر دقة ـ في غـابة آردن. وقـد شببت في وسط إنجلترا المـورق، إلى أبعـد مـا يمكن أن يكـون في هـذه الجزيرة عن البحر. ولم تقع عيناي على النهر حتى بلغت الرابعة عشرة. وأنا مدين بحياتي كلها ـ طبعاً ـ لشكسبير. ولو لم أعش قريباً من ذلـك المسرح العـظيم، عـلى كثب حقـاً من ذلـك المسرح العـظيم، لمـا تمكنت أبـداً من مشاهدة أية مسرحيات. ولم يتردد أبواي مطلقاً على المسرح، بل إن والـدتي كـانت تستنكره استنكـاراً صريحاً. ولم يكن ثمـة فضل من المـال يسمح لنـا «بالخروج» إلى أي مكـان. وهكذا لم نخـرج أبداً. ولم أغش أي مـطعم إلا

بعد أن تركت المدرسة. كما لم أدخل أي فندق إلا بعد ذلك بكثير. أما في الإجازات فكنا نذهب إلى شاكستون أو إلى رامسدنز أو إلى المزرعة التي عملت فيها أمي كسكرتيرة. وما كنت لأذهب إلى أي مسرح على الإطلاق لولا أن شكسبير كان «شُغْلًا». ذلك أن مدرساً لي كان مولعاً بشكسبير. هذا الرجل أيضاً صَنَع حياتي. وكان اسمه السيد ماكدوول. ترددنا كثيراً على المسرحيات، وشاهدنا كل شيء. وكان السيد ماكدوول يدفع لي في بعض الأحيان. وبالطبع، قمنا بتمثيل بعض المسرحيات. وكان السيد ماكدوول مهووساً بالمسرح، نوعاً من الممثل الخائب (أو الفاشل). فأصبحتُ لعبته المدللة المفتونة بالمسرح (وكان هو الذي اصطحبني أنا وبعض الفتيان الآخرين إلى البحر في ويلز لمدة أسبوع. وأعتقد أن هذا الأسبوع واحد من أهم الأسابيع التي قضيتها في حياتي وأسعدها. وكلمة «أسعد» لا تعبِّر تماماً عما أريد. كنت تقريباً على وشك الجنون من الفرح طيلة الوقت). وقد قبلت أمي الذهاب إلى المسرح لأنه «جزء من واجباتي المدرسية». بل لقد تظاهرت في شيء من المكر بأنني لا أستمتع به حقاً: فهو مجرد شيء ضروري لاجتياز امتحاناتي. صبي شرير كاذب. كنت في السنوات السبع. وكان أبي يعلم، غير أن أحداً منا لم يكن ليعترف للآخر بأننا نخدع أمي.

كان أبي رجلاً مولعاً بالكتب، وكان ألطف شخص قابلته في حياتي على نحو ما. لا أقصد أنه كان خجولاً، وإن كنت أظن أنه كان خجولاً. بل كان يتمتع بخصلة أخلاقية إيجابية من الرقة. وأستطيع أن أصوِّره الآن في وضوح، منحنياً بابتسامته العصبية الدائمة لالتقاط عنكبوت على قطعة من الورق ليضعه بعناية خارج النافذة أو في ركن من المنزل حيث لا يزعجه أحد. وقد كنت صديقه، ورفيق قراءته، والشخص الوحيد الذي كان يجري معه محادثة جادّة. كنت أشعر دائماً أننا في قارب واحد، نغامر مقتحمين معاً. وكنا نقرأ كتباً واحدة ونناقشها: كتب أطفال، قصص

مغامرات، ثم روايات، وتاريخ، وسِيَر، وشِعر، وشكسبير. وكان كل منـا يستمتع بصحبة الآخر ويشتاق إليها. أي اختبار هذا: أكثر من الإخلاص، والإعجـاب، والعاطفـة. فإذا أنت اشتقت واشتقت إلى صحبـة شخص ما أحببت هذه العواطف. وأتـذكَّر أنني شعـرت في حياتي التـالية أن أحـداً لا يستطيع أن يعرف أبداً كيف كان أبي رجلًا صـالحاً سـواي، بل أشـك حتى في أن أمي كانت تعرف. بـالطبـع، كنت أحب أمي أيضاً، غـير أنها كانت تسلك خـطاً قاسيـاً على حـين أن أبي لم يكن له مثـل هـذا المسلك. كـانت تؤمن بإله عادل، وربما أيَّدها هذا الاعتقاد خلال ما ثبت فيما بعد أنها حيـاة مخيبة للآمال.

كانت المشكلة بالنسبة لوالديّ، من وجهة نظري على الأقل، هي أنهما لم يكونا يريدان أن يذهبا إلى أي مكـان، أو أن يفعلا أي شيء. وكـانت أمي تستنكر الذهـاب إلى أي مكان، أو فعـل أي شيء، لأن هذا يقتضي إنفـاق المال من جهة، وبسبب الأباطيل التي يمكن أن يقودنا مثل هذا الانتقـال إلى لقائها من جهة أخرى، وكان أبي لا يريد الذهـاب إلى أي مكان، أو فعـل أي شيء، لأن أمي كـانت ضـد هـذا من جهـة، وبسبب حيـائـه وتـراخي شخصيتـه من جهة أخـرى. يجوز أنني جعلت الأمـر يبدو وكـأن أبي رجـل حزين، غير أن الأمر لم يكن كذلك. فقد كان يفهم مباهج الحياة البسيطة، وكيف يتـطلَّع إلى الاحتفالات الصغـيرة. وأنا عـلى يقين من أنـه كان يؤدي عمله المكتبي بإتقان، كما كان يمارس أعمالاً منزلية غـريبة بحـماسة. وكـان يستمتع بالقراءة التي تميل إلى الروايات وقصص المغامرات، عندما لا يكون مشـاركاً في تعليمي. وأستـطيع أن أتـذكَّره ـ عنـدما كـان مـريضـاً مـرض المـوت ـ وهو يقـرأ «جزيـرة الكنز» بعـدسة مكـبِّرة. وكان يحبنـا أمي وأنا، يضمر لنا كثيراً من الإعزاز، وهنا ينتهي عالمه. ولم يكن مهتماً بـالسياسـة أو الـرحلات أو أي شكـل من أشكال الـترفيـه، أو حتى أي شكـل آخـر من أشكال الفن سوى الأدب. ولم يكن له أصدقاء (سواي). وجـدير بـالذكـر أنه كان يحب أخاه هابيل، وإن لم أكن متأكِّـداً من مقدار هـذا الحب أبداً.

كما أنه لم ينسجم أبداً تمام الانسجام مع ابن عمي جيمس لأنه كان يراه بوصفه غريماً لي. أما خالتي إستيل فكانت تحرجه. وكانت أمي تبغضهم جميعاً، وإن كانت تسلك ـ على الرغم من ذلك ـ مسلكاً غاية في التهذيب.

دخلت المسرح بالطبع من أجل شكسبير. وهؤلاء الذين عرفوني في الأعوام التالية بوصفي مخرجاً لشكسبير لم يدركوا كيف وجّهني هذا العملاق منذ البداية توجيهاً مطلقاً. كانت لي بالطبع دوافع أخرى. فمن البساطة الساذجة التي ميَّزت حياة والديّ، ومن سكون بيتي وهدوئه، هربت إلى حِيَل الفن وسحره. كنت أتوق إلى التألّق، والحركة، والبهلوانيات، والضوضاء، وأصبحت خبيراً في آلات الطيران، وأعددت معارك، وكنت أستمتع دائماً ـ كما يقول نقّادي ـ استمتاعاً يكاد يكون صبيانياً ومفرطاً في الحيل الفنية للمسرح. ومارست التمثيل أيضاً، وكنت على وعي بذلك أيضاً منذ البداية، وهذا لأنني كنت أريد شيئاً من اللهو لنفسي، وأن أوفِّر شيئاً منه لأبي. وأشك في أنه كان يملك هذا المفهوم، أو حاول الحصول عليه فيما بعد تحت إرشادي المتلهِّف. ففي سعيي إلى اللهو أستخلصه لنفسي، كنت ناجحاً خلال حياتي كلها نجاحاً متسقاً لا بأس به. لكنني كنت أقل نجاحاً في إقناع والديّ بإمتاع نَفْسَيْهما. وكنت أصحبهما من حين لآخر إلى باريس، أو ڤينيسيا، أو أثينا. غير أنهما كانا لا يشعران بالارتياح دائماً، وفي شوقٍ للعودة إلى البيت، وإن كنت أعتقد أن هذه الرحلات يمكن أن تمنحهما شيئاً من الرضا حين يتذكران أنهما كانا في تلك الأماكن. والحق أنهما كانا يريدان دائماً البقاء في بيتهما الخاص، وحديقتهما الخاصة. وهناك أناس مثل هذا دائماً.

كنت طفلاً وديعاً هادئاً محبوباً؛ غير أنني كنت أعلم أن هناك معركة عظيمة آتية، وكنت أريد أن أكسبها، وأن أكسبها بسرعة. وقد فعلتُ الأمرين معاً. وعندما بلغت السابعة عشرة أراد والدي أن أذهب إلى

الجامعة، وكذلك أرادت أمي، وإن كانت في خشية من المصـاريف. وبدلاً من هذا ذهبت إلى مدرسة التمثيل في لندن (حصلت على منحـة مدرسيـة. ولم يكن اجتهاد السيد ماكدوويل عبثاً). ومن أشد الأمور حـزناً في حيـاتي كانت مخالفتي لوالدي في هذه المسألـة. غير أنني لم أكن أستـطيع الانتـظار. وارتاعت والدتي. إذ كـانت تعتقد أن المسرح مقـر الخطيئـة. (وكانت عـلى حق). وكانت تؤمن بأنني لن أنجح أبداً، وسأعود إلى المنزل أتضوَّر جوعاً. (كانت تحتقر الأشخاص الذي لا يكسبون قوتهم). وهنـا لم تكن على حق؛ أو على الأقل، عندما مرَّت الأيام، لم يكن في وسعها إلا احترام قـدرتي على كسب المال. ومنذ ذلك الحين، ومن الآن فصاعداً أصبح المسرح بيتي، بل إنني شـاركت في الحرب ممثـلاً، ذلك أن بقعـة صغـيرة عـلى الـرئـة، زالت بسرعة فيما بعد، أعفتني من الخدمـة العسكريـة. وقد نـدمت على هـذا فيما بعد.

«يـا سيد آركـرايت، هل رأيت ثعـابين بحـرية ضخمـة جداً في المنـطقة المجاورة»؟ سؤال مباشر. وأنا أسجل ما قلته هـذا الصباح في حـانة الأسـد الأسود، حيث كنت أبتاع شيئاً من عصير التفاح المحلِّي. ولسوء الحظ، كان عصير التفاح حلواً أكثر من اللازم؛ وسـأستهلك بعد وقت قصـير ما جلبتـه معي من تموين متواضع من النبيذ. وبالطبع، لم تكن حانة «الأسد الأسود» قد سمعت عن النبيذ أبداً؛ غير أن صاحبة المتجر الذكية أنبأتني بـأن «فندق الغراب الأسحم» يبيع «نبيذاً حقيقياً».

واسم صاحب حانة الأسد الأسود ـ وهو آركرايت ـ يزعجني بذكريات عن سائق كان بـذلك الاسم استخـدمته ذات مـرة حين كنت نبيـلاً، وكان ينظر إليّ بحقد لدود. والعلاقة بين السائق والمَسوق يمكن أن تكـون علاقـة قوية على نحوٍ غريب. والواقـع أن آركرايت الأسـد الأسود شخص مـزعج بـطريقته الخـاصة. وهـو رجـل ضخم ذو شعـر طـويـل أسـود، وسـالفـين طويلين، كأنه وغد من أوغاد العصر الفيكتوري. وهو الذي يتزعم المشرب

في لعبة إحراجي. وها هو الآن يقوم بتحليل سؤالي. ثعابين بحرية؟ ضخمة؟ ضخمة جداً؟ في المنطقة المجاورة؟ وسألني: «تقصد على البر»؟ فقال أحد الزبائن: «إنه يقصد الديدان» والزبائن جميعاً على شاكلة واحدة تقريباً: عمال مزرعة متقاعدون، على ما أتصور. ولا وجود بالطبع لأية امرأة. «أنا أعني ثعابين في البحر» فأنغضوا جميعاً برؤوسهم في وجوم. وتفضل أحدهم قائلاً: «لن تراها في البحر، أليس كذلك؟ إنها ستكون تحت الماء». وأضاف شخص آخر في خبث: «الثعابين ليست حَسَنَة». وأُهمل السؤال. وعدت إلى البيت حاملاً عصير التفاح الذي اشتريته - دون حاجة إليه - على سبيل الأدب.

غير أنني حققت - على كل حال - نجاحاً واحداً. ذلك أن الحجرة الصغيرة الموجودة في الطابق العلوي التي تواجه الطريق (على الجانب الذي تقع فيه «الحجرة الداخلية» وحجرة الجلوس) تضم ستارتين من القطن المتين (ويجب أن أضيف أن النافذة الأمامية المقابلة التي تقع على الجانب الآخر هي نافذة الحمَّام). قطعت إحدى هاتين الستارتين حتى المنتصف، عقدت عقدة من الطرفين، ثم ربطت هذا «الحبل» في الدرابزين الحديدي عند درجات السلم، وبذلك مكَّنت نفسي من القيام بسباحة ممتازة هذا الصباح أثناء المد المنخفض، رغم أن البحر كان متلاطم الأمواج. أما عن الغداء فقد كان مؤلفاً من شرائح فرانكفورت بالبيض المقلي، وطماطم مشوية، ولمسة خفيفة من الخل، ثم كعكة مُسكَّرة مُشْربة بعصير الليمون ومغطاة باللبن الزبادي (اليوچورت) والكريمة السميكة. وشربت شيئاً من عصير التفاح لمجرَّد أن أبصقه. وشرعت بعد الغداء في إقامة سور حول مَرْجتي بالأحجار الجميلة التي جمعتها. ولم يكن في وسعي أن أقرر إن كانت تبدو مضحكة أم لا. اليوم ملبد السحاب نوعاً ما، وثمة نسيم بارد يشيع في الجو، وضوء غريب بلون القهوة يمتد فوق البحر. وعند اقتراب المساء أقيم العرض المعتاد من السحب. صخور عظيمة وقمم من السحب البنية المُذهبة الخفيفة تبلغ ارتفاعات فخمة، وقد وشيت جوانبها الهائلة بنثار من

الـذهب الخالص. وحـاولت أن أشعل نـاراً من خشب الـطفـو في الحجـرة الصغيرة الحمراء، غير أن المدفأة دخَّنَت مرة أخرى.

كنت أقـوم بتنظيف المنـزل وترتيبـه. ما أعجب الـرضـا الـذي يبعثـه في النفس ترتيب الأشياء! (أيتوقف الرضـا على المِلْكيـة؟ أظن ذلك). مسحت القاعة والسلم. وغسلت بلاطات المـطبخ الحجـرية الضخمة (عملية مجـزية جداً). وغسلت أيضاً آنية الزهـر الضخمة الـدميمة القـائمة عـلى البسطة، وقمت بتلميع المائـدة العتيقة المصنـوعة من خشب الـورد. (وكانت مُعْتـرِفَة بـالجميل). وشرعت في نفض الغبـار عن مدفـأة حجـرة الجلوس، غـير أن روحـاً تسكنها قـاومتني. وأنا أقـوم الآن بتلميـع المـرآة البيضـاويـة الكبـيرة المـوجودة في القـاعة. (أعتقـد أنني ذكـرتهـا من قبـل). هـذا الشيء البـديـع (الذي ربما يرجع تـاريخه إلى عـام ١٨٩٠) لعله أن يكون أعـظم «تحفة» في المنزل. الزجاج مشطوف، تتناثر فيه بعض النقط ولكنه مشـع وفضي بشكل رائـع حتى لتبدو المرآة وكأنها مصـدر للضوء. والإطـار مصنـوع من معـدن رمادي مطفًّى. (لعله القصـدير؟) ويمثـل إكليلاً ملتفـاً من الأوراق والفروع والثمار الصغيرة. وأضفى طلاء المعادن شيئاً من الوضاءة والتفاصيل على هـذا النبـات المعـدني. ومن المؤكـد أن كميـة من القـذارة انتقلت إلى خـرقـة التنـظيف. وما دمت قـد أمضيت بـرهـة قصـيرة أحـدق إلى نفسي في هـذه المـرآة فقد يكون الوقت مناسباً لكي أحاول وصف مظهري.

قد يبدو هذا سطحياً. أجل، بالطبـع، كنت شخصاً التقـطت له صـور كثيرة. غير أن آلة التصوير لم تكن صديقتي تماماً. (ما أسعد حـظي لأنني لم أرغب قط في أن أكون نجماً سينمائياً!) فلأصف شكلي الحقيقي. أنا شخص نحيف متـوسط القـامـة. وجهي بيضـاوي يتـوسـطه أنف مستقيم قصـير، وشفتـاي نحيلتان، بشرتي عـلى شيء لا بأس بـه من النعومـة وعُرْضـة لحمرة الخجـل. وحـين يضـايقني شيء أو يتحـداني أحـد تصـطبـغ وجنتـاي بلون قرمزي. هذه العادة التي أقلقتني كثيراً، أصبحت فيها بعـد ماركـة مسجلة، وعندما أصبحت معروفاً في مهنتي بوصفي من «التتار»، كانت مفيدة ـ على

نحو غير مقصود - في إخافة الناس. عيناي تميلان إلى اللون الأزرق الباهت البارد. وأضع عليهما نظارتين بيضاويتين صغيرتين بلا إطار للقراءة. وشعري خفيف مسترسل لا لون له تقريباً، وليس مسرفاً في الطول. وهو لا يلمع أبداً، ولكنه يحول ويعتم دون أن يتحول إلى اللون الرمادي. وقد قررت ألا أصبغه (منذ أعوام قلائل عندما بدأ شعري في الانحسار، لجأت إلى معونة العلم، فأحرزت نتائج مُرْضية تماماً). وأستطيع أن أقول إن ما تخفق الكاميرا في التقاطه هو النسيج البديع الذي يكاد يكون خاصاً بالبنات ـ هو بالطبع وجهي الحليق النظيف، والتعبير المتهكم المراوغ المرتسم عليه. (وهو ـ بلا فخر ـ وجه ذكي). ويستطيع المصورون ـ بكل سهولة ـ أن يجعلوا المرء يبدو كالأبله. وأعتقد في كثير من الأحيان أنني أشبه والدي، ومع ذلك، فإنه كان يبدو رقيقاً بسيطاً في آن واحد، على حين أنني لا أبدو هذا ولا ذاك.

أويت إلى الفراشَ مبكراً، مصطحباً زجاجة من الماء الساخن. إني مرهق جداً.

لا أظن أن الكتابة عن المسرح ستكون هيِّنة. بل لعل خواطري عن هذا الموضوع أن تملأ كتاباً آخر. والأفضل أن أتحدث مباشرة عن كليمنت ميكين Clement Makin. فأنا هنا ـ على كل حال ـ من أجل كليمنت. هذه كانت بلدتها، وقد ترعرعت على هذا الساحل المنفرد. . الذي لم نَزُره قط. أتراني كنت متطيراً؟ إن حَدَّها الأقصى انتظر ساعته الملائمة.

كانت كليمنت عشيقتي الأولى. وعندما التقينا كنتُ في العشرين من عمري، أما هي فكانت في التاسعة والثلاثين (أو هكذا قالت). وبسبب واحدة أحببتها وفقدتها من جهة، وبسبب نشأتي الطهورية (Puritan) من جهة أخرى، احتفظت بعذريتي حتى انقضّت (كليمنت) عليَّ كالنسر. أكانت ممثلة عظيمة؟ أجل، أعتقد ذلك. طبعاً، النساء يمثِّلن طول الوقت. ومن الأيسر الحُكْم على رجل (ولفريد على سبيل المثال). وسأتحدث عن

المسرح قليلاً حتى أضع كليمنت في سياقها، وأهيء لها المشهد لكي تقوم بانقضاضها. لم تكن كما كان الناس يفكّرون فيها؛ فلا المُعْجَبون بها ولا أعداؤها استطاعوا أن يعدلوا في حكمهم عليها، وكان لها نصيب الأسد في كل من الفئتين. وقد حاربت دائماً بلا رحمة من أجل أولئك الذين أحبتهم، وهنا تصبح لا أخلاقية تماماً، فتكذب وتغش من أجلهم، وتدوس على الحقوق وعلى القلوب. وقد أحبَّتني، وأنا على استعداد للاعتراف بأنها صنعتني؛ وإن كنتُ سأصنع نفسي على كل حال، غير أن هذا هو ما حدث. وهب الله الاستقرار لروحها القلقة.

العواطف توجد حقاً في قاع الشخصية أو في قمتها. أما في الوَسَط فإنها تُمَثَّل. وهذا ما يجعل العالم كله مسرحاً، وهذا هو ما يجعل المسرح شعبياً، بل إنه بالتأكيد علة وجوده: لماذا يكون كالحياة، وهو كالحياة حتى ولو كان أكثر الفنون جميعاً ابتذالاً وتصنُّعاً إلى حد الإسراف. حتى الروائي المتوسط يمكن أن يقص قسطاً كبيراً من الحقيقية. وفنه المتواضع يقف إلى جانب الحقيقية، على حين أن المسرح، حتى في أوج «واقعيته»، يرتبط بالمستوى وبالطرائق التي نتحدث فيها عن أكاذيبنا اليومية. هذا هو المعنى الذي يشابه فيه المسرح «العادي» الحياة، وكتّاب الدراما كذابون لا يستحون إلا إذا كانوا غاية في الطيبة. ومن ناحية أخرى، وبمعنى شكلي صرف، يعد المسرح أقرب الفنون جميعاً إلى الشعر. وكثيراً ما راودني هذا الخاطر، وهو أنني لو استطعت أن أكون شاعراً لما اهتممت بالمسرح على الإطلاق، غير أن هذا بالطبع كان من قبيل الهراء. ذلك أن ما كنتُ أحتاج إليه بروحي المتعطشة الصامتة هو بالضبط هذه الطريقة الخاصة التي أستطيع بها أن أصبح رداً على هذا العالم. المسرح هجوم على البشرية يشنها السحر: تحويل جمهور المشاهدين كل ليلة إلى ضحايا، أن يجعلهم يضحكون ويبكون ويتألمون وتفوتهم قطاراتهم. بالطبع، الممثلون ينظرون إلى مشاهديهم بوصفهم أعداءهم الذين ينبغي عليهم خداعهم، وتخديرهم، ومحاصرتهم، وبَهْرهم، وذلك ـ في شطر منه ـ لأن جمهور المشاهدين هو أيضاً محكمة

لا استثناف فيها. وعلاقة الفن بزبونه تكون هنا في أقرب أحوالها وأشدها فورية. ففي الفنون الأخرى يمكن أن نلوم الزبون: فهو غبي، ساذج، قليل الانتباه، بليد الإحساس. غير أن المسرح لا بد له من أن يطأطىء - إذا احتاج الأمر - ويطأطىء - حتى يبلغ ذلك المباشر، وذلك الاتصال الشامل الذي يمكن أن يصبر الفنانون الآخرون على البحث عنه بطرق أكثر التواءً، وعلى مهلٍ. ومن هنا كان الهجوم، والضوضاء، ونفاد الصبر المميَّز (للمسرح). وكان هذا كله جزءاً من انتقامي.

ما أشد ابتذال الأمر كله، وما أشد قسوته؛ وهاأنذا أتذوق الآن في شراهة شديدة خروجي منه خروجاً مطلقاً آخر الأمر، الآن حين أستطيع الجلوس في الشمس، وحين أتأمل البحر الهادىء الوديع. هذه العزلة، وهذا الهدوء بعد كل ذلك الهذيان، وبعد كل تلك الزفَّة المبهرجة، ثمة سكون عميق خالٍ من الدينامية ولا يشبه في شيء لحظات الصمت الدرامية الحرجة في المسرح: «العاصفة» في المشهد الثاني، أو دخول پيتر پان Peter Pan. كما لا يشبه في شيء أيضاً ذلك السكون الغريب المألوف، وإن يكن مثيراً - الذي نلمسه في مسرح خالٍ. الممثلون سكان كهوف في ظلمة ثرية يحبونها ويبغضونها. كما كنت أستمتع حين أملأ لحظات الصمت المتوقَّع بالضوضاء، الضوضاء بوصفها بناءً، بوصفها لوناً. (أخرجت ذات مرة مسرحية من مسرحيات الإثارة، بدأت بصمت طويل، أعقبته صرخة. وهذا الصوت أصبح شهيراً). ومع ذلك، أو ربما كان مترتباً على ذلك، أنني لا أعبأ كثيراً بالموسيقى. الضجة نعم، الموسيقى لا. وأنا من المعجبين بالدراما الموسيقية الصامتة أساساً في الباليه، بينما أمقت الأوبرا. واعتادت كليمنت أن تقول إن هذه حالة حسد. ولا بد من الاعتراف بأنني أحسد ڤاچنر.

المسرح مكان يسيطر عليه مَسٌّ من الجنون. وليس أرضاً ناعمة مفروشة بالأحلام. البطالة، والفقر، وخيبة الأمل، والتذبذب المضني في اتخاذ القرار

(خذ هذا الآن، وافقد هذا فيما بعد) - كل هذا يطحن الواقع في وجه الممثل؛ ولا يلبث المرء - كما هو في الحياة العائلية - أن يتعلم الحدود الضيقة للروح الإنسانية. غير أن الفكرة المتسلطة هي ما يدور حولها كل شيء. وكل كتّاب الدراما والمخرجين المجيدين ومعظم (وليس كل) الممثلين المجيدين أشخاص ممسوسون. ولا يُخْفي هذه الحقيقة سوى العباقرة من أمثال شكسبير، أو بالأحرى يقومون بتحويلها إلى شيء روحاني. والفكرة المتسلطة تدفع إلى العمل الشاق. وأنا نفسي اشتغلت دائماً (وشغّلت الآخرين) وكأنني واحد من الجن. ذلك أن تدريب أمي جعلني «عاملاً» قهرياً. إذ إنها لم تكن تعرف الكسل إطلاقاً، ولا تحتمله من الآخرين. أما أبي فكان يستمتع بقدر من التثبيت والإصلاح، ولكنه كان يحب لو أنه جلس أحياناً فارغاً من كل عمل ليراقب العالم وهو يمضي أمامه، بيد أنه لم يُسْمح له بذلك. ولم تكن أمي طموحاً من أجله بمعنى دنيوي - إذ كانت تحتقر عالم النجاح الذي يعيش فيه عمي هابيل وخالتي إستيل، وإن كنت أعتقد أن مستقبل هذا العالم كان يؤذيها دائماً على نحو غامض. كل ما في الأمر أنها كانت ترغب في أن يُسْتَخدَم أبي استخداماً مفيداً. (من حسن الحظ أن مناقشة الكتب معي كانت تُعَد من الأمور المفيدة). ولم تكن تصرِّح بأنها تفهم عمله المكتبي، كما أنها لم تُظهر أي حب استطلاع نحوه، وأشك في أن لديها أية فكرة عما يفعل. وإنما كانت تقوم بتنظيمه في البيت، وكذلك كانت تقوم بتنظيمي أنا أيضاً، غير أن هذا التنظيم كان يسيراً لأنني كنت على أهبة الاستعداد له، تُهَيْمن عليّ فكرة أن أكون مجتهداً. وكثيراً ما سألني الصحفيون كيف بدأت أول ما بدأت بكتابة المسرحيات. والحق أنني لم أتحول إلى الكتابة - كما افترض البعض بقسوة - لأنني مُنيت بخيبة الأمل في مهنتي كممثل. فقد بدأت في الكتابة وأنا ما زلت شاباً لأنني لم أكن أحتمل تبديد الوقت عندما أكون عاطلاً. وشاهدت مبكراً ما يصيب رفاقي العاطلين عن العمل من انحلال خلقي. و«الراحة» هي أبعد الفترات التي يمر بها الممثل في حياته - عن الراحة. وتلك الفترات كانت بالطبع أيضاً

هي جامعتي. فكنت فيها أقرأ وأكتب وأعلم نفسي أصول مهنتي.

ولما كان هناك قدر كبير من تضارب الآراء التي تخلو من المعرفة - ولا تخلو دائماً من الخبث - حول هذا الموضوع، فاسمحوا لي أن أقول الآن شيئاً عن مسرحياتي. كانت هذه المسرحيات تستهدف دائماً أن تكون عابرة، أشبه بالمسرحيات الإيمائية (البانتومايم) في واقع الأمر؛ ولا وجود لها إلا في إخراجي فحسب. وما كنت لأسمح لأحد سواي أن يمسها على الإطلاق. وإذا لم يكن المرء موهوباً تماماً، فليس هناك حقاً مكان للراحة بين ما هو ساذج وما هو ساخر. ولغة السخرية (أو الثأر الذي تأخذه) هي العبث (أو اللامعقول). وكنت أعرف حدودي. وقيل أيضاً إن مسرحياتي لم تكن إلا مطايا لولفريد دانتج. لماذا هذه الـ «إلا»؟ كان ولفريد ممثلاً عظيماً. وهم لا يؤدونها كما كان ولفريد يؤديها. وكان ولفريد قد بدأ حياته التمثيلية في قاعة الموسيقى القديمة Old Music Hall في طريق إدجوير Edgware. وكان في إمكانه أن يقف بلا حراك، دون أن يحرِّك رمشاً، ومع ذلك يجعل المسرح يهتز بالضحك المتواصل. ثم يرمش بعينيه فيطلقهم بالضحك مرة أخرى. مثل هذه القوة تكاد ألا تكون مقصودة: إنها سر الجسم الإنساني، والوجه الإنساني. وقد كان لولفريد وجهاً يتألق بِشْراً؛ كما له أيضاً - باستثناء بيريجراين آربلو - أكبر وجه رأيته في حياتي. ومن الحق أنه كان بمعنى ما المنفِّذ الوحيد لأعمالي بوصفي كاتباً درامياً، وعندما قضى نحبه توقفت عن الكتابة. وأستطيع أن أقول بلا ندم إنْ مسرحياتي تنتمي إلى الماضي، ولا أورثها لأحد. لقد كانت توهمات سحرية، ألعاباً نارية. وهذا الذي أكتبه الآن هو وحده الذي أود - أو أتنبأ - بأن أتركه من ورائي بوصفه ذكرى باقية. وقد قال أحدهم ذات مرة إنه كان ينبغي عليّ أن أكون مصمم باليهات، وفهمت المقصود من هذا التلميح. واندهش الناس لأنني كنت شعبياً في اليابان. ولكنني أعرف السبب، ويعرفه اليابانيون.

ومع أنني أوصف بكلمة «تجريبي»، إلا أنني صديق راسخ لخشبة

المسرح. فأنا أحبِّذ الوهم، لا الاغتراب. وأمقت التململ الذي لا نهاية له من المسرح الشامل الذي يطمس وضوح الأحداث. كما أستبشع هذا الهراء الذي يقال عن «مشاركة الجمهور». وقد تكـون لضروب الشغب والأنشطة الإجتماعية قيمتهـا، ولكن ينبغي ألا نخلط بينها وبـين الفن الدرامي. إذ لا بـد للدراما من خلق لحـظة حاضرة مصـطنعة تـأخذ بلب المشـاهد وتحبسـه فيها. والمسرح يبرز هذه الحقيقة العميقة وهو أننا كائنـات ممتدة Extended Beings لا تستـطيع أن تعيش إلا في الحـاضر. وهو حـاضر مصطنـع لأنـه يفتقـر إلى الهالـة الحرة التي تحيط بـالتأمـل الشخصي وتحتوي عـلى حدودهـا المُسْتَسِرَّة الخاصة ونتائجها. فالحياة هزلية من هذا المنظور، ولكنها إن جاز أنها فظيعة، إلا أنها لا يمكن أن تكون مأساوية: ذلك أن المأساة تنتمي إلى مكر المسرح. والشطر الأكبر من المسرح عبـارة بالـطبع عن عفن مبتـذل عابـر؛ والمسرحيـات التي كتبها شعـراء عِظام هي وحـدها التي يمكن أن تُقْـرأ، من حيث هي ملاحظات للمخـرجين فحسب. وأقـول «شعراء عـظام»، وأظن أنني أعني شكسبير حقًّاً. ومن المفارقة أن أكثر الفنون الجادة نزقاً وافتقاراً إلى الجذور ـ وأعني الفن المسرحي أساساً ـ هو الفن الذي أنتج أعظم الكتَّاب طُرًّاً. أما أن شكسبير كان مختلفاً تمام الاختلاف عن الآخرين، وليس الأول وسط أقـرانه، وإنمـا مختلف تمامـاً من حيث النوعيـة ـ فـأمـر اكتشفتـه كله بمفردي عندما كنت تلميذاً في المدرسة؛ وعـلى هذا السر نشـأت. ولا وجود لمسرحيات أخرى على الورق، إلا إذا حسبنا المسرحيات الإغريقية. وأنـا لا أستطيع أن أقرأ اليونانية، وقد أخبرني جيمس أن تلك المسرحيات تستعصي على الترجمـة. وبعد أن تصفحت عـدداً من الترجمـات، أصبحت على يقـين من أنه كان مصيباً.

بالطبـع، المسرح ـ أساسـاً ـ مكان لـلآمال والإحبـاطات، وفي حيـاته المؤلفة من دورات يعيش المرء بطريقة أكـثر تجسيداً النمـوذج الدوري للعـالم العـادي. فالإثـارة التي تحدثهـا مسرحية جـديدة، والصـدمـة النـاشئـة عن الإخفـاق، والإرهاق النـاجم عن العرض لمـدة طويلة، والشعـور بالضيـاع

حين تنتهي المسرحية: تشييد مستمر يتلوه هدم دائم. إنه مسألة تتعلق بالنهايات، والافتراقات، وحزم الأمتعة وتفكيك الجماعات التي أصبحت أسرة واحدة وتشتيتها. هذا كله يجعل من العاملين بالمسرح نوعاً من القبائل الرُّحَّل، أو بالأحرى أعضاء متفرقين ينتمون إلى نوع من الطائفة الرهبانية التي ينبغي أن تُكْبَتَ فيها بعض المشاعر الإنسانية (مثل الرغبة في الدوام على سبيل المثال). فنحن والرهبان سواء من حيث «تحجر القلب»؛ وفي هذا الصدد نعاني التقلبات التي تتسم بها الحياة العادية مع الفارق، على نحوٍ رمزيّ متسامٍ. وبوصفي ممثلاً، ومخرجاً، وكاتباً مسرحياً تلقيّت - بالطبع - نصيبي الكامل من الإحباطات، ومن الوقت الضائع، والسُّبُل الضائعة. وتضم حياتي «الناجحة» كثيراً من ألوان الفشل وكثيراً من النهايات المسدودة. فقد مُنِيَتْ جميع مسرحياتي في برودواي بالفشل على سبيل المثال. وأخفقت بوصفي ممثلاً، وانقطعت عن الكتابة للمسرح. وشهرتي وحدها كمخرج هي التي غطّت على هذه الحقائق جميعاً.

وإذا كانت السلطة المطلقة تفسد المرء إفساداً مطلقاً، إذن فلا بد أن أكون أكثر الناس فساداً. ذلك أن مخرج المسرح ما هو إلا ديكتاتور. (وإذا لم يكن، فمعنى ذلك أنه لا يؤدي عمله). وقد شجعت الشهرة التى طارت عني بوصفي شخصاً لا يعرف الشفقة ولا الرحمة، لأن ذلك كان مفيداً إلى أقصى حد. وكان المثلون يتوقعون الدموع والركوع العصبي حين أكون حاضراً. والغالبية العظمى منهم كانت تحب هذا الجو، فهم من عشاق التعذيب (مازوخيون)، كما أنهم نرجسيون. وأتذكر جيداً جيلبرت أوپيان بنوباته الهستيرية واستمتاعه بكل لحظة. وبالطبع، كانت الفتيات يجهشن بالبكاء طيلة الوقت (وعندما تقدَّمت في مهنتي - أخرجت لكليمنت، فكنا كلانا نبكي؛ يا إلهي، ما كان أشدّ صراعنا!) وكنت دائماً بلا رحمة إزاء السكيرين، الأمر الذي جعل علاقاتي بـ «بيريجراين آربلو» دائمة التوتّر، حتى قبل مسألة روزينا. و«پيري» سكير أيرلندي، وهذا أسوأ نوع. أما ويلفريد

فكان يشرب الخمر كالسمكة، غير أن هذا لم يكن يظهر إطلاقاً على المسرح. ما أشد افتقادي له، وحقّ المسيح!.

وأنا أحب تلك الصورة الملائمة التي تُشَبِّهُني بأنني مقاتل من «التتار». وهناك تصورات أخرى، قُصد بها الدعاية، أقبح من ذلك وأضل سبيلاً. فأنا لم أستخدم سلطتي مطلقاً لأدفع بالفتيات إلى الفراش. وبالطبع، المسرح هو كل ما حسبته، وأكثر مما يمكن أن تتصوره عزيزتي المسكينة (أمي). ولكن ينبغي أن نتذكر أيضاً أن المسرح مهنة، وأن كثيراً من الممثلين «النموذجيين» رجال في منتصف العمر يكلّفون بعمل منتظم، ويعيشون في الضواحي مع زوجاتهم وأسرهم مخلصين كل الإخلاص. مثل هؤلاء الأشخاص هم عَصَبُ المهنة. وطبعاً، المسرح جنس، وجنس، وجنس، ولكن متى كان الموضوع يؤثر على المحترف؟ وكانت أمي تثور عندما تفكر في أنني أمثل «أدوار الأشرار»، لأنها كانت تظن أن هذا سيفسدني. (والواقع، أنها لم تشاهدني ممثلاً، إلا في المسرحيات المدرسية). وأتساءل: هل وقع مثل هذا الإفساد إطلاقاً؟ وهذا السؤال خليق بأن يُسأل. إذ على المرء أن يتقمص - إلى حدٍ ما - الشخصيات الشريرة لكي يقوم بتصويرها، ولكن ثمة حدود لهذا التقمص، لأن الشر يخضع للتخصص إلى حدٍ كبير (ولكل ممثل مستوى لا يستطيع فيه أن يصور الشخصية، فإما أن يتجاوزها أو أن يكون أدنى منها). ونحن صُوَرٌ مُقَنَّعَة؛ والأقنعة لا تكاد تمسُّنا من الوجهة المثالية (هذا هو رأيي الذي يمكن أن يختلف معه بعض الحمقى). وأتذكر حكاية ممثل عجوز سُئِل أن يقوم بدور رجل عجوز فقال في أسىً: «ولكني لم أقم بدور رجل عجوز أبداً!» هذا هو الاحتراف.

وأعود إلى نفسي، فأقول - وهذا القول لا يتفق مع الموضة الشائعة هذه الأيام - أنا لست «شديد الولع بالجنس». وأستطيع أن أعيش على خير ما يرام دون «علاقات جنسية». واعتقد بعض المراقبين بأنني لا بد أن أكون

من أصحاب الشذوذ الجنسي Homosexual، لأنني لا أحتفظ بعشيقات دائمات! أنا أمقت العشيقات. ولعل أمي السليمة أخلاقياً قد علمتني هذا على نحوٍ ما، كما أنني لم أحب إطلاقاً عالم الذكورة المتواطىء على فحش الحديث والفسق. بالطبع، كانت لي غراميات قليلة. غير أنني لم أستأجر امرأة قط لمشاركتي الفراش. وقد قالت امرأة (هي روزينا) ذات مرة: «إنك تهتم بالمسرح أكثر مما تهتم بالنساء» وكان هذا حقاً صُراحاً. ولم أفكر في الزواج تفكيراً جدياً قط (إلا مرة واحدة عندما كنت شاباً). وقد أحببت ذات مرة (في تلك المرة نفسها) حباً مطلقاً. ثم كانت كليمنت، كليمنت الرائعة الأبدية التي لا سبيل إلى تصنيفها. كنت «متيَّماً بها في جنون». وكانت هناك فتيات في غاية العذوبة. غير أنني لست زير نساء. بل كنت دائماً من المتفانين في مهنتهم. ومن هذه الناحية، كنت فظاً مع نفسي، مثلما كنت مع الآخرين. ذلك أن الغراميات الحمقاء الطائشة، وبخاصة داخل فرقة مغلقة ـ تتدخل في العمل الجاد. وأنا عرضة للغيرة، كما أنني اختلطت بأشخاص غيورين للغاية. وكان الحسد دائماً أقل إزعاجاً لي. فالحسد العاجز يمكن أن يكون معوِّقاً بشعاً في المسرح، وقد أدركت مبكراً أن التغلب عليه شرط أساسي للنجاح.

أكنت آسفاً أنني لم أصبح ممثلاً من الطراز الأول؟ ما أكثر المرات التي سُئِلت فيها هذا السؤال! أجل، بالطبع. فالمخرجون يضمرون الحسد دائماً للمثلين، وأظن أن كل مخرج عظيم يؤْثر سراً أن يكون ممثلاً عظيماً. وكان بعض الناس يرون أن مستقبلاً تمثيلياً أكثر نجاحاً ينتظرني في الأفلام وفي التليفزيون، وحاولوا إغرائي بالدخول في هذين المجالين، ولكن رغم كثير من الرحلات المسلية، لم أعبأ كثيراً بهاتين الوسيلتين للاتصال الجماهيري. إذ كنت أشعر دائماً بأن الدراما الحقيقية تنتسب إلى المسرح الحي. وكانت لي طموحاتي، وبخاصة طبعاً في شكسبير، غير أنني كنت أحجم دائماً عن «الملك لير»، وكلما كان ما قيل عن تمثيلي لهاملت قليلاً، كان ذلك أفضل.

وأعتقد أنني كنت ممثلاً جيداً لدور «پروسبيرو»، في المرة التي كانت فيها «ليزي» Lizzie تقوم بدور «آرييل». كان هذا آخر أدواري العظيمة، وقد مضى عليه الآن زمن طويل. وبعد ذلك طرحت جانباً شيئاً معيناً من غروري. والغرور يتلقى كثيراً من الهجوم العنيف في المسرح، وقد يتصور المرء أنه على وشك التلاشي، غير أن الغالبية العظمى من الممثلين يتمكنون من الاحتفاظ بغرورهم: لا بوصفه مرضاً مهنياً مزمناً، وإنما ربما كان ذلك بوصفه أداة ضرورية للبقاء. والإعجاب السخي الحقيقي، ويوجد منه قَدْر كبير - ينطوي دائماً على المعونة والشفاء. وكنت أنظر إلى الممثلين المجيدين والممثلين العظام: إلى ولفريد، وإلى سيدني آسن، وإلى ماركوس هِنْتي (وهو أيضاً أحد عشاق كليمنت)، وإلى فابيان جنسبرج، أو حتى إلى پيري، أو حتى إلى آل Al ، فكنت أجلس هادئاً - بوصفي ممثلاً - في أحد المقاعد الخلفية. وكان هذا أيسر عليّ حينذاك، إذ كنت مستغرقاً تمام الاستغراق في الإخراج. وكنت أسرّي عن نفسي وعن الجمهور بتمثيل أدوار صغيرة جداً في إنتاجاتي الخاصة، بل كدت أسرق العرض ذات مرة عندما قمت بدور يعقوب في مسرحية «النورس».

مَهْلك، مهلك، يبدو أنني أكتب كل شيء في الحال بصورة من الخلط الشديد. وربما كان من الواجب عليّ أن أنظر إلى هذه اليوميات حقاً بوصفها مسوَّدة. سأقاوم - في الوقت الحاضر على الأقل - الإغراء الذي يلوح لي بتذكر إنتاجاتي. اشتهرت بأنني رجل شكسبير، ولكني حاولت بالطبع أن أعبث بيدي في كل شيء، وما عليك إلا أن تُسمِّيه، لأنبئك بأنني فعلته. وهكذا، يكفي هذا التفاخر. كل هذه الاستطرادات لأقدِّم كليمنت ميكين. غير أن كليمنت المسكينة يمكن أن تنتظر، ولا خيار لها إلا أن تنتظر. فقد انتهى ذلك الصراع الكبير بين الإرادات إلى الأبد. وهاأنذا أجلس هنا وأتعجب من نفسي. هل تخليت عن هذا السحر، وأغرقت كتابي؟ وصفحت عن أعدائي؟ وتنازلت عن سلطاني، وطرأ عليّ ذلك التغير النهائي من السحر إلى الروح؟ سيكشف الزمن عن جليَّة الأمر.

وقع شيء غريب باعث على الحزن في التو واللحظة. كتبت ما سبق وأنا أجلس في الخارج فوق مرجتي، وعلى مقعدي الحجري بجانب حَوْضي من الصخور. ولما اشتدت حرارة شمس الصباح، عزمت على الانتقال إلى الداخل والبحث عن قبعتي الشمسية. شعرت بصداع خفيف، ومن المحتمل أنني في حاجة إلى نظارات جديدة. دخلت إلى المنزل، وصعدت السلم، وعيناي تطرفان من العتمة النسبية، وعندما بلغت البسطة العلوية أدركت على الفور أن شيئاً ما قد حدث، وإن كنت لا أستطيع أن أفهم ما هو ذلك الشيء. ولم ألبث أن أدركت أن إناء زهوري الحبيب الضخم الدميم لم يعد موجوداً فوق حامله. لقد سقط على الأرض، وتهشّم شظايا كثيرة. ولكن، كيف حدث ذلك؟ الحامل وطيد ثابت في مكانه ولم يتحرك ولم تهب أية ريح، والستار المصنوع من الخرز بلا حراك. ربما حركت الإناء قليلاً عندما نفضت الغبار بالأمس؟ أم كانت هناك هَزة أرضية؟ وأنا متردد في توجيه اللوم إلى نفسي، بل إني متأكد أنني لا أستحقه. لقد أحببت ذلك الشيء القبيح المسكين، فقد كان أشبه بكلب عجوز. التقطت الشظايا وأنا أفكر تفكيراً مشوشاً في إصلاحها، غير أن هذا بالطبع سيكون محالاً. كيف يمكن أن يكون قد قفز من حامله؟ واستبدت بي حيرة تامة.

«لكن خطاباتك كلها في وِجار (بيت) الكلب يا سيد آروبي».

فاض بي الكيل في نهاية الأمر، فذهبت أسأل في مكتب البريد. وأقول فاض بي الكيل، لا لأنني كنت حينذاك قد أرقت ماء وجهي مع القرية (وإن كان ذلك أيضاً في ذهني)، بل لأنني كنت خزيان من نفسي. فلماذا أحتاج الآن إلى خطابات، أو أفتقدها، أو أتلهف عليها، أو أندهش إذا لم يكتب لي أحد من الناس؟ وقد رتبت الأمر مع الآنسة كاوفمان بحيث تُحْتَجَز خطابات العمل في لندن، وأن ترسل إليّ خطابات أصدقائي وحدها. وكما شرحتُ لنفسي، لم يكن لي أصدقاء حقاً. خطاب واحد كنت مهتماً به وهو

الذي أتوقعه على أقل تقدير. وأياً كان الأمر، فلنرجع في هذه اللحظة إلى وِجار الكلب هذا.

قلت للسيدة التي في مكتب البريد: «وجار الكلب؟» (وهذه السيدة شقيقة صاحبة المتجر، وكان مكتب البريد جزءاً من المحل).

- «أجل، وجار الكلب الحجري قبل أن تعبر الشارع مباشرة للوصول إلى منزلك. كانت السيدة تشورني ترى أن توضع رسائلها هناك».

هذا الشيء الموجود في نهاية الطريق عند الممر، والذي أشار إليه وكيل المنزل بوصفه حدود أرضي، لاحظته بالطبع، ولكني لم أفحصه. كان واسعاً حقاً، وله حقاً شكل وِجار الكلب، وإن كان في رأيي لا يناسب إلا كلباً حجرياً. وأتصور أنه صُنع أصلاً لغرض آخر، وأنا لا أستطيع تخمين هذا الغرض.

احتججت. فكيف لي بمعرفة ذلك؟ أكان من المفروض أن أتكهن؟ لماذا لم يخبرني أحد؟ لماذا لم يلاحظ رجل البريد أن الخطابات بقيت على حالها دون أن يلتقطها أحد؟ وماذا يحدث لو أمطرت السماء؟... وهكذا دواليك.

وردَّدت سيدة مكتب البريد في شيء من العزَّة أن السيدة تشورني كانت تنتظر بريدها دائماً في وِجار الكلب، وهذا يوفِّر مشواراً على رجل البريد، كما لا يمكن أن يتوقع منه أحد أن يختلس النظر داخل الوجار ليرى إن كانت الخطابات قد أُخِذَت. وحتى لو فعل ذلك، فربما كنتُ مسافراً... وهكذا دواليك.

ابتعت صنفاً من السمك المجمَّد، وهرولت إلى البيت. أجل، الخطاب الذي كنت أنتظره، مع بعض الإخطارات المتعددة، كانت في وِجار الكلب (الذي يمكن أن يصبح عائماً في المياه أثناء الجو المطير) وحملت المجموعة كلها إلى المنزل.

كان الخطاب الذي أريده مُرْسَلاً من ليزي شيرر، وحين أكتبه سيتضح الجانب الذي كنت فيه أقل صراحة مع هذه اليوميات. والواقع أنني كنت محجماً عن مناقشة موضوع ليزي قبل ذلك لأنني لم أكن متأكداً من شعوري نحو شيء فعلته حديثاً بشأنها. وليس معنى ذلك أنني كنت منفعلاً، أو قلقاً. فلقد عزمت حين جئت إلى هنا ألاّ أكون قلقاً على الإطلاق بشأن العلاقات الشخصية؛ ذلك أن مثل هذا القلق ليس إلا شكلاً من أشكال الغرور في معظم الأحيان. وما فعلته هو أنني أرسلت لليزي خطاباً يتكون من.. ماذا؟ - نوع من الاختبار، أو اللعب، أو المقامرة. لعبة خطرة. ولقد لعبت دائماً ألعاباً خطرة مع ليزي. أتراني آسفاً لإرسال هذا الخطاب؟ هل أنا نادم، أم سوف أندم على ذلك؟ ولكن، ربما كان من الأَوْلى أن أكتب كلمة عن الفتاة نفسها.

كانت كليمنت ميكين، أو لعلها أوشكت أن تكون - ممثلة عظيمة. أما ليزي شيرر فتأتي في الطرف الآخر من الميزان، إذ توشك ألا تكون ممثلة على الإطلاق. وإذا كانت قد حققت شيئاً من النجاح، فأنا الذي صنعتُه. شددتها بحيث تجاوزتْ حدودها، ويجوز لي أن أعترف الآن بأنني أتعبت نفسي مع ليزي، لأنني كنت أحبها، على نحوٍ ما. وأقول «على نحوٍ ما» لا لأنني لم أحب إلا مرة واحدة فحسب (ولم تكن ليزي صاحبة هذه المرة)، وإنما أيضاً لأنني وجدت الأمر يسيراً كل اليسر بدرجة تدعو إلى الدهشة - أن أهجرها عندما حان الوقت. لم أكن «مجنوناً» أبداً بليزي، كما كنت كذلك بنساء أخريات (مثل روزينا وجين) من حين إلى آخر. وإنما كنت مهتماً بها بطريقة حالمة نوعاً ما، ولعلها كانت حالة فريدة في حياتي. ولكني هجرتها. أما هي فكانت تحبني بشدة أكثر من ذلك. إذ كنتُ بالنسبة إليها الحب الحقيقي.

ليزي اسكتلندية، نصفها من اليهود الإسفارديم. وبالرغم من أنها كانت تمتلك أجمل نهدين رأيتهما لامرأة اشتهيتها على الإطلاق، فإنها لم تكن

جميلة حقاً، ولم تكن كذلك حتى في ريعان شبابها. غير أن لديها سحراً. هذا السحر الذي يشبه «التميمة»، وشبابها طالما دام - قَطَعا بها شوطاً قصيراً في المسرح. وكانت شديدة الاجتهاد، وتتصف بنوعٍ من الثقة الاسكتلندية الراسخة كانت لها معيناً دائماً. أما مظهرها فليس من اليسير وصفه. فهي ذات جبين واسع عريض، وپروفيل شديد الجاذبية (من الممكن أن يقع المرء في حب پروفيل). وخط جبينها ينحدر في قوس ناعم بديع لينتهي إلى أنف صغير جميل يسارع إلى الأمام متطلعاً إلى العالم دون أن يرتفع. ثم هناك خط مستقيم يتجه إلى ذقن صارم ينتهي بغمازة خفيفة. وشفتاها صارمتان أيضاً، ليستا مكتنزتين ولكنهما مصوغتان صياغة حسنة ولهما نسيج حساس (ما أشد اختلاف الشفاه الفردية!) وقد صبغتهما الطبيعة لا الفن بلون الترّاكوتا (الطين النضيج) الأحمر الجذاب. شفتها العليا طويلة جميلة التضاريس (أهناك لغة تحتوي على كلمة تصف تلك القناة الرقيقة التي تصل بين الثغر والأنف؟) يستطيع المرء أن يصف وجهها بأنه وجه ذكي إن لم يرتسم عليه ذلك النوع من الحياء الصبياني. وأعتقد أن هذا الحياء اللطيف المستعطف هو السحر الذي تتميز به ليزي. وعيناها بلون العسل الفاتح المُنَدَّى؛ وعندما قبَّلتُها. . . ما كان أشد وميض هاتين العينين الشاحبتين! إنها مصابة بقصر البصر (وتميل إلى تضييق حدقتيها لإمعان النظر). (وكما قال بيريجراين ذات مرّة فإن هناك نساء قلائل من الجميلات يستطعن رؤية كل شيء، ما دام الغرور يستبعد النظارات). ولها حاجبان لا يكاد المرء يلحظهما - بلون البرتقال، لم تعبث بهما أبداً، أثناء عهدي. وبشرتها موفورة الصحة، وردية، لا أثر فيها للمساحيق. والواقع أنها لا تضع إلا قليلاً جداً من الماكياج وتفتقر (ولعلها تصر على هذا الافتقار وتجعله شيئاً أساسياً) إلى ذلك التصنّع المدهش الذي تلجأ إليه سيّدات المسرح، أعني سطحياتهن المطلية (بالمينا) المورنشة. هذا التصنع يجتذب بالطبع. وقد اجتذبني. فأنا أحب الفن في نظرات المرأة، وإن كنت لا أريد بالضرورة أن أرى كل ما صنعته. وشَعْر ليزي - الذي صبغته الآن - له

لون القرفة البني، وهو غزير تتنوع انعكاسات الضوء عليه. (وهو على شيء قليل من التجعد وينمو بطريقة الحلقات اللولبية أكثر مما ينمو على هيئة خصلات). وعندما تكون سعيدة يشرق محياها إشراقاً رائعاً. ويستخفها المرح. (وفي أفضل حالاتها على المسرح، من الممكن أن يجعل وجهها النظارة يتنهدون سروراً). وما برحت وسيمة تماماً، وإن كانت قد سمحت لنفسها أن تكون شعثة غير مكترثة بمظهرها. وكل مدرسة للدراما تعلّم نظاماً جسمانياً، والتمثيل نفسه نظام جسماني. وسيدات المسرح يحافظن على نحافتهن وشبابهن وهذا ما أخفقت فيه ليزي. كما أنها لم تكن أنيقة قط. (وأنا لست لا مبالياً بالمتعة الفريدة التي تهيؤها المرأة الأنيقة). ومع تقدم الأعوام، ودون أن تلتفت تمام الالتفات إلى نفسها ـ تحولت إلى امرأة بدينة. يا إلهي، لا بد أنها تتقدم الآن نحو الخمسين من عمرها!.

والآن إليكم رسالة ليزي التي التقطتها من وِجار الكلب، والتي أعتقد أنها تفسر نفسها بنفسها إلى حدٍ ما:

عزيزي، وصلتني رسالتك الكريمة الجميلة، غير أنني لم أفهم منها شيئاً؛ ربما كنت أريد ألا أفهمها. يكفيني أني تلقيتها. وعندما أشاهد خطك أوشك على الإغماء فرحاً وخوفاً. ولكن؟ لماذا الخوف؟ ماذا فعلت لك سوى أن أحبك؟ وحينما أقرأ خطابك أبكي وأبكي. وأتساءل إن كنت تعلم مدى طوله، ما دام أفضل شيء كتبته لي لم يتجاوز بطاقة بريد؟ بل أشعر وكأنما أريد أن أكون سعيدة إلى الأبد لأنك كتبت إليّ، دون أن تكون بي حاجة إلى التفكير في خطابك أو الرد عليه. أما الآن، فأنا أتردى في القلق والخوف.

ماذا تريد يا تشارلز؟ أوه، ما أشد حضورك لذهني وأنا أقوم بالكتابة! ولكنك كنت حاضراً لذهني دائماً منذ أن أحببتك أول مرّة، إنك تعيش في ذهني. شيء في رسالتك جعلني سعيدة بوجه خاص وهو أنك لا تشك في أنني ما زلت أحبك. هذه الـ «ما زلت» لا يكاد يكون لها معنى هنا. ذلك أن حبي لك قائم في نوع من الحاضر الأبدي، بل إنه معنى الزمان نفسه. وأنا لا أحتج كثيراً. فمثل هذا الحب يمكن أن يحيا مع اليأس، مع الهدوء، مع الزهد، مع الرتابة والكلل والصمت.

أحبك، أي تشارلز، وسأحبك حتى أموت، وتستطيع أن تودع ذلك في قلبك، وأن تكون على يقين تام منه.

خطابك غاية في الفتور، الفتور المتعمد، وحافل بالنكات. (كل ذلك من أجل الإحتياج إلى «ممرضة»!). طيب، إنك تحب أن تراني، ولم لا، ألسنا صديقين قديمين. غير أن هذين الصديقين القديمين لا يستطيعان - بالذات - أن يحيّ أحدهما الآخر بكلمة «هاللو»، أو على الأقل، هذا الصديق لا يستطيع. نظرت إلى خطابك، وحاولت أن أقرأ ما بين السطور. «ماذا» يوجد بين السطور؟ أشعر بأنه من المفروض عليّ أن أتكهن بحالتك المزاجية. يا إلهي، حالتك المزاجية.أتريدني أن أقع في حكاية غرامية قصيرة؟ أرجوك أن تلتمس العذر لهذه الكلمات البشعة، غير أنك وضعتني في موقف بشع. وربما كان خطابك يعني القليل جداً، وأنا أتخيل أشياء. وربما كنت أنت نفسك لا تدري ماذا تعني، ولا تعبأ بذلك. وهذا شيء خليق بك أيضاً. سامحني.

إسمع يا تشارلز. قلت إنني معترفة بالجميل، وأنا كذلك. وكان من الممكن أن أتزوجك أعواماً وأعواماً - كما تعرف - لو أومأت إليّ بإصبعك. وقد خطبتك لنفسي كل يوم عندما كنا معاً! وأنا أعرف أن خطابك الذي أرسلته الآن لا يدور بالطبع عن الزواج. ولكن، ما هو الموضوع الذي يدور حوله؟ زيارة في نهاية الأسبوع؟ إنك لا تقول إنك تحبني. أتريد أن تقوم بتجارب الآن بعد أن أصبح بين يديك متسع من الوقت؟ تشارلز، إنني أريد أن أعيش، أريد أن أبقى، ولا أريد أن أصاب بالجنون مرة أخرى. وكلما ترويت الآن في كل ما حدث، أخاف من الاقتراب منك. عليك أن تقنعني، وأخشى أنك لا تستطيع. قلت لي ذات مرّة أنت نفسك، إلى أيّ حدّ؟ إن الحبّ أمر يظهر، كما تظهر زلّة اللسان. ونحن نلتقي ما يزيد على العام، وكانت آخر مرة ذلك الغداء الذي أُعِد من أجل «سيدني آسن»، وكم كنت أتطلع بلهفة إليه، ومع ذلك لم تتحدث إليّ إلا نادراً! ثم أردت أن أغادر المكان معك في سيارة أجرة، وفجأة، طلبت من نيل بيكرينج أن يأتي أيضاً. (من المحتمل أنك نسيت). ولم تتصل بي منذ ذلك الحين. لم تتصل بالهاتف، ولم ترسل إليّ كلمة، بالرغم من أنك تعرف إلى أي مدى ستكون فرحتي عارمة لو سمعت منك. بل إنك لا تعرف أين أقيم، فبعثت

الخطاب عن طريق وكيلي! كل هذا بيِّنٌ يا تشارلز. والآن، تكتب إليّ بغتة هذا الخطاب المضحك الغامض. إنها مجرد فكرة راودتك، وهناك نوع من التجريد فيه. ومن المحتمل أنك فكرت فيه على نحو أفضل فعلاً.

فلو أنني جئتُ لأراك كما تريد، جئتُ لمجرد أنك تشعر بحالة مزاجية تدفعك إلى أن تراني، نوع من محاولة مرافقتي مرة أخرى - لو كان الأمر كذلك، إذاً لوقعت مرة أخرى في الحال عائدة إلى الجنون القديم. لا أعني أنني تغلبت عليه حقاً، غير أنني عشت، واستطعت التصرف، بل وضعت أخيراً نوعاً من النظام في حياتي. عانيت بما فيه الكفاية - على كل حال - منذ أن هجرتني! ولن تعرف تمام المعرفة إلى أي مدى كان جنوني في تلك الأيام. ولم أُرِد أن أسيء إليك بأن أُطْلعك على آلامي على سبيل الانتقام. وطوال الوقت الذي كنا فيه معاً، كنت أعرف في كل دقيقة، وفي كل ثانية، أن فيها النهاية. أنبأتني بذلك مراراً إلى حد الكفاية! غير أنني (كنت مجنونة إلى هذا الحد) احتضنتُ العذاب، ولو استطعت أن أتعذب أكثر من ذلك، لتعذبت أكثر من ذلك. وإني لأتساءل هل أحببت أحداً على هذا النحو؟ يجوز أنك لا تفهم ذلك إلا على خشبة المسرح فحسب (أعتقد أنني وقعت في حبّك عندما كنت تصيح في روميو وجولييت قائلاً: «لا يلمس أحدكما الآخر»!) وظللت تردد أنك عرفت هذا الحب العظيم في صباك، غير أنني أعتقد أنك لم تقل هذا إلا لتعزيني عن عدم حبك لي بما فيه الكفاية. على كل حال، أنت لا تحبني بما فيه الكفاية، والآن - أنا لا أومن بالمعجزات.

تشارلز، لقد كنت في الجحيم، وخرجت منه، ولا أريد أن أعود إليه مرة أخرى. الغيرة هي الجحيم، ولم أعرف الشفاء بعد. افترض أنني أتيت إليك. بكل ذلك الحب القديم - فما كان منك إلا أن ابتسمت وأشحت بعيداً عني؟ أنت حر، وخطابك يجعل ذلك واضحاً وضوحاً لا مزيد عليه. سامحني، ولكنك تعرف كيف يتكلم الناس، كل إنسان يخبر كل إنسان آخر كل شيء، وما برحت ألتقي بفتيات لا أعرف حتى أنك عرفتهن يقلن إن لهن معك غراميات رومانسية، ويجوز طبعاً أنهن كاذبات. أنت تعرف أنك لا تستطيع أن تصد يديْك عن النساء، وأنا لم أعد شابة وجميلة كما كنت، وأنت تحب أن تطارد ما يستعصي عليك مناله، كما أنك لا تريد أن تبقى مع أحد، وفي النهاية تتخلى عن الجميع!

وأنبأتني ذات مرة أن الزواج أشبه بشراء دمية، وهذا القول يبينّ رأيك في الزواج. ولا أعتقد أنك تقاعدت حقاً، ويقول جيلبرت إن ذلك أشبه بإله يتقاعد، أنت لا تعرف الاستقرار إلى حد بعيد. وقد جعلتني أمثل، وإنك لتجعل كل إنسان يمثل، وأنت تشبه راقصاً بارعاً جداً، وأنت تدفع الآخرين إلى الرقص، غير أن هذا ينبغي أن يكون معك. أنت لا تحترم الناس بوصفهم بشراً، أنت لا تراهم، ولست معلّماً حقاً، أنت أشبه بساحر ضارٍ. كيف يمكن أن أتصور أن هذا كله يمكن أن يتوقف؟ أتريدني بوصفي نوعاً من صديقةٍ صبورٍ، وصيفة تحْبك خيوط الصوف، امرأة عجوز حكيمة هادئة، زوجة أكبر منك متقاعدة تستطيع أن تشكو إليها من عشيقاتك الأخريات؟ لن يستقيم هذا الأمر، يا تشارلز، فأنا لست هادئة ولست حكيمة. إنما أريد كل شيء. وفي إمكانك أن تنجب أطفالاً. وأتذكر أنك قلت أكثر من مرة إنك تتلهف على ابن. وأنا أحبك حباً جماً، كل ما في الأمر أنني لاأستطيع أن أضع رأسي في تلك الخِسَّة. حبي لك قد ثاب إلى الهدوء آخر الأمر. فلا أريده أن يصبح أتوناً مزمجراً.

وهناك شيء آخر يجب عليّ أن أخبرك به. أنا أعيش الآن مع «جيلبرت أوبيان». . ومن الجلي أنك لا تعرف، وإلا كنت ذكرته في خطابك. أعرف أنك جعلتني أعد بأن أخبرك إن أقمت بصورة دائمة مع أي شخص. (أساء إليّ كثيراً حين أنبأتني ريتا جيبونز أنك جعلتها تَعِد بهذا أيضاً. غير أني لم أخبرها بوعدي. وقالت إنها لا ترى وعدها ملزماً لأنه أعطي تحت التهديد). ولم أخبرك عن جيلبرت لأنني لا أعيش معه بالصورة التي ذكرتها، أعني أننا لسنا عاشقين، بالطبع لا، لأن جيلبرت لم يتحول عن شذوذه الجنسي بغتة. كل ما في الأمر أن كلاً منا يحب الآخر ويرعاه، كما نشارك في منزل واحد، ولأول مرة في حياتي كنت سعيدة، يا تشارلز. وهذا هو أكثر الأشياء التي فعلتها إبداعية، أكثر كثيراً من التمثيل. كنا نعيش على هذا المنوال عندما التقينا على غداء سيدني، وكان من الممكن أن أخبرك حينذاك لو أنك أبديت أي اهتمام، أو سألتني حقاً! ولقد هجرتُ المسرح أيضاً يا تشارلز، وأشعر بأنني أفضل كثيراً. وبأمانة، لقد كان المسرح دائماً تعذيباً لي. وما تألقت إلا من أجلك، وعندما تركتني أصابني الذبول! (ولم أكن مجيدة على كل حال!) وعندما أنظر إلى الوراء، وأرى إلى أيّ حدّ كان

وجودي شقياً غبياً قلقاً مرتبكاً أعواماً إثر أعوام ـ عندما أرى ذلك لا أستطيع أن أتصور كيف احتملت هذا كله. كنت قادرة تماماً على أن أكون سعيدة، غير أنني تصرفت دائماً على ألا أكون كذلك. وكان الرجال يعاملونني دائماً معاملة حيوانية. أما جيلبرت فمختلف تمام الاختلاف. وأنا الآن أحيا وجوداً محترماً مُنَظَّماً بهيجاً. بل إنني مفيدة أيضاً! وأعمل شطراً من الوقت في مكتب أحد المستشفيات. وأتعلم رسم حكايات الأطفال وكتابتها (وإن لم يُنْشر منها شيء بعد). ولعلك تعتقد أن هذا شيء جدير بالشفقة، غير أنه بالنسبة لي هو السعادة والحرية. وجيلبرت سعيد هو أيضاً. وقد انقطع عن الشكوى لأنه لم يكن ناجحاً، ولم يكن نجماً، وهو يستطيع الحصول على بعض الأدوار الصغيرة، ويعمل قليلاً في التليفزيون. لسنا أغنياء، ولكننا نستطيع أن نكسب شيئاً من المال، وأن يعتني كل منا بالآخر. الحنان والثقة المطلقة والتواصل والصدق: هذه الأشياء تزداد أهمية كلما تقدم الإنسان في العمر. وقد تخلى جيلبرت عن «الصيد»، ويقول إن كل ما كان يريده هو الحب، وقد فاز بحبي. كل شيء أصبح بسيطاً بريئاً على حين غرة (يبدو لي الآن أننا تعرضنا لغسيل المخ) فيما يتعلق بـ «الجنس»!). أرجو أن تفهم، يا عزيزي، عزيزي تشارلز ـ ولا ينتابك الغضب. أنت تعلم (ولن أخوض في هذا الأمر لأنه يضايقك عادة) كم يحبك جيلبرت أيضاً. والحق أنه يعبدك. غير أنه خائف الآن خوفاً شديداً. ويقول إنك ستأتي بعربة ترويكا، لتحملني إلى الفجر. (أعتقد أن هذه الجملة فقرة استشهاد، وكنت تقول إنني لا أقرأ شيئاً سوى شكسبير، ودوري الذي سأقوم به فحسب!) ما زال خائفاً منك، وكذلك أنا. وعادة إطاعتك قوية فينا كِلَيْنا! لا تستخدم سلطتك لإيذائنا. وفي استطاعتك أن تضغط عليّ ضغطاً رهيباً، ولكن، لا تفعل ذلك. كن كريماً أيها القلب العزيز. وفي مقدورك أن تدفع كلاً منا إلى الجنون. وقد قطعنا شوطاً طويلاً في حل مشاكلنا، وإذا اعتقد بعض الناس أنه حل مضحك، فذلك لأنهم يفتقرون إلى الخيال والذكاء. وأنت لا تفتقر إلى أيّ منهما.

تشارلز، أنا لا أريد أن أراك الآن، بعدُ. سأستسلم بكل بساطة، ولا بد لي من أن أُشْفى من خطابك. أرجو أن تكتب وأن تقول إنك لست غاضباً. وعندما أكون أهدأ بالاً، دعنا نتقابل، ولا بدّ أن تأتي إلى هنا وأن ترى جيلبرت. لا بدّ أن

هناك طريقة. وقد أنشأ خطابك فراغاً ينبض بالألم، واحتياجاً. ولن أكون مثلما كنت. غير أنني سعيدة هنا، وجيلبرت في حاجة إليّ، ولدينا هذا المنزل (إنه نصف منزل في الواقع) الذي صنعناه معاً. وإذا تركته فسيكون ذلك ضربة قاضية فظيعة بالنسبة لكل منا، وستتحطم شظايا. (وعلى كل حال، أنا لا أعرف ماذا تريد، وأياً كان هذا، فلا يجوز أن تطلبه الآن... يا إلهي. ويقول جيلبرت إنه ينبغي أن تستقبلنا في النهاية وكأنما تستقبل أبناءك. أواه يا تشارلز، إنني مندهشة من عرامة تلك القوى التي آمرها بالخمود. ما برحت كلها هناك، كل حبي القديم لك. دعنا لا نبدد الحب، على نحوٍ ما، إنه نادر بما فيه الكفاية. لقد فكّرت فيّ، وكتبت إليّ. في غاية من العذوبة، وغاية من السخاء. أمن الممكن أن يحب أحدنا الآخر، وأن يرى كل منا الآخر، أخيراً، في حرية، بدون ذلك التملك البغيض، والعنف والخوف، الآن بعد أن تقدم بنا العمر؟ أتوق إلى أن يحب كلٍ منا الآخر، ولكن بغير الطريقة التي تحطمني. استولى الحزن عليّ أعواماً من أجلك. وكان حبي لك يتخذ دائماً وجهاً حزيناً. ما أضعف قوة الحب! تشعر بأنك تستطيع إرغام المحبوب، غير أن هذا وهم! وأنا أبكي أثناء كتابتي هذا الكلام. أرجوك أن تكتب إليّ في الحال، وأن تقول إننا نستطيع أن نلتقي فيما بعد، برهة قصيرة، وأنك لن تكف عن حبي. لا تفقد هذا الحب، على نحوٍ ما، هذا الحب - أياً كان - الذي جعلك تكتب تلك الرسالة، وسينظر كل منا إلى الآخر.

حبيبتك إلى الأبد

ليزي

كنت جالساً لبعض الوقت في الحجرة الصغيرة الحمراء، حيث أشعلت أخيراً ناراً ناجحة. ويبدو أن المدفأة استطاعت أن تتغلّب على نوبتها المدخّنة. أتكون المسألة أن الخشب كان رطباً أكثر من اللازم؟.

قرأت خطاب ليزي من أوله إلى آخره مرّتين. بالطبع، هو خطاب امرأة يتسم بالحمق وعدم الاتساق، يقول نصف ما تحاول أن تقوله بالعكس. وليزي لا تستطيع أن تُحجم عن عَرْض نفسها. ورداً على رسالتي التي

تعمّدت أن تكون فاترة، أعلنت احتجاجها كثيراً بالطبع. وقد ترد امرأة أذكى من ذلك ردّاً فاتراً، وتتركني أقرأ ما بين السطور. امرأة أذكى من ذلك، أو أقل إخلاصاً. وخطاب ليزي يحتوي على محاولاته الخاصة للالتباس، غير أنها محاولات شفّافة. . أيتها المسكينة ليزي. إنني لا أستطيع أن آخذ ما كتبته عن جيلبرت أوپيان مأخذ الجد، وإن كنت غاضباً عليها لأنها لم تخبرني، وأشعر بأنها حنثت بوعدها. وفضلاً عن ذلك، ماذا تكون علاقاتها؟ إن الوجود بالقرب من ليزي كاف وحده ـ حتى الآن ـ في أن يحيل انتباه أي رجل إلى الجنس الآخر (نهداها وحدهما كافيان للقيام بهذه المهمة). أتراهما يحتسيان الكاكاو وهما في ثياب النوم؟ المسألة كلها بشعة نوعاً ما. بالطبع جيلبرت ليس شيئاً يذكر: إنه رجل طريّ، وأستطيع أن أسحقه بيد، وأن أنتزع ليزي باليد الأخرى. ومن المؤكد أنني لا أستطيع احتمال أي حب أفلاطوني ثلاثيّ الأطراف. ومن تاريخ خطاب ليزي، يبدو أنه ظل في وجار الكلب ما يزيد على أسبوع، وبالتأمّل يبدو أن هذا التعطيل لم يكن سيّئاً، فلو أنني تسلّمته في الحال، لدفعني ذلك إلى كتابة رد غاضب أو هازل برجوع البريد. أما والحال كذلك، فقد أتيح لها صمت تستطيع أن تتروى فيه. وقد يكون من الأفضل إطالة هذا الصمت. .

وعلى كل حال، لترديد سؤال ليزي المعقول تماماً وهو: ماذا أريد؟ لماذا تأخذ النسوة كل شيء بهذه الحدّة، ويحدثن كل هذه الضجّة؟ لماذا يطلبن دائماً تعريفات، وتفسيرات؟ والواقع أن خطابها يحتوي على بعض التكهنات اللّماحة، وانفجار الكراهية الهادىء لم يَفُتْني. فليس من شك أن تلك الملاحظات الجارحة، وغير الظالمة في مجملها، كانت مخزونة منذ أمد طويل! لعلّي أريد نوعاً من «الزوجة المتقاعدة الأكبر سناً» شطراً من الوقت، مثل امرأة مشتهاة انحدرت إلى الشيخوخة في الحريم فتحوّلت إلى صديقة: رفيقة تؤخذ على أنها شيء مفروغ منه، يعيش المرء بقربها ولكنه ليس ملتزماً نحوها إلا بروابط الصداقة؟ (لا يدعو هذا إلى استبعاد المعاشرة من حين

إلى آخر. والواقع أن موقف الحريم يلائمني تمام الملاءمة.) لماذا لا تكون ليزي ذكية بما فيه الكفاية لكي تفهم؟ لم تقل رسالتي شيئاً عن الزمان والمكان، كل ما في المسألة هو أنني أفكِّر فيها وأريد أن أراها. ولكن، ها هي ذي تبدأ في توجيه أسئلة مطلقة. «تجربة»؟ أجل، ولِمَ لا؟ إنها تعرف كم أمقت استعراضات العواطف، ومع ذلك تصبُّها جميعاً دون إحجام. إنها «تريد كل شيء»، أليس كذلك؟ غير أنها لا تستطيع أن تنال كل شيء. وهذا بلا ريب هو واقع الأمر.

أنا لا أشعر بالغيرة نحو جيلبرت، ولكنني أشعر إزاءه بنوع من الحسد! إنه الشخص الذكي. لقد حصل على ليزي البسيطة بوصفها مدبِّرة منزله الحلوة المُحِبَّة؛ وفي الوقت نفسه أشك كثيراً في أنه أقلع عن «الصيد». ولا بد أن أعترف بأنني ما زلت أحمل مشاعر المِلْكية نحو ليزي. لقد «دامت» في ذهني. ومع ذلك، فإنها على حق في أن الحب ينكشف كما تنكشف زلّة اللسان، كما قلت لها ذات مرة حين كشفت عنها زلّة لسانها! (لعمري، كيف تكتنز الفتيات ألفاظ المرء!) لقد أهملتها، بل كنت قاسياً، برغم أن هذا يمكن أن يسمى علامة على الحب، والإهمال علامة على الثقة. وما زلت أتذكَّر في الواقع حكاية سيارة الأجرة بعد الغداء الذي أقيم لسيدني، ورأيت أن ليزي كانت تخطِّط للانصراف معي. غير أنني تعمَّدت في اللحظة الأخيرة أن أصحب «نيل بيكرينج» معي أيضاً. و«نيل» هي النجمة الموسيقية الكوميدية الجديدة التي كنت أغازلها طيلة حفلة الغداء. وهي في الثانية والعشرين من عمرها. (ولم يكن يضيرني أن أضمَّها إلى حريمي). يا لليزي المسكينة! ما الذي دفعني بغتة إلى كتابة ذلك الخطاب الكيدي الذي يخلط الجد بالهزل؟ أيكون شيء من خوف الوحدة والموت قد تسرَّب إلى نفسي من البحر؟.

وما دام موضوع ليزي شيرر قد أثير، فمن المستحسن أن أعطي مزيداً من الوصف لها. بدأت في حب ليزي بعد أن أدركت مدى حبها الشديد

لي. وكما يحدث في كثير من الأحيان، كان لحبها تأثير عليّ، ولم يلبث أن اجتذبني. وكنت في ذلك الحين أقوم بإخراج موسم لشكسبير. ووقعت في غرامي أثناء «روميو وجولييت»، وكاشفتني بحبها خلال «الليلة الثانية عشرة»، وعرف كل منا الآخر أثناء «حلم ليلة منتصف صيف»، ثم بدأت (وكان ذلك فيما بعد) أحبها أثناء «العاصفة»، وهجرتها (وكان ذلك مؤخراً أيضاً) أثناء «دقة بدقة» (أو «واحدة بواحدة» Measure for Measure) عندما كان «آلويسيوس بول» يمثّل دور الدوق. وأتذكّر جيّداً تلك المناسبة التي أدركت فيها لأول مرة أن ليزي تحبني. كانت تقوم بتمثيل دور «فيولا». (كان هذا أثناء الفترة القصيرة التي «تألّقت فيها ليزي»، عامها المدهش annus mirabilis.) وكان ذلك هو الإنتاج الذي أصرَّ فيه ولفريد دانتج بغتة على القيام بدور مالفوليو، وكان يمثّل عادة دور سير توبي بلتش. أو لعله لم يصرّ، بل سمحت له. وكانت أعجوبة، ولكنها دمَّرت الانتاج. وكنا - ليزي وأنا - وحدنا في قاعة كنيسة معرَّضة للتيارات الهوائية، غير أنها كانت - لسبب ما - المكان الوحيد المتاح لنا حينذاك لإجراء التجارب المسرحية (البروفات). وكانت أمسية شتائية. وأذكر أن المكان كان مضاءً بالغاز. وليزي (وهي آنذاك المشهد الرابع من الفصل الثاني) قد وصلت من دورها إلى الموقف «الذي لن تفصح فيه عن حبها أبداً». وهنا توقفت، ويبدو أنها شَرِقَت، ولم تنطق بشيء بعد ذلك. وظننت لأول وهلة أن هذه هي فكرتها المؤثرة إلى أقصى حد عن أداء كلمتها، وانتظرت منها أن تواصل دورها. ولكنها نظرت إليّ، ثم اغرورقت عيناها بدموع ضخمة متلألئة. وعندما أدركت جلية الأمر، طفقت أضحك، وأضحك، وأضحك، وبعد هنيهة ضحكت ليزي وضحكت. وبكت مغلوبة على أمرها. وأحببتها لهذا الضحك أيضاً. كانت فتاة طيِّبة، وما زالت حتى الآن، فتاة طيِّبة.

وعندما أتخيَّل ليزي، أتصوّرها دائماً في السراويل القصيرة. فقد أحرزت شهرة صغيرة لأول مرة، كصبي رئيسي في مسرحيات إيمائية (بانتومايم)

إقليميـة قصيرة. وكـانت نحيفة جـداً في تلك الأيام، ولهـا مظهـر صبيـاني، واعتادت أن تتجوَّل فيما حولها في حذاء ذي رقبة طويلة، وقـد قصَّت شعرهـا بحيث يبدو قصيراً جداً. وكان طموحها العظيم الذي لم يتحقَّق أبداً هو أن تقوم بدور بيتر پان Peter Pan. وكـانت ـ باختصـار ـ قابلة لـلاستخدام تماماً في أدوار شكسبير الثانوية للفتيات. (أخرج لها سيدني فيـما بعد دورهـا في روزاليند). وقد صنعتُ منها «ڤيولا» محبوبة، غير أن أعظم نجاحاتهـا في ذلـك الموسم التـاريخي كان دور پـاك Puck (في «روميو وجـولييت» أخذت دور سيِّـدة صامتـة. وقد نسيت اسم الممثِّلة التي لعبت دور جـولييت، وإن لم أنسَ أنها لم تكن جيِّدة). وقد تأثَّرت بحب ليزي، وبطاعتهـا الرائعـة، غير أنني كنت وقتئذ مرتبطاً بروزينـا، ولم أرَ في ليزي سـوى جنِّية هشَّـة ساحـرة أميل إلى الطفـولية. وفي كـل مرة ألتقي بهـا كنت أضحك، فتضحـك هي أيضاً. واعتدنا أن يضحك كل منا من الآخر إذا التقينا في المطاعم، وبغتة، وبصورة غامضة، أثناء إجراء التجارب. ولم أكن بحاجة إلى أن يخبرني أحد بحبهـا العنيف لي، بـالـرغم من أنها لم تبـح بشيء، حتى في أول منـاسبـة أتيحت لها. وظننت أن هذا أسلوب تلجـأ إليه. وطيلة مسرحيـة «حلم. .» استقرَّت نظرتها المشرقة عليّ، ومسَّت إرادتها إرادتي فـارتعشت. كانت تفهم وتطيع. وعلى الرغم من أنها كـانت تعلم بأمـر روزينا (أخـبرتني بذلـك فيما بعد)، فقد عاشت في نوع من نعيم العذاب الذي لا مناص من أن أعترف بأنه منحني شيئاً من الرضا. ولعل هـذا الرضـا كان إرهـاصاً بـالحب الذي سأحمله لها فيما بعد. وكنت ـ حينذاك ـ قد سئمت من روزينـا تمامـاً. وفي إنتـاج مسرحية «حلم. .» قـام آل بول (أكـثر الممثلين بعداً عن الاستقـامة) بدور «أوبيرون» بـطريقة ريفيـة، فندمت لأنني لم آخـذ هذا الـدور لنفسي. وكان كأس ليزي قد امتلأ لحافَّتـه وفاض! ومـا إن انتهى هذا المـوسم حتى شددت رحالي إلى أمريكا، وهناك تتابعت فصول ذلك الفاصل الـرهيب في هوليوود، وحدثت أول كارثـة مع «فـريتزي آيتـل». وأعتقد أنني ذهبت إلى هوليوود هرباً من روزينا، كسبب بين أسبـاب أُخَر. وعـلى كل حـال، كان

رحيلي هذا فراراً، وظنَّت روزينا أنني هجرتها من أجل ليزي، غير أن الأمر لم يكن كذلك.

وعندما عدت ثانية إلى إنجلترا سادت بغتة فترة من السلام، وشاع جو من البراءة المستعادة والفرح. وكان الوقت صيفاً. وتصالحت مع كليمنت التي كانت تعشق حينذاك واحداً من شبانها الحمقى. وأحسست ـ بعد فظائع كاليفورنيا ـ بأنني حر وسعيد. وأردت أن أرجع إلى شكسبير بعد ذلك «العمل» الذي كنت أخوضه في أمريكا. وأتاح لي مخرج أمريكي من الذين يستهدفون الربح العاجل ويدعى «إشعياء مومسن»، أن أقوم بدور بروسبيرو. وكان هذا آخر دور مهم أقوم به. وأخذت ليزي دور آرييل. ولم أشاهد في حياتي «آرييل» بهذه الروحانية وبهذه الدقة كما أدَّتها ليزي. وكان حبها لي هو الذي جعلها كذلك، وفي وسط هذا كله دفعني ذلك السحر إلى حبها. والغريب أنني شعرت عندئذ ـ ومكث هذا الشعور معي ـ أنني أحبها كما أحب ابناً لي. وكانت في كثير من الأحيان تسمِّي نفسها «وصيفاً» لي. وقد تميَّزت بصوت غنائي رقيق، وما زلت أستطيع أن أسمع النغمة الصادقة الرقيقة التي كانت تغني بها Full Fathom Five. كيف يحدث ذلك الآن، بعد كل هذه الأعوام، بروحي العابثة! وأتذكَّر أنها قامت ذات مرة بتمثيل دور «تشيروبينو» في إنتاج هاوٍ لأوبرا فيجارو، وكان نجاحها الضئيل هذا أحد الأشياء التي تعتز بها أشد الاعتزاز. يا للعنة! لقد خطر لي الآن فحسب أن جيلبرت أوبيان ـ من المحتمل ـ أن ينظر إليها بوصفها صبياً!.

كان حبي لليزي حباً بريئاً على نحو ما. (يا إلهي! أية مواقف محرجة تورَّطت فيها مع ريتا وروزينا وجين ودوريس، والباقيات..) وكانت البراءة هي موهبة ليزي الخالصة. وكان حبها شديد التوجس، وغاية في الذكاء.

ولم تلجأ أبداً إلى قوّتها لكي تفرض عليّ أخفّ الأغلال الأخلاقية. وقد يقول القارىء، غير أن الأغلال كانت موجودة! جميل، أجل، ومع ذلك

كـان شيء من اللطف الناجم عن إنكـار ليزي لـذاتهـا كفيـلاً بـإلغـاء تلك الأغلال، ومن ثمّ كنا نعيش في عالم ذهبي. وبالطبع، لم تكن توجِّه إليّ أي لـوم على الإطـلاق. ويبدو وكـأنها لا تريـد حقاً أن تشعـرني بأي إحسـاس بالواجب نحوها. وإنما تريـدني أن أستخدمهـا ببساطـة من أجل سعـادتي. وكتابة هذه المسألة بهذا الأسلـوب يضفي عليها مظهراً فجاً. ولكن، عندما عشنا هذه التجربة، كانت من ناحيتها لباقة أشد ما تكون عمقاً وتواضعـاً، وكانت من ناحيتي حبـاً قوامـه الامتنان اللطيف. وكـان كل منـا لطيفًـا تجاه الآخر.

ومع ذلك، كان الأمر أيضاً ـ بالـطبع ـ مشهـداً من مشاهـد المذبحـة. (لماذا أستمتع بكتابة هذا كل هذا الاستمتاع؟) فقد أخبرتُها منذ البداية أنني لا أتصـوَّر الزواج منهـا: أكـان هنـاك ـ مـع هـذا كله ـ أمـل أعمى غبي يراودها فيجعلها تتصرَّف معي بكل هذا الحنان اللامتناهي؟ يا لها من فكرة جحود: كنت على يقين من أنها لا تشعر بهذا الأمل. فقد أنبأتها بأن غرامي مؤقت، وأن حبي لهـا مؤقت، ولا شـك أن حبهـا لي مؤقت أيضـاً. وكنت أتحـدث عن الفناء والهشـاشـة والـظلاليـة التي تتصف بهـا طبيعـة التـدابـير البشرية، واللاواقعية المشوَّشة التي تتسم بها العقول الانسانيـة، بينما كـانت عينـاها العسليتـان الواسعتـان تتحدثـان إليّ عن الأبدي. قـالت: أريد أن أكـون كاملة من أجلك بحيث تستـطيع أن تهجـرني دون ألم. وهذا التعبـير الكـامل عن الحب كـان يثير أعصـابي. قالت: سـأنتظرك إلى الأبـد، عـلى الـرغم من أنني. . أعرف. . أنني. . أنتـظر. . . لا شيء. يا لهـا من ثنائيـة عن الحب، وما أشد استمتاعي بها، وإن كنت في عذابهـا أتعذَّب أنا أيضاً قليلاً ما. ومن المؤكَّد أنها كانت تخفي ألمها ما وسعها ذلك، ولكنهـا عندمـا أشرفت على النهاية، كان ذلك مستحيلاً. فقد بكت أمامي بعينين واسعتين مفتـوحتين، دون أن تقـاوم الدمـوع التي تساقـطت عـلى كمِّيَّ وعـلى يـديّ كأمطار العاصفة. وعندما طلبت منها أخيراً أن تنصرف، ذهبت كـما يذهب

الظل في شيء من الطاعة السريعة الصامتة. وذهبتُ بعد ذلك إلى زيارتي الثانية لليابان. وما زال مذاق «الساكي» يذكّرني بدموع ليزي.

لم تعرف الازدهار في المسرح بعد أن رَحَلْتُ. (هبطت السيدات جميعاً إلى السفح بعد أن تركتهن، فيما عدا روزينا. وطبعاً، لم أترك كليمنت حقّاً على الإطلاق، حتى عندما ارتبط كل منا بعشاق وعاشقات آخرين، وإن كان ذلك أمراً بشعاً بالنسبة لأولئك العشاق والعاشقات). وبعد عامين من تكريس ليزي في دور آرييل، كان الناس يتساءلون: ماذا حدث لليزي شيرر؟ وكنت معترفاً بجميلها إلى أقصى حد، وهذا وحده هو الذي جعلها «تدوم» في ذهني. هذه الفتاة العزيزة لم تجعلني أشعر بالذنب أبداً! وثمة نور من الشجاعة والصدق يتلألأ حولها في ذاكرتي. ومن الممكن أن تكون المرأة الوحيدة (فيما عدا استثناء واحداً) التي لم تكذب عليّ قط. وفي كثير من الأحيان، يغمرني تذكر صنوف العذاب التي عانتها ـ بنوع من السرور الرقيق، على حين أنني عندما أفكّر في ضروب العذاب التي كابَدَتها النسوة الأخريات، أميل إلى الشعور باللامبالاة، أو حتى بالضيق.

أردت أن تكون لي زوجة ذات مرة عندما كنت شاباً، غير أن الفتاة (التي اخترتها) لاذت بالفرار. ومنذ ذلك الحين لم أفكّر حقاً تفكيراً جدياً في الزواج. وكانت ملاحظتي لحالة الزواج هي التي جعلتني أتصوّره. وكان الزوجان السعيدان الوحيدان اللذان عرفتهما حق المعرفة هما زميلاي في كمبرج؛ ڤيكتور وجوليا بانستيد، وفي المسرح سيدني وروزماري آش، وحتى هؤلاء، من يدري... فالناس أسرار، كما يقولون. ومن الممكن أيضاً أن أضم إليهم ويل وأديليد بوس Boose، غير أن هذا الزواج لم يدم إلا لأن الزوجة تستسلم طيلة الوقت، وهذا، على ما أظن، هو أحد الطرق، وأفضل ما يلائمني هو دراما الانفصال، والتطلّع إلى المواعيد واللقاءات. ولا أستطيع أن أؤثر ذلك الحضور الأبدي المرعب للزواج على سحر اللقاءات والافتراقات. بل أنا لا أعبأ بمشاطرة الفراش، ونادراً ما

أرغب في قضاء ليلة كاملة مع امرأة ضاجعتها. ذلك أنها تبدو لي في الصباح أشبه بعاهرة. والزواج ضرب من غسيل المخ الذي يَقْهَر العقل على قبول كثير من الفظائع. ما أشد إهمال المتزوجين لمظهرهم، وما أقبحهم، وما أبعدهم عن الجاذبية - تلك الصفات التي تركوا أنفسهم يتحوّلون إليها حتى دون أن يلحظوا ذلك. وأحياناً أفكّر في هذه البشاعات لمجرد أن أغبط نفسي لأنني استطعت الإفلات منها.

ومن هذه الناحية، كانت كليمنت تفهمني فهماً تاماً، ولعل ذلك لأنها كانت دائماً في وعي مفرط، بأنها «عجوز بما يكفي لأن تكون أمي». وما أكثر المرات التي كانت تقصفني فيها بهذه الجملة، وهي في أوج تألقها بجمالها وسحرها الشهيرين اللذين احتفظت بهما طويلاً! وكنا نعرف أننا لن نتزوّج أبداً، كما كنا نعلم أن كلاً منا سيعذّب الآخر، ومع ذلك كنا نخطّط لسعادتنا، وكنا نستخدم حقاً ذكاءنا المشترك لمواجهة هذه المشكلة. وكانت - بالطبع - على نحو ما - حالة ميئوس منها، غير أنها كانت حالة ميئوس منها دامت بأعجوبة بقية حياة كليمنت، ومن ثمّ، لم يكن تصرّفي سيئاً للغاية فيما يتعلّق بمعاشرتي لهذه المرأة الرائعة التي تبعث على الجنون. أكنت قاسياً نوعاً ما نحوها، ألا أقول مطلقاً إلى أي مدى أحببتها، محاولاً أن أبقيها (على جمر النار)، متحيّرة، متخبّطة، في وضع غير مؤاتٍ؟ ربما، كنت أخشى أن «أُبْتَلَع». كنت أرحل، وكنت أعود، ثم أرحل مرة أخرى. كما أنها لم تكن وحيدة، وكانت مهاجِمة دائماً. ولم أكن أبداً غيوراً غيرة جامحة، فيما عدا فترة قصيرة كنت فيها غيوراً من ماركوس، لأن علاقتي كانت حميمة بكليمنت وكأنها كانت أمي حقاً! (وإن لم أستخدم قط هذه العبارات في حديثي إليها). وقد أصبحتْ سريعة الغضب، شديدة الرغبة في التملك في الأعوام الأخيرة، ومضت تحاول إسعادي بصورة تبعث على التأثر، ولم تكن تستطيع الكف عن المغازلة. وعندما صرعها المرض صارت أقرب إلى البشاعة حين اقتربت من النهاية، ولم تعد ثمة مندوحة من الكذب عليها

فيها يتعلَّق بمنظرها. ولم تلبث أن فقدت قوامها وأخذت ترتدي سراويل من أقمشة قطنية مخملية الزغب وسترة فضفاضة أشبه بالكيس. وكانت تبدو كأغرب عجوز لُطِّخت ثيابه ببقع الخمر والسعوط. ومع ذلك، كان من الممكن أن تنفق ساعة يومياً في «صُنع وجهها». وربما كان ذلك هو آخر متعة تتخلَّ عنها المرأة.. كلا، لم أفكِّر في الزواج أبداً. فإنها أول فتاة جعلت كل من يأتي بعدها يبدو رديئاً.. أو لعل الأمر راجع إلى مجرد المقارنة ببطلات شكسبير.

أكتب هذا بعد أن تناولت عشائي، وكان مكوَّناً من بيضة مسلوقة في بيض ساخن مدهوك، ثم بعض أعشاب الكولى (من فصيلة النعناع) مُدَمَّسة مع البصل، ومع نثار خفيف من مسحوق الكاري، يعلوها قليل من صلصة الطماطم الكيتشاب Ketchup والخردل (المستاردة). (لا يزدرد كيتشاب الطماطم إلا أحمق)، ويأتي بعد ذلك طبق رائع من بودنج الأرز. ومن اليسير صنع هذا اللون اللذيذ من بودنج الأرز، ولكن كم عدد المرات التي يلتقي فيها المرء بمثل هذا الصنف؟ وشربت نصف زجاجة من الميرسو Meursault لكي أحيِّي ما تناولته من عشب الكولي.

ليزي.. أجل، لقد صَمَدَتْ في السباق. لقد شعرت بمزيد من العاطفة مع قليل من الراحة عند سواها: التفضيلات العميقة الغامضة نصف العمياء التي تختارها الكائنات البشرية فيما بينها، قرون الاستشعار السريعة التي تبحث في الظلام، لماذا يحب المرء (أ) ولا يكترث لـ (ب) دون تفسير، ومع ذلك بيقين تام؟ كنت على سجيتي مع ليزي، وكانت مضايقاتها الذكية اللطيفة تشعرني بالحرية. أجل، السؤال النهائي هو: إلى أي مدى يشتهي المرء صحبة شخص آخر؛ هذا شيء أكثر أساسية، وهو أهم من العاطفة القوية أو الإعجاب أو «الحب». وإني لأتساءل من الذي سيعتز بي عندما أصبح عجوزاً مذعوراً؟ وبالإجمال، فأنا أشعر بالارتياح لأن خطابها يمكن أن يؤخذ على أنه مجرَّد نفي. لم يعد فيه مجال لمزيد من القلق والقرارات.

سأترك الأمور تجري في مجراها الطبيعي. أما فيما يتعلق بجيلبرت، هذا الذبابة المائية، فإنه ليس قريباً من وعيي. وإني لأتعجَّب من اعتقاد ليزي المؤثر فيه. ومن الحق أنني أستطيع أن أمارس على كليهما أشد أنواع الضغط، غير أنني لن أفعل ذلك بالطبع. فليس من شك أنني قد أحدثت من الضرر ما فيه الكفاية بمجرد تذكير ليزي المسكينة بوجودي!.

«هل تعلم ما تعنيه كلمة Poltergeist*، يا سيد آركرايت؟».

وسمح السيد آركرايت بانقضاء برهة من الاحتقار، بينما أخذ يمسح الطاولة (الكاونتر). ولم يكن صمته ينطوي على التردد: «نعم، يا سيدي.» وكانت «سيدي» تنبيء عن السخرية، ولا تدل على الاحترام.

- «أسمعت أن واحداً منها يوجد في شراف إند؟»
- «كلا، يا سيدي.»
- «واحد من ماذا؟ ماذا يقول؟» وكان صاحب هذا السؤال واحداً من الزبائن.

فقال السيد آركرايت: «بولتر جايست Poltergeist.. إنه... نوع من...»
ولم يستطع أن يقول شيئاً، ولهذا تدخلت قائلاً: «إنه نوع من الشبح الذي يكسر الأشياء.»

- «شبح؟» وساد نوع من الصمت المشحون بالمغزى.
- «ألم تسمع قط بأن شراف إند مسكونة؟».

وتطوَّع شخص للإجابة: «أي منزل يمكن أن يكون مسكوناً.».

فقال شخص آخر: «السيدة تشورني تسكنه.»

- «إنها أشبه بـ .. أشبه بـ ...» وظل التشبيه مراوغاً. فتركت المسألة عند هذا الحد.

(★) كلمة ألمانية معناها «الشبح الذي يحدث ضجيجاً ويكسر الأشياء» (المترجم).

لم يكن سؤالي الموجَّه إلى السيد آركرايت مدفوعاً فحسب بالمصير الذي لقيته مزهريتي القبيحة. ذلك أن شيئاً مخيفاً حدث ليلة أمس. إذ أيقظني في حوالي الساعة الخامسة والنصف ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ صوت تحطيم مخيف في الطابق السفلي. وكان ضوء النهار قد حلَّ فعلاً، غير أن القاعة والسلَّم كانا غارقين في الظلام، فأشعلت شمعة، ونزلت إلى الطابق السفلي، وقد استولى عليّ الخوف تماماً، هذا ما ينبغي أن أعترف به، فوجدت أن المرآة البيضاوية الكبيرة الموجودة في القاعة قد سقطت على الأرض، فتناثر الزجاج شظايا صغيرة. والشيء الغريب هو أن السلك المعلَّق في ظهر المرآة وكذلك المسمار الذي بقي في الجدار، يبدوان في حالة سليمة. وكنت من الذعر والهلع بحيث لم أكف عن الفحص الدقيق، كما كنت خائفاً أن تنطفىء شمعتي. فقد كان هناك تيار قوي مثير للدهشة. وعدت مهرولاً إلى الفراش. وفي هذا الصباح، نزعت المسمار في عناء من الحائط وألقيت به دون أن أفحصه جيِّداً. وبالطبع، لا بد أن يكون المسمار قد انثنى تدريجياً تحت ثقل المرآة حتى انزلق السلك من فوقه. وأحسست بأنني عاجز ـ على نحو غريب ـ عن التفكير بالتفصيل في هذا الحادث. وأسِفت كثيراً على المرآة. أما الإطار فلم يتحطَّم، ومن الممكن إصلاحه، وكان الزجاج الأصلي مفضَّضاً بطريقة غامضة وبديعاً. وقضيت وقتاً طويلاً حتى أنام بعد ذلك التحطيم، وتركت شمعتي تحترق في نور الفجر. وعندما غلبني النعاس في النهاية، حلمت أن السيدة تشورني قد أقبلت من خلال الباب الموجود في فجوة الجدار لتسألني عما أفعل في منزلها. وكانت أشبه بـ . . .

أثناء بحثي عن مكان أزرع فيه أعشاب حديقتي، عثرت على بعض الأجام المؤلفة من النباتات الشائكة البديعة على الجانب الآخر من الطريق. وتمكنت أيضاً من شراء بعض أقراص الكعك الطازجة المصنوعة منزلياً في القرية هذا الصباح. هناك سيدة محلية رائعة تبيع هذه الفطائر من خلال

المتجر. وأنبأوني بأنها تصنع الخبز أيضاً، فأمرت ببعضه. وفي الغداء، أكلت شرائح من لحم الخنزير البارد المسكَّر، وبيضة مسلوقة على أعشاب القُرَّاص (أطه أعشاب القُرَّاص كما تطهو السبانخ. وأنا أطهوها عادة في نوع من البيوريه مع العدس.) وبعد ذلك، ختمت بأقراص الكعك مع الزبدة ومُربّى التوت، وشربت عصير التفَّاح المحلّي وحاولت أن أستطيبه. فما زالت مشكلة النبيذ معلَّقة.

وجدت مزيداً من الرسائل القليلة في وجار الكلب. ويبدو أنها وصلت في غير انتظام، كما أنني لم أرَ ساعي البريد بعد. ما من كلمة من ليزي. وهذا خطاب من ابن عمي جيمس، سأسجِّله في مذكراتي. ذلك أنه شيء مميَّز.

عزيزي تشارلز.

أفهم أن تكون قد اشتريت منزلاً على شاطىء البحر. ولكن أيعني ذلك أنك قد تخليت عن نشاطاتك المسرحية؟ إن كان الأمر كذلك، فلا بد أن يكون من دواعي الارتياح ألا تقوم بعد ذلك بعمل متعجل له «موعد محدّد» في ذهنك. وآمل على كل حال أن تنعم براحة أحسنت اكتسابها في ملاذك البحري، وبأن «أشياءك» قد وجدت أوتاداً مُرْضية، وأن لك الآن مطبخاً بهيجاً تستطيع أن تمارس فيه صوفيتك الجديدة عن الاستمتاع بالمآكل والمشرب! هل احتفظت بشقتك في لندن؟ أعترف بأنني أصنِّفك في فئة اللندنيين المتفانين، وبالتالي فإن هذا الارتداد مثير للدهشة. وأتساءل إن كان هناك منظر على البحر تطلّ عليه من منزلك؟ فالبحر دائماً منعش للروح، ومن الجميل أن تشاهد الأفق كالخط النظيف. وأستطيع أن أفعل ذلك بشيء من «الأزون» أنا نفسي. الطقس في لندن حار بدرجة لا تطاق، ويبدو أن الحرارة تضاعف من ضجة حركة المرور. ربما كان هناك سبب فيزيائي لذلك مرتبط بالموجات الصوتية؟ أتوقع أنك تكثر من الاستحمام. فأنا أتصوّرك دائماً إنساناً سابحاً متعصباً. ارجو أن أسمع منك في الأيام

القادمة، وإن كنت في المدينة، ربما تناولنا معاً كأساً من الشراب، وأرجو أن تكون قد «استقرّ بك المقام» سعيداً في منزلك وأن تكون متصالحاً معه. وقد استرعى اهتمامي اسمه العجيب. مع تمنياتي القلبية المعتادة.

المخلص جيمس

تتخذ رسائل جيمس إليّ مظهر التفضل بالرعاية وكأنه شقيقي الأكبر، وليس ابن عمي الأصغر؛ بل إنها تصل أحياناً إلى ذلك التشدد الأبوي الذي يستهدف مصلحة الابن، والذي يجعل أعمال المرء تبدو صبيانية إلى أقصى حد. وهذه الرسائل التي أتلقاها بانتظام مرتين أو ثلاث مرات في السنة ـ تبدو لي دائماً في الوقت نفسه ـ على أنها تمزج بين رسمية تتسم بالعناء وبين لمسة طفيفة من الجنون.

وربما كان من الأفضل عند هذه النقطة أن أقدِّم وصفاً أطول وأصرح لابن عمي. وليس الأمر أن جيمس كان أكثر من مجرد ممثل في حياتي، أو أنني أتنبَّأ بأن يصبح الآن ممثلاً. ذلك أن لقاءاتنا أخذت تقل بانتظام في السنوات العشرين الأخيرة، وعلى الرغم من أنه كان مقيماً في لندن مؤخراً، فقد كان من النادر على الإطلاق أن نلتقي. وما يشير إليه خطابه من أن «نتناول مشروباً» هو بالطبع مجرَّد أدب فارغ. ونادراً ما قدمت جيمس إلى أصدقائي (وأنا أحتفظ به دائماً بعيداً عن الفتيات)، كما أنه لم يقدِّمني أبداً إلى أصدقائه، إن كان له أصدقاء. (وأتعجَّب كيف سمع عن منزلي المطل على شاطىء البحر؟ لا بد أنه خبر نشر في الصحف، للأسف. أتطاردني الدعاية حتى في هذا المكان؟) كلا، لم يكن ابن عمي جيمس أبداً شخصاً مهمّاً أو فعَّالاً في معاملات حياتي اليومية المعتادة، وإنما تكمن أهميته في ذهني فحسب.

من النادر أن نلتقي، غير أننا حين نفعل ذلك فإننا نطأ أرضاً عميقة ذات ماضٍ قديم. وكلانا الابن الأوحد لشقيقين متقاربين في العمر (كان

العم هـابيل أصغـر قليـلاً من أبي)، لم ينجبا ذرية أخرى. ورغم أننا لا نسترجع الماضي إلا لماماً فإن الواقع هو أن ذكريات طفولتنا رصيد مشترك لا نتقاسمه مع أحد سوانا. وهناك أولئك الـذين، وإن كنا نعـزّهم كثيراً، فإنهم يظلون شهوداً مشؤومين على الماضي. وكان جيمس بالنسبة لي واحداً من هؤلاء الشهود. بل إنه ليس من الواضح إن كان كل منا يحب الآخر أم لا. ولـو أخبرني اليـوم أحد بـأن جيمس قد مـات، فإن أول انفعـال لي قد ينطوي على شيء من السرور؛ لكن أيـبرهن ذلك عـلى الكثير؟ صلة أبناء العمومة، جوار خطر. Consinage, dangereux voisinage، هـذا المَثَل يتخذ معنىً خاصاً تماماً في حالتنا. وعندما أتأمَّـل الآن كل شيء، أجد أنه ينتسب بـرمته إلى المـاضي، وأجزاء العقـل العميقة وحـدها هي التي تحتفظ بإحساس ضئيل جداً بـالزمـان. وكلما تتابعت الأعـوام قلَّت الصعوبـة التي كنت ألقاها في مقاومة تصـور جيمس بوصفـه شخصية تنـذر بالخـطر، أكثر فأكثر. وذات مرة قال لي صديق (هو ويلفرد) التقى به مصادفة: «يـا له من شخص خـائب الرجـاء ـ ذلك الـذي يبدو عليـه ابن عمك هـذا.» أضاء نور، وأحسست أنني أفضل في الحال.

عندما كنت شـاباً لم أكن أستـطيع أن أقـطع أبداً إن كـان جيمس شيئاً حقيقيـاً، وكنت أنا شيئـاً لا حقيقياً، أو العكس. فقـد كان من الـواضـح ـ عـلى نحو مـا ـ أنه لا يمكن أن نكـون كلانـا حقيقين؛ فـلا بـد أن يقيم أحـدنا في العـالم الواقعي، وأن يقيم الآخـر في عالم الـظلال. وكان جيمس يتمتع دائماً بنوع من المناعة الحيوانيـة. وهذا يعـود بنا مباشرة إلى البدايـة. وكما شرحت، توصلت مبكراً إلى الوعي ـ من خلال ضرب من الأزموزية*

(*) Osmosis وهي خاصية التناضح أو التنافذ، أي تبادل يحصل بين سوائل مختلفة الكثافة ومفصولة بعضها عن بعض بغشاء عضوي حتى يتجانس تركيبها (المنهل ـ ص ٦٤٠ ـ طبعة ١٩٨٦).

النفسية المميَّزة للأطفال ـ بأن العم هابيل قد حقَّق زواجاً أكثر امتيازاً من زواج أبي، وأن المراتب التصاعدية الغامضة في الحياة تضع هابيل آروبي في مرتبة أعلى من مرتبة آدم آروبي. وكانت والدتي على وعي تام بهذا الأمر، وأنا على يقين من أنها كافحت في أعماق روحها الدينية «لا في عقلها» (كانت لها طريقة خاصة في توكيد كلمة «وراثة» في معرض حديثها عن الخالة إستل).
أما أبي فاعتقد حقاً أنه لم يكن يبالي على الإطلاق، إلا من أجلي. وأتذكر أنه قال ذات مرة في صوت غريب يكاد يكون متواضعاً: «يؤسفني أنك لا تستطيع الحصول على فرس مثل جيمس...» وأحببت والدي في هذه اللحظة حباً شدبيداً، وكنت واعياً ـ في الوقت نفسه ـ (كنت في العاشرة، أو الثانية عشرة) بأنني لا أستطيع التعبير عن حبي، وبأنه ربما لا يعرف شيئاً عنه، أو عن مداه. أتراه قد عرف أبداً؟.

وفيما يتعلق بالأشياء المادية في الحياة فقد كان للعائلتين ـ بالتأكيد ـ مصيران مختلفان. كان جيمس هو المالك الفخور بالفرس السابقة الذكر، بسلسلة من هذه الحيوانات، بكل تأكيد، ويعيش بعامة بأسلوب من يملكون الأفراس! وما أشد ما عانيت من تلك الأفراس اللعينة! كان جيمس ـ عندما أزور رامسدن يعرض عليّ ركوبه، وكان عمي هابيل (وهو أيضاً من الفرسان) يود أن يصحبني في جولة أمسك فيها بعنان الفَرَس. وعلى الرغم من تلهّفي بشدّة على الركوب فقد كنت أرفض دائماً، مدفوعاً بالكبرياء، وبعدم اكتراث مصطنع؛ وإلى يومنا هذا، لم أمتط حصاناً. وربما كانت هناك مناسبة للحسد أهم من ذلك، وإن لم تكن أكثر إحراقاً ـ ألا وهي السفر إلى القارة (الأوروبية). كانت أسرة عمي هابيل آروبي تسافر إلى الخارج في كل إجازة مدرسية. وكانت تجوب أوروبا كلها. (لم تكن لدينا سيارة بالطبع). وقد ذهبوا إلى أمريكا للبقاء مع عائلة الخالة إستل التي كنت حريصاً على أن أعلم عنها أقل القليل. أما أنا فلم أغادر إنجلترا حتى ذهبت إلى باريس بصحبة كليمنت بعد الحرب. ولم يكن

حسدي منصباً على أفراسهم وعلى سياراتهم الكبيرة، ولكن على اقتحامهم. فقد كان عمي هابيل منظّماً، مغامراً، مخترعاً، من أنصار مذهب السعادة Hedonist، على حين لم يكن أبي العزيز الطيب على شيء من هذه الصفات. ولم يوجه إليّ عمي وزوجته الدعوة للانضمام إليهما في تلك الرحلات الرائعة. ولم يخطر على بالي - إلا مؤخراً - ونفذت هذه الفكرة إلى ذهني كما ينفذ الرمح (وأظن أنه ما برح موجوداً هناك في مكان ما) - أنهما لم يطلبا مني ذلك لأن جيمس كان يمانع!.

وكما قلت، كان الموقف يشغل أبي - على ما أظن - من أجلي فحسب. كما كان يشغلني من أجل نفسي أيضاً، وكذلك من أجله هو أيضاً. كنت أرفض - من أجله - هذا الوضع المشوب بالحرمان. وشعرت من أجله، بالحزن الذي منعته طبيعته الكريمة العذبة من الشعور به من أجل نفسه. وفي عملي هذا كنت واعياً - حتى أثناء طفولتي - بأنني كنت أُظْهِر نفسي عندئذ - بوصفي أدنى منه أخلاقياً. وعلى الرغم من أن لي مثل هذا البيت السعيد، وهذين الوالدين المحبينّ، فلم يكن في وسعي أن أمنع نفسي من اشتهاء أشياء - اشتهاءً مريراً - وفي الوقت نفسه، أزدريها حين أنظر إلى أبي. ولم يكن في وسعي ألا أنظر إلى عمي هابيل وعمتي إستل بوصفهما كائنينْ فاتنينْ أشبه بالآلهة بالقياس إلى والديّ اللذين يبدوان تافهين، بليدين. ولم يكن في مقدوري ألا أراهما - في ضوء هذه المقارنة - شخصينْ فاشلينْ. على حين أنني كنت أعرف في الوقت نفسه أن أبي رجل فاضل لا دنيوي، بينما كان عمي هابيل المحب للمظاهر - شخصاً عادياً متوسطاً وأنانياً تماماً. ولا أعني بالطبع أن عمِّي كان «وغداً» أو «مبتذلاً»، إذ لم يكن شيءً من ذلك بالتأكيد. وكان يحب زوجته الجميلة، ويخلص لها في حبه، على حد علمي. وكان - على حد علمي أيضاً - أباً عطوفاً شاعراً بالمسئولية. كما أنني على يقين من أنه كان أميناً حي الضمير في عمله ومالياته، ومواطناً مثالياً في الواقع. غير أنه كان شخصاً عادياً متمركزاً حول ذاته، عدوانياً،

وحسِّياً عادياً. على حين كان أبي شخصاً مختلفاً تمام الاختلاف، شيئاً خاصاً، وإن لم يعلم بذلك أحد سوى أمي وأنا.

لا شيء من هذا كله أوقفني عن عبادة عمي هابيل والرقص حوله كما يرقص الكلب المسرور. فعلتُ ذلك على الأقل عندما كنت طفلاً صغيراً. أما فيما بعد، وبسبب جيمس، فقد كنت أكثر احتراماً لنفسي وأكثر تباعداً نوعاً ما. أكان والدي يشعر بالإساءة أحياناً لأنني أجد عمي هابيل فاتن المنظر؟ ربما. هذه الفكرة تحزنني الآن وأنا أكتب حزناً نافذاً خاصّاً. لم يكن أبي يأبه بالخيرات الدنيوية، غير أنه ربما شعر بالأسف ـ وإن لم يظهره أبداًـ بأنه أقل كثيراً من أن يكون «شخصية»، من أجلي أيضاً هذه المرة. ولعل أمي حدست بشيء من هذا الأسف فيه (أو لعله باح به إليها) وربما أسهم هذا في سرعة الإثارة التي لم تكن تستطيع أن تكتمها دائماً حين تُذْكر عائلة هابيل آروبي، أو عندما يكونون عندنا في زيارة بوجه خاص. والواقع أنهم لم يكونوا يقومون بزيارتنا كثيراً، إذ كانت أمي تشعر بأننا لن نستطيع «تسليتهم» بالأسلوب الكافي، وبأننا نسبِّب لهم شيئاً من الإحراج عندما يأتون باعتذاراتهم العدوانية فيما يتعلق بطريقتنا المعيشية المتواضعة ـ وينبغي أن أضيف أننا كنا نعيش في ضيعة سكّانية تمتزج فيها العزلة بالافتقار إلى الخصوصية. وكانت زياراتي لرامسدنز المشيْد بالحجارة والمحوط بالأشجار ـ أقوم بها وحدي في العادة، وذلك نظراً للفزع الذي يستولي على أمي لأنني تحت سقف شقيق زوجها، وفزع والدي من وجودي تحت أي سقف غير سقفه.

وينبغي الآن وقد ذكرت أمي، أن أتحدث عن العمة إسْتل. كانت أمريكية ـ كما سبق أن قلت ـ أما من أين أتت، فلا أتذكر أن هذا شيء اكتشفته؛ فقد كانت أمريكا بالنسبة لي حينذاك ـ مفهوماً ضخماً غامضاً؛ كما لا أعلم أين وكيف التقى بها عمي. ومن المؤكد أنها كانت تمثِّل في نظري فكرة عامة عن أمريكا: الحرية، والمرح، والصَّخب. وحيثما تكون

العمـة إستل يكـون الضحك ومـوسيقى الجاز والخمـر (على مـا في هذا من الصدمة). وقد يعطي هذا أيضاً انطباعاً خاطئـاً. غير أنني أتحـدث هنا عن حلم طفـل. فعمتي إستل لم تكن «سكـيرة»، وكانت «وحشيتهـا» تكمن في روحهـا المعنويـة المرحـة كأمـرح مـا تكـون الـروح: الصحـة، والشبـاب، والجمال، والمال. وسخاؤها الغريزي هـو سخاء الشخص المحـظوظ تمامـاً. وكانت ـ على نحوٍ غامض ـ تظهر نحوي حناناً متعمداً عندما كنت طفلاً. وقد راقبت أمي ـ المتحفظة في إظهار عواطفها ـ هذا الإسراف ـ الذي قد يخلو من المعنى ـ في إظهـار الانفعالات في شيء من البرودة، على حـين أنها كانت تؤثر فيّ. وكانت العمة إستل تتمتع بصوتٍ غنائي جميل رقيق، وكثيراً مـا كانت تغني أغـاني الحرب العـالمية الأولى والأغـاني الرومـانسية النـاجحة الأخيرة (ورود بيكاردي، على أطراف الأصابع خلال زهور التيوليب، أوه، ما أشد الزرقة. أنـا وجين في طـائرة، وبعض الكـلاسيكيات التي من هـذا القبيل). وأتذكر مرة أقبلت فيها ذات ليلة إلى رامسدنـز لكي «تساعـد على استقراري» وهي تغني أغنية معناها: **لا معنى لأن تجلس على السور وحدك في ضوء القمر**. ووجـدت أن هذه الأغنيـة مضحكة جـداً، فارتكبت خـطأ محاولة تسلية والديّ بترديدها. (ليس من المضحك أن تجلس تحت الأشجار معـانقـاً نفسـك، وعـاصـراً إياهـا) ومن المحتمـل أن يكـون بسبب العمّـة إستـل أن الصـوت الغنائي البشري يثير في نفسي دائماً انفعالاً عميقـاً يكاد يكون مخيفاً. ثمة شيء غريب ورهيب في الأفواه المفتوحة الملتويـة للمنشدين، وبخاصة النساء منهم، الأسنان البيضاء المبتلة، الحلْق الأحمر الرطب. وعلى الجملة كانت عمتي إستل في نظري شخصية رمزية، شخصية عصرية، بـل شخصيـة مستقبلية، نـوعاً من الإغـراء التنبؤي في مستقبـلي نفسـه. كـانت تعيش في بلد عقدت عزمي على اكتشافه وغزوه لحسابي. وقد فعلت ذلك، على نحوٍ ما؛ غير أنني في الوقت الذي أصبحت فيه مَلِكاً، كانت قد قضت نحبها فعلاً. ويبدو من الغريب أننا لم يعرف أحدنا الآخر حق المعرفـة، كما أننا لم نتحادث على الإطلاق. وكم كـان أيسر علينا ـ فيـما بعد ـ أن نعبر

الأعوام، وأن يستمتع كل منا بصحبة الآخر! وكنت أذكرها من حين إلى آخر لكليمنت التي قالت إن هذه السيدة هي الوحيدة ـ بين علاقاتي جميعاً ـ التي كانت تحب أن تلتقي بها. (لم يلتق والديّ أبداً بكليمنت، إذ كانت معرفتهما بأنني أعيش علناً مع سيدة تبلغ من العمر ضِعْفَ عمري ـ سوف تسبب لهما تعاسة شديدة، غير أنني كنت أستطيع تقديمها إلى عمتي إستل). وعندما قُتِلت عمتي إستل في حادث سيارة، وكنت حينذاك في السادسة عشرة من عمري، كان تأثري أقل مما توقعت. كانت لديّ آنذاك متاعب أخرى. ولكن المحزن أن أفكِّر أنه بالرغم من عطفها الشديد عليّ بطريقتها الشاردة الذهن، فإنها لم تتصوَّرني قطّ إلاّ بوصفي ابن عمّ جيمس الخجول الجلف الصغير الذي لا يمتاز بشيء. كانت أعجوبة بالنسبة لي، معجزة. وبينما كنت أقلِّب بعض تذكاراتي القديمة منذ يومين في «شراف إند» وقعتُ مصادفة على صورة فوتوغرافية لها، ولم أستطع العثور على واحدة لأمي.

لم تكن أمي تكره العمة إستل بالضبط، كما لم تكن تستنكرها بعنف، وإن كانت تقشعر من الصَّخَب والشراب. ولم تكن حاسدة بالضبط، لأنها لم تكن تريد الأشياء الدنيوية التي تُسْعد العمة إستل. كل ما في الأمر أنها كانت تُصاب بكآبة من وجودها، وتُلْقي بنفسها في الوجوم وسرعة الإثارة اللذين ذكرتهما آنفاً حين تقوم بزياراتها. ويجوز أن عمي وزوجته كانا يعتقدان أن تربيتي كانت صارمة أكثر مما ينبغي. والأغراب الذين يشاهدون القواعد ولا يروْن الحب الذي يشيع فيها يسارعون إلى وصف الآخرين بأنهم «سجناء». ومن المتصوَّر أن عمي هابيل الذكي وعمتي المتحررة إستل كانا يرثيان فعلاً لأبي ولي، ويلومان أمي على ما يعتبرانه نظاماً قمعياً، ولو أن أمي ارتابت في وجود مثل هذه الأحكام، فلا بد أن تشعر بالألم والنفور؛ وقد يكون لهذا النفور من التأثير ما يجعلها أشد صرامة معنا. ومن الممكن أيضاً أنها حين خمنت ما يدور بخلدي من خيالات صبيانية فيما يتعلق بتلك «الأمريكا» التي صورتها لي العمة إستل ـ من الممكن أن تكون قد أحست

بالغيرة. وساءلت نفسي فيما بعد، أتراها تخيلت أن أبي كان مفتوناً بزوجة أخيه المفعمة بالحيوية. والواقع أنني على يقين من أنه لا يضمر أية مشاعر عميقة من أي نوع تجاه العمة إستل، فيما عدا ما يتعلق بي، مرة أخرى، ولا بد أن أمي قد عرفت هذا. (ما أشد أنانيتي وأنا أصف نفسي باعتباري المركز الذي يدور حوله عالم أَبَوَيّ. غير أنني كنت مركز هذا العالم). وانقطعت في نهاية الأمر عن التطلع إلى زيارات العمة إستل، لأنها تجعل أمي شديدة الاكتئاب والعصبية. وكان منزلنا يفسد على نحوٍ ما من هذه الزيارات، ويستغرق زمناً قصيراً للشفاء. وما إن تتوارى السيارة الرولز رويس التي تحمل أسرة هابيل آروبي من الشارع حتى تخلد أمي إلى الصمت، وترد علينا بمقاطع الكلمات، بينما يتسلل أبي خارجاً على أطراف أصابعه، وكل منهما يتجنب نظرات الآخر.

كنت سعيداً في المدرسة، ولكن، لم تكن هناك صداقات حميمة، أو أنواع من الدراما، أو مدرسون أعزاء محبوبون، وإن يكن هناك بعض المدرسين الذين تركوا أثراً، مثل السيد ماكدووال. وكانت عمتي وعمي يلوحان كشخصيتين رومانسيتين على قدر كبير من الأهمية والضخامة، بؤرتين للعاطفة الغامضة في طفولة خاوية على نحو غريب. ومع ذلك أيضاً كانا بعيديْن، ضبابييْن قليلاً، سحابيّين نوعاً ما، وذلك ـ في شطر منه بالطبع ـ لأنهما لم يكونا مهتميْن بي إلا اهتماماً هامشياً. فلم أشعر قط بأنهما يريانني حقاً، أو حتى ينظران إليّ كثيراً. أما مع ابن عمي جيمس فكان الأمر جد مختلف. فمنذ اللحظات الأولى كنا، جيمس وأنا، على وعي دائم كلٌّ بالآخر، في صمت، وحِدَّة، وارتياب. وكان كل منا يراقب الآخر، وبنوع من الغريزة البكماء احتفظنا بهذا الوعي المتبادل الحميم ـ سرّاً لا نبوح به لأبوينا. لا أستطيع أن أقول إن كلاً منا كان يخاف الآخر، فقد كان الخوف كله من ناحيتي، ولم يكن بالضبط خوفاً من جيمس، وإنما من شيء يمثله جيمس. (هذا الشيء كان ـ على ما أظن ـ هو تصوري التنبؤي المحتجب

لحياتي بوصفها إخفاقاً، وكارثة تامة). غير أننا عشنا ـ من حيث علاقة كل منا بالآخر ـ في سحابة من الانزعاج والقلق. كل هذا في صمت بالطبع. فلم نتحدث قط عن هذا التوتر الغريب بيننا؛ ولعلنا لم نكن نستطيع أن نجد الألفاظ التي تعبر عنه. وأشك في أن يكون لدى أبوينا أية فكرة عنه. وحتى والدي الذي كان يعرف أنني أضمر الحسد لجيمس ـ لم يكن لديه أي تصور عن هذا.

ويرجع شطر من عدم الارتياح الذي أشعر به نحو ابن عمي يتكون ـ كما أشرت من قبل ـ من خوف من أن ينجح في الحياة، أن يكون الفشل من نصيبي. وقد يكون هذا على ظهور الأفراس ـ شيئاً لا أطيقه. وليس من الممكن أن أقول إلى أي حد كانت «إرادتي للقوة» مستوحاة من عزم عميق متأصل للتفوق على جيمس والتأثير عليه. ولا أظن أن جيمس كان يشعر بأية رغبة خاصة في التأثير عليّ، أو ربما كان يعرف أن ليس هناك ما يدعو للمحاولة. كان يمتلك كل المزايا. فقد تلقى تعليماً أفضل من التعليم الذي تلقيته، وهنا أبدأ حقاً في الصرير على أسناني. فقد التحقت بالمدرسة الثانوية المحلية (مدرسة غبية محترمة، اندثرت الآن)، على حين ذهب جيمس إلى وِنْشِسْتِر. (لعل هذا كان نعمة مختلطة. ذلك أنه لم يسترد صحته أبداً، ويقولون إن هذا نادر الحدوث). وحصلت لنفسي على تعليم متين معقول، وأحطت بشكسبير بوجه خاص. غير أن جيمس كان يتعلم كل شيء. كما بدا لي حينذاك. درس اللاتينية واليونانية وعدداً من اللغات الحديثة، بينما لم أعرف سوى قليل من الفرنسية وقليل من اللاتينية. وعرف أشياء عن فن التصوير، وكان يتردد بانتظام على معارض الفن في أوروبا وأمريكا. وكان يتحدث بألْفة عن الأماكن الأجنبية. وقد تفوق في الرياضيات، وفاز بجوائز في التاريخ. وكان ينظم الشعر الذي نُشِر في مجلة المدرسة. كان متألقاً؛ ومع أنه لم يكن مزهوًّا، فقد تزايد شعوري ـ ودُفِعت إلى الشعور ـ بأنني مجرد همجي ريفي عندما أكون مع جيمس. أحسست

بفجوة تتسع بيننا، وهذه الفجوة بدأت ـ كلما استعرضتها بذكاء ـ تملؤني باليأس. فمن الواضح أن النجاح كان مقدَّراً لجيمس، بينما كان مقدوري الفشل. وإني لأتساءل إلى أي حد كان فَهْم أبي من هذا كله؟.

عندما أعدت قراءة هذه الفقرات أحسست مرة أخرى بأنني أعطي الإنطباع الخاطىء. ما أصعب قالب السيرة الذاتية بعد أن مضيت فيه! إن الكرب والطموح الضاري اللذين أثارهما جيمس في نفسي، دون وعي منه، وأنا على يقين من ذلك، كانا شيئاً أتى تدريجياً، واشتعل على فترات متقطعة. وعندما كنا أصغر من ذلك، أو حتى عندما كنا أكبر، كنا، جيمس وأنا، نلعب معاً بوصفنا صبيّين صغيرين. ولم يكن لي سوى أصدقاء قلائل، ويرجع ذلك في شطر منه إلى أن أمي لم تكن ترغب في دعوة أطفال آخرين إلى المنزل. (لم أعبأ بذلك، لأنني لم أكن أحب الأطفال الآخرين كثيراً). وإذا كان لجيمس أصدقاء فقد احتفظ بهم بعيداً عني. ومن ثم كنا نلعب وحدنا، أحدنا مع الآخر، وكل منا يراقب الآخر، ولكن دون أن نكون مشحونين بالوعي كما يمكن أن يوحي به الوصف السابق. وحتى في اللعب العادي كان شيء من تفوق جيمس الذي لا يبذل فيه أي مجهود ـ يميل إلى الظهور. فقد كان يعرف عن الطَّيْر والزَّهْر أكثر كثيراً مما أعرف، كما كان بارعاً في تسلق الأشجار. (وأتذكر عندما كنت طفلاً صغيراً محاولته الجادة جداً لتعلُّم الطيران!) وكان يستطيع أن يهتدي إلى طريقه عبر الريف كالثعلب. ويتمتع بنوع من الغريزة الخارقة للعادة عن الأشياء والأماكن. وعندما تضيع الكرة كان جيمس هو الذي يعثر عليها دائماً؛ وذات مرة استعاد طائرة قديمة من طائرات اللعب كنت أملكها ـ استعادها في الحال بمجرّد أن أخبرته بفقدانها.

وبينما كنت أسبِّب التعاسة لأبويّ لتعلمي الفنون المسرحية في لندن، كان جيمس صبياً ذهبياً في أكسفورد حيث يدرس التاريخ. وفي هذه الآونة انقطع اتصالي به؛ لم أعد أتلهف على المزيد من أخبار انتصاراته، ولا أريد

بتاتاً أن أعرف شيئاً عما يفعله ابن عمي جيمس. وأياً كان ما يفعله فإنه لم ينته منه أبداً بسبب نشوب الحرب. وكان قد التحق بما يسمى «فيلق البنادق»، وقد أطلق عليه فيما بعد اسم «السترات الخضراء». وهكذا بدأ حياة الجندية التي استغرقت عمره، وإن لم يكن يدرك ذلك وقتئذ، على ما أظن. والحق أنه من العسير عليّ الآن أن أفكر في جيمس، إلا بوصفه جندياً. كان يخوض حرباً هامة، بينما كنت أطوف في الحافلات ممثلاً لشكسبير أمام عمال مناجم الفحم. وسمعت بعد فترة من الزمن أنه في الهند، في دهرا دون Dehra Dun. وكانت لدي مشاكلي، وبالذات حبي الأول وما تركه من آثار بعدية، ثم مناوشاتي التمهيدية في حربي الطويلة مع كليمنت. وسمعت فيما بعد الخطوط العريضة لمغامرات جيمس. فقد تسلق جبالاً عديدة. وصار من المهتمين بشئون التبت وتعلم لغته، وكان دائم الاختفاء عبر الحدود على ظهر فرسه (لا بد أن كل ذلك التدريب المبكر قد ثبتت فائدته). ثم أُرْسِل بعد ذلك في سفارة أو سفارات لحاكم من حكام التبت القريبين في موضوع يتعلق بأسرى الحرب الألمان. وقد أمضى وقتاً ممتعاً، ولكن لا أعتقد أنه شاهد أي فعل حقيقي أبداً. وكنت أخشى دائماً أن أسمع عنه أنه فاز بصليب الملكة ڤيكتوريا V. C.. وبالطبع لم أكن أشك مطلقاً بأنه رجل شجاع، بالمعنى الذي لا ينطبق عليّ.

وكانت دهشة أبويّ شديدة عندما علما بأن جيمس قد قرر بعد الحرب أن يصبح جندياً محترفاً. وعقّبا على ذلك بقولهما إن العم هابيل قد خاب أمله بهذا القرار. إذ كان العم هابيل يرى جيمس رئيساً للوزراء. (كانت العمة إستل قد توفيت عند ذاك). وأحسست ببهجة غامضة لأنني أدركت بحدسي أن جيمس قد اتخذ المنعطف الخاطىء. وكنت قد بدأت حينذاك الإجادة في المسرح، وأخذت «إرادة القوة» عندي تؤتي ثمارها، وكانت كليمنت في حياتي أشبه بنوع من الكرنڤال المتنقل. إذن، فإن ابن عمي جيمس سيكون جندياً. وقال العم هابيل إن هذه لن تكون سوى مهنة

مؤقتة، وأنه لم يلجأ إليها إلا لكي يجد متسعاً من الوقت لنظم الشعر. وقالت أمي إن العم هابيل يصفِّر في الظلام (كناية عن تعزية المرء لنفسه). ويبدو أنه لم يخطر على بال أحد منا أن الجيش هو أيضاً ـ ووفقاً للتقاليد ـ طريق إلى القوة والمجد.

ولم أر جيمس بعد الحرب إلا لماماً، في تلك الفترة المتحركة التي شهدت تحالف الباقين على قيد الحياة، غير أنه لم يلبث أن اختفى مرة أخرى. كان دائم الاختفاء. وقد عاد من الهند، وعين في ألمانيا. ثم عاد إلى إنجلترا ثانية ليعمل بالكلية الحربية، ومنها رجع إلى الهند. وأخبرني شخص ما فيما بعد بأنه بُعِثَ إلى التبت في مهمة سرية ليتحرَّى عن النشاط السوفيتي هناك. وبالطبع، لم يخبرني جيمس إطلاقاً بشيء عن عمله. فلم أعرف إلا الحد الأدنى عن أسفاره، لأنه كان يرسل لي بطاقات بريدية مصوَّرة ـ ازدادت انتظاماً ـ في أعياد رأس السنة، وفي أعياد ميلادي. ولم أكن أوليه مثل هذه العناية، غير أنه إذا كتب لي خطاباً، أرسلت إليه دائماً رداً مقتضباً. وكانت خطاباته فاترة في العادة، ولا تتضمن بتاتاً أية معلومات. ولم يلبث أن عاد إلى لندن عقب الغزو الصيني للتبت مباشرة. ولم أشاهده أبداً ـ قبل أو منذ ذلك ـ يبدي مثل ما أبداه من انفعال. كان من الواضح أن المأساة شخصية بالنسبة إليه. وكان يتعجب بمرارة من غباء أولئك الذين فشلوا في أن يدركوا أن الصين ـ لا روسيا ـ هي الخطر الحقيقي. غير أن ما كان يحزنه لم يكن هذا التجاهل للنصيحة المخلصة (التي ربّما كانت نصيحته)، بل تدمير شيء كان يحبه. وسرعان ما خمد هذا الانفعال، ولم يتحدث إليّ مرة أخرى عن هذا الموضوع على الإطلاق.

وكانت بطاقة البريد التالية التي تلقيتها من سنغافورة، والخطاب التالي أيضاً من سنغافورة، كان تعزية على وفاة والدي (وأتساءل كيف علم ذلك؟) وبعد ذلك فقدت رؤية جيمس، لأني فقدت رؤية كل شيء فترة من الزمن، انطفأت الأنوار من حياتي. لازمني الحزن على أبي زمناً طويلاً،

كنت فيه تعساً أشد التعاسة. وما برحت خسارتي لهذا الرجل الطيب العزيز تؤثّر فيّ تأثيراً عميقاً. وقد أصبح كل ما عداه خطأً، وكأنما انحرفت الأشياء عن الصواب على سبيل التعاطف. هجرت كليمنت، وتورطت مع سيدات أخريات تورطاً كان مصدر شقاء لي، واصطدمت مكانتي المهنية بما يبدو دماراً لا رجعة فيه. وبدت وفاة والدتي التي أعقبت ذلك بقليل وكأنها ليست حدثاً فردياً، بل كانت نوعاً من الامتداد المقَدر لخسارة والدي. وتوفي العم هابيل بعد ذلك بقليل. وكنت قد كففت منذ زمن طويل عن الاهتمام به، أو حتى التفكير فيه. وأتذكر أنني كنت أعتزم الكتابة لجيمس، غير أنني لم أكتب أبداً. وأتذكر أيضاً أنني لم أتساءل حينذاك إلا عما شعر به جيمس حين ماتت والدته الرائعة عندما كان صبياً. كنت مستغرقاً في أحزاني المبكرة وقتئذ استغراقاً عميقاً، فلم أتأثر كثيراً بمصير عمتي إستيل. ولم أمعن التفكير أبداً فيما عسى أن يفعل ذلك بجيمس.

ذكرت الآن مباشرة رجلاً كان ينبغي أن أذكر اسمه (اسمه توبي إِلسْمير Toby Ellesmere) - أخبرني بـ «البعثات السرية» التي كُلِّفَ بها جيمس في التبت. هذا الرجل - الذي لم يكن مرموقاً على أي نحوٍ آخر - كان يحمل لي أحياناً أخبار ابن عمي. كانا معاً في المدرسة وكذلك في فيلق «السترات الخُضْر». وأصبح «إلسمير» سمساراً في البورصة، ثم ناشراً، كما خاض أيضاً في شئون المسرح بوصفه مستثمراً، وفي هذا المجال التقيت به. وذات مرة عقب «نكبتي السيئة» مباشرة التقينا في الليلة الأولى من حفل ما، فقال لي إلْسمير: «أظنك تعلم أن ابن عمك أصبح بوذياً؟» وفتنتني هذه الأنباء وأدهشتني. ولم أكن قد ربطت قط بين جيمس والدين، إذ كان كل منا قد اكتسب تلك المسيحية الإنجليزية المُبَلْبَلَة التي تختفي في فترة المراهقة. وينبغي أن أذكر هنا أن أمي لم تفرض عقائدها الأنجليكانية الخاصة على والدي أو عليّ. ولعلها أدركت أن هذا الإكراه «لن ينجح». وأياً كان الأمر فقد اعتبرت من المفروغ منه أننا مسيحيان. وكنا نتردد على

كنيسة أنجليكانية. وبالطبع لم نتناقش أنا وجيمس في الدين. ولو أنني نظرت في هذه المسألة عندما كنّا صغيرين، لكان ينبغي عليَّ أن أقول إن المبدأ الروحي الأساسي في حياة جيمس هو تجنُّب الابتذال، الدين بوصفه «شكلاً طيباً»؟ بل يستطيع المرء أن يفعل أسوأ من ذلك. ولم أكن أتخيله أبداً بوصفه متحمساً في البحث عن أسرار الشرق الغريبة. ما أغرب هذا!.

ولم تلبث دهشتي أن خمدت. فما معنى ذلك على كل حال؟ من الجلي أن جيمس لا يستطيع أن يؤمن بتناسخ الأرواح. وعندما التقيت بابن عمي مرَّة أخرى كان في حياة كل منّا حقبة أخرى على نحوٍ ما. وفاة والدي، مرحلة يأسي من المهنة، مغامراتي الفاشلة في هوليوود..، كانت هذه الأشياء كلها قد أصبحت الآن وراء ظهري ـ فقد تصالحت مع كليمنت (سافرنا إلى اليابان معاً). وأصبحت الآن رجلاً ناجحاً، مَلِكاً بكل تأكيد في بلد العمة إستل. قلت لجيمس: «إذن فأنت بوذي، كما سمعت؟» فابتسم وقال: «أوه، أجل!» بلهجة يمكن أن تكون إما «أجل» أو «ما هذا الهراء!» وتغاضيت عن هذا الموضوع. وجاء بعد ذلك ليقيم بصورة دائمة في لندن، وليعمل في وزارة الدفاع، وما زال يعمل فيها. وشقته في پيمليكو Pimlico مليئة بتماثيل بوذا، غير أنها ممتلئة أيضاً بكل أنواع التخاريف الشرقية، وأستطيع أن أقول إن بعضها هندوكي.

وصل جيمس الآن طبعاً إلى رتبة الجنرال. وقد نسيت نوع هذه الرتبة، وأظن أنه كان أيضاً رجلاً ناجحاً بطريقة ما. وشعوري بأنني قد «انتصرت في المباراة» يرجع في شطر منه إلى إحساس بأنه صادف خيبة أمل في الحياة، على حين أنني لم أصادف مثل هذه الخيبة.

ـ «هناك، يغرق المرء في ثانية».

ـ «في ثوانٍ ثلاث».

ـ «في ثانية».

ـ «في ثوانٍ ثلاث».

هذا مَثَلٌ على المحادثة التي تدور في مشرب «الأسد الأسود» ومثلٌ على مستوى المناقشة. ويبدو أن الزبائن يرفضون هذه الحقيقة وهي أنني أذهب للسباحة في بحر يفخرون بإمكانياته القاتلة. وهذا النوع من المحادثات هو الذي يثور فور ظهوري، دون أن تكون موجّهة لي بالطبع.

انضممت إلى المناقشة قائلاً: «أنا سبّاح متين».

- «إنها هي التي تُغْرِق».

فأضاف شخص آخر: «أنت تسبح عارياً».

- «عارياً؟».

- «أنت تسبح عارياً».

- «أوه... تقصد مجرداً من الثياب» إذنْ، فأنا مُرَاقب.

ونظروا نظرة تنطوي على عداءٍ صامت بليد.

فسألني السيد آركرايت في بشاشة: «هل شاهدت أية عجول بحرية؟».

- «كلا، لم أر شيئاً منها بعد».

انتابني الأسف - في زيارتي لسلم البرج هذا الصباح - عندما لاحظت أن «حبل» ستارتي قد فُكّ على نحوٍ ما، ثم اختفى. ومع ذلك، أقدمت على السباحة. أعتقد أن عضلاتي أقوى، وأنني صرت أكثر براعة في التسلق خارجاً من البحر. كما أستطيع دائماً الاحتيال على شق طريقي، أو تحرير نفسي على كل حال. وكان للصخور الصُّفر التي تبدو ملساء من مسافة بعيدة - سطح خشن مخربش، وكأنها مغطاة بطبقة من ملايين الأصداف الدقيقة الحادة المكسورة الأطراف. وقد غصت بالأمس من «صخرة» شراف إند أثناء المد العالي، وأفلحت في الخروج سليماً، وإن أفسد سباحتي شيء طفيف من القلق. ومن المؤكد أنني لن أفقد ماء وجهي في «الأسد الأسود»، فأتحول إلى مكان الاستحمام «المخصص للسيدات!».

واليـوم انتشر ضباب خفيف لـطيف فوق صفحـة السـماء كلهـا، واتخـذ البحر نظرة فضية وديعة مضللة، وكأنما عزمت المويْجات الأساسية على لـطم الصخور بأعنف مـا في وسعها دون أن تبـدي أي أثر للزَّبـد. إنه بحـر من النوع المتماسك المشرق المجامل، بحر بديع حقاً. وكان ينبغي أن تظهـر فيه عجـول البحر، وتكـاد الأمواج نفسهـا أن تكـونٍ هي عجـول البحـر هـذا اليوم، وما زلت أفحص المياه عبثاً بنـظاراتي المكبِّرة. وثمـة نوارس ضخمـة ذات مناقير صفر تجثم على الصخور وتحدِّق فيّ بعيـونها الزجـاجية الـلامعة. واكتسح طائر من طيور الغاق صفحة البحر الجلسرينية. وغصَّت الصخـور بـالفراشـات. وما بـرحت درجة الحـرارة شديـدة الارتفـاع. غسلت ثيـابي وجففتها على المرجة. فقد كنت أسبح كل يوم، وأشعر بأنني شـديد الليـاقة البدنية وبأنني مملَّح. وما زالت ليزي لا تأتينا منها أية حركـة، ومع ذلـك لا يسـاورني القلق. أشعر بـالسعادة في صمتي. وإذا كـانت الآلهة تـدخـر لنـا ليـزي وأنـا شيئـاً من المتعـة فبهـا ونعْمِت؛ وإن لم يكن هنـاك شيء، فبهـا ونعمت أيضاً. كنت أشعر بأنني بريء وحر. لعل ذلك كله راجع إلى تـأثير السباحة.

مـا أَعْلى طـيراني، بل مـا أشد الغـرور الـذي تحـولت إليـه، الآن وقـد أصبحت كاتباً ـ ناثراً! أعـرف كثيراً من كتَّـاب المسرح الذين ينـظرون إلى النـثر المتواصـل على أنـه نوع من اللغـة الغريبـة التي لا يحلمـون بـامتـلاك زمامها. وأظن أنني شعرت بمثل هذا الشعور ذات يوم. فانظر الآن إلى كل هذه الصفحات التي سوَّدتها! راجعتُ تخطيطي الصغـير لشخصية جيمس، فـرأيت أنه يتضمن أسلوبـاً. ولكن، أهو صـادق على كـل حال؟ إنـه ليس مضللاً في مجمله، غـير أنه مقتضب إلى حـد بعيد، وفيـه شيء من «ذكاء». كيف يستـطيع المـرء أن يصف الأشخـاص الحقيقيـين؟ إن جيمس يبـدو في وصفي لـه، كامـلاً، صَلْباً إلى أبعـد حد. وحـذفت من وصفي لـه أن لـه أسناناً صغيرة مربَّعة، وابتسامـة طفوليـة بلهاء. وأحيـاناً يفغـر فـاه خاويـاً

مفتوحاً. كما أن له أنفاً معقوفاً وبشرة سمراء داكنة. وكانت العمة إستل تميل إلى السمرة الداكنة أيضاً. أكانت تجري في عروقها دماء هندية حمراء؟.

يجب أن أجتهد في رسم هذه الشخصيات. ولعل هذا هو ما سوف يتحول إليه كتابي، حياتي أرويها في سلسلة من صور الشخصيات التي عرفتها. ويا لها من فريق مضحك متنافر: كليمنت، روزينا، ولفريد، سيدني، بيرجراين، ريتا، فريتزي، جين، آل بول... ولا بد أن أكتب عن كليمنت. إنها الموضوع الأساسي. ما أشد جنونها وما أسوأ خلقها في النهاية عندما فقدت جمالها، وأخذت تفقد ظَرْفها. ويا لها من عاهرة عجوز مضجرة تروي قصص الفضائح الفاحشة نفسها مرة بعد أخرى! وذلك الجو الرهيب في شقتها، ورائحة الخمر، ورائحة الدموع والنوبات الهستيرية. وصوتها المخمور الأجوف العميق الذي يطن طنيناً رتيباً مردداً اتهامات لا نهاية لها. أتراني واجهت هذا كله مواجهة حسنة؟ أعتقد أنني فعلت. الصفح والرحمة، كنت على أهبة الإستعداد لمنحهما بعد أن عرفت أن هلاكها أمر محتوم. قد يبدو هذا أقرب إلى السخرية. لقد أحببتها دائماً؛ وها نحن نتلقى جزاءنا. وفي نهاية المطاف، كان كل منا كاملاً. يا لكليمنت المسكينة! إنه عالم مخيف، عالم الشيخوخة. وسرعان ما أدخله أنا نفسي. أهذا هو السبب الذي جعلني أشعر بحاجتي إلى ليزي؟.

أكتب هذا في صباح اليوم التالي. كنت جالساً أكتب ما سبق في ساعة متأخرة من الليلة الماضية في حجرة المكتب عندما حدث شيء مثير للقلق إلى أبعد حد. شَخَصْتُ ببصري إلى أعلى، وبقيت لحظة متأكداً تمام التأكّد من أنني أبصرت وجهاً ينظر إليّ من خلال زجاج الحجرة الداخلية. جلست ساكناً تماماً، مشلولاً برعب مُطْبق. وكانت الرؤية لحظية فحسب، غير أنها كانت محددة للغاية، رغم أنني لا أستطيع الآن وصف ذلك الوجه. ألا يكون لهذا الأمر دلالة ما وهو أنني لا أستطيع أن أتذكر الوجه؟ وبالطبع،

نهضت بعد فترة لأتحرى الأمر. وكان من اليسير أن أحمل مصباح الزيت الجديد، ومن ثمّ أعفيت من تلمس الطريق حولي في ضوء شمعة. وبالطبع، لم يكن هناك شيء يرى. بل إنني طفت حول المنزل. وأعترف بأنني شعرت بغرابة تصرفي. وذهبت في شيء من التمهل المتعمَّد إلى سريري في الطابق العلوي، وتناولت قرصاً منوماً. وحسبت أنني سمعت ستار الخرز يصلصل في الليل، غير أن هذه ظاهرة طبيعية. وقد هبت اليوم ريح خفيفة، والبحر أزرق وأبيض مرة أخرى.

نظرت في تفسيرين ممكنين للرؤية التي ظهرت لي. أحدهما أنها لم تكن سوى انعكاس لوجهي أنا في سواد الزجاج. ولكنني كنت جالساً (اللهم إلا إذا كنت قد نهضت لا شعورياً؟) تحت المستوى الذي يمكن أن يعكس صورتي على الزجاج. كما أن الوجه قد ظهر أيضاً عالياً في النافذة، وهكذا (وهذه فكرة أخرى) لا بد أن يكون الوجه لشخص مسرف الطول، أو لشخص يقف على شيء ما (غير أنه لا يوجد شيء يمكن أن يقف عليه، منذ أن نقلت المنضدة المطوية إلى هنا). والنظرية الأخرى سوف أتحقق منها الليلة. فالنافذة التي تطل على البحر لا يغطيها ستار، وكان القمر بدراً تقريباً. أمن الممكن أن أكون قد رأيت القمر منعكساً في الزجاج الداخلي؟.

قال ابن عمي جيمس ذات مرة مستشهداً بشخص ما: «كل شيء ممتلىء بالآلهة». ربما كنت محوطاً بآلهة صغيرة وأرواح طوال حياتي، وليس غير المسرح هو الذي طردها أو ابتلعها؟ وقد اشتهر رجال المسرح بأنهم متطيرون. وها نحن الآن بمفردنا معاً! جميل، غير أنني لم أعان قط من جنون الاضطهاد، ولا أظن أنني سأبدأ في معاناته الآن.

يجب أن أذهب عاجلاً إلى «فندق الغراب الأسحم» لأحصل على مزيد من النبيذ. وأحسبني سأكف عن الحديث عن الأشباح والوحوش في «الأسد الأسود».

واعتزمت ألا أمارس السباحة هذا اليوم.

خرجت للتسوق. تحتفظ الحوانيت بأصناف واعدة من الخس، ومع ذلك، لم أحصل على شيء منها حتى الآن. ولا وجود لسمك طازج بالطبع. وجدت مزيداً من الخطابات في الوجار الصخري. لا شيء من ليزي. رسالة من بريجراين آربلو على كل حال. وللغداء صنعت طعامي النباتي الرائع المكوَّن من البصل والجزر، والطماطم والنخالة (الردَّة) والعدس، وحبات الشعير، والبروتين النباتي، والسكَّر البني، وزيت الزيتون (أحضرت البروتين النباتي معي من لندن). وأضفت شيئاً من عصير الليمون قبل الأكل مباشرة ومع هذا كله (وهو في الواقع خفيف جدا) بطاطس مقلية بالجُبن الكريمة. ثم تناولت لفائف باتنبرج وثمار الخوخ المجفف. (هذه الثمار إذا طُهيت بعناية كانت لذيذة. جففها ثم أضف عصير الليمون أو رشة من ماء زهرة البرتقال، دون شيء من الكريمة على الإطلاق). ولو تعجَّب أحد من غياب التفاح «المأكول» من نظام تغذيتي، فاسمحوا لي أن أشرح له بأن هذه حالة واحدة أفسدت فيها حاسة الذوق عندي بمذاق أرستقراطي. فأنا لا أستطيع أن آكل إلا لب برتقال كوكس Cox's Orange Pippins وأنا في حالة حداد تفاحي تبدأ من أبريل حتى أكتوبر.

وسأسجل هنا خطاب بريجراين، تمهيداً لتقديمه إليكم:

«تشارلز، كيف حالك؟ الفضول يحرقنا جميعاً. لم يعترف أحد بأنك دعوته. ولكن، ألا تفتقدنا بصورة فظيعة؟ من يدري، لعلك قد تسلَّلت عائداً لتعيش سراً في شقتك الجديدة دون أن ترد على الهاتف، ويكون خروجك ليلاً؟ قال أحدهم إن منزلك يقع في منطقة موحشة تغسلها الأمواج، غير أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً. وأنا أراك في كوخ بحري دافىء مواجهاً للبحر. وعلى كل حال، كيف يمكن أن تعيش بلا عصارة؟ أنا لا أستطيع أن أتحملها إذا كنت قد غيَّرت حياتك حقاً. كان ذلك شيئاً أردته دائماً، ولكنني لم ولن أستطيعه، داومت

على الشرب أسبوعاً بعد رجوعي من الجحيم، أعني بلفاست. المدنية شيء رهيب، ولكن، لا تتخيل أنك تستطيع الفرار منها أبداً، يا تشارلز. أريد أن أعرف ماذا تصنع. لا تتخيل أبداً أنك تستطيع الاختفاء مني، فأنا ظلك. وأعتقد أنني سأنزل لأراك في ويتسون Whitsun. (أغرتني إحدى الحبيبات بأن أفعل ذلك، وأنت تعلم أنني لا أستطيع مقاومة أحبابي). قد يود أناس كثيرون أن يبعثوا بحبهم إذا علموا أنني أكتب، غير أنه ليس حباً بالطبع، وما هو إلا فضول وقح. قليلون هم الجديرون بك، يا تشارلز. هل الموقِّع أدناه واحد منهم؟ الزمان يبيِّن كل شيء. هل آتي إليك وأحضر سراويل السباحة؟ لم أسبح منذ أيامنا الملحمية في سانتا مونيكا. ثمة نظرية أخرى تقول إنك لست في انجلترا على الإطلاق، وإنما رحلت إلى اسبانيا بصحبة فتاة. ولكي تفنِّد تلك النظرية، لا مناص لك من الكتابة - ظلك يحييك.

برجراين

كان الوقت بعد أن تناولت غدائي (ومن الحق تماماً أنني أفتقد عصَّارتي)، وأنا جالس الآن عند نافذة الطابق العلوي المطلّة على البحر، السماء ملبَّدة بالسحب، والبحر أزرق - رمادي قاتم متلاطم الأمواج، لون عدواني لا يبعث على الحبور. والنوارس تقيم احتفالاً. والمنزل تفوح منه الرطوبة. لعلي ما زلت مكتئباً من جراء تجربة الليلة الماضية، التي لم تكن بالطبع سوى وهم بصري. (وأياً كان الأمر، فسأتحقَّق من مسألة القمر). وعلى الأقل، أستطيع أن أكتب «مكتئباً»، لا «خائفاً»، فليس هناك ما أخاف منه.

ربما دوَّنت بعض الملاحظات عن تخطيط لشخصية بِرِجْراين. وهذا يقتضي أن أكتب شيئاً عن روزينا، وإن كان من الأجدر بي أن أنسى تلك السيدة. فليكن، السيرة الذاتية لا يمكن أن تكون هي متعة التساهل مع الذات طيلة الوقت.

برجراين (الذي يكره أن يطلق عليه اسم «پيري»، كما أكره أن يُطلق عليّ اسم «تشارلي»، والناس الذين لا يعرفونني هم وحدهم الذين يسمونني

«تشارلي»). واحد من أولئك الذين يملكون مفهوماً قوياً للحياة التي يريدون أن يَحْيَوْها والدور الذي يرغبون القيام به، من أولئك الذين يحيون تلك الحياة ويقومون بذلك الدور على حساب كل إنسان، وبخاصة أقرب الناس إليهم وأعزّهم على نفوسهم. والغريب أن مثل هؤلاء الأشخاص يمكن أن يكونوا مخطئين بمعنى ما، ومن المُمكن أن يختاروا لأنفسهم الدور الخاطىء، ومع ذلك يمضون في القتال بنجاح حتى النهاية، وذلك لأن ضحاياهم يؤثرون انطباعاً بسيطاً محدّداً على آلام الفكر النقدي. وعلى الرغم من أن برجراين رجل لطيف عطوف في كثير من الوجوه، فإنه يختار لنفسه دور الدب الصاخب. هذا «القيام بدور» يعجبه مُهْملاً ـ بغباء ـ في خلق أعداء له. على حين أنني أعتقد أن من مظاهر الافتقار إلى المهارة المهنية أن يخلق المرء لنفسه أعداءً لا لزوم لهم في المسرح، أو بالتأكيد في الحياة. وبرجراين دائم التخبُّط والاضطراب في سيرته، إذ يفتقر إلى شدة التدقيق التي يتصف بها الفنان الصادق. وكنت أحتاج دائماً إلى إرهابه لكي أسحبه في حالة من الصحو على خشبة المسرح. كان يملك أدوات الممثل الجيد، غير أنه كان مخدوعاً أكثر من اللازم ولا يعبأ بالانتظام في شيء، وهناك نوع من الايرلندية المتهورة تسمه بميسمها، وكانت الأيام التي يطلبها للإجازة أكثر من اللازم.

وبرجراين كاثوليكي أيرلندي بدأ بوصفه طالباً في جامعة كوينز، بمدينة بلفاست، ثم هرب منها إلى مسرح جيت Gate Theatre في دبلن. وهو يبغض أيرلندا كما لا يبغضها إلا أيرلندي فحسب. وقد تحوَّل من الدين مبكراً ليعتنق الماركسية، ثم لم يلبث أن انصرف عن الماركسية. رأيته لأول مرة في دور Playboy (كان نحيفاً في تلك الأيام الخوالي). وفي الحال، اشتهيت مواهبه، وهو الآن، بعد أن انفصل عن الفرقة المهنية التي كونتها منذ سنوات، يدخل مرحلة جديدة بوصفه شريراً بديناً ساحراً في تمثيليات التليفزيون. وهو يعرف رأيي في عمله كممثل. غير أننا ما زلنا صديقيْن؛

هذا على الرغم من أنني سلبت منه زوجته. وقد تزوَّج مرة أخرى، وانتهى زواجه بكارثة هذه المرة أيضاً ـ من ممثلة سابقة تدعى پاميلا هاكت، كانت لها ابنة صغيرة من زواجها الفظيع السابق (بجنجر) جودوين (آه، أين هو الآن؟) لماذا يتزوج الناس على الإطلاق؟.

أجل، من المستحسن الآن أن أتحدَّث عن روزينا، وقد يكون من المفيد أن أكتب كل شيء عن هذه المسألة. غير أنني لن أكون قد كتبت كل شيء، حتى ولو كتبت مجلدات. كانت روزينا ظاهرة هائلة. وكانت متزوِّجة من پيري فعلاً عندما التقيت بها لأول مرة. التقيا في أمريكا في فترة استراحة عندما شاهدته لأول مرة في مسرح الچيت (البوابة) Gate. وكنت في هذه الفترة لَّما أَزَل شاباً في منتصف العمر، وإن كنت قد أصبحت مشهوراً بوصفي كاتباً مسرحياً ومخرجاً. ولا بد أن زمناً قد انقضى (يا ليتني احتفظت بدفتر يوميات!) منذ أن شرعت في مطاردة روزينا بعد فترة عدت فيها إلى الحياة مع كليمنت. ما أعظم الطاقة التي أنفقتها في حياتي هرباً من النساء! وتدخل ريتا جيبونز في هذه الحكاية أيضاً، وإن يكن ذلك فيما بعد. وكانت كليمنت تتحمَّل ريتا وليزي وجين، ولكنها كانت تمقت روزينا. وبالطبع، كنت أكذب على كليمنت (وكانت تكذب عليَّ أيضاً)، غير أن أناساً عديدين حرصوا على نقل أخباري إليها.

روزينا بالطبع هي روزينا فامبورج، ومن المحتمل أن تكون أشهر شخصية في هذا الكتاب، بعدي، واسمها الحقيقي الذي تحتفظ به سراً هو جونز (أو ديڤيز أو وليامز أو ريس أو شيء آخر)، وهي من مقاطعة ويلز، وتنحدر من جدّة فرنسية كندية. ولم أكن «حبيباً» لروزينا في يوم من الأيام، وإنما أود الاحتفاظ بهذه الجملة لأصف المناسبة التي أحببت فيها امرأة حباً مطلقاً (لم تكن عزيزتي كليمنت طبعاً). غير أنني كنت بالتأكيد مجنوناً بروزينا (وفضلاً عن ذلك، وعندما تكون امرأة جميلة ذكية مفتونة بك، لن يسعك إلا أن تشعر بأن جذور المسألة ضاربة فيها). ولست واثقاً من أنها

كانت «تحبني»، وإنما سيطرت على المسألة كلها - ما بقيت قائمة - شهوة عارمة متبادلة للتملك. وفي مرحلة من مراحلها، كانت تريد أن أتزوَّجها، بكل تأكيد، على حين أنني لم تراودني أدنى رغبة في الزواج منها. كنت أريدها ببساطة، وكان إشباع هذه الحاجة يقتضي انفصالها الدائم عن زوجها. وكانت كليمنت أجمل امرأة عرفتها في حياتي، عندما كانت أصغر سناً. بينما كانت روزينا الفاتنة المصطنعة المعبودة الرائعة ذات الأسلوب. كان هناك شيء متكلف هش ومن ثمَّ أنثوي مطلق في سحرها يدفعني إلى سحقها، بل إلى طحنها. وكان في إحدى عينيها حَوَل طفيف يضفي على نظرتها شدة غريبة مركَّزة. وكانت عيناها تومضان وكأنهما ترميان فعلاً بشرر. كانت شيئاً كهربائياً. وكانت تستطيع أن تجري وهي بحذائها ذي الكعب العالي بأسرع من أي فتاة التقيت بها.

كانت (وما زالت) ممثلة مجيدة، وامرأة شديدة الذكاء (هاتان الصفتان لا يتلازمان دائماً). وكانت لها نظرات مشرقة هي مزيج من الكلتية (الصقلبية) والغاليّة Gallic، تنبعث من عينين زرقاوين، ولها شعر فاحم أشبه بالأسلاك، وثغر شهواني مكتنز رطب. يا إلهي، ما أشد اختلاف القبلات! كانت قبلات ليزي جافة طاهرة ولكنها متشبثة، على حين كانت قبلات روزينا قبلات نَمِرة. وكانت روزينا تمتلك ذلك السحر الضاري للفتاة القذرة في الحكاية الخرافية التي تفشل في اكتساب الأمير، ولكنها أشد جاذبية من الفتاة التي تنجح في ذلك، كما كانت أسعد حظاً. وكانت ممثلة كوميدية حسنة، وبرزت في الملهاة التهريجية التي سادت عصر عودة الملكية في انجلترا، وهو جنس من المسرحيات لم أعبأ به قط. وقامت بتمثيل دور هيدا جابلر* تمثيلاً لا يُنسى، كما كانت مؤثرة في دور ناتاليا پتروڤنا في مسرحية «شهر في الريف**. ولسوء الحظ لم تستطع أن تلعب دور «أونور كلاين»

(*) مسرحية شهيرة للكاتب النرويجي هنريك إبسن Ibsen.

(**) مسرحية للكاتب الروسي إيڤان تورجينيف (المترجم).

أبداً. وعندما كنت أعمل معها كنت أعهد إليها بالـدور المخالف لنمـطها. وكثيراً ما كنت أفعل ذلك بنجاح مع الممثلين. وكـانت مجيدة بـدرجة تـدعو إلى الـدهشة في مسرحيـة «الرئيسـة» La Presidente في الإعداد المسرحي الذي قام به سيدني لرواية «الصلات الخطرة»* Liaisons Dangereuses. ولم أسمح لها إطلاقاً بدور ليدي مكبث، غير أن أشعياء بـوش فعل ذلـك، فكانت كارثـة. وبعد أن هجـرتها، ضلَّت روزينـا طريقهـا زمناً في الأفـلام السخيفة وفي التليفزيون، وكنت مسروراً. فبعد أن تخليت عنها لم أعد أريد أن أشاهد اسمها مكتوباً بالأضـواء في شارع شـافتسبري، كـما لم أكن أبالي بمعرفة من يقوم لها بالإخراج. **الغيرة تولد مع الحب، ولكنها لا تموت دائـماً مـعـه، La jalousie nait avec l'amour, mais ne meurt pas toujours avec lui.**

وكانت الفترة مـا بين الامتـلاك وبين الجحيم قصـيرة، وإن كنت أعترف بـأنها كانت رائعـة. فقد كـانت روزينـا واحـدة من أولئـك النسـوة اللواتي يعتقدن «أن خناقـة جيدة تنقِّي الجـو». ومن تجربتي لا تقـوم الخناقـة الجيدة بتنقية الجو فحسب، بل إنها يمكن أن ترسو بك مـع عدوٍّ ينـاصبك العـداء طـول العمـر. والخنـاقـات في المسرح يمكن أن تكـون رهيبـة، ولهـذا كنت أتجنَّبها. ومن أجل ذلـك وصفتني روزينا أكـثر من مرة بـأنني جبان. كـانت تحب المشـاجـرات، أيــة مشـاجــرات، وكـانت تؤمن بـالحب عن طـريق المشاجرات. وبدأت أشعر بالتعب. والجسر الذهبي للعـاشق المفارق قمت دائماً بمدِّه ـ كما أرجو ـ عندما يصبـح ضرورياً. وعنـدما رأت روزينـا فتور مشـاعري ـ لم تكن لـديها هـذه البدعـة الـرحيمـة جـاهـزة ـ تشبَّثت بي أكـثر فـأكثر، وصرخت أعـلى وأعلى. وكـانت تستسلم دائماً ـ بجنـون ـ للغيرة، بأكثر من استسلامي لها. كم كانت الغيرة الشديدة، ومشهدها، ومعـاناتهـا سمة من سمات حياتي كلها! وأتذكَّر الآن شيئـاً كان مختلفـاً أشد الاختـلاف

(*) رواية شهيرة للكاتب الفرنسي لاكلو Laclos (المترجم).

ـ وإن لم يقل عن ذلك فظاعة ـ ألا وهو صمت أمي بعد رحيل عمتي «إستل».

وفي النهاية، أصبح كلٌّ منا نصف مجنون. وأتذكَّر ابن عمّي جيمس مستشهداً بأحد الفلاسفة وهو يقول: «لا يتنافى مع العقل أن يُؤْثر المرء تدمير العالم على خدش يصيب إصبعه». وقد بلغت روزينا وأنا حالة (لا أظن أنني أصفها بأنها حالة عقلانية) كنا نؤثر فيها الحالة الأولى (دمار العالم) على وجه التحديد. وأتذكَّر أن روزينا تدحرجت على السلّم ذات مرة في نوبة غضب. وفي مناسبات عديدة كنت على أهبة الاستعداد للقفز من نافذة في الطابق العلوي، وراودني الأمل في أن تفعل هي ذلك. وانتهى بي الأمر إلى الشعور، ولعلي كنت أشعر دائماً، بكلمات رجل فرنسي: **ليس بها سوى خطأ واحد، وهو أنها لا تطاق** Elle n'a qu'une faute, elle est insupportable. وما زلت حتى الآن أستيقظ أحياناً في منتصف الليل وأفكِّر، فأحمد الله على كل حال، أن خَرَجَت هذه المرأة من حياتي. وبالطبع، عندما هجرتها لم ترجع إلى برجراين أبداً بعد ذلك.

كنت شديد الامتنان لبيري، كما كنت أكنّ له الإعجاب حقاً، على الطريقة التي يسلكها. وبعض الساخرين يقولون إنه كان سعيداً لأنه تخلَّص من روزينا. أما أنا فكنت أعْلَمَ منهم، وأعرف أنه يتألَّم. كنت واثقاً أنه وروزينا كانا يعيشان حالة حرب دائمة، غير أن كثيراً من الأزواج السعداء يفعلون ذلك. وأنا أعتقد أنه كان يحبها، وإن كان من المحتمل أنه وصل إلى ما وصلتُ إليه، من أنها مستحيلة، هذا كل ما في الأمر. ومن ثمّ، يجوز أن يكون هناك عنصر من الارتياح العميق في أن المشكلة أزيلت دون إرادته. وحاد فيما بعد عن طريقه ليقوم باستعراض بيِّن للتضامن الرجولي، فقد ظل مرتبطاً بي ارتباطاً وثيقاً، وأنا أقدِّر منه هذا الموقف. ومن نتائج سخائه وعطفه العظيمين أنني لم أشعر ـ عملياً ـ بأي ذنب، رغم أنني أرى نفسي ـ موضوعياً ـ وقد تصرَّفت تصرّفاً سيِّئاً، وهذا لأن بيري لم يوجِّه إليّ

أي لوم على الإطلاق. وعلى العكس من ذلك، شعرت دائماً بالذنب ـ من ناحية أخرى ـ فيما يتعلّق بسائقي فريدي آركرايت، لأنه هاجمني بعنف ذات مرة، ولم يكن كذلك لأنني كنت سبباً في شعوره نحوي بالبغضاء لأنني تركته ينتظرني جائعاً عدة ساعات، بينما كنت أسرف في الشراب في «فندق كونوت»، ذلك أن مشاعر الذنب تنشأ في معظم الأحيان من الاتهامات، ولا تنشأ عن الجرائم.

خرجت لاقتطاف بعض الزهور التي تنمو على صخوري! فاقتطفت باقة بديعة متنوّعة من زهر الناردين والقرنفل والمنثور البحري الأبيض. ولهذا المنثور البحري رائحة عذبة قوية جداً. ولم أكن أستطيع الكف عن جَمْع الصخور، وكانت القناة قد طفح ماؤها حتى بعد أن أحطت حدود مرجتي بأفضل ما جمعته من تلك الصخور. وكانت هذه الحدود تبدو (غريبة) نوعاً ما، وسأرى كيف أحبها حين ينتهي ترتيبها. فهذه طريقة حسنة لعرض الصخور، ولكن، أَمِن الممكن أن تقوم التربة بتلوين قيعانها؟.

سبحت هذا الصباح، أثناء سقوط الأمطار، بدءاً من الشاطىء الصخري. وهذا الشاطىء يبعد عن المنزل بحوالي الميل ناحية القرية، ومن ثمّ فقد أخذت معي سراويل السباحة، غير أنني لم ألبسها لأنه لم يكن هناك أحد. وكان للمطر تأثيرمهدِّىء على البحر، فجعله ناعماً رائعاً، بل زيتياً تقريباً. ولم أجد أية مشقة في الخروج، وجمعت مزيداً من الصخور، ثم رجعت إلى البيت، وجلست عارياً في المطر الدافىء على «جسر مين»، وأخذت أراقب المياه اللامعة وهي تجري في البقعة المسيَّجة العميقة. وحتى إذا كان اليوم هادئاً، فإنها تجري إلى الداخل والخارج وكأنها موجة من موجات المد.

لم أستطع في الليلة الماضية أن أتحقق من نظريتي بأن «وجهي» الشبحي كان انعكاساً للقمر، لأن السماء كانت ملبدة بالسحب. غير أنني على يقين الآن من أنه كان وهماً بصرياً، ولا يحتاج إلى المزيد من التفسير. وفي

المساء، شَغَلت الحجرة الحمراء الصغيرة، وأوقدت النار هناك. غير أن المدفأة عاودت التدخين، ولعل ذلك راجع إلى اتجاه الريح. وفيما كنت أحاول إنقاذ عنكبوت يجري فوق قطعة نصف محترقة من الخشب، تذكرت والدي. فمنذ أتيت إلى هذا المكان، عشت مع ألسنة اللهب العارية لأول مرة منذ سنين وكانت كليمنت تعشق دائماً النار الطليقة. ما أعجب عملية الاحتراق! وما أغرب الهدوء الذي تحول به الأشياء تحويلاً مطلقاً! إنها نظيفة إلى أقصى حد، نظيفة كالموت! (هل تُحْرق جثتي؟ ومن الذي سيرتب هذا الأمر؟ لا داعي الآن، للتفكير في الموت). وكنت أحتفظ بأخشابي حتى الآن في مخزن الأطعمة، ولكن، لا يوجد مكان كافٍ، والأرضية شديدة الرطوبة. وربما جعلت الحجرة الداخلية في الطابق الأرضي مخزناً للوقود. والواقع أن خشب الطفو بديع للغاية، بعد أن صقله البحر، وأضفى عليه بياضاً فصار لونه رمادياً باهتاً، ويبدو من العار أن يحرقه المرء. نحيّت بعض القطع جانباً، وجعلت أُعْجب بالتجزّع الموجود فيها. ربما صنعت مجموعة من «نحت» خشب الطفو.

جلست بعد تناول الشاي عند نافذة حجرة المكتب أراقب المطر المنهمر بانتظام في البحر. ثمة بساطة رهيبة كئيبة في هذا المشهد الرمادي. وبغض النظر عن الخط الحديدي ـ القاتم الممتدّ في الأفق ـ كان البحر والسماء مصطبغيْن بلون واحد تقريباً، لون رمادي مشرق إشراقاً طفيفاً مكتوماً، وفي حالة توقع كأنما ينتظر شيئاً وشيكاً. قد يكون ومضات البرق أو وحوشاً تتصاعد من الأمواج. حمداً لله، لم تعد تنتابني مثل تلك الهلوسات، ويقنعني المدى الذي وصلت إليه من النسيان أن ما أبصرته كان حقاً تأثيراً بعدياً للمخدر الذي تناولته بحماقة. أو أتراني «رأيت» حقاً أي شيء يحتاج حتى إلى أي تفسير؟ راقبت بعناية شديدة البحر الممطر المستوي، فلم يصعد منه شكل ضخم يلتف على نفسه! (ولا حتى عجول البحر). وقد خطر لي فيما بعد ـ وهذا شيء غريب بما فيه الكفاية ـ أن أطيل التفكير فيما

قاله أجلاف «الأسد الأسود» عن «الديدان». وكلمة «دودة» عبارة عن لفظة قديمة للتنين. جميل، يبدو أن المسألة بدأت تتخذ شكلاً جديراً بالمشاهدة: تنانين، أرواح تقوم بالصياح وتكسير الأشياء، وجوه في النوافذ! وما أشد القلق الذي يثيره في نفسي كل هذا المطر.

أعدت قراءة الفقرات التي كتبتها عن جيمس وبرجراين، فتأثرت بها تأثراً شديداً. هي لا تعدو بالطبع أن تكون مجرد تخطيطات، وفي حاجة إلى أن تكتب بمزيد من التفصيل قبل أن تصبح «صادقة» حقاً، «ومطابقة للحياة». ولم يخطر لي إلا الآن أنني أستطيع أن أكتب كل أنواع الهراء الخرافي عن حياتي في هذه المذكرات، فيصدقها الناس جميعاً! هذه هي سرعة التصديق الإنسانية، سلطان الكلمة المطبوعة، وأي «اسم» ذائع الصيت أو «شخصية من عالم الإستعراض». وحتى لو إدعى القراء أنهم «يأخذون هذا الأمر كله بشيء من التحفظ والشك»، فإنهم لا يفعلون ذلك حقاً. إنهم تواقون إلى التصديق، وهم يسارعون إليه، لأن التصديق أيسر من عدم التصديق، ولأن كل ما يكتب خليق بأن يكون «صادقاً على نحوٍ ما». وإني على ثقة من أن هذا الخاطر العابر لن يؤدي بأي شخص إلى الشك في صدق أي شطر من هذه القصة. وحين أُقْدم على وصف حياتي مع كليمنت ميكين، ستتعرض هذه المصداقية للتوتر، ولكنني أرجو ألا تنهار.

منذ أن بدأت في تسطير هذا «الكتاب» ـ أو فليكن ما يكون ـ أحسست وكأنما أتجول في كهف مظلم تنتثر فيه «أضواء» متعددة، تصدر عن أشعة أو منافذ تتصل بالعالم الخارجي. (يا لها من صورة متجهمة لذهني، غير أنني لا أعنيها بمعنى متجهم). وبين هذه الأضواء، هناك ضوء هائل أتلمس نحوه طريقي وأنا في حالة نصف واعية. قد تكون «مدخلاً» واسعاً مفتوحاً على ضوء النهار، أو ربما كانت ثقباً تنتقل من خلاله النيران صاعدة من مركز الأرض. أما زلت غير متأكد من مصدرها، وهل ينبغي أن أقترب

الآن للكشف عن هذا المصدر؟ هذه الصورة لاحت لي بغتة، ولا أدري ما أصنع بها.

عندما اعتزمت الكتابة عن نفسي، ثارت بالطبع هذه المسألة: هل لا بد من الكتابة إذن عن هارتلي؟ طبعاً، فكَّرت في أنه ينبغي عليّ أن أكتب عن هارتلي، ما دام هذا هو أهم شيء في حياتي. ومع ذلك، كيف أستطيع أنا، وأي أسلوب أتخذه أو أمتلك زمامه - يكون جديراً بهذه الحكاية المقدسة، ثُمَّ ألن تكون المحاولة لأن أحيا تلك الأحداث من جديد باعثة على اضطرابي إلى درجة لا سبيل إلى احتمالها؟ أو لعل الأمر أن يكون مجرد تدنيس؟ أو فلنفترض أنني اخترت النغمة الخاطئة، فجعلت من الرائع شيئاً هزلياً أجوف؟ قد يكون من الأفضل أن أروي حياتي دون أن أذكر هارتلي، حتى ولو بلغ هذا الحذف مرتبة الكذبة الجسيمة. أيستطيع إنسان - في مثل هذه الصورة الذاتية - أن يحذف شيئاً أثَّر على وجوده كله، وفكر فيه كل يوم من حياته؟ وقد تكون عبارة «كل يوم» مغالاة، ولكنها ليست مغالاة كبيرة. ولست بحاجة إلى «استحضار» هارتلي، فإنها هنا. إنها نهايتي وبدايتي، وهي الألف والياء.

رأيت من الأفضل أن أسدل ستاراً على هذا السؤال الذي بدأ يزعجني إزعاجاً شديداً. وقررت أن أكتب ببساطة وأن أرى إن كنت أستطيع أن أتناول - أو اكتشف أنني تناولت - ذلك الموضوع الواسع الذي يمس هارتلي. وما إن وجدت نفسي أكتب على غير توقع وفي تلقائية «كان جدي لأبي بستانياً في سوق لنكولنشاير»، حتى اكتشفت الآن، أثناء تجوالي في كهفي، أنني دنوت في الواقع من مصدر الضوء العظيم، وأنني على استعداد للحديث عن حبي الأول، وهو حبي الوحيد أيضاً. وخير من عرفت من النسوة جميعاً، بما فيهن كليمنت، لم يكن بالقياس إليها سوى ظلال. وتبدو ضرورة هذا الأمر - في حالتي الخاصة - عظيمة إلى درجة أنني أجد مشقة في تخيل أن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة لكل إنسان. والمرء لا

يحب ســوى مـرّة واحــدة، هي المـرّة الأولى On n'aime qu'une fois, la première.

كان اسمها «ماري هارتلي سميث». ما أسرع وأيسر كتابتي لهذا الإسم! ومع ذلك، يخفق قلبي بسرعة أيضاً. يا إلهي! ماري هارتلي سميث.

هـذا إذن هو عنـوان القصة. غـير أنني لا أستطيـع أن أرويها. سـأكتب بعض ملاحظات عن القصة، وربما لن أحيكهـا أبداً. وقـد يكون من الحق أنها غير قابلة للروايـة، لأنها لا تكاد تتضمن «أحـداثاً»، وإنمـا كل مـا فيها مشاعر، مشاعر طفل، ثم صبي، ثم شاب، مشاعر سديمية مقـدسة أقـوى من أي شيء آخر في حياتي كلهـا. ولا أكاد أتـذكر زمنـاً لم أكن أعرف فيـه هارتلي. التحقت بمدرسة للبنين فحسب، غير أن مـدرسة البنـات كانت في الباب المجاور لمدرستنا، فكنا نرى البنات طيلة الوقت. ولما كانت هنـاك في تلك الأيام مجموعات كبيرة من الفتيات باسم مـاري فقد عُرفت دائماً باسم «هارتلي»، وكان هذا الإسم مناسباً لهـا تمامـاً. تزاملنـا معاً في وقت مبكـر، وكان ذلك في مرح وطفوليـة ودون أية مشـاعر عميقـة تهز النفس ـ على ما أتـذكـر ـ في تلك الأيـام الخـوالي. وعنـدمـا بلغنـا الثـانيـة عشرة، بـدأت العـواطف. فسببت لنا حيرةً، ودهشة. وهـزتنا كـما تهز الكـلاب الفئـران الصغيرة. فإذا قلت إننا كنا «متحابين»، ما استطاعت هذه الجملة الغامضـة الضعيفـة أن تعبرِّ عما كنا فيـه. كان كـل منا يحب الآخـر، يحيا فيـه، ومن خلاله وبه. كان كـل منا هـو الآخر. لمـاذا كان هـذا الحب عذابـاً خالصـاً طاهراً لم يدنسه شيء؟.

ومن الغـريب أن أكتب الآن (ولن أغيّرهـا) كلمة «العـذاب»، ذلك أن ذلك الحب كان بالطبع فرحاً خالصاً. ولعل المسـألة هي أنـه أيا كـان، فهو متطرف عف. (قيل لي إن الرجل المعصوب العينين لا يستطيع أن يميـز بين الاحتراق الشديـد، والتجمد الشـديد). أو لعـل العواطف في تلـك السن تميل إلى أن يشعر بها المرء بوصفها آلاماً لأن الفكر لا يخفِّف منها. كل شيء

يتحـوَّل إلى قلق وخـوف، وكلّما كـان أروع وأمتـع كـان الجـزع والهلع أكبر. ولكن اسمحوا لي أن أكـرر أن هذا لم يكن تـأملاً، ولم يكن تفكيـراً. ولم أكن مهموماً بشكوك ذكية عما إذا كانت هـارتلي سـوف تستمر في حبي، فقد كنت أعرف بالطبع أنها لي إلى الأبد. غير أننا عنـدما كنـا نُغلق عيوننا على دموع الفرح، كان الجزع الكوني يطل علينا.

وبـدافع مـن الغـريزة كتمنـا هذا كله بـالطبـع ـ سراً. واعتـاد زمـلاء المدرسة على صداقتنا اللاهيـة. أما الآن، فكنـا نتوارى، ونلتقي في أمـاكن سرية بين الحين والحين. كل هذا كان بدافـع من الغريـزة، كما قلت، دون مناقشة أو تعمـد. كان علينـا أن نُخْفي الشيء الثمين خـوفاً من أن يصيبـه سـوء، أو تنال منـه سخـريـة، أو يلحق بـه ضرر أو إهـانـة. ولم يكن أبـواي يعرفان عن هارتلي ـ بالطبع ـ إلا القليل، ونادراً ما كانت تأتي إلى المنزل، بسبب كراهيتها المَـرَضية للزوار، ولأنني لم أقـترح عليها ذلـك إطلاقـاً. ولم يشك أحد منهما في اهتمامي الخاص بها لأنهما كان ينظران إليّ على أنني أصغر من أن تكون لي اهتمامات خاصة. وكذلك كان أبواها على شعور مبهم بي، ولا يعيرانني أدنى اهتمام، وإن كنت أعتقد أنهما أميل إلى كراهيتي. وكان لها شقيق أكبر يحتقرنـا كِلَيْنا. كـان عـالمنـا مختومـاً وسريـاً. وسنخـبر الآبـاء ـ فيـما بعد ـ في الـوقت المناسب حـين يربط بيننـا الزواج، إذ كنـا سنتـزوج بالطبع حين تبلغ الثـامنة عشرة (كنـا في سن واحدة). وكنـا نتعانق كثيـراً، ولكننا لم نزد على ذلك. وتذكَّر أن ذلك كان منذ أمد بعيد.

ينبغي أن أحاول وصف هارتلي. أواه، يا حبيبتي، ما أشد وضوح رؤيتي لـك الآن! هذا إدراك حسي بكـل يقين، وليس خيـالاً. الضوء في الكهف هو وضح النهار، وليس نارا. لعله النور الحقيقي الوحيـد في حياتي، النـور الذي يكشف عن الحقيقة. لا عجب أنني خشيت أن أفقد النور، وأن أُترك في الظلام إلى الأبد. خوف الطفل الأعمى كله هناك، الخوف الذي غرسته أمي في نفسي مبكراً: القبلة حُرمت عليّ، والشمعة انـتزعت مني. هارتـلي،

حبيبتي هارتلي. أجل، إني أراها بوضوح، تثب فوق حبل، يرتفع ويرتفع، وما زالت هارتلي تثب من فوقه، والمراقبون يتنهدون كل مرة في ارتياح متعاطف؛ وأنا أضم قلبي في زهو مستتر. كانت بطلة الوثب في المدرسة، وفي مدارس عدة ببطلة الجري، هارتلي الأولى دائماً، وأنا أهتف لها مع الباقين، وأضحك في سرور خفي. وهارتلي في سكون أوقفت فيه التنفس تنحني على المتوازيين، وفخذاها العاريتان تومضان. ومدرِّس الألعاب يتحدث عن الألعاب الأولمبية.

تعال، يا روح القدس، فلتلهم أرواحنا، وبالنار السماوية أنرنا. ذهبنا معا لتثبيت العماد، ولتلقي البركة الإلهية على حبِّنا. وما زلت أذكر هارتلي وهي تنشد في الكنيسة، ووجهها البريء المشرق شاخص إلى النور، إلى الله، صوب الفرح الذي ينتمي إلينا والذي ينبغي أن يكون لنا. وتحدثنا طويلا عن الدين (تحدثنا كثيرا عن كل شيء)، وأحسسنا أننا إنسانان مكرّسان يحمينا الحب. وكنا في تجربة البراءة، دون أن يخطر لنا أن من العسير أن نكون خيّرين. وأستطيع أن أتذكَّر ضحكة هارتلي الرائعة، ولا أستطيع أن أتذكر أن كلا منا كان يغيظ الآخر كثيرا، وأننا كنا لا نكف عن إختلاق الدعابات. كانت سعادتنا مقدسة عليها مسحة من الجد، كما كنا نربأ بأنفسنا عن الحديث المبتذل الذي يخوض فيه زملاء المدرسة. وأظن أن فضولنا لمعرفة الجنس كان ضئيلا. كنا كيانا واحدا، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يهمنا. كنا نعيش في الجنة. ونهرب على دراجتينا لنتمدد فوق حقول العشب، إلى جانب جسور الخط الحديدي، وبالقرب من القنوات، وفي الأراضي البور التي تنتظر المناطق السكانية. وكانت منطقتنا بالفعل ضاحية من ضواحي الريف، غير أنها كانت حبيبة إلى قلبينا، عزيزة علينا وكأنها جنة عدن. ولم تكن هارتلي فتاة مثقفة أو دودة كتب، وإنما كانت لها حكمة الأبرياء، وكنا نتحادث كالملائكة. كانت على سجيتها في الزمان والمكان.

أستطيع أن أراها الآن باسمة الثغر نحوي. كانت جميلة، ولكنها ذات

جمـال مستتر. فلم تكن واحدة من «فتيـات المدرسـة الفـاتنـات». بـل إن وجههـا يبدو ثقيـلا أحيانـا، يكاد يكـون صارمـا، وحين تبكي تبـدو أشبـه بالخنزير الطفل في حكاية «أليس» Alice. وكانت شديدة الشحوب، وكثيرا ما حسبها الناس مريضة، مع أنها كانت قوية، وتتمتع بصحة جيدة ـ يميل وجهها إلى الاستدارة والبياض، وعيناها تحدقان بنظرة حائرة مُنْـذرة، وكأنها فتاة وحشية. ولهـا عينان زرقـاوان داكنتان، تبـدوان في لون البنفسـج إن لم تكن ناظراً إليهما. وكان جفناها مرتخيين دائماً بحيث توشك عيناهـا أن تكونـا سوداوين. وكان لها شعر بديع مسـترسل تعقصـه في عقدة طـويلة. وكانت شفتاها شاحبتين، بـاردتين دائـما؛ وعندمـا كنت ألمسهما ـ مغمض العينـين بشفتيّ على نحو طفولي كانت تنفذ في جسدي قوة باردة كأنها الرمح، فأشعر بما يشعر به الحاج عندما يـركع ويلمس حجـرا مقدسـا يجدد الحيـاة. وكان جسدها سلبيا إزاء معانقاتي، غير أن روحها كانت تتـوهج مستجيبـة لي بنار باردة. وكان كتفاها الجميلتان وساقاها الطويلتان، يعلوهـا الشحوب أيضـاً، وتبـدو باردة. ولم أشـاهدهـا قط مجردة من ثيـابها. وكـانت نحيفة، نحيفـة جدا، جميلة الساقين، ونظيفة، وقوية للغاية. ولم تكن تعانقني قط، ولكنهـا كانت تمسك بذراعيّ أحيانا في كثير من العنف، بحيث تترك فيهما كدمات. ولا تغمض عينيها البنفسجيتين عندما أتحـرك لتقبيلها، وإنمـا كانتـا تحدقـان بتلك الحيرة الغريبة التي تعبر ـ في الوقت نفسه ـ عن هيـام شديـد. وهذه الأحضان الهادئة الصـامتة التي توشك أن تكون متصلبـة ـ كانت أشـد ما عرفته من الأحضان المفعمة بالعاطفة. وكنا طاهريْن، ويحترم كل منـا الآخر احـتراما مـطلقا، ويعبـد كل منـا الآخر في تعفف. وكـان هـذا هـو الهـوى الجارف، والحب بنقاء لا يمكن أن يـأتي مرة أخـرى على الإطـلاق، وإني أوقن أنه نادر الوجود في هذا العالم بأسره. وهذه الذكريات أشد إشراقـا في نفسي من أعمال الفن، وأكثر حياة ونفاسة من شكسبير وبييرو دلا فرانشسكا Piero Della Francesca. ثمة أساس عميق لـوجودي لا يعـرف الزمـان

ولا يعتريه التغيُّر، وما برح دائما وأبدا ملازما لهارتلي، في ذلك المكان الطيب الذين عشنا فيه ذات يوم.

بعد أن كتبت كل هذا، ماذا يمكن أن أقول الآن؟ أستطيع أن أمضي وأمضي في وصف هارتلي فحسب. غير أن الأمر غدا مؤلماً. لقد فقدتها، جوهرة العالم. أما كيف حدث ذلك، فما زال سراً مغلقاً بالنسبة لي حتى يومنا هذا، سراً يتعلق بروح فتاة شابة، وبرؤيتها للحياة. كنت أخشى أشياء كثيرة، أن يطويها الموت، أو يطويني، أو أن تحل علينا اللعنة لأننا سعيدان؛ غير أنني لم أَخَفْ ـ على كل حال وبطريقة واعية ـ ولم أواجه ما حدث فعلاً. أو لعل مخاوفي جميعاً كانت من ذلك الأمر حقاً، غير أن الأمر كان من الفظاعة بحيث يمنعني من استحضاره في مجال الوعي؟ الحب المفرط ينطوي بالضرورة على الرعب، الرعب العظيم، مثل بعض أنواع الصلوات التي تستند على حكمة الإله القدير، فيكون لها محيط رحب لا حدود له، يحتضن الأشياء جميعاً. ولهذا، ربما كنت أخاف من ذلك أيضاً. لا بد أنني بكيت في قلبي الذي فَقَد تماسكه: وهذا هو الذي أرجو ألا يحدث، وإن كان يبدو غير قابل للتصور.

اسمحوا لي أن أحاول، وأن أضع الأمر ببساطة، وهو بالطبع في غاية البساطة. قررت هارتلي ـ عندما حان الوقت ـ أنها لا تريد أن تتزوجني. وكان من المستحيل اكتشاف السبب بالضبط، وقد حطمتني التعاسة فلم أتمكن من التفكير بوضوح، والسؤال بذكاء. كانت مضطربة، مراوغة، وربما كان ذلك برغبة منها في أن توفِّر الألم عليّ، أو لعله كان بسبب شعورها بالتعاسة، أو ربما كان للتردد في اتخاذ قرار أخفقتُ بغبائي في تمييزه. قالت بالتأكيد أشياء رهيبة لا تنساها الذاكرة. لكن، أكانت هذه هي «الأسباب»؟ كل شيء قالته كان يبدو أنها تمحوه فيما بعد في نوبة من البكاء. وكنا قد قلنا منذ زمن طويل إننا سنتزوج عندما نبلغ الثامنة عشرة، عندما نكبر. ووسط تلك الدموع الغامضة المراوغة الكاسحة، ما كان أحر

صياحي في وجهها بأنني سأنتظر، ولن أتعجلها أبداً. أكان ذلك خوف فتاة صغيرة؟ إن كان كذلك فأنا أحترمه، ولها أن تفعل ما تشاء ما دامت تترك لنا مستقبلنا الثمين الذي عشنا من أجله طيلة تلك السنين. كان زواجنا علامة ثابتة مؤكدة، ولم أكن أخشى إلا أن يداهمني الموت قبل أن أبلغها. وذهبت إلى لندن للإلتحاق بمدرسة الدراما وهذه العلامة الثابتة نصب عينيّ. ولم نكن قد أخبرنا والدينا بعد. أكانت تلك غلطتي؟ كنت أخشى رفض والدتي، ومعارضتها. من الجائز أن تقول إننا ما زلنا صغيرين. ولم أكن أرغب بعد، في إفساد سعادتي بالمشاجرات الأبوية، وإن قلنا ـ في كثير من الأحيان ـ إننا سنواجه أية معارك ـ ولكن، إذا عرف والدونا، ووافقوا، أو لو أننا خضنا المعركة في سبيل حبنا، فإن مجرد إعلان خطتنا سيجعلها أشد إلزاماً، وأكثر واقعية. ومن المؤكد أنها ستغيّر الجو في فردوسنا الصغير. أكنتُ أخشى مجرد هذا التغير، وهل فقدتها لأنني كنت جباناً؟ أواه، ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟ ماذا حدث عندما ذهبت إلى لندن ماذا كان يدور بخلدها؟ لقد وافقت، وفهمت. طبعاً، كان هناك افتراق، غير أنني كنت أكتب كل يوم. وكنت أحضر في عطلات نهاية الأسبوع، ولم يبد عليها أي تغير. وذات يوم أنبأتني. . . .

امتطينا دراجتينا حتى القناة، وهو طريق نسلكه في كثير من الأحيان. تركنا الدراجتين متعانقتين على الحشائش الطويلة بالقرب من الممر المسلسل، كما اعتدنا أن نفعل دائماً. سرنا في طريقنا، ناظرْين إلى الأشياء المألوفة، الأشياء العزيزة التي جعلناها من أملاكنا. كان الوقت خريفاً. وهناك مجموعات كبيرة من الفراشات. وما زالت الفراشات تذكّرني بتلك اللحظات الرهيبة. شرعت في البكاء. «لا أستطيع الاستمرار، لا أستطيع الاستمرار، لا أستطيع أن أتزوجك». «لن يسعد كل منا الآخر». «لن تبقى معي، سترحل، ولن تكون وفياً». «أجل أنا أحبك، ولكنني لا أستطيع أن أثق، لن أتمكن من أن أرى». طار الحزن بصوابنا، وأخذ كل

منا يصيح في وجه الآخر من شدة الكرب. وفي هذا اليأس، في هذا الخوف القاتل، جعلت أهذي: «على الأقل، سنكون صديقين، إلى الأبد، لن يفترق أحدنا عن الآخر، ولا يستطيع أحدنا أن يفقد الآخر، هذا محال، سأموت». هزَّت رأسها، وانخرطت في البكاء، «أنت تعرف أننا لن نستطيع أن نكون صديقين الآن». كنت أستطيع أن أرى عينيها المتوهجتين، وثغرها المبلل بالدموع، يرتجف. ولم أستطع أن أفهم أبداً كيف كانت قادرة على أن تكون قوية كل هذه القوة. أكانت تعني ما تقول، أم أن الكلمات كانت تخفي ألفاظاً أخرى لا تجرؤ على البوح بها؟ لماذا عدلت عن رأيها؟ سألتُها وسألتُها، لماذا تعتقد أنني لن أكون مخلصاً؛ ولماذا تعتقد أننا لن نكون سعيديْن، ولماذا لم تعد تثق في المستقبل؟«لا أستطيع الاستمرار على هذا النحو، لا أستطيع فحسب». هل كذب عليها أحد بشأني؟ إنها لا يمكن أن تكون ـ بكل تأكيد ـ غيورة بسبب حياتي في لندن حيث لم أكن أفعل شيئاً سوى التفكير فيها! (كانت كليمنت مخفيّة ـ طبعاً ـ في طيات المستقبل). أتراها قابلت أحداً غيري؟ قالت: كلا، كلا، كلا، ثم طفقت تردد ألفاظها الرهيبة المشوشة. أجل، كانت قوية للغاية. ولم تلبث أن هربت.

عدت ثانية إلى لندن. وبعد يوم أو يومين لم أكن أستطيع تصديق إمكان وقوع شيء بهذه البشاعة. كتبت إليها بلهجة آمرة، متفهمة، واثقة. ألغيت كل شيء، وأسرعت عائداً. رأيتها مرة أخرى، وتكرر المشهد نفسه، مرة أخرى. وبغتة، اختفت. سألت عنها في منزلها، فنظر إليّ أبواها وشقيقها نظرات عدائية. لقد رحلت للبقاء مع أصدقاء لها، ولا يعرفون العنوان. سألت عنها مرة أخرى في الأسبوع التالي، ثم تلقيت خطاباً من أمها تقول فيه إن هارتلي لا تريد أن تراني، وتطلب مني ألا أزعجهم. بحثت، وسألت، وراقبت. كيف يمكن أن يتلاشى الناس على هذا النحو في القرن العشرين، لماذا لا يوجد سجل يمكن أن يرجع إليه المرء، مصلحة يمكن أن يكتب إليها المرء؟ أمضيت إجازاتي في عمل بوليسي. ما من أحد من

أصدقائنا في المدرسة يعرف مكانها. وضعت إعلاناً في الصحيفة المحلية. زرت كل مكان أشارت إليه في أحاديثها وكل إنسان يعرفها جيداً. وكتبت عشرات الخطابات ـ وبعد وقت طويل أصبح من الواضح بالنسبة لي طبعاً أنها لم تتمكن من الهرب إلا بالجري، بالتلاشي.

وفي وقت ما خلال هذه الفترة ترك أبواها هذا الحي، ثم تلقيت من أمها رسالة مقتضبة غير مهذبة، ولا تتضمن عنواناً، تقول فيها إن هارتلي قد تزوجت. فلم أصدقها. كان الوالدان كاذبين، وتأثيرهما سيء، ويحقدان عليّ لأن هارتلي أحبتني. واصلت البحث، وواصلت الانتظار. وشعرت بأنه لا بد من وجود سبب معين خاص لهروبها، وأن الزمن كفيل بإزالة السبب وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه. وتصرفت في تلك الآونة بصورة ضارية الجنون. بحيث علم كثير من الناس بحبي، وطارت شهرتي بوصفي عاشقاً مجنوناً. وأردت حينذاك أن أعلن عن محنتي عسى أن يحمل إليّ أحد بعض الأنباء. وفعلاً، قام أحد بذلك. إذ كتب إليّ السيد ماكدوول فقال إن الخبر صحيح، وإن هارتلي تزوجت. صدقته. ولم يكن قد أعطى أية تفاصيل (لعله خشي أن أرتكب فعلاً من أفعال العنف)، ولم أسأله شيئاً منها. وقال في خطابه: «ينبغي أن تتقبل ببساطة أنها لا تريدك، وأنها تحب شخصاً سواك. ومع هذا، لا يستطيع أي رجل أن يجادل».

تماثلت للشفاء ـ طبعاً ـ بمعنىً ما. إذ لجأت إلى العمل. والتقيت بكليمنت ميكين، وتركتها تختطفني. رويت لها القصة كلها، وأظن أن هذا كان في أول لقاء لنا. ولم أطلع أبويّ على شيء أبداً، وأعتقد أنهما لم يعلما على الإطلاق. كانا شخصين بسيطين لا يرتابان في شيء، ولا يقابلان أحداً. وقامت كليمنت على تمريضي، وتمريض غيرتي التي ظلت «موضوعاً» رئيسياً للحديث بيننا فترة من الزمن. ولعلها كانت تستمتع بهذا كله، إذ شعرت بأنها تشفيني، وتركتها تعتقد ذلك، غير أنها كانت مخطئة. كان الجرح غائراً، وقد تلوث الآن بمرارة الغيرة الثائرة. هذا الجذام الشنيع

الذي اقتحم حياتي حين قرأت خطاب السيد ماكدوول، ولم يتركني أبداً منذ ذلك الحين. «إنها لا تريدك، إنها تحب شخصاً آخر». عندما كنت أبحث عنها كنت مخدوعاً بالأمل، وكنت أصفح عنها دائماً في قلبي، وهذا الفعل المتجدد باستمرار للغفران كان يجلب إلى نفسي شيئاً من العزاء. وكنت أشعر أنها لا بد أن تعرف على نحوٍ ما كم أعاني، وأن الهوائي (الإيريال) المعلّق في تفكيري لا بد أن يلامسها. غير أنني أفكر فيها دائماً على أنها بمفردها. وبعد أن فهمت حقاً أنها تزوجت، لم أحمل لها شيئاً من البغض، وإنما أخذ شيطان الغيرة يلوث الماضي، ولا يترك في عقلي مكاناً للراحة. وربما كانت الغيرة من أقوى العواطف اللاإرادية، فهي تسلب الوعي، وتستقر في مكان أعمق من الفكر. إنها دائماً هناك، مثل سوادٍ في العين، فلا تجعل للعالم لوناً.

أحدثت هارتلي في حياتي أزمة ميتافيزيقية دائمة برفضها لي لأسباب أخلاقية. أكان ذلك هو ما دفعني إلى أن أجعل من اللاأخلاقية قناعاً لي؟ مثل هذه النظريات الفخمة هي بالطبع نوع من الهراء، وكتابتها تثير في نفسي شيئاً من الدهشة والشعور بالمباغتة. ماذا كانت «أسباب» هارتلي؟ لن أعرفها أبداً. من الممكن أن يكون قد دخل في غرامي بكليمنت معنىً شيطاني من الاستسلام الذي منيت به براءتي، وكأنني كنت أقول لهارتلي: إنك لا تثقين فيّ؛ طيب، سأثبت لك الآن وإلى الأبد، كم كنت على حق! ولعل غرامياتي جميعاً كانت محاولات شريرة لكي أثبت لهارتلي أنها على حق قبل كل شيء. غير أنها لم تكن على حق إلا لأنها هجرتني. يصاب المرء بموت في القلب بانسحاب الحب. وقد جعلتني تهديدات أمي من مثل هذا الانسحاب ـ جعلتني حساساً للجريمة التي اقترفتها هارتلي. حطمت هارتلي براءتي، هي وشيطان الغيرة. جعلتني خائناً لا أعرف الوفاء. وكان من الممكن أن أكون مخلصاً معها، ومعها كان يمكن أن تكون حياتي كلها مختلفة، وأقل استئصالاً، وأقل خواءً. أكنت أفكر حينذاك بأن حياتي

خاوية، حياتي؟ هذا حُكم مضحك! أكان من الممكن أن تفكِّر هارتـلي حقاً بأنني كنت وقتئذ «رجلاً دنيويا». إذا كان هذا هو ما فكَّرت فيـه فإنها تكون أشبه بأمي أكثر مما ظننت. إنها جعلتني «رجلاً دنيوياً» برفضهـا إياي، فهـذا الفشـل حطمني معنـوياً. أكـانت تعتقد أنني سـوف «أضيع» في المسرح؟ لم تصرِّح بهـذا أبداً. وكـان رفضها هـو الـذي جعلني أضـل الـطريق. أكنت مخلصاً؟ وكيف يمكن ألا أكون، إذا عاشت معي، وقامت بطهي الطعام من أجلي. كنا سنصير شيئاً واحداً، وتكون قداسة الزواج أمننا وبيتنا إلى الأبد. كان شطراً، دليلاً على ثقة نقية خالية من التصـدعات والثغـرات ـ في الخير الذي لم يعد له وجود بالنسبة لي مرة أخرى.

وبعـد ذلك بكثـير أصبـح الأمـر أشبـه قليـلاً بشفـاء المـاضي. المـاضي يستطيع أن يسترد صحته. فشاهدت مرة أخرى، وكأنني أرى من بعيد رسماً غائماً ـ وإن يكن متـوهِّجاً ـ لآدم وحـواء على فـريسكو عتيق، كـائنين بـريئين يستحمان في ضوءٍ صافٍ. صارت ـ بـالنسبة لي ـ بيـاتريس. وكلما مضيت في طريقي، كان كـل ما في حيـاتي من خير يبـدو وكأنمـا يقيم معها هنـاك. الخـير، أم لعله مجرد مـزيج خـاص جـداً من الـبراءة والعـاطفـة المشبـوبـة الطاهرة؟ كنت قـادراً على أن أكتب عنهـا كما كـانت وقتئذ، وأشعـر بسعادة عميقة حين أجد أنني أستطيع أن أفعل ذلـك. هناك تلك الـرائحة الخفيفـة من النار والكبريت عندما يشق شيء من المـاضي طريقـه إلى السطح ـ حيًّـا كاملاً. كانت حياتي كلها بالطبع نسيجاً من ذكرياتي عن هارتلي. غير أنني لم أكن أفكر قبل هذا في أنني سوف أستطيع كتابة هذه الأشياء على الورق؛ أو أن أعترف بأن هذا الحب القديم مـا زال ـ فيها وفيّ ـ حيًّـا على نحـوٍ ما. طبعـاً، لم أرها بعـد ذلك أبـداً. وفي الأعوام التـاليـة حمـدت الله عـلى أن شيطان الغيرة نفسـه قد حـذرني من البحث عن أية تفـاصيل، فهـذا كفيل بتضخيم العذاب، فلم أعرف حتى الاسم الذي حملته بعد الزواج. توقفت عن البحث؛ ولم أعـد أريد أن أعـرف أين تحيا وجـودها المغمـور. ولم أكن

أرغب أن يتغذى فكري الدوّار على أسماء وأماكن. وإنما سرَّني أن أفكر في أنها تحيا حياةً غبية. وعندما أصبحت شخصاً شهيراً، وأمسى اسمي يتردد كثيراً في الصحف، أسعدني أن أتخيل أنها تشعر بآلام رهيبة خفية من الندم والأسف، وأن تلك الدودة المريرة تنخر فيها نخراً أليماً مثلما كانت تنخر فيّ. لقد ضربت بسعادتها عرض الحائط حين قذفت بسعادتي. وقد كنت أستطيع أن أجعلها ملكة في هذا العالم.

ومنذ تلك الأيام الرهيبة كنت أخشى إمكانية انفتاح مصدر قوي طاغٍ للألم في حياتي، ومن ثم فقد رعيت نفسي بحيث لا أعاني كثيراً في مُقبل الأيام. ومن الممكن أن يكون هذا هو السبب العميق لإحجامي عن الزواج. يا له من رهان عجيب هذا الوجود الذي أتيح لنا! نقرر أن نفعل (أ) بدلاً من (ب)، ثم يفترق السبيلان تماماً فيؤديان في نهاية المطاف إمّا إلى النعيم وإما إلى الجحيم. ولن يدرك المرء إلاّ فيما بعد كيف تختلف الأقدار اختلافاً كبيراً وبفظاعة بعضها عن البعض الآخر. ومع ذلك، ماذا كانت أسباب الاختيار؟ يجوز أن ينساها المرء. هل يعرف المرء ما وقع عليه اختياره؟ كلا، بالتأكيد. فهناك تصدعات عديدة من أمثال« قد يجوز هذا الأمر، أو قد يجوز ذاك» في كل حياة بشرية. وعندما تلقيت تأييد العماد اعتزمت أن أكون صالحاً إلى الأبد، وما زلت أشعر حتى الآن بوهم شبحي أنه كان من الممكن أن أصير كذلك. وتحولت صورة هارتلي في ذهني من الألم المتقد إلى الحزن، ولكنها لم تَمَّحِ أبداً. وواصلت البحث عنها على نحوٍ ما، كل ما في الأمر أنه كان نوعاً مختلفاً لاإرادياً من البحث، بحث أشبه بالحلم. وكان حالي يبدو وكأنما أحسدها في ذاكرتي الباقية عنها: أساليبها في الحركة، أساليبها في المشي، وكأن تخطيطاً جسمياً لوجودها يرافقني دائماً. وهكذا، وخاصة بعد أن أخذ الألم في التلاشي، ظللت «أراها»، وأرى أشكالاً ظلالية لها مفروضة على نسوة أخريات مختلفات كل الاختلاف؛ كتفاها، شعرها، مشيتها، تعبيرها الحائر المُنْذر. وما برحت أرى أحياناً هذه

الظلال. أبصرت أحدها مؤخراً على امرأة عجوز في القرية، نظرة عابرة لرأسها موضوعة كالقناع على شخص آخر مختلف كل الاختلاف. ومرة أو مرّتين في لندن، منذ أمد بعيد، انتهى بي الأمر إلى أن أتعقب هذه الأشباح، لا لأنني كنت أعتقد أنها هي ـ وإنما لمجرد تعذيب نفسي، ومعاقبتها لأنها ما زالت تتذكر.

ومنذ برهة قصيرة، لاح لي هذا الخاطر، وهو أنها قد ماتت. ذلك الشحوب الغريب، ذلكما الجفنان المرتخيان: ربما كانت هذه إرهاصات بالمرض، بقاتل متمهل يتحين فرصته؟ ولعلها أن تكون قد ماتت حقاً منذ أمد طويل ولمّا أزل شاباً؟ سأكون سعيداً ـ على نحوٍ ما ـ إذا علمت أنها ماتت. ماذا سيفعل حبي لها عندئذٍ؟ هل يموت هو أيضاً في سلام، أم لعله يتحول إلى شيءٍ بريءٍ يخلو من الأنانية؟ أتتركني الغيرة أخيراً، تلك الغيرة المحرقة التي بدت حتى في هذه الصفحات ـ وتتبدد رائحة النار والكبريت وتتلاشى؟.

وحتى الآن ما زلت أهتز وأرتجف وأنا أكتب. وكلمة «الذاكرة» اسم ضعيف للدلالة على هذا الاستحضار الرهيب. أواه يا هارتلي، هارتلي، ما أقوى ذلك الحب المطلق الذي لا يعرف الزمان! إن حبّي لك لا يدرك أنني عجوز، وأنك ربما أصبحت الآن في عداد الموتى.

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم، أكلت برتقالات ثلاث. ينبغي أن يؤكل البرتقال في العزلة، وبوصفه وليمة عندما يشعر المرء بالجوع، ذلك أن أكله مُرْبك وغامر بحيث لا يمكن أن يكون جزءاً من وجبة عادية. وينبغي أن أقول هنا إنني لست من أكلة الفطور وإن كنت أحترم أولئك الأكلة. وفطوري يقتصر على الشاي الهندي اللذيذ. وأرى أن القهوة والشاي الصيني لا يطاقان في وقت الفطور، والقهوة ـ بالنسبة لي ـ إن لم تكن جيدة جداً وقام بإعدادها شخص آخر سواي ـ لا تطاق في أي وقت كان. وهي تبدو لي مشروباً غير مناسب يغالي الناس في

تقـديره، غـير أنني أعترف بـأن هذه مسـألة ذوق شخصي. (عـلى حـين أن الآراء الأخرى التي اعتنقها فيما يتعلق بموضـوع الطعـام تكاد تكـون حقائق مـطلقة). وأنـا عـادة لا آكـل شيئـاً وقت الفطـور مـا دامت نصف شريحـة فحسب من التـوست بالـزبـدة يمكن أن تؤدي إلى درجـة غـير مناسبـة من الجوع، وأكل كثير من الطعام في الفطور يعد بدايـة سيئة تمـاماً لليـوم. ولا أعارض على كل حال تناول شيء من الطعـام في الحاديـة عشرة وهو طعـام يمكن أن يخضع لتنوع كبير. وهناك ـ كـما أشرت آنفاً ـ لحـظات للبرتقال. كما أن هناك أيضاً لحظات للبورت (الخمر البرتغالي) المثلَّج ولكعك البرقـوق أو الخوخ.

ولم تقلِّل وليمة البرتقال من شهيتي للغداء الـذي كان يتـألف من فطائـر السمـك مع المخلل الهنـدي الحريف وسـلاطة الجـزر المبشور، والفجـل، والبقول وبراعم الفـول. (مررت خـلال مرحلة من الجـزر المبشور مـع كل شيء، ولكنني شفيت). وأتت بعـد ذلك كعكـة الكرز بـالمثلجـات (الآيس كريم) وكانت مشاعري مختلطة إزاء الآيس كريم حتى أدركت أنه لا بد من أن يحتوي طعامي على كعكة أو تورتة، دون أن يقتصر أبـداً على الفـاكهة. فهي بذاتها لا معنى لها بالطبع، حتى لـو رصعت بالبنـدق أو غيره من سقط المتاع. وأعني بـ «الآيس كريم» صنف الڤانيليا بـالكريمـة. والآيس الكريم «المنكّـه» Flavoured لا يقل تنفيـراً بالنسبـة للذواقة ـ عن اللبن الـزبادي (اليوچورت) الذي تضاف إليه نكهةٌ غير نكهته الأصليـة. كما لم أكن قـادراً أبداً على أن أرى «علة وجـود» raison d'être ما يسمى «بـالثلج المائي» الذي يحوِّل نفسه على اللسان من قالب متحجـر من المادة المتجمـدة الصلبة إلى مـلء الفم من ماء لا طعم لـه أيضاً. ويحـزنني أن افتقاري إلى ثـلاجـة كهربائية يورطني في تبديد هامشي للطعام. وكانت أمي المفتقرة إلى الثـلاجة الكهربائية لا تبدد فتفوتة من الخبز. وكل مـا لم يستهلك يبقى للكفاح يـوماً آخر ـ كم كنا نحب ما تصنعه من أصناف بودنج الخبز!.

أعدت قراءة ما كتبته عن هارتلي وأشعر بالتأثر من مجرد قدرتي على كتابته. إنه ليس إلا تكريماً مبهماً، ولو كنت أحتمل كتابة المزيد عن هذا الموضوع، فربما حاولت تحسين ما كتبت. ما أعجب الذاكرة! ومنذ أن كتبت أصبحت كثرة كاثرة من الصخور المختزنة في الظلمة الكثيفة التي رانت على ذهني ـ يسيرة المنال. ساقاها الطويلتان وهما تديران الدرّاجة، قدماها العاريتان المتربتان في نعليها. حركتها الرشيقة التي تتحول من الانحناء إلى الوقوف، المتوازنة فوق قضيب المتوازيين في العرض الرياضي. ملمس يديها القويتين خلال قميصي، وإمساكها بكتفيّ. لم يكن كل منا يعانق الآخر بطريقة مبتذلة، إذ كان شبابنا المُحْرق طيِّعاً لشهامة حبِّنا الطاهر. كنا على استعداد للانتظار. واأسفاه! ثم واأسفاه لم يعاودني بعد ذلك أبداً، بهذا النقاء وبهذه الرقة، وأبداً بهذه الشدة ذلك الحنين المطلق المقدس الذي يشعر به جسد وروح إنسانيان نحو إنسان آخر. غير أنني بقراءة قصتي، أحسست مرة أخرى بالسر الرهيب الذي يكمن في هذا الشعور. متى بدأت تنصرف عني؟ أكانت تخدعني؟ أوه، لماذا حدث ذلك؟.

أنفقت بعد الظهر في ترتيب المنزل. حملت صندوقين للقمامة إلى نهاية الطريق المعبَّدة ـ ولاحظت باستياء أن رجال النظافة تركوا بعض النفايات تسقط على الصخور السفلى في المرة الأخيرة. ولم أجد مناصاً من النزول وجمعها. ثم قمت بتنظيف المطبخ، وغسلت المربعات الضخمة السوداء التي تغطي الأرضية. هذه المربعات خليقة بكاتدرائية، وأدهشني أن رجلاً جاء لتسليمي أنابيب غاز الكالور (وكنت قد أشرت إلى هذه المسألة في «مخازن الصياد»). ينبغي أن أتذكر أن أستفسر عما إذا كان من الممكن أن يزودوني بغاز الكالور لتشغيل ثلاجة. ذلك أن ما تبقى من الآيس كريم قد ذاب. وما زال مخزني للأطعمة رطباً. وقد أوقدت ناراً في الحجرة الصغيرة الحمراء، وتركت أبواب الطابق السفلي مفتوحة. ونقلت كمية كبيرة من الخشب إلى الحجرة الداخلية في الطابق الأرضي على أمل أن تجف. وهاأنذا

أتعود على رائحة دخان الخشب التي غمرت المنزل الآن.

انقطع المطر، وأشرقت الشمس، غير أن الشطر الأعظم الذي يغطي السماء ما برح رمادياً كثيفاً بلون الرصاص. وتبرز الصخور الذهبية المشمسة على هذه الخلفية القاتمة. يا له من فردوس! لن أسأم أبداً من هذا البحر وهذه السماء. لو استطعت فحسب أن أحمل مقعداً ومنضدة فوق الصخور حتى أبلغ البرج، هناك أستطيع أن أجلس وأكتب ناظراً إلى «خليج الغراب الأسحم». يجب أن أخرج لدراسة غدراني الصخرية في الوقت الذي يدوم فيه النور الباهر. وأظن أنني أصبحت أقوى في الملاحظة - فقد لاحظت مؤخراً مستعمرة من السرطانات الصغيرة المبهجة، وكأنها حبات عنب صغيرة صفراء شفافة، وبعض الأسماك الدقيقة الوحشية المنظر، ذات شوارب أشبه باللاحشويات* المصغّرة.

أشعر الآن بأنني أهدأ بالاً فيما يتعلق بهارتلي، وكأن التفكير فيها قد امتصه الهواء الطلق في بيتي بشيء من الرحمة على نحوٍ ما. وهذا بلا شك اختبار لبيئتي الجديدة (قالوا «سوف تصيبك الوحدة والضجر بمسٍ من الجنون!»). لقد كانت غرائزي جميعاً على صواب.

يطيب لي أن أقص هذه الأشياء جميعاً على شخص ما، لعله ليزي. اختزنت مع هذا الحب الأول كثيراً من براءتي ورقتي اللتين حطمتهما فيما بعد وتنكرت لهما، واللتين لعلهما الآن أيسر منالاً في نهاية المطاف. أيستطيع شبح امرأة - بعد كل هذه السنين العديدة - أن يفتح أبواب القلب؟.

(★) اللاحشويات Coelacanths هي حيوانات لافقارية ذات تجويف بطني (ليس لها سلسلة فقرية) يقوم مقام القناة الهضمية، كسمك المرجان والسمك الهلامي (المورد، ص١٩٠ - طبعة ١٩٨٦).

التاريخ

(١)

لم أنظر إلى السرطانات بعد هذا كله. إنما استبدت بي فكرة أن أحمل مقعداً ومنضدة وأخرج بهما إلى البرج. وشرعت في السير عبر الصخور بالمنضدة الصغيرة المطوية التي نقلتها من الحجرة الوسطى إلى حجرة المكتب. وسرعان ما بدت لي هذه المهمة ثقيلة الوطأة بدرجة لامعقولة، وكان من أسباب ضيقي أنني وجدت وجوه الصخور الملساء المنحدرة عسيرة التسلق أثناء إمساكي بالمنضدة بيد واحدة. وانتهى الأمر بأن تركتها تسقط في إحدى الفجوات. ينبغي أن أحاول ارتياد طريق أيسر لبلوغ البرج.

مضيت صُعُداً في التسلق، وجلست على صخرة مبتلة، مشرفاً على «خليج الغراب الأسحم». ما برحت الشمس ساطعة، وما زالت السماء التي تمتد فوق سطح البحر رمادية. وكان البحر الساجي الذي يخلو من الزبد يرتفع ويرتمي عند أقدام الصخور في إيقاع لطيف مُغْرٍ. والظلال المتطاولة جعلت صخور الخليج الكروية الضخمة بارزة، نصفها مظلم، ونصفها الآخر متوهّج. أما الواجهة الطويلة البديعة حقاً لفندق الغراب الأسحم فقد ظهرت واضحة كل الوضوح، وبتفاصيلها المحددة، في الضوء المتألق الغريب.

وما إن تغلبت على ضيقي الذي سببته المنضدة حتى لمحت رجلاً يسير على طول الطريق في اتجاه «شراف إند»، وقد انعطف لتوه من الناصية قادماً من ناحية الخليج. وكان يرتدي حلة أنيقة، ويضع على رأسه قبعة مثلثة الأطراف، ويتبدى في هذا المنظر الطبيعي المُشْرق وكأنه شخصية متنافرة في لوحة سريالية. استعرضت غرابته؛ فالسائرون في هذا الطريق أندر من السيارات. ثم بدأ يبدو لي مألوفاً، ثم تعرَّفت عليه. إنه جيلبرت أوبيان.

أوحت إليّ غريزتي الأولى بالاختفاء، والواقع أنني انتقلت إلى داخل

البرج الرطب الذي تشيع فيه رائحة الملح، تحت صفحة السماء المستديرة الباهرة، شاعراً بصدمة صغيرة تخلو من السرور. وأياً كان الأمر فإنني لا أستطيع أن أنظر إلى جيلبرت نظرة جدية بوصفه شخصية مُنْذرة، ثم خطر لي أنه اصطحب ليزي بالطبع، ومن ثمّ، فقد هرولت مرة أخرى، وشرعت في الزحف فوق الصخور في اتجاه الطريق. وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى الإسفلت كان جيلبرت قد أبصرني فاستدار على عقبيه، وتلاقينا، وعلت وجهه ابتسامة.

كان جيلبرت يرتدي حلة سوداء خفيفة، وقميصاً مخططاً، ورباط عنق حافلاً بالأزهار. وعندما شاهدني خلع قبعته. مضت سنوات ثلاث أو أربع منذ أن رأيت جيلبرت، ويبدو أنه شاخ كثيراً، فالتغيرات الغامضة الرهيبة التي تقوم بتحويل الوجه الإنساني من الشباب إلى الشيخوخة قد تتلكأ وتتأخر برفق، ثم تعمل بحسم دفعة واحدة. وكان جيلبرت يبدو في منتصف العمر وردياً صبيانياً. أما الآن فقد تغضّن كله، وجف ماؤه، ومال إلى التظرُّف، مع تلك المسحة الباهتة من السخرية الملغزة التي يتخذها العجائز الأذكياء غريزياً في كثير من الأحيان، وقد تكون جديدة عليهم تماماً كوسيلة للدفاع الأخير. وعندما التقيت به آخر مرة، كان لا يزال يتخذ مظهر الخداع الطفولي الذي تعلوه مسحة من اللاشعور بالذات الذي لا يخلو من نضارة. والآن كان وجهه مفعماً بقلق محاذر يقظ يتنكر بوصفه ترفعاً دنيوياً، وكأنه يحاول - محترساً - اتخاذ تجاعيده الجديدة بوصفها قناعاً. وعلى الرغم من بدانته وقصر قامته، كان لا يزال حريصاً على أن يكون وسيماً، وما برح شعره الأبيض الجعْد يبدو طروباً، وكأنه لم يتعلم كيف يبدو أشيب.

وكنت أرتدي الجينز، وقميصاً أبيض أفلت منها. وبرؤيتي لرباط عنق جيلبرت، ودبوس رباط عنقه، ومكياجه (أو لعلي كنت مخطئاً؟) المتحفظ، أحسست نحوه بشفقة سريعة مزدرية، يصحبها إحساس بلياقتي،

وصلابتي الشديدتين. واستطعت أن أرى جيلبرت مستوعباً لهذين الشعورين: الشفقة، واللياقة. إذ أخذت عيناه الزرقاوان الباهتتان الرطبتان المحمرّتان قليلاً ـ تومضان بقلق وسط طبقات التجاعيد الجافة.

ـ «عزيزي، تبدو مدهشاً، وما أجمل سمرتك، وشبابك، يا إلهي، وبشرتك...» وكان جيلبرت يتحدث دائماً بصوتٍ رنان ممتلىء جذاب حين يخاطب الصفوف الخلفية.

ـ «هل أحضرت ليزي؟».

ـ «كلا».

ـ «خطاب، رسالة؟».

ـ «ليس بالضبط...».

ـ «ماذا، إذن؟».

ـ «أهذا المنزل المضحك هو منزلك؟».

ـ «أجل».

ـ «لن أمانع في مشروب، يا سيدي المحافظ».

ـ «لماذا أتيت؟».

ـ «يا عزيزي، الأمر يتعلق بليزي...».

ـ «طبعاً، هات ما عندك.».

ـ «إن الأمر يتعلق بليزي وأنا. أرجوك يا تشارلز، خذ المسألة مأخذ الجد، ولا تَبْدُ على هذا النحو وإلا بكيت! شيء ما قد حدث بيننا حقاً، لا أقصد ذلك النوع من الشيء، وإنما يشبه الحب الحقيقي، يا إلهي، إن المرء في هذا العالم البشع لا يصادف كثيراً مثل هذا الحظ الإلهي، والجنس

هو سبب المتاعب، فيا حبذا لو أن الناس لم يبحثوا إلا عن أرواح بعضهم البعض...».

- «أرواح؟».

- «مِثْل مجرد النظر إلى الناس وحبهم بهدوء وحنان، والسعي إلى السعادة معاً؛ أظن أن هذا من الجنس، غير أنه نوع من الجنس الكوني، ولا يتعلق بالأعضاء فحسب...».

- «الأعضاء؟».

- «ليزي وأنا اتصلنا حقاً، نحن مرتبطان، أشبه بالأخ وأخته، وتوقفنا عن التجوال، صرنا في بيتنا، قبل أن تأتي ليزي كنت لا أنتظر إلا الشراب التالي، الجن، يتلوه اللبن، ثم الجن يتلوه اللبن، أنت تعرف كيف جرت العادة، وظننت أنني سوف أمضي على هذا المنوال حتى أسقط. أما الآن فقد أصبح كل شيء مختلفاً، حتى الماضي صار مختلفاً، استعرضنا حياتينا كلتيهما مرّة أخرى، بكل تفاصيلهما، وكأننا أعدنا امتلاك الماضي معاً، وكفّرنا عنه...».

- «ما أبغض هذا كله!».

- «أعني أننا فعلنا ذلك في شيء من التبجيل، وبخاصة عنك...».

- «أكنتُ موضع مناقشتكما؟»

- «أجل، وكيف يمكن ألا نفعل، يا تشارلز، إنك لست رجلاً مخفياً.. أوه، أرجوك ألا تغضب، أنت تعرف شعوري نحوك دائماً، وتعرف شعورنا كلينا نحوك.»

- «وتريدني أن أنضم إلى الأسرة.»

- «بالضبط. أرجوك ألا تكون بهذا الجفاف والسخرية، فتجعل من الأمر مجرَّد نكتة، أرجوك، حاول أن تفهم. أنا أؤمن الآن بالمعجزات يا عزيزي

تشارلز. الحب معجزة، الحب الحقيقي معجزة. إنه يعلو على الحدود والقيود التي كنا نخطو عليها علواً كبيراً. لماذا نحاول تعريف الأشياء، لماذا نقلق، لماذا لا يكون المرء بسيطاً وحراً ومحباً للآخرين؟ لم نعد شباباً كما كنا. . . »
ـ «هل أقلعت عن الغلمان، ولا مزيد من المغامرات الخطيرة؟»

رفع جيلبرت عينيه صوب عينيّ، وكان يحدِّق طيلة الوقت إلى عنق قميصي المفتوح أثناء حديثه. وتدحرجت عيناه وتأرجحتا بطريقة مميَّزة غريبة، لعل ذلك بتأثير الخمر، وكان له طريقة في تغضين أنفه، وسحب طرفيْ فمه إلى أسفل، وهي طريقة يحاكي بها ولفريد دانتج. ودخل في نوع من تحريك الوجه على نحو مضحك أليم. ما أشد الوعي الذاتي الذي تشعر به وجوه هؤلاء الممثلين العجائز؟ «استمع إليّ، يا ملك الظلال، إن ليزي قد جعلتني سعيداً. أنا شخص جديد، وتحوَّلت كما يقولون في الدين. . وطبعاً، لم أعد شخصية صالحة تماماً، ولا أمانع مطلقاً في تناول كأس من الشراب الآن، ولكن، أنصت إليّ، ليزي لن تتخلَّ عني، وأنت لا تستطيع أن تفصم هذه الرابطة بيننا. وإن ظننت أن المسألة تافهة أو مضحكة، فمعنى ذلك أنك لم تفهم. كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تجعلنا تعيسين بأن تكون عنيفاً وقاسياً. أجل، نحن نخشاك، أجل، كما كنا دائماً. أو تستطيع أن تجعلنا غاية في السعادة، وأن تجعل نفسك سعيداً أيضاً بمجرَّد أن تكون لطيفاً عطوفاً بأن تحبنا وتتركنا نحبك، لماذا لا يكون الأمر كذلك؟ وإذا جعلتنا شقيِّين فإنك سوف تشعر بالشقاء أنت نفسك في نهاية الأمر. لماذا لا تختار السعادة لكل ما حولك؟ بحق المسيح، يا عزيزي، ألا تستطيع أن ترى أنه اختيار بين الخير والشر!».

كانت خُطْبة جيلبرت العصماء ـ التي كانت أطول وأكثر صبيانية، وتكراراً مما سجلته هنا ـ كانت بالطبع سخيفة. غير أن ما ضايقني حقاً هو فكرة أن جيلبرت وليزي كانا يقومان بتحليل كل منهما للآخر ومناقشة علاقاتهما بي، ولا يدري إلا الله وحده على أي مستوى من التفصيل الحيواني

دارت تلك المنـاقشـة. وينبغي أن أضيف هنـا أنـه فيـما يتعلّق بـالمسرح، وهـو في حالـة جيلبرت يحتل الشـطر الأعظم من المسألة، كنت أنـا الـذي صنعته. فهو مدين لي بكل شيء. وها هو الآن، هـذا الأراجوز يـرد عليّ، ويتـوعّدني بـالعقوبـات الأخلاقيـة. ومهـما يكن مـن أمـر فقـد ضحكت. «جيلبرت، ارجع إلى الواقع. وقد تسلّيت بوصفك المؤثر لعلاقاتك بليزي، غير أنها لن تُفلح حقاً. وتـزعم أنك تغـيّرت، بيد أنـك لم تجب على سؤالي فيـما يتعلّق بالغلمان. وأشـك تماماً في تدبـيرك لشؤون منزلـك، ولا أرى ما يدعوني إلى احترامه. لمـاذا تأتي إليّ وتـزعجني بكل هـذا الغثاء عن الأخـوة وعن الجنس الكوني؟ هذه المسألة تخصني أنـا وليزي. وليست من شـأنك، بل يصدمني مجرَّد أنها أخبرتك بها. وحتى لو كان كل منكما مغـرماً بـالآخـر فليس من اللازم أن تحصل الشقيقات على إذن من أشقـائهن في كل شيء. لقد استدعيتها هي، لا أنت. وهي وأنا سنقرّر ما نفعله، ولستَ أنت طرفاً فيه. وإذا تسكّعت حول هذا المكـان فسوف تحترق ببساطة.»

وبينـما كنت أتكلّـم عـاودني الـوعي بـذلـك الشعـور القـديم المألـوف بالتملك، والرغبة في الاغتصاب والقبـض التي غابت بطريقـة مباركـة من أفكاري الأخيرة عن ليزي. ربما كان ذلك معجزة، أو لعله مجرَّد افتقـار إلى الخيال، تلك «الفكرة المجـرَّدة» التي اتهمتني بها. ضـاعف هذا الخـاطر من ضيق صدري بجيلبرت. إذ كان يدفعني إلى الخشونة، ويجد في نفسي دافعـاً كان كريماً وغامضاً بصورة رائعة. هذا التعجل كان وضيعـاً دنيئاً، غـير أنني الآن لم أعد أستطيع التوقف.

- «تشـارلـز، أمِن الممكن أن نـدخـل هــذا المنـزل المضحــك ونتنـاول شراباً؟».

- «كلا.»

- «طيب، هـل يضايقـك أن أجلس؟» وشـد جيلبرت سرواليـه وجلس بعنـاية عـلى الصخرة، ثم وضـع قبعته عـلى الحشائش، واستعـرض حذاءه

الملمّع جيِّداً، وقد لطَّخ الوحل حواشيه. «عزيزي تشارلز، دعنا نلتزم الهدوء في هذه المسألة، أليس كذلك؟ أتتذكر أحياناً عندما كان الموقف كله مشحوناً نوعاً ما، وكنت ساخطاً علينا، اعتدت أن تتوقف بغتة وتقول: «فليكن، هذه محكمة انجليزية، وليست تركية؟».

- «جيلبرت، ابتعد عن طريقي، خير لك أن تفعل ذلك؟ إذا كانت ليزي تريد أن تأتي فستأتي، وإن لم تأتِ فليكن لها ما تريد، إنك لا تفهم شيئاً ممَّا بيني وبين ليزي، وأنَّى لك ذلك؟ أنا لا أريد أن تضلَّ طريقها مع أحلامك ومعجزاتك وحبك الكامل. أنا لا أومن بتدبيرك، وأشك بقوة في أنك تخادع نفسك وتخادع ليزي أيضاً. وبدأت أشعر أنه قد يكون من واجبي أن أحبط ترتيباتك العفنة. ومن ثمَّ، لا تستفزني، وارفع يدك اللعينة عن كمي.».

- «عزيزي، لا تدع نفسك نهباً للغضب، إنك تخيفني، وكنت هكذا دائماً...».

- «لا أظن أنني أخيفك بما فيه الكفاية.»

- «كنت دائماً على هذا النحو من حدة الطبع، ولم يكن في هذا الطبع ما يفيد أحداً منّا. أعرف أنك تعتقد أنه يفيدنا، غير أن ذلك لم يكن سوى وهم. هناك طريقة سيئة، وطريقة أفضل هنا. يا إلهي، ألم تقرأ خطاب ليزي؟»

- «هل أطلعتك عليه؟»

- «كلا، ولكني أعرف ما قالته.»

- «هل أطلعتك على خطابي؟»

- «إر... كلا...»

- «هذا كله يصيبني بالغثيان!»

- «تشارلز، إنك لا تستطيع أن تنتزع ليزي مني، لا تكن تقليدياً على هذا النحو، ماذا يعني الجنس العادي هنا، كان من الممكن أن تحترم زوجاً، أو لعلك لا تحترمه، ولكن يجب أن تصِّدق ليزي، وأن تحترمها على

الأقل، إنها رابطة مقدسة، ولن تتخلى عني، قالت ذلك آلاف المرات. . . »

ـ «المرأة تستطيع أن تكذب آلاف المرات.»

ـ «ليزي على حق، أنت تحتقر النساء.»

ـ «أقالت ذلك؟»

ـ «أجل. وهي ترى أنك لست جاداً. لن تستطيع أن تنتزع ليزي، غير أنك تستطيع أن تفسد الأشياء، ويمكنك أن تجعلهامجنونة من التعاسة والندم، وتستطيع أن تجعلها تقع في غرامك مرة أخرى بطريقة عفنة لا رجاء فيها، وفي إمكانك أن تجعلنا ـ كلينا ـ في غاية الشقاء. . . »

ـ «كفى، يا جيلبرت. لن أشارك في لعبتك، ولن أخوض أوحالك. تستطيع أن تتخبط وأن تحلم بمفردك. لماذا لم تكن ليزي هنا لتخبرني بما تفكر فيه، وبما تريده؟ إنها تخشى أن تراني، لأنها تحبني.»

ـ «تشارلز، عزيزي، أنت تعلم أنني أهتم بك كثيراً، وأنت تستطيع أن تغتال هدوء بالي.»

ـ «أوه، فليذهب هدوء بالك إلى الجحيم. . . »

في هذه اللحظة، ظهرت ليزي. تجسدت بوصفها بقعة قاتمة في ركن عيني، في ضوء الشمس الذي أوشك على المغيب، وكنت أعرف أنها هي قبل أن أستدير لرؤيتها. وما إن لمحتها حتى قفز بداخلي ذلك الدافع التملكي الشرير طرباً، فعلمت أن المعركة قد انتهت. غير أنني لم أُظْهر بالطبع أي شعور عدا تعبير بسيط عن الغيظ.

التقط جيلبرت قبعته وسحقها على وجهه. ثم قال لليزي :«قلت إنك لن تفعلي، قلت إنك لا تريدين، أوه، لماذا تركتك تأتين. . . »

أَدْخلتُ ليزي، غير أنني كنت أنظر من وراءها إلى البحر الذي كان هادئاً كل الهدوء، وأزرق ساجياً بعد ذلك اللغو الغبي في مجادلتي مع جيلبرت. استدرت وسرت في الطريق، ثم وثبت إلى الصخور، وشرعت

في شق طريقي بأسرع ما في وسعي في اتجاه البرج. واستطعت أن أسمع ـ على الفور ـ وقع خطوات ليزي الناعمة وهي تتخبط في أعقابي. أَحْسَنَتْ في التماس طريقها، بالقياس إلى أنني أعرف الصخور وهي لا تعرفها، فبلغت الرقعة المعشوشبة الممتدة بجوار البرج بعد وصولي إليها بقليل ـ لاهثة، وقد انقطع شريط من نعليها. وعندما التفت أبصرت جيلبرت تزل به قدماه وينزلق فوق الصخور بحذائه اللندني اللامع. ولم يلبث أن اختفى في إحدى الفجوات. وتناهى إلى سمعي صوت بعيد يتعالى بالشكوى وصب اللعنات.

مضيت من خلال الممر الصخري إلى داخل البرج، تتبعني ليزي. وفجأة كنا بمفردنا معاً في ذلك الضوء المخْضرّ الغريب، وعين السماء البيضاء المستديرة تطل علينا، والحشائش الباردة تحيط بكعوبنا. هذا الجو الرطب داخل البرج أنتج أنواعاً مختلفة كل الاختلاف من النباتات؛ حشائش أطول غزيرة الأوراق وزهوراً برية وبعض الأشواك البيضاء التي بدأت في الازدهار.

كانت ليزي ترتدي ثوباً قطنياً رقيقاً، مستقيماً كالقميص المنثّى، وتمسك حقيبة يدها ملتصقة بصدرها، وهي ترتجف قليلاً. وكانت تبدو أنحف بقدر طفيف. وكان شعرها الغزير الكستنائي بلون القرفة مرسلاً متشابكاً، وكلّما هفا النسيم عليه استطعت أن أرى بياض فروة رأسها. تصاعد الدم إلى وجنتيها في تدفق شديد، غير أنها كانت تقف معتدلة القامة وهي تحدِّق فيّ، وثغرها الأحمر القاتم يبدو صارماً مقتحماً، وكأنها فتاة نبيلة تواجه تنفيذ حكم الإعدام. كما كانت تبدو أكبر سناً، أكبر على كل حال من المخلوق الصبياني المشرق الذي تحلو له مغايظة الآخرين والذي أتذكره أكثر من تذكري لأية صورة أخرى. غير أن نوعاً من الحدة الحذرة المكبوتة كان يرتسم على وجهها ويضفي عليه هيئته، ولم ينفكّ عن أن يجعله وسيماً: الجبين القوي، والخط المكتسح الذي يصل إلى الأنف الرقيق الذي توشك أرنبته أن

ترتفع. وكانت عيناها العسليتان اللامعتان قد احمرت حوافيهما بدموع قريبة العهد. وبينما كنت أنظر إليها أحسست بالانتصار والسرور؛ غير أنني تكلفت التجهم.

غضّت ليزي بصرها، ومدت يداً إلى الجدار، وتوازنت لكي تنفض نعلها المكسورة، ووضعت قدمها العارية على الحشائش. قالت: «أكنت تعرف أن هناك منضدة بين الصخور؟.»

- «أجل، فأنا الذي وضعتها هناك.»
- «تصورتُ أن البحر هو الذي أحضرها.»

كنت صامتاً وأنا أتفرس فيها..

وفي لحظة، وبهمسة، قالت، «أوه.. أنا آسفة.. آسفة.. آسفة...»

قلت: «إذن، فقد كنت تناقشين جيلبرت عني؟»

- «لم أخبره بأي شيء ذي أهمية»... وكانت تغض من بصرها ناظرة إلى قدمها العارية، ولمست برفق زهرة برية بيضاء بأصابع قدمها.
- «كاذبة.»
- «لم أفعل، أنا..»
- «لقد كذبت عليه، إذن؟»
- «كلا، لا تكن.. لا تكن...»
- «لماذا لم تريدي رؤيتي؟»
- «كنت خائفة...»
- «خائفة من الحب؟»
- «أجل».

كان كل منا يقف متصلباً إلى أقصى حد، والريح تهب من خلال الباب المفتوح فتعبث عبثاً ثقيلاً بتنورتها، وبقميصي السائب..

تذكرت قبلاتها الطاهرة الجافة المتشبثة، فاشتهيتها الآن. أردت أن

أحتضنها بين ذراعيّ، وأن أصيح بضحكة مسرورة منتصرة. . غير أنني لم أفعل، ولمّا تحركت حركة خفيفة نحوي، منعتها بإشارة سريعة. «ينبغي أن ترحلي الآن. . . عائدة إلى لندن مع جيلبرت.»

- «أوه، أرجوك. .»

- «ترجين ماذا؟ عزيزتي ليزي، أنا لا أريد أن أكون قاسياً، غير أنني أريد أن تكون الأمور واضحة، وهذا ما أردته دائماً. وأنا لا أدري ماذا يمكن أن يفعل أحدنا للآخر، أو ماذا يكون للآخر الآن، غير أنه من الممكن أن نكتشف إذا كان كل منا يتقبل المخاطرة بعزم صادق. أريد انتباهك كله. ولا أستطيع أن أتقاسمك مع شخص آخر، ويدهشني أنك تطلبين ذلك! إذا شئت أن تريني فلا بد أن تتخلصي من جيلبرت، وأن تتخلصي منه على الوجه الصحيح. أما إذا كنت تريدين البقاء مع جيلبرت فلن تريني، وأنا أعني ذلك، لن نلتقي مرة أخرى. ويبدو هذا عادلاً بما فيه الكفاية. دعيني أعرف بسرعة، أليس كذلك؟ والآن، أرجوك أن تذهبي، صديقك ينتظرك.».

وشرعت ليزي تتحدث بسرعة كبيرة وهي تضم حقيبتها ونهديها مرة أخرى: «لا بد أن يتاح لي شيء من الوقت. لا أستطيع أن أتخلى عن جيلبرت هكذا، لا أستطيع، لا أستطيع أن أجرحه كل هذا الجرح - أريد أن تفهم. . . الناس لا يفهمون، وكانوا غلاظاً بالنسبة لنا. . أما أنت فيجب أن تفهم، وسترى فيما بعد. .»

- «ليزي، لا تكوني غبية، إنك لم تكوني غبية أبداً من قبل. أنا لا أريد أن «أفهم»، موقفك، فهذا شأنك. ولكن، يجب عليك أن تخرجي منه وتأتي إليّ، أو أن تبقي فيه، ولا تأتي إليّ».

- «أوه. . تشارلز. . حبيبي. . . حبيبي. . .» واستدارت بغتة، وقد تخلت الصلابة عن جسدها، فإذا به جسد راقصة، وقذفت بحقيبة يدها على الحشائش، وفي لحظة واحدة كانت سترتمي بين ذراعي، لولا أنني

تراجعت، وصددتها هذه المرة أيضاً. «كلا، لا أريد معانقاتك وقبلاتـك.. ينبغي أن تذهبي وتفكري.»

تساقطت بضع قطرات من المطر، وظهرت بقع طويلة قاتمة على ثوبها. فتحسست وجنتيها الملتهبتين، ثمَّ بالاستمرار في حركتها انقضَّت على حقيبتها فالتقطتها.

- «إذهبي الآن، يا طفلتي ليزي، لا أريد أن تنشب بيننا محادثة غير لائقة، أو جدال. وداعاً.»

أطلقت صرخة شاكية قصيرة، ثم استدارت، ومرقت من الممر.

انتظرت لحظة أو لحظتين، وعندما خرجت، كانت قد بلغت الطريق تقريباً. وعلى الحشائش، كانت تنتظر الآن سيارة ڤولكس ڤاچن صفراء، متجهة صوب «خليج الغراب الأسحم». وشاهدت جيلبرت وهو يقفز خارجاً منها ليفتح باب الركوب. وغاصت ليزي في السيارة، وأُغْلق كلٍ من البابين، وزحفت السيارة بعيداً حول ناصية الطريق. وبعد دقيقتين عادت إلى الظهور في الطريق المؤدية إلى الفندق - وراقبتها حتى اجتازت الفندق وتلاشت في المكان الذي ينعطف فيه الطريق إلى داخل القرية. ثم رجعت إلى البرج والتقطت كعب ليزي المكسور. لا بد أنها عانت من قدم مقرحة في الوقت الذي وصلت فيه إلى الطريق.

الوقت الآن بعد أن مضت ساعتان، وأنا جالس في الحجرة الصغيرة الحمراء. كنت قد فرغت لتوي من كتابة وصف لزيارة ليزي كأنه قصة، وقد أثار انفعالي وسرني نوعاً ما أن أسجلها على هذا النحو. ولو انفسح الوقت للمرء حتى يكتب حياته كلها شيئاً فشيئاً في قالب رواية، فكم يكون هذا العمل مجزياً! ستكون الأجزاء المبهجة ذات بهجة مزدوجة، والأجزاء المضحكة أكثر إضحاكاً، أما الخطيئة والحزن فسيخف وقعهما في ضوء العزاء الفلسفي.

تأثرت برؤيتي لليزي، وأتساءل أكنت ذكياً أم غبياً. بالطبع، لو أنني

أخذت ليزي المسكينة بين ذراعي لانتهى الأمر كله في ثانية واحدة. وفي اللحظة التي اختطفت فيها حقيبة يدها بعيداً، كانت على استعداد للاستسلام، والقيام بأي تنازل، والنطق بأي وعد. كم كنت أتوق إلى ضمِّها! هذا الاحتضان الشبحي ما برح ملازماً لي وكأنه سرور ضلّ طريقه. (ينبغي أن أعترف، بأنني بعد رؤيتها ـ أصبحت أفكاري أقل «تجريداً» بدرجة كبيرة!) ومع ذلك، ربما كان تصرفي حكيماً، وإني لأشعر بالرضا عن الحزم الذي أبديته. فلو أنني احتضنت ليزي، أي وافقت على قبولها ـ لبقيت مشكلة جيلبرت معلَّقة، ولكان من واجبي التخلّص منه، والأفضل كثيراً أن أَدَع ليزي تفعل ذلك، وأن تفعله بلا إبطاء تحت ضغط الخوف من فقداني. أريد لهذا الموقف أن يتضح وأن ينتهي أمره، وأوثر ألا أفكر فيه أثناء ذلك. ولا أستطيع أن أعلق كثيراً من الأهمية على «اعتراض» ليزي الآخر الذي ذكرته في خطابها، أعني خوفها من أن أحطم قلبها! هذه المجازفة لن تعوقها. وأعتقد بعد التروي أن هذا لم يكن سوى عذر، نقطة جدل أُقْحمت لكسب الوقت. لا بد أنها رأت على الفور أنه لا مندوحة لها عن نبذ جيلبرت، وأن معرفتها بعناده اللزج جعلت المسألة تبدو لها على قدر من الصعوبة. أكنت حقاً مثل هذا الدون جوان؟ من المؤكد أنني لست كذلك، بالقياس إلى الآخرين.

أما فيما يتعلق بسياستي الحازمة مع ليزي فالواقع أنني لا أملك ما أفقده. فلو أنها تأخرت زمناً طويلاً لذهبت للبحث عنها. وإذا حاولت أن تقول لا فلن آخذ هذا الامتناع على أنه إجابة. وتهديداتي بأنني «لن أعود إليها أبداً» تهديدات جوفاء بكل تأكيد، غير أنها لن تفكر في أنها كذلك. وإذا قررت ألاَّ تأتي حقاً في نهاية الأمر، فسيدل ذلك على أنها ليست جديرة بي. وعلى الرغم من هذا كله أستطيع أن أتخلى عن ليزي. وإذا لم ترغب فلها ما تشاء.

أعتقد أنني سأتمشى الآن حول الخليج قاصداً فندق الغراب الأسحم

وسأطلب منهم تسليم شيء من النبيذ، فإذا أعجبتني قائمة الطعام كان من الممكن أن أتناول عشائي هناك فقد بدأت أشعر بالجوع. وبغتة أحسست بالسرور وكأن كل شيء سيكون على ما يرام.

بعد ذلك بقليل حدث شيء غاية في الغرابة، ثم... ولكن أولاً.

سرت قاصداً «فندق الغراب الأسحم»، ثم سألت عن تسليم كمية من النبيذ، وابتعت زجاجة من مادة أسبانية حمراء لآخذها إلى المنزل. وألقيت نظرة على قائمة طعام العشاء التي لم تكن مُرضية نوعاً ما، غير أنني كنت أشعر بالجوع بحيث هممت بدخول المطعم، لولا أن، نادلاً منعني من الدخول لأنني لا أرتدي ربطة عنق. وأغراني الأمر بأن أنبئهم من أكون، غير أنني لم أفعل؛ فليكتشفوا ذلك فيما بعد. ولمحت نفسي في المرآة: كنت قد أدخلت أذيال قميصي، غير أنني كنت أبدو أشبه بصعلوك يرتدي جينز ملطّخاً بالبقع، ويعلو رأسه شعر كث أشعث، وعليه سترة صوفية عتيقة مقلوبة ظهراً لبطن. فيممت وجهي شطر البيت.

كان السير إلى الفندق ممتعاً، أما الآن فقد أصبح الجو أبرد وأظلم، وفي الوقت الذي اقتربت فيه من «شراف إند» كانت الشمس قد غربت، وإن كان هناك قَدْر كبير من النور في السماء التي استحالت الآن إلى زرقة صافية شفافة خالية من السحب. وكان نجم المساء ضخماً متألقاً فوق البحر، قريباً من قمر شاحب منطفىء، وثمة نقاط باهتة من النجوم الأخرى أخذت في الظهور. وكنت أستطيع أن أسمع البحر أثناء مروري هادراً في «مرجل مين». واقتربت من المنزل عن طريق الممر حاملاً الزجاجة بإحدى يديّ.

كان المنزل مظلماً بالطبع من الداخل، غير أنه برز بقوة في الغسق المتألق، وظهرت هيئته الطويلة النحيلة الخالية من الرشاقة على خلفية من الأفق العالي للبحر. وعندما كنت في منتصف الطريق تقريباً عبر الممر، ظننت أنني لمحت حركة عند إحدى نوافذ الطابق الأرضي. توقفت ووقفت

بلا حراك تماماً وأنا أحدق في المنزل. وكان من العسير النظر إليه بسبب لمعان السماء من خلفه، وظلَّت عيناي تتواثبان متأبّيتين على التركيز. ولم أستطع لحظة أو لحظتين رؤية شيء بوضوح، غير أنني كنت الآن متأكّداً من أنني شاهدت تلك الحركة، شيئاً يتحرك في الداخل، في حجرة الكتب. تحرّكت ببطء شديد إلى الأمام، ترمش عيناي وتتفرّسان. ثم رأيت في لحظة عابرة ولكن بوضوح شكلاً قائماً يقف داخل المنزل، عند النافذة، ينظر إلى الخارج. وذاب الشخص في الظلام، وكأنما أصيبت عيناي بالعمى. فأسقطت الزجاجة التي انزلقت على الجانب المنحدر من الصخرة وتهشمت تماماً عند وصولها إلى الأرض. وهرولت بسرعة عائداً عبر الممر إلى الطريق.

كان هناك شخص ما أو شيء ما داخل المنزل. ماذا ينبغي أن أفعل؟ أستطيع الآن أن أسمع صوت تكسر الأمواج الناعم وكأنه خربشة أصابع رقيقة على سطح أملس. وشعرت وأنا على الطريق الخاوي المظلم بإحساس تشيع فيه القشعريرة بوحدتي المطلقة، بضعف حيلتي بين هذه الصخور الصماء، وبجوار هذا البحر الغريب عني، المستغرق في نفسه. وجال بخاطري أن أقفل عائداً إلى «فندق الغراب الأسحم» لأقضي ليلتي. غير أن هذه الفكرة بدت لامعقولة، وهل من الممكن أن يسمحوا لي بحجرة، وأنا بمظهري الوحشي هذا، وبدون متاع؟ ثم خطر لي أن أسير إلى القرية، إلى «حانة الأسد الأسود» - . . . ولكن. . ثم ماذا؟ ليس لي أصدقاء في القرية. وهبط عليّ إدراك آخر أكثر بشاعة. سيتملكني الخوف إن سرت الآن إلى أي مكان في تلك الظلمة المتراكمة على طول هذا الطريق الخاوي المريع. لم يكن هناك مكان أذهب إليه سوى داخل المنزل.

شرعت في السير على مهل عائداً عبر الممر. وكنت قد تركت الباب الخلفي مفتوحاً، غير أن الباب الأمامي كان موصداً، ومن ثم لم يكن هناك مناص من السير حول المنزل للوصول إلى المطبخ. بأية سرعة يمكن أن أجد أعواد الثقاب، وإضاءة المصباح؟ وعلى فرض وجود دخيل في الداخل،

فسوف يسمع تعثري وأنا أقصد الباب الخلفي، ومن ثم سوف يكون في انتظاري. ما أغبى أن أُقْتَل مصادفة على يد لص خائف! ترددت، ولكنني مضيت في طريقي لأن خوفي من الخارج أصبح الآن معادلاً لخوفي من الداخل. وكان أخوف ما أخافه هو خوفي نفسه، ولهذا كنت أرغب يائساً أن أنهيه، أو على الأقل أن أعمل على تغييره. لعلي في هذا الضوء الغريب قد تخيلت هذا كله، وسرعان ما أجدني ضاحكاً من نفسي ومتناولاً عشائي.

تذكرت أن هناك بطارية كهربائية على رف داخل باب المطبخ، كما تصورت أين يوجد المصباح، وأعواد الثقاب القريبة منه. ألقيت نظرة أخيرة على السماء الزاخرة بنور مكتوم، ثم شرعت أدير مقبض الباب محدثاً ضجة شديدة. وتخبطت داخلاً، بعد أن تركت الباب مفتوحاً، وعثرت على البطارية، ثم على المصباح وأعواد الثقاب. أشعلت المصباح، ورفعته إلى أعلى. صمت. وناديت «مَنْ هناك؟» وترددت أصداء الصيحة الحمقاء المذعورة في المنزل الخاوي، وظلّ الصمت سائداً.

تقدمت نحو الباب، ممسكاً بالمصباح، ونظرت في القاعة. لا شي. هرولت بسرعة إلى الحجرة الأمامية حيث شاهدت «الطيف». كانت خالية. فتشت الحجرات الأخرى في الطابق الأرضي. لا شيء. جرّبت الباب الأمامي. إنه ما زال موصداً. ثم شرعت في صعود السلم بخطوات أبطأ. وكنت أشعر دائماً أنه لو كان في المنزل شيء شرير فسيكون موقعه على البسطة العليا الطويلة. وفيما كنت أصعد الدرجات القلائل الأخيرة، سمعت صوت قرقعة مباغتة استمرت فترة طويلة. شيء ما قام بتحريك ستار الخرز.

توقفت، ثم تقدمت بحركة آلية، فاغراً فمي، محملقاً بعيني. وبينا كنت واقفاً عند نهاية البسطة، رفعت المصباح مرة أخرى وأمعنت النظر في المكان المريب الممتد أمامي حيث كان ضوء المصباح والغسق الخارجي الأخير المترشحان من خلال باب حجرة نومي المفتوح يؤلفان مزيجاً ضبابياً كثيفاً.

وكان من الممكن أن أتبين الفجوة بظلها الداكن، ومعالم المدخل، والكتلة المنقطة لستار الخرز. وبغتة، شاهدت بجوار جدار الطرف البعيدِ، بين الستار وباب الحجرة الداخلية، طيف امرأة قائماً بلا حراك. وكانت الفكرة الأولى الواضحة هي أنني أشاهد شبحاً، الشبح الذي يسكن المنزل، أخيراً! أطلقت زمجرة خوف، وأردت أن أعود هابطاً السلم، غير أنني لم أستطع التحرك. ولم أسقط المصباح من يدي.

تحرك الطيف، واستدار نحوي ليواجهني كاملاً. كانت امرأة حقيقية وليست شبحاً. وفي ومضة بدت مألوفة، ثم تمكنت من رؤية الوجه في ضوء المصباح. إنها روزينا ڤامبورج.

- «مساء الخير يا تشارلز.»

كنت أرتجف، وأخذت أهضم خوفي بسرعة، وأحسست بارتياح شديد ممزوج بغضب متصاعد - أردت أن أجهر باللعنة، غير أنني التزمت الصمت، وتحكمت في تنفسي.

- «لماذا - يا تشارلز - تستبد بك الرعشة، ما الحكاية؟» وكانت روزينا إذا تحدثت خارج المسرح - لو كان من الممكن أن يقال إن مثل هذه المرأة يمكن أن تكون خارج المسرح إطلاقاً - فإنها تتحدث بلكنة غريبة خاصة بها تماماً - أظن أنها لكنة أهالي ويلز.

كان المنزل يشع ببرودة فظيعة، وفي لحظة أحسست بأنني أبغضه وبأنه يبغضني.

- «ماذا تفعلين هنا، لماذا أنت في منزلي؟»

- «مجرد زيارة، يا تشارلز.»

- «دعيني أوصلك إلى الخارج إذن.».

نزلت السلم ومنه إلى المطبخ حيث أشعلت مصباحاً آخر. ودخلت إلى الحجرة الصغيرة الحمراء، حيث أوقدت ناراً خشبية. وعاودني الجوع الذي

كـان قد تـأجل مؤقتـاً بسبب الخوف. رجعت إلى المـطبخ وأدرت فـرن غاز الكالور لكي أبعث شيئاً من الدفء في الحجرة، وأخرجت كأساً، وصَحْناً، وخبزاً، وزبدة، وجبناً، وزجاجة نبيذ. وكـانت روزينا قـد تبعتني، ووقفت بالقرب من الفرن

ـ «ألن تقدم لي كأساً من الشراب، يا تشارلز؟»

ـ «كلا. إذهبي. أنا لا أحب الأشخـاص الذين يقتحمـون منزلي ليـلاً ويلعبون لعبة الأشباح. إذهبي، هذا كل ما في الأمر. لا أريد أن أراكِ!»

ـ «ألا تريد أن تعرف لماذا جئت، يا تشارلـز؟» وكان تـرديدهـا لاسمي منوِّهاً، ومهدداً.

ـ «كلا»

ـ «أنت مندهش، وتتطلع لمعرفة السبب.»

ـ «لم أرك، ولم أسمع عنك منذ عامـين أو ثلاثـة أعوام، وحتى في ذلـك الحين لا أتذكـر إلا أنني قابلتـك في حفل. والآن، هـا أنت تظهـرين فجأة بهذه الصورة البغيضة تماماً. أو، هل من المفروض أن تكون مضحكـة؟ أكان من المتوقع أن أُبـدي سروري لرؤيتـك؟ لست جزءاً من حيـاتي. انصرفي، من فضلك.»

ـ «أنـا جزء من حيـاتك، وأنت تعلم ذلـك ـ أجـل، أنت خـائف يـا تشارلز هذا شيء طريف، إنه كشف، من اليسير كل اليسر إخافة النـاس، وإثارة حيرتهم، وتعذيبهم، وإرهابهم حتى يطيش صوابهم، وجعـل حياتهم نوعاً من التعاسة. لا عجب أن الديكتاتوريين يزدهرون.».

جلست، غير أنني لم أستطع الأكل ولا الشرب في حضورهـا. وأحضرت روزينـا لنفسها كأساً، وصبَّت فيه شيئـاً من النبيـذ، وجلست قبـالتي عـلى المائدة. وكنت لا أزال بارداً بالغضب، منزعجاً من جـراء خوفي، غـير أنني الآن بعد أن أصبحت أقل شعوراً بالجوع أحسست ببذرة من الفضول بصدد ظهـور روزينا الغـريب. على كـل حال، كيف أستـطيع التخلص منهـا إذا

رفضت الانصراف؟ من الأحكم مهادنتها وإقناعها بالرحيل عن طيب خاطر. بدأت أنظر إليها. كانت ـ بكل تأكيد ـ وبطريقتها الخاصة ـ امرأة فاتنة إلى أبعد حد.

ـ «عزيزي تشارلز. ها أنت ذا تثوب إلى طبيعتك. . أستطيع أن أرى ذلك. هذا حسن، تناول عشاءً هنيئاً، شهية طيبة، bon appétit. »

ـ كانت روزينا ترتدي عباءة من التويد الأسود، بها شقان طوليان أخرجت من خلالهما ذراعيها العاريتين. وكانت يداها مغطّاتين بالخواتم، ورسغاها بالأساور التي كانت تتلألأ كلما نقرت أصابعها بعضها بالبعض الآخر نقراً خفيفاً. وكان شعرها الفاحم الشبيه بالأسلاك ـ وقد بدا أسود في ضوء المصباح ـ معقوصاً بالدبابيس على هيئة تاج إغريقي. فإما أن تكون قد أطلقته لينمو أطول مما كان، وإما أنها استعانت بغدائر زائفة. أما وجهها فكان غارقاً في المساحيق: القرنفلية والحمراء والزرقاء، بل والخضراء أيضاً بحيث لاح في الضوء الخافت المحصور أشبه بقناع هندي. كانت تبدو مصطنعة على نحوٍ وسيم. وثغرها الذي ضخّمه طلاء الشفاه، كان مكتنزاً رطباً. وكانت عيناها المنحرفتان تومضان نحوي بشدة خبيثة. كانت تلعب دوراً: وتتقمص ذلك العرض الدرامي المتحكم فيه للعواطف الذي يبدو للممثّل غاية في التأثير، بينما يبدو للمتفرِّج بعيداً عن الإقناع في كثير من الأحيان.

قلت: «لك مظهر المهرج الصحيح.»

ـ «هذا حسن يا عزيزي، هذا أشبه بالأيام الخوالي.»

ـ «أتريدين شيئاً تأكلينه؟»

ـ «كلا، فقد تناولت شاي العصر في فندقي.»

ـ «فندقك؟»

ـ «نعم، فأنا مقيمة في فندق الغراب الأسحم.»

ـ «أوه، كنت هناك هذا المساء، ولم يسمحوا لي بدخول قاعة الطعام.»

ـ «لا يدهشني ذلك، فأنت تبدو مثل طالب قذر. الحياة على شاطىء البحر تناسبك. وأنت تبدو في العشرين. فلنقل في الثلاثين. سمعتهم يتناقشون بشأنك في المشرب. يلوح أنك قد ضايقت كل إنسان فعلاً. . .»

ـ «ما كان في استطاعتي أن أفعل ذلك، لأنني لم ألتق بأحد. . .»

ـ «كان ينبغي أن أخبرك بأن الريف هو أقل الأماكن هدوءاً وخصوصية لمن يريد الحياة فيه. وأكثر الأماكن هدوءاً وعزلة في العالم هو شقة في كنسينچتون.»

ـ «أتعنين أن النادل قد طردني رغم معرفته من أكون؟»

ـ «من يدري، من الجائز أنه لم يتعرف عليك. فأنت لست شهيراً إلى هذا الحد. وأنا أشهر منك كثيراً.»

وكان هذا حقاً. والنجوم دائماً أشهر من أولئك الذين صنعوهم. أمن الممكن أن أسألك ماذا تصنعين في فندق الغراب الأسحم؟».

ـ «زيارتك.»

ـ «منذ متى وأنت هناك؟»

ـ «أوه، عصور، أسبوع، لا أدري، كل ما أردته هو أن أراقبك، ظننت أن مطاردتك قد تكون شيئاً مسلياً.»

ـ«مطاردتي؟ تقصدين. . .».

ـ «ألم تشعر بأنك مُطارد؟ لم أفعل الكثير، ولم ألجأ إلى فوانيس اللفت، أو ارتداء الملاءات. . .».

وهممت أن أصيح سخطاً وارتياحاً: «إذن فقد كنت أنت. . . أنت التي حطمت إناء الزهور والمرآة، وكنت تزحفين متجولة ليلاً وتحملقين فيّ. . . .»

ـ «خطّمتأ الإناء والمرآة، ولكني لم أكن أزحف متجولة ليلاً، ما كنت لأجيء إلى هنا في الظلام الحالك. هذا المنزل مريع.»

ـ «ولكنك فعلت ذلك، نظرت إليّ من خلال زجاج الحجرة الداخلية.»

- «كلا، لم أفعل، لم أفعل ذلك أبداً، لا بد أنه كان شبحاً آخر.»
- «أنت فعلت ذلك، شخص ما فعله. وكيف دخلت إلى المنزل؟.»
- «أنت تترك نوافذ الطابق الأرضي مفتوحة. ولا ينبغي أن تفعل ذلك.»

وفيما كنت أحملق فيها، لاحت لي بغتة - رؤية: كأنما تلاشى وجهها، وأصبح ثقباً، ومن خلال هذا الثقب شاهدت الرأس الشبيه بالأفعوان والأسنان، والفم الأحمر الفاغر للوحش البحري الذي رأيته. لم تدم هذه الرؤية أكثر من ثانية. وأظن أنها ليست رؤية، بل مجرد فكرة. إذ كانت أعصابي في غاية التوتّر الرهيب. كنت أستطيع أن أسمع البحر تارة أخرى، أعلى صوتاً. ولما لم أكن أستطيع افتراض أن روزينا قد دبرت لي أن أكون مُطَارداً بوحش بحري، فقد قررت ألا أشير إلى ذلك.
- «ولكن لماذا تضطهدينني بهذه الطريقة؟ ولماذا قررت أن تسمحي لي باكتشافك الآن، إذا كنت قد فعلت ذلك.؟»
- «رأيت اليوم ليزي شيرر في القرية.»
- «نعم كانت هنا، ورحلت. ولكن ما صلة هذا بذاك؟ لا أستطيع أن أفهم هذه الحكاية كلها.»
- «ألا تستطيع يا تشارلز؟ أتراك نسيت؟ دعني أذكرك.»

وانحنت روزينا عبر المائدة، وبسطت يديها وهي تشير إليّ بأظافر أصابعها الطويلة كأنها رماح صغيرة. وكانت الأظافر مطلية بلون أرجواني داكن. واحتكت الأساور بالمنضدة الخشبية. «أتراك نسيت؟ لقد وعدت بأنك إن لم تتزوج أية إمرأة فسوف تتزوجني.»

عاودني الخوف، أُفُق من الرعب البارد، ظهور اللامتوقع والخَطِر في الحياة. وكانت عينا روزينا الثابتتان متقدتين، وخواتمها تتلألأ، كان ما تقوله هو الحق الصراح..

قلت برفق: «أقلتُ ذلك؟ لا أستطيع أن أتذكر، لا بد أنني كنت

مخموراً. على أي حال، لا أقترح لنفسي الزواج.»

- «كلا؟ كما أنك وعدت إذا استقر بك الحال بصفة دائمة مع أي شخص، فسوف يكون هذا الاستقرار معي.».

ولسوء الحظ، كان ذلك حقاً أيضاً.

وابتسمت روزينا. كانت لها أسنان بيضاء طويلة، غير منتظمة قليلاً، ونوع من «الابتسامة» تمد فيها أسنانها السفلى لتلتقي بأسنانها العليا وتسحب شفتيها إلى الوراء. فيكون التأثير فظيعاً: «لم تكن مخموراً، وأنت تتذكر يا تشارلز.».

حاولت أن أفكر في الخط الذي ينبغي أن أسلكه مع هذه المرأة الخطرة. لم أكن أتوقع بالتأكيد أن تعود للظهور في حياتي. ولكن الآن، بعد أن فعلت ذلك، أعترف بأسلوبها وأحترمه. لم يكن إناء الزهر المكسور ولا المرآة المهشمة، مجرد نذيرين عشوائيين. لماذا هذه التذكيرات الآن، ماذا أطلقها من عقالها؟ كانت الإشارة إلى ليزي هي المفتاح، وإن لم يكن لدي - لسوء الحظ - متسع من الوقت للتروي فيها. إذا كان هذا هو اتجاهها فماذا لو أخبرتها بأن حضور ليزي هنا لا يعني شيئاً؟ هذا كفيل فحسب بتأجيل الأزمة التي بدأت أفطن إلى طبيعتها الآن فحسب. هل نظرت - في أفكاري الأخيرة - إلى ليزي في الضوء الافتراضي بوصفها شريكة دائمة؟ ممكن. هل فكرت جدياً في الزواج من ليزي؟ كلا. غير أن إرهاب روزينا لا يُطاق، إنه وقاحة. قررت أنه من الأفضل أن أكون حازماً بصورة عدوانية، وأن أتخذ طريقاً مستقيماً مباشراً.

- « أنظري هنا، وكفِّي عن هذا، لقد نسيت ما قلته بالضبط، ولكنه كان هراءً عاطفياً موقوتاً، كما تعلمين ذلك جيداً. لا يستطيع المرء أن يلزم شخصاً آخر بهذه الطريقة، وأنا لست مُلْزَماً. تلك الوعود كانت مجرد كلمات، وهي ليست وعوداً.»

ـ «الوعود كلمات. وأنت مُلْزم يا تشارلز. مُلْزم.» وكررت هـذه الكلمة برفق مع التوكيد الشديد.

ـ «روزينا لا تتحدثي بهذا الغثاء، يقول الناس كـل أنواع الأشيـاء التي لا يقصـدونها أثناء غـرامياتهم، وأنت تعـرفين ذلـك. أو لو شئتِ، أعـترف بـأني وعدت، غـير أني سوف أحنث بـوعدي حيثـما يلائمني ذلـك، ككل إنسان آخر.»

ـ «إذن، فسوف تتزوجها؟.»

ـ «من؟ عم تتحدثين؟ أتقصدين ليزي؟.»

ـ «إذن، فالأمر صحيح؟.»

ـ «كلا، طبعاً لن أتزوجها.»

ـ «إذن، فأنت لن تتزوجها.»

ـ «روزينـا، ألك أن تـتركيني وحدي؟ مـا الذي وضـع هذه الفكـرة في رأسك على كل حال؟»

قالت روزينا: «أوه، أما فيما يتعلّق بذلـك فقـد انتـشر فـي لندن كلها. أطلقت صيحات الابتهاج، وأخذت تطوف بكل مكان تحكي للناس بأنـك لا تني عن ملاحقتها بطلب الزواج.

لم أصدِّق هذا بالطبع.

ومضت روزينا: «واندفع جيلبرت أوبيان محـاولاً أن يكوِّن ضـدك نوعـاً من الحزب. وما من أحد إلا ويجد في هذا تسلية له.»

جيلبرت هو المتهم.

ـ «وأظن أنـك لا تعلم حتى أن ليـزي تعـاشر جيلبرت. مفـاجـأة، مفـاجأة، مـا من أحد إلا ويعـرف ذلك، فـإن لم تكن مهتـماً بمـا يكفي لأن تعرف من الذي تعاشره، فإنك لست مهتماً بما يكفي للزواج منها.»

ـ «لن أتزوَّجها.»

ـ «قلتَ ذلك مرتين.»

ـ «أعني . . أوه اذهبي، يا روزينا. وإنهما ليسا عاشقين.»
ـ «أتصدِّق هذا؟»
ـ «أعني أنني سأفعل ما أريده.»
ـ «كنت تعلم دائماً من الذي أعاشره.»
ـ «أنت تثنين على نفسك، أنا لا أعبأ بما تفعلين، ولا بمن تعاشرينه ما دمت بعيدة عني. والآن، انصرفي من هنا.»

ولم تتحرَّك روزينا، فيما عدا أنها مدَّت يداً واحدة عبر المائدة حتى لمس ظفر إصبعها الخنصر كمّ قميصي. ثم أحسست بظفرها ينغرس في ذراعي. جلست متصلِّباً، دون أن تطرف لي عين، قالت: «إنك لم تفهم. لماذا تظن أنني أتيت إليك الآن؟ لم أدخل منزلك وأكسر الأشياء لمجرَّد تسلية نفسي والضحك معك بعدِ ذلك. أريد أن أخبرك بهذا. يجوز أو لا يجوز أن تتزوَّجني، ولكنني لن أسمح لك بأن تتزوَّج سواي. سأحاسبك على الوفاء بوعدك.

ـ لن تستطيعي. إنك تعيشين في عالم من الأحلام.»
ـ «إنك تستطيع أن تقيم حفل زواج، أو أن تستقر مع حبيبة يقع عليها اختيارك، ولكنك لن تعيش سعيداً أبداً بعد ذلك. ولو استقر أمرك مع ليزي فسوف أفسد حياتك مثلما أفسدت حياتي. ولن تكون قادراً على الاختفاء مني. سأكون معك طيلة الوقت، وسأقيم في عقلك ليلاً ونهاراً، سأكون جنية في حياتك وحياتها، حتى تجأر من التعاسة لأنها التقت بك على الإطلاق. من اليسير كل اليسر أن يخيف المرء الناس. تشارلز، أنا أعرف ذلك، وقد فعلته. من السهل أن تشلّ حركة الناس وأن تحطِّم راحة بالهم تماماً، وأن تشوِّه أفراحهم جميعاً. لن أتسامح في زواجك يا تشارلز. وإذا تزوَّجت هذه البغيّ، أو لو احتفظت بها بوصفها حبك، فسوف أكرِّس حياتي كلها لإفساد حياتك، وسأجد ذلك غاية في اليسر.»

وسحبت يدها فظهرت بقعة من الدم على كم قميصي. لم تكن هذه

إذن هـذيانـات مؤقتة عـابثة لامـرأة غيور. كـان هذا هـو الحقـد، والحقـد يستطيع أن يدمِّر، وله سحره الخاص، وتتمتَّع روزينـا بالإرادة والقـوة لكي تفعل ما هدَّدت به تماماً. وعندما خطرت لي هذه الفكـرة أحسست في شيء من الألم أن هـذه الإرادة السوداء، إذا وُجِّهت وجهـة أخـرى، فـإنها ذلـك الشيء نفسـه الذي جعلني أحبهـا. وعادت إلى الابتسـام مظهـرة أسنـانها السميكة البيضاء.

اتخذتُ نغمة معقـولة. لم تكن لتخـدعها لأنها يمكن أن تشعـر بخوفي: «تهديدات فجّة لم تنضج نوعاً ما، غير أنك إذا ضايقتني لأي سبب، فسوف أثأر لنفسي بكل تأكيد. لماذا تشبّين أوار الحرب بيديك، لماذا تبدِّدين حياتك ووقتـك؟ هذا هـو الكـراهيـة لا الحب. أنت امـرأة عقـلانيـة. إنْسَيْ هـذا المـوضوع. لماذا تُشْقين نفسك بهذه النـوبات الحـادة من الغـيرة النَّكِـدة؟» وكانت هذه الكلمات غلطة فادحة.

خبطت روزينا المنضدة براحة يدها المبسوطة وتوهَّجت عينـاها بـالعنف. «تجرؤ على الكلام عن الغيرة! كـأنما أعبـأ بتلك البلهاء التي تجـري وراءها! فليكن، إنك هجرتني أنا، أنا، لـترافقها، ولم أنسَ. كـان في استطاعتي أن أقـطع أوصالهـا أو أدفعها إلى الجنـون، ولم يمنعني من ذلك إلا أنني أعـرف أنـك سوف تسـأمهـا، وقـد كـان، أنت تسـأم من كـل انسـان. حـطَّمت زواجي، ومنعتني من أن أنجب أطفـالاً، ومن أجلك أقمت مـذبحـة لكـل أصدقائي. وعندها توسَّلت إليّ على ركبتيك لكي أتخلَّى عن زوجي، وعندما تركته، هجرتني من أجل تلك المرأة ذات الوجـه الطفـولي. ألا تذكـر كيف كان شكل حبنا؟ أنسيت لماذا تفوَّهْتَ بتلك الكلمات؟»

- «من رحمة الله أن المرء ينسى غرامياته كما ينسى أحلامه.».
- «لم تتمتَّـع أبـداً بـأي خيـال، فـلا عجب أنـك لا تستـطيـع كتـابـة المسرحيـات. إنك طفـل بارد. أنت تـريـد النسـاء، ولكنـك لا تهتم أبـداً بـالناس الـذين تـريـدهم، ومن ثمّ، فـإنـك لا تتعلَّم شيئـاً، وكـانت لـك

غراميات، ولكنك ظللت بريئاً، لا لست بريئاً، إنما أنت شرير أساساً، غير أنك فجّ على نحو ما. كانت عشيقتك الأولى هي أمك، كانت كليمنت خاطفة أطفال. ولكن ألا ترى أن هذا كله كان سراباً؟ هؤلاء النسوة كن يحببنك من أجل قوّتك، من أجل سحرك، أجل، كنت ساحراً. والآن انتهى كل شيء ـ أنا الوحيدة التي أحببتك من أجل نفسك لا من أجل أفعالك التي لا تُقْهر.»

ـ «كان من الممكن أن تكون هذه الخطبة أقوى تأثيراً لو أنك ألقيتها قبل ذلك، لا لأنك استمعت إلى شائعة عن ليزي!.»

ـ «كنت أنتظر لأرى إن كنت حقاً قد زهدت في الدنيا، كما ذهبت تفتخر بذلك. أردتك منزوعاً منفرداً. عندها إذن قد تكون جديراً بي. ولكن، كم كنت حمقاء عندما ظننت أنني سأكون قادرة على الإعجاب بك لشيء آخر سوى سحرك السهل! غير أن الواقع يبقى وهو أنك قد وعدتني ذلك الوعد في لحظة صدق، في مطلق الحب الذي لا يمتاز به غير أفراد قلائل أثناء حياتهم. وهذا الوعد ينتمي إليّ، وهو كل ما حصلت عليه مقابل زواجي المحطم، والحب الذي سكبته لك، كما لم أفعل لأي رجل آخر سواك. اكتسبت هذا الوعد وسأتمسّك به، حتى لو لم يكن هناك ما أفعله به سوى أن أجعل حياتك دماراً وخراباً.»

نهضت بغتة فظهر عليها التوتر، ورفعت بالفعل يديها البرّاقتين كأنهما مِخْلَبان. وبدت كأنها راقصة باليه تقوم بدور قطّة.

ـ «اسمعي، يا جميلتي الحولاء، الوقت متأخّر، فانصرفي بالله عليك، وعودي إلى فندق الغراب الأسحم. سأذهب إلى فراشي. وأرجوك ألا تحومي حول هذا المنزل بعد ذلك لتحطيم الأشياء واختلاس النظر من زجاج النوافذ. ليست لديّ أية مشروعات للزواج أو الاستقرار مع أية أنثى.»

ـ «أتقسم على ذلك؟»

ـ «لا وجود لأي ترتيب، ليزي تعيش مع جيلبرت. هـذا هو الـوضع، وبالطبع، لم أتقدَّم إليها أبداً بطلب الزواج، هذه مجرَّد شائعة مجنونة. والآن اذهبي، فأنا مرهق، ولا بد أنك مرهقة أيضاً بعد هذا العَرْض الطويل.»

نهضت وضمَّت عباءتها على نحو أوثق حول جسمها، فظهر ذراعاها من خلال الشقَّيْن، وقد تشبَّثت كلّ منهما بالأخـرى أمامهـا. ووقفت لحظة تحملق فيّ. «سأذهب، ولكن أنبئني بأنك تصدِّق ما قلته لك.»

ـ «أصدّق بعضه.»

ـ «أنبئني بأنك تصدِّق ما قلته.»

ـ «أصدّقه، والآن، انصرفي بحق المسيح.»

سرت بـالمصباح صـوب الباب الخـارجي وهي تتبعني. وفتحت الباب، فكشف ضوء المصباح عن ضباب كان ينتظر في الخارج كأنه حضـور. وكان من المحال تمييز نهاية الممر.

قلت: «سأنير لك الطريق». وعدت للبحث عن البطاريـة الكهربـائية. «ولكن انظري، من الأفضل أن أصحبك إلى الفندق. أوه، **يا للجحيم!**»

قـالت بصوت رتيب لا حيـاة فيه: «لست في حـاجة إلى ذلـك، سيارتي قريبة.»

أضأت لها الطريق عبر الممـر ببطاريتي. وكـان الضباب أقـل كثافـة فوق الطريق. «أين سيارتك؟»

ـ «إنها هنا، في ذلك المكان خلف الصخرة».

سرنا إليها، ودخلت فيها، قلت: «ليلة طيِّبة.»

قالت: «**تذكَّر**.»

وأدارت الأضواء الأمامية، فتبيَّنت سيارة منخفضة حمراء ذات مقعـدين. وتـراجعت بالسيـارة لتصل إلى الـطريق. وفيـها كـانت تنعـطف الآن وتبـدأ الحـركة في اتجـاه الفنـدق، تجسَّـد أمـامي شخص بغتـة، شخص كـان من

الـواضح أنـه يسير عـلى طول الـطريق. وداست روزينا بقـوة عـلى دوّاسـة السرعة، فقفزت السيارة فجأة إلى الأمام، وحوصر السـائق لحظة بـالأضواء الأمامية، فعـاد إلى الوراء مـذعوراً ليحتمي بـالصخرة. وانحـرفت السيارة بصوت يشبه الصيحة، ثمّ هدرت مبتعدة على الطريق. وأسقطت بـطاريتي على الحشائش الطويلة، فوقفت غارقاً في الظلام.

كان السائق الذي أوشكت روزينا أن تدهمه هو امرأة القرية العجوز التي ذكّـرتني ـ على نحـَو غامض ـ بهـارتلي. والآن في هـذه اللحـظة من النـور الباهر، تمكّنت من الرؤية. لم تكن المرأة العجوز تشبـه هارتـلي، بل كـانت هارتلي نفسها..

(٢)

أنا الآن في لندن أكتب قصة وصول روزينا وما حدث عقب ذلك مباشرة، بعـد أن أسرعت سيـارة روزينـا بـالابتعـاد، حتى وقفت متسمّـراً في حـالـة من الصدمة التامة، صدمة من النوع الذي يمحو المكان والـزمان ويجعـل المرء متأمّلًا إلى حدٍّ ما. أصابتني الصدمـة بالشلل، ولا أدري لمـاذا لم أسقط على الأرض، فقد كان الكشف فـي تأثـيره الأول رهيبـاً إلى أقصى حد. أدركتـه لأول وهلة عـلى هذا النحـو، لا أدري لماذا، إلا بـوصفـه شيئـاً لا سبيـل إلى الـترحيب به، أو شيئـاً فظيعـاً، بل بـوصفه فحسب أمـراً مستحيلاً أصبـح حقيقة، مثل ما لا نستطيع أن نتخيّله عن نهاية العالم. وقد كـان حقاً نهايـة العالم. وأتذكّر عندئذ أنني بسطت يدي ببطء حتى أتمكّن من مسانـدة نفسي بالالتجاء إلى الصخرة. وفي الوقت الذي كنت فيه قـادراً على الـوصول إلى الأرض والتقـاط البطاريـة، كنت أعلم على نحـو ما أن هـارتلي لا بـد أن تكـون قد ذهبت، واستمـرَّت في طريقهـا بحيث أصبحت الآن بعيـدة، أو لعلها اختصرت الطريق وسارت عبر الحقول. كنت ـ على أية حال ـ غـير واثق من الطريق الذي سلكته عندمـا وقعت عليها أضـواء السيارة. وكـان ذهني مصـدوماً إلى درجـة أنني لم أكن قادراً عـلى اتخاذ أبسط القـرارات عما

يجب أن أفعله. شرعت في الإسراع صوب القرية، ثم توقَّفت. لم يخطر على بالي أن أنادي باسمها، هذا شيء محال. كدت لا أتذكَّر اسمها حقاً، ولا بد أن أنبثق - كأنني في حلم - مثل شيء غير متماسك في أسفل العقل. هرولت عائداً على أعقابي، وأضأت البطارية في غباء، فاحصاً المكان الذي شاهدتها فيه. وكشف الضوء الساطع عن الآثار التي خلَّفتها إطارات السيارة، والحشائش التي وطأتها، والصخرة الصفراء التي تميِّزها الخدوش، والضباب الذي أخذ يتحرَّك، وأخيراً وببطء، كرجل عائد من جنازة، سرت راجعاً عبر الممر إلى المنزل. كانت المصابيح ما برحت مضاءة في المطبخ، والنار موقدة في الحجرة الصغيرة الحمراء، كان كل شيء هادئاً، كما كان عندما كنت أتحادث مع روزينا، في حقبة سابقة من حِقَب العالم.

كنت أرتجف، وكان الأكل والشرب سواء في الاستحالة. دخلت الحجرة الصغيرة الحمراء وجلست إلى جانب النار. أهي أرملة؟ هذا السؤال المعذِّب قد صاغ نفسه - على ما يبدو - في الحال على نحو ما، في اللحظة الأولى الرهيبة من التعرف. رهيبة، لا لأنها تغيَّرت تماماً تقريباً، وإنما لأنني أعلم أن كل شيء حولي يتحوَّل حطاماً، كل افتراض قديم قد ولَّى، وكل إمكانية بشعة كانت مفتوحة. ولم يخطر على بالي قط أن العذاب الأليم يمكن أن يُلِمّ بي بهذه السرعة. ولم يكن تصوّر الألم هو الذي جعلني أشعر بأنني تحطَّمت على هذا النحو، وإنما كان مجرَّد تجربة التغيُّر نفسها. أحسست بقلق حاضر أشبه بما تحسّ به حشرة تخرج من شرنقتها، أو الجنين المسحوق وهو يشق طريقه إلى العالم. كما لم يكن الأمر أيضاً انتقالاً إلى الماضي؛ إذ بدت الذاكرة الآن غير واردة، وإنما كان حالة جديدة من الوجود.

وفي نهاية المطاف ذهبت إلى الفراش، ونمت في التوّ واللحظة كشيء ميت. وكنت قد كوَّنت خلال هذه الفترة فكرة أو فكرتين بسيطتين، أو أسئلة: أهي أرملة؟ كان هذا السؤال طاغياً بحيث لم يعد سؤالاً، بل

أصبح الجو الذي أتنفَّسه. وتساءلت هل رأتني في القرية، وإن كان الأمر كذلك، فهل تعرَّفت عليّ؟ لقد رأيتها على البعد عدة مرَّات. . يا إلهي، ما أفظع هذا! رأيتها ولم أتعرَّف عليها. أما أنا الذي لم أتغيَّر كثيراً ـ بكل تأكيد ـ فلا بد أن أكون قد عُرِفت في الحال. لماذا إذن لم تكلّمني؟ ربما تصادف أنها لم تلمحني، ولعلها أن تكون قصيرة النظر، لعلها ـ ماذا كانت تفعل في القرية على كل حال؟ أتراها تقيم هنا، أم أنها في إجازة؟ ربما كانت ستختفي غداً، فلا أراها مرة أخرى أبداً. أين كانت ذاهبة على طول طريق البحر المحتجب بالضباب ليلاً؟ وخطرت لي فكرة أنها قد تكون عاملة في «فندق الغراب الأسحم». غير أنها تجاوزت الستين، هارتلي تعدَّت الستين. لم أواجه أبداً هذا الاحتمال وهو أن هارتلي يمكن أن تكبر. وتساءلت بعد ذلك إن كانت قد لمحتني في الظلام، وإذا كانت قد فعلت فهل أدركت أنني قد تعرَّفت عليها. ثم فكَّرت. لقد رأتني مع روزينا. ماذا تُراها قد سمعت، وماذا كنا نقول في تلك اللحظة؟ لم أستطع أن أتذكَّر. ثم قرَّرت أنها لم تكن تستطيع أن تراني لأنني كنت وراء أضواء السيارة. وغداً: غداً سأبحث وأبحث عنها حتى أجدها وعندئذ. . .

استيقظت صباح اليوم التالي على إحساس فوري بعالم متغيِّر. . كان الشعور الرهيب أقل وطأة، وكانت هناك إثارة جديدة متلهِّفة إلى أقصى حد، وشوق جسماني نازع مطلق إلى الوجود في حضورها، هو تلك المغناطيسية العنيفة التي لا ريب فيها، مغناطيسية الحب. كما كان هناك أيضاً فرح سحري حائم، وكأنني تغيَّرت أثناء الليل إلى كائن رحيم أوتي القوة على فعل الخير. . ها أنذا أستطيع أن أنتج، أن أغدق ـ كل ما هو خير. كنتُ الملك الذي يبحث عن العذراء المتسوِّلة. كانت لديّ القدرة على تحويل الأشياء، على الصعود، على الشفاء، على إشاعة الفرح والسعادة التي لم يحلم بها أحد. يا إلهي، كان مقدَّراً عليّ أن آتي إلى هنا، إلى هذا المكان بالذات، وضد كل تلك المصادفات، لأجدها أخيراً! جئت هنا بسبب كليمنت، فوجدت هارتلي. ولكن: أهي أرملة؟.

كنت في القرية في الساعة التاسعة. وكان صباحاً مشمساً ينذر بالحَرّ. سرت بسرعة حول الشوارع الصغيرة، ثم انحدرت إلى الميناء، ثم رجعت على أعقابي عن طريق ممر للسابلة يفضي صاعداً التل إلى أكواخ التصييف. وما إن فتح المتجران أبوابهما، حتى زرت كلًّا منهما. وجعلت أتجوَّل في الطرقات مرة أخرى. ثم دخلت الكنيسة التي كانت خاوية على عروشها، وجلست برهة واضعاً رأسي بين راحتيّ. وألفيت أنني قادر على الصلاة، وكنت أصلّي في واقع الأمر. كان هذا شيئاً غريباً، فأنا لا أؤمن بالله، ولم أصَلِّ منذ أن كنت طفلاً. صلَّيت قائلاً: ساعدني في العثور على هارتلي، واجعلها وحيدة، وادفعها إلى حبي، واكتب لها السعادة على يديّ إلى الأبد. أن أكون قادراً على إسعاد هارتلي أصبح أعظم شيء أشتهيه في هذا العالم، شيئاً إذا امتلكته فسيكون تتويجاً لحياتي، وسيجعلها كاملة. مضيت في الصلاة، ولم ألبث أن شعرت وكأنني نمت بطريقة غريبة. ومررت عن يقين بتجربة الاستيقاظ والشعور بالذعر خوفاً من أن أكون قد فقدت هارتلي، من حيث أن فرصتي الوحيدة للعثور عليها قد سنحت لي ثم ضاعت أثناء نومي. انتهت إجازتها، وعادت إلى بيتها، ثم لاذت بالفرار، وماتت بغتة. قفزت ناهضاً، ونظرت إلى ساعتي، لم تكن إلا التاسعة والثلث. خرجت ركضاً من الكنيسة، ثم أخيراً رأيتها.

رأيت: امرأة عجوزاً متينة البنيان في ثوب بنيّ لا شكل له، أشبه بالخيمة، ممسكة بحقيبة تسويق، وتجاهد السير في الطريق على مهل شديد وكأنها في حلم، فاجتازت حانة «الأسد الأسود» في اتجاه الحانوت. هذا الشكل الذي لاحظته من قبل وأنا في حالة من التشويش والكسل، تغيَّر الآن في عينيّ تغيّراً تاماً. كان العالم بأسره يؤلِّف خلفيته، وبيني وبينه أخِذت تحوم ـ ربما لآخر مرة ـ رؤية فتاة نحيلة طويلة الساقين ذات فخذين تومضان. وركضت.

أدركتها، وأنا أركض من الخلف، عندما اجتازت الحانة مباشرة، ولما

حاذيتها، لمست أَحَدَ كمَّيْ ثوبها البنيّ الواسع. توقَّفَتْ، وتَوَقَّفْتُ. لم أكن أستطيع أن أقول شيئاً.

استدار الوجه المألوف نحوي، الوجه المستدير الشاحب المُنْذر بعينيه اللتين تخفيان لونهما البنفسجي، وبنوع من الحركة المنعكسة التي تدلّ على الارتياح فكَّرت: أستطيع أن أعقل هذا، أجل، إنها نفس الشخص، أستطيع أن أراها على أنها نفس الشخص، على كل حال.

أما وجه هارتلي الذي يبدو أنه اكتسى الآن ببياض مطلق، فقد عبَّر عن فزع مذهل بحيث كان من الممكن أن يصيبني الفزع أنا نفسي، لولا أنني انشغلت في بحث عاجل، يكاد يكون آلياً، عن «المتشابهات»، عن طرائق لمزج الحاضر بالماضي البعيد. أجل، كان هذا هارتلي، وإن كان مهزولاً، وناعماً وجافاً على نحو غريب. كانت طائفة من الغضون البالغة الحساسية عند طرف عينها تفضي صُعداً إلى الجبين، ونزولاً صوب الذقن، وتحيط بالوجه كالإكليل. وكانت هناك خطوط أفقية وقور فوق الجبهة، وشعيرات طويلة حالكة أعلى الثغر. وكانت شفتاها مطليَّتين بطلاء أحمر رطب، وعلى محياها (بودرة) انتثرت هنا وهناك. وكان شعرها رمادياً منسَّقاً، ومموَّجاً على نحو تقليدي. غير أن شكل وجهها ورأسها ونظرة عينيها كانت تنقل شيئاً لم يُمَسَّ من الماضي إلى الحاضر نقلاً مباشراً.

وشرعت تغمغم بشيء. «أوه.. إنه...» كان من الواضح طبعاً وعلى الفور أنها عرفت من أكون. وتمتمت «أو..» وهي تحملق فيّ بنوع من الضراعة المذعورة الذاهلة.

استطعت أخيراً أن أقول: «تعالي.. تعالي..» وسحبت كمّها مرة أخرى، وبدأت أتراجع صوب الكنيسة. لم أحاول السير معها. وتبعتني على بعد خطوات قلائل ورائي، وطفقت أنظر إليها وأتعثَّر في خطوي. ويعلم الله مَنْ كان يشهد هذا اللقاء. ربما كانوا دستة من الناس، وربما لم

يكن هناك أحد. لم أكن أستطيع أن أرى شيئاً فيها عدا عيني هارتلي المذعورتين.

دخلت إلى الكنيسة، وأمسكت بالباب الثقيل الضخم مفتوحاً من أجلها. ما فتىء المكان خالياً. والنوافذ الكبيرة ذات الزجاج العادي تسمح بنور بارد ساطع. جلست على إحدى الأرائك الخشبية القريبة، وجلست على مقربة مني في الصف التالي الأمامي، فكان عليها أن تلتفت لتراني. وفي ذلك الجو الرطب العَطِن كنت أستطيع أن أشمَّ بودرة وجهها، وأن أشعر بدفء جسدها. وكانت قد ألقت حقيبتها وتشبَّثت بظهر الأريكة الخشبية بكلتا يديها. وكانت يداها حمراوين متغضنتين، وفي لحظة أخفتهما مرة أخرى. وهمست: «أنا آسفة. . .» وأغمضت عينيها. وألصقت جبيني بالسطح الخشبي المصقول حيث كانت يداها وقلت: «أواه، هارتلي. . . هارتلي. . . هارتلي. . .»

وجال بخاطري فيما بعد أنني لم أشكِ لحظة أبداً في أن عاطفتها لا تقل قوة عن عاطفتي، رغم أن الأمر يمكن أن يكون على خلاف ذلك. وعندما رفعت رأسي كانت تمسح وجهها بمنديل وتتنفَّس فاغرة الثغر وهي ترتعد، دون أن تنظر إليّ.

«هارتلي، أنا. . أوه، هارتلي. . أوه، يا عزيزتي. . أين تسكنين، هل تعيشين في القرية؟» ولا أدري لماذا سألتها هذا السؤال أولاً، ربما لأنه سهل الإجابة. كان الكلام من أي نوع هو المشكلة، كما لو كنا نتحدَّث بلغتين مختلفتين، وعلى كل منا أن يعلِّم الآخر كيف يتكلَّم.

- «أجل.»
- «لست في إجازة، أنت تقيمين هنا؟»
- «أجل.»
- «وأنا كذلك. إنني الآن متقاعد. أين تقطنين؟»
- «هناك على التل.»

- «في أحد تلك الأكواخ|Bungallows؟»*.

- «أجل.» ثم أضافت: «إنه يطل على منظر بديع.» كانت هي أيضاً تتلعثم في الكلام. ولطّخ منديلها شيئاً من أحمر الشفاه على وجنتها.

- «لقد تزوَّجت، أليس كذلك.. هل ما زلت.. أعني هل ما زال زوجك.. هل لك.. زوج.. الآن..؟»

- «أجل، أجل، أوه أجل. زوجي على قيد الحياة.. إنه معي، أجل.. نحن نعيش.. نحن نعيش هنا.»

أخلدت إلى الصمت، بينما كان عالَم بأسره من الإمكانيات ينبسط رويداً رويداً طيَّة بعد أخرى، مثل حيلة فنية من حيل المسرح، ثم تنهار في هدوء وتنطوي، وتظهر، وتتصاغر حتى تتلاشى. إذن فقد كان، كان ذلك، على كل حال. وكان عليّ أن أفكِّر، وأن أبتكر، بطريقة جديدة، لكي أوجد في هذا الموقف الذي أصبح الآن، كما أدركته، أياً كان الحال مع هارتلي، الموقف المستمر الوحيد بالنسبة لي، الحالة الأخيرة للأمور، مركز العالم.

قلت: «أنا آسف.»

هزَّت رأسها هزّة خفيفة، مشحونة بالعاطفة، إزاء هذا التكريم الأخير المرتبك، إبتهالة قصيرة، وتصديق موجز (آمين) ولكنه رَحْب.

استطردت قائلاً: «أما أنا فلم أتزوَّج، لم أتزوَّج أبداً.»

حرَّكت رأسها مرة أخرى، وخفضت عينيها متفرِّسة في المنديل الآخذ في الاحمرار. التزمنا الصمت معاً برهة من الزمن، وكأننا نستعرض - دون أن نتنفَّس - حادثاً هائلاً وقع في التوّ واللحظة. وكما يحدث للناس حين تصيبهم أزمة فيسارعون إلى الكلام عشوائياً، قلت على عجل: «هل رأيتني من قبل على الإطلاق، هل لمحتني في الشارع، لعلك لم تتعرَّفي عليّ؟»

(★) بيت من طابق واحد وبخاصة في الريف أو على شاطىء البحر أو في الغابات (المورد).

ـ «أوه أجل، رأيتك منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، وتعرَّفت عليـك، إنك لم تتغيَّر.»

لم أستطع أن أقنع نفسي لأقول: «إنك لم تتغـيَّري»، وإن كنت قد لعنت نفسي لأنني لم أقـل هذه العبـارة. مـا أشـد اهتـمام النسـاء عنـدمـا يفقـدن نظراتهن، ما أشد اهتمامهن بمعرفة ذلك؟ غير أن فكرة أخرى استـولت عليّ في الحال وروَّعتني: «ولكن لماذا إذن لم تتحدَّثي إليّ؟»

ـ «لم أكن واثقة من أنك تريد أن تعرفني. وخطر لي أنك تشعر بـأن من الأفضل لكل منا ألا يتعرَّف على الآخر. . .»

ـ «تعنـين أنك فكَّـرت في أنني تعرَّفت عليـك. . ثم تجـاهلتـك؟ كيف يمكنك أن تفكِّري في مثل ذلك؟»

ـ «لم أكن أعرف. . . لم أكن أعرف بِمَ تشعر بعد كل تلك السنين. . . أتلومني، أم أنك نسيتني. أنت عظيم ومشهـور. . . من الجائـز ألا تحبني أو لا تريد أن تعرفني. . .»

ـ «أوه، هـارتلي، كيف يمكنـك، لـو أنـك عـرفت فحسب. . . أفنيت السنوات بحثاً عنـك، ولم أكفّ مطلقـاً عن حبك. . .» ولمست كتف ثـوبها البنيّ، وأمسكت بياقته لحظة بين أصابعي.

تمتمت وهي تبتعد عني قليلاً: «لا تفعل، لا تفعل.»

ـ «هل عرفت أنني رأيتك ليلة أمس؟»

ـ «أجل.»

ـ «تعرَّفت عليك حينئذ فحسب. . ومنذ تلك اللحظة وأنا في فـورة من الانفعال. ما كـان لي أن أتظاهـر بأنني لا أعـرفك، يـا له من شيء رهيب! كيف يمكن أن تفكِّـري في أنني سألـومك أو أنسـاك! أنت حبي، ومـا زلت كذلك، ما زلت كما كنت بالنسبة لي. . .»

قطَّبت وجهها تقطيبة غـريبة صغـيرة أشبه بـالابتسامـة، وهزَّت رأسهـا، دون أن تنظر إليّ.

لم أستطع أن أضيف شيئاً إلى ما قلت، خوفاً من التوغل في الأشياء الرهيبة. «أما زلت مع نفس... الزوج... الزوج الذي تزوَّجته... حينذاك؟»

- «أجل، هو نفسه.»
- «لم أعرف اسمه أبداً، أنا.. أنا لا أعرف اسمك بعد الزواج.»
- «أنا السيدة فيتش، اسمه فيتش، بنيامين فيتش.»

انحنيت لهذا القول، وكأنما تلقيت لكمة في بطني. هناك الآن اسم ارتبط بذلك الرعب الذي ترتَّب على زواجها، هذا الرعب الذي ينبغي أن أعايشه على نحو ما. وغمرتني موجة من الرثاء لنفسي، فتغضَّن وجهي كمداً. «هارتلي... ماذا يفعل، أعني، ما عمله؟»

- «إنه معوَّق قليلاً، وهو يطوف بسيارة بوصفه مندوباً، يزاول أعمالاً كثيرة، مثل بائع متجوِّل، وهو الآن متقاعد. جئنا إلى هنا، وكنا في ميدلاندز، جئنا هنا إلى الشاليه (البانچالو) لنقيم..»

- «أوه، أليس من الغريب، يا هارتلي، أننا أتينا إلى هنا ليلتقي كل منا بالآخر مرة ثانية، دون أن نعرف. هذا شيء يبدو كالقدر، أليس كذلك؟» ولكن، ما أقسى الألم الذي ينطوي عليه!»

لم تقل هارتلي شيئاً، وإنما نظرت إلى ساعتها.

- «و... هل لديك... أطفال؟»
- «لدينا ابن.. وهو في الثامنة عشرة.. ولكنه رحل الآن.»

كانت تتحدَّث على نحو أهدأ، وبنوع من الروية، وكأنما تريد أن تنتهي من مهمة ضرورية.

- «ما اسمه؟»

قالت بعد لحظة: «تيتوس.» ثم ردَّدت: «تيتوس.. هذا هو اسمه.» ثم قالت وهي تنظر إلى ساعتها مرة أخرى: «ينبغي أن أذهب، ينبغي أن أذهب إلى المتجر، وإلا تأخَّرت.»

ـ «هارتلي، أرجوك، امكثي هنا أرجوك، لا بد أن أستمرَّ في الحديث معك، أخبريني. أوه أخبريني، ماذا كان زوجك يعمل، يبيع، قبل التقاعد؟» لا بد أن أستمر، مجرَّد الاستمرار، في إلقاء الأسئلة.

ـ «في المطافىء، كان في فرقة رجال المطافىء.» وأضافت: «كان يأتي دائماً مرهقاً في الأمسيات.»

هذا المشهد المفاجىء لأمسياتها، أعواماً وأعواماً من أمسياتها، أفضى بي إلى أن أسألها هذا السؤال الأرعن: «وهل كان زواجكما سعيداً، يا هارتلي، أكانت حياتكما طيبة؟.»

ـ «أوه، أجل، أجل، كنت سعيدة جداً، زواج سعيد جداً، أجل.»

كان من المستحيل أن أتبينَّ أكانت صادقة فيما تقول. من المحتمل أنها كذلك. حياة طيبة. يا لها من عبارة غريبة تلك التي استعملتها! وهل مضت حياة كل منا، وهل اكتملتا على نحو ما، منذ أن التقينا آخر مرة؟ وجعلني صوت هارتلي الذي أحتفظ بنبرته النحيلة الرتيبة قليلاً، والذي يبدو لي جذَّاباً إلى أقصى حد، بالإضافة إلى لمسة من اللهجة المحلية ـ جعلني هذا الصوت أدرك إلى أي مدى تغيَّر صوتي.

انبهرت أنفاسي بغتة، فوضعت كلتا يديّ على ظهر الأريكة. ولمس بنصري ثوبها، فتحرَّكت حركة طفيفة مرة أخرى. شيء أسود يبدو أنه يهدِّدني على مسافة قصيرة فوق رأسي. كانت سعيدة طيلة تلك الأعوام، أجل، ولماذا لا تكون، ومع ذلك لم أكن أستطيع تصديق ذلك، أو أستطيع احتماله. كانت موجودة طيلة تلك السنين، وقد ولَّت حياة كل منا. تنفَّست بسرعة من خلال فمي، وتلاشت الظلمة. قلت لنفسي ينبغي أن تكون مبدعاً، وبدت هذه الكلمة «مبدعاً» عوناً لي. ينبغي أن أكون مبدعاً وحريصاً على ألاَّ أتعذَّب كثيراً. يجب أن أبحث عن شيء من السعادة، عن شيء من العزاء، هنا، على نحو مبدع.

قلت، وأنا لا أدري ما أعنيه تماماً أو لماذا قلته: «تلك المرأة التي كانت

في السيـارة ليلة أمس، إنها ممثلة ذائعة الصيت، روزيتـا ڤامبـورج، جاءت لمجرَّد زيارتي. . . »

ـ «قلّما نذهب إلى المسرح. . . »

ـ «كانت تزورني من أجل العمل. . . »

ـ «شاهدتك في التليفزيون. »

ـ «حقاً، في أية مسرحية. . ؟»

ـ «نسيت. ينبغي أن أذهب الآن. » كـرَّرت ذلك ثم نهضت واسـتردت حقيبتها للتسويق.

استبدَّ بي الاضطراب. «هارتلي، لا تـذهبي، يبدو عليـك. . أوه، أنك مرهقة للغاية. . . » لم يكن هذا هو أفضـل ما يقـال، غير أنـه عبَّر عن نـوع من القلق الذي ينطوي على الحماية والحنان والشفقة، ونوع من المذلّة لمستـه فيها عندما رأيتها واقفة هناك أمامي متنكِّرة على هيئة امرأة عجوز. إنها تبدو مرهقة حقاً، والتعب هو التعبير الذي يرتسم على وجههـا. لم يكن حزنـاً أو معاناة بقدر ما كـان نوعـاً من النَّصب الذي يلوح عـلى شخص استغرق في عمل شاق أعواماً إثر أعوام.

ـ «أنا على خير ما يرام، فيما عدا بعض متاعب معـوية لا تنتهي. وأنت تبـدو على مـا يرام، يـا تشـارلـز، وفي ريعـان الشبـاب. يجب أن أذهب. » وتجاوزتني متجهة صوب الباب.

وثبت من مقعدي، وتبعتها. «ولكن ماذا سنفعل؟ »

ونظرت إليّ هارتلي وكأنها ليست متأكِّدة مما يعنيه هذا السؤال.

ردَّدت: مـــاذا نحن فاعـلان؟ أعني. . أوه، هـــارتـلي، هـــارتـلي، متى سأراك، أمن الممكن أن نلتقي بعد أن تفـرغي من تسويقـك، أمن الممكن أن نلتقي في الحانة، أم لعلك تأتين إلى منزلي. . . » آفاق من الجنون فُتحت عبر هذه الكلمات.

فتحت هارتلي باب الكنيسة، وهي تشدّه بمشقّة، ومن فوق كتفها، كنت

أستطيع أن أرى قبر «دامي» Dummy والبوابة الحديدية ذات القضبان المتقاطعة، وشارع القرية بناسه، وخط الأفق البعيد الذي يلتقي بالبحر. قلت بوحشية: «طبعاً سوف أتصل بك، وأود كثيراً أن ألتقي بزوجك، ولا بدّ أن تأتيا كلاكما لمنزلي المضحك وأن تتناولا شراباً، أنت تعلمين أنني أعيش. . . »

- «أجل، أعرف، شكراً لك، ولكن ليس الآن، لأن زوجي ليس على ما يرام تماماً. . »

- «ولكن سأراك، لا بد من ذلك. . ما هو عنوانك، أي بانجالو؟»

- «إنه يسمَّى نيبليتس Nibletts، وهو آخر واحد، ولكن لا تفعل، سأخبرك. . . »

- «أرجوك يا هارتلي، قابليني بعد أن تنتهي من التسويق. . دعيني أساعدك. »

- «كلا، كلا، لقد تأخَّرت. لا تأتِ، ابق هنا. سأراك فيها بعد، أعني في يوم آخر، أرجوك، لا تفعل أي شيء، سأخبرك. يجب أن أسرع الآن، سأخبرك، أرجوك، ابق هنا. . وداعاً. »

أردت أن ألمسها، وإنما بأطراف أصابعي فحسب، وكأنها شبح يمكن أن يتحلَّل، وأردت أن أمسك بثوبها بين أصابعي، والآن، أحسست بحاجة محدَّدة إلى أن أتناول رأسها وأن أجذبها بهدوء نحوي، وأن أستمع إلى خفقان قلبها. انبعثت الرغبات القديمة فأصبحت حاضرة على حين غرّة. شاهدت عينيها الزرقاوين، الزرقاوين، والنظرة المجنونة الغريبة المرتسمة على وجهها المستدير، النظرة التي لم تتغيَّر قط، وشفتيها اللتين كانتا ذواتي بياض وبرودة شديدين.

بدأت أقول: «ليس لديّ هاتف. . »

غير أنها خرجت مسرعة من الكنيسة، وأغلقت الباب بعناية. وأطعتها،

فمكثت ورجعت إلى المكان نفسه، وجلست، ووضعت يديّ مرة أخرى حيث كانت يداها.

ماذا تراني سأفعل، كيف يمكن أن «أرتّب» نفسي بقية حياتي بعد أن وجدت هارتلي مرة أخرى؟ هل أذهب لأطوف بـ «النيبليتس» مرة كل أسبوع، وأتناول الشاي مع السيد بنجامين ڤيتش وزوجته؟ أم أدعوهما إلى أكلة فول وسجق وإلى شرب الكلاريت (نبيذ فرنسي أحمر) في «شراف إند»؟ أم أصحبهما إلى لندن لمشاهدة استعراض؟ أم أهتم بمستقبل تيتوس؟ أم أرعاهم جميعاً؟ أم أوصي بأموالي لتيتوس؟ أخذ عقلي يتواثب بضراوة، آفاق هائلة تتفتّح، مناطق شاسعة من المستقبل ظهرت إلى الحياة فجأة وسريعة بالإمكانيات، كلها رهيبة. وحدّثت نفسي قائلاً: مبتكراً، ينبغي أن أكون مبتكراً. نظرت إلى ساعتي، كان الوقت قد تجاوز العاشرة بعشرين دقيقة. كل هذا التفكير الرهيب في مثل هذا الوقت القصير! جلست برهة لكي أحسب الزمن الذي يمكن أن تقوم فيه هارتلي بالتسوّق، وأن تعود إلى التل، ثم خرجت من الكنيسة، وجلست على قبر «دامي»، مستنداً على الشاهد الحجري الذي يحمل صورة «المرسى القذر». ومن هناك كنت أستطيع أن أرى، من فوق بعض الأشجار، أسطح الأكواخ، بما فيها الكوخ الأخير، حيث يقيم السيد والسيدة ڤيتش. بائع متجوّل معوق. ما شأنه، أيكون مشلولاً؟ كنت أعرف أنني سأذهب وألقي نظرة على السيد بنيامين ڤيتش، في وقت قريب جداً.

لماذا كانت هارتلي شديدة التردّد، لماذا لم تقل «نعم، تعال لتزورنا» أو «إننا نحب أن تأتي لترانا؟» سلامة العقل تقتضي مثل هذه اللفتات، أياً كان شعورها. الأدب يتطلّبها، وبالأدب يمكن أن ينجو الانسان، ولو في الحاضر على كل حال. أم لعل الزوج المشلول مريض حقاً، رهن المعاناة، شكس، طريح الفراش؟ ولكن أواه، بماذا تشعر هارتلي، ما الذي يجعلها تبدو متوتّرة قلقة بهذا الشكل؟ قد يكون تردّدها في دعوتي إلى منزلها أمراً قابلاً

للفهم حقاً بكل تأكيد. «أنت عظيم وشهير للغاية.» ربما كانت على شيء من الخجل بسبب منزلها وزوجها. هذا لا يعني أنها لا تحبه. ولكن، أتحبه حقاً؟ لا بد أن أعرف ذلك. أهي سعيدة حقاً؟ لا بد أن أعرف. وتلك الفكرة القديمة الفظيعة الحلوة بدأت تراودني الآن: لا بد أنها نادمة كثيراً جداً على ذلك الاختيار الخاطىء. لا بد أنها قضت حياتها نادمة على أنها لم تتزوَّجني. «لقد شاهدتك على شاشة التليفزيون.» ماذا كان وقع ذلك؟ أية آلام ناخرة شعرت بها من الندم عندما رأتني بوصفي من «المشاهير»؟ كيف يمكن أن تعرف أنني ما زلت كما كنت، وأنني ما برحت أفتقدها؟ أم كان لا بد ألا تفكِّر فيّ بوصفي محوطاً بنساء فاتنات، وأنه من المحتمل أنني أمتلك عشيقة دائمة؟ لقد رأت روزينا، ولعلها شاهدت ليزي. وخطر لي فجأة، وكان هذا الخاطر أليماً وعذباً في الوقت نفسه، أنها ربما كانت متردِّدة في رؤيتي بسبب ضروب أسفها: الندم والغيرة وانحراف أحلام يقظتها اللاابجدية. إنها لم تعد تريد أن تعرف شيئاً عما كان من الممكن أن يحدث. أوه، يا إلهي، من تلكم السنوات، حياتنا كلها التي كان من الممكن أن نقضيها معاً! إنها لا تريد... أن تبدأ في حبي... مرة أخرى من جديد...

كان لديّ فعلاً من الغريزة لتمييز الأفكار الخطرة ما يكفي لنبذ هذه الفكرة جانباً، وفيما أنا مستند بظهري إلى سطح الأثر الساخر الذي يضم رفات «دامي»، والذي أدفأته الشمس وتناثرت عليه الأشنة (النباتات المتسلِّقة)، كنت أخطِّط حقاً نوعاً من البرنامج للبقاء. وكان البرنامج على هذا النحو تقريباً: لم يعد ثمة شك في أنه لا بد لي الآن من أن أجاهد على نحو ما لتكريس ما تبقَّى من حياتي لهارتلي (استبعدت بسرعة فكرة أن السيد ڤيتش مصاب بمرض خطير وسيموت قريباً.) وهذا شيء لا يمكن القيام به إلا إذا تقبَّلت زواجها، واستطعت أن أحاول بنجاح بناء صداقة معها، ومعه على سبيل الاحتيال. ذلك أن هارتلي وأنا لا نجدِّد تزاور كل

منا للآخر بوصفنا سائحيْن، هذا شيء خارج الموضوع. وينبغي على الزوج أن يتسامح معي على أقل تقدير. أمن الممكن أن يُسْمح لي بوصفي شخصية مسلّية؟ الحق أنني لا أعبأ بذلك حقاً، غير أن الخيال كان من السرعة بحيث سمعت هارتلي تقول ـ بالفعل ـ لزوجها: «هذا هو تشارلز العجوز العزيز مرة أخرى، إنه لا يستطيع الابتعاد! ـ على حين أنها تشعر ـ بشيء مختلف اختلافاً طفيفاً. وربما أحسَّ الزوج بشيء من الزهوّ وهو يرى أن شخصية من «شخصيات الاستعراض» معجبة بزوجته. ومهما يكن من أمر فإن هذه الاحتمالات كلها لا طعم لها وسابقة لأوانها.

ما ينبغي أن أركِّز عليه الآن هو إمكانية الحب في شكل احترام متبادل نقي عاطفي عميق، وعي بارتباط دائم مطّرد. وبالطبع سيكون، أو ينبغي أن يكون، حباً بيننا، غير أنه حب مُطَهَّر من جنون التملّك، مطهَّر من الذات، يخضعه الزمان ولارجعية مصيرينا للنظام. ينبغي أن نكتشف كيف يمكن في النهاية أن يكون كل منا مطلقاً بالنسبة للآخر، وألاَّ يفقد أحدنا الآخر أبداً بعد ذلك، ودون أن نضع قدماً واحدة في موضع خاطىء، أو أن نسقط قطرة واحدة من إناء الحقيقة والتاريخ الذي امتلأ لحافته ونمسك به بنزاهة بيننا. سأحترمها، سأحترمها، أخذت أردِّد ذلك لنفسي. وأحسست بحنان نحوها كان عميقاً وصافياً، معجزة للحب حفظها الله، بأي نقاء يتدفَّق ذلك النبع من الماضي البعيد! أجل، يجب علينا أن نلملم ماضينا بهدوء، نجمعه بفهم صامت، دون أي احتداد أو دراما، نلوم أنفسنا ونبرِّئها في تمييز. وما أعجب ما يبدو عليه إمكان هذه العملية الصامتة من التكفير عندما عاودت التفكير في محادثتنا القصيرة الحارة، وإن تكن رقيقة، التي دارت في الكنيسة؟ أكان ذلك هو ما يكون عليه لقاء الحب العظيم في حياة الانسان مرة أخرى بعد كل تلك الأعوام؟ أَوَلم يكن كل منا بالنسبة للآخر ذلك المخلوق البريء الخجول المباشر الذي كان عليه ذات مرة؟ إن طبيعة محادثتنا لم تفسد أبداً، وما زالت نغمتها

مسموعة لا تخطئها الأذن في تلك المحادثة الرعناء. ربما تمكَّنت حقاً، من خلالها، ومن خلال حبنا الطفولي القديم، الذي أصبح الآن طاهراً بلا أمل في علاجه ـ ربما تمكَّنت من أن أصبح ما تمنيت أن أصير إليه عندما جئت من بعيد إلى البحر، طاهر القلب.

والسؤال: هل هي أرملة؟ بدا فعلاً أنه ينتمي إلى الماضي البعيد، إلى نهج في التفكير، تلاشى وصار عتيقاً تماماً. والسؤال الذي أصبح الآن رغم برنامج البقاء العقلاني الذي كنت أعزِّي به نفسي ـ معرضاً لخطر أن يصير عاجلاً بصورة مضنية ـ هو: **هل هي سعيدة؟** وللإجابة على ذلك، كان من الضروري القيام بفحص السيد ڤيتش. وفضلاً عن ذلك، كان الانتظار مستحيلاً تمام الاستحالة. وعندما سرت متمهِّلاً صوب «شراف إند» فكَّرت: لا بد لي اليوم من رؤية السيد ڤيتش، سأقوم بزيارتهما حوالي الساعة السادسة هذا المساء.

ولم يخطر ببالي قبل أن أدق جرس الـ «نيبليتس» بالفعل، أن أتساءل: ألم تخبر هارتلي زوجها فعلاً بشيء عني على الإطلاق طوال تلك السنين!

الـ «نيبليتس» عبارة عن بانچالو مربَّع صغير مشيَّد بالطوب الأحمر الذي استحال جزئياً ـ وفي شيء من الرحمة ـ إلى اللون الأبيض. وبلا أية مصالحة، يجثم فوق التل، مع مجموعة من الأشجار التي أضنتها الرياح تنتصب في مواجهته، وبجانبه ينحدر السفح نحو القرية، وخلفه ينحدر السفح صوب البحر، وبعده وفوقه، تنبسط الغابة. كان الجو المحيط به صلباً متصلِّباً. قد تشيَّد المنازل الأخرى فوق الرمال، أو حتى قد تُبْنى بالرمال، ولكن نيبليتس ليس من هذه الشاكلة. قوالب الطوب الأحمر حادة غير مشطوفة، لم تنل التعرية والتآكل من أركانها شيئاً. ولا وجود لطحالب على السطح، وينتاب المرء شعور بأن شيئاً منها لن ينمو أبداً هناك. ويؤدِّي ممر من القرميد الأحمر يغمره الضوء أيضاً إلى الباب الأمامي بين أحواض من شجيرات الورد الصغير الشائك في أول ازدهاره. وثمة كتلة مشوَّشة من

الياسمين البرِّي تنمو فوق أحد الأعمدة الخشبية القائمة في الرواق (المدخل المسقوف)، وتخفِّف في شيء من الرشاقة الباب الأزرق الأمامي المغطَّى بطلاء كثيف جداً، وغاية في اللمعان. وللباب لوح بيضاوي من الزجاج المعتم المضفر الذي يبدو وكأنه يزحف أمام الأعين. ولا يخلو النيبليتس من السحر، فهو بانجالو بديع له طابع بيتي دافىء بلونه المائل إلى البياض المتحفِّظ الذي تناثرت فيه البقع، وببابه المشرق الذي وشيت حوافه بالزهور. وهناك في الداخل أربع حجرات رئيسية: حجرة الجلوس، وحجرة مشتركة تجمع بين المطبخ وحجرة الطعام، وكل منهما في الخلف حيث تنحدر مرجة يغمرها منظر البحر. غير أنني أسبق الأحداث.

أصبح اليوم حاراً، فارتفعت درجة الحرارة إلى ثمانين درجة (فرنهايت) في الأصيل، وما زال الجو يتوهَّج بالحر. ومن سفح التل، يستطيع المرء أن يشاهد أراضي الخليج البعيدة رابضة في غيمة حرارية ذات لون بنيّ فاتح. وكانت صفحة البحر الواسعة تتوهَّج بالأزرق الباهت مع أنواع من السراب الفضيّ وشرائط الضوء. وفاح من الورود المتزاحمة أريج ساخن. والجرس الذي ضغطت عليه حين خَطَر على بالي فجأة أن السيد ڤيتش قد لا يكون عالماً بأنني أعرف زوجته، وأن هذا هو ما يبرِّر ما كانت فيه من هلع ـ هذا الجرس كان عذباً بشكل لافت للنظر، وكأنه شوكة رنَّانة دقَّت لجوقة من الملائكة. وسُمِعت في الداخل على الفور أصوات خفيفة. وبعد هنيهة، فتحت هارتلي الباب.

تلقَّيت مرة أخرى صدمة مظهرها المتغيِّر، منذ أن أصبحت في فكري المكثف المعتزّ بها ـ شابة مرة ثانية، قبل أن ألمح على محيَّاها نظرة خوف تلاشت في التوّ واللحظة. ثم لم أستطع أن أرى شيئاً خلا عينيها الواسعتين، وقد غشيهما لون بنفسجي زجاجي وكأنها تنظر إلى ما ورائي. شعرت بالدم يتصاعد إلى وجنتيّ، وامتدَّت الموجة الحمراء اللعينة إلى عنقي ووجهي كله.

تعمَّدت ألاّ أُعِدّ شيئاً لقوله. قلت: «أرجو المعذرة، كنت ماراً في هذه الناحية، عائداً من مِشية، فخطر لي أن أقوم بالزيارة لحظة.»

وأتيح لي وقت للتفكير قبل أن تجيب: كان ينبغي عليّ أن أدعها تتكلَّم أولاً! لو أنها لم تخبر زوجها عني حقاً، فمن الممكن أن أتظاهر بأنني أبيع فُرْش الأسنان. وكنت أرتدي الجينز مع قميص أبيض نظيف، وسترة قطنية حائلة اللون، ولكنها محترمة. حاولت النظر في عينيها، غير أن هذا كان محالاً، وقد ولّى الخوف أو ما كانت تشعر به.

لم تقل شيئاً لي، ولكنها التفتت لتتكلَّم في المنزل. ويبدو أنها قالت.. «إنه هو..» وفيما كانت تتكلَّم حرَّكت الباب وتركته موارباً في وجهي، وظننت ـ لحظة ـ أنها سوف تغلقه ببساطة.

وصدر صوت قوي من الداخل، ربما كان مجرَّد «أوه».

فانفتح الباب على مصراعيه مرة أخرى، وابتسمت هارتلي في وجهي: «أدخل، لدقيقة واحدة.»

مسحت قدميّ على الممسحة الخشنة البرتقالية الكبيرة النظيفة، وخطوت داخل القاعة وقد غشيت عيناي من تغيّر الضوء.

على طول الطريق من «شراف إند»، وطيلة اليوم كله منذ أن عزمت على زيارة هارتلي، أحسست بأنني سقيم من الانفعال، سقيم بخليط من الإثارة الجسمية المبهمة والخوف المصفّى الذي يشبه ما تعوَّدت على الشعور به (وإن كان هذا أسوأ) عندما قفزت إلى الماء من فوق منصَّات عالية جداً في كاليفورنيا للتأثير على فريتزي. لم أكن أستطيع الآن أن أبصر هارتلي على الوجه الصحيح في العتمة الفجائية التي سادت في الداخل، غير أنني أحسست بحضورها كأنه مغناطيسية عنيفة منتشرة تغمر المنزل كله، وكأنما هارتلي هي المنزل، وكأنما اجتاحني شيء داخل كهف احتضنني فيه دون أن أستطيع لمسها. والحق أن استحالة لمسها جعلت جسدي كله يهتزّ بنوع من

الكهرباء السالبة. وفي الوقت نفسه كنت في وعي يورث السقم بزوجها الخفي. وكنت قد تخيَّلت بوضوح، وتخيَّلت من جديد مسبقاً لحظة الوصول، ودق الجرس، والالتقاء بالسيد ڤيتش، وبدا هذا كله مسبقاً أشبه بالغوص في المجهول، فيما لا رجعة منه. كل ما في الأمر أنه ثبت الآن أنه قفزة بطيئة معذِّبة، وكأن الماء الذي اتجه نحوه يتراجع، ليتركني أسقط ببطء في الهواء.

تركتني هارتلي فعلاً واقفاً في الصالة، وعادت إلى إحدى الحجرات طلباً لاستشارة مهموسة، وقد أغلقت الباب تقريباً. كانت الصالة ضيِّقة. وأصبحت الآن في وعي بمائدة أشبه بالمحراب وعليها إناء للورد، وفوقها لوحة بنّية مطبوعة لفارس من القرون الوسطى. ظهرت هارتلي، وفتحت باباً آخر على مصراعيه، وتقدَّمتني إلى حجرة خاوية اكتشفت أنها حجرة الجلوس. قالت: «أنا متأسِّفة فنحن في منتصف الوقت الذي نتناول فيه الشاي، سنلحق بك بعد لحظة.» ثم تركتني مرة أخرى وهي تغلق الباب.

أدركت الآن مدى خطورة مسلكي، ومدى حماقتي. الساعة السادسة تعني بالنسبة لي تناول المشروبات. وتخيَّلت أنه وقت معقول وإنساني للزيارة. والواقع أنني قطعت عليهما وجبتهما المسائية. ولتزجية هذا الفاصل المخيف تجوَّلت بعينيّ في الحجرة. كانت هناك نافذة رحبة مقوَّسة بإفريز ضخم شبه دائري مطلي باللون الأبيض يطلّ على منظر جزئي للقرية، وعلى منظر كامل للميناء والبحر. وعلى الإفريز بجوار إناء كبير للورود نظارة ميدان تبدو غالية الثمن. وكان البحر يتلألأ في الحجرة كمرآة مطعَّمة بالصدف تشعّ بضوئها الصافي الخاص. هذا الضوء أثارني وأزعجني، وأغشى بصري بحيث لم أستطع أن أتبينَّ ما حولي إلا في عناء شديد. وكانت تحت قدميّ سجادة سميكة، والحجرة حارة خانقة تفوح منها رائحة الورد على نحو مفرط.

أقبلت هارتلي يتبعها زوجها. ولأول وهلة في هذه الرؤية المنبهرة لڤيتش

كان يبدو صبيانياً بديناً. كـان أقرب للقِصر والاكتنـاز وله نـظرة صبي أشبه بـالرصـاصة، مـع عنق غليظ، وشعـر قصـير كشعـر الفئـران. ولـه عينـان عسليتان داكنتان ضيّقتـان، وفم شهواني واضـح المعالم، وأنف بـارز صقيل بفتحتين واسعتين متـوهّجتين. أمّـا كتفاه فكـانتا عـريضتين تنـمّان عن القوّة. وإذا كان مشلولاً، فإن ذلك لم يكن ظاهراً بكل تأكيد. أقبـل عليّ مبتسـماً. فقـابلته بـابتسامـة عريضـة، وأنا أطـرف قليلاً بعينيّ، وتصـافحنا تلقـائياً. «مسرور لرؤيتك.» «أرجو ألاّ تزعجك زيارتي؟» «كلا، على الإطلاق.»

وهارتلي التي كانت ترتدي شيئاً أزرق لعله «أوفـراول» (عفريتـة) عندمـا فتحت البـاب، انكشفت الآن في ثـوب قـطني أصفـر مـع صـديـري ضيِّق وتنورة واسعة. كانت تتحرَّك في الحجرة بعصبية دون أن تنظر إليّ. «أوه، يا عزيزي، يجب أن أفتح نافـذة. كم تبدو هـذه الحجرة خـانقة! ألا تتفضَّـل بالجلوس؟»

جلست ـ أو بالأحرى انغرست ـ في مقعد مخمليّ خفيض ذي مساند.

قالت هارتلي لڤيتش: «هل نحضر وجبتنا إلى هنا؟»

فقال: «ولِمَ لا؟»

عـادت هارتـلي إلى المطبـخ حيث كان من الجـلي أنهما يأكـلان، ورجعت بصحنين، على حين سحب ڤيتش منضدة مـطوية من الجـدار، وبسطهـا في شيء من التردّد على السجـادة السميكة. ونـاولت هارتـلي الصحنين لڤيتش الـذي وقف ممسكاً بهـما بينما أخـذت هي تبحث عن الأقراص السميكـة التي تـوضع عـلى المائـدة لتضع عليهـا الصحـنين. ثم وضـع الصحـنين وفـوقهـما السكـاكـين والشَّـوَك، ثم أحضرت طبقـاً من الخبـز، وسحبت المقـاعـد المستقيمة الظهر عبر السجـادة الصامـدة، وجلس ڤيتش، والمقعدان ملتفتـان نحوي قليلاً حتى أشعر بالارتياح. وكانـا يأكـلان لحم الخنزيـر والسلاطـة، ولكن أصبح الآن من الواضح على الفور أن استئناف الأكل مستحيل.

قالت هارتلي لي: «أتحب أن تأكل شيئاً؟»
- «أوه، كلا، شكراً. لن تستغرق زيارتي سوى لحظة. أنا شديد الأسف، أرى أنني أزعجتكما...»
- «كلا على الإطلاق..»

ولم يتفوَّه ڤيتش بشيء، ولكنه نظر إليّ بعينيه القاتمتين الضيِّقتين وبسط منخريه فتحوَّلا إلى فجوتين عظيمتين، وكان فمه الواسع في حالة سكونه وارتخائه يبدو مُنْذراً.

ويبدو أن المفاجأة أو ربما كان الضيق المتهيِّج قد حرمهما من القدرة على المحادثة، ومن ثمّ فقد تخبَّطت بسرعة لأجد موضوعاً يصلح لمواصلة الحديث. وقرَّرت الانصراف بعد أقصر تبادل مهذَّب ممكن.

- «يا له من منظر بديع هذا الذي لديكما!»
- «أجل، أليس كذلك، لقد حصلنا على المنزل من أجل هذا المنظر حقاً.»
- «إن منزلي يشرف على الصخور وعلى البحر. وهذا جميل بالنسبة للسباحة. أتسبحان كثيراً؟»
- «كلا، إن «بن» لا يستطيع السباحة.»
- «إني أحبّ نافذتكما الرحيبة، تستطيعان أن تشاهدا كل ما حواليكما.»
- «أجل، إنها بديعة، أليس كذلك.» وأضافت قائلة: «إنه منزل أحلامنا.»

سأل ڤيتش: «ألديك كهرباء؟» وكان صامتاً قبل ذلك. عددت هذه ملاحظة ودية: «كلا. أما أنتما فلديكما، أليس كذلك؟ هذه نعمة لا ريب. وأنا أسيِّر أموري بمصابيح الزيت وغاز الكالور.»
- «ألديك سيارة؟»
- «كلا. ألديك أنت؟»

ـ «كلا. ما الذي أتى بك إلى هذا الشطر من العالم؟»

ـ «حسناً، ليس هناك سبب خاص. صديقة لي وصفته، وقد نشأت بالقرب من هنا، فأردت أن أتقاعد على مقربة من البحر، كما أن المنازل هنا أرخص من. . .»

وقال ڤيتش: «إنها ليست بالرخص الذي تتصوَّره.»

كل هذا بينما كانت الأشياء المرئية المحيطة بي ـ الآن بعد أن اعتدت على الضوء ـ تطبع نفسها على ذاكرتي بحدّة الصورة وسلطانها. وكنت على وعي بساقيّ الممتدّتين في شيء من الارتباك، ووجهي الذي ما زلت أشعر باحمراره، وخفقان قلبي السريع، والجو الخانق الذي يسوده شذى الورود بحيث يبدو أن النافذة المفتوحة لم تؤثر على الإطلاق، وبإحساسي بأنني في وضع مهين (غير مُؤاتٍ) بجلوسي في مقعد منخفض. فاستغرقت في تأمّل التصميم النباتي البني والأصفر المرسوم فوق السجادة، ولون ورق الحائط البني الفاتح، والقرميد الأوكر البرّاق الذي يحيط بالمدفأة الكهربائية الموضوعة في الجدار. وعلى جانبي المدفأة عُلِّقت لوحات نحاسية عليها رسوم بارزة تمثِّل كنائس. وكان على السجادة بساط مضحك أشعث يضع مصاعب إضافية لإحدى قوائم المائدة. وكان هناك تليفزيون ضخم تعلوه كمية زائدة من الورود. ولا وجود لأي كتب. وكانت الحجرة غاية في النظافة وحسن الترتيب، وربما كان الأمر كذلك لأن الحياة كانت تجري في المطبخ، فيما خلا أوقات مشاهدة التليفزيون. والعلامة الوحيدة التي تدلّ على وجود سكان كانت موجودة على أحد المقاعد، وهي عبارة عن كتالوج بريدي لامع، ومنفضة رماد تضم غليوناً.

وحول المائدة كانت هارتلي وڤيتش يجلسان متصلّبين عموديين كأنهما زوجان رسمهما مصوِّر بدائي. كان هناك شيء بدائي بوجه خاص في الخطوط الواضحة والسطوح المحدّدة في وجه ڤيتش الغريب وإن لم يكن منفّراً تماماً. أمّا وجه هارتلي فربّما كان في رؤيتي الخجول العابرة له

فحسب أكثر ضبابية وقلقاً، بدر ناعم من البياض ذو عينين محتجبتين. لم أكن قادراً على النظر إلا إلى ثوبها الأصفر المسترسل، بياقته المستديرة وهو أشبه برداء ليلي، تتناثر فيه زهور بنّية صغيرة من أوله إلى آخره. وكان ڤيتش يرتدي حلّة رخيصة وسترة وسراويل مقلّمة زرقاء فاتحة مقلّمة بخط بنيّ رفيع. وكانت المشابك ظاهرة من خلال السترة التي لم تزرّر، والتي من المحتمل أن يكون قد ارتداها عندما أُعْلن عن قدومي. وكان قميصه الأزرق نظيفاً، وسوَّت هارتلي موجات شعرها الرمادي إلى أسفل، ثم رفعتها إلى أعلى. أحسست بأنني سقيم من جراء العاطفة والحرج والخجل والرغبة في الابتعاد لكي أقدِّر ما يفعله هذا كله بي.

- «هل أقمت هنا طويلاً؟»

قال ڤيتش: «سنتين.»

قالت هارتلي: «وما زلنا مستقرّين فيه حقاً.»

قال ڤيتش: «لقد شاهدناك في التليفزيون. وكانت ماري منفعلة. إنها تتذكّرك.»

- «أجل، بالطبع، إنها تتذكّرني من المدرسة، طبعاً...»

- «نحن لا نعرف أحداً من المشاهير، وكان في هذا من الإثارة ما فيه، إيه؟»

وللإفلات من هذا الموضوع البغيض قلت: «أما زال ابنك في المدرسة؟»

قال ڤيتش: «ابننا؟»

فقالت هارتلي: «كلا، لقد ترك المدرسة.»

قال ڤيتش: «إنه ابن بالتبني، فلتعلم ذلك.»

وقبل هذا كانا يعبثان بشوكتيهما من حين إلى آخر، وهما يتظاهران بأنهما يهمّان بالأكل. والآن وضع كل منهما شوكته أمامه. ولم يكونا ينظران إليّ، وإنما إلى السجادة بالقرب من قدميّ. وحدجني ڤيتش بنظرة عارضة، وقرّرت أن الوقت قد حان للرحيل.

ـ «حسناً، هذا كرم منكما أن تسمحا لي بزيارتكما. ولا بد أن أنصرف الآن. آسف، لأنني قطعت وجبتكما. أرجو أن تأتيا لزيارتي قريباً. ألديكما هاتف؟»

قال ڤيتش: «نعم، ولكنه عاطل عن العمل.»

ونهضت هارتلي في شيء من التعجّل. فنهضت وتعثَّرت في البساط البالي.

ـ «يا له من بساط بديع!»

قالت هارتلي: «أجل، إنه بساط عتيق.»

ـ «ماذا؟»

ـ «بساط عتيق، يقوم بن بصناعتها.» وفتحت باب حجرة الجلوس.

ونهض ڤيتش على نحو أبطإ، وعندما أخذ يتحرَّك الآن، واقفاً إلى جانبي لمرافقتي خارج الحجرة، رأيت أنه مبتور الساق. قال: «تقدَّم أنت أولاً، لأن لديّ ساقاً صناعية. جرح قديم بسبب الحرب.»

قلت أثناء اجتيازي للصالة المعتمة متجهاً صوب الإشراق المتوهّج للمرآة البيضاوية الموجودة على الباب: «طيب، يجب أن نكون على اتصال، أليس كذلك؟ وأرجو أن تأتيا معاً لنتناول مشروباً، ولتشاهدا منزلي المضحك و...»

وفتحت هارتلي الباب الأمامي على مصراعيه.

قال ڤيتش: «وداعاً، وشكراً على الزيارة.»

كنت على الممر المغطَّى بالقرميد الأحمر عندما أغلق الباب. وما إن أصبحت خارج الرؤية حتى شرعت في الجري. وبلغت شارع القرية لاهثاً، ثم طفقت أمشي متمهِّلاً على طول ممر السابلة الذي يؤدِّي إلى طريق الساحل. وفيما كنت سائراً بدأت أعاني من إحساس غريب غير مريح في ظهري كنت أستطيع تحديده ـ وسط كل الانفعالات والأحاسيس الضارية

التي تدافعت داخل نفسي ـ بوصفه الإحساس بأنني مُـرَاقب. وكنت على وشك الانعطاف إلى طريق آخر عندما خطر لي أنني الآن داخل مجال المنظر الذي يشرف عليه النيبليتس، وفي نطاق الرؤية الذي يخضع لنظارة ڤيتش القوية للميدان، لو أنه اهتمّ بالجلوس على إفريز النافذة وأراد التأكّد من رحيلي. وكانت أجزاء من شارع القرية مكشوفة بوضوح للنيبليتس، وإن كانت الكنيسة وفناؤها تحجبهما الأشجار. إذن، فقد كان هذا هو تفسير الارتباك الذي بدا على هارتلي، وتفكيرها بأن ڤيتش ربما شاهدني ألتقي بها بالفعل وأصحبها صوب الكنيسة؟ وتذكَّرت الآن أنها كانت تسير خلفي وليست إلى جواري. ما أغرب ما يتبدَّى عليه منظرنا: أنا بوصفي أورفيوس Orpheus المتيَّم، وهي بوصفها إيوريديس Eurydice المنبهرة! ومع ذلك، لماذا ينبغي أن تخاف من أن تُرى أثناء مقابلتها لشخص ما في الشارع، حتى لو كان هذا الشخص هو أنا؟ ومضيت في طريقي سائراً بنشاط وأنا أقاوم الاغراء الحالي بالنظر إلى الوراء، وسرعان ما ألفيت نفسي وسط الأشجار التي توقَّفت عن النموّ وآجام الجوْلَق والصخور البارزة القريبة من الطريق، الخارجة عن مجال رؤية التل. وكان الطقس ما زال شديد الحرارة. فخلعت سترتي، وكانت مبلَّلة عند الإبطين بلطخ قاتمة من العرق الذي أفرزه القلق، كما لطَّخت الصبغة قميصي.

ثم أخذت أتساءل عن أمور عديدة، بعضها مباشر جداً، والبعض الآخر قصي جداً وميتافيزيقي. هناك أولاً ذلك السؤال الذي سألته لنفسي مؤخراً عندما كنت أدقّ الجرس. من الجلي أن هارتلي أخبرت زوجها بأنها كانت تعرفني، ولكن متى أخبرته وكيف، ولماذا بالتأكيد؟ هل كان ذلك منذ أعوام وأعوام خلت عندما التقت به أول مرة؟ أم بعد زواجهما؟ ومتى شاهداني في التليفزيون؟ أو حتى عندما عادت إلى المنزل هذا الصباح بعد لقائنا في الشارع؟ «أوه، لقد التقيت لتوّي بشخص كنت أعرفه، يا لها من مفاجأة!» ومن الممكن أن تتذكَّر بعد ذلك أنهما شاهداني في التليفزيون.

ولكن كلا، هذا تبرير محكم. لا بد أنها أخبرته قبل ذلك بكثير، ولكن، لماذا لا تخبره بحق السماء: أكنت أريد منها أن تحتفظ بي سراً؟ كما حَرَصْتُ أنا حقّاً على الاحتفاظ بها سراً... لماذا فعلتُ ذلك؟ لأنها كانت شيئاً مقدَّساً يمكن أن يدنّسه أي حديث. أما من حيث أنني لم أذكر هارتلي أبداً لأي انسان، فهذا أمر ندمت عليه دائماً. لم يفهم أحد، وما كان لأحد أن يستطيع الفهم. خير من ذلك عقم الصمت الزاهد في الحديث. ومن فظائع الزواج أنه يفترض في الشريكين أن يخبر كل منهما الآخر بكل شيء. «إنه هو»، من الجلي أنهما كانا يتحدَّثان عني اليوم. وكرهت هذه الفكرة، أن يكونا قد تحدَّثا عني طوال تلك السنين، ورفضاني، وحطّا من قدر الحكاية كلها، ومضغاها كلها لتستحيل نوعاً من القوت الزوجي القابل للهضم. «ذلك التلميذ المعجب بك قد صنع بنفسه خيراً!» وفيتش يدعوها باسم «ماري». أجل، فهذا اسمها أيضاً. غير أن «هارتلي» هو اسمها الحقيقي. وعندما اختارت أن تنبذه، هل كانت تنبذ ماضيها عامدة متعمِّدة؟

وعندما وصلت إلى البيت كان يبدو مظلماً، على الرغم من انتشار النور في الخارج، كما كان بارداً رطباً، على نقيض حرارة الشمس. صببت لنفسي كأساً من الشيري، وأخذته إلى مرجتي الصغيرة المحوطة بالصخور خلف المنزل، وجلست على البساط الذي فرشته على المقعد الصخري بجوار الحوض حيث وضعت الأحجار. ولكن، لم يكن من المحتمل - في الحال - ألَّا أرى الماء، ومن ثم فقد تسلَّقت قليلاً، ممسكاً بكأسي في رشاقة، وجلست على قمّة صخرة. كان البحر بنفسجياً ضارباً إلى الزرقة، وهذا لون عينيْ هارتلي. يا إلهي، ماذا أنا صانع بهذا كله؟ مهما حدث، فلا بد أن أحاول تجنّب العذاب. ولكن، لكي لا أتعذَّب فلا مناص من وجود وضعينْ متنافرين للأمور: ينبغي عليّ أن أنجح في إقامة علاقة دائمة وطيدة، ووثيقة على نحو ما مع هارتلي، كما ينبغي عليّ أيضاً أن أتحاشى

دخـول جحيم الغيرة، وكـذلك ينبغي عـليّ طبعاً ألاّ أعكِّـر صفو زواجهـا. ومع ذلك لماذا «طبعاً»؟..

كلا، كلا، لا أستطيع، ولا ينبغي أن أفكِّر في إفساد زواجها. مثل هذه المحاولة شيء لاأخـلاقي لا ينبغي التفكير فيـه، وما من سبب يـدعوني إلى تخيّل أنني سأنجح بالضرورة إذا حاولت! في هذا الـطريق يكمن الجنون. لم أتخيَّل وأنا أنظر إلى هذين الزوجين أن بريق «الشهرة» يمكن أن يستحضر به المـرء شيئاً. وهـذا جعلني أفكِّر كيف كـانت هارتـلي «تنـظر»، تلك النـظرة الهـائمة الـذاهلة التي تتجاوز بهـا دائماً مَنْ تنـظر إليه. وقـد سمحت لنفسي أحيـانـاً بـترف التفكـير في نـدمهـا. لعلهـا شعـرت بـالنـدم. ولكن الآن ـ الشخص الذي أحببته، والذي أحبه الآن ـ ليس من الغباء بحيث تبهره «الشهرة». إذن، لو أنني كنت أفتِّش عن تصدّعات في البناء... بالطبع أنا لم أكن أفعل ذلك، وإنما كنت أحاول الفهم. وبإمعان النـظر، لم أتمكَّن من إدراك le mari (الـزوج) إلا قليـلاً. كنت أتـوقَّـع ـ كـما أدركت الآن ـ شخصـاً صغيراً تـافهاً. ليس من شـك أنني تطلَّبتُ وأردتُ شخصـاً صغيراً تـافهاً. غـير أن ڤيتش لم يكن تافهـاً على نحـو ما دون أن أعـرف لماذا. من يكون؟ ماذا يجري داخل هذه الحاوية المختومة لهذا الزواج؟ هل من الممكن أن أعرف على الإطـلاق؟ ولم يسعنِي إلا أن أشعر بشيء من السرور ـ عـلى الأقل ـ لأن تيتوس كان ابنهما بالتبني.

كل هذا يعود بي الآن إلى السؤال الأساسي: **هـل هي سعيدة؟** طبعـاً أنا أعــرف مـا يكفي عن أسرار الـزواج لكي أدرك أن هـذا السؤال يمكن أن يكـون سطحيـاً إذا سألـه المرء عن شخص متـزوِّج. فمن الممكن أن يستقر الناس في طرائق من الحياة تستبعد السعادة المتصلة، ولكنها يمكن أن تكـون مُرْضية، وأن تكون أفضل من أيـة بدائـل. وهناك عـدد صغير من الأزواج تتزايد سعادة كل منهما بالآخر، وتشعّ منهما السعادة. سيدني وروزماري آش يشعّان بالسعادة. ومن المؤكد أنه لا يوجد مثل هـذا الإشعاع في النيبليتس،

وإن كان لا بد ـ بالطبع ـ من أن أضع في اعتباري الجرح الذي سبَّبته بظهوري المباغت. كان هناك حرج غامض السبب. ومن المؤكد أنهما لو كانا يرتعان في السعادة معاً، فمن الغريزي أن يرغب كل منهما في عَرْضِ هذه السعادة للغريب المتطفِّل؟ الزوجان السعيدان لا يسعهما إلاَّ عَرْض سعادتهما. سيدني وروزماري يفعلان ذلك طيلة الوقت. وكذلك يفعل ڤيكتور وجوليا. ومع ذلك لا يؤدِّي هذا كله إلى نتيجة قاطعة. الشيء الواضح ـ وهذه الفكرة هي التي منعت حقاً ذلك الألم الرهيب من الابتداء ـ هو إنه لا بد من أن أرى هارتلي عاجلاً مرة أخرى، وحدها ـ إن أمكن ـ واستخلاص صورة أوضح عن الموقف.

وما إن بدأت الشمس في المغيب، والبحر في التحوّل إلى ذهب تحت سماء خضراء شديدة الشحوب، حتى وضعت كأسي الفارغة في فجوة، وزحفت صاعداً إلى صخرة أعلى أستطيع منها أن أشرف على صفحة الماء كلها. وفي الضوء المتوهّج، وإن يكن مشكوكاً في أمره، ألفيت أنني أفحص المنظر الآن، بغتة، وأراقبه في تركيز شديد. ما هذا الذي كنت أبحث عنه؟ كنت أبحث عن وحش البحر.

قبل الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي كنت أدخل الكنيسة. وكنت قد وصلت إليها عن طريق ملتوٍ، تسلَّقت فيه الصخور أولاً على الجانب الآخر من الطريق، ثم انحرفت بعيداً خلال شجر الجولق في اتجاه «فندق الغراب الأسحم»، عابراً المستنقع على الجانب المتجه إلى البحر من «مزرعة آمورن» Amorne Farm، فقطعت ثلاثة حقول، وثلاث أجمات شائكة، مقترباً من «نارودين» من داخل القرية على طول الطريق الرئيسي. وبهذه الطريقة لم أدخل في أي نقطة في مجال رؤية «النيبليتس». وحاولت ألاَّ أشعر بالتأكّد من أن هارتلي ستأتي إلى الكنيسة؛ على كل حال، كنت قد قرَّرت أنها كانت المكان الوحيد الخليق بالجلوس فيه للمراقبة، إذ لم يكن من المحتمل أن تسير متجهة إلى «شراف إند». وبالطبع، لم يكن فيها

أحد، وإن كان قد زارها شخص ما منذ أمس، ووضع على المحراب زهرية كبيرة تفوح برائحة الورود البيضاء التي أثارت في نفسي الاضطراب بكل ضروب الهواجس العميقة المشوّشة التي لم تتبلور في تصورات محدّدة. وقد عانى الزمان اضطرابات عميقة، وكنت أستطيع الشعور بكل أنواع الرماد المظلمة المتخلّفة عن الماضي البعيد وهي تمور وتشرع في التحرّك صاعدة صوب السطح. جلست شاعراً بالغثيان، وأخذت أقرأ الوصايا العشر التي كانت منقوشة بوضوح على لوح بنيٍّ خلف الورود، محاولاً ألّا أنتبه انتباهاً خاصاً إلى الوصيتين العاشرة والسابعة، ومحاولاً في كل لحظة انتظار هارتلي. وكانت الشمس المشرقة تلتهب في الداخل من خلال النوافذ الزجاجية الطويلة ذات اللون الأخضر الباهت الموجودة في الكنيسة وقد جعلت القاعة الكبيرة تبدو سحرية غير مريحة، وهذا هو ما كانت عليه في واقع الأمر. وكانت هناك مقادير كبيرة من الغبار تتحرّك في كسل وتراخٍ في أشعة الشمس، وامتزج أريج الورود بالغبار وبرائحة خشبية عتيقة بالية، وبدا المكان خاوياً لا يتردّد عليه أحد، وعلى شيء من الجنون. ولكنه كان يبدو بقعة ملائمة لمقابلة لحظية غريبة. أحسست بالخوف. أكنت خائفاً من فيتش؟.

انتظرت في الكنيسة أكثر من ساعة. أخذت أذرعها جيئة وذهاباً. قرأت كل اللوحات التذكارية بعناية، تشمّمت الورود. طالعت مقطوعات من الكتاب الجديد الرهيب للصلوات (لا عجب في أن تكون الكنائس خاوية على عروشها!). وفحصت الوسائد ومساند الأقدام المطرّزة التي قامت بصنعها السيدات المحليات، صعدت إلى المقصورات، وأطللت من النوافذ. وفكّرت في «دامي» المسكين الذي يرقد في فناء الكنيسة الذي لم يعد الآن أكثر صمتاً ممّا كان. وفي حوالي الساعة العاشرة والثلث قرّرت الخروج إلى الهواء الطلق. كان الأمر كله غلطة كبيرة، أن أختفي في الكنيسة على حين تسير هارتلي علناً في الشوارع. كنت أشتاق إلى رؤيتها إلى درجة أنني كدت أتأوّه بصوت مرتفع. هرعت خارجاً، ونزلت خلال البوابة

الحـديديـة، وجلست على مقعـد أستطيـع منـه أن أرى شـطراً كبيـراً من الطريق، ولكن دون أن أكون مرئياً من التل. وبعد دقائق قليلة لمحت امرأة تشبه هارتلـي تزحف بمحاذاة الجدار في الجانب البعيد من الشـارع، سائـرة في اتجـاه المتجر. وأقـول «تزحف» لأن هـذا كان جـزءاً من رؤيتي الأولى لها بوصفها امرأة عجوزاً، قبل أن أعرف من تكون، وكانت صورة هذه «المرأة العجوز» هي ما أراه الآن. وثبتُ من مقعدي وانطلقت في أعقابها. وما إن عـبرت الطـريق حتى استـدارت قليـلاً وأبصرتني، فـأسرعت في مشيتهـا. كانت هارتلي بعينها، وكانت تهرب مني! لم تدخل إلى المتجـر، بل انـدفعت بـرشاقـة داخل مـا كنت أسمِّيه «شـارع مخازن الصيـادين». وعندمـا بلغتُ الناصية ركضاً، لم أجد لها أثراً. ودخلت مخـازن الصيادين، ولكنهـا لم تكن هنــاك. وأردت أن أصرخ من الحنق. ركضت حتى نهايـة الـطريق الـتي تتلاشى في بضعة أكواخ قلائل مهجورة وبوابة ذات قضبـان خمسة، ومـرجة كبيرة تُوَشِّي حواشيها الأشجار. لم تكن تستطيع أن تجتاز هذه المرجة. أتراها دخلت منزلاً من المنازل؟ رجعت على أعقابي ركضاً، ثم لمحت ممشى صغيراً يؤدِّي إلى الشـارع، شقّاً ضيِّقـاً لا تـدركـه الشمس بـين جـانبي منـزلـين. اقتحمتـه هرولـة، وتعثرت في الحصى المنتشر، وانعـطفت بـزاويـة حـادة في مكان مربَّع محاصر بـين الجدران البيض المنخفضـة التي تحيط بالأفنيـة حيث تتناثر صناديق القمامة وعلب الكرتون، ودرَّاجة مهجورة. وهناك وسط هـذا المشهـد وقفت هارتـلي، بلا حـراك. كـانت تقف خلف نتـوء منخفض من الصخرة الصفراء البرَّاقة التي تحيط بمنزلي.

نظرت إليّ بنوع من الهـدوء المستسلم الذي يشبـه الدخـول في غيبوبـة، محملقـة دون أن تبتسم، ومع ذلـك كنت أستطيـع أن ألمح أنها تـرتجف في داخلهـا كالفـريسـة. وسقط ظـل أسـود لجـدار عـبر الفنـاء، بحيث شَـطَر الصخرة، وقام بتركيب الصورة، مغطِّياً قـدميْ هارتـلي عندمـا وقفت هناك ممسكـة بسلّة وبحقيبة يـدها. كـانت ترتـدي اليوم ثـوباً قـطنياً أزرق عليـه

تصميم متلاحم مضموم من زهور المرجريتا البيضاء، وفوقه صديري بنيّ فضفاض مفتوح، رغم أن اليوم كان شديد الحرارة فعلاً.

هرولت نحوها، وأمسكت، لا بذراعها، ولكن بمقبض سلّتها للتسوّق. هذه المطاردة، هذا الصيد، أخافنا كِلَيْنا. «أوه هارتلي، لا تفعلي ذلك، لا تفعلي ذلك، لا تهربي مني، هذا جنون، الحمد لله أنني وجدْتك، لو لم أجدك لأصابني مسٌّ من الجنون. لا بد أن أتحدَّث معك. تعالي إلى الكنيسة، أرجوك.»

جذبتُ مقبض السلّة، وتقدَّمتني في الممشى الضيِّق.

- «إذهب أنت إلى الكنيسة، وسأتبعك بعد أن أقوم بالتسوّق. أجل، إنني أعدك.»

عُدْتُ إلى الكنيسة، بعد هذه المطاردة، وبعد ذلك المكان البشع المحاصر بصناديق الزبالة والصخرة والدرَّاجة، كنت أرتعد أنا أيضاً. جاءت بعد دقائق عشر. تقدَّمت لأتناول منها سلّتها الثقيلة، ببساطة لم أكن أعرف كيف أتصرَّف نحوها، فقد كان ثمة حائل مخيف هو ما شعرت به ضرباً من الحرج، وإن يكن خوفاً أيضاً، لو أن لمسة من الفضل الإلهي يمكن أن تحيل هذا الألم إلى اتصال وإلى التفاتات الحب! غير أن الفضل الإلهي كان هو الشيء الناقص بكل المعاني. أحسست الآن برغبة هوجاء للمسها، للإمساك بها، بيد أنني لم أكن أفكِّر في طريقة أفعل بها ذلك، وكأنها ستكون إنجازاً بدنياً فذاً. جلسنا حيث كنا نجلس من قبل: هي في الأريكة الأمامية التي تستدير منها إليّ.

- «لماذا تخافين؟ أنا لا أستطيع احتمال ذلك. يجب علينا... يجب علينا أن نسيطر على نحوٍ ما على هذا الموقف... سأصاب بالجنون..»

- «تشارلز، أرجوك ألاَّ تكون كذلك.. وأرجوك ألاَّ تقوم بالزيارة بلا توقّع على ذلك النحو...»

- «متأسِّف.. ولكنني كنت أريد أن أراك.. ما زلت مهتمَّاً بك، ماذا

تنتظرين مني أن أفعل؟ على الأقل ينبغي أن نكـون صديقين، الآن بعد أن سنحت لنـا هذه الفـرصة . . هـذه الفرصـة . . بالـطبـع لن أفعـل شيئـاً لا تريدينه . . . أرجوك . . . انظري ، ألا يمكن أن تأتي أنت وزوجك لزيارتي ، تعـاليا غـداً لتناول المشروبـات في السـاعـة السادسـة ، فلتكن الخامسـة ، أو السابعة ، أي وقت يلائمكما . تعاليا لتبعثا البهجة في «شراف إند» العتيقة ، أريدك أن تتفرّجي على المنزل . ولمَ لا؟» .

كـانت هارتـلي منحنيـة إلى الأمـام ، وانكمش رأسهـا في عنقهـا ، بحيث احتوت ياقة ثوبها الأزرق المتغضّنة شعرها . كانت مطرقة تنظر إلى الأرض ، وتكـاد الأريكة أن تخفيهـا . «أرجوك ، لا تتـوقّـع شيئـاً منـا ، أعني ألاّ تقـوم بزيارتنا ، أو أن تطلب منا زيارتك . نحن لا نذهب إلى حفلات . . . »

ـ «إنه ليس حفلاً!»

ـ «ليس من الضروري أن يكـون كذلـك لأننـا . . وأرجـوك ألاّ تجـري خلفي في الشارع ، سيلاحظ الناس . »

ـ «ولكنك هربت مني ، وحاولت الاختفاء . . . »

ـ «في المكـان الـذي نعيش فيـه لا يسـلّي النـاس بعضهم بعضـاً لأنهم جيران ، وإنما يحتفظون لأنفسهم بأنفسهم . »

ـ «ولكنـك تعرفينني فعـلاً! ولن تكـون هنـاك تسلية ، إذا كنت تعنـين الرسميـات السخيفـة فأنـا أبغض ذلك عـلى كل حـال . هارتـلي ، أريد أن أحسم هذه المسألة . ألا يمكنك أن تقومي بالتفسير فحسب؟»

الآن ، نظرت إليّ هارتـلي نظرة مبـاشرة . لاحظت أنها لم تضـع اليوم أي أحمر للشفاه ، وساعدني ذلك على قراءتها ، قـراءة نظرتهـا الشابـة في نظرتهـا العجوز . وبدا الآن وجهها المستدير الناعم المرهق الشاحب المتغضّن حـزيناً إلى أقصى حد ، نوعاً من الحزن المستسلم الذي لم أرها عليه من قبل أبـداً ، حتى عنـدمـا اعـتزمت هجـراني . غـير أن حـزنها كـان مشـوبـاً بشيء من التصميم ، يكاد يكون يقظاً ، وكانت منتبهـة كل الانتبـاه ، فلم تعد عينـاها

الزاخرتان بالحيوية مبهمتين. وكشفت عن يديها الحمراوين المتورِّمتين قليلاً، وتشبَّثت بياقتها المتغضنة في شيء من الرفق.

ـ «ما هذا الذي يحتاج إلى تفسير، ولماذا أفعل. . ؟»

ـ «أتقصدين أنني لا أتصرَّف كرجل مهذَّب؟»

ـ «كلا، كلا. . انظر، يجب أن أذهب إلى السيدة الكوافير.»

ـ «هارتلي، أرجوك. . . فليكن، لماذا يجب أن تفسِّري حقاً؟ أتريدين أن أذهب الآن، ولا أحاول مطلقاً أن أراك مرة أخرى؟»

وبالطبع لم أكن أقصد أن تقول «بلى»، ولم تفعل.

ـ «كلا، لا أريد ذلك، أنا لا أدري ما أريد.»

كانت النبرة اليائسة لهذه الكلمات، نبرة الاحتياج أخيراً، قد جعلتني أشعر أنني أسعد كثيراً، وأكثر صفاءً في الذهن. «هارتلي، حبيبتي، لا بد أن تتحدَّثي إليّ، إنك تعرفين أن هذا أمر لا بدّ منه. وعلى كل حالك، هناك أمور كثيرة يمكن أن نتحدَّث عنها، أليس كذلك؟ لا أريد أن ألحق بك أي أذى. حبي لك فيما مضى كان مشوَّشاً بكل أنواع الصراعات التي لا وجود لها الآن، ومن ثمّ، يمكن أن يكون أفضل كثيراً، وأن نسترده ثانية بعد كل شيء. ألا ترين ذلك؟ يمكن أن نكون صديقينْ حقيقيين. وأريد أن أعرف زوجك حقاً.» وهنا أحسست بأنني ملزم بإضافة: «إنني أميل إليه كثيراً، بهذه المناسبة.» وكان رنين هذه العبارة زائفاً. وانحنت هارتلي مرة أخرى خلف الأريكة. «أياً كان الأمر، فلا بد لنا من أن نتحدَّث. هناك أشياء كثيرة أريد أن أخبرك بها قبل فوات الأوان. كما أريد أن أسألك مئات الأسئلة. أعني أنها ليست عما حدث حينذاك. وإنما أعني عنك، وكيف عشت، وعن. . . أوه، عن تيتوس. أحب أن ألتقي به، ربما استطعت مساعدته.»

ـ «مساعدته؟»

ـ «أجل، ولمَ لا؟ مالياً على سبيل المثال، أو، أنا أعرف كثيراً عن

العالم، يا هارتلي. . عن بعض العوالم، على كل حال، وإذا كان يريد أن يعمل، ماذا يدرس؟»

أطلقت هارتلي تنهيدة عميقة، ثم مسحت وجنتيها بكفّيها الحمراوين. وأخرجت منديلها، وكان لا يزال ملطّخاً بأحمر الشفاه. اغرورقت عيناها بالدموع.

- «هارتلي. . . عزيزتي. . . »
- «لقد رحل، هرب، إنه ضائع، ولا نعرف له مكاناً. لم نسمع عنه شيئاً منذ سنتين تقريباً. لقد اختفى. »
- «يا إلهي. . . »

ما أخبث الروح الانسانية وما أشد وضاعتها إذ شعرت فوراً بالسرور لأن لدى هارتلي هذا السبب المفهوم لحزنها، ولأنها أخبرتني به، وبكت منه في حضوري. وفجأة، حَدَث التعاطف، والتواصل.

- «أنا شديد الأسف. ولكن، ألا يمكن العثور عليه، هل أبلغت الشرطة؟ هناك وسائل للعثور على الناس، وأستطيع أن أساعد في هذا المجال. »

جفّفت هارتلي وجهها، ثم تناولت مرآة، وعلبة البودرة من حقيبتها، ورتّبت البودرة حول عينيها. شاهدت نساء كثيرات يضعن البودرة على وجوههن، وكنت أرى هارتلي وهي تؤدّي هذا الطقس الصغير من الغرور لأول مرة. قالت: «لا تستطيع المساعدة، وأرجوك ألاّ تحاول. من الأفضل أن تتركنا وحدنا و. . . »

- «هارتلي، لن أترككما وحدكما. ومن ثمّ يجب أن تهيّئي ذهنك لذلك، وأن تخترعي طريقة انسانية لمعاملتي! أتراك خائفة من الوقوع في حبي مرة أخرى، أهذا هو ما تعانين؟»

نهضت، ورفعت سلّتها التي كانت بجانبي، وأسقطت فيها

حقيبة يدها، وانتقلت إلى أريكتها، وأحطت كتفيها بذراعي في حزم. ما زال الأمر أشبه بمن يصنع المستحيل. أطرقت برأسها لحظة، ودحرجت جبينها بسرعة جيئة وذهاباً فوق قميصي، فأحسست بدفء جسدها المتوهِّج على جسدي. ولم تلبث أن اندفعت لتتجاوزني، وشرعت في السير إلى الباب. وتبعتها.

- «متى سأراك؟»

- «أرجوك، ألا تفعل، سترعجنا، وأرجوك ألا تكتب.»

- «هارتلي، ما الحكاية؟ صارحيني، اتركي نفسك لتحبيني هوناً ما، لا ضير في ذلك. أم تعتقدين أنني لم أعد على شاكلتك إلى هذا الحد؟ لست كذلك، وأنت تعرفين، أنا لست أكثر من صاحبك القديم.»

- «لا تفعل شيئاً، سأكتب إليك فيما بعد.»

- «أتعدين؟»

- «أجل، سأكتب. ولكن لا تأتِ.»

- «ألن تفسِّري؟»

- «ليس هناك ما يستحق التفسير. امكث هنا من فضلك.» وذهبت.

ليزي الأعز، تروّيت فيما قلت في رسالتك العذبة الحكيمة، وفيما قلته أيضاً حين التقينا في البرج. ولا بد أن أسألك الصفح، وأعتقد أنك قد تكونين على صواب، بعد هذا كله، أحبك، ولكن قد تكون فكرتي «المجرَّدة» نوعاً ما عن كوننا معاً، ليست ـ بالنسبة لكل منا ـ خير تعبير عن الحب. وقد لا نخلق سوى الاضطراب والشقاء لكل منا. وقد تكون «هواجسك» عني عادلة حقاً، ولست أول من عَبَّر عن مثل هذه الشكوك! ولعلني الآن أيضاً لست أكثر من دون جوان لا يعرف الاستقرار. ولهذا دعينا نلعب على نحو مختلف. ليست هذه بالضرورة نتيجة حزينة، ولا بد لكل منا أن يكون واقعياً، وبخاصة إذا كانت سعادة شخص آخر تتعرَّض للخطر. ولقد تأثَّرت أبلغ التأثر بذلك المشهد عن علاقتك بجيلبرت، وترك في نفسي انطباعاً عميقاً. إنه إنجاز، ولا بد من احترامه طبعاً. ماذا يهم حقاً ما «يكونه» كل شخص بالضبط بالنسبة للآخر، ما دام كل منهما

يحب الآخر ويعتزّ به، ويكون صادقاً معه؟ كنتِ على حق حين أكّدت على تلك الكلمة. وأنت ترتابين في قدرتي على الوفاء، وأنا أقرب ما أكون إلى مشاطرتك شكوكك بحيث أحرص على ألا أخوض هذه المجازفة من أجلنا. ومن المستحسن كذلك أننا لم نحدِّد أبداً ما كنا نتوقعه. وكل منا حسن الطالع في بقائه سعيداً على ما نحن عليه، ويمكننا ببساطة أن نحسب صداقتنا القديمة الحارة ـ التي بعثت من جديد لحسن الحظ ـ على إنها مكافأة. نحن لا نريد ـ أليس كذلك ـ مزيداً من القلق أو الخَلْط. أنت محقة تماماً، وسأحترم حكمتك ورغباتك وحقوق صديقي القديم جيلبرت! ومن المهم ـ كما قلت ـ أن نحبّ ـ نحن الثلاثة ـ بعضنا بعضاً، ودعينا نستمتع بودٍّ متبادل حر لا تشوبه الرغبة في التملّك، على حد دعوتك لنا. ومن ثمّ أرجو أن تنسي خطابي الأصلي الأحمق الذي استجبت له بكل تلك الشجاعة، والعقلانية، وأن تنسي كذلك مناوراتي المتنمرة على نحو ما في لقائنا الأخير! وإنني لمحظوظ بأن يكون لي أصدقاء مثلك ومثل جيلبرت، ولهذا أعتزم الحفاظ عليهم على نحو معقول، وكريم على ما أتمنى. وسأحرص على رؤيتكما عاجلاً في لندن حيث سأصل إليها قريباً. وسأبلغك بذلك. تقبّلا ـ كل منكما ـ أحرّ رغباتي الطيِّبة، وتهانئي، وإن تكن قد جاءت متأخِرة.

كوني على خير ما يرام ـ يا ليزي ـ واذكريني.

صديقك القديم

تشارلز

كانت هذه هي الرسالة التي كتبتها لليزي في عصر ذلك اليوم الذي رأيت فيه هارتلي في الكنيسة للمرة الثانية، رسالة ينطوي بعضها على المكر والخداع، وبعضها الآخر على الإخلاص والصدق. فقد رجعت إلى البيت في حالة من الهياج هي مزيج من التعاسة والحيرة، وبعد برهة قضيتها في سؤال نفسي بلا جدوى عما ينبغي أن أفعله فيما بعد، قرّرت أن الشيء الوحيد المعقول على الأقل الذي أستطيع أن أقطع به الوقت هو التخلص من ليزي. فهذه المهمّة لا تتطلّب نضالاً ذهنياً ولا مشكلة فيما عدا الجهد

الذي أبذله في كتابة خطاب مناسب والتركيز على ليزي وقتاً يكفي لإتمامه. أما كيف تغيَّرت كُلِّية في كل ذرّة فيتضح من أن «فكرتي» عن ليزي تبدو لي الآن خيالاً مخبولاً نجوت من نتائجه - بشيء من الرحمة - بفضل الحس السليم الذي تتمتَّع به ليزي. ومن أجل هذا فأنا أباركها. شعلة خرجت من الماضي فأحرقت ذلك البناء من النوايا حرقاً كاملاً. وما اتضح في اليومين الأخيرين (اللذين يبدوان مثل شهور) هو إلى أي حد كنت مصيباً في التفكير بأنه لا يوجد سوى حب حقيقي واحد في حياتي. وكأنني - بمعنى روحي - قد تزوَّجت هارتلي فعلاً منذ أمد بعيد، ولم أعد - ببساطة - حرّاً للنظر إلى سواها. طبعاً، كنت أعرف ذلك حقاً طيلة الوقت. غير أنني عندما رأيتها مرة أخرى كان إحساسي المطلق بالانتماء طاغياً؛ وفي أنياب القسوة العنيفة لقدريْنا، وفي أنياب الشواهد جميعاً، كان كل منا ينتمي للآخر.

تمكَّنت في الواقع من التفكير المركَّز في ليزي أثناء كتابتي للرسالة، ومن التفكير فيها بنوع من الودّ القديم المنزَّه عن الغرض. تراءى لي وجهها الضاحك المشرق كما كانت في شبابها، عندما اعتدنا على الضحك كثيراً بشأن حبّها لي. وعلى الرغم من «الرعونة» التي لا تُصَدَّق لفكرتي، فقد كان من المحتمل - على نحو عارض تماماً - أنني كسبت ليزي بوصفها صديقة قد تكون عاطفتها وولاؤها ذواتي قيمة يوماً من الأيام. أما الآن، فلا بد من الاستعداد للعمل. وينبغي ألا تكون هناك أية مشكلة على الإطلاق، أو أية «صلة مهمة» تتطلَّب مناقشات أو خطابات أو زيارات. لم يعد لديّ الوقت أو القوة لمثل هذا التورّط. وقد يكون من الإجرام المجازفة في شيء كهذا. وتلميحتي عن الذهاب إلى لندن كانت بالطبع مجرَّد حيلة للإبقاء على ليزي هناك. لم أعد أستطيع أن أتحمَّل وصول ليزي العاطفية إلى عتبة بابي في الوقت الحاضر. قمت بمذبحة لسائر اهتماماتي الأخرى، وعلى المشهد الأبيض الغريب المفتوح على المستقبل، لم يبق سوى شيء

واحـد. إذن، فلتمكث ليزي الصغـيرة آمنـة في الحفظ والصـون عنـد جيلبرت؛ وهنـا أستـطيـع الآن حتى أن أكـون محسنـاً بـالنسبـة لجيلبرت. وتساءلت عرضاً: أكان هذا السخاء الجديد المنزَّه عن الغرض عـلامة أولى على الشكل المتغيِّر المتطهِّر للوجود الذي سوف تنشئه فيّ عودة هارتلي؟ أتُرى هارتلي التي أراها دون أن ألمسها، وأحبها دون أن أمتلكها، قـد قُدِّر عليهـا أن تجعلني قديساً؟ ما أغرب هـذا! وأحفله بالـدلالة أن آتي إلى هنـا بالـذات للتكفـير عن أنانيتي! أكـان هذا هـو المعنى النهائي لـزواجي الصـوفي بحبي الوحيد؟ كانت هذه فكرة متطرِّفـة، وإن كان لهـا منطقهـا العميق الخاص، كما أنها ازدهرت ـ على نحو ما ـ في غياب البدائل. لم يعد أمامي ـ بكـل تأكيد ـ تحرّك آخر.

كنت على وعي طبعاً بأن من فوائد «الفكرة المتطرِّفة» أنها تغـريني بعَرْض للسعادة، وإن يكن هذا العَـرْض من نوع مهـذَّب ورقيق لأقصى حد. ومن الإمكانيات الأخرى التي تنطوي عليها هذه الفكرة، والتي هي أوثق ارتباطاً بالفزع الذي سبَّبته الأحداث الأخيرة ـ ما كان أقل غموضـاً وأقل إمتـاعاً؛ وكانت لديّ رغبة ملحة مظلمة للفعـل لم تظفـر بشيء من نور تـطلعاتي إلى القداسة. ولكن، ماذا يمكن أن أفعل؟ أبـدأ بالبحث عن تيتـوس؟ وسؤالي الرئيسي ـ على الأقل ـ لم يظفر بالإجابة: هارتلي كانت شقية. غير أن هذا جلب معـه سؤالاً أساسيـاً آخر: لماذا لم تكن هارتـلي سعيدة؟ أكـان ذلـك ببسـاطة لأن ابنهـا اختفى، أم هنـاك أسباب أخرى؟ لماذا لا تـريـدني أن أساعدها؟ لماذا لا تـريدني أن أدخـل في حياتهـا؟ أو لعله كان من السـذاجة توقع الثقة من امرأة لم أرهـا منذ أربعـين عامـاً؟ لقد احتفـظت بها حيّـة في أعـماق نفسي، ولكنني يمكن ألا أكون ـ بـالنسبة لهـا ـ سوى ظـل، مجـرَّد تلميذ طواه النسيان. لم أكن أستطيع تصديق هـذا. ألعلها ـ عـلى النقيض من ذلك ـ ما زالت تحبني بحيث لا تجرؤ على الثقـة في نفسها حـين تراني؟ هل تتخيَّل أنني أحتفظ بعشيقات فاتنـات أنيقات ستضمـر لهن غيرة تـورثها

التعاسة؟ ماذا كانت تفعل على طريق البحر عندما كشفت عنها بغتة أضواء سيارة «روزينا» أمام عينيّ؟ أتراها جاءت للتجسس، للاستطلاع؟

لقد وعدت بالكتابة، ولكن هل ستكتب؟ وإذا فعلت، هل «ستشرح»؟ هل أستطيع، هل أنا قادر ببساطة على الانتظار، وربما كان عليّ أن أنتظر وأنتظر ذلك الخطاب، وأطيعها فلا أفعل شيئاً؟ كنت في حاجة شديدة إلى «تفسير» نفسي، أن أحب في الخارج ما أشعر وما أفكّر فيه، وهذا شيء لم أستطع أن أقوله في تلك اللقاءات التعسة الشحّ، هل أكتب خطاباً طويلاً؟ إذا فعلت ذلك فلا ينبغي بالطبع أن أعهد به إلى البريد، هذا ما أرجعني مرة أخرى إلى «الزوج». لماذا لم تكن سعيدة؟ أكان ذلك لأنه غيور، مستبد، فتوة، لا يسمح لأحد بالاقتراب منها؟ أهذه هي الحقيقة؟ وإذا كان الأمر كذلك. . . ما أبعد المدى الذي وثب إليه ذهني عندما طرأت عليه هذه الفكرة، وما أكثر الآفاق المثيرة والفجوات النارية التي انفتحت فجأة! وفي الوقت نفسه كنت أعرف أن سلامة الحب والإخلاص لهارتلي اللذين ينبغي ألا يمسّهما شيء، يمنعان هذا النوع من التفكير.

لم أجد من نفسي دافعاً إلى طهي الغداء. فقمت بقلي بيضة، ولكنني لم أستطع أن آكلها. فشربت شيئاً من البوجوليه كنت قد تسلّمته من «فندق الغراب الأسحم.» (وجدت النبيذ، والبوجوليه، وبعض المواد الاسبانية، خارج باب المنزل عندما عدت من القرية.) ثم شغلت نفسي بكتابة خطاب ليزي الذي نسخته فيما سبق. وفكّرت بعد ذلك في أن شيئاً من السباحة يمكن أن يفيد في إنعاش روحي. كان البحر في حالة مدّ، ولكنه كان هادئاً كل الهدوء، وأصفى من المعتاد. وحين نظرت من صخرتي إلى أسفل قبل أن أغوص في البحر، كنت أستطيع أن أشاهد الأشجار الطويلة القاتمة من طحالب البحر تتماوج برفق والأسماك تسبح خلالها. مضيت سابحاً في هدوء، ناظراً إلى «رؤية السباح» الخاصة للبحر، وشاعراً ـ في تلك اللحظة فحسب ـ بأنني مالك ومملوك. وكان البحر سهلاً زجاجياً يتنفّس برفق،

ويتحرَّك متمهِّلاً إلى ما ورائي، وكأنه يهز كتفيه متأمِّلاً وهو يحمل في شيء من الشرود ـ تابعه الأمين. وتجمَّعت بعض النوارس الضخمة ذات مناقير صُفْر ـ كأقصى ما يمكن أن يتصوَّر المرء من الاصفرار ـ لمراقبتي. لم أشعر بأية لهفة للخروج من البحر. وعندما سبحت راجعاً إلى وجه صخرتي كنت قادراً بسهولة على التشبث بالمقابض ومواطىء الأقدام التي وضعتها لأسحب نفسي خارجاً من الماء. والواقع أن الصخرة الصغيرة لم تكن في حد ذاتها عسيرة على التسلّق، وإنما كل ما في الأمر ـ كما شرحت ذلك آنفاً ـ أن المرء حين يصعد باستمرار ويهبط فجائياً مرة أخرى بسبب حركة الأمواج، يستحيل عليه أن يحافظ على أصابعه وأطراف قدميه في موضعها وقتاً كافياً يتيح له القبضة الملائمة. وعندما كنت في البحر حدَّثت نفسي بأنه لم يعد من المهم ألا تكون هارتلي جميلة كما كانت. وكانت هذه الفكرة تبدو حسنة، وتلبَّثت عندها، وقد جلبت لي مع الحنان الذي حملته شيئاً من سكينة النفس.

جلست بعد ذلك بغباء في الشمس، وكان الجو قائظاً، غير أن انغماسي في البحر حمل إليّ قليلاً من الحكمة. لعلي لم أكن مخطئاً حين فكَّرت في البحر مصدراً للسكينة، ولكنه كان دواءً لا فعالية له شربته في جرعة واحدة. الأمر يتطلَّب نظاماً كاملاً. تجوَّلت محرقاً قدميّ، وناظراً في واحدة أو اثنتين من بحيراتي، غير أن السرور كان قد فارقني، ولم أعد أستطيع التركيز على هذه المدنيات اللامعة الشفَّافة، وإن كانت الحصباء الملوَّنة وأشجار الطحالب القزمة تبدو في الضوء الباهر أشبه بمجوهرات فابرجيه* Fabergé. راقبت رقصة براغيث البحر وتقدّم البرقانات البحرية الخضراء الشفَّافة، وشاهدت مرة أخرى تلك الدودة الطويلة الحمراء المتكوِّرة على نفسها التي ذكَّرتني على نحو ما بأفعواني البحري. وهناك لاحظت بعض السيَّاح القادمين ـ على ما أظن من فندق الغراب الأسحم ـ يقفون فعلاً

(★) صائغ شهير في باريس. (المترجم).

فوق أرضي ويفحصون البرج، الأمر الذي أثار في نفسي شيئاً من الغيظ. دخلت المنزل بكتفين محروقتين، وصداع يشجّ الرأس.

كـان من الجلي الآن أن عليّ أن أفعل شيئاً عـاجـلاً، أن أؤدّي فعـلاً طقـوسيـاً يـرتبط بمـوقفي، ولعله أن يعمـل عـلى تغيـيره. كـان مـا أريـده ـ بالطبـع ـ هو أن أعـدو رأساً إلى هـارتلي. لم أقبِّلهـا حتى الآن بعد، كم كنت خجـولاً خائـراً ذلك الصبـاح في الكنيسة! ولكن كـان لا بد أن أجـد بديلاً مبتكراً لهذا الاندفاع المتهوّر. كنت أشبه بالمدمن المحـروم الذي يـرى المسليـات العاديـة شيئاً عقيـماً لا جدوى منـه. كل مـا أفعله الآن ينبغي أن يرتبط بالمركز الأوحد للعالم، فقـرَّرت ـ لمجرَّد مـواصلة التحرّك ـ أن أمشي إلى القرية وأضع رسالتي إلى ليزي في البريد. طبعاً، كان الأمل يحـدوني إلى رؤية هارتلي، غير أنني لم أتخيَّـل حقاً حـدوث ذلك. الـوقت الآن في أواخر الأصيـل، وفيه ينتشر ذلـك النوع من النـور الزاخـر بـالحيـاة الـذي جعلني أرغب في الصياح فرحاً منذ برهة قصيرة. وعندما اجتزت الممر لمحت بعض الخطابات راقدة في كوخ الكلب، فتناولتها، كان أحدها من ليزي. فتحته، وأخذت أقرأه وأنا سائر في الطريق.

حبيبي، بـالطبـع، الإجابـة ينبغي أن تكون بـ «نعم». كـانت مخـاوفي حمقـاء سخيفة، أرجوك أن تنسى استجابتي المضطربة لعَرْضِك الرائع. أنا تـابِعَتك، كـما كنت دائماً، فهل من الممكن ألا أهـرع إليك ـ ولـو للحظة ـ إذا كنت في حـاجة إليّ؟ لم أخبر جيلبرت بشيء، ومع ذلـك، لا أدري كيف أخبره. وعنـدما نلتقي، ألا تكون لطيفاً فتساعدني على ذلك؟ أنا لا أستطيع التخلّي عنه، ولا بد أن تكون هنـاك طريقـة لا تؤذيه كثيـراً. أرجوك أن تفهم. واسمـح لي أن أراك في أقـرب وقت، أريـد أن أقول أشيـاء كثيرة. هـل أذهب إليك، أم ستـأتي أنت إلى لندن؟ أودّ لو استطعت أن أتصل بك هاتفياً. (لا تتصل بي هنا بسبب جيلبرت.) وبهـذه المناسبة أنبأت جيلبرت بأنني أكتب إليك لأنه سـألني، ويقول هـل من الممكن أن

تتعشَّى معنا هنا يوم الاثنين من الأسبوع القادم إذا كنت في المدينة؟ وأنا أنقل إليك هذا، غير أنني أتخيَّل أنك لن تريد ذلك في مثل هذه الظروف.

أحبك كثيراً

ليزي

أنا خائفة جداً لغضبك مني. أرجو أن تطمئنني عاجلاً.

تنهَّدت وأنا أقرأ هذا الخطاب المراوغ نوعاً ما الذي لم يُدْخل على نفسي سوى قليل من السرور. ما هو هذا «العرض» الذي من المفترض أنني قدمته لها؟ كان الأمر يبدو وكأنها تحاول إلزامي بشيء. ولاحظت أنها لم تنبىء جيلبرت بعد، ولم تُبْدِ أية علامة على التخلِّي عنه. غير أنني لم أشعر بأي حافز يدعوني إلى إمعان الفكر في حالة ليزي الذهنية، فلم يعد لهذا الأمر الآن أية أهمية.

حثثت الخطى، وبلغت مكتب البريد قبل أن يُغْلق مباشرة. أرسلت خطابي إلى ليزي، وبعثت إليها ببرقية تتضمَّن الآتي: **فكرتي الأولى كانت صائبة. انظري في خطابي الذي أرسلته في الوقت الذي أرسلت فيه خطابك. سأكون في لندن حالاً، وأقبل ممتنّاً العشاء معك ومع جيلبرت. حبي تشارلز.** (انتهت البرقية.) هذا يجعل الموقف واضحاً بما فيه الكفاية، كما أنه يحجز ليزي في لندن. بالطبع لم أكن أنوي العشاء معهما، ويمكن أن أبعث بإلغاء في اللحظة الأخيرة.

خرجت إلى الشارع الذي ما زال مشمساً، وكانت أضواء المساء تجعل حتى ألواح القرميد فوق الأسطح تلقي ظلالاً صغيرة، كما كانت الجدران البيض موشاة بالفضة. سرت إلى الكنيسة، وألقيت عليها نظرة من الداخل. كانت خاوية تغشاها الظلال وتفوح منها رائحة الورود التي كانت ضبابة بيضاء في الهواء المُتْرب الغائم. خرجت إلى النور وقضيت برهة من الزمن أتأمَّل المراكب الشراعية المختلفة المنقوشة على شواهد القبور التي أبرزتها الإنارة المائلة إبرازاً قوياً. وخطر لي وأنا أسير في الشارع أن حانة

الأسد الأسود مفتوحة، فدخلتها. وهناك كانت الهمهمة المعتادة المباغتة.

قال آركرايت: «أرأيت أشباحاً أخرى؟» قال ذلك أثناء خدمته لي بتقديم عصير التفاح.

- «كلا.»

وقال آخر: «ألم تكن تسأل عن ثعابين البحر الضخمة، أرأيت شيئاً منها؟»

- «كلا.»

- «هل شاهدت شيئاً من عجول البحر؟»

- «كلا.»

- «إنه لم يرَ شيئاً.»

ضحك مكتوم.

كنت أشعر بالجوع فأكلت شطيرة بالجبن وفطيرة خنزير مربعة. وجلست برهة تصفَّحت فيها بقية بريدي. لم أكن أعبأ بمن حولي، كما لم أكن أبالي بأن يعرفوا ذلك. الخطابات التي أرسلتها الآنسة كاوفمان كانت كلها شخصية ولكنها قليلة الأهمية. وكان من بينها خطاب كان من الممكن أن يسعدني فيما سبق من «سيدني آش» يصف أحداثاً هزلية تجري في استراتفورد، بأونتاريو. وكان هناك أيضاً خطاب من صديقي الطبيب (أشرت إليه آنفاً على ما أظن) «ڤيكتور بانستيد» من كمبردج. فركت الخطابات جميعاً بما فيها خطاب ليزي، وألقيت بها في سلّة قريبة، ثم جعلت أفتِّش فيها مرة أخرى للحصول على الخطابات، تحت نظرات الحاضرين التي وجدت فيها أفعل شيئاً من التسلية. دسست الخطابات في جيبي، وقلت للحاضرين: تصبحون على خير. فلم يردّ عليّ أحد. وما إن أغلقت الباب خلفي حتى ضجّوا بضحك متواصل.

لم أسلك طريق المشاة المنحرف، وإنما تابعت سيري في الطريق الذي

يؤدِّي مباشرة إلى الميناء. وما إن ابتعدت عن القرية حتى وقفت وتطلَّعت ببصري إلى سفح التل. كانت الشمس منخفضة، ولاحت بعض النوافذ المضيئة هنا وهناك شاحبة شحوباً غريباً. وأنا قصير النظر للغاية، ومع أنني احتجت إلى نظارتي لقراءة الخطابات، إلا أنني كنت أرى الشاليهات بوضوح تام. وهناك كان يبدو ضوء واهن ينبعث من حجرة الجلوس في نيبليتس. لا بد أنهما فرغا من تناول عشائهما، وأنهما يشاهدان التليفزيون في صمت؟ وجال بخاطري أنني لن أستطيع تصوّر الحياة الزوجية. كيف يمكن أن تكون هذه الحياة ممكنة؟ أحسست برغبة قوية في أن أصعد إلى التل وأدقّ على الباب. ماذا لو أنني وصلت بزجاجة من الشمبانيا. . .؟ بيد أنني اخترعت الآن حيلة لتمضية الساعات التالية. قد أتلقَّى صباح غد خطاباً من هارتلي. فلو حدث بالمصادفة أنه لم يكن ثمة خطاب. . فسوف أقرِّر ما ينبغي أن أصنع. ثم تساءلت: كيف وأين في هذا المنزل الصغير تستطيع هارتلي أن تكتب خطاباً خاصاً؟ في الحمَّام؟ لا بد أن (زوجها) يخرج بعيداً أحياناً. هل يمكن أن يكون خطاباً خاصاً؟ الزواج سرّ بكل تأكيد.

دلفت حتى الميناء حيث كان البحر الهادىء يلعق الشاطىء بصوت مسموع. كان الميناء خالياً، هادئاً، معتماً في حضن الذراع الحازمة لرصيفه الحجري الذي يبدو كأنه يتفصَّد ضوءاً كثيفاً منضوحاً. وفيما كنت أتسكَّع كان بوسعي الشعور بدفء الأحجار تحت قدمي. وطاف غرانق في مستوى منخفض فوق الأمواج، نذير أسود على هيئة صليب. وهناك ظهر الآن قمر ضخم شاحب متغضن، ونجمة مساء برَّاقة. وغير بعيد، في مكان استحمام السيدات، كان هناك غلامان يلعبان فوق الطحالب الداكنة، ولكن في صمت كأنهما مسحوران بهذه اللحظة. مشيت متمهِّلاً على طول الطريق الساحلي في اتجاه «شراف إند»، ثم مضيت متجاوزاً لها، وقضيت بعضاً من الوقت متأمِّلاً لخليج الغراب الأسحم بأضواء فندقه المنعكسة في الماء. وتحوَّلت نجمة المساء من الذهب إلى الفضة، وتصاغر القمر واكتسب بريقاً

حاد النصل. واصلت السير أخيراً، وأثناء انعطافي إلى الطريق لمحت ومضة غريبة داخل المنزل، وكأن الضوء يتحرَّك. توقَّفت وراقبت. كانت هناك اشتعالة واضحة وقتية انطلقت، ثم أصبحت ضبابية خلف إحدى النوافذ الأمامية، ولم تلبث أن تلاشت. كان هناك من يسير في الداخل حاملاً شمعة. وكانت أول فكرة طرأت على بالي أنها هارتلي. ثم فكَّرت بأنه أقرب إلى الاحتمال أن تكون روزينا. عدت إلى الطريق، وهناك، متوارية خلف الصخرة البارزة، حيث رأيتها من قبل، ربضت سيارتها الحمراء الصغيرة البشعة.

كان غيظي شديداً إلى درجة أنني ضربت بقدمي إحدى العجلات. وقرَّرت أنني لن أستطيع احتمال رؤية روزينا. إذ كان حضورها الذي لا يوصف في منزلي تدنيساً له، ورؤية وجهها الوقح سوف تستفزني بغضب يخلو من كل تعقل. وما تحمله المشاجرة من بشاعة وابتذال أمر لا يطاق، ولن يكون ثمة مَخْرج للتخلّص منها. تسلَّلت على أطراف أصابعي بخطى واسعة على طول المدخل وحول جانب المنزل حتى وصلت إلى المرجة. أستطيع الآن أن أرى ما يدور داخل المطبخ. أجل، هناك كانت روزينا، وقد وضعت شمعتين مضيئتين على مائدة المطبخ، وجعلت تحاول دون نجاح إشعال أحد مصابيحي، ومن المحتمل أنها أفسدت الفتيل في هذه المحاولة. رأيت نظرتها الحولاء المركَّزة، وحركات فمها العصبية، وهي تعبث بالفتيل بخشونة إلى أعلى وأسفل وتنخسه بعود الثقاب المشتعل، فتوهج المصباح ثم انطفأ. وكانت ترتدي شيئاً أسود بقميص أبيض، وشعرها الفاحم المنسدل يتأرجح في لهيب الشمعة. تراجعت في هدوء وأنا ألتقط الأبسطة والوسائد التي كانت ممدودة على الحشائش. كان خير ما فعلت أنني أكلت شيئاً في الحانة، وإلا لدفعني الجوع إلى دخول المنزل.

تسلَّقت الصخور حتى أصبح المنزل خارج مجال الرؤية، ووجدت على مقربة شديدة من البحر وفوقه مباشرة، منخفضاً طويلاً ضحلاً حيث

أخذت حمّام شمس مرة أو مرتين في أيام ما قبل التاريخ. كان الليل دافئاً، ساكناً تمام السكون، وفيما كنت أضع نظارتي في مكان أمين، وأعد نفسي للنوم، تساءلت بحزن لماذا لم يخطر لي أبداً أن أنام هنا في الخارج في هذه الأيام التي كنت فيها سعيداً. كان المكان قريباً من البحر غاية القرب، وكان البحر يلطم الصخرة تحتي برفق، وكأنني في زورق. ولما كان سريري الصخري ينحدر قليلاً نحو الماء فإنني أستطيع أن أرقد واضعاً رأسي فوق وسادة، ناظراً إلى الأفق مباشرة حيث كان القمر يحدث صدعاً فضياً لم يكن يخلو تماماً من الحركة. وكانت النجوم الأولى قد استحالت بالفعل إلى نقاط حادة لامعة. وأخذت تنضمّ إليها أفواج إثر أفواج من النجوم. وفيما كنت مستلقياً على ظهري، ملتفّاً في بساطي، تشابكت يداي أمامي، وصلّيت متضرّعاً أن يكون ما بيني وبين هارتلي عامراً، وألا يضيع هباءً أو يتبدّد ذلك التذكّر الوفيّ الذي امتدّ حياةً بأكملها، والذي أعتبره الآن زواجاً صوفياً، وإنما يتمخّض عن خير على نحو ما! ثم حدث بعد ذلك وكأنما استجابت لي الروح التي صلّيت لها، فحاولت أن أضع نفسي خارج الصورة، وأن أصلّي من أجل هارتلي فحسب: أن تكون سعيدة، وأن يعود تيتوس إلى البيت، وأن يحبها زوجها وأن تحبه. وكان هذا أشد عسراً. والواقع أنه كان من الصعوبة بحيث أن ذلك الاغراء الذي وعيته من قبل، والذي طردته بحزم شديد، بدأ يتسلّل إلى نفسي مرة أخرى من جانب، مهما حاولت ألا أفكّر إلا أفكاراً خيّرة. أيكون زوجها ڤيتش، أو بن Ben ـ أو أياً كان اسمه ـ طاغية غيوراً، أيكون هو سبب تعاستها؟ لو كان الأمر كذلك، إذن ربما. . .؟ وقرّرت أخيراً إذا لم أتلقَّ في الصباح أي خطاب من هارتلي، أن أقوم بزيارتها في البنجالو، وسحقاً للنتائج! لأنه. . ينبغي أن أعرف. . الإجابة. . على ذلك السؤال.

ثم ألفيت أنني لم أعد أفكّر في هارتلي إطلاقاً، وإنما كنت أفكّر في أمي. أبصرت وجهها مغطّى بتجاعيد الهم والاستنكار والحب. ثم تراءت لي بعد

ذلك العمة إستيل، مرتدية قبعة صغيرة مستديرة من القش، وجالسة إلى عجلة القيادة في سيارة رولز ـ رويس بيضاء. وأنا أعرف أن رؤية أبي لها وهي تقود هذه العربة الفارهة كانت تثيره. كما كانت تثير عمي هابيل. بل وتثيرني أنا أيضاً. وكانت عمتي إستيل تربط شريطاً عريضاً حول رأسها كأنه «شبكة». وحول هذا اعتدنا أن نطلق نكاتاً سخيفة في المدرسة عندما كنا نترجم اللاتينية. وكانت تلعب التنس بمهارة، إذ يملكون ملعباً للتنس في «رامسدنز». كيف أمكن لها أن تشبه جيمس، كانت غاية في الجمال والمرح، وكان هو صموتاً بوجهه المُطبق المُطْرق؟ ثمة قناع شفّاف من التشابه وُضع فوق رأسه، شبيهاً بقناع هارتلي الذي اتخذته نسوة كثيرات ـ في نظري ـ خلال أعوام، حتى تلك المرأة العجوز المضحكة في القرية التي لم تكن تشبهها في شيء. ولكن، أتراني قد نسيت فعلاً أن هذه المرأة العجوز المضحكة كانت هي هارتلي بعينها! وهل كان جيمس هو حقاً العمة إستيل؟ كانت العمة إستيل ترقص الآن على نغمات إسطوانة جراموفون سوداء دائرة، ترقص في المنتصف، حيث كانت اللافتة ـ وقد كانت هي اللافتة على نحو ما ـ وجهاً، بورق ممزَّق، ورق ممزَّق، يدور ويدور مع الأسطوانة. وكنتُ طيلة هذا الوقت أحتفظ بعينيّ مفتوحتين، أو أحاول ذلك ـ ولكنهما لا تلبثان أن تنغلقا ـ لأنني كنت أريد أن أواصل مراقبة النجوم، حيث كانت تحدث أشياء أبعد ما تكون عن المألوف. قمر صناعي مشرق، نجم من صنع الانسان، كان يعبر السماء ببطء شديد، وبعناية شديدة، في قوس كبير من جانب إلى الجانب الآخر، قوس مغلق، يعلم المرء أنه ليس نائياً جداً، قمر صناعي صديق يمضي متمهِّلاً في أداء عمله حول الكرة الأرضية مرة بعد أخرى. ثمّ، في مكان أبعد من ذلك كثيراً، كانت النجوم تنطلق في هدوء، ثم تنهار وتختفي، تسقط في صمت وتنطفىء. نجوم تتهاوى صامتة ضائعة تماماً، تسقط من لا مكان إلى لا مكان في عدم لا سبيل إلى تخيّله. ما كان أكثرها هناك، وكأن السموات كانت تنتظر أخيراً وتتناثر. وأردت أن أطلع أبي على هذه الأشياء جميعاً.

علمت فيما بعد أنني كنت نائماً. وفتحت عينيّ بأعجوبة، وكانت السماء قد تغيَّرت تماماً مرة أخرى، ولم تعد مظلمة، بل ساطعة، ذهبية، مذهَّبة، وكأنما أُزيح ستار إثر ستار من وراء النجوم التي شاهدتها من قبل، وأنا الآن أنظر في داخل الكون الشاسع، وكأن هذا الكون يقلب نفسه بطناً لظهر في هدوء. نجوم وراء نجوم، ونجوم وراء نجوم حتى لم يعد هناك شيء بينها، ولا شيء وراءها، بل ذَهَب معتمٍ مترب للنجوم، ولا فضاء ولا أضواء سوى النجوم. أما القمر فقد ولّى. وارتفعت الأمواج أعلى وأقرب، حتى لامست الصخرة برفق فلم تعد تُسْمع إلا كنوع من الذبذبة. وهوى البحر مظلماً، مذعناً للنجوم. وبدت النجوم كأنها تتحرَّك، وكأن الانسان يستطيع أن يرى دوران الأفلاك كنوع من الطقطقة بعيدة المدى، بحيث لم يعد هناك الآن أية أحداث جديدة، أو نجوم منطلقة، أو نجوم هاوية، تستطيع الحواس البشرية أن تدركها أو حتى أن تتصوَّرها. كل شيء كان حركة، كل شيء كان تغيّراً، وكان هذا كله مرئياً على نحو ما، وإن كان يندّ عن الخيال. ولم أعد أنا كما كنت، وإنما شيء يُثَبَّت حتى يشبه الذرّة، ذرّة الذرّة، مشاهد أسير مقهور، مرآة صغيرة للغاية يتجمَّع فيها كل شيء بلا تمييز، بينما تُزْبد وتغلي دون حركة، تبر تلو تبر تلو تبر.

وصحوت بعد ذلك، فاختفى كل شيء، وظننت لحظات قلائل أنني رأيت كل تلك النجوم في الحلم. وخيَّم على المكان سكونٌ سحري مباغت مثير كأنه انقطاع سيمفونية عظيمة أو ضجيج هائل متصل ليس إلى وصفه من سبيل. أكانت النجوم مسموعة كما كانت مرئية، وهل سمعت حقاً موسيقى الأفلاك؟ كان نور الفجر المبكر جاثماً فوق الصخور وفوق البحر، في سكون رهيب مطلق مقصود، وكأنه يقبض على تلك الأشياء الظاهرة ظهوراً خفيفاً ويسحب ببطء شديد ليخرجها من الظلام الذي تريد أن تبقى فيه. حتى الماء كان الآن صامتاً تماماً، لا حس ولا حركة، ولا تموّج طفيف. والسماء صافية رمادية شاحبة، والبحر رمادي يخلو من النور،

والصخور مشوبة برمادية بنيّة قاتمة مبهمة. وكان الإحساس بالوحدة أشدّ كثيراً مما كان تحت النجوم. وقتئذ لم أشعر بأي خوف. أما الآن فأنا خائف. واكتشفت أنني أشعر بالتصلّب وبشيء من البرد. كانت الصخرة من تحتي شديدة الصلابة، وأحسست برضوض وأوجاع مستمرّة. واندهشت حين وجدت بُسُطي ووسائدي وقد بلّلها الندى. نهضت متصلّباً ونفضتها. وتلفّتُ حواليّ. كانت الصخور الجبلية المكدّسة تحجب المنزل. ورأيت نفسي أشبه بطيف مظلم وسط هذا الفجر الصامت الرهيب الأجوف الذي لم يصبح النور فيه نوراً بعدُ، فانتابني الخوف من نفسي، فأسرعت إلى الرقاد مرة أخرى وسوَّيْتُ بساطي وأغمضت عينيّ، وتمدّدت عليه متصلّباً دون أن أتخيّل أنني سأنام مرة أخرى.

غير أنني نمت وحلمت بأن هارتلي كانت راقصة باليه وهي تدور فوق مسرح ضخم وقد ارتدت تنورة قصيرة سوداء وغطاءً للرأس مرصّعاً بماسات متلألئة وريش أسود. وكانت تتواثب من حين إلى آخر، فأقول لنفسي ولكنها تبقى في الهواء. وهذا شيء خارق للطبيعة، إنه أشبه بالسباحة في الهواء، فهي تبقى هناك. وفيما كنت أراقبها قلت لنفسي على نحو من الرضا بالذات ـ أليس من الروعة أن كلّاً منا في زهرة العمر، وأن الحياة كلها تمتدّ أمامنا! كيف يمكن للعجائز من الناس أن يكونوا سعداء؟ نحن في شرخ الشباب، ونحن نعلم أننا كذلك، بينما يأخذ معظم الشباب هذا الأمر على أنه شيء مفروغ منه. ثم تحوّلت خشبة المسرح إلى غابة، وأقبل أمير يرتدي السواد أيضاً وحمل هارتلي بعيداً، وكان رأسها يتدلّى على كتفه وكأنما كُسر عنقها. لبثت هناك وما زلت أفكّر، ما أروع هذا الشعور بالشباب؛ حلمت حلماً سيّئاً أحسست فيه بأنني بلغت من الكِبَر عتياً. وأنا على يقين من أنه على الجانب الآخر من تلك الأشجار توجد بحيرة، أو لعله البحر. استيقظت وأشعة الشمس غامرة، وبينما كنت أعرف على الفور أين أنا في استيقاظاتي الأخرى فإنني في هذه المرة أحسست بالهلع، فما زلت أستطيع

رؤية وجه هارتلي الميت، ورأسها المتدلّي بلا حراك على ذلك النحو الرهيب. وأحسست بنذير شؤم ورعب لم أشعر به في الحلم. دفعت نفسي إلى النهوض على مرفقي، وتبيَّنت تدريجياً لماذا كنت في هذا المكان، راقداً فوق الصخور في أشعة الشمس المشرقة أمام البحر الأزرق الهادر. نهضت متمهِّلاً، وهنا أحسست بخفقة حزن عندما تذكَّرت كيف كنت سعيداً بشبابي في الحلم. نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى السادسة والنصف. وفي هذه اللحظة فحسب لاح لي هذا الخاطر: إذا لم أتلقَّ خطاباً هذا الصباح فسوف أذهب إلى البنجالو. هذا أمر مستقر.

أحسست بجوع شديد. وتساءلت أترى باتت روزينا ليلتها في المنزل. تسلقت الصخور حتى بلغت الطريق، وسرت عائداً صوب «شراف إند». ألقيت نظرة في الملاذ الحجري الذي تَرَكَتْ فيه سيارتها. لم تكن هناك. مضيت في طريقي وعبرت الممر. لم تكن هناك خطابات طبعاً. وعندما دخلت المنزل أجريت تفتيشاً كاملاً فيه. كانت هناك كمية من أعواد الثقاب المستعملة هنا وهناك، ولكن لم يكن على سريري ما ينبىء بأن أحداً نام فيه. وكنت سعيداً بذلك. لا بد أنها رَحَلَتْ متأخرة ليلة أمس، بعد أن فتحت زجاجة نبيذ وعلبة زيتون، وأكلت شيئاً من الخبز. ولم تترك أية رسالة، ولكنها تركت علامتها بأن نثرت البقايا المهشمة من فنجان شاي وسط مائدة المطبخ. وكان من الممكن أن تسوء الأمور أكثر من ذلك. تناولت فطوري إذ كنت في شدة الجوع، وكان مكوناً من الشاي والتوست وما تبقى من الزيتون. ثم لم أجد أمامي سوى الانتظار، فانتظرت، وأثناء ذلك حاولت أن أتذكر ما شعرت به عندما كنت أتأمل النجوم، ولكنها أخذت تذوي فعلاً. وقمت بعد ذلك بكبسات على وجار الكلب. وفي الساعة التاسعة والنصف كان يحتوي على بعض الخطابات، ولكن ليس بينها خطاب من هارتلي. وفي حوالي العاشرة كنت أطوف بالقرية. وفي العاشرة والنصف كنتُ أقف على باب نيبليتس.

قاومت إغراء اختلاس النظر في لهفة إلى داخل المنزل وأنا سائر في الممر. وكنت أريد أن يبدو اقتحامي مجرد مصادفة، وأفضل طريقة لذلك أن أقتحم المكان بالفعل، وكنت في القرية أشعر بأنني سقيم بإحساس من الحنين المتلهف على أن أكون بالقرب من هارتلي. والآن تولدت عن مغناطيسية القرب منها جرأة يائسة؛ ـ أحسست بأنني فقدت السيطرة على نفسي، فأصبحت ثقيلاً، خَطِراً. قرعت الجرس ذا الصوت العذب، فأحدث رنينه الملائكي الأجوف ذبذبة رهيبة داخل المنزل. وعند ذلك انبعث حفيف طفيف، ولكن دون أصوات مسموعة. وأدركت أن رأسي لا بد أن يكون مرئياً بصورة ضبابية من خلال الزجاج المصنفر. أيكون عندهم كثير من الزوّار؟.

وفتح «بن» الباب. كان قد أصبح الآن «بن» في أفكاري، إذ كنت أحاول بكل شغف أن أسكن في ذهن هارتلي. كان يرتدي قميصاً رياضياً قطنياً أبيض جعله يبدو ممتلئاً نوعاً ما، كما لم يكن حليق الذقن. وكانت أجزاء وجهه التي ليست كثة دون تهذيب ـ كانت هذه الأجزاء دهنية، وعلى جبينه كانت هناك مناطق لامعة. وعندما رفع رأسه بحركة حيوانية مفاجئة إلى الخلف، رأيت منخريه الواسعين من الداخل الأَسْود.

ـ قلت: «صباح الخير» وابتسمت.

ـ قال: «ما الحكاية؟» بتعبير من الدهشة، الصادقة أو المصطنعة، أعفاه من الابتسام.

ـ «أوه، كنت أمارس رياضتي الصباحية، فخطر لي أن أقوم بالزيارة. شعرت بأن رؤيتي لك أنت وهارتلي مرة أخرى ستكون شيئاً بديعاً، الآن بعد أن أصبحنا جيراناً. كما أردت أن أحضر لك شيئاً. هل من الممكن أن أدخل لحظة؟» وكنت قد خططت لذلك مقدَّماً. ووضعت قدمي على عتبة الباب.

وألقى «بن» نظرة وراءه؛ ثم فتح الباب على نحوٍ أوسع بإحدى يديه،

على حين فتح بيده الأخرى إحدى الحجرات الأمامية. ثم عاد إلى الوقوف وبسط ذراعيه بحيث يؤلف هو والبابان ستاراً أو حاجزاً ليسوقني بلا أذى إلى الحجرة الأمامية.

كان من الجلي أنها حجرة النوم الاحتياطية. وكانت صغيرة نوعاً ما، وتحتوي على أريكة ومقعد، وخزانة ذات أدراج. وأضاءت أشعة الشمس زهوراً حمراء متألقة فوق الستائر السادة (غير المخططة). وكانت تفوح من الحجرة رائحة تصنيع الأثاث وطلائه، والغبار، وعدم الاستعمال. ومن الواضح أن الأريكة التي تستخدم كسرير تحت غطاء قطني أبيض مخطط، من الواضح أنها لم ترتَّب. وكانت هناك صورة فوتوغرافية ملونة موضوعة في إطار لقطّة عتابية. ودخل «بن»، ثم أغلق الباب، وأحسست لحظة أنني أخاف منه.

كان المكان ضيقاً. ولم يطلب مني الجلوس، ومن ثمَّ فقد وقف كل منا في مواجهة الآخر بجانب الأريكة. واعتزمت أن تكون خطوة البداية هي أن أمضي في الثرثرة المرحة، واستقر رأيي على ترتيب للحديث تمنيت الآن أن أذكره. كانت هناك أشياء كثيرة خليقة بالاكتشاف، وربما كان الوقت قصيراً جداً لاكتشافها.

- «كيف حال ماري؟ أرجو أن تكون بخير؟» وتذكرت أن أدعوها ماري. «كان أملي أن أظفر بلمحة منها. فلدي رسالة صغيرة لكما معاً.»

قال بن: «إنها ليست هنا.»

كنت متأكداً من أنه يكذب. «على كل حال، هذه هي الرسالة الصغيرة» وناولته مظروفاً موجَّهاً إلى السيد والسيدة ڤيتش.

تناول «بن» المظروف، ونظر إليه عابساً، ثم منحني نظرة خالية من المعنى وقال: «أشكرك.» وفتح الباب.

قلت: «ألا تقرؤها من فضلك؟ إنها مجرد دعوة.» وابتسمت مرة أخرى.

أطلق «بن» نوعاً من تنهيدة الغضب، وفتح المظروف. وفيما كان يفعل ذلك شاهدت عبر كتفه، ومن خلال باب المطبخ الذي كان مغلقاً حين دخلت، أنه أصبح الآن موارباً. وانبعثت عن طريق القاعة رائحة الورود الثقيلة، محمَّلة بقدر أكبر من الغبار، كانت هذه الرائحة أشد إثارة للحزن داخل المنزل منها خارجه. وكنت أستطيع أن ألمح «المحراب» يعلوه الفارس البني المتسائل. وتطلع «بن» ببصره إلى أعلى، وأغلق باب حجرة النوم مرة أخرى.

قلت وأنا ألوِّح بذراعي بطريقة تفسيرية صوب الدعوة، ومحاولاً بلفتات من الأُنْس المتكلِّف أن أملأ الحجرة الصغيرة وأسيطر عليها، وأن أتصنع ضرباً من السيولة لتبادل الحديث: «كما ترى.. إنها مجرد دعوة رسمية، وانظر، لقد كتبت في ظهرها أنني أتمنى حضورك أنت وماري. وقد دعوت واحداً أو اثنين من أصدقائي من لندن.» ولم يكن ذلك حقاً بالطبع، وإنما اعتقدت أن ذلك يمكن أن يكون أقل دلالة على الإنذار بالشر من دعوة لا يحضرها إلا ثلاثتنا، «وإني لأتساءل إن كان من الممكن أن تتكرم أنت وزوجتك بالسير إلى «شراف إند» وتناول شيء من الشراب يوم الجمعة، إنه لقاء غير رسمي تماماً، ولا حاجة بكما إلى ثياب خاصة أو أي شيء، كما أنكما لن تمكثا طويلاً.» ولما كان ذلك لا يبدو على نصيب كبير من التهذيب، ولما كان «بن» ما زال مقطباً وهو ينظر إلى البطاقة محاولاً أن يفك شفرة رسالتي الكريمة المكتوبة في ظهرها، فقد أضفت: «وبالطبع إن كنت تفضِّل أن تأتيا وحدكما فحسب يوم الخميس أو السبت أو في أي وقت حقاً، فأنا لست مرتبطاً. أرجو أن تستطيعا ذلك. إن منزلكما ساحر، متقن الصنع. وأنا على ثقة من أنكما تستطيعان أن تشيرا عليّ فيما يختص بمنزلي - كما أرغب بشدة أن أسألكما عن عدة أشياء.. عن القرية.. وعن المحليات و...»

قال بن: «لا أظن أننا نستطيع الحضور»، ثم أضاف: «أنا آسف.»

- «آه طيب، إذا لم تتمكّن من ترتيب أيْ شيء الآن. أتوقَّع أن تكون مشغولاً، وأن الأمر ليس مناسباً الآن، فمن الممكن أن نحدد شيئاً فيما بعد، ربما تمكنت من الزيارة في الأسبوع التالي، فأنا أمر من هذا الطريق في كثير من الأحيان. وقد تعودتُ أن أكون مشغولاً، أما الآن فأمامي وقت العالم كله، أتجد ذلك الآن بعد أن تقاعدت؟ بالطبع، هذا شيء رائع، والمرء محظوظ وبخاصة حين يقيم في مكان كهذا. أجل، إنني أحب منزلك. أهذه هي قطتك بوسي، أليست ساحرة؟» وأومأت إلى الصورة الفوتوغرافية الملونة للقطة المعلقة فوق السرير.

استدار «بن» نحو الصورة، وتراخى جبينه وفمه لحظة، واتسعت عيناه وأضاءتا. «أجل، إنه تامبرلين. وقد سميناه تامبي، وهو ميت الآن.»

- «يا له من اسم فخم. من المهم الاسم الذي تدعو به قِطًّا. القطط العتابية هي قطط القمة، ألا تعتقد ذلك؟ كنتُ دائماً صخرة منحدرة، فلم أتمكن أبداً من الاحتفاظ بحيوان، هذا شيء يدعو إلى الشفقة. أتحتفظ بقط الآن؟».

قذف «بن» بطاقة الدعوة والمظروف المطبَّق على السرير. هذه الحركة المباغتة وضعت حداً لثرثرتي. وقف لحظة فاغراً فاه، كاشفاً عن أسنانه غير المنتظمة، في شيء من التردد. ونكش شعره الكث القصير الفئراني، ثم قال: «إسمع» وسكت سكتة قصيرة، ثم ابتلع ريقه لاهثاً، وعلَّقت أنا تنفسي. ووقفنا كتلتين ضخمتين في الحجرة، وقد انحنيت نحوه قليلاً: «إسمع، المسألة لن تمضي بهذا الشكل، آسف، إننا لا نريد أن نعرفك. آسف أن أضعها على هذا النحو، ولكن يبدو أنك لم تفهم التلميح. أعني، أنه لا جدوى من هذا، أليس كذلك؟ حسناً، كنتَ تعرف ماري منذ أمد بعيد، غير أن الأمد البعيد هو أمد بعيد، هي لا تريد أن تعرفك الآن، وأنا لا أريد أن أبداً. أرأيت؟ ليس عليك أن ترى الناس الآن لأنك رأيتهم ذات يوم، أو لأنك كنت معهم في المدرسة أو أي شيء

آخر. الأشياء تتغير، وللناس عوالمهم الخاصة، وأماكنهم الخاصة، ونحن لسنا على شاكلتك. حسناً، هذا شيء جلي، أليس كذلك. ونحن لا نريد أن نحضر إلى حفلاتك وأن نلتقي بأصدقائك وأن نشرب مشروباتك. هذا شيء لا يدور بخلدنا. كما لا نريدك أن تقحم نفسك هنا كل ساعات النهار؛ آسف إذا بدا هذا أشبه بالوقاحة، ولكن من الأفضل أن تفهم هذا مرة واحدة وإلى الأبد. أنا لا أعرف كيف تعيش مع أصدقائك في عالمك، ولكننا لا نحيا على هذا النحو. نحن قوم هادئون، ونحب أن ننفرد بأنفسنا. أرأيت؟ إذن، فكل شيء يتعلق بحكاية «أصدقاء المدرسة القدامى»، أو بما هو من هذا القبيل، حاول أن تنساه. بالطبع، سنقضي وقتاً من النهار معك إذا التقينا بك في القرية، غير أننا لا نريد أن نتزاور، ليس هذا ما يلائمنا. وهكذا، شكراً على دعوتك ـ ولكن، ها نحن أولاء.» وهنا أخذ يعبث بمقبض الباب في صوت مسموع لكي ينذر هارتلي ـ على ما أظن ـ بالابتعاد عن الطريق.

وفي أثناء كلامه واستماعي إليه، كنت أنظر إلى أسفل، إلى الأريكة الضيقة التي تكاد ألا يغطِّيها شيء. ولم تكن بالتأكيد سرير «بن»؛ إذن، فهما ينامان معاً. استمعت إلى هلوسته بلا أية دهشة تقريباً، وكأنها شريط كاسيت اخترعته بنفسي، وأحسست في الوقت نفسه بأنني غاضب، مضطرب، معذَّب بيقيني من أن هارتلي موجودة في المنزل، صامتة، تتوارى مني. لماذا؟.

شيء واحد اعتزمته مسبقاً بإصرار، وهو: أياً كان رد فعل «بن» فإنني لن أفقد أعصابي، ولن أُظْهر أي انفعال. وفي هذه اللحظة كان من المؤكد أنني سأجد مشقة عظيمة في الاحتفاظ بقناعي المتحضر. أما «بن» فقد وقف متصلباً، بعد أن ألقى خطبته ـ منفعلاً بكلماته نفسها، عابساً وكأنما استولت عليه الحيرة، ومحملقاً في صورة القط. ولم يكن قد رفع صوته، ومن الحق أنه تكلم بصوت خفيض، وإن تكن نبراته توكيدية، كما أنه لم

يفتح الباب بعد، ولا ريب أنه كان يريد ـ عندما فعل ذلك ـ أن يكون متأكداً من أنه أنجز مهمة سريعة بإخراجي من المنزل.

أحسست بأن ميلي اللعين إلى الخجل يخونني. كان وجهي وعنقي يغيران من لونهما، وكانت وجنتاي تلتهبان. قلت بأقصى ما في وسعي من البرودة والفتور: «حسناً، فليكن، ولكن أرجو أن تعيد النظر في هذا الموضوع. فنحن جيران على كل حال. وإذا ظننت أنني واحد من طبقة النبلاء أو أي شيء من هذا القبيل فأنت مخطىء تماماً. أنا شخص غاية في البساطة، كما أرجو أن تكتشف ذلك. سأكتب إليك فيما بعد. وأتساءل إن كنت أستطيع أن أرى ماري لحظة قبل أن أذهب؟».

ـ «إنها ليست هنا.»

ـ «أتوقع أن تكون في الخارج للتسوق. ربما رجعت حالاً؟ أود أن أراها.»

ـ «إنها ليست هنا!» والتقط «بن» المظروف وبطاقة الدعوة من السرير وقذف بهما على الأرض. ثم فتح الباب على مصراعيه في ضجة شديدة.

كان يقف بيني وبين الباب. ومرَّت لحظة محرجة. تراجع قليلاً، وأتيت بيدي بحركة تدل على التنازل، مرسومة غريزياً لتبديد جو العنف المفاجىء. تجاوزته ودخلت الصالة، وشرعت أتلمس الباب الأمامي، وبدأ «بن» الذي كان يتبعني مباشرة ـ في فتح الباب، فتلامست يدانا. فكان عليّ إذن أن أتنحى جانباً مرة أخرى للخروج من المنزل. لم أكن قادراً على النظر خلفي إلى المطبخ، وكنت على كل حال أعمى بسبب الانفعال. ورأيت في وضوح لا مزيد عليه الألوان القرمزية والبرتقالية المتوهجة لبعض الورود المسرفة في الضخامة التي تنمو على جانب الممر. وأُغْلق الباب بضجة عالية. فتحسست بسرعة الطريقة المعقدة التي رُبِطت بها البوابة، وتمكنت من الخروج إلى الرصيف. وهرولت بسرعة نازلاً من التل، ولكنني لم أركض. وطفقت أمشي على نحوٍ أبطأ فأبطأ، وعندما وصلت إلى القرية كنت

أتسكع. وتناوبتني تـدريجياً مشـاعر حـادة من الغضب والخوف، ونـوع من الخجل المتأجج. هل عَدَوْت خارجاً كالكلب المذعور؟ وقـررت أن الإجابـة عـلى هذا السؤال ليست بـذات أهمية. وتحسست وجنتيّ الملتهبتـين وبرَّدتهـما بظهر يدي.

وما إن ثابت مشاعري العنيفـة إلى الهدوء، حتى صعـد من الأعماق عـلى مهـل انفعال آخر أشد إظلاماً وعمقاً. أو بالأحرى كانا انفعالـين ملتحمين على نحوٍ وثيق أسود. أحسست بألم نافذ يتصل برؤية تلك الأريكة الوضيعة شبه المغطاة واستنتاج أن. . . هارتلي. . . نامت. . . مع صبي المدرسة هذا العجوز الفظ. وكنت أعرف أنني شعـرت الآن بهذا الألم بـالذات لا بسبب الأريكة، ولكن ـ لأنني حتى أكون على يقين ممـا أنا عـلى يقين منـه ـ كنت أحاول أن أحشد معاً ردود فعل معينـة للموقف، صـوراً معينة، أحـاسيس رهيبة معيَّنة. أمَّـا الانفعال الآخـر الذي انضمّ الآن عـلى نحو وثيق إلى هـذا الانفعـال، وتصاعـد قاتمـاً متـوهجـاً إلى السـطح فهـو: ضرب من الحبـور المخيف. لقـد كان «بن» كـما ـ خشيت ـ وتمنيت بـالضبط. كـان طـاغيـة بغيضاً. كان رجلاً وضيعاً إلى أقصى حد. ولهذا. . . ولهذا. . . .

(٣)

قال بِرِجْراين آربلو: «كل زواج صامد يقوم على الخوف.».

ولكن دعوني أشرح. أكتب هذه الصفحـات، كما كتبت مـا قبلها (منـذ صفحة ١١٢ في واقع الأمر)، في لندن، في شقتي الجديدة المهجورة البائسـة الغريبة. وقد خُيِّل إليّ أنني إذا أردت أن أعيش كـما يعيش الناسـك محتوياً للعالم، فستكون هذه الشقة أفضل مكان للسكنى! (هنـاك من قال لي شيئـاً كهذا مؤخراً. أظنه روزينا؟). حدثت أمور كثيرة، فاعتقـدت أنني أستطيـع كتابتها في سرد متصـل دون كثير من الـرجوع إلى الـزمن الحاضر. ومن ثمّ فأنا أكتب حياتي قبل كل شيء مثلما أكتب رواية! ولِمَ لا؟ كانت المسألـة هي العثور على قالب، فوجـد التاريـخ الذي هـو تاريخي ـ بـطريقة مـا ـ هذا

القالب لي. سيكون أمامي وقت طويل للتروي والتذكر أثناء مضيي في الكتابة، لكي أجتر وأتفلسف، لكي أستقر في الماضي البعيد، أو لكي أصف الحاضر الذي لم يتشكَّل بعد؛ ومن ثمّ تستطيع روايتي أن تكون ضرباً من المذكرات ونوعاً من اليوميات. فالماضي والحاضر متلاحمان على كل حال، بل هما شيء واحد على وجه التقريب، وكأن الزمان اقتطاع مصطنع لمادّة تشتاق إلى الانضمام، وإلى التفاعل، وإلى أن تصبح ثقيلة وصغيرة للغاية مثل تلك الأجرام السماوية التي يحدثنا عنها العلماء.

وصلتُ إلى هنا منذ يومين، وقضيت معظم وقتي في الكتابة. وفي المساء التالي، كما سأروي قريباً ـ قمت بزيارة «برجراين». واليوم سوف أستأنف الكتابة. والغريب أن الكتابة هنا أيسر وسط هذه الفوضى التي تحاصر المرء وتضيِّق عليه الخناق، أيسر منها في الفضاء الطَلْق في «شراف إند». كنت قادراً على التركيز، وسأستقل القطار عائداً إلى بيتي هذا المساء (البيت؟ البيت). فاتصلت هاتفياً بالمركز المحلي لسيارات الأجرة ليلتقي بي عند المحطة. وأنا أجلس الآن إلى منضدة متداعية بجوار نافذة أستطيع أن أرى منها القمم المريشة التي لا سبيل إلى وصفها لشجرة خضراء رقيقة ملساء، وفيما وراء أوراقها المرحة أرى خليطاً من الجدران والنوافذ والمداخن وظهور منازل شُيِّدت من قوالب الطوب البنية الڤيكتورية في هذا الشطر من لندن. وكنت قد بعت شقتي الرحبة طلقة الهواء التي تقع في بارنز على مقربة من النهر، ومن السكة الحديدية، في عجلة محمومة أثناء شرائي لـ «شراف إند». وكانت نيتي هي أن تكون الشقة الصغيرة بمثابة كنيسة صغيرة للتكفير. ولم يتح لي الوقت لترتيب الأثاث. وإلى جانبي وأنا أكتب مقعد ذو مساند يعلوه جهاز تليفزيون (حمداً لله على استحالة وجود تليفزيون في «شراف إند»). ووراء ذلك تنتصب خزانة للكتب في مواجهة الحائط، مولية ظهرها الرمادي لي، ويكسوها نسيج العناكب، وينخرها سوس الخشب. والصور والمصابيح والكتب، وتحف الزينة والأبسطة الملفوفة تغطي الأرضية، مصحوبة بشظايا متناثرة من الزجاج والصيني

المكسور. وقد استعجلت رجال الإزالة، فلم يكونوا في أفضل حالتهم. وكرتونات أدوات المطبخ التي لم تُفْتح بعُد تملأ المطبخ الضيق. وحتى بعد أن بِعْتُ أشياء كثيرة، ووضعت أشياء أخرى في المخزن (بما في ذلك عدة حقائب مليئة بتذكارات المسرح) فما برح المكان غاصاً بأكثر من اللازم. وحجرتا النوم صغيرتان، غير أنهما تشرفان على منظر جذاب في شارع خلفي تنمو فيه نباتات وأشجار كثيرة خارج المنازل الصغيرة. والمطبخ ـ إذا تمكنت من الدخول فيه ـ يعد مُرْضياً، ويحتوي على موقد غاز جيد، وثلاجة بالزيت والثوم والريحان، ومزيد من الجبن، وطبق لذيذ من الكوسة المسلوقة الباردة (لا ينبغي أبداً ـ في رأيي ـ تحمير الكوسة). ولا بد من أن أتذكر شراء مزيد من الكوسة وشيء من الفلفل الأخضر لاصطحابهما معي في رحلة العودة. وفي معرض الحديث عن الطعام تذكرت في هذه اللحظة فحسب أن الليلة الماضية (حينما كنت مع پيري) هي الليلة التي كان من المفروض أن أتعشى فيها مع ليزي وجيلبرت، وأنني نسيت إلغاءها. لا بد أنهما سينفقان اليوم كله في الطهو من أجلي.

كان ما أحضرني إلى لندن هو ما يلي: أظن أن ما دفعني إلى الرحيل أساساً هو إحساس بوجود فاصل زمني على جانب كبير من الأهمية في مشكلة هارتلي: فاصل لإمعان النظر، والتخطيط، وتطهير ضروري معين للنوايا. وكان الدافع المباشر إلى حضوري هو روزينا وسيارتها الصغيرة الحمراء البشعة. فقد رجعت روزينا إلى «شراف إند» في مساء اليوم الذي وقعت فيه تلك المقابلة التي كشفت عن الكثير مع «بن» والتي فرغت لتوي من حكايتها. وقد أدهشتهاوتخلصت منها أيضاً بأن سألتها هل تستطيع اصطحابي بسيارتها إلى لندن، على أن نبدأ الرحلة في الصباح المبكر التالي. كنت أريد أن أرحل للتروي في أمري، كما قلت. كما كنت أريد أيضاً ـ كما سأشرح ذلك فيما بعد ـ أن أعثر على بعض صور هارتلي القديمة التي تركتها في لندن، وكانت الرحلة طريقة طيبة عَرَضَتْ مصادفة للتخلص من روزينا، في هذه اللحظة على أقل تقدير. ذلك أن الأمر لم يكن يقتصر على

هذه المنحة التي وهبتها لها بصحبتي واستعدادي لقبول خدماتها بوصفها سائقاً (تقود السيارة بمهارة شديدة) كوسيلة لإرضائها. وكنت قادراً أيضاً بالإضافة إلى الرحلة أن أبينّ لها ضاحكاً، وكأن هذه الفكرة لم تكن بالطبع جادة على الإطلاق، بأن لا شك أبداً في وجود أي شيء بيني وبين ليزي. وتلقّت روزينا هذه الأنباء ـ وكنت أعلم أنها ستفعل ـ في فتور، وفي نوع من السخاء الحكيم كان من الممكن أن يغضبني لو كنت أفضي إليها بالحقيقة الكاملة. وقد لمّحت إلى أنها ساعدت في «عوتي إلى رُشْدي». هل صدَّقت حقاً أنني هجرت ليزي وأن أساليبها الإرهابية قد أثّرت عليّ؟ أم أنها ارتابت في وجود شيء آخر مختلف تمام الاختلاف يجري في الخفاء؟ من العسير الاستقرار على شيء، فهي ممثلة قبل كل شيء.

غمرتنا الدهشة معاً من أن الرحلة كانت مُبْهجة إلى حد بعيد. لم نتحدث عن شيء شخصي، بل أخذنا نثرثر ونغتاب الناس طيلة الطريق، وفي ذلك الزمان المحدود استمتع كل منا بصحبة الآخر، كما تعودنا في الأيام التي سبقت حب روزينا لي والتي شغفت فيها حباً لها. وفي كثير من اللباقة لم تخبرني إلا بما كنت أريد أن أسمع، ألوان الفشل والإحباطات المفاجئة والإفلاسات والكوارث الشخصية. مشروع فريتزي لتحويل «الأوديسة» إلى فيلم صادف متاعب مالية. «ماركوس» كان يقاضي «آل» بسبب العقد الذي دفعه «نيل»؛ زوج ريتا الثالث هرب مع راقص، وفابيان عاد إلى مصحّة عقلية. **أنا ومن بعدي الطوفان** (Après moi le déluge). بينما سرَّبْتُ عنها بأوصافي لمغامراتي الخائبة في حانة «الأسد الأسود». ودون أن يبدو عليّ أنني مشغول أقل انشغال، تمكنت من التفكير في هارتلي طيلة الطريق إلى لندن. فأنا ممثِّل قبل كل شيء. وأنزلتني روزينا في نوتنج هيل Notting Hill وافترقنا في شيء من الغموض المشوب بالمودَّة. وكانت من الذكاء بحيث لا تتعجلني عند هذه النقطة، وبخاصة إذا كانت تعتقد أنها كسبت ميزة معيَّنة من ممارساتها الناجحة للقوة. ولم تكن لدي

فكرة عمّا تفكّر فيه، أو عمّا تريده، وسرعان ما نسيتها. وإنما أسلمت نفسي لذلك الشعور الذي لم يكن خالياً من السرور والذي ينطوي على شيء من الجنون، ذلك الشعور الذي يغمرني حين أدخل لندن، الشعور المُبَعْثِر المجهول بالعودة داخل النفس في تلك المدينة العملاقة المأساوية - الهزلية tragicomic حيث تنفصم فجأة عرى الرابطة الاجتماعية، سواءً في القطار أو السيارة. سرتُ إلى شقتي (فما كنت أدع روزينا توصلني بسيارتها إلى هناك) وقمت بشيء من التسوق في طريقي. وأسلمت نفسي لحالة من الإثارة الأليمة. وحيَّتْني الحجرات الغريبة عني التي تسودها الفوضى، وما برحت تفوح بحيوات الآخرين - حيَّتني في شيء من العداء. وشرعت تواً في البحث عن صور هارتلي الفوتوغرافية. وخطر لي أنها ربما تكون قد ضاعت في أثناء الانتقال، غير أن كل شيء كان على ما يرام. صببتها من مظروف على المائدة ونشرتها. كانت كلها بنيّة اللون ومائلة ومطويّة من أطرافها. وكانت جميعاً لقطات أخذتُها لها. هارتلي مبتسمة دائماً أو ضاحكة، والريح تعبث بشعرها أو قميصها، وتتخذ أوضاعها على جسر قناة، ممسكة بدراجتها، متكئة على بوابة ذات قضبان خمسة، راكعة وسط الأعشاب وناظرة إليّ بوجه متوهج بالحب. وطفقت أحاول تعقب المتشابهات، وتشييد صلاة بين الوجه الشاب والوجه العجوز، الوجه القديم والوجه الجديد. غير أن الصور كانت رهيبة، موجعة، بسبب عطر الشباب والسعادة الغامر الذي انبعث منها. وفي شيء من الحيطة والعناية بنفسي لملمتها جميعاً بسرعة، وأعدتها إلى المظروف لكي آخذها معي إلى «شراف إند».

ثم بحثت بسرعة عن صورة لأمي، وسرعان ما وجدت واحدة، لم يكن يبدو عليها القلق، بل كانت بوجهها العريض تبتسم بتعبير مرح وإن يكن قوياً، ومألوفاً ألفة رهيبة لي. وكان شعرها المتجمّع إلى الوراء يكشف عن جبين مستدير ضخم، وعيناها الأمرتان اللتان تتسع المسافة بينهما تحدقان مباشرة في الناظر إليهما. لم يكن من الممكن أبداً أن تكون مثقفة، ولكنها

كانت تستطيع أن تنجح في مهن كثيرة. كانت مرحة في معظم الأحيان، غير أنه مرح يكاد يكون مستمداً بجلاء أو مرتبطاً بحياة زاهدة بسيطة لا تثريب عليها. وقد تخطّى عصر الجاز أبويّ بلا مساس. كما عثرت أيضاً، وإن لم أبحث عنها، على صورة مؤثرة (مؤثرة للغاية) لأبي، في عنفوان شبابه، ويرتدي البزة العسكرية لضابط في المدفعية في الحرب العالمية الأولى. كيف استطاع بحق السماء أن يبقى بعد تلك الإبادة الكاملة التي لا تبقي ولا تذر، ولماذا لم أوجِّه إليه أبداً أسئلة مفصَّلة عنها؟ كان هو الآخر ينظر إليّ، ولكن دون ابتسام، وبغير ثقة في النفس، بعينين يشيع فيهما القلق. كم يبدو فمه ناعماً مفعماً بالحيوية والشباب! وأياً كان الأمر فهل استطاع هذا المخلوق اللطيف الحيّ أن يتصرف تصرف الجندي؟ كانت أمي هي التي تتخذ القرارات وهي التي تجادل أصحاب الحِرَف اليدوية. ربما كان شيء من خشونتها الشمالية فيّ هو الذي جعلني صعب المراس بحيث أُرغم العالَم على قبولي وفق تقويمي الخاص.

ثم لمحت صورة فوتوغرافية لعمي هابيل وعمتي إستيل يرقصان معاً، تطل عليّ من تحت بعض الصور الفظيعة لجيمس فوق صهوة فرسه (لماذا احتفظت بهذه الصور على الإطلاق؟). انتزعتها. كانا يرتديان ثياب السهرة، ويبتعدان كل عن الآخر - فيما كان يبدو جلياً من نظرة كل منهما للآخر أنه للحظة فحسب. وفي اللحظة التالية سوف يتعانقان عناقاً وثيقاً. تانجو؟ فالس؟ فوكستروت بطيء. كان في وضعهما شيء ما لا يعلن سعادتهما فحسب، بل اعتمادهما المتبادل كلٌّ على الآخر، وعلاقتهما المُرْضية تماماً: هو بفحولته، وسطوته، وأناقته، وقدرته على الحماية، وهي برقتها ورشاقتها ووثوقها وإذعانها، وحبها الواثق. كانت فاتنة بحق. عمتي إستيل المحظوظة المسكينة، لم تَعِش من العمر حتى تفقد تلك المفاتن الساحرة. ومهما يكن من أمر فهل أمتلك تلك الصورة؟ تذكرت الآن بغتة أنني سرقتها من ألبوم الأسرة في رامسدنز. قلبت الصورة البنّية الجامدة، وشاهدت الصمغ في

ظهرها وقطعة صغيرة من زغب الصفحة البنية الداكنة السميكة التي انتزعتها منها.

بينما كنت أنطلق مع روزينا في طريق السيارات في الصباح المبكر المشمس وأثرثر عن كاليفورنيا وعن أحدث مشاجرة في مسرح العدالة (Equity)، كنت أؤلف رسالة أعتزم كتابتها لهارتلي فور وصولي إلى لندن. ولكنني شعرت أولاً بعد وصولي بحاجة أشدّ إلحاحاً لتصفية ذهني وترتيب نفسي وتعزيتها بكتابة وصف كامل لكل ما حدث. ثم وجدت بعد ذلك أسباباً أخرى لعدم كتابة تلك الرسالة. كنت في الواقع في حالة من التهيُّج، لم تكن تردداً بالضبط، ولكنها ضرب من الانفعال القلق الخائف الممتزج بنفاد الصبر. كنت لا أزال أناضل لأطرد من نفسي ألماً مخيفاً يتولد عن الغيرة خالياً من التعقل وقادراً على إصابة الفكر بالشلل، ويقبع منتظراً في ركن من أركان روحي المشتّتة. وكان عليّ أن أبعد هذا الألم عنيّ بالتفكير، وكانت ثمرة تفكيري على النحو التالي تقريباً.

عندما تركت «بن» بعد تلك المقابلة الشنيعة، شعرت بطرب وحشي شرّير إذ أدركت أنني حرّ الآن في بغضه كما أشاء؛ بل كنت حرّاً لأفعل أكثر من ذلك، أوه أكثر من ذلك بكثير. وخُلاصة القول الصريح للمسألة هو أنني أصبحت الآن قادراً على التفكير في حدود «إنقاذ هارتلي». هناك ضرب من الوثبة العنيفة المخيفة قُدُماً إلى الأمام في هذه الفكرة، وكأنما اندفع بقوة بواسطة شيء يوجد بالفعل في مستقبل بعيد. كانت الكراهية والغيرة والخوف والحب المشتاق العنيف تعتمل معاً في عقلي. أواه، يا لفتاتي المسكينة، أواه لفتاتي العزيزة المسكينة! أحسست بعذاب الحب المتملك الذي يصبو إلى فرض حمايته، وبألم عميق كلما فكرت كيف أخفقت في أن أصد عنها عمراً بأكمله من التعاسة. كم سأرعاها، وكم سأعزيها، وأحبها الآن حباً كاملاً لو أن... غير أنني ما زلت أحتفظ ببقية من التعقّل تكفي لمواصلة التفكير.

استعرضت الشواهد فلم أجد في نفسي سوى شكّ ضئيل في ما تشير إليه. هارتلي تحبني، وقد نَدِمتْ طويلاً على أنها فقدتني. وكيف يمكن ألا تندم؟ إنها لا تحب زوجها. وكيف يمكنها أن تحبه؟ لم يكن متميزاً من الناحية العقلية؛ فلا ألمعية ولا عذوبة روحية في ذلك الرجل. كما أنه لم يكن جذاباً من الناحية الجسمانية، بفمه الشهواني الواسع الذي لا شكل له، ونظرته التي تشبه نظرة تلميذ خائب. كما كان ـ على ما يبدو ـ همجياً وفتوة. كان طاغية، ومن المحتمل أنه مصاب بغيرة مزمنة، كلب غبي منفِّر؛ شخص محدود الأفق، معزول، لا إحساس لديه ببهجة الحياة. وكانت هارتلي أسيرة طوال تلك السنين. ولعلها ـ في الأزمنة ـ قد فكرت في الهرب؛ ولكنها سقطت بالتدريج في اليأس، كما تسقط كثير من النسوة المعزولات اللاتي تُساء معاملتهن. من الأفضل ألا تقاتل، وألا تَأْمَل. ولا بد أن صدمة رؤيتي مرة أخرى كانت هائلة. وبالطبع، كانت قد هَضَمَتْ بعضَها حتى كان اكتشافي لها. ومن اليسير تفسير سلوكها السلبي الخائف. من المحتمل أنها كانت تخشى زوجها؛ غير أنها كانت أشد خوفاً بكثير من حبها القديم لي الذي ما زال حياً، مشتعلاً هناك مثل نار تفجرت عن بئر نفط في باطن الأرض؛ حب يستطيع الآن ـ على أقل تقدير ـ أن يدمر تماماً راحة بالها اليائسة البسيطة.

عن هذا كلّه، وعن كيفية أخذها بعيداً، إذا شاءت، اعتزمت أن أكتب إليها رسالة، سأعمل ـ بالطبع ـ على تسليمها سرًّا إليها. غير أن العقل والتروي مصحوبينْ بالخوف ـ أوحيا إليّ بالتأجيل. قال الخوف لو أنني وقعت في أي خطأ رهيب الآن فسوف أفقد عقلي. وقال العقل إن الشواهد ليست قاطعة ومن الممكن أن تقرأ على أنحاء أُخَر. وربما كانت شخصيتي المعادية لـ «بن» شاهداً غير موثوق به تماماً. أيكون «بن» قد كشف عن نفسه في هذه الصورة المنفِّرة التي تبدت في لقائنا بسبب سلوكي الذي ينطوي على كثير من الاستفزاز؟ على كل حال، لقد سيطر على نفسه

حتى النهاية. غير أنني شعرت منذ البداية بدرجة وحشية لا معقولة من العداء. ثم كان هناك السر الذي أحاط بتيتوس. لماذا لاذ بالفرار؟ أكان طفلاً مشكلة، أم لعله كان جانحاً؟ أكانت مأساة رحيله والحزن المشترك هما اللذان وثّقا علاقتهما؟ الحزن المشترك، والفراش المشترك. كان لا بد من كبح جماح أفكاري، وهناك ممرات طويلة مظلمة تنتظر الركض فيها. كما كانت هناك بالطبع (وكان هذا شيئاً هائلاً) إمكانية أنه على الرغم من كونه دمياً وحشياً غبياً يخلو من كل جاذبية، فهي تحبه، وهي قانعة به على سبيل التعقّل وإيثار الحكمة. وقد أجبتُ على سلسلة من الأسئلة، وكان هذا مبعث رضاي. ولم يبق غير هذا السؤال، وهو السؤال الأخير: **أكانت تحبه رغم هذا كله؟** غير أن هذا محال. ومع ذلك، لا بد من أن أكتشف الأمر. ينبغي أن أعثر على الإجابة قبل أن أشرع في مخططاتي ومشروعاتي التي كانت تشق على انتباهي وإرادتي. ينبغي عليّ أن أنتظر، كل شيء يجب أن ينتظر حتى أجد إجابة على ذلك السؤال.

ولكن كيف؟ لم أكن أجرؤ على الكتابة إليها ببساطة وسؤالها. الخطر هنا جسيم، وأدركت وأنا أفكر بعناية في هذا الموضوع أن إجابتها لا مناص من أن تأتي محوطة بالغموض، ثم (وأنا أتحدث عن أمس) لاح لي الحل، الحل الفظيع، وإن يكن ضرورياً ـ للمشكلة. وعن هذا الموضوع سأكتب في الوقت المناسب. وفي هذه الأثناء اسمحوا لي بفاصل من الاستراحة. ولكي أبدأ في الراحة اتصلت هاتفياً بـ «برجراين»، وخرجت للتسكع الليلة الماضية وسكرت معه، وما تحدثنا عنه سأرويه الآن، ما دام بعضه يتصل بموقفي. والحق أنني أفكر فيه الآن، ويكاد كل شيء في العالم أن يكون متصلاً بموقفي. بالطبع لم أخبر «برجراين» بشيء عن هارتلي. فأنا لم أذكرها له أبداً، وإن كنت قد لمّحت مرة بغير قصد إلى «أول حب».

قمت بمزيد من التشوق، وحملت العناصر التي يتألف منها عشاؤنا إلى شقته في هامپستيد. وقد استغرق إقناعي لـ «پيري» وقتاً طويلاً بأن من

الغباء، ومما ينافي الأخلاقيات أن نغشى مطاعم مزدحمة باهظة الأسعار لكي يُقَدَّم لنا طعام رديء بواسطة جرسونات يضمرون لنا كل ازدراء ونغادر المكان قبل أن نتأهب للخروج. وكما توقعت أمضينا أمسية طويلة مسترخية، وأكلنا صنفاً لذيذاً من الكاري (طهوته بنفسي، لأن پيري لا يستطيع الطهو) بالارز والسلاطة الخضراء، تتبعها وليمة من الفواكه الطازجة مع البسكويت والكعك، وشربنا زجاجات ثلاث من نبيذ (كلاريت) برجراين الفرنسي الفاخر. (لست طهورياً تافهاً يرفض شرب النبيذ مع الكاري.) أقبلنا بعد ذلك على القهوة والويسكي والحلوى التركية. وأحمد الله الذي وهبني دائماً هضماً جيداً! ما أشد حزن المرء على أولئك الذين لا يستطيعون الاستمتاع بالمباهج التي هي أولاً وأخيراً المباهج الأولية للحياة اليومية، والتي ربما كانت بالنسبة لبعض الناس المباهج الوحيدة، أعني الطعام والشراب!.

أعترف بأنني لم أذهب إلى «برجراين» لمجرد قضاء فترة في الشرب والثرثرة مع صديق قديم، وإنما للرغبة في الصحبة الرجولية، مجرد الصحبة الرجولية المشتركة. إشتراك الذكور الذي هو أشبه حقاً بالتواطؤ في الجريمة، في الثأر، في حسم الأمور، في الاستمتاع بالحاضر في نهم، حتى لو كان ذلك في جهنَّم! وفي حالتي هذه ينبغي أن أضيف على كل حال أن هذا لا يتضمن المحادثة الفاحشة المبتذلة. فأنا لا أطيق الفسق الذي يخلو من الفن. وكان لا بد لي، منذ زمن بعيد، أن ألقِّن «پيري» - وغيره - دروساً حادة في هذا الصدد. فيما خلا ولفريد. لم يكن أبداً بذيء اللسان.

وهكذا بعد أن أمعنت الفكر وعقدت عزمي، كنت في حاجة إلى مهلة للاسترخاء، أستطيع أن آخذ قسطاً من الراحة، وأستجمع قواي. هارتلي تستطيع الانتظار، ولن تلوذ بالفرار.. لأنها لا تستطيع الفرار.

قال برجراين: «إن كل زواج صامد يقوم على الخوف. الخوف شيء أساسي. احفر في الطبيعة البشرية، فماذا تجد في القاع؟ خوفاً وضيعاً ممززاً

قاسياً لا يبصر إلا نفسه، سواء جعلك تنتعل حذاءك أو جعلك ترتعد. أما فيما يتعلَّق بالزواج فإن الناس يستقرون ببساطة في أوضاع السيادة أو الخضوع. وأحياناً بالطبع «يشبُّون معاً» أو «يحققون انسجاماً»، ما دمت مرغماً على التعامل بتعقل مع مصدر للرعب في حياتك. وأشك في وجود زيجات قلائل سعيدة حقاً، كل ما في الأمر أن الناس يخفون تعاستهم وخيبة أملهم. كم عدد الأزواج السعداء الذين نعرفهم؟ فليكن، «سيد» و«روزماري»، وقد أنجبا أطفالاً ظرفاء، وكل منهما يتحدث إلى الآخر، ولا يكفَّان عن الثرثرة أبداً، هذا نوع من المعجزة، ولكن هل نعرف حقاً، وإلى متى سيدوم هذا؟ لا أستطيع التفكير في أناس آخرين، وإن كان كثير منهم يبدون على ما يرام، ولكن تصادف أنني أطلعت على ما يدور وراء الكواليس! لك الله يا تشارلز، فقد كنت رجلاً حكيماً لأنك لم تتزوج قط. بقيت طليقاً مثل ولفريد داننج. لا تضع الطوق والأغلال أبداً. يا للسيد المسيح، إنني أبغض النساء. غير أنني لا أستطيع أن أسير في الاتجاه الآخر أيضاً (أي الاستغناء عن النساء). ولست في حاجة إلى الخجل وإلى أن تبدو متظاهراً بالحياء، أنا لم أولع بك إطلاقاً، وأعرف ما بينك وبين فريتزي آيتل Fritzie Eitel! كلا ـ ولكنني لا أمانع في الاتصال بولفريد العجوز إذا طلب مني ذلك. ماذا فعل ولفريد العجوز للجنس؟ لا يدري بذلك أحد على الإطلاق. ربما لم يكن لديه شيء من هذا، فإذا كان الأمر كذلك فهذا خير له. ما زلت أفتقد ولفريد. كان رجلاً حلو المعاشرة. كما كان كريماً، ويحلو له أن يكون السبب الذي يؤدِّيه حضور البديهة في الرجال الآخرين. له الله، لقد كان يلهمني. أما السُّكر مع ولفريد العجوز فهو أشبه بالجحيم، كيف كان شكله؟ أتعرف أن ليزي شيرر تعاشر جيلبرت أوبيان؟ أظن أن هذا ذكاء منهما معاً.».

ـ «وأنا أيضاً أفتقد ولفريد. أجل، سمعت عن ليزي.» وكان من دوافعي الصغرى حين ذهبت لرؤية برجراين أن أكتشف إن كان هناك

قيل وقال عني أنا وليزي، وإن كان هناك، فما عليّ إلا أن أدحضه. وكان من الظاهر أن پيري لم يسمع شيئاً. «إذن فأنت وپاميلا. . . ؟».

- «إنتهى الأمر بيننا حقاً. أعني أنها ما زالت تعيش في المنزل، ولكننا لا نتصل. هذا هو الجحيم بعينه يا تشارلز، الجحيم، كما لا تعرفه، أن تكون مرتبطاً بشخص تفسد بينك وبينه كل ينابيع الكلام وتتسمم، كل ما تقوله خاطىء أو شرير. يا للمسيح، إنني لاقط عفن. أولاً، تلك البغي روزينا، ثم صديقة مثل «پام». هل رأيت روزينا مؤخراً؟».

- «كلا.».

- «وكذلك أنا، غير أنني في كل مرة أدير فيها التليفزيون، أراها أمامي، هذه لعنة بشعة. أظن أنني أحببتها ذات مرة. أو لعلها جعلتني أشعر بما شعر به مارك أنطوني الأمبراطور المشبوب العاطفة مَيَّال إليها Penché sur elle... l'ardent ımpérator... كل ما كنت أراه في عيني روزينا كان انعكاساً لنفسي. ثم رأيت بعد ذلك محكمة الطلاق. عيب روزينا هي أنها تشتهي كل رجل: يوليوس قيصر، السيد المسيح، ليوناردو، موتسارت، ڤيلاموڤيتش Wilamowitz السيد چلادستون، د. هـ. لورنس، جيمي كارتر - ادْعُهُ باسمه، فسرعان ما تشتهيه. أظنّ أنك لا تريد أن تنتزع مني «پام» أيضاً، أليس كذلك؟ كلا؟ جميل، أنا لا أستطيع أن أنقل إليك ما يشبهه هذا الأمر، إنه أشبه بمعركة السكاكين، وما زالت دائرة حقاً - فليس منا من يملك من القوة ما يستطيع به أن يبدأ ترتيبات الطلاق، إجراءات الطلاق هي الجحيم بعينه، عليك أن تفكر، وأن تقرر، وأن تكذب. أعتقد أن لديها شخصاً آخر، لا أريد أن أعرف. إنها ترحل كثيراً، كل ما أريده هو ألا تستمر في العودة، وأظن أن هذا شيء مريح، إنه الحقد المحض المدمِّر اللعين الذي لا حد له؛ التحطيم الغشوم لكل لمسات الحنان والفرح الصغيرة، وكل ذلك الهراء التلقائي البسيط الذي يصل كائناً بشرياً بكائن آخر. حاولت أن أتواصل معها أحياناً، فكانت ترد عليّ بأشنع ما

يمكن أن تفكِّر فيه في الجواب عليّ. إن روح الإنسان تتخدَّر بالضربات التي لا تنتهي ـ وبالطبع يصبح المرء نوعاً من الشيطان هو نفسه، هذا أمر مفروغ منه، يصير المرء نابغة في الشر. شاهدت ذلك في حالات أخرى، الزوج الذي يشعر بأنه مذنب ـ حتى لو كان ذلك منافياً للعقل ـ هو فريسة إلى غير حد لنزوات الآخر، ولا يتمكن من اتخاذ موقف أخلاقي. وهذا يؤدي إلى الإرهاب المتبادل. أوه، وعندما كنا لا نزال نذهب إلى الفراش معاً كالمعتاد، ويستيقظ المرء أثناء الليل، فلا يجد له عزاءاً سوى أن يتخيل بالتفصيل كيف يمكن أن ينزل السلّم ويبحث عن بلطة ليهشم بها رأس شريكه ويهرسه كالبودنج الدامي على الوسادة. آه، يا تشارلز، يا تشارلز، أنت لا تعرف شيئاً عن هذه المتع الزوجية. إليك مزيداً من الويسكي.».

ـ «شكراً. وكيف حال الفتاة الصغيرة؟ ما اسمها؟ آنجيلا.».

كانت هذه هي ابنة پاميلا من زواجها السابق بـ «جنجر» جودوين.

ـ «لم تعد صغيرة الآن. أوه، لقد التحقت بالمدرسة. على الأقل هذا ما أظنه، فهي تذهب إلى مكان ما يومياً. أنا أجهلها، وهي تجهلني، ولم نلتق أبداً. ولا أظن أن پاميلا تراها أيضاً. «پام» تعاقر الخمر الآن معظم الوقت. وهذا مشهد يدعو للاعتبار. أواه، يا تشارلز، أنت محظوظ لأنك أفلتّ حراً تماماً من كل تلك الفخوخ المخيفة الجارحة حيث تسيل دماء المرء ويصرخ ألماً ويراقب نفسه وهو يتحول إلى شيطان. أنت بعيد عن هذا كله، يا إلهي، إنك ذكي. أنت فتي ناعم نظيف، يا تشارلز، ووجهك غاية في النظافة والنعومة والحمرة كأنه وجه فتاة، وأراهن على أنك لا تحلق (ذقنك) سوى مرة واحدة في الشهر، ويداك نظيفتان للغاية وكذلك أظافرك اللعينة نظيفة (مثل أظافري) وأنت لا تبالي بشيء، حر تماماً، حر لعين تماماً. أجل، أجل ينبغي أن أمضي في الحصول على الطلاق اللعين، غير أن هذا يعني الاتصال بپاميلا وأنا لا أستطيع ـ لا أستطيع أن أواجه الجلوس معها، أو محاولة الجلوس؛ لم يعد أحدنا يجلس في حضور الآخر

على الإطلاق، ولا نحاول وضع خطّة عقلانية ليتخلّص كلّ منا من الآخر. لعلها لا تريد ذلك على كل حال! قد يناسبها أن تقيم هنا وأن تستخدم هذا المنزل كقاعدة لما تفعل أيًا كان هذا الذي تفعله! وأنا أدفع مبلغاً كبيراً من المال في مصرفها كل شهر. . ».

- «ألا تستطيع أن تجد عملاً أو. . . ».

- «عملاً؟ پام؟ دعني أضحك! Laissez - moi rire! لم تكن پام ممثلة أبداً، بل نجيمة (نجمة ناشئة). إنها لا تستطيع أن تقوم بشيء. وكانت تعيش على الرجال طيلة حياتها. كانت تعيش على چنچر، ثم عاشت على ثري أمريكي مسكين قبل ذلك، ولا يدري إلا الله من كان قبله. وما زال چنچر يدفع لها أموالاً خرافية بمثابة نفقة. وبالطبع لن توافق على التخلي عني إلا إذا فعلتُ مثله. وهل تعلم، إنني ما زلت أدفع نفقة لروزينا، مع أنها تكسب خمسة أضعاف ما أكسبه. هل أنا رجل، أم عِجَّة؟ Suis - je un homme, ou une omelette? هذا ما أتساءل به أحياناً. كنت قد ضقت ذرعاً بها ومتلهفاً على التخلص منها بحيث وقّعت على كل شيء. يا إلهي، لو استطعت أن تزيح عني پاميلا أيضاً! أنت فتى محظوظ! متعة جيدة نظيفة في كل مرة، ثم تهيل عليهن التراب. يا للسيد المسيح، بل إنك تمكنت من الافتراق عن كليمنت. لماذا لا أتعلم أبداً؟».

- «إذا ظننت أنني استمعت بكليمنت. . . »

- «عيبك يا تشارلز أنك تحتقر النساء أساساً، على حين أنني - على خلاف بعض المظاهر - لا أضمر لهن مثل هذا الاحتقار.»

- «أنا لا أحتقر النساء. بل لقد وقعت في غرام كل بطلات شكسبير قبل أن أبلغ الثانية عشرة.»

- «غير أنهن لسن موجودات، هذه هي المسألة. إنهن يحيون في عالم الفن الذي لا يوجد، ولن يوجد أبداً. كلهن من صُنْع ذكاء شكسبير وحكمته، وهو يسخر منا من خلال ذلك، حين يملأ نفوسنا بآمال زائفة

وأحلام جوفاء. والشيء الحقيقي هو الحقد والأكاذيب والجدال حول المال.»

قد يبدو من هذا السرد أن «پيري» هو الذي كان يقوم بالحديث كله، والحق أنه كان كذلك حتى نهاية الأمسية. فهو موهوب بتدفق إيرلندي في الكلمات، وإذا سكر تماماً كان من الصعب مقاطعته. وعلى كل حال فقد كنت في مزاج أميل فيه للإصغاء إليه دون أن أتحدث أنا نفسي. وقد وجدت العزاء في شكاواه البليغة، وينبغي أن أعترف بأن روحي المعنوية ارتفعت بسبب متاعبه. وأخشى أن أكون سعيداً ـ أكثر من أن أكون على النقيض ـ بإخفاق زواجه الثاني؛ وكان ينبغي أن أشعر بشيء من الحزن لو تصادف أنني كنت السبب اللاإرادي لسعادته في عُرْسِه الثاني en deuzième noces. مثل هذه المشاعر ليست موضع فخر؛ غير أنها ليست من المشاعر التي لا تشيع بين الناس.

كنا جالسيْن في حجرة الطعام الواسعة الأنيقة في شقة «برجراين». وكان يغطي المائدة مفرش أبيض لطخته بقع كثيرة من الخمر، فبدا وكأنه كان هناك منذ فترة طويلة. وكان «پيري» قد نقل الأريكة ـ السرير» إلى هذه الحجرة، كما ركَّب فيها غلاية كهربائية وجهازاً كهربائياً للطهو (هو الذي طهوت عليه الكاري) وذلك حتى يتمكن من التخلي عن بقية الشقة لپاميلا. وكان الجهاز موضوعاً على مربع من الجرائد مُغَطّى بما يتساقط من الطعام. أما الشغّالة فقد تركت المنزل بعد أن أهانتها «پام». وكانت الحجرة مكدسة بالغبار وتفوح منها رائحة أواني الطهي المحترقة والبيّاضات القذرة. ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يغلق الباب ويوصده كما قال «پيري».

أظن أنني قلت من قبل إن «پيري» يمتلك أضخم وجه لإنسان شاهدته في حياتي، وإن كان ذلك لم يمنعه من أن يبدو وسيماً في أيام صباه. كان وجهاً كبيراً مستديراً، يميل الآن إلى البدانة والترهل، تحوطه (بمعونة العِلْم)

خصـلات كستنائيـة غزيـرة قصيرة (كـان هو الـذي نصحني بإجـراء عملية الإنقاذ لشعري.) واحتفظت عيناه الواسعتان بنظرة من البراءة أو لعلها مجرد اندهاش. وكان رجلاً ربعة متين البنيـان، يرتـدي دائماً ـ حتى في عـزّ القيظ ـ حلله الصـوفية من التـويد مـع الصـديري. كـما كـان يحتفظ بسـاعـة ذات سلسلة، ويتحـدث بلمسـة خفيفـة من لهجـة تشي بمسقط رأسـه أولسـتر Ulster كانت تَختفي تمامـاً بالـطبع عـلى خشبة المسرح، عـلى خلاف لثغـة جيلبرت أوبيان. وكان «بيري» ممثلاً كـوميديـاً ممتازاً، وإن لم يكن في بـراعة ولفريد، فهذا لم يكن يضارعه أحد.

رأيت أن الـوقت قد حـان للتحـول عن مـوضـوع النسـاء. «هـل زرت أيرلندا مؤخـراً؟» كان هـذا السؤال يُطْلقه بيري دائماً، فهـو محوِّل مضمـون لموضوع الحديث..

ـ «أيرلندا! هذه عاهرة أخرى. بحق المسيـح، إن الأيرلنـديين أغبيـاء! وكما قال پوشكين عن البـولنـديين فـإن تـاريخهم كارثـة، ولا بد أن يكـون كذلك. البولنديون ـ على الأقل ـ يعانون بصورة مأساوية، أما الأيرلنديون فيعانون بغباء كبقرة تخور في مستنقع. ولا أستـطيع أن أتصـور كيف يحتمل الإنجليـز هذه الجـزيرة، كـان ينبغي أن يكون ثمـة حل نهائي منـذ أعـوام مضت. على كلٍ لقد حاولوا. كرومويل، أين أنت الآن حين نحتاج إليـك حقـاً؟ بلفاست تمـزقت شر تمزق ولا يعبـأ بـذلـك أحـد. يـا لـه من ألم يـا تشارلز، يا له من ألم، تلك المعاناة الأليمة، الهوان، الثأر اللعين. لـماذا لا يدعون المسـألة تتـوقف عند حـد معين، كـما فعل المسيـح؟ أيستطيـع مائـة قديس أن ينقذوا هذه الجزيرة، هل يستـطيع أَلْف؟ والأدهى من ذلـك أنني لا أستـطيع أن أنسـاها، إنها أشبـه بـالقميص الـذي لا أدري اسمـه، إنها فوقي، إنها تزحف على جسدي. والشيء الوحيد الذي أخرج به أحياناً، في بعض الحالات المزاجية، هو أنني أستطيع الشعـور فعلاً بـالسرور لأن هناك أناساً آخرين أسوأ مني حـالاً، وأن زوجهن الحبيب (إذا كن نساءً) أو ابنهن

أو زوجاتهم قد قتلوا بالرصاص أمام أعينهم، أو أنهم مجبرون على الجلوس في كرسي متحرك البقية الباقية من حياتهم. وهذا يدلك على مدى الشر الذي يعتمل في نفسي. إنني أحيا أيرلندا، أتنفس أيرلندا، ويعلم السيد المسيح إلى أي حد أبغضها، أتمنى لو كنت أسكتلندياً حقيراً، هذا هو معنى البشاعة التعسة في أن يكون المرء أيرلندياً! أعتقد أنني أكره أيرلندا بأشد من كراهيتي للمسرح، وفي هذا القول ما فيه!».

وفي هذه اللحظة فُتح الباب وأطلت منه پاميلا برأسها. ثم بعد أن أغلقت الباب خطت نصف خطوة وسقطت نصف سقطة داخل الحجرة، وحدَّقت فينا بنظرة زجاجية. كانت تلبس معطفاً، ويبدو جلياً أنها حضرت لتوّها. وما زالت وسيمة، وقد وَخَطَ الشيب قدراً كبيراً من شعرها المتموّج المسترسل، وإن كان الآن متسخاً نوعاً ما. وانقلب ثغرها القرمزي الملطخ إلى أسفل عند طرفيه في سخرية عدوانية خالية من السرور. وحملقت في وجهي وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، متجاهلة پيري. قلت: «هاللو، پام.».

والتفتت حولها في شيء من الجهد، وما برحت ممسكة بالباب، وشرعت في الخروج، ثم تلفتت حولها، وقد تغضَّن وجهها في تكشيرة، تحركت شفتاها، فلما جمعت ما يكفي من اللعاب في فمها، بصقت على الأرض، وانحنت لتفحص البصقة، وانطلقت مبتعدة، تاركة الباب مفتوحاً.

وثب برجراين على قدميه واندفع ليغلق الباب بقدمه في عنف، ثم التقط كأسه وقذف بها في المدفأة. ولكنها لم تتهشَّم. فهرول حول المائدة يعلو الزّبد شفتيه، (دون مجاز)، ورفع الكأس عالياً وهو يصرخ «آآآخ!» بصوت أشبه بقطة تبصق، ولكنها في حجم أسد. قمت وأخذت الكأس من يده ووضعتها على المائدة. ثم سار متمهلاً صوب الباب، ونظر إلى الموضع الذي بصقت فيه پاميلا، ومزق ورقة من أوراق الصحف القذرة، وفي عناية غطى بها البصقة. ثم عاد إلى مقعده. «إشرب ، يا تشارلز، أيها الفتى العزيز، إنك

لا تشرب، وما زلت محتفظاً باتزانك.. إشرب كما ينبغي.»

ـ «كنت تتحدث عن المسرح.»

ـ «كنت على حق عندما لم تنشر مسرحياتك. لم تكن شيئاً، لم تكن شيئاً على الإطلاق، هـراء، ولكنها عـلى الأقل لم تتـظاهر بـأنها شيء غير ذلـك. أراك الآن تشعـر بالإهـانة، الغـرور، الغرور. أجـل، أنا أمقت المسرح.» وكان بيري يقصد مـسرح الويست إنـد بلندن. «أكـاذيب، أكاذيب، الفن كله تقريباً أكاذيب. الجحيم نفسها يحوّلها إلى فضـل وجمال. غثـاء. المعانـاة الحقيقية هي... هي... المسيح، أعتقد أنني سكرت... إنـه شيء... مختلف.. تماماً. آه يا تشارلز، لو استـطعت أن ترى مسقط رأسي.. وتلك العاهرة التي بصقت.. كيف يمكن للبشر أن يعيشوا على هذا النحو، كيف يمكن أن يفعلوا ذلـك بعضهم بـالبعض الآخـر؟ لـو اسـتـطعنـا أن نحتفظ بأفواهنا مغلقة فحسب. الدراما والمأساة ينتسبان للمسرح، لا للحياة، هذه هي المشكلة. الروح هي الشيء المفقود، كل فن يعمل على تشويـه الحياة، وعلى إساءة عرضها، المسرح أكثر من الفنون جميعاً، لأنه يبدو أكثرهـا شبهاً بـالحياة، فـأنت تشهد أنـاساً حقيقيـين يمشون ويتكلمـون. يـا إلهي! كيف يحدث عندما تدير المذياع أنك تستطيع دائماً أن تعرف أن المتكلم ممثـل؟ إنه الابتذال، الابتذال، المسرح هو معبد الابتذال. إنه الـدليل الحي عـلى أننا لا نريد أن نتحدث عن الأمور الجادة، ومن المحتمل أننـا لا نستطيـع. كل شيء، كـل شيء، أشد الأشيـاء حـزنـاً، وأكـثرهـا قـداسـة، حتى أكـثرهـا إضحاكاً، يتحول إلى حيلة مبتذلة. أنت على حق يا تشارلز، أتذكّـر قولـك عن شكسبـير العجوز إنـه كان.. إنـه كان الأوحـد. هو رجـل إغريقي لا يستـطيع أحـد أن يفهمه عـلى كل حـال. أما البـاقـون فبحـر قـذر نتن من الابتذال الراضي عن نفسه. لقد شعر ولفريد بهذا. وأتذكر أحياناً أنـه كان يبـدو مغرقـاً في الحزن، بعـد أن يكون قـد أضحـك المتفـرجـين إلى درجـة المرض. أواه، يا تشارلز، لو كان هناك إله، ولكن لا وجـود له، لا وجـود له على الإطـلاق..» وكانت عينـا بيري الـواسعتين المستـديرتـين العسليتين

مغرورقتين بالدموع. تحسس بيده باحثاً عن منديل، ثم استعمل مفرش المائدة. وبعد لحظة أضاف: «ليتني مكثت في «كوينز» Queens وأصبحت طبيباً. هاأنذا أزحف كل يوم نحو القبر. عندما أستيقظ في الصباح يكون الموت هو أول ما أفكر فيه، أتفعل ذلك؟»

- «كلا.»

- «كلا. ما زلت متمسكاً بـ «متعة الحياة» joie de vivre كما يتمسك بها شاب صغير. وفي حالتك، لا يمت هذا بصلة إلى الخير. فأنت لست شريراً. إنها مجرد هبة طبيعية، هدية من الطبيعة، مثل شكلك وبشرتك الأنثوية ولكن تذكر واحذر... هناك أولئك الذين يَحْيَون في الجحيم.»

قلت: «هل ضربت پاميلا ذات مرة؟ هل ضربت روزينا؟» لا بد أنني كنت أشد سُكْراً مما يظن پيري.

يبدو أن هذا السؤال قد أنعشه قليلاً: «من المضحك أن تسأل هذا السؤال يا تشارلز، فقد كنت أفكر فيه اليوم فحسب، وكنت أتساءل لماذا لم أفعل ذلك أبداً، فأنا لم أفعله بتاتاً. كلا. لم أرفع يدي على إنسان قط. إنما أصب جام غضبي على عالم الجماد.. الكؤوس، الأطباق، كل شيء أستطيع أن أركله وأهشمه. أعتقد - كما تعلم - أن هذا شيء يتعلق بأيرلندا، شيء أفعله في سبيل أيرلندا، على نحو مضحك. وهذا لا يساعد تلك العاهرة طبعاً. ولكنك.. تعلم، حالما يضرب.. إنسان أي إنسان، فبدلاً من الصراخ أو.. أو البصق أو... يجتاز المرء حاجزاً معيناً.. لعله آخر حاجز للمدنية... وبعد ذلك - تأتي المدافع الرشاشة، وإطلاق الرصاص على الناس. إلهي، لماذا وافقت على التمثيل في ذلك المسلسل التليفزيوني اللعين، إنه غثاء. إنهما تضربانني بالطبع، پام وروزينا، لا وجود لأنواع الكبت هناك...»

- «وجه مخدوش؟».

- «اللعنة على الخدوش، إنهما تقرصانني. فليكن، أنا أستحق ذلك،

فأنا ظربان*. . ظر. . بان. أجل. أجل. إشرب. ».

وبينما كان «پيري» يستعمل مفرش المائدة لمسح عينيه، انفتح الباب ودخل غلام طويل نحيل حليق الرأس كالبحارة يرتدي سترة جلدية سوداء، تجاهلنا واتجه إلى دولاب الأواني، وفتحه، ثم أخرج زجاجة، وخرج مرة أخرى بعد أن أغلق الباب وراءه.

- «من يكون هذا الصبي؟»

- «إنه ليس صبياً، يا عزيزي تشارلز، إنها ابنة زوجتي، آنجيلا، وهي في السادسة عشرة.»

- «يا إلهي. آخر مرة رأيتها كانت شيئاً صغيراً بعقصة ذهبية.»

- «لم تعد شيئا صغيراً بعقصة ذهبية. أتعلم أنها حلقت رأسها بالموسى في الشهر الماضي؟ إنه بدأ في النمو مرة أخرى. وقد أهداها والدها دراجة بخارية. .وعندما أقول دراجة بخارية لا أعني مجرد پوت. . . پوت. . . پوت تجلس عليها كما تجلس على مقعد، وإنما أعني شيئاً وحشياً طويلاً غليظاً تمتطيه (مباعداً ما بين رجليك) كأنه فرس، ويحدث ضجة مثل آآآآررجرر. أتذكر عندما كنت مسرفاً في العاطفية لإنجاب ولد، فأخبرتك بأي صنف من الجحيم يمكن أن يكون ذلك. الآن أعتقد أن البنت أشنع. الحمد لله أنني لم أنجب أطفالاً من صلبي. . . البراءة. . . يا إلهي! ينبغي أن تسمع اللغة التي تستخدمها «آنجي»، وقد جعلت نفسها غاية في القبح، غاية في البشاعة. . . وپاميلا لا تبالي. . حسناً، لقد شاهدت پاميلا الآن، أليس كذلك؟ دخلت الحجرة؛ أكانت تحلم أو أحلم أنا بكل هذا؟ آنجي، فليكن. إنها تنتعل أحذية برقبة طويلة للتسلق، وترتدي الجلد في كل شيء. وهي تعاقر الخمر. كلهم يفعلون ذلك، يا للسيد المسيح، يا تشارلز، أنت محظوظ. بلا أسرة. الأسرة، مستقر الحب. أن أفكر في أنني لم أقنع نفسي فحسب بحب هاتين المرأتين، بل لقد أحببتهما حقاً، هذا هو الحق، لو كنت قادراً على الحب. أتراني قادراً؟ لست أدري. كما أحببت. .

★ Skunk حيوان أمريكي نتن الرائحة (المورد).

أوه.. من قبل.. نسوة أخريات.. أناساً آخرين... ضاعوا جميعاً، ضاعوا، ذهبوا إلى الأبد... ولكن، ربما لم يكن الخير في بقائهم... الأنذال والأشرار والأوغاد لا يمكنهم أن يكونوا سعداء، ومن ثمّ فهناك شيء من العدالة في العالم على كل حال.».

كنت قد بلغت المرحلة التي يصعب فيها الانصراف، يصعب فيها عمل أي شيء فيما عدا الاستمرار والاستمرار في شرب الويسكي، وبدأت أتأثر تأثراً غبياً بدموع برجراين. «پيري، من كانت حبك الأوّل؟»

- «لا تَدْعُني «پيري»، عليك اللعنة. بديع، سوف أقص عليك.. إنها ليست ما تظن.. لقد كان عمي برجراين.. أجل. عمي برجراين. أراح الله روحه العزيزة، كان رجلاً طيباً طيباً. ولو كان هناك يوم القيامة، فسوف تركع أسرتي كلها وراء عمي برجراين، راجية أن يقول عمي كلمة طيبة تنقذهم من النار. وسأكون ساجداً على الأرض منتظراً منه أن يرفعني، وسيرفعني. كان رجلاً عذباً. ولا أدري لماذا أصفه بالطيبة، ماذا أعرف عنه، كنت طفلاً. وقد اعتاد أن يمسك يدي وأن يجلسني فوق ركبته. كان يحبني، ذلك الرجل. ولم يكن أبواي يدللاني أبداً، ولم يضماني ويقبلاني أبداً، وأعتقد بأمانة أنهما لم يكونا يحبّانني كثيراً، وإنما كانا يحبان أختي، لا أنا. أما عمي برجراين فكان يحبني وكان يضمني بشدة ويقبلني. ولعلمك، لم أتلق أبداً قُبلاتٍ أفضل من تلك القبلات، وإن لم تكن... لم أكن كما تظن... كانت قبلاته غاية في البراءة والعذوبة. ولم يكن يقدم عليها إلا عندما نكون منفرديْن، وهذا علّمني شيئاً، لقد فهمت، وكنا نتحدث عن كل شيء، وكأننا من سن واحدة، وكنت أشتاق إلى صحبته، وكأنه كان يقوم بتعزيتي. ثم ذات يوم، لا بد أن أبويّ شاهدا شيئاً، أو لعلهما قرّرا أن هناك شيئاً غريباً في عمي برجراين، ومن ثمّ أبعداه. ولم أره بعد ذلك أبداً. أبداً.»

- «ماذا حدث له؟»..

- «لا أعلم. سمعت فيما بعد أنه انتحر. وعندما صرت ممثلاً اتخذت

اسمه، على سبيل الشفقة من ناحية، وللانتقام من عائلتي من ناحية أخرى. وكان تعميدي باسم وليم. حسناً، كان هذا هو حبي الأول. ماذا كان حبك أنت؟»

- «نسيت. شكراً لك أنك أنبأتني بحكاية عمك. أحببت الاستماع عنه.»

- «آسف لأنني أخبرتك فعلاً. ستبدأ في إخضاعها لعلم النفس. وما علم النفس إلا غثاء.»

- «أعرف أن علم النفس غثاء! لا بد لي من الانصراف، يا برجراين.»

- «لا تذهب. سأروي لك نكتة فرويد المفضلة، إذا استطعت تذكرها. التقى الملك بقرينه وقال: «أتعمل أمك في القصر؟» فأجابه القرين: «كلا، ولكنه أبي الذي يعمل.» ها ها ها، تلك نكتة جيدة!».

- «ينبغي أن أنصرف.»

«تشارلز، إنك لم تفهم النكتة. إسمع، الملك التقى بالرجل الذي يشبهه تماماً فقال الملك...»

- «لقد فهمت النكتة.»

- «تشارلز، بحق المسيح لا تذهب، هناك زجاجة أخرى «كلا، بل أبي هو الذي يعمل»!»

- «ينبغي أن أنصرف حقاً...»

- «هذا حق، تنصرف عندما يصبح الوعي مُحْتَمَلاً، ونور الفهم قد بزغ فجره. عندي الكثير الذي أريد أن أقوله لك. أوه، فليكن، انصرف إذن! أعتقد أنني سآتي إليك لأرى بيتك على البحر، سأذهب إلى ويتسون Whitsun إذا كان الجو معقولاً، وسنسكر مرة أخرى...»

- «وداعاً، يا برجراين. آسف فيما يتعلق بأيرلندا.»

- «أنت ثمل على كل حال. إذهب لحال سبيلك.» وفي أثناء خروجي من الباب سمعته يتمتم: «في غاية من النظافة، من النظافة الملعونة.» عندما هوى رأسه متثاقلاً على مفرش المائدة الملطّخ بالنبيذ.

عندما فرغت من كتابة ما سبق، بحيث أصبحت يومياتي التي أسجلها على هيئة رواية مواكبة للأحداث، حزمت حقيبتي وغادرت شقتي الصغيرة البشعة «الملخبطة» في لندن التي تفتح شهيتي بشيء أكثر من نقل مقعد أو إخراج فنجان من علبته. وكنت قد تناولت غدائي (أنهيت ما كان لدي من جبن المكرونة)، وتخيلت أن فاصلاً خالياً من الأحداث يفصلني عن قطار المساء المتجه إلى البيت (وكنت في ذلك مخطئاً). اعتزمت قضاء بعض الوقت في معرض للصور. ولست ممن يحيطون كل الإحاطة بفن التصوير، غير أن اللوحات كانت تمنحني نوعاً من السرور الهادىء، كما أنني كنت أحب جو المعارض، بينما أمقت جو القاعات الموسيقية. ويجب أن أعترف أيضاً بأنني أستمد كثيراً من الإشباع الشبقي من صور النساء. ومن الجلي أن المصورين يفعلون ذلك على كل حال، فلماذا لا أكون مثلهم؟.

وبعد شيء من التردد، قررت أن أذهب إلى مجموعة والاس Wallace Collection التي لم أتردد عليها منذ فترة. وقد صحبني إليها أبي ذات مرة، وإن كان أقل مني إلماماً بالصور ـ لمشاهدة «الفارس الضاحك» لفرانس هالس Frans Hals، في إحدى زياراتنا النادرة للندن، فارتبط هذا المكان في ذهني به. وأعتقد أن أبي أحب المعرض لأنه كان غاية في الهدوء، وكان حافلاً بالأثاث كما كان يحفل بالصور، فبدا وكأنه منزل خاص شبيه بالقصور. كما ابتهج بوجه خاص بالساعات الكثيرة (كان يحب ساعات الحائط) التي كانت تدق في وقت واحد أثناء وجودنا هناك، وبألوان مختلفة من الأنغام. كان المكان خالياً تقريباً حين وصلت إليه، فأخذت أطوف به في ضرب من الانبهار، أتأمل الصور وأفكر في هارتلي. وكنت أشعر بأن صلتي بالواقع متينة قليلاً نتيجة لإسرافي الخطير في الشراب وهو شعور ظللت أناضله طيلة الصباح. وعيب النبيذ الجيد أنه يحتوي على نسبة عالية من الكحول، ولا تستطيع أن تصبّ الماء عليه علانية. ورغم أقراص الأسبيرين التي تناولتها مع غدائي فقد لازمني الصداع حتى الآن. وكانت هناك ضبابة

بنية ونقاط سوداء تعبر أمامي عبور السهام فتطمس مجال رؤيتي من حين إلى آخر. أحسست بانعدام التوازن، وبأنني أرتبط ارتباطاً غريباً بالأرض، وكأنما أصبحت مسرفاً في الطول بغتة.

ثم بدا وكأن حشداً من نسائي تجمَّعن في ذلك المكان؛ فيما عدا هارتلي. كانت غائبة غياباً مهولاً، كائناً شاحباً يفلت من التجسد، ووجهها معلَّق دائماً فوق مجال رؤيتي مباشرة كأنه بدر مراوغ. كنت أهرع دائماً إلى النساء كما يلجأ المرء إلى ملاذ. وهل النساء شيء آخر حقاً سوى ملاذ؟ وقد كان يبدو لي أحياناً أن الارتماء بين ذراعي امرأة هو الدفاع الوحيد الكامل ضد أي فزع. أجل، كُنَّ بالنسبة لي، والكثيرات منهن كاملات في معاملاتهن لي، ومع ذلك... بعد برهة.. يغادر المرء ذلك الملاذ، أما هارتلي فكانت مختلفة، إذ كانت تسافر معي. وما رأيتها قط بوصفها مستقراً للأمن. لقد انتقلت إلى داخل دائرة نفسي، وكانت في باطني، مادة خالصة لوجودي، مثل الأعصاب، مثل الدم. غير أن الأخريات كنَّ حاضرات هناك، وأنا أنزلق وأترنَّح وأتَّصل اتصالاً غير ثابت بالأرض: ليزي كما صوَّرها تيربورش Terborch، جان بريشة نيقولايس ميس Nicolaes Maes ريتا بريشة دومينيتشينو Domenichino، روزينا بواسطة روبنز Rubens، دراسة غاية في البهجة قام بها جروز Greuze لكليمنت كما كانت حين التقيت بها أول مرة... حبيبتي الجميلة كليمنت، كم كانت تمقت أن تغدو عجوزاً! كما كانت هناك أيضاً صورة لأمي رسمها رينولدز Reynolds، فيها شيء من التطرية، ولكنها شديدة الشبه بها. أجل، بحثت عن هارتلي. بعض المصورين يمكن أن يتناولوها، مثل كامپين Campin، أو ربما مملينج Memling أو ڤان إيك Van Eych. ولكنها لم تكن هناك. ثم بدأت الساعات جميعاً تدق الرابعة.

كان بعض العمال يصنعون شيئاً أو آخر في الطابق الأرضي، ويدقون دقاً كثيراً، وأنوار وامضة تلوح ثم تتراجع ممتزجة بصداعي. وألفيت نفسي

أفتش في عقلي عن شيء كان من المهم أن أذكره، شيء يتصل بتلك الليلة عندما كنت أفترش الصخور وأبصرت الكهف النهائي للنجوم، حين بدا الكون مقلوباً بطناً لظهر، فذكّرني ذلك في الوقت نفسه بشيء، غير أنني لا أستطيع أن أتبينّ ما هو؛ والآن فحسب عندما لاح لي أنني أرى مرة أخرى تلك القبة الهائلة العميقة التي تتغير ببطء إلى ما لا نهاية، قبة النجوم الذهبية المضيئة، نجوماً وراء نجوم وراء نجوم ـ الآن فحسب تذكرت ما كنت أفتش عنه في عقلي. لقد كان الأضواء المتغيرة في سينما أوديون حيث اعتدت أن أتردد عليها مع هارتلي أثناء طفولتي.

كنت في القاعة الرئيسية الكبيرة التي اصطحبني إليها والدي لمشاهدة «الفارس الضاحك»، وقد بدا الضوء غائماً وضبابياً إلى حد ما مشوباً بلون بني مع أن الشمس كانت ساطعة في الخارج، أو ربما كان ذلك أثراً من آثار إسرافي في الشراب. كانت القاعة خاوية. ثم لاحظت شيئاً بدا غريباً، نوعاً من المصادفة الرنانة. كنت أحملق على نحوٍ منبهر إلى لوحة تيسيان Titian «پيرسيوس وآندروميدا» Perseus and Andromeda، وكنت أعجب بشكل الفتاة العاري الرشيق. وكان وضعها الذي يكاد يكون رقصاً أثناء مقاومتها للأغلال قد جعلها تبدو محمولة على الهواء مثل منقذها، حينذاك يبدو أنني لمحت بغتة، رغم أنني شاهدت ذلك مرات عديدة من قبل ـ الفم الفاغر المليء بالأنياب لتنين البحر الذي كان پيرسيوس ينقض أولاً على رأسه. . لم يكن تنين البحر يشبه الوحش البحري الذي رأيته، غير أن الفم كان شبيهاً به كل الشبه، وكان تذكر هذه الهلوسة، أو سمِّها ما شئت، أشدّ إثارة لقلقي بغتة ممّا كان منذ الصدمة الأولى لظهورها. استدرت بسرعة مبتعداً فألفيت نفسي وجهاً لوجه مع لوحة رمبرانت لـ «تيتوس». إذن فقد كان «تيتوس» هنا أيضاً. تيتوس ووحش البحر والنجوم والإمساك بيد هارتلي في السينما منذ أربعين سنة أو يزيد.

شرعت أسير بعيداً في الحجرة الطويلة، وما إن فعلت ذلك حتى أخذ

الطَّرْق الذي يقوم به العمال في الطابق الأرضي يتحول إلى صوت أكثر إيقاعاً ووضوحاً وسرعة وإلحاحاً، مثل صوت المطارق الخشبية الصغيرة التي يسميها اليابانيون هايوشيجي Hyoshigi، والتي تستخدم لخلق جو الترقب أو إعلان الكارثة في المسرح الياباني، والتي استخدمتها كثيراً للإعلان عن نفسي في مسرحياتي. أخذت أسير مبتعداً في القاعة، وفيما كنت سائراً تحول خُماري (الحالة التي تعقب السكر الشديد) إلى نوع من نوبة الإغماء، وما إن بلغت الباب في النهاية حتى توقفت والتفت حولي. دخل رجل الحجرة من الباب الآخر في الطرف البعيد، ووقف ينظر إليّ من خلال الجو الغائم الغريب الضارب إلى اللون البني. وصلت إلى الخارج وأسندت يدي إلى الجدار. بالطبع تعرفت عليه من فوري. كان ابن عمي جيمس.

- «تشعر بتحسن؟»

- «أجل، تلك المادة أوقعت معجزة، دواء قديم من التبت لعلاج الخمار بلا ريب.»

كانت الساعة الخامسة، وكنت أجلس في شقة جيمس في بيمليكو Pimlico. شقة جيمس تشبه متجراً شرقياً تسوده الفوضى، وبالتالي اعتدت أن أزدريه حتى أدركت أن عدداً كبيراً من تماثيل بوذا الضخمة وتماثيل شيفا المنحنية التي ظننت أنها مصنوعة من النحاس هي في الواقع مصنوعة من الذهب. وتذكرت أن توبي إلْسمير Toby Ellesmer أنبأني ذات مرة أن ابن عمي رجل واسع الثراء. (تساءلت في كثير من الأحيان لماذا لم أسْع أبداً لأصبح غنياً.) لا بد أنه ورث الكثير من أبويه. ومن المحتمل أن إلْسمير قام باستثماره من أجله. أشياء كثيرة في الشقة اكتشفت الآن أنها قيّمة، وإن كنت بوصفي جامعاً أو ذواقة لا أضع ابن عمي جيمس في مرتبة عالية، إذ يبدو أنه لا يملك أي تصور في كيفية ترتيب ممتلكاته من التحف أو التوفيق بينها، فهي بالأحرى محتشدة مكدسة، وأبدع التحف الفنية موضوعة بجوار أشد خردوات السوق ابتذالاً. أهو طرطشة عاطفية، زهد في الدنيا، قنوط؟.

المنظر على نحوٍ لا يصلح للوصف، بل يكفي ذكر الأشياء. حجرات جيمس غاصة بما لا أستطيع تسميته إلا بأنه تمائم (أو فتشيات Fetishes)، وإن كنت أعتقد أنه يكره هذه الكلمة: أحجار ذات أشكال غريبة، عِصيٌّ، أصداف رُبطت أو ألصقت بها أنواع من الريش(لماذا، وبواسطة مَنْ)، قطع غير مستوية من الخشب حُفِرت عليها وجوه غفل، أسنان كبيرة، أو حتى عظام نقشت عليها علامات عجيبة (أتكون كتابة؟). والجدران مغطاة تماماً إما بكتب أو بأقمشة مطرَّزة، أو معلَّقات زرقاء لامعة ثبتت عليها أقنعة متباينة أبعد ما تكون عن بث الاطمئنان. وهناك كمية من العقود (أهي مسابح؟) متشابكة في الجفان أو معلقة أمام لفائف من ورق البردي، أو رسوم ـ الماندالا أو صور فوتوغرافية لمكان يلفت النظر اسمه كومبوم Kumbum. كما أن هناك عدداً من الحيوانات الدقيقة المصنوعة من اليشب تعودت أن أشعر بأنها مغرية بالنشل، وأطباق وجفان بذلك اللون الصيني السماوي الأخضر البحري المائل إلى الرمادي والذي يخفي تحته ـ إذا نفضت التراب بمنديلك، أنواعاً من زهور اللوتس والكريزانيتم المحتجبة. وعلى محاريب صغيرة مصقولة ـ على ما أظن ـ تقف أو تجلس تماثيل لبوذا ـ توجد عجلات للصلات، وكذلك معابد صينية مصغرة (پاچودات Pagodas) وصناديق غريبة تعلوها أبراج معقدة بعضها مرصع بالمرجان والفيروز وبعض الأحجار الأخرى شبه ـ الكريمة. وهناك أيضاً على رف علِّق تابوت خشبي على هيئة پاچودا مزخرف، يقول عنه جيمس إنه شبيه بالتوابيت التي اعتادت قبائل اللاما أن تحبس فيها الجن. (وعندما سألت عما إذا كان هناك جني في ذلك التابوت، اكتفى جيمس بالضحك.) وأغماد الخناجر ومقابضها مرصعة أيضاً بالجواهر، ولأحدها (وهو موضوع عادة على مكتب جيمس) مقبض طويل مُنْحَنٍ من الذهب الخالص. وقد رأيته ذات مرة على سريره. ويذهب بي الظن أحياناً إلى أن هناك شيئاً صبيانياً في ابن عمي.

وكانت تفوح من الشقة رائحة فريدة غريبة عذبة أعزوها إلى البخور،

وإن كان جيمس حين سألته عنها رد بأنها «الفئران»، وهو رد أظن أنه نكتة. وأظن أيضاً أن أصوات الصليل المتقطعة الغريبة تسبِّبها زينات زجاجية متدلية ومعلقة في فجوات الدهليز المعتم الطويل. هذه الأصوات ذكرتني بالخشخشة الخفيفة التي تنبعث من ستار الخرز في «شراف إند»؛ وأعطتني إحساساً سحرياً بالتفكير في «منزلي المضحك» الخاوي على عروشه الذي يسوده الصمت (أو هذا على الأقل ما أرجوه!) فيما عدا خشخشة تلك الستارة التي تهتزّ برفق في الهواء المتحرِّك فإن شقّة جيمس تقع في واحد من شوارع «بيمليكو» الطويلة المؤدّية إلى النهر، وكانت رثّة للغاية فيما مضى، ولكنها غدت الآن أنيقة للغاية. هي شقة رحبة، غير أنها مظلمة على نحوٍ غير مألوف بسبب عدد كبير من الستائر المرسومة المتربة الموضوعة بطريقة عشوائية وبسبب عادة جيمس في الاحتفاظ بها نصف مسدلة في النهار وإضاءة مصباح واحد فحسب في كل حجرة، واستغرقت وقتاً طويلاً في تذوق تحف جيمس نظراً للعتمة الشديدة التي جعلت رؤيتها أمراً عسيراً. والمكان بالطبع حافل بالكتب، كثير منها في لغات لا أستطيع تحديد هويتها. كانت هذه الشقة هي قاعدة جيمس في لندن منذ أعوام، ولما كان في الخارج معظم الوقت فلا عجب أنها كانت تبدو مجرد أرض مكدَّسة غارقة تحت ركام من الأشياء.

كنا نشرب الشاي في جفان صغيرة من الخزف الشفاف الهش بدرجة لا تصدَّق، ونأكل بسكويت كريمة الكاستارد الذي أتذكر أن جيمس كان يحبه كثيراً عندما كان صبياً. أما أنا فلم تكن لدي حساسية للطعام عندما كنت صغيراً، بينما كان جيمس شديد الانتقاء والولع بألوان معينة من الطعام. وهو بالطبع ـ نباتي، ولكنه كان كذلك وهو طفل، وقد اتخذ قراره بنفسه تماماً، وكان حينذاك قراراً شاذاً. وهو يفتح الآن نافذة (كانت الحجرة خانقة تشيع فيها رائحة «الفئران»)، لكي يسمح بالخروج لذبابة كان قد أمسكها بعناية بكأس وقطعة من الورق أظن أنه احتفظ بها في متناول يده لهذا الغرض. ثم أغلق النافذة، فعطست. وتعالى رنين جرس بعيد،

وساءلت نفسي كم من الوقت راقبني جيمس في معرض الصور قبل أن ألمحه، ولماذا كان هناك على الإطلاق في ذلك اليوم بالذات، وفي تلك الساعة المعيَّنة.

دعوني أحاول الآن مرة أخرى أن أصف هيئة ابن عمي. يبدو وجهه مائلاً إلى السمرة، مع أنه ليس داكن البشرة حقاً. كان لا بد له أن يحلق ذقنه مرتين في اليوم الواحد. وفي بعض الأحيان يبدو قذراً بحق. وشعره ـ الذي أصبح الآن طوْقاً غزيراً يحيط برقعة صلعاء صغيرة ـ كستنائي قاتم، مثل شعر عمتي إستيل، وإن اختلف عنه في أنه شديد الجفاف متشابك، في حين كان شعرها لامعاً. وعيناه عسليتان غائمتان، وكأنما عليهما ظل لا محدود ولا متعين يبدو أنه يتغير، فهو مائل إلى السواد تارة، وإلى اصفرار أرضي داكن تارة أخرى. وله أنف نحيل معقوف، وشفتان رفيعتان تنمان عن ذكاء. ووجهه من الوجوه التي لا يتذكرها المرء، ولا أعني بذلك أنه وجه غبي، بل هو بكل تأكيد وجه شديد التأثير، ولكنني أقصد أنني حينما أريد أن أتصوره غيباً لا أستطيع إلا استحضار مجموعة من الملامح، لا كلاً متلاحماً. لعله لم يكن وجهاً متسقاً، وكأن هناك سحابة مبهمة تحوم فوقه، وهذا يتمشى مع، أو ربما كان هو فكرتي عن أن جيمس داكن البشرة، أو قذر. وفي الوقت نفسه فإن ابتسامته الصبيانية الفطرية التي تكشف عن أسنانه المربعة يمكن أن تجعله في معظم الأحيان ـ يبدو شخصاً أحمق. «ونظرته المهوَّشة» ليست ماكرة، وليست ـ بكل تأكيد ـ شريرة، ولكنها حازمة نوعاً ما. وتساءلت مرة أخرى، وأنا الآن أراه مبتسماً إبتسامة خفيفة بعد أن ترك الذبابة تنطلق من النافذة إلى أي درجة بالضبط استطاع أن يشبه عمتي إستيل. لعلها حيلة من حيل التعبير، وهج من التركيز كان في حالة عمتي إستيل نوعاً من المسرَّة، وإن كان في حالة جيمس شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف.

ـ «إذن، فإن منزلك يقف هناك بجوار البحر، بمفرده، على الصخور حقاً؟».

- «أجل.»

- «هـذا شيء بـديـع، هـذا شيء بـديـع.» واتسعت عينـا جيمس الغائمتان، ثم خلتا لحظة من كل تعبير، وكأنه سافر إلى مكـان آخر. كـان هذا الغياب اللحظي مميزاً لـه أيضاً، غـير أنه لم يكن يـدوم أكثر من ثـوانٍ معدودات. واعتدت أن أتساءل إن كان يتعـاطى مخدرات (كثير من هؤلاء المسـاعدين الشرقيـين القدامى يفعلون ذلـك)، ولكن قد يكـون الأمـر كله بدافع الضجر. كم كنت مشغولاً عندما كنت صغيراً عما إذا كنت مُضْجِـراً لجيمس! «ولكن، ألا تفتقـد ضـوضـاء المسرح؟ لم تكن لـديـك أبـداً أيـة هوايات أستطيع أن أتذكرها. ماذا تصنع بنفسك طوال اليوم؟ تقـوم بطلاء المنزل؟ هذا ما قيل لي عما يفعله المتقاعدون.».

لم يكن جيمس يتحـاشى دائماً في حـديثه إليّ ارتـداده الغريـزي إلى نغمة طفيفـة من اتخاذ مـوقف الحمايـة، وهي نغمة كـانت تثير جنـوني عندمـا كنا صبيّين، وبخاصة لأنه الأصغر. وهـذه الجملة المبتذلـة «ضوضـاء المسرح»، ووضعي في معـادلة واحـدة مع «المتقـاعـدين» يبـدو أنهما ـ بلفتـة يسـيرة ـ يحددان أنشطتي الماضية والحاضرة في نطاق اللاأهمية. أو لعـلي كنت لا أزال شديد الحساسية.

- «أنا أكتب مذكراتي.»
- «حكايات دردشة مسرحية عن الممثلات؟»
- «بالطبع لا! أريد أن أقوم بالجانب العميق، التحليل الحقيقي، السيرة الذاتية الحقيقية...»
- «ليس من اليسير القيام بذلك.»
- «أعرف أنه ليس يسيراً!»

- «نحن كائنات تنطوي على أسرار كثيرة في باطنها، وهذه البـاطنية هي أشد الأشياء إثـارة للدهشة فيـما يتعلق بنا، بـل إنها أشد إثـارة للدهشة من عقلنا. غير أننـا لا نستطيـع أن نقتصر على مجـرد السير في الكهف والتلفت

حولنا. ومعظم الذي نعتقد أننا نعرفه عن عقولنا هو معرفة زائفة. نحن جميعاً عشاق مريعون لاتخاذ الأوضاع، شطّار في تضخيم أهمية ما نحسبه ذا قيمة في نظرنا. أبطال طروادة كانوا يحاربون من أجل طيف اسمه هيلين، على حد تعبير ستيسيرخوراس* Stesichorus. حروب لا مجدية من أجل طيبات وهمية. أرجو أن تسمح لنفسك بنصيب وافر من التأمّلات في الغرور الإنساني. الناس يكذبون كثيراً، حتى نحن الشيوخ نفعل ذلك. ومع هذا فإن كان في ذلك الكذب نصيب كاف من الفن، فلا بأس ما دام هناك نوع آخر من الحقيقة في الفن. پروست ـ مثلاً ـ يعد مرجعنا في فهم الأرستقراطيين الفرنسيين. من يعبأ بما كانوا عليه حقاً؟ بل ماذا يعني ذلك؟»

ـ «ينبغي أن أقول إنه يعني شيئاً بسيطاً جلياً، غير أنني لست فيلسوفاً! وينبغي أن أقول إن لهذا أهمية أيضاً. إنه مهم بالنسبة للمؤرخ، بل إنه مهم للناقد.» كما أنني لا أعبأ بعبارتك «نحن الشيوخ». تحدث عن نفسك يا ابن العم.

ـ «أفي هذا شيء من الدلالة، أعني ما حدث حقاً للورانس Laurence في درعة؟ لو أن ناب كلب يُعْبد لتوهج بالنور. إن الشيء المبجَّل يتمتع بالقوة. وهذا هو المعنى البسيط للبرهان الأنطولوجي (الوجودي). وإذا كان هناك ما يكفي من الفن فإن الأكذوبة يمكن أن تنيرنا كما تفعل الحقيقة. ما هي الحقيقة على كل حال، تلك الحقيقة؟ كما نعرف أنفسنا، نحن أشياء زائفة، نحن زائفون، حِزَمٌ من الأوهام. أتستطيع أن تحدِّد بالضبط ما

(*) شاعر غنائي إغريقي (٦٤٠ ـ ٥٥٥ ق.م تقريباً) عاش في مدينة هيميرا بصقلية. ويقال إن اسمه الأصلي تيسياس Teisias ويقال إنه أصيب بالعمى لأنه انتقد هيلينا، ولكنه استرد بصره بعد أن قال في إحدى قصائده المعروفة باسم «پالينودا» Palinoda إن هيلينا لم تكن هي التي رافقت پاريس في رحلته إلى طروادة، وإنما كان ذلك طيفها (المترجم).

تشعر به أو تفكر فيه، أو تفعله؟ علينا في ساحات المحاكم أن نتظاهر بأن مثل هذه الأشياء يمكن أن تُفْعل، غير أن هذا مجرد مسألة جرى عليها العُرْف. فليكن، ولكنها تخلو من كل دلالة. ينبغي أن أذهب وأرى منزلك المطل على البحر وطيورك. أهي من فصيلة الطيور آكلة الأسماك Gannets؟».

- «أنا لا أعرف شيئاً عن هذه الفصيلة.»

أخلد جيمس إلى الصمت، مصدوماً.

بدأ يعاودني إحساس مألوف قديم كنت أنحو إلى نسيانه في تلك الفترة، وفي هذا من الغرابة ما فيه، إحساس بخيبة الأمل والعجز المُحْبَط، وكأنما كنت أتطلع إلى الحديث مع جيمس ثم أُبْعِدت عمداً عن نوع من المتعة، وكأن شيئاً له دلالته كنت أبتغي أن أخبره به قد ذبل - داخل أعماق روحي - وتهافت بتأثير أشعة ليزر طارئة انبعثت من ذكائه. ذلك أن طريقة جيمس في التفكير، ومستواه في التجريد كانا مختلفين عن طريقتي ومستواي تمام الاختلاف، كما كان يبدو عليه أحياناً أنه حريص - على سبيل العبث - على استعراض استحالة قيام أي اتصال بيننا. غير أنه لم يكن هناك بالطبع أي تعمد بكل تأكيد، أو أية متعة حقاً، بل إن ابن عمي يمكن أن يؤخذ - من جوانب كثيرة - على أنه شخص باعث على الضجر، ومتحذلق غريب الأطوار على شيء من الزهد في الحياة مبعثه السأم. وكانت له هو أيضاً - على كل حال - ضروب من الإحباطات، وعن أهم هذه الإحباطات لن أعرف - بلا ريب - شيئاً على الإطلاق. وأظن أن ما أبتغيه لا يعدو أن يكون مجرد محادثة ودية عادية مع جيمس، وهذا شيء لم يحدث أبداً، بل ربما كان من الخطأ أن أظن أنني أستطيع حتى أن أتخيله. بيد أنه كان - على كل حال - كل ما تبقى من أبي وأمي وعمي هابيل وعمتي إستيل.

أردف جيمس قائلاً: «البحر، البحر، أجل. ألا تعلم أن أفلاطون

انحدر من پوسايدون* Poseidon من ناحية أبيه؟ ألديك درافيل، عجول البحر؟»

- «قيل لي إن هناك درافيل. غير أنني لم أر واحداً منها.»

وضعت جفنة الشاي الصغيرة الهشة على المائدة بقوة بحيث لم أجد بداً من رفعها مرة أخرى لأتأكد أنها لم تتصدع. وتشبثت بمسندَيْ مقعدي. جال بذهني فجأة أن الإحساس الغريب الذي عانيته في معرض الصور، والذي شفاه دواء جيمس، لم يكن مجرد خمار، وإنما كان التهديد بعودة الهلوسة الناجمة عن أقراص المخدر L S D. بل بدأت فجأة في الشعور مرة أخرى بشيء شبيه بذلك الإحساس مختلطاً بصورة حية للفم الفاغر للتنين الذي صوَّره تيسيان.

- «ما خطبك يا تشارلز؟ أنت قلق بشأن أمر ما. كنت مكتئباً في المعرض. لقد راقبتك. ما خطبك؟ أأنت مريض؟».

- «أتتذكر أنني أشرت فيما مضى إلى فتاة تدعى ماري هارتلي سميث؟».

لم أكن أقصد بكل تأكيد أن أتحدث إلى جيمس عن هارتلي، فما كنت أتصور أن آمنه على هذا السر. غير أن الأمر كان أشبه بأنني دُفِعت إلى ركن ما أو وُضعت تحت تأثير تعويذة معيَّنة كان السحر الفعَّال الوحيد فيها هو الذكر الفعلي لاسمها.

وارتد جيمس إلى هيئته الملول، وأخذ يفكِّر: «كلا، لا أستطيع أن أقول إنني أتذكر.»

والواقع أنني كنت متأكداً تماماً من حرصي على ألا أذكر هارتلي لجيمس.

- «مَنْ تكون إذن؟».

- «كانت الفتاة الأولى التي أحببتها، ولا أظن أنني أحببت حقاً سواها.

(★). پوسايدون في الأساطير اليونانية هو شقيق زيوس كبير الآلهة، وهو إله البحر والزلازل والجياد. (المترجم).

وكانت هي أيضاً تحبني. كنا في المدرسة معاً. ثم رحلت، وتزوجت رجلاً آخر. واختفت. غير أنني لم أكف أبداً عن التفكير فيها، والاهتمام بها. وهذا هو سبب امتناعي عن الزواج. وحدث بعد ذلك أنني التقيت بها مصادفة مرة أخرى، إنها هناك، هناك بجوار البحر، تقيم في القرية مع زوجها، وقد رأيتها، وتحدَّثت إليها. هذا شيء لا يقبل التصديق، وكل ذلك الحب القديم ما برح هناك، يمتد من بداية حياتي حتى الآن...»

قال جيمس: «لقد أرَحْت بالي. ظننت أنك مصاب بانفلونزا، وأنا حريص كل الحرص على ألا أصاب بها أنا نفسي الآن بالذات.»

- «وقابلت زوجها. إنه لا شيء، رجل جاهل مشاكس. ولكنها كانت... كانت سعيدة جداً برؤيتي، فهي ما زالت تحبني.. لايسعني سوى الشعور بأن هذه علامة، بداية جديدة...»

- «أهو نفس الرجل؟».

- «ماذا تعني.. أوه، أجل، إنه نفس الرجل.»

- «هل لديهم أبناء؟».

- «غلام، في الثامنة عشرة أو نحو ذلك. إنه ابن بالتبني، ولكنه هرب منهما ولا يعلمان أين هو، إنه مفقود...».

- «مفقود.. لا بد أن هذا أمر محزن بالنسبة لهما.»

- «ولكن أوه.. هارتلي، لقد تغيرت بالطبع، ومع ذلك فإنها لم تتغير. وأنا أقصد يا له من حظ لا يصدَّق أن ألتقي بها ثانية على هذا النحو. هذه يد القدر. وما أتعس الحياة التي تحياها، كأنها صلَّت من أجلي، فجئت.»

- «ثم... ماذا...؟».

- «ثمَّ، سوف أنقذها وأجعلها سعيدة أياً كان الزمن الذي تبقَّى لنا.»

أجل كان الأمر بسيطاً، ولن ينفعنا شيء أقل من هذا الحل العظيم. وأرحت ظهري على مقعدي.

- «مزيداً من الشاي؟».

- «كلا شكراً، أظن أنني أحب أن أشرب الآن. شيري جاف.».

وبدأ جيمس يبحث في خزانة الأواني. وصبَّ كأساً من أجلي. وكان يبدو عليه أنه متعجل للتعليق على كشفي المدهش، وكأنه قد نسيه بالفعل. واستأنف احتساء الشاي في هدوء.

- «قلت بعد برهة: «حسناً، يكفي هذا الحديث عني؛ حدثني عن نفسك يا جيمس، كيف يعاملك الجيش هذه الأيام؟ هل سترحل إلى هونج كونج أم إلى مكان آخر؟» يستطيع اثنان أن يلعبا هذه اللعبة.

قال جيمس: «أنا أعلم أنك ترغب في أن أقول شيئاً، غير أنني لا أستطيع أن أفكر ماذا أقول، ولا أعرف ما يعنيه ذلك. هذه الشعلة القديمة قد ارتفعت، ولا أدري كيف يكون رد فعلي.. لدي أفكار شتى...».

- «أخبرني بقليل منها.»

- «إحداها أنك قد تكون مخادعاً لنفسك حين تفكر في أنك أحببت هذه المرأة حقاً طوال تلك السنين. ما هو الدليل؟ وما هو الحب على كل حال؟ الحب فوق الجبال جميعاً حيث يذهب الجميل للموت بلا ريب، غير أنني لا أعلّق كثيراً من المعنى على فكرتك عن مثل هذا الحب طويل الأمد لشخص لم تعد تراه منذ ذلك الوقت الطويل. لعله شيء اخترعتَه الآن. وإن يكن ما يترتب على ذلك بالطبع، شيئاً آخر. وفكرة أخرى عرضت لي وهي أن فكرتك عن الإنقاذ خيال محض، تخيل صرف. وأشعر أنك لا يمكن أن تكون جاداً. أتعرف حقاً حقيقة زواجها؟ تقول إنها تعسة، معظم الناس كذلك. والزواج الطويل يقوم بالاندماج حتى ولو لم يكن مثالياً، وهذه البنيات القديمة يجب أن تُحْتَرم. قد لا تفكر كثيراً في زوجها، ولكنه قد يكون ملائماً لها، أياً كان تأثرها بلقائك مرة أخرى. أقالت لك إنها تريد أن تُنقذ؟».

- «كلا، ولكن...»

- «ما رأي الزوج فيك؟»

- «أنذرني بالطرد.»

- «حسناً، نصيحتي لك هي أن تظل ممتثلاً لهذا الإنذار.».

لم أكن مندهشاً تماماً بالخط الذي يتبعه جيمس، أعني رفضه التعبير عن اهتمام حي بموقفي، وقد لاحظت في الماضي أن ابن عمي لم يكن يميل إلى أي مناقشة للزواج، إذ كان هذا الموضوع يصيبه بالحرج، وربما بالاكتئاب.

قلت: «هذا صوت العقل.»

- «صوت الغريزة. وأشعر أن الأمر كله يمكن أن ينتهي بالدموع، خير لك أن تهدأ. ينبغي على المرء أن يقترب اقتراباً شديداً مما يمكن أن يحس فيه بتعاسة الآخرين.»

- «أشكرك على استجاباتك يا ابن عمي. والآن حدثني عن نفسك.»

- «لا ينبغي أن يفوتك القطار. غير أنني أستطيع أن أطلب سيارة أجرة بالهاتف، هناك شركة يمكن الاعتماد عليها تماماً في محطة ڤيكتوريا. ما اسمه؟»

- «الزوج؟»

- «كلا، آسف، الغلام المفقود، الابن.»

- «تيتوس.»

فقال جيمس في شيء من التروي: «تيتوس»، ثم استأنف قائلاً: «وهل بحثا عنه؟ أبلغا الشرطة وما إلى ذلك، وكل ما يفعله المرء؟»

- «لا أدري.»

- «هل رحل منذ مدة طويلة، ألا يوجد أثر، أية نظرية عن مكانه الآن؟ ألم يتلقيا رسالة؟»

- «لا أدري، لا أدري...»

- «لا ريب أن هذا أمر فظيع...»

- «أجل، بلا ريب. والآن، دعنا ننسى متحفياتي، ماذا عن مشروعاتك، وما أحدث القصص عن الحياة في الجيش؟»

- «الجيش.. أوه.. لقد تركت الجيش.»

- «تركت الجيش؟» ربما كنت مندهشاً بغباء، وحزيناً على نحوٍ غريب،

وكأن الجيش كان شيئاً يحفظ جيمس آمناً، أو حبيساً بطريقة آمنة، أو مشغولاً على نحو غير ضار، أو ما شاكل ذلك، كنت أظن أنني أشعر دائماً بأن وجوده في العسكرية يجعل من المستحيل ـ لحسن الحظ ـ أن نتصادم أو نتنافس. على حين أنه الآن:.

ـ «أوه جميل، لقد تقاعدت بالطبع، فلنتصافح مصافحة ذهبية وكل ما تستدعيه المناسبة. إذن فنحن جنرالان متقاعدان!»

ـ «لم أتقاعد بالضبط، كلا.»

ـ «تقصد...؟»

ـ «لقد تركت الجيش تحت سحابة، كما يقولون.».

وضعت كأسي على المائدة، واعتدلت في جلستي. الآن كنت دَهِشاً وقلقاً بحق.. «لا! جيمس، إنك لا تستطيع... أعني...» تكهنات ـ لم تكن من نوع بعيد الاحتمال ـ عن نوع السحابة التي ترك ابن عمي الجيش وهو تحتها ـ تزاحمت في عقلي وأرغمتني على الصمت.

نظرت إلى وجه جيمس الأسمر. كان يجلس مولِّيًا ظهره للمصباح. وكان المساء ما زال يلوح من خلال فجوة بين الستائر ـ في لونه الأزرق البراق. وجيمس يبتسم ابتسامة خفيفة، مثلما ابتسم وهو يطلق سراح الذبابة، ورأيت الآن أنه ينظر إلى ذبابة أخرى حطَّت على إصبعه. هذه الذبابة كانت تمسح أطرافها الأمامية، ثم سحبت أطرافها بقوة إلى الأمام فوق رأسها. وتوقفت عن الاغتسال. وتبادل جيمس والذبابة النظر كل منهما إلى الآخر.

قال جيمس: «لا تقلق على كل حال.» وحرك إصبعه فطارت الذبابة «لقد بلغت نهاية خدمتي بكفاءة على كل حال، ولن أعدم انشغالات جديدة.»

ـ «تستطيع أن تقوم بطلاء منزلك.»

وضحك جيمس: «أتريد أن ترى صورة طائر من أكلة الأسماك؟ طيب

ربما في وقت آخر. من سوء الحظ أنك لن تكون هنا غداً. كان من الممكن أن نذهب لـ «لوردز»Lord's. مباراة الاختبار حالة شائقة، من الأفضل أن أطلب لك هاتفياً سيارة أجرة.. إليك، خذ بعضاً من هذا البسكويت، أعرف أنك تحبه، كانت العمة ماريان تحشو جيبي دائماً ببعضها عندما أغادر بيتكم!».

وبعد أن طلب جيمس سيارة الأجرة قلت: «من كان ذلك الرجل العجوز الذي رأيته هنا آخر مرة؟» تذكرت بغتة، وشعرت أنني نسيت تماماً خلال هذه الفترة أنني أبصرت قبل مغادرتي مباشرة شقة جيمس في المناسبة الأخيرة، أبصرت من خلال باب موارب في حجرة أخرى، رجلاً عجوزاً شرقياً ضئيل الجسم وله لحية صغيرة، يجلس بهدوء على مقعد.

بانت الدهشة قليلاً على جيمس: «أوه، إنه ليس شخصاً خاصاً... لقد رحل، وأنا سعيد بقولي هذا. والآن، هذا هو جرس سيارة الأجرة. أرجو أن تتناول عشاءً محترماً في القطار.».

قالت روزينا: «ولكنني أعرف يا عزيزي تشارلز أنك أكثر الناس غرابة في الأطوار، ولكنك لا يمكن أن تريد امرأة تبدو في الثمانين ولها شارب ولحية!».

كان ذلك في اليوم التالي. وكنت قد عدت في الهزيع الأخير من الليل. وجدت سيارة الأجرة في انتظاري عند المحطة، غير أن رحلة العودة كانت بطيئة بسبب الضباب الكثيف، ولم يكن ثمة عشاء في القطار بسبب إضراب العمال، ومن ثمّ كان عليّ أن ألجأ إلى بسكويت كريمة الكاستارد الذي شعرت بالأسف عليه الآن لأن أمي كانت تحشو به جيوب جيمس منذ أمد بعيد. وعندما وصلت إلى «شراف إند» أكلت شيئاً من الخبز والجبن (فسدت الزبدة كلها). وكان سريري رطباً لا يغري بالنوم، غير أنني تمكنت من العثور على زجاجة من الماء الساخن، وأرسلني الإرهاق إلى النوم. استيقظت في وقت متأخر، شاعراً بالتصلب والبرد، وعندما نهضت

كانت أسناني تصطك. ربما كنت خائفاً مما اعتزمت أن أفعله ذلك اليوم.

ارتديت أدفأ ملابسي المتاحة، بما فيها «السويتر» الصوفي الأيرلندي السميك الذي أعطته لي دوريس المسكينة، غير أنني ألفيت نفسي لا أزال أرتجف. ربما كان اشتباه جيمس في إصابتي بالأنفلونزا صحيحاً على كل حال؟ ما برحت ضبابة كثيفة ذهبية مشربة بلون رمادي تغطّي البر والبحر، جالبة معها صمتاً رهيباً شاملاً. والبحر الذي كان حينها خرجت يكاد يُرى لاثماً للصخور، كان أملس الصفحة كالزيت. والهواء مشبع بالرطوبة والبرودة وإن كنت لا أعتقد حقاً أنه شديد البرودة. والقميص الذي تركته ليجف على المرجة كان الآن مبتلاً تماماً. أما داخل المنزل فكان مثلجاً حقاً، أشبه بالقبر، مع رائحة جديدة تماماً للفطريات العفنة، والنوافذ من الداخل يسيل منها الماء. حاولت وأخفقت في إضاءة السخان الجديد الذي يعمل بزيت البارافين والذي اشتريته من «مخازن الصيادين». أعددت شيئاً من الشاي، وبدأت أشعر بالتحسن، عندما سمعت سيارة تنعق في نهاية الممر. وكنت على صواب حين خمّنت بأنها روزينا. وأحسست لحظات قلائل بغضب شديد لدرجة أنني أردت أن أخرج إليها صارخاً. وفكّرت أيضاً في الاختفاء، غير أنني بدأت أشعر بالجوع، ولم أكن مقتنعاً لماذا أترك منزلي لغزو ربما طال. ثم تصورت فكرة السماح لها بالدخول ببساطة على أنها حيلة ذكية لحماية الذات.

كنا جالسين في المطبخ، والفرن الذي يعمل بغاز الكالور مشتعلاً، ونحن نأكل المشمش المجفف وجبنة الشيدر. (ينبغي لأكل المشمش المجفف مع الكعك أن يُنْقع أولاً ويُطْهى، أما إذا أُكل مع الجبن فيجب أن يكون مجففاً منذ البداية.) كنت أشرب الشاي على حين كانت روزينا تشرب البراندي الذي طلبته. وكان الضباب يبدو الآن من الكثافة بحيث بدت الحجرة وكأنما أسدلت ستائرها، فأضأت شمعتين ولكنهما كانتا عاجزتين عن نشر شيء من نورهما الشاحب خلال الغسق البني المعتم الذي ساد الغرفة.

وهذا ما سمته روزينا «النـور المثير». وقـررت أن أقص عليها روايـة ما من قصة هارتلي لأنني لم أكن أستطيع وأنا في حالتي النفسية الحـاضرة، وبخطتي الـرهيبة الحـالية، أن أواجـه احتمال الكـذب والمبارزة، أو ربمـا الدخـول في مشـاجرة خـطرة. أن أقول الحق، أمـر يمكن أن يؤدي إلى كراهيـة روزينا، وهذا ما أخشاه بنوع من التطير. ولهذا أردت تحييدها في هـذه الفترة بحيث لا أشعر بالقلق من ناحيتها. فسوف أواجه عاجلاً أخطاراً أخرى وقرارات. وكان عندي تصور حدسي، ثبت أنه صحيح، عن رد فعلها على ما وضعته فيها من ثقة..

أطلقت العـداوات بقولهـا (كما تـوقعت) إنها لم تصدِّق كلمـة واحدة من قصتي الأخـيرة عن هجري لليـزي، كما لم تصـدِّق أنني سـأذهب للبقـاء في لندن، وبأنها كانت محقَّة تمـاماً، وإذا تخيلت أنني سـأتخلص منها.. قـطعت عليها هذا بإخبارها في اقتضاب وألفاظ منتقاة، قصة «الشعلة القديمـة». ما أنسب هذه الجُمَل الإكليشيهات، وما أروحها للعقل المعذَّب، وما أضلَّها، وما أقدرهـا على الاختفـاء! هاأنـذا على وشـك اتخاذ تحـرك حاسم، معـذَّباً بالحب والخوف والغيرة الرهيبة البدائيـة، وأنا أقص عـلى روزينا قصـة حب لطيفة، بـل فكهة، عن «شعلة قديمـة». وهكـذا كنت أخدعهـا بينما أقـول الحقيقة. كانت روزينا فاتـرة، مخدوعـة، مسرورة، ذكية. وكـانت مستمعة مختلفـة تمام الاختـلاف عن ابن عمي، وأشـد إرضـاءً منـه. والـواقـع أنني وجدت شيئاً من الارتياح في رواية الحكاية التي قمت بتحـريرهـا لهذه المـرأة الذكية، والتي تبينت أنها متعاطفة معي. وما تكهنت به في البداية، ربما لمدة ثـوانٍ (بهذه السرعـة يعمـل العقـل) بعـد أن سمعت النعيق الـوقـح المثير للجنون الذي انـطلق من السيارة الحمـراء الصغيرة، مـا تكهنت به هـو أن روزينـا ستنظر إلى «مسـألة هـارتـلي» في ضـوء مختلف تمـام الاختـلاف عن «مسألة ليزي».

من الحقائق المهمة عن الغيرة (والغيرة ـ بـلا شك ـ مـوضوع رئيسي في

هـذه المذكرات) أنها على الـرغم مـن كـونها لاعقـلانية تمـامـاً من جـوانب عديدة، ومن أنها انفعال لا سبيل إلى مقـاومته عـلى الإطلاق ـ عـلى الرغم من كل هذا فإنها تكشف عن شيء محدود من المعقولية فيـما يتعلق بالأولـوية الزمنية. افتتنت بليزي بعد أن التقيت بـروزينا وقـدَّرتها، فـاستقر في عقـل روزينا (على سبيل الخطأ التام) أن ليزي قد «سلبتني» على نحو ما. وكـانت ليزي ـ فضلاً عن ذلك ـ ما زالت امرأة جذابة. مثل هـذه الأمور رسمت لوحة كلاسيكية، وأثارت استجابة ذات طابـع مميَّز. غـير أن هارتـلي، تحت عنوان «الشعلة القديمة». كانت مسألة مختلفـة تمام الاختـلاف، وهنا اشتغـل ذكـاء روزينا البحث إلى جـانب العقل. ذلـك أن هارتـلي تنتمي إلى ماضيَّ البعيد. كما أن هارتلي كانت «عجوزاً» (أعني في مثل سني)، ولم تكن جذابة أو متميزة (وهذه النقـطة ليست بلا أهميـة) ومتزوجـة تمامـاً. هذه المعـطيات وضعتهـا روزينا بسرعـة في اعتبارهـا وجمعتها، وأكـاد أرى الكمبيوتـر أثنـاء عمله خلف عينيهـا المنحرفتـين البراقتـين. وقامت روزينـا بتقديـر الفـرص المتاحة لي، ولم يكن هـذا التقديـر مرتفعـاً. وظنت ـ كما ظن جيمس ـ أن المسألة ستنتهي بالدمـوع؛ وكانت حكـايتي الصادقـة مشجِّعة ـ في دهـاء ـ على هذا الاعتقاد.

سرعـان ما أصبـح واضحاً أن روزينـا لا تستطيـع بالـطبع أن تنـظر إلى هارتلي ـ من أيـة وجهة نـظر كانت ـ عـلى أنها خَصْم خـطير؛ وكـان هـذا الشعـور على أشـده إلى درجة أنها كـانت قـادرة عـلى الـرثـاء لهـا ـ لا عن شماتة ـ ولكن بنوع من الموضوعية المعنيَّة. وما أدركته روزينا هو أن التقائي بهارتلي قد أضعف من اهتمامي بليزي. ومن ثمَّ، عندما تنتهي تلك الحكاية الحمقاء كلها بكارثة، هناك تكون روزينا الذكية المتعاطفة لتلتقط الشظايـا. وليس من شـك أن روزينا شـاهدت ارتيـاحي عندمـا أطنبت في الحـديث، وامتناني لاستجاباتها الذكية الحية؛ وكنت في هذه اللحظة فحسب، مسروراً منها بحق. وبالـطبع، لم أُفْضِ لهـا بكل شيء، وبـالذات بكـل مشروعاتي

الفورية. كنت حينذاك تابعاً مخلصاً لمكيافيللي بحيث أنني لم أشعر بأنني ارتكب أي خداع وأنا أتحدث عن هارتلي مع روزينا الخطرة حاضرة البديهة. كنت أقود روزينا، وعندما كان الأمر ضرورياً بالنسبة لي فإن ذكاءها المُخْترِع نفسه كان يخدعها في الوقت المناسب.

وكان من الطريف أن روزينا تذكرت بوضوح تلك المناسبة التي كشفت فيها مصابيح سيارتها الأمامية عن هارتلي وقد تسمَّرت على الصخرة. «ظننت أنني سأسحق المرأة العجوز كما أسحق خنفساء. أعترف، يا تشارلز، إنها امرأة عجوز، تلك المسكينة، لا تستطيع إنكار ذلك.»

- «الحب لا يفكر على هذا النحو. فليكن، إنها عمياء كالوطواط..»

- «للوطاويط رادار. ويبدو أن رادارك لا يعمل.»

- «استعملي ذكاءك، أي إنسان يمكن أن يحب أي إنسان، ضعي في اعتبارك پيري وعمه برجراين.»

- «پيري ومَنْ...»

- «لا عليك...»

- «كنت أعرف أنك تكذب طيلة الوقت عندما صحبتك إلى لندن، أنت ممثل عفن، ولا أستطيع أن أفكر كيف تسللت إلى المسرح على الإطلاق. كنت أعرف أن شيئاً يدور في الخفاء، ولكني ظننتها ليزي.»

- «لم أشعر أبداً بمثل هذا نحو ليزي.»

- «من الأفضل ألا يكون الأمر متعلقاً بليزي.»

- «إنه ليس كذلك! وحتى هذا لم يقنعك بعد؟ إنني أحب هذه المرأة.» قلت لنفسي إنني أحبها وكأنما تزوجتها فعلاً كل تلك السنين، وشاهدتها وهي تشيخ تدريجياً وتفقد جمالها.

- «أوه، اعترف يا عزيزي، هذه مجرد أكذوبة، هذا الانتقال المفاجىء إلى البحر قد عبث بعقلك، وهذا المنزل الشبحي المروِّع. أعتقد أنه أقذر منزل دخلتُه. لا عجب أن تنتابك التوهمات.».

ـ «أية توهمات تقصدين؟»

ـ «أتـذكر كـلامك عن حب أول، غـير أن هـذه الأشيـاء متخيَّلة، إنها خـرافات. كـل ما في الأمـر أنك تعـاني من صدمـة رؤيتها، فـاصبر عليهـا أسبوعين. وقد تزوجت زواجاً بورجوازياً، ولهـا ابن، ثم إنها امرأة عـادية، يا تشارلز، وأنت لا تستطيع أن تفعل ذلك لامرأة عادية لمجرد أنك أحببتهـا في المدرسة، هذا هراء، ولن تفهم هي ذلك! وفضلاً عن ذلك. فإنـك لن تكـون قـادراً، إنـك لست قـديـراً عـلى كـل شيء، ليس ذلـك في الحيـاة الواقعية. لقد ورَّطت نفسك في موقف حرج، هذا النوع من التـورط الذي تكرهه دون كل الناس، لقد أَرَقْت ماء وجهـك! تدبَّـر هذا! فليكن لـديك من معرفة الذات ما يكفي لرؤية مدى بغضك لهـذا الموقف، ليس لـك أي دور هنـا، وليست لديـك أية خـطوط، بل إنـك تعترف بـأنها لا ترغب في الحديث إليك!».

«ذلـك لأنها خائفـة، إنها تحبني حباً جمـاً، وهي لا تعرف بعـد مـا يكفي للوثوق بمشاعري. وستثق فيها. وعنـدئذ سيجتـاحها حبهـا نحوي.» قلت لنفسي: ينبغي أن أجعلهـا تعـرف، لا بـد أن أقنـعهـا بـأنني أحبهـا حبـاً مـطلقاً. ينبغي أن أكتب لهـا رسالـة طويلة، وأن أبعث بهـا سراً، فـإذا مـا فهمت حقًا. . . .

وفي روايتي الجادة للقصة، وإن جنحت إلى التعميم وإغفال التفاصيـل، ذكرت تيتوس، غير أنني لم أذكر شيئاً ـ لسبب ما ـ عن كـونه ابنـاً بالتبني، أو عن هـربـه. لعـلّي كنت من نـاحيتي متـردِّداً في التفكـير في مـوضـوع تيتوس، وعن مدى إمكانية تأثيره على الفرص المتاحة لي. كما أنني لم أصف مقابلتي المثيرة كاملة مع «بن». فهنا كانت فكرة «إراقة ماء الوجـه» يمكن أن تجد لها سنداً! قلت إن تيتوس لم يكن في البيت وأنني التقيت بهارتلي لقاءات غير حاسمة في القرية، وكانت لي محـادثات مهـذبة معهـا ومع زوجهـا. ولم أنقـل إليها الخـوف والخطر اللذين انـطوى عليهما المـوقف. ولحسن الحظ، كانت روزينا في حالة من التسلية منعتها من توجيه أسئلة مفصَّلة حقاً.

ـ «تشالز، كن إنسانياً. إنها خائفة، إنها حيية، لا بد أنها تشعر بأنها ليست متكافئة، بأنها رعديدة، غبية، بعد الحياة التي عاشتها، والتقائها بك بعد الحياة التي عشتها أنت. ومن المحتمل أنها تشعر بالخجل من زوجها الغبي، وتشعر بأن من واجبها حمايته والنفور منك. استعمل خيالك! وهي سوف تضجرك، يا حبيبي، سوف تضجرك إلى حد الجنون، وهي تعرف ذلك، أيها المسكين العجوز العزيز. إنها عجوز من أصحاب المعاشات، وتريد أن تخلد الآن إلى الراحة تريد أن ترفع قدميها وتشاهد التليفزيون، ولا تبغي المواقف المزعجة والمغامرات. ولنفترض إذن أنك حملتها بعيداً ثم أحسست بالضجر، ماذا ستفعل، بنفسك وبها؟ لقد تعودت على النساء الذكيات غير التقليديات، وأنت الآن عزب عجوز على كل حال، ولا تطيق الحياة حقاً مع أي إنسان، إلا إذا كانت صديقة ذكية قديمة مثلي، لا يمكنكَ أن تبدأ مع امرأة جديدة، وهذا هو ما هي عليه حقاً رغم كل ذكرياتك المؤثرة عن الرحلات والدراجات. أعتقد أن كل ما تريده هو تحطيم زواجها، كما أردت تحطيم زواجي. أعلم أنني فظَّة، ولكن المسألة هي أنك سبَّبت لي قدراً كبيراً من التعاسة خلال مدة طويلة، ولن أتركك من يديّ، لا بد من أن تدفع ثمن دموعي، كما يقول الناس في الأمثال. لقد عشت في حلم من أحلام السعادة طيلة حياتك، ونَفَيْتَ عن نفسك تصرفك كوغد لأنك كنت تتصيد النساء اللواتي يستطعن أن يُغْنين بأنفسهن. ولقد كنتَ ـ يا إلهي ـ تخبرنا بحقائق الموقف، ولكنك لم تلتزم أبداً بشيء، لم تكن تصرِّح لنا أبداً بأنك تحبنا حتى حين تكون كذلك! سمكة باردة بأيْدٍ نظيفة! وكانت المسألة مجرد حظ حقّاً إذا خرجت الفتيات حيَّات. أنت أشبه برجل يطلق مدفعاً رشاشاً في «سوبر ماركت»، ولكن يتصادف ألا يصبح قاتلاً، كلا، كلا، الأمر مختلف هنا، ينبغي أن تحترم اختيار العجوز المسكينة، وحياتها، وابنها وزوجها العزيز الغبي العجوز، ومنزلها الجديد الصغير اللطيف. دعها وشأنها يا تشارلز، لا عجب أنها تعدو مِيلاً عندما تراك!».

ـ «إنك لا تفهمين.» وكيف تستطيع حقًا أن تفهم. كثير مما قالته كان معقولاً، بل أكثر معقولية ممّا تتصور، ولكن، هناك شيء واحد ناقص: الطبيعة المطلقة للرابطة التي بيني وبين هارتلي. لم تكن هارتلي «إمرأة جديدة»، وإنما كانت أقدم وأقوى شيء في حياتي. كما لم أكن أستطيع، ولن أستطيع الإقدام على أن أشرح لروزينا إلى أي مدى كنت مُتْعَباً من «النسوة الذكيات غير التقليديات»، وكيف أن هذه «الحقيبة العجوز» كانت بالنسبة لي أعز الكائنات جميعاً وأغلى وأنقى مخلوق في العالم، وأشد المخلوقات جاذبية مثيرة. لقد منحت هارتلي أول حب لي، وحبي الوحيد الكامل البراءة، قبل أن أصبح ذلك «الحالم بالسعادة» و«السمكة الباردة». وكانت تلك الأوصاف المهنية هي بالطبع النتاج الخامل للحقد الغيور؛ أما من حيث كوني «وغداً»، فهذا يرجع ـ على نحو ما ـ إلى غلطة هارتلي! لقد وهبتها براءتي للحفاظ عليها، وهي تلك البراءة التي أستطيع الآن استردادها بضرب من المعجزة. وهذه الأفكار كوّنت من نفسها ـ على نحوٍ ما ـ عاطفة من الشوق النازع إلى التملك. أحسست بالحنان، والشفقة، وبرغبة عميقة لإعزاز هارتلي، وحمايتها من أي مزيد من الألم أو من الأذى، ولتدليلها وإشباع رغباتها، وإعطائها كل ما تصبو إليه، وجعلها سعيدة إلى الأبد. أردت أن أجلب لها العزاء في الوقت الباقي لنا ـ كما يجلب الله العزاء. غير أنني أريد أيضاً بصورة متزايدة، وبعنف كاد يحرق كل حنان، أن أمتلكها، أن أمتلكها جسداً وروحاً.

ومنذ مشهد التعرف، تصاعدت الشهوة الجسدية، مضطربة، مشوشة، تتلوّى وترتدّ في نفسي حواراً بين حواسي وأفكاري، لأنني كلما اجتهدت واجتهدت لكي أضم شبابها وشيخوختها، اشتدت رغبتي في اشتهائها. وكان تحقيق ذلك اختباراً عسيراً، محنة، كدحاً أعانيه في سبيلها. والآن أدركت أنه قد تم، وأن شهوتي أصبحت أشبه بنهر شق طريقه إلى البحر، لقد جعلتني كلًا متكاملًا كما لم أكن أبداً منذ هجرتني. لقد

استدعت وجودي كله، فأردت أن أتشبث بها وأن أطغى عليها وأن أرقد معها إلى الأبد حتى نهاية العالم jusqu'à la fin du monde ؛ أجل، وأن أبهر تواضعها بقوى حبي، ولكن، أن أكون متواضعاً أيضاً أنا نفسي، وأن أدعها في نهاية الأمر، تقوم بتعزيتي وترد إليّ أفضل ما في ذاتي. ذلك أنها تحتفظ بفضيلتي في حوزتها، تحبسها وتصونها كل تلك السنين. لقد كانت ألِفي ويائي. ولم تكن وهماً.

كانت روزينا - وهي تراقبني - تضحك الآن فعلاً بينها وبين نفسها. كنت أجلس باسطاً ذراعي على المائدة، ولم أزل شاعراً بالبرودة رغم «الجرسي» الأيرلندي والبراندي (الذي لجأت إليه الآن أيضاً). ومع أن الفرن الذي يعمل بغاز الكالور ما برح موقداً فقد كنت على وشك إشعال الخشب في الحجرة الصغيرة الحمراء عندما قاطعتني روزينا. كانت ترتدي - وهي قابعة في مقعدها، رافعة إحدى ركبتيها - سروالاً قطنياً فضفاضاً أزرق، مطوياً فوق حذاء برقبة من القماش السميك الأزرق؛ وقميصاً تتخلله خطوط زرقاء وأرجوانية يحيط به عند الخصر حزام جلدي مُحْكم. كانت تبدو متكاملة، عملية، قرصانية، شابة على نحو مثير للدهشة. وكانت عيناها الداكنتان الثاقبتان الحولاوان تتفرسان فيّ بشيء من التسلية الضاربة. وكان شعرها السلكي الغزير الفاحم مشدوداً الآن إلى الوراء ومربوطاً ربطاً مُحْكماً، بحيث يضفي على وجهها شدة حيوانية فظّة التعبير. خلعت سترتها دون أن تبدي أية علامة على شعورها بالبرد. وقلت لنفسي ما خطبك؟ إن الجو لا يمكن أن يكون بارداً، لأنه الصيف على كل حال. بيد أنني ارتعدت رغم كل هذا. أوَليس من العبث أيضاً أن توقد الشموع في الساعة الحادية عشرة صباحاً؟ كان يبدو أن الشموع لا تمنح ضوءاً، ومن ثمّ فقد أطفَأْتُها، ربما كان الضباب يتبدد قليلاً، وإن تكن النافذة ما فتئت معتمة. وكانت روزينا على وشك الإجابة عليّ عندما فُتح باب المطبخ بهدوء، وانسرب شخص إلى الداخل. كانت امرأة، وظننت لحظة مجنونة

أنها لا بد أن تكون هارتلي، نظراً للأفكار التي كانت مستولية عليّ ولكن كلا: لقد كانت ليزي شيرر.

أطلقت كلتا المرأتين صرخة صغيرة، نوعاً من عواء الصدمة المكتوم المُبْتَلَع، عندما رأت كل منهما الأخرى. نهضت روزينا بسرعة فائقة، وتحركت وراء مقعدها. أما ليزي فَخَطَت نحوي، ناظرة إلى روزينا، ثم ألقت بحقيبة يدها على المائدة وكأنها إعلان للحرب. وبقيت جالساً. كانت ليزي ترتدي معطفاً بنيًّا فاتحاً ووشاحاً هندياً أصفر طويلاً جداً، كانت تحله الآن وتطويه بعناية وتضعه على المائدة بجوار الحقيبة. كانت دماء الخجل تتدفق على وجنتيها بغزارة. (وكذلك كان حالي) وكانت قطرات صغيرة من الماء تغطّي شعرها. لعل السماء كانت تمطر الآن في الخارج فعلاً.

رفعت روزينا مقعداً وقذفت به جانباً على الأرضية المكسوة بالسيراميك. قالت لي: «أنت أيها الكاذب، أيها الخائن!».

وقلت لليزي: «أتراها تمطر؟».

وقالت ليزي: «لا أظن ذلك.»

قلت: «روزينا على وشك الرحيل.» وفي الوقت المناسب بالضبط، نهضت على قدميّ، وتحركت بسرعة حول المائدة. وبهذا لم تتمكن مخالب روزينا القرمزية التي شرعتها في وجهي - إلا أن تلمس عنقي بعد أن أفلتٌّ من متناولها. وانسحبت ليزي إلى الباب. فواجهت ثورة روزينا عبر المائدة. «انظري، أنا لم أكذب عليك، لم يكن بيني وبين ليزي أي نوع من التدبير، لقد وصلت لتوها من المجهول، ولم تكن تعرف.»

- قالت ليزي: «أتقيم هنا؟»

- «كلا! لا يقيم هنا أحد سواي! كل ما في الأمر أنها فاجأتني بالزيارة، الناس يباغتون بالزيارة. تناولي شيئاً من الشاي، من البراندي، شيئاً من الجبن ومشمشة.»

قالت روزينا وهي تحملق فيّ بعد أن ذهب عنها الغضب: «إنها لا

تعرف؟ إذن، أليس من الأفضل أن تخبرها؟ أم أخبرها أنا؟».

قالت ليزي متصلبة، وواضعة يديها في جيوبها: «هل ستتزوج روزينا؟».

- «كلا!».

قالت ليزي: «تشارلز، أمن الممكن أن أتحدث إليك على انفراد؟».

قالت روزينا: «كلا، إنك لا تستطيعين. يا إلهي، لو كان الأمر مقصوراً على ليزي وعليّ فحسب، إذن لكان من الممكن أن نتقاتل من أجلك بسكاكين المطبخ.».

أحسست بنوبة أخرى من الارتعاد في طريقها إليّ، فجلست مرة أخرى إلى المائدة. «لا أشعر بأنني على ما يرام.»

- «هل أستطيع أن أتحدث إليك على انفراد؟»

قالت روزينا: «كلا. تشارلز، أريد أن أسمعك وأنت تخبرها بما أخبرتني به الآن، أريد أن **أسمعك**...».

سألتُ ليزي: «هل جيلبرت في الخارج؟».

- «كلا، لقد قدت السيارة بنفسي إلى هنا. حسناً إذن، إذا لم تكن تريد الانصراف...» وجلست ليزي قبالتي إلى المائدة، متجاهلة روزينا: «أريد أن أشكرك على رسالتك العذبة الكريمة...».

- «أخبرها، أخبرها!.»

- «أشكرك على رسالتك العذبة الكريمة، كنت عطوفاً بالنسبة لكلينا.».

- «أنا شديد الأسف لأنني لم أحضر العشاء في تلك الليلة، أنا...»

- «عطوف بالنسبة لكلينا. ولكن، لم يكن من الضروري أن تكون كريماً إلى هذا الحد. كنتُ حمقاء تماماً. لا أهمية لجيلبرت. لا أهمية لشيء فيما خلا أنني لك بأية شروط. لا شيء هناك يمكن أن يدور حوله الجدل. أنا لك تماماً، وتستطيع أن تفعل ما تشاء. ولا أبالي إن سارت الأمور كلها في طريق الخطأ، لا أعبأ بما يحدث، ولا إلى متى سيدوم، طبعاً أريده أن يدوم

إلى الأبد، غير أنك ستفعل بالضبط ما تريد. جئت إلى هنا لأقول لـك هذا فحسب؛ أن أمنحـك نفسي إن كنت مـا زلت تـريـدني، كـما قلت إنـك لكذلك.»

قالت روزينا: «يا له من موقف مؤثر! ماذا قلت لها يـا تشارلـز، فلتخبرنـا أخيـراً بجلية الأمـر؟» والتقـطت حقيبـة ليـزي وقـذفت بها عـلى الأرض وركلتها.

لم تعـر ليزي ذلـك التفـاتاً، بـل كانت تتفـرّس فيّ، ووجهها المشبـوب المتضرج بحمرة الخجل يتوهج انفعالاً، وشفتاها رطبتان، وعيناها متـألقتان بصدق خضوعها الواهب لذاتها، وكنت في غاية التأثّر.

- «ليزي، عزيزتي... فتاتي العزيزة...»

قالت روزينا: «جئت متأخرة جداً يا ليـزي. تشارلـز ينوي الـزواج من سيدة ملتحية، أليس كذلك، يا تشارلـز، أليس كذلـك؟ وكنا نتنـاقش للتو بشأنك، وقال تشارلز إنه لم يهتمّ بك حقّاً على الإطلاق...».

- «لم أقل هذا! أنـظري، سوف أتحـدث إلى ليزي في الـطابق العلوي. أمكثي هنا. سأعود.»

- «خـير لك أن تعـود. سأمهلك خمس دقـائق. وإذا رحلتما إلى لنـدن، فسوف أتبعكما، وأحطمكما في حفرة.».

- «أعدك بأنني سأعود. أجـل وسأخـبرها. كـل ما في الأمـر أرجوك ألا تحطمي شيئاً، تعـالي يا ليزي.».

تناولت ليزي وشاحها من المائدة، وحقيبتها من الأرض، دون أن تلتفت إلى روزينا. تقدمتها خارج المطبخ إلى الـطابق العلوي. وعندمـا وصلنا إلى البسـطة العليا، تـرددت. كـان ستـار الخرز سـاكناً، فقـررت ألا أعبر من خلاله، قُدْت ليزي إلى الحجرة الوسطى الصغيرة، وأغلقت البـاب. كانت الحُجرة مُعتمة، إذ لم يكن ثمـة ضوء وافـر ينفذ من خـلال النافـذة الطويلة التي تؤدِّي إلى حجـرة المكتب، إمّا بسبب الضبـاب، وإمّـا لأنني نسيت رفـع

الستائر المسدلة على النافذة. كما أنها كانت خاوية أيضاً، منذ أن نقلت المنضدة التي ما زالت رابضة في الفجوة الصخرية التي أسقطتها فيها في طريقي إلى البرج. وكان هناك مربع من سجادة بالية، كما كان هناك أيضاً رف المصباح الحديدي الذي برز الآن ـ مجافياً للذوق وباعثاً على الكآبة ـ عالياً فوق الجدار. وكانت رائحة رطبة تنبعث من السجادة كلما وطئها المرء.

ـ «أنا شديدة الخوف من تلك المرأة يا تشارلز، لست مرتبطاً بها، أليس كذلك؟».

ـ «كلا، كلا، كلا، إنها تضطهدني ليس إلا. ليزي...»

ـ «لا أدري ما كانت تقول، ولكن لا أهمية لذلك. إسمع، يا حبيبي تشارلز، أنا لك، ولا بد أنني كنت مجنونة حين لم أقل ذلك في الحال. كنت خائفة بغباء، وأشعر بأنني لا أستطيع أن أحتمل قلباً محطماً آخر، ظننت أنني أريد السلام، وتخيلت أنني أستطيع أن أكبح جماح نفسي من الجري مباشرة راجعة إلى ذلك الجنون القديم المريع، ولكن بلا جدوى، لقد رجعت، وعدت إلى الجنون مرة أخرى. أحسست بالأسف من أجل جيلبرت. واحتجت إلى وقت للتفكير في حل وسط، ولكن، لا وجود لأي حل وسط. أنا لا أعبأ بما يحدث أو بما تفعله لي. ولا أبالي إذا مت بهذا. لا أريدك أن تكون خالياً من الأنانية، موسوساً، كريماً. أريدك أن تكون السيد والمَلِك كما كنت دائماً. أحبك يا تشارلز، وأنا مِلْك يمينك، وسأفعل من هذه اللحظة فصاعداً إلى الأبد كل ما تطلبه مني.».

وقفنا محملقينْ أحدنا في الآخر، نرتجف في تلك الحجرة الصغيرة المظلمة الشبيهة بالزنزانة تحت رف المصباح الحديدي. «ليزي، اصفحي عني، كانت غلطة. ليزي الحلوة، لا جدوى من ذلك، لن نستطيع أن نجتمع معاً أبداً، ولا أستطيع أن آخذك وأن أحتفظ بك كما ظننتُ، ولم يعد في وسعي أن أكون مَلِكاً بعد الآن. آسف لأني كتبت إليك. أنا معجب بك

كل الإعجاب، وأنا أحبك، ولكن ليس على ذلك النحو. كانت مجرد فكرة جوفاء، فكرة مجردة على حد تعبيرك، كنت على حق تماماً، ولن تُجْدي هذه الفكرة شيئاً، ولن تدوم. أتريْن، لقد التقيت بامرأة أخرى، كلا، ليست روزينا، امرأة كنت أعرفها وأحببتها منذ زمن بعيد، تتذكرين أنني أخبرتك، المرأة الأولى. وعلى هذا لا يمكن أن أكون لك، يا صغيرتي ليزي، ولا يمكن أن تكوني لي. يجب أن تعودي إلى جيلبرت، وأن تجعليه سعيداً، وأن تتركي الأشياء كما هي عليه. أوه، أرجوك أن تصدقيني وأرجوك أن تصفحي عني. لقد كانت غلطة.».

قالت ليزي: «غلطة.» وهي تنظر إلى حذائها اللامع ذي الكعب العالي الذي بلَّلته حشائش المدخل. «فهمت.» رفعت رأسها ونظرت إليّ، فكان وجهها قرمزياً، وشفتها السفلى مرتعشة، وعيناها غائمتين مريعتين.

- «تتذكرين تلك الفتاة التي أخبرتك عنها ذات مرة، حسناً، لقد التقيت بها مرة أخرى وهي تقيم هنا و. . .».

- «سأقول وداعاً إذن.»

- «ليزي، حبيبتي، لا ترحلي على هذا النحو، سنكون صديقين، أليس كذلك، مثلما طلبت في خطابك الأول، سآتي وأراك أنت وجيلبرت. . .»

- «أظن أنني لن أبقى مع جيلبرت بعد الآن. لا يمكن للأشياء أن تبقى كما كانت. آسفة، وداعاً.»

- «ليزي، امسكي يدي لحظة. . .»

أعطتني يدها المرتخية، وكانت رطبة صغيرة غير مستجيبة، فلم أستطع الاستمرار في تحويل الحركة إلى عناق. فسحبت يدها وبدأت تعبث في حقيبة يدها. وأخرجت قطعة من المرآة التي كُسِرت عندما ركلتها روزينا، ومنديلا صغيراً أبيض. وما إن أمسكت المنديل بيدها حتى طفقت تبكي في هدوء.

تأثرتُ تأثراً شديداً وانتابني الحزن، ومع ذلك بدا لي - في شيء من

الانفعال الذي لا يخلو من الزهو الغريب والإسراف في العاطفية على نحو ما ـ بدا لي أنني أشاهد في لحظة واحدة وفي كرة (بلّورية) تدور فيها الأشياء وتختفي جميعاً ـ الحياة التي كان من الممكن أن أحياها مع ليزي : كيروبيني Cherubino ، وآرييل، وباك وإينبي (وكلها الشخصيات التي أخرجتها وتمنيتها) بعضاً من الحياة التي كان من الممكن أن نحياها معاً لو كنت مختلفاً، وكانت هي مختلفة. والآن، مضى كل شيء، أياً كان ما قد يحدث بعد ذلك، وتغيّرت الحياة. وأخذت أردد في نوع من السرور الحزين المعذّب لنفسه: «كلا يا ليزي، أيتها القلب العزيز، ليزي الصغيرة الشجاعة، لا يمكن أن يحدث ذلك. إنني في غاية الامتنان لك من أجل.. من أجل..».

قالت ليزي: «هذا مضحك» وكانت تتحدث متمالكة لأعصابها من خلال دموعها الهادئة. «هذا أمر مضحك. أن يقود المرء السيارة من لندن، إنه طريق غاية في الطول، وقد استأجرت سيارة لأنني لا أقود سيارة جيلبرت. وقد أدرت طوال الطريق نوعاً من المحادثة العاشقة الرائعة معك، ليتها لم تكن في مثل تلك المسيرة الطويلة ـ وبلغت المحادثة ذروتها كأنها تتويج، كنت أفكر في الدهشة والسرور اللذين ستلقاني بهما حين تراني، وكم سنكون سعيدَيْن معاً، وكيف سنضحك ونغرق في الضحك كما اعتدنا، وأخذت أتصور هذا كله، وأحسست بالحب والفرح كما لم أشعر بهما من قبل ـ حتى رغم أنني كنت أقول لنفسي إنني قد أنتهي بقلب محطم، وفي هذه المرة سيقتلني ذلك... غير أنني لم أكن أكترث كيف تكون النهاية، أو كم سأتعذب، ما دام يريدني، ويأخذني بين ذراعيه... والآن انتهى كل شيء حتى قبل أن يبدأ، ولم أكن أتخيل إطلاقاً أن كل شيء سيفسد ويتحطم في البداية.. والآن، لم أحصل على شيء.. فيما عدا حبي لك.. الذي صحا مرة أخرى وكان مآله الرفض... كل شيء قد بعث.. مرة واحدة وإلى الأبد....».

ـ «ليزي، سيهدأ، وينام، بل إنه قد نام..».

فهزت رأسها، وقد أطبقت على منديلها بين أسنانها.

ـ «ليزي، سأكتب إليك.».

انقطعت دموعها. «لا تكتب، وفتحت الباب بشأن ليزي المسكينة؟» الوشاح الأصفر. لا تكتب، يا تشارلز، هذا أرحم. إنه شيء مضحك، ظننت أنها النهاية حينذاك، لكن النهاية كانت الآن. أرجوك ألا تكتب إليّ إذا كنت تريد أن تكون رحيماً.. لا أريد... شيئاً بعد الآن...».

فركت الوشاح ودسّته في جيبها، ثم استدارت وفتحت الباب بسرعة على مصراعيه، وكادت تصطدم بروزينا التي كانت تقف في الخارج مباشرة. قفزت روزينا متراجعة، وركضت روزينا وهي تنزل على السلم، وتستند بقوة على الدرابزين، وحذاؤها ذو الكعب العالي يقرقع ويطرقع. حاولت أن أتبعها، غير أن روزينا قبضت على ذراعي، وهي تبذل قسطاً كبيراً من القوة وتلف إحدى قدميها المنتعلتين الحذاء ذي الرقبة أمام قدمي. فارتطمنا بالجدار. «دعها تذهب»، وأُغْلق الباب الأمامي بعنف.

وقفت لحظة أحملق في ستار الخرز الذي كان يهتز ويطقطق. ثم نزلت متباطئاً إلى الطابق السفلي، وروزينا تتبعني. دخلنا المطبخ وجلسنا مرة أخرى إلى المائدة.

ـ «لا تقلق، يا تشارلز، هذه الحيوانة الشهوانية الصغيرة لن تحطم قلبها.».

أخلدت إلى الصمت.

ـ «الآن أظن أنك تريدني أن أتناقش معك بشأن ليزي المسكينة؟».

ـ «كلا.»

ـ «أي تشارلز العجوز المسكين، أُنْزلت عن مرتبتك كإله.»

ـ «فليكن. أرجوك اذهبي.»

ـ «لو تصالحت مع ليزي شيرر فسوف أقتلكما معاً.»

ـ «أُفٍّ لكِ يا روزينا، لا تكوني غبية، ولا تكوني مبتذلة. أرجوك أن

تذهبي. حسناً، أظن أن من الأفضل لك أن تساعدي ليزي على البدء إذا رجعت إلى لندن.»

- «لن أعود، وإنما سأذهب إلى فندق الغراب لأتناول غداءً طيباً بمفردي. ثم أذهب إلى مانشتسر لتصوير أحد الأفلام. سأدعك لأفكارك وأرجو أن تؤذيك. ولن أتدخل في مهزلتك مع السيدة الملتحية بشرطٍ واحد.»

- «ماذا؟.»

- «أن تعدني بإطلاعي على كل شيء عنها.»

- «فليكن.»

- «تعدني؟»

- «أجل.»

- «إنهض يا تشارلز.».

ووقفت بحركة آلية على قدميّ. ودارت روزينا حول المائدة، وحسبت في لحظة أنها ستضربني. ولكنها منحتني قبلة من قبلاتها الرطبة. «حسناً، إلى اللقاء، سأعود.».

وانغلق الباب الأمامي بعنف مرة ثانية، وبعد لحظة أخرى سمعت نعيق الرحيل ينطلق من السيارة الصغيرة الحمراء. وتمنيت - لحظة فحسب - أن تعود ليزي. ثم خطر لي أن الحظ حالفني عندما لم تهرع ليزي إليّ بعد خطابي الأول.

دخلت الحجرة المجاورة وحاولت إيقاد النار ولكنني أخفقت. كان هناك ما يكفي من خشب الإشعال. وكنت أشعر باضطراب تام من جراء بكاء ليزي وقبلة روزينا. كنت تعساً بسبب ليزي ولكن بصورة خالية من المضمون، وكنت أحجم عن التفكير بشأنها. كنت أبتغي تعاطفها. وندمت بالفعل على محادثتي المبتذلة تماماً مع روزينا. ظننتُ من الفطنة وقتئذ أن أخبرها بقصة هارتلي، غير أنني أصبحت الآن مُشْبَعَاً بنُذُر مشئومة. والواقع

أنني زودت روزينا بسلاح آخر. ثم بدأت أتعجب قليلاً من أمر ابن عمي جيمس وكيف فارقه الغرور. أهو الشذوذ الجنسي؟ أم أن الجيش قد قرر أن بوذياً مخبولاً يمكن أن ينطوي صدره على مخاطرة سيئة تهدد الأمن؟ بدأت رقبتي تؤلمني في الموضع الذي أدركته أظافر روزينا الحمراء. وأردت أن أقيس درجة حرارتي، ولكنني لم أعثر على مقياس للحرارة.

انحسر الضباب الآن وانهزم الشفق أمام جحافل الظلام، وتألق قمر صغير لامع وحشي، أَعْتم النجوم وسكب بريقاً معدنياً على البحر وأشاع الحياة في البر بأنواع من الحضور الشبحية المقصودة للصخور والأشجار الساكنة. وكانت السماء مصطبغة بأزرق صافٍ مائل إلى السواد يداعب نور القمر الوفير دون أن يتضوَّأ به. أما الأرض وأشياؤها فكانت متلفعة بلون بني كثيف غائم، وكانت الظلال قوية والهوية الوليدة لكل شيء أَمُرّ به كانت من القوة بحيث أخذت أتلفَّت خلفي في عصبية. الصمت شامل، مختلف في نوعيته عن الصمت المبهم الذي يسوده الضباب، ويقطعه بين حين وآخر نعيب بومة أو صياح كلب بعيد.

لم أعبر القرية، وإنما سرت على طول الطريق الساحلي في اتجاه الميناء من خلال الشريط الضيق الذي سميته «ممر خيبر» حيث قامت الصخور الضخمة الصفراء بغزو الأرض، وقد تكدست في مقابل الجانب المواجه من التل - فاستحالت إلى هضبة متكتِّلة شُقَّ فيها صدع ضيق يسمح بالمرور. وكانت الصخور في ضوء القمر بُنِّية داكنة، ولكنها مغطاة بنقاط وامضة لا حصر لها من الضوء كلما تصيَّد القمر أوجه الكوارتز الصغيرة. دخلت ذلك الصدع المظلم ومضيت إلى الميناء حيث كان هناك على مسافة غير بعيدة ممر للسابلة يؤدي صُعُداً إلى التل ويلتف حول غابة ويلحق بالطريق المرصوف ليختفي فيها وراء الشاليهات الصيفية (الپانچالوز). كل هذا راجعته أثناء ضوء النهار عندما اجتهدت أيضاً في معرفة كيفية الوصول إلى حديقة النيبليتس. لم يكن ذلك عسيراً، إذ كانت النهاية المنخفضة للحديقة لا

تنفصل إلا بصف من الأعمدة المتصلة بسلك رخو ابتداء من المجال الطويل المنحدر الممتلىء بالآجام المتشابكة والصخور الناتئة التي تحف بممر المشاة الصاعد على جانب القرية. وكان العيب الرئيسي في مغامرتي ـ بغض النظر على الإمكانية الكابوسية لاكتشاف أمري ـ هو أنه إذاكان الوقت متأخراً بما يكفي لتسللي إلى الحديقة دون أن يلاحظني أحد فإنه متأخر أيضاً بما يكفي ليكون الزوجان في الفراش. كما كانت هناك أيضاً إمكانية أنهما ربما كانا يشاهدان التليفزيون وقد ران عليهما الصمت.

كنت قد استبعدت من قبل فكرة التجسس على هارتلي وبن، لا من أجل أسباب أخلاقية، ولكن لأن ذلك يجعلني أشعر بالسَّقم انفعالاً ورعباً. فالزواج يتمتع بخصوصية عميقة. ومن يرفع ذلك الستار دون حق يمكن أن يصاب بصاعقة من إله منتقم، على نحوٍ لا يستطيع أن يكون في حسبانه على الإطلاق. ويمكن لكشف مريع غير متوقع تماماً أن يعذِّب الكافر في حياته بعد ذلك بمطاردة لا هوادة فيها. وكان عليّ هنا أن أناضل رعبي المتطير من الحالة الزوجية، ذلك الوضع الذي لا سبيل إلى تصوره من الحميمية والرباط المتبادل. ومهما يكن من أمر فإن منطق الموقف يفرض عليّ الآن هذه المغامرة الخطرة المقززة. كانت الخطوة التالية محاولة الإجابة على السؤال التالي. كان عليّ أن أكتشف بكل ما في وسعي طبيعة هذا الزواج الحقَّة، وما يعنيه كل واحد من هذين الاثنين للآخر.

كان القمر المشرق من السماء يلقي ظلال الأعمدة الخشبية على المرجة المنحدرة للنيبليتس، وكانت الحشائش تبدو مكسوة بالبَرَد. واستطعت أن أميِّز بالفعل من تحت أن «النافذة ـ الصورة» ذات الستار الموجودة في حجرة الجلوس تومض بالنور. خطوت فوق السلك الرخو وشرعت أمشي في هدوء تام صاعداً المرجة في اتجاه المنزل منصتاً لوقع أقدامي الصامتة حقاً على الحشائش النديَّة فعلاً، منصتاً لأنفاسي العميقة ولخفقان قلبي الموجع، وعلى الرغم من سقوط أمطار خفيفة من قبل فقد كانت الأرض صلبة بعد

الجو المشمس، ولا أحسب أنني سأترك آثار أقدام قابلة للملاحظة. وعلى مسافة خمس عشرة ياردة تقريباً من المنزل توقفت. وكانت النافذة مغلقة فيما عدا فتحة صغيرة في القمة، ولم تكن النوافذ مرفوعة، والنور في الداخل يضيء - كأنه زجاج مُطْفَأ - رسماً لامعاً لببغاوات خُضر فوق شجرة ليمون. . وكان هناك شق ضيق في المركز أخفقت الستائر عنده في الالتقاء. تحركت مرة أخرى، وأنصتّ. كانت هناك مجموعة من الأصوات. أيكون التليفزيون؟ وتحاشياً للمنطقة الخطرة التي يوجد فيها الشق، وشاعراً وكأنما أوشك على الاندفاع في الفضاء، تحكمت في نفسي حتى أتحرك بانتظام وسكون، متجهاً صوب النافذة مباشرة، وللركوع حتى ألمس الجدار المصنوع من قوالب الطوب، لأجلس بعد ذلك واضعاً رأسي بالضبط تحت مستوى النافذة المنخفضة.

وتحسباً لالتقائي بأدغال الورود، وإن لم أتنبأ بسقوط الندى، كنت أرتدي معطفاً. وقد أرشدني ضوء القمر إلى المناطق المحيطة بمختلف أحواض الزهور، ولكن، ما إن اقتربت من المنزل حتى غشيت عيناي بالنافذة المضيئة، أو لعلني أمسيت أعمى بفعل الخوف، إذ يبدو أنني جلست على أجمة ورد. إذ انبعث صوت قرقعة خفيف مخيف، ونفذ رمح حاد صغير في سمانة ساقي. جلست مرتبكاً، متجمداً، مستنداً بظهري إلى الجدار، وقد اتسعت عيناي، وفغرت فمي محملقاً بغتة في البحر الهائل الذي أضاءه القمر تحتي، ومنتظراً في هلع تلك الجملة الرهيبة «من هناك؟».

غير أن الأصوات استمرت، وكان بوسعي أن أسمعها الآن في وضوح تام. ما أيسر التجسس على أناس لا يشتبهون بشيء! والتجربة التي تلت ذلك كانت من الغرابة بمكان، بل هي حرفياً باعثة على جنوني، بحيث لن أحاول وصف مشاعري، وإنما سأقدم لكم حواراً، كما هو الحال في مسرحية، وسيكون المتحدث واضحاً لكم دون التباس.

ـ «لماذا جاء إلى هنا إذن؟».
ـ «لا أدري.»
ـ «إنك تردّدين لا أدري، ألا تستطيعين أن تقولي شيئاً آخر، أم أنت متخلفة عقلياً؟ بالطبع أنت تدرين، ولا بد أن تدري. أتظنين أنني أبله تماماً؟ لست بهذه الغفلة.»
ـ «أنت لا تصدِّق...»
ـ «أصدِّق ماذا؟»
ـ «أنت لا تصدِّق ما تقوله...»
ـ «ماذا تقصدين بحق السماء، ماذا تقصدين، ماذا قلتُ بحيث تظنّين أنني لا أصدقه؟ أمن المفروض أن أكون كاذباً إذن؟»
ـ «قلت إنك تعتقد أنني أدري، ولكن، إنك لا تستطيع أن تعتقد ذلك، فهذا جنون...»
ـ «إذن فأنا إمّا مجنون وإمّا كذّاب؟ أهذه هي المسألة؟ أهذه هي المسألة؟»
ـ كلا، كلا...»
ـ «أنا لا أفهمك، إنك تتلعثمين، لماذا جاء إلى هنا؟»
ـ «لا أدري، كان مجرد شيء عارض، كان مصادفة...»
ـ «نوع مضحك من المصادفة.. يا إلهي، إنك ذكية، وهذا هو الشيء الوحيد اللعين الذي يعذبني أكثر من أي شيء آخر. أظن في بعض الأحيان أنك تدفعينني إلى الخروج عن طوري، وتجعلينني من الجنون بحيث...»
ـ «حبيبي، فؤادي العزيز، عزيزي بينكي، أرجوك ألا... أنا شديدة الأسف، أنا شديدة الأسف...»
ـ «لا جدوى من قولك إنك متأسفة، أو من أنك لا تدرين، هذا كل ما تقولينه مرة بعد أخرى. أود لو شججت رأسك لأجد ما تعرفينه. لماذا لا تشرحين لي في النهاية؟ لماذا لا تعترفين أخيراً؟ كان الحال على هذا المنوال منذ مدة طويلة. سيكون من دواعي ارتياحي لو أخبرتني فحسب...»
ـ «ليس هناك ما أخبرك به!»

- «أتتوقعين أن أصدِّق هذا؟»
- «إنك تصدِّقه فعلاً.»
- «لم أصدِّقه أبداً، إنما تظاهرت بذلك فحسب، يا للسيد المسيح، أردت أن أنسى، تعبت من معايشته على الإطلاق، تعبت من الحياة مع أحلامك.»
- «لم تكن هناك أحلام على الإطلاق.»
- «أوه أنت أيتها الملعونة...»
- «لم تكن هناك أحلام على الإطلاق.»
- «لا تختلقي أكاذيب، ولا تصيحي في وجهي أيضاً. يا إلهي، من الأكاذيب التي قصصتها عليّ! عشت في نوع من شوربة الأكاذيب منذ البداية... ثم الآن الغلام...»
- «كلا، كلا...»
- «حسناً، كنت مغفلاً حقاً في كل تلك الحكاية، ولا أستطيع أن أثق...»
- «كلا!.»
- «يا للسيد المسيح، عندما أفكر في الرجال الآخرين المحظوظين مع زوجاتهم وعائلاتهم، وحياتهم البسيطة المحترمة، وفي الحب العادي والحنان، بينما هنا...»
- «كان لنا حبنا العادي وحناننا و...»
- «لم يكن سوى تظاهر لأن كلاًّ منا كان مُتْعَباً، وكان من الإرهاق الشديد أن يكون أميناً، أصابنا الكلال في أن يقول كل منا الحقيقة للآخر عن القفص الجهنمي الذي نعيش فيه، كان لا مندوحة لنا عن الراحة أحياناً والتظاهر بأن الأشياء كلها على ما يرام، بينما لم تكن كذلك، والصبر على هذه الخدعة، هذه الخدعة اللعينة التي تسمِّينها زواجاً. كان لا بد لنا من التوقف عن طَعْن أنفسنا وطعن كل منا للآخر بالحقيقة المروِّعة. وهكذا

غرقنا كلانا في الأكاذيب، أكاذيبك، إنها في كل مكان كالمستنقع العفن، ونحن نغرق فيها، وبحق السيد المسيح ظننت أنه قد يكون من الخير أن نبتعد، عندما جئنا إلى البحر، ظننت أنه ستكون لي حديقة على أقل تقدير، ظننت.. ولكن، واأسفاه، إذا به هنا! هذا شيء مضحك، أليس كذلك؟»

- «أوه، يا عزيزي، لا... أنت تحب هذاالمكان، أنت تحب هذا المكان...»

- «جميل، ولكن لا تقولي لي هذا الآن، أتريدينني أن أبصق في وجهك؟ كل ما في الأمر أننا تظاهرنا بأننا إنسانان لطيفان وادعان...»

- «إنك لم تتظاهر كثيرا.»

- «لا تبدأي هذا مرة أخرى.»

- «فليكن، إذن لا تبدأ أنت.»

- «من الأفضل أن تكوني حذرة. شيء آخر أحملهْ ضدك هو أنك جعلت مني... جعلت مني شيئاً سيئاً كل السوء... بحق المسيح، لماذا لا نستطيع الخروج؟ ليتك تقولين الحقيقة ولو مرة واحدة. كل ما أريده هو أن أعرف أين أنا. لماذا أتى ذلك الرجل إلى هنا، إلى هذه القرية، هنا في في هذا المكان بالذات؟».

- «إنك تردد أسئلة واحدة بعينها مرة بعد أخرى. أنا لا أدري. أنا لم أكن أريده هنا...»

- «كذابة. كم عدد المرات التي رأيته فيها؟»

- «تلك المرة فحسب.»

- «كذّابة. أنا رأيتك بالفعل مرتين معه، ويعلم الله وحده عدد المرات التي تزيد عن هاتين المرتين. لماذا تكذبين عليّ بمثل هذا الغباء؟ كما أنك أنت التي أغريته بزيارتنا هنا.»

- «لم أغره!»

- «إذن، فلن تَريْهِ مرة أخرى.»

- «لا أرغب في ذلك!».

- «إنه الماضي، الماضي، الماضي اللعين... لم يكن بالنسبة لنا أي شيء أبداً، كل شيء قد فسد، لقد أفسدت كل شيء، أنت وهذا...»

- «حبيبي، عزيزي، عزيزي بينكي، لا تقل...»

- «ولا تناديني بأسماء التدليل، هذا استهزاء...»

- «ألا تحاول أن تكون رحيماً بي، أن تشفق عليّ، مجرد المحاولة...؟»

- «لماذا لا تحاولين أنت! أوه يا إلهي، كيف يمكن أن تكوني بهذه القسوة...».

- «لست قاسية. أنت مجنون، أنت مجنون...»

- «لا تصرخي في وجهي، كفاني ما عندي من الصراخ. صرخت على طول سبيلك في الحياة، ونحن الآن في نهايتها تقريباً. يا إلهي، أود لو أن حياتي انتهت. هذا ما كنت تُصَلِّين من أجله، على ما أتوقع، أن تفاجأني نوبة قلبية. عندئذ يمكن أن تذهبي مع...»

- «آسفة، آسفة، آسفة...»

- «كفّي عن قولك هذا، ألا فعلت، لقد سئمته. إنه لا يعني شيئاً، صيحة الببغاء تلك، أوه، يا إلهي، ما أشد تعبي. كل شيء قد أصابه الفساد، إنه حتى لم يبدأ أبداً، بسببك. ثم يأتي ذلك الخداع الذي لا سبيل إلى وصفه، وكنت أحسبه....»

- «لم يكن هناك خداع...!»

- «أوه، إخرسي، أعرف أننا قلنا كل هذا من قبل ملايين المرات، نحن أشبه بعرائس الساعات... ولكن، بحق المسيح، لا أكف عن التفكير فيه طيلة الوقت، ولا مناص من قوله حيناً بعد آخر! بل لقد قبلت تلك الكذبة لأنه لم يكن يبدو هناك ما أفعله سوى ذلك، وكنت أرغب رغبة محمومة في أن أكون سعيداً. حسناً، لا أن أكون سعيداً، فأنا أعلم أن هذا محال، بل كنت أريد على الأقل شيئاً من السلام في حياتي الفاشلة العفنة، وأن أرتاح قليلاً، ولكن، أوه، كلا! إنك لا تَدَعين لي شيئاً من الراحة...»

- «ليس هذا حقاً...»

- «إحترسي، إحترسي. ظننت أنني لا أجد بديلاً سوى أن أتخلص منك ومن أكاذيبك.. يالله، لا بد أنني كنت مخبولاً... كان ينبغي أن أرحل وأن أتركك مع...»

- «كلا...!»

- «كنت ستبتهجين. وها هو يعود الآن جريئاً كالنحاس، ويأتي ويدق جرس بابي! لا بد أنك استمتعت بتدبير ذلك.»

- «لا تقل ما لم تفكر فيه.»

- «بل لقد فكرت فيه، فيم أستطيع أن أفكر إن لم يكن في ذلك الأمر؟ أستطيع أن أرى حينما تكذبين. أتفكرين في أنك تستطيعين احتوائي؟ أين أخفيت خطاباته، إيه؟ أين»

- «لا توجد أية خطابات.»

- «لأنك دمرتها. أوه، أنت ذكية! ولكن اسمعي.. قلت اسمعي...»

- «أنا مصغية.»

- «خطتك الصغيرة لن تُفلح.»

- «أية خطة صغيرة؟»

- «تريدين مني أن أقول «فليكن إرحلي، لا أعبأ أين تذهبين». تريدين أن تعذبيني بأن أسمح لك بالرحيل. هذه هي الخطة، أليست كذلك؟»

- «كلا.»

- «إنزعي هذه النظرة البشعة من وجهك وإلا... حسناً، لن يكون الأمر كذلك، أترين؟ لن أدعك تذهبين، لن أتركك تذهبين أبداً، أترين؟ تستطيعين أن تمكثي هنا، وأن تعتني بي حتى ولو لم يتفوه أحدنا بكلمة لعينة إلى الآخر. أترين؟ حتى لو اضطررت إلى ربطك بالسلاسل...»

- «سامحني، أرجوك، سامحني، لا تغضب كل هذا الغضب، أنا لا أطيق ذلك، كف عن الغضب، إنه يؤذي كثيراً، أنت تخيفني إلى أبعد حد...»

- «أوه، كفي عن البكاء، لقد مللت دموعك. لماذا جاء إلى هنا، ما

المسألة كلها، هذا ما أريد أن أعرفه، بحق السيد المسيح، ألا تستطيعين أن تخبريني بالحقيقة أخيراً، لقد تعبت من الحياة في حلم مزعج والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. هذا البيت الملعون الذي نبذل فيه جهداً كبيراً، هذا الأثاث الملعون، الحديقة، تلك الورود البشعة، تظاهر، تظاهر، تظاهر، أود لو سحقت هذا كله إلى شظايا. لماذا لا تستطيعين أن تخبريني بالحقيقة؟ لماذا عاد إلى هنا، ماذا يعني ذلك؟»

- «أرجوك، إنك تجرحني، أرجوك، أرجوك، أنا شديدة الأسف، أنا شديدة الأسف. . .»

- «ماذا يعني هذا؟»

- «أوه، كف عن هذا، أنا متأسفة. . .».

كتبتُ هذا كما تذكرته، بما فيه من تكرارات. لم أحاول، ولن أحاول الآن، وصف نبرات الصوت، صيحاته الحادة، واعتذاراتها الباكية المتأوهة. لن أنسى ذلك أبداً؛ لقد حصل مُسْترق السمع على ما جاء من أجله.

أردت أن أغادر المكان بسرعة، غير أنني كنت مشلولاً بالرعب من ناحية، وبتقلص جسدي من ناحية أخرى، إذ جلست في وضع مرتبك غير مريح، ولم أجرؤ على التحرك منذ أن اتخذته. وأخيراً تدحرجت وزحفت هابطاً المرجة المبتلة المقصوصة الذي أضفى عليها القمر لوناً رمادياً. نهضت على قدميّ متصلباً، وجلوت عن الحديقة، ثم أخذت أعدو منحدراً ممر المشاة في وجه القمر الغارب، عدوت معظم الطريق إلى البيت. احتسيت شيئاً من الويسكي وتناولت قرصاً منوماً ولجأت إلى الفراش، واستغرقت تواً في النوم، وحلمت أنني اكتشفت حجرة سرية جديدة في «شراف إند»، وقد رقدت فيها امرأة ميتة.

في اليوم التالي كنت أشبه برجل مجنون. هرولت، بل كنت أجري تقريباً، حول المنزل، حول المرجة، فوق الصخور، على الممر، صاعداً إلى البرج. ركضت كحيوان هائج في قفص، يرمي بنفسه متوجعاً على

القضبان، مؤدياً نفس الوثبات الجديرة بالرثاء مرة بعد أخرى. كان هناك ضباب ذهبي أخذ يتبدَّد رويداً رويداً، بما يؤذن بأن اليوم سيكون قائظاً. تأمَّلت في حيرة أماكن سباحتي المألوفة، وما كان من الارتطام اللطيف الماكر للبحر الهادىء بالصخور الصفراء. عدوت عائداً إلى المطبخ، غير أنني لم أستطع أن أعد لنفسي فنجاناً من الشاي. «ماذا ينبغي أن أفعل، أوه، ماذا ينبغي أن أفعل؟» ظللت أردد هذا السؤال لنفسي بصوت عالٍ. والشيء الغريب هو أنه على الرغم من أنني تلقيت بالضبط الشواهد التي أردتها كاملة غير منقوصة كنت أبدو مشتت الذهن بالحزن والخوف وضرب من الغثيان، الآن بعد أن حصلت على ما أريد.

لم أفهم المحادثة ككل. وفي لحظات معينة أحسست بأنني لا أكاد أفهم شيئاً على الإطلاق، فيما خلا ما كان بيِّناً بدرجة لا مزيد عليها؛ تلك النبرات الصوتية المريعة، والإحساس بأن هذا قد حدث من قبل مرة إثر أخرى. الصراخ المخيف الذي يصدر عن أرواح غارقة في الذنب والألم، يمقت كل منها الآخر، ويرتبط كل منها بالآخر. جحيم الزواج-The Inferno of marriage. ولم أكن أستطيع، ولا حاولت، أن أستخلص المعاني والمضامين التي تنطوي عليها تلك الأقوال. من الواضح أن السيد المهذب «الجنتلمان» (بدأت الآن بغتة في التفكير فيه بوصفه «جنتلماناً») كان ساخطاً على ظهوري على مسرح الأحداث. فليكن، هذاأمر غاية في السوء. استغرقت في رؤى تتلخص في الذهاب إلى النيبليتس، وإمساكه من ياقته عندما يفتح الباب، وتسديد لكمة إلى وجهه. غير أن هذا سيكون عديم الجدوى. وفضلاً عن ذلك لم يكن «الزوج العزيز الغبي العجوز» كما تصورته روزينا. قد تكون له ساق متصلبة، ولكنه كان زبوناً فظاً. لقد كان، أو ربما بدا، أنه رجل خَطِر. ومن الجائز أنه فتوة من الفتوات الكلاسيك، ينهار عند تهديده؛ غير أن هؤلاء الذين يُقدمون على تهديد الفتوات يمكنهم أن يتشككوا في وجود مثل هذا النمط المريح. لا مجال هناك

لإجراء مثل هذه التجربة. ما ينبغي أن أفعله ببساطة هو أن آخذ هارتلي بعيداً، وأن أفكر في كيفية القيام بهذه المهمة. وكان التفكير عسيراً.

في خواطري الأولى، رأيت ـ على نحو غامض إلى حدٍ ما ـ أنه من المفروغ منه إذا اتضحت الأمور، أو إذا كان من اللازم أن تكون واضحة ـ أن زواج هارتلي كان كارثة، فلن يكون من العسير عليّ أن أحطمه وأبعدها عنه. وفي تلك الظروف لم أكن أشك في أنها سوف تريد المجيء، وأن هروبها إليّ أخيراً سيكون هروباً سعيداً مباركاً، وتحقيقاً بالفعل لخيال طال الاعتزاز به. قد يبدو هذا الافتراض على شيء من السذاجة، غير أن سذاجته بأي معنى من المعاني لم تكن هي التي سبَّبت الآن حيرتي وإنما كانت المسألة أنني بعد أن دُفِعت دفعاً إلى نقطة الفعل، لم يكن بوسعي أن أفكِّر بالضبط كيف يكون هذا الفعل، وأصبحت التفاصيل ذات أهمية عظمى. لم تكن نيبليتس بورودها، وسجاجيدها الجديدة البشعة، وزيناتها النحاسية، وستائرها الباهتة، والجرس ـ لم تكن هذه كلها هي التي تؤثر فيّ على الإطلاق، فقد كانت جميعاً غائمة، رؤياوية. أو كما قال مجرد مظاهر. أما الذي ترك أثره عليّ فعلاً فكان شيئاً من طراز تلك المحادثة الرهيبة نفسها، معنىً من معاني الأعوام العديدة العديدة التي خَلَت، معنى قوة القفص ونسيجه. ومع ذلك يمكن ألا يكون شيئاً سوى أن أقول لهارتلي «تعالي» فتأتي. ولم يبق بعد ذلك سوى أن أقرر كيف أقول هذا ومتى، وبدا أن هذا القرار يثير كل الصعوبات المبهمة مرة أخرى. أتكون المسألة هي ببساطة أنني خائف من بن؟.

في حوالي الساعة الحادية عشرة توقفت عن الجري وأعددت شيئاً من الشاي، كانت هناك فكرة تلقيتها من المحادثة، ولكنها ظلت بعض الوقت ـ وإن كانت موجودة هناك ـ دون أن أستطيع تجسيمها أو تحديد هويتها. إنها فكرة أوحى بها إليّ الجنتلمان نفسه. كانت أشبه بهذا: على افتراض أنه نبذها حقّاً، على افتراض أنه سيق إلى رفضها؟ ألا يحل ذلك المشكلات

التي تحيط بذلك القفص، تلك المشكلات التي وجدتُ مشقة كبيرة في صياغتها؟ قال الجنتلمان إنه لن يطردها أبداً، ولكن مجرد ذكره لذلك على الإطلاق معناه أنه ممكن. دعه يسفِّه نفسه بمزاجه القبيح نفسه وبغيرته القبيحة أو بأي شيء كان، لأنني لم أكن أرى في الواقع هذا الشيء حقاً - الذي أثار ثائرته إلى ذلك الحد. لم يكن ذلك الشيء بالتأكيد هو مجرد ظهوري، صديق المدرسة القديم الذي أصبح الآن من المشهورين، يدق على بابه، وإن يكن ذلك أمراً غير مرغوب فيه بلا ريب؟ لو أنه تمادى بما فيه الكفاية، وانهارت هناك الأمور وتداعت، فلن يكون لها إذن ملاذ تلجأ إليه، أو قفص تسكنه، وستأتي إليّ مهرولة لترتمي مباشرة بين ذراعيّ. ومع ذلك، لو أنه صار مجنوناً، وتقوَّض عالمه، ألا يجوز أن يقطع أوصالها أو أن يقتلها؟ هذه واحدة من الأفكار التي جعلتني أتواثب حول الصخور كالفهد المخبول. وصرختها في النهاية: «كف عن هذا، كف عن هذا، إنك تجرحني.» كم من المرات ترددت أصداء هذه الصرخة في تلك الأعوام البغيضة؟ كانت أمراً لا يُطاق. قفزت من مكاني، فقلبت فنجان الشاي الذي تهشم بصوت عال، وركضت مرة أخرى فوق الحشائش. ماذا ينبغي أن أصنع؟ أشياء كثيرة اتضحت لي الآن، غير أنني لم أستطع التفكير في التكتيكات (التحركات) النهائية، لم أكن أستطيع التفكير، ولم أكن أستطيع ذلك لأنني كنت عاجزاً عن تصفية عقلي من تلك المحادثة البشعة، إنها عوَّقتني كأنها زَبَد كثيف لزج. لا بد من إنقاذ هارتلي، وكانت كلمة «إنقاذ» هي الكلمة الصحيحة الآن حقاً، الكلمة المناسبة التي تشوَّقت إليها. ولكن الآن وقد وجدتها، كيف يكون هذا الإنقاذ؟.

وفيما بعد بدا لي وكأن هارتلي نفسها قد هبَّت لمساعدتي، شاهدت وجهها الشاحب اللطيف الحزين ينظر إليّ، وأحسست بطيف من الهدوء، وكأن نسمة من حضورها أقبلت. أدركت أنه ينبغي عليّ قبل أن أُقْدم على أي تحرّك مكشوف على الإطلاق أن أتحدَّث إليها مرة أخرى، وإن أمكن أكثر

من مرة. كان الدافع الذي يحركّني هو أن أحوم حول ذلك البانجالو المرعب مباشرة، وأن أحملها بعيداً عنه، وقد يصل الأمر في النهاية إلى هذا. ولكن يجب بالطبع أن أهيّئها لذلك. فإذا كان الأمر انقضاضاً فلا ينبغي أن يتم بلا قصور ولا أخطاء. كانت تموج في ذهني أشياء لا تعرف عنها شيئاً، فلا بد أن أطلعها على موضعي من كل هذا. وقرّرت أنه من العبث في الوقت الحاضر محاولة الإقدام على أية مقابلات أخرى في القرية، إذ ستكون منفعلة خائفة بحيث لن تسفر هذه الاجتماعات عن شيء. وينبغي أن تتم التفسيرات الحيوية بواسطة رسالة. وافترضت أن ما تخشاه ـ قبل أن تعرف نواياي ـ كان قلبها أولاً وقبل كل شيء. وكل ما تعرفه هو أن لديّ التزامات عاطفية أخرى. وكان لديها ـ بلا أدنى شك ـ ما يكفي من الندم والحزن الهادىء الناجم عن حب قديم رَفَضَتْه بحماقة. وعلى أي حال، كنت أستطيع أن ألمح الآن مزيداً من المخاوف العاجلة، وأحسست بغضب سقيم قلق من التفكير في ذلك الرجل «الصبياني» الغيور الجالس هناك بنظّارته المقرّبة، منتظراً عودتها إلى البيت. وسرعان ما بدا لي واضحاً، وكان في هذا التوضيح الإضافي شيء من الارتياح ـ أنه ينبغي ببساطة أن أكتب لها خطاباً مستفيضاً، وأعطي لها من الوقت ما يكفي لفهمه والاستجابة إليه، وفي هذا الوقت أكون... كان من دواعي الارتياح لذهني الخائف المصدوم أنه لم تعد هناك حاجة الآن إلى استعجال فظيع، أو ضرورة تدعوني اليوم إلى صعود ذلك التل وإلى اتخاذ قرار بالطريقة التي أواجه بها ذلك الطاغية الغيور. وكان هناك مشكلة توصيل الرسالة إليها، غير أن ذلك لم يكن مستعصياً على الحل، والواقع أنني اهتديت بالفعل إلى طريقة لإنجاز هذه المهمة.

التهمت شيئاً من اللحم البقري المعلّب مع الكرنب الأحمر والجوز المخلّل، وما تبقّى من المشمش وجبنة الشيدر. ولم يكن لديّ خبز أو زبدة أو لبن، إذ كنت من التشتّت بحيث لم أخرج للتسوّق. وأخذت بعد ذلك

قسطاً من الراحة، ثم كتبت شيئاً من يومياتي هذه، بحيث بلغت بها تقريباً الأحداث الأخيرة. وكتبت فيما بعد الرسالة الموجَّهة إلى هارتلي، وسأنسخ نصها بعد هنيهة قصيرة. غسلت بعد ذلك كمية من الملابس ونشرتها في الشمس. ثم ذهبت للسباحة من درجات البرج. وجلست بعد ذلك بجانب البرج متأمِّلاً شمس الأصيل الغاربة وهي تلقي ظلالاً هائلةً مهوشة وراء الصخور الكروية الرابضة على خليج الغراب الأسحم. وبعد ذلك رأيت بعض السائحين قادمين، ولما كنت لا أضع شيئاً على جسمي، فقد لبست ثيابي وعدت إلى المنزل وجمعت الغسيل الذي كان قد جفّ. ثم بحثت عن صور هارتلي الفوتوغرافية التي أحضرتها معي من لندن، وجلست في الخارج على مقعدي الصخري إلى جوار الحوض الذي جمعت فيه الصخور، وجعلت أتأمَّلها (أي الصور) في أناة وإمعان.

كانت بعض اللقطات تجمعنا معاً. من الذي التقطها؟ لم أستطع التذكّر. من السطوح البنيّة المتجعّدة، وخارج عالم يخلو من الإثم، كانت الوجوه المشرقة الناعمة الشابة التي لم تتحجَّر ملامحها بعد، تتطلّع إلى الأمام. كان عالماً لم يتسرَّب إليه الفساد، عالم المباهج البريئة النقيّة البسيطة حقاً وصدقاً، عالماً سعيداً، حيث كانت ثقتي فيها مطلقة، وحيث لم نفكّر في الجنس ونحن في طهارتنا الطفولية عتيقة الطراز؛ وكنا أسعد حالاً بهذا - على ما أظن - من أطفال اليوم. كان نور الحب النقي والرومانسي الصافي الذي يخلو من القلق يضيء أيامنا معاً، ولياليناً مفترقينْ. ولم يكن تسامياً لامعقولاً لأركاديا (يوتوبيا) صوَّرها الشباب، وإنما كنا طفلين بسيطين في عالم بسيط، وكنا نحب آباءنا ومعلّمينا وندين لهم بالطاعة. أما آلام الرحلة البشرية فكانت تتربَّص بنا في المستقبل، الاختيارات الرهيبة، والجرائم التي لا نملك تجنّبها. كنا أحراراً في أن نحب.

متى بدأت النهاية؟ ربما كان ذلك عندما هرعت إلى لندن. وحتى ذلك الحين كان هناك وقت يمضي فيه حبنا. ولم يساورني الشك فيها أبداً حتى

آخر لحظة. كم من الزمن، وكيف كانت تخدعني؟ لعل حاجتي الأنانية إليها كانت عظيمة إلى درجة لم أكن أتصوَّر معها أنها يمكن ألا تُشْبَع. وكلما أمعنت النظر في هذه الحاجة خَطَر لي أيضاً كم كانت هارتلي - في تلك السنين - تدافع عني دفاعاً شديداً ضد جيمس. ويبدو من الغريب الآن أن كلاًّ منهما لا يعرف شيئاً عن الآخر تقريباً. إذ لم أتحدَّث إلى هارتلي عن جيمس، أو إلى جيمس عن هارتلي، إلا في النادر. ولم تعرف قط كيف كان حبها يدفع عني بقوة نوعاً من الانهيار الذي يمكن أن يحلّ بكبريائي.

سأسجِّل الآن الرسالة التي كتبتها لهارتلي، والتي قرَّرت أن أجد سبيلاً إلى تسليمها لها في اليوم التالي..

هارتلي الأعز، حبيبتي، أنا أحبك وأريدك أن تأتي إليّ. ذلك هو ما يقوله هذا الخطاب. غير أن هناك أولاً أموراً يجب أن أخبرك بها، أموراً يجب أن أشرحها. المصادفة التي أعادتك إليّ جاءت كعاصفة هائلة هبَّت على حياتي. هناك أشياء كثيرة أحب أن أقولها، أشياء كثيرة أريد أن أرويها لك. قد يبدو لك الآن أنني أنتمي إلى عالم آخر، «عالم عظيم» آخر لا تعلمين عنه شيئاً، وأنه لا بد أن يكون لي أصدقاء كثيرون في ذلك العالم. وعلاقات عديدة. ليس الأمر كذلك، إذ تبدو حياتي في المسرح - من وجوه كثيرة - أشبه الآن بالحلم، وأيامي القديمة معك هي الواقع الوحيد. أصدقائي قلائل، ولا وجود بتاتاً لـ «روابط غرامية»، أنا وحيد حر. هذا ما لم أكن قادراً على أن أخبرك به - على الوجه الصحيح - حين التقينا في القرية. كان لي عمل ناجح، أما حياتي فكانت خاوية. هذه خلاصة الموقف. لم أتصوَّر الزواج إطلاقاً لأنني أعلم أنه لا توجد سوى امرأة واحدة فحسب هي التي يجب أو يمكن أن أتزوَّجها. هارتلي، تدبّري هذا، وصدِّقيه. لقد انتظرتك رغم أنني لم أجرؤ على الأمل في أن ألقاك مرة أخرى على الإطلاق. والآن بعد أن هربتُ من الأباطيل الدنيوية، أتيت إلى البحر، وإليك. وأنا أحبك كما أحببتك دائماً، حبي القديم هناك، كل عَصَب وكل شعيرة، وكل عِرق ما زال سليماً وحيًّا. طبعاً أدركني الكِبَر، وهو بهذا المعنى حب رجل مختلف، ومع ذلك فهو الحب نفسه، إذ احتفظ بهويته، وقد سافر معي هذا الطريق كله، وبقي على

قيد الحياة بمعجزة. أواه يا عزيزتي، كم من الأيام والليالي مرَّت منذ ذلك الحين، لم تعلمي شيئاً عنها، عندما كنت تظنين أنني بعيد غاية البعد في «عالمي العظيم»، عندما كنت أجلس وحدي بقلب نابض بالألم، أفكِّر فيك، وأتذكَّرك، وأتساءل أين أنت الآن كيف يمكن أن يتلاشى الناس بحيث لا نعرف أين هم؟ هارتلي، أنا لم أكفّ أبداً عن الحاجة إليك.. وأنا الآن أريدك.

تناهى إلى علمي، ولا تعبأي كيف كان ذلك، ولكنني أعرف تماماً أنك شقية كأشد ما يكون الشقاء في زواجك. وأنا أعلم أنك تعيشين مع رجل مستبد، بل غليظ القلب.. وإني لأتساءل كم مرة تمنيت أن تهربي في الماضي، ولكنك أحجمت، منهزمة تعسة لأنه لا يوجد مكان تهربين إليه؟ هارتلي، أنا أعرض عليك - الآن - بيتي واسمي وإخلاصي الأبدي. ما زلت أنتظرك، يا حبي الأوحد. ألن تأتي، ألن تهربي إليّ، لكي تكوني معي دون انفصام في الأعوام الباقية؟ أواه يا هارتلي، سأجعلك سعيدة كل السعادة، أعلم أنني أستطيع ذلك. ولكن دعيني أقول هذا أيضاً: لو كنت أعتقد أنك سعيدة فعلاً في زواجك، لما حلمت بإزعاجك بتصريحات حبي الباقي، ولتعذَّبت بحبي في صمت، بل لعلي أن أُخْفِيَه، أو أن أرحل بعيداً. وأشك، وأرجو أن تسامحيني إذا تطلَّعت إلى هذا، أنك عانيت أكثر من ساعة من الندم حين فكَّرتِ أنني عشت «حياتي المثيرة»، وكيف أنك فقدتني - كما يبدو - فقداناً تاماً. غير أنني لو فكَّرت في أنك تعيشين حياة قانعة متواضعة أو ممكنة الاحتمال بشكل معقول، لما تدخَّلت، وإنما سأنظر إليك من بعيد وأنصرف. ولكن ما دمت قد علمت أنك شديدة التعاسة فلا يسعني، ولن أستطيع أن أتحوَّل عنك. كيف يمكن أن أفعل ذلك، وأنا أحبك كل هذا الحب، وأن أدعك تتعذَّبين؟ هارتلي، لا بد أن تأتي إليّ، وستأتين إلى المكان الذي ينبغي أن تكوني فيه دائماً.

لا تنزعجي ولا تخافي مما يجب أن تفعليه بهذا الخطاب. ليست هناك حاجة تدعوك إلى أن تفعلي أي شيء فوراً، أو حتى أن تجيبيني. كل ما أردته هو أن أفصح لك عن حبي، وعن استعدادي. ولك أن تقرِّري متى وكيف تستجيبين. ومن الجلي أنني لا أتوقَّع بالضرورة أن تأتي ركضاً إلى منزلي في الحال. ولكن، بعد أن تكوني قد تروَّيت في الأمر، وعندما تتعوَّدين على فكرة الرجوع إليّ..

الرجوع إليّ يا فتاتي الأعز.. فهنالك ربما بدأت في التفكير كيف تبدأين في القيام بهذا. وعندئذ سنكون على استعداد ليتحدَّث كلٌّ منا إلى الآخر، وسنجد الوسيلة للحديث. دعينا نأخذ بهدوء خطوة واحدة في كل مرة. خطوة واحدة.. في كل مرّة. فإذا استطعت أن تعطيني إشارة بأنك مستعدّة لأن تتركيني أرعاك إلى الأبد، عندئذ سأفكُر فيما ينبغي أن نفعله، وسأتولَّى الأمر على عاتقي عندما ترغبين في ذلك. لا تقلقي يا حبيبتي هارتلي، كل شيء سيكون على ما يرام، وسترين، كل شيء سيكون على ما يرام.

تمهَّلي يوماً أو يومين، أو بضعة أيام قلائل، كما تشائين، المهم أن تفكَّري فيما أخبرتك به. ثم ـ عندما تشائين.. اكتبي إليّ خطاباً وارسليه بالبريد. هذا أفضل في الوقت الحالي. لا تقلقي، ولا تخافي. سأجد الوسيلة للاتصال بك. سأحبك، وأعزّك، وأبذل أصدق ما في وسعي لأسعدك أخيراً. من كان لك دائماً، كما هو الآن، وطوال كل السنين.

المخلص تشارلز

حاشية: تعالي إليّ بأية صورة، بالطبع لا توجد شروط، دعيني أساعدك وأخدمك، وعليك بعد ذلك أن تقرِّري في حرية وسلام أين وكيف تريدين أن تعيشي.

كتبت هذا الخطاب بسرعة وتوقّد في العاطفة دون تصحيحات. وعندما أعدت قراءته كان أول ما خطر لي أن أقوم بتغييره، إذ بدا لي في لحظات معيَّنة أنني أضفي عليه أهمية ذاتية أكثر من اللازم قليلاً؛ وربما كان فيه شيء من الادعاء والغرور؟ ثم فكَّرت ألا أفعل شيئاً، فهذا صوتي، دعها تسمعه، لن تكون في مزاج نقدي أثناء قراءته، وإذا كان لا بد من تنقيحه وتهذيبه، فقد يبدو زائفاً ويفقد ما فيه من قوة. أما فيما يتعلَّق بالتمركز حول الذات، فأنا بالطبع متمركز حول ذاتي. فلتكن على يقين من أنني أسعى إلى تحقيق مصالحي، ولست شخصاً غيرياً يحقِّق مصالحها هي فحسب. ولتعلم أنها تستطيع أن تمنحني السعادة عندما تمنح نفسها الحرية.

عندما كتبت هذا الخطاب وأقنعت نفسي بأنه سيكون مفيداً، وضعته في

مظروف ثم كتبت عليه اسمها وعنوانها بالآلة الكاتبة. وأنا كاتب ضعيف على الآلة الكاتبة، ولهذا أكتب رسائلي بخط اليد. جلست بعد ذلك وأطلقت العنان لخواطري، وسمحت لنفسي بالأمل، أو حتى بالسعادة. ثم سبحت بعد ذلك، كما كتبت آنفاً. كان البحر بارداً على أطرافي الدافئة، فبسط عليها طبقة من طبقاته الباردة. وكان الماء يتموَّج هادئاً، ناعماً، مشرقاً على السطح كأنه قشرة فاكهة. واستطعت الخروج من البحر بسهولة حتى دون الاستعانة «بحبل الستار» الذي حلَّه البحر اللعوب مرة أخرى. وأنا أكتب هذا الآن في اليوم التالي، وما برح خطابي إلى هارتلي في مظروفه السمين راقداً على منضدتي المواجهة للبحر في حجرة المكتب. وكانت كتابتي لهذه اليوميات خلال الصباح، وسأتناول غدائي حالاً: بقايا اللحم البقري بالبصل المسلوق العادي. (البصل المسلوق العادي طبق آخر يليق بالملوك.) التهمت الكرنب الأحمر الممزوج بالبيض المفتَّت، واحتسيت كمية كبيرة من النبيذ الاسباني الأبيض الذي أحضرته من فندق الغراب الأسحم (هذه غلطة.) ينبغي أن أقوم بالتسوّق في أسرع فرصة، فأنا في شوق شديد إلى الفاكهة، وإلى شرائح الخبز المقدَّد بالزبدة، وإلى اللبن في شايي. وقالت سيدة المتجر إن الكرز يمكن أن يصل هذا الأسبوع.

لماذا هذا التأجيل، ولماذا أنتظر؟ لماذا أتظاهر بأن الحياة عادية، وبأنها كما كانت؟ ما زلت أطفو في معنى الإنجاز، في مهلة أعتقد أنني أستحقّها. لقد بحثت ووجدت البيِّنة الحاسمة. وقرَّرت ما ينبغي عمله، وكيف أفعله. لقد تحدَّثت إليها ببلاغة، وحسم، وإن تكن كلماتي لم تصل إليها بعد. وكأنها ما فتئت تحوم بأجنحتها خلال الهواء، قاصدة إلى صدرها. أتراني خائف، أهذا هو السبب الحقيقي لانتظاري؟ أن أعطيها الخطاب في أمان قد يكون أمراً شاقاً، والنتائج التي تترتَّب على الاخفاق الأخرق لا سبيل إلى التفكير فيها، غير أن هذه العقبة ليست هي ما أخشاه. وكلما أسرعت بإعطائها الخطاب كانت معرفتي باستجابتها أسرع. تُرى ماذا ستكون؟ إذا

قالت «لا»، أو إذا لم ترد، فسوف أفترض بالطبع أن الخوف هو الذي حال دون ذلك. ولكن، ماذا سأفعل عندئذ، وإلى متى أستطيع أن أنتظر قبل أن أتحرَّك مرة أخرى، وماذا بحق السماء سأفعل أثناء انتظاري؟ تلك المهلة لن تكون مهلة هادئة. من الأفضل إذن إطالتها. شعرت، منذ أن سمعت تلك المحادثة، بأنني ازددت تورّطاً وبشكل مخيف ـ مع كل منهما. اكتسبت عضوية الأسرة؛ ومع هذا جاءت البغضاء والغيرة والشياطين المألوفة. ومرة أخرى، على فرض أنها استخدمتني لمجرَّد الحصول على حريتها، ثم هجرتني بعد ذلك؟ أهذا شيء يمكن تصوّره؟ أمن الممكن أن أفقدها مرة ثانية، أمن الممكن أن تختفي؟ في تلك الحالة سأصاب بالجنون. أحسست ـ بعد قراءة الخطاب ـ أنني ملزم بإضافة تلك الحاشية، يبدو ذلك شيئاً مشرِّفاً. ولكن، أهو من الحكمة؟ ربما كان من الأفضل أن أحذفها. والأفضل أن تفترض أن في رجوعها إليّ شيئاً من الالتزام.

لا بد من أن أبذل محاولة لكي أرى وأشعر بأن هذه الافتراضات سابقة لأوانها ولا جدوى منها. غير أنني أفهم جيداً لماذا أجلس هنا وأتأمَّل الخطاب دون أن أريد تسليمه بعد.

سأصف الآن ما حدث بعد ذلك، ومعظمه لم يكن متوقعاً تماماً. والواقع أن التأجيل لم يزد على مساء ذلك اليوم، بعد أن كتبت ما قد سبق. إذ إن الهدوء المسترخي الذي وصفته أعقبه بغتة هياج من التلهف اليائس نافد الصبر لمعرفة مصيري في الحال. فخرجت لوضع خطتي لتسليم الخطاب موضع التنفيذ. ارتديت معطفاً خفيفاً وقبعة بالية واقية من الشمس، ودسست الخطاب في جيبي دون حذف الحاشية، وعلَّقت في عنقي نظارة الميدان التي أعطانيها جيمس لمراقبة الطيور عندما كنا تلميذين في المدرسة. . ولا أذكر أنني استعملتها أبداً لمراقبة الطيور. وكان من عادات طفولتنا الضمنية أن يعطيني جيمس بعض الهدايا، الثمينة في كثير من الأحيان، بينما لم أكن أمنحه ـ في المقابل ـ شيئاً. وأظن أن أبويّ كانا

يتقبَّلان هذا الأمر بوصفه مظهراً لا محيد عنه من رعاية الأغنياء للفقراء؛ ولم يخطر على بالي إلا فيما بعد أن هذه الهدايا كانت بالطبع، وفي واقع الأمر، مقدَّمة من عمي هابيل وعمتي إستيل. ولم تكن هذه النظارات قوية جداً، ولا سبيل إلى مقارنتها بنظارات «بن» المخصَّصة لمراقبة زوجته، ولكنني اعتقدت أنها يمكن أن تكون ذات نفع.

ذهبت عن الطريق الداخلي الذي سلكته من قبل خلال السوق وحول مزرعة آمورن، وفي القرية من الجانب الآخر. وكان هدفي الغابة الممتدّة وراء المزرعة التي تتاخم حديقة النيبليتس. وشاهدت من خريطة المساحة أن هناك طريقاً صغيراً يؤدِّي إلى يمين مدخل القرية (قبل الكنيسة مباشرة) ليلتفّ بعد ذلك صاعداً إلى التل وخلال الشطر الأعلى من الغابة الذي يطل على البانجالوز. وهكذا يمكن أن أقوم بالدورة كلها دون أن أقع عند أية مرة في مجال الرؤية. تسلَّقت التل وقد أحسست بالحرارة والتعب، وسرعان ما وجدت ممراً مغرياً في الغابة يفضي إلى ناحية البحر عند نقطة تقع قليلاً - كما خمَّنت - وراء نهاية طريق النيبليتس. وفي دقائق قليلة سأتمكَّن من رؤية نور القرية المفتوح، ومن ثمّ أكون قادراً على اختلاس النظر خلال جذوع الأشجار إلى البانجالو الذي أصبح الآن على مسافة متواضعة بعد أن وضعته تحت مراقبة دقيقة من خلال نظارتي.

انتظرت زمناً طويلاً، شاعراً بأنني أبرد شيئاً فشيئاً، ثم بالبرد فعلاً، رغم أن الشمس ما برحت ساطعة. وبدأت ذراعاي وعيناي في التوجع. وأخيراً خرج الجنتلمان، فارتفعت درجة حرارتي وخفق قلبي بسرعة ملحوظة. وسرَّني أن أراه حاملاً شوكة الحديقة. وكنت أستطيع أن أشاهد ظلّه المسائي الطويل يتحرَّك هابطاً المرجة. أعطاني هذا سروراً معيَّناً بأن يكون «بن» تحت رحمة أنظاري، دون أن يشتبه في شيء، كما وضعني تحت رحمة أنظاره ذات مرة. وأنا لم أستعمل أبداً بندقية حقيقية، وإن استعملت كثيراً من بنادق المسرح، وأعلم ما يشعر به المرء حينذاك. وعلى مقربة من

قاع الحديقة، بدأ يولي اهتمامه لحوض من أحواض الزهور المنمَّقة، فجعل ينخسه في البداية في شيء من اللامبالاة. وبغتة، بدأ يضرب شيئاً بالمذراة. لم يكن يحفر، بل يضرب. ما هذا الذي كان يضربه؟ دودة؟ زهرة برية؟ فيمَ كان يفكِّر وهو يدمِّر هذا الشيء البريء الصغير بمثل هذا التركيز البشع؟ كنت مفتوناً، غير أنه لم يكن هناك وقت أضيّعه. شرعت في صعود التل تحت غطاء الغابة، مراقباً إياه من حين إلى آخر أثناء تقدمي، حتى بلغت نقطة في الجانب المقابل لقمّة التل حيث كانت مسافة طولها مائتان من الياردات تقريباً من الحشائش المفتوحة تفصل بيني وبين نهاية الطريق الممهّد، وحيث أوشك «بن» أن يختفي عن ناظري يحجبه البانجالو عني. وقدّرت أن هناك ثانيتين أو ثلاث، بعد أن أظهر في العراء، يكون من الممكن خلالها أن يراني. ألقيت نظرة أخيرة عليه. كان مولّياً ظهره إليّ، منحنياً بجوار حوض الزَّهر. مشيت بخطوات سريعة طويلة محاذرة عبر رقعة الحشائش الأولى، ثم عدت بأقصى سرعة إلى الطريق واخترقت البوابة مباشرة إلى الممر المؤدِّي إلى الباب الأمامي.

وهنا لم أدقّ الجرس. فذلك الدينج - دونج السقيم الحاد النبرة يمكن أن يرنّ رنيناً مزعجاً في هواء المساء. نقرت على الباب بمفاصل أصابعي، مستخدماً الشفرة القديمة التي كنّا أنا وهارتلي نستخدمها أثناء طفولتنا، عندما اعتدنا أن يدق كل منا بنعومة فوق باب الآخر. وبعد لحظة قصيرة، فتحت الباب. وكانت الاستجابة المصدومة لنقري على الباب أوتوماتية، كما تمنيت. أخذ كلٌّ منا يحملق في الآخر، فاغراً فاه، مذعوراً. شاهدت عينيها المحملقتين المندهشتين المذعورتين، فدفعت الخطاب نحوها في ارتباك، إذ لم أكن أستطيع أن أجد يدها، فكاد يسقط بيننا. ثم التقطته وتشبّثت به فوق تنورتها، ولم ألبث أن استدرت وجريت، متخذاً - بالغريزة - الطريق المنحدر من التل، إلى الطريق العام المؤدِّي إلى داخل القرية. ولم أكن في واقع الأمر قد خطّطت لانسحابي، إذ انتهى تفكيري عن تسليم الخطاب.

وفيما كنت أمرّ على حانة «الأسد الأسود» خطر لي أنه من الأفضل العودة من الطريق الذي جئت منه. وأياً كان الأمر فقد أحسست أثناء سيري في شارع القرية وانعطافي إلى ممر المشاة في النطاق الممكن لنظارات «بن» بأنني شديد التهوّر، حتى بدا حذري الأخير جُبْناً. أكان «بن» لا يزال منحنياً على حوض زهوره، أم كان داخل المنزل ينتزع خطابي من يدي هارتلي؟ شعرت بأنني لا أكاد أبالي، بل شعرت أنه من الخير أن يفعل ذلك، في هذه اللحظة بالذات، وأن يقرأ كلماتي وهو ينتفض بالغضب الغيور. إن مملكة رعبه أوشكت على النهاية.

لم يكن الظلام سائداً بكل تأكيد عندما اتجهت صوب المنزل، غير أن النهار كان يتسم بتلك الرقة المضيئة الشفّافة التي تختفي في منتصف الصيف باقتراب غسق لا يظلم تمام الإظلام في الأيام القلائل الأخيرة منه. وكانت نجمة المساء قد ظهرت من فورها، وسوف تتوهّج الآن وحدها في روعة تدوم فترة طويلة أخرى من ضوء النهار. وكان البحر مستوياً استواءً لم أره من قبل، ساكناً سكوناً تاماً، لا يفتأ مترعاً إلى حافته وكأنه في جَفْنة، منطوياً في جوفه على المد، والماء مصطبغ باللون الأزرق الفاتح المصقول. وطائران من طيور البحر يحلّقان في مستوى منخفض وفي منتصف المسافة يحدثان انعكاساً ضبابياً مشوّهاً كأنه فوق سطح معدني محدَّب. وفيما كنت سائراً بطول الطريق، ماراً بالعلامة الحجرية التي نقشت عليها هذه العبارة «نيرودين على بعد ميل واحد»، هبَّ نسيم عليل دافىء من الصخور الصفراء التي كانت تصطلي بالشمس طيلة النهار.

أما المنزل ـ فعلى النقيض من ذلك ـ كان بارداً ويبدو أنه يستعد لبعض ألاعيبه. فبعد فيض النور المتألّق في الخارج الذي يغدق الألوان، كان الهواء في الداخل يبدو رمادياً إلى حدٍّ ما. وكانت هناك أصوات خافتة، لعلها مجرَّد أصوات ستار الخرز الذي يقرقع في التيار الصادر من الباب المفتوح. وقفت في الصالة لحظات قلائل أرهف سمعي. وتساءلت هل

عادت روزينا الملعونة مرة أخرى وتوارت في مكان ما لكي تخيفني. وأحسست بأنني مرغم على البحث في الطابق العلوي والطابق السفلي، وفي حجرات الوسط المضحكة. وبالطبع لم أعثر على أحد، وفيما كنت أقوم بتفتيش المنزل فتحت الأبواب والنوافذ جميعاً على مصاريعها، وتركت هواء البحر الدافىء النقي المحيط بالصخور ينتشر في الداخل. قذفت بقبعة التنكر ومعطفه وأخرجت قميصي من السروال، وأخذت كأساً كبيرة من الشيري الحلو والمزَّة المرَّة إلى الخارج فوق الحشائش، ووقفت هناك بعض الوقت مشرئباً على أطراف قدميّ ثم هابطاً على قدميّ، وأنا أراقب الخفافيش، متسائلاً عما إذا كانت هارتلي على ما يرام، وماذا تُراها فعلت بتلك الرسالة الطويلة بعد أن قرأتها: أحرقتها، ألقتها في المرحاض، لفَّتها في زوج من الجوارب؟.

دخلت إلى المنزل وأترعت الكأس الكبيرة ـ التي كانت فارغة ـ بالنبيذ الأبيض، وفتحت علبة زيتون وعلبة من السمك الكوري المدخّن وعلبة من البسكويت الجاف. لم يكن لديّ طعام طازج لأنني غفلت مرة أخرى عن التسوُّق. وكان المنزل ما يزال متمرِّداً عليّ، ولكنني شعرت الآن بأنني أخذت أتعرَّف على غرائبه وأنني أصبحت أكثر ودّاً إزاءه. لم يكن الأثر الذي يتركه كئيباً أو منذراً بالضبط، ولكنه كان أشبه بلوحة حسَّاسة تسجِّل حيناً بعد حين أشياء حدثت في الماضي، أو ـ وهذا ما خطر لي لأول مرة ـ أشياء ستحدث في المستقبل. أيكون هذا رجماً بالغيب؟ بدأت أشعر بالبرودة، فاربديت الجيرسي الايرلندي الأبيض. كان الجو الآن في الداخل أشد جهامة، وإن كان يبدو أنه يزداد إشراقاً في الخارج، وكان عليّ أن أمعن النظر وأنا أغسل الزيتون وأجفِّفه في جفنة، وأصبّ زيت الزيتون عليه. وهنا شرع شخص ما يطرق الباب الأمامي بعنف شديد.

أياً كان ذلك الشخص، فمن الجلي أنه لم يلحظ الجرس الذي طُلي مقبضه النحاسي باللون الأسود، كما كان هناك أيضاً مطرقة قديمة مطفأة

البريق على هيئة درفيل، وقد حُطِّم الآن رأس الدرفيل على الباب بقوة اهتزّ لها المنزل كله. استولى الخوف عليّ فوراً وأنهضني على قدميّ. أتكون روزينا؟ كلا. إنه «بن» الزوج الثائر، لقد رأى الخطاب. يا إلهي، ما أحمقني! ركضت من الحجرة عازماً على إيصاد الباب في وجهه، غير أن الهلع أربكني ودفعني ألى مواجهة أسوأ الاحتمالات، ففتحت الباب بدلاً من إيصاده. ومرقت هارتلي داخل المنزل كطائر مذعور. وكانت بمفردها.

بدت في الثواني الأولى حائرة مضطربة مثلي تماماً. أو لعلها غَشيت بالظلمة المباغتة في الداخل. فوقفتْ هناك محتضنة وجهها بين راحتيها وكأنها على وشك الصراخ. أما أنا ففي ارتباكي المجنون تركت الباب مفتوحاً على مصراعيه، ثم هرعت لإغلاقه فاصطدمت بها، أحسست بدفء فخذها وأنا أتخبَّط ماضياً في طريقي. أغلقت الباب، ثم أدركت أنني أقول «أوه.. أوه.. أوه.» كما كانت هي أيضاً تطلق صوتاً غير متسق. وضعت يداً متشبِّثة باحثة ولمست كتفها، فأتت بحركة كأنها على وشك الكلام، غير أنني في تلك الأثناء كنت قد طوَّقتها - في ارتباك مرة أخرى ولكن بفاعلية كافية - بين ذراعيّ ولملمتها في عناق الدب الذي طالما حلمت به. رفعتها من فوق قدميها وسمعت لهاثها أثناء انسحاق جسدها بطوله كله تقريباً على جسدي. ثم حين تركتها تهبط على مهل في الصالة الرمادية القاتمة المضحكة، وستار الطابق العلوي يقرقع في شيء من التأمّل - وقفنا في هدوء وصمت كاملين: أنا بذراعيّ الملفوفين حولها، وهي بيديها المتشبثتين بقميصي.

وبعد أن استرخينا أخيراً وهي تتنهَّد وتربت بيدها على ضلوعي قلت: «أهو بالخارج؟»

- «كلا.»

- «أيعرف أنك هنا؟»

- «كلا.»

ـ «هل أتْلفت الخطاب؟»
ـ «عفواً؟»
ـ «هل أتْلفت الخطاب؟»
ـ «أجل.»
ـ «هل رآه؟»
ـ «كلا.»
ـ «جميل. تعالي هنا واجلسي.» سحبتها إلى المطبخ، ودفعتها لتجلس على مقعد بجانب المائدة، ثم عدت على عقبيّ وأوصدت الباب الأمامي. حاولت أن أشعل مصباحاً في المطبخ، غير أن يديّ كانتا ترتجفان بشدة، فتوهَّجت الذبالة ثم انطفأت. أضأت شمعة وأسدلت الستائر ثم سحبت مقعداً وجلست إليها عن كثب، وأخذت أهدهدها برفق بين ذراعيّ، وقد لامست ركبتاها ركبتيّ.

ـ «أواه يا حبيبتي، لقد أتيت، يا حبيبتي الغالية.»
ـ «تشارلز...»
ـ «لا تتفوَّهي بشيء. كل ما أريده هو أن أعلم أنك هنا. أنا في غاية السعادة.»

ـ «اسمع، أنا...»
ـ «أرجوك، يا حبيبتي، ارجوك الاَّ تتكلَّمي.. كما أرجوك الاَّ تدفعيني بعيداً عنك على هذا النحو.»
ـ «لا، ولكن يجب أن أتكلَّم... الوقت ضيّق..»
ـ «هناك وقت كثير، كل الوقت، قرأت الرسالة، أليس كذلك؟»
ـ «نعم، بالطبع...»
ـ «ولهذا أنت هنا؟»
ـ «أجل...»
ـ «إذن، فهذا هو المهم. ستمكثين هنا. لقد جئت، أليس كذلك؟»

ـ «بلى، ولكن لكي أشرح لك فحسب. . :»

ـ «هارتلي، لا تفعلي. ماذا هناك مما يستحق الشرح؟ كل شيء مشروح فعلاً. أنا أحبك. وأنت هنا. أنت تحبينني، أنت في حاجة إليّ. لا تقاومي. دعينا نرحل إلى لندن، صباح غد، الليلة. لا تهتمّي بالملابس، سأبتاع لك ثياباً. أنت الآن زوجتي.».

كنت أمسك بها على بعد ذراع واحدة، متشبّثاً بكتفها بإحدى يديّ، بينما حرَّكتُ الشمعة باليد الأخرى لكي تضيء وجهها. كانت عيناها غائصتين بعمق في الغضون، والجفنان بنيّين منقورين كأنهما ملطّخان، والوجنتان مترهّلتين ناعمتين، دون استدارة، وحمراوين باهتتينْ، ربما بتأثير مسحوق استخدم على عجل. وكان شعرها الرمادي القصير غير المتموّج جافاً مقصوفاً نتيجة ـ بلا ريب ـ لزيارات شاردة الذهن لمصفّفين غير أكفياء أعواماً إثر أعوام. والآن، تجاوزت مرحلة العناية به، وثمة شريحة منسيّة تتدلّى من طرف خصلة ملتوية. كان الوجه جافاً، فيما خلا المكان الذي كان لسانها يبلّل فيه شفتيها الخاليتين من الطلاء، وحيث توجد أيضاً عيناها الزرقاوان، تلكما البحيرتان اللتان لا يعرفان الزمن على نحو يدعو إلى الدهشة، كانتا مبلّلتين، واغرورقتا الآن بغتة بدموع لا تنسكب. حرَّكتْ كتفها، متملِّصة في وهن، فأطلقتها من قبضتي. كانت هذه المرة الأولى منذ التقائنا أدرس فيها وجهها حق الدراسة، وشعرت بسرور منتصر عميق إلى أي حد لم يتغيّر هذا الوجه العزيز حقاً، وكيف أن حبي لا يعبأ في قليل أو كثير بأنها كانت عجوزاً.

والآن لمحت أيضاً في وجهها، وإن كان يبدو قلقاً حزيناً معاً، شيئاً من حيوية الشباب. تعرَّفت وأدركت إلى أي مدى كنت قد نسيت شكل ثغرها الذي صار أجمل بلا طلاء. لثمتها برفق، واختصار، على ثغرها المألوف، كما اعتدنا أن نتبادل القبل، وهناك لاح ذكاء في استقبالها السلبي الهادىء للقبلة التي كانت هي نفسها تواصلاً.

قالت: «لقد تغيَّرتُ كثيراً، أصبحت شخصاً مختلفاً، كنت عطوفاً جداً في رسالتك، ولكن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا النحو. أنت شديد الاهتمام بسالف الأيام، غير أن هذا ليس أنا...»

ـ «إنه أنت.. لقد تعرَّفت عليك في القبلة.» وكنت صادقاً فيما أقول. القبلة حوَّلتها إلى شخص آخر، كأنها قبلة في حكاية خرافية. تذكَّرت الملمس والنسيج وحركة ثغرها، وولّى كل ذلك الارتباك، ذلك الإحساس الذي ألمَّ بي في الكنيسة عن استحالة احتضانها. كان جسدانا يعانيان توتراً مباغتاً في مكان واحد بعينه، وتحرِّكهما قوى واحدة. عندما شعرت بذلك أردت أن أصيح من الفزع، غير أنني التزمت بنبرة هادئة، راغباً في إغرائها بالكلام دون أن أخيفها. «هارتلي، إنها لمعجزة، لقد تخلّيت عن المسرح، وجئت هنا للاعتزال، فوجدتك.. جئت هنا من أجلك، أدركت ذلك الآن...»

ـ «ولكنك لم تكن تعلم أنني هنا...»

ـ «كلا، ومع ذلك كنت أبحث عنك.. كنت دائم البحث عنك.»

قالت: «لا أستطيع أن أكون كذلك.» ورفعت يدها وكأنما تريد أن تخفي وجهها. ثم وضعت راحتها على المائدة حيث غطيتها في حزم بيدي: «تشارلز، اسمع، يجب أن أتحدَّث إليك. الوقت ضيِّق.» وبظاهر كفِّها الأخرى لمست عينيها، وتسبَّبت في انهمار الدموع التي لا تريد أن تنسكب، ثم قالت: «أوه تشارلز، يا عزيزي، يا عزيزي.» وأطرقت برأسها ثم دفعتها نحوي بحركة شبيهة بحركة الكلب. رَبَتُّ على شعرها الجاف الأشعث، وفككت برفق الشريحة المعلَّقة ووضعتها في جيب سروالي.

ـ «ستمكثين الآن معي إلى الأبد، يا هارتلي.»

رفعت رأسها، وكفكفت دموعها ثانية، هذه المرة بكمّ سترتها القطنية الخضراء التي كانت ترتديها فوق ثوبها الأصفر الذي رأيته من قبل.

ـ «هـارتـلي، اخلعي سـترتـك، أريـد أن أراك، أريـد أن ألمسـك، اخلعيها.»

ـ «كلا، الجو بارد هنا.»

شـددت السترة، فخلعتهـا. كان هنـاك سحر رائـع في هذه الحـركات، وكأنها أشد الرموز الروحية بـراءة في تعرية امرأة من ثيـابها، شيء يمكن أن يلعبه الملائكة دون فهمه تمـاماً. لمست نهديهـا حيث كانـا ينضغطان بـدفء ورسـوخ على النسيـج الأصفر للرداء المستـدير حـول العنق. وكنت مبتهجاً بغياب أية محاولة للاجتذاب. هـذا شيء جديـد كل الجـدّة في حياتي. كـان مسحـوق الوجـه عادة خضعت لهـا في إهمال، والثـوب متسخـاً، لا شيء. وكانت الشفتان الجديدتان غير المطليتين وحـدهما ـ كـما أحسست ـ تكريمـاً لي. والمـرأة التي أقلعت منذ زمن طـويل عن العنـاية بمـظهرهـا لا يمكن أن تتحوَّل فجأة إلى امرأة أنيقة رشيقة. وكنت سعيداً لأن هارتلي كانت تجتذبني بتلك الحـالة التي هي عليهـا. أحسست بالـزهو والتملّك والارتيـاح وكأنمـا انـزاح عن كاهـلي رعب لازمني طيلة حياتي. فحـدثت نفسي قائـلاً: سوف أبتاع لها ثيـاباً بـديعة ـ لا تكـون أنيقة تسـترعي الأنظار، وإنمـا مناسبـة لها فحسب. سأتولّى رعايتها.

ـ «تشـارلـز، يجب أن أتحـدَّث إليـك بسرعـة، جئت للكـلام، بعـد رسالتك، قبل أن يعود...»

ـ «أين هو؟» وكنت قد نسيت وجوده.

ـ «إنه في نجارته.»

ـ «نجارته؟»

ـ «نعم، في فصله للنجـارة. إنـه فصـل لبنـاء الـزوارق حقـاً، وهم يقتصرون عـلى النجارة فحسب. أنـا لا أظن أنـه سيبني زورقـاً أبـداً. إنها الرفوف هذا الأسبوع. وهذه هي الأمسية الوحيدة التي يخرج فيها، ومن ثم كـان لا بد أن أحضر الآن. إنهم يستمـرون في العمل إلى سـاعة متـأخرة، وأظن أنهم يحتسون البيرة بعد ذلك.»

قلت: «لا أريد أن أتحدَّث عنه.» وفكَّرت، لو أن عندي سيارة، لأخذتها الآن فوراً، هذه اللحظة.

ـ «تشارلز، اسمع، أرجوك، لم أحضر إليك كما تظن، كما قلت في خطابك إنك تريد، هذا مستحيل. جئت لأخبرك ببعض الأمور و. . أوه يا تشارلز. . كان أمراً خارقاً للمألوف أن أراك. اعتقدت أن هذا لا يمكن أن يكون أبداً، وأنه نوع من الاستحالة في العالم، أن نجتمع كِلانا أبداً. لم أفكِّر في هذا أبداً. . أن أراك مرة أخرى وألمسك. . . هذا شيء أشبه بالحلم.»

ـ «هذا أفضل. . غير أنه ليس حلماً. حياتك بدوني كانت حلماً. أنت تستيقظين من حلم، من كابوس. لماذا هجرتني على الإطلاق، كيف استطعت أن تفعلي ذلك. كدت أموت من الحزن. . .»

ـ «لا نستطيع أن نتحدَّث عن هذا الآن. . .»

ـ «بل نستطيع، أريد أن أتحدَّث عن الأيام الخوالي، أريد أن نتذكَّر كل شيء، وأن نفهم كل شيء، وأن نعيش مرة أخرى كل شيء، وأن ننشيء أنفسنا معاً بوصفنا كائناً واحداً، موجوداً واحداً ينبغي ألاّ ينقسم أبداً. لماذا هجرتني، هارتلي، لماذا هربت؟»

ـ «لا أدري، لا أستطيع أن أتذكَّر. . .»

ـ «يجب أن تتذكَّري. إنه أشبه باللغز. لا بد من أن تتذكَّري.»

ـ «لا أستطيع، لا أستطيع. . .»

ـ «هارتلي، لا بد لك من ذلك. قلت إنني لن أكون مخلصاً لك. أكان الأمر هو ذلك حقاً؟ ما كان ينبغي لك أن تفكِّري في ذلك؛ إنك تعلمين مقدار حبي لك!»

ـ «لقد ذهبت إلى لندن.»

ـ «نعم، ولكن كان لا بد لي من ذلك. لم أكن أهجرك، بل كنت أفكِّر فيك طيلة الوقت، تعلمين ذلك، وكنت أكتب إليك كل يوم. لم يكن هناك

شخص سواي، أكان هناك؟ لم يكن هو؟» ومن الغريب أن هذه الفكرة الرهيبة لم تطرأ على بالي إلا في هذه اللحظة فحسب.

ـ «كلا.»

ـ «هارتلي، أكنت تعرفينه حينذاك، هل عرفته قبل أن تتخلّي عني؟»

ـ «لا أستطيع أن أتذكّر.»

ـ «بالطبع تستطيعين التذكّر!»

ـ «أرجوك أن تكفَّ عن هذا، أرجوك.»

الطريقة التي نطقت بها هذه الكلمات التي تكاد تكون آلية، بنوع من الغريزة الحيوانية المراوغة، كلمات أشبه بتلك التي سمعتها تقولها قريباً جداً، جعلتني أريد أن أصرخ ألماً وغضباً، وبنوع من الشفقة الرهيبة عليها.

ـ «كنت تعرفينه حينذاك؟»

ـ «لا أهمية لذلك.»

ـ «بل إنها ذات أهمية، كل شيء صغير جداً له أهمية، وينبغي إيجاده مرة أخرى ولا بد من التقاطه والتكفير عنه، لا بد أن نعيش الماضي من جديد. ولا بد من توضيحه وتنقيته، لا محيص لكل منا عن إنقاذ الآخر أخيراً، أن يجعل كل منا الآخر كلّاً متكاملاً مرة أخرى، ألا ترين...»

ـ «لم أكن أعرفه حينذاك، كان على شيء كالخطوبة بإحدى بنات عمي، بإدنا Edna، أتتذكّر، حسناً، كلا، لن تستطيع، ثم تخلّت عنه، فأحسست بالأسف عليه...»

ـ «ولكن متى التقيت به، أكان ذلك بعد أن هربت؟»

ـ «نعم، ذهبت إلى إحدى عمّاتي في «ستوك ـ أون ـ ترنت» Stoke - on - Trent، حيث كانت إدنا. لم أكن أعرفه عندما كنا معاً. لم يكن الأمر على هذا النحو، لم يكن الأمر شيئاً، لم أكن أريدك أن تكون ممثلاً، لم يكن الأمر شيئاً، أرجوك ألّا..»

ـ «ولكن يا هارتلي، اهدئي وجاوبي على أسئلتي، لست غاضباً، والأمر على جانب من الأهمية. لم تكوني تريدين أن أكون ممثلاً! لم تقولي هذا أبداً.»

ـ «فعلت أردتك أن تذهب إلى الجامعة.»

ـ «ولكن يا هارتلي، لا يمكن أن يكون هذا هو السبب.»

ـ «لم يكن الأمر شيئاً مذكوراً، لا تربكني على هذا النحو، كنا أشبه كثيراً بأخ وأخت، وكنت محباً للرياسة نوعاً ما فقررت أنني لا أريد ذلك.» طفرت من عينيها الدموع مرة أخرى. «ألديك منديل؟».

أحضرت لها فوطة شاي نظيفة، فمسحت عينيها ووجهها وعنقها في شيء من التعب. وأَفْلَتَ زرٌّ من ثوبها الأصفر الضيِّق عن الصدر، واستولى عليّ دافع بأن أضمَّها وأمزِّق الثوب.

جلست مرة أخرى. «هارتلي، إذا كانت لديك كل هذه الهواجس، فلماذا لم تفصحي عنها؟ كان من الممكن أن نفعل شيئاً بشأنها، كان الأمر فظيعاً للغاية أن تذهبي دون كلمة، كان هذا شيئاً شريراً.»

ـ «آسفة، آسفة، كان لا بد أن أذهب على هذا النحو، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة، ولم تكن يسيرة. أوه، الجو بارد، الجو غاية في البرودة. يجب أن أرتدي سترتي مرة أخرى.» ارتدت سترتها ولفَّتها حولها، ورفعت ياقتها.

ـ «كيف يمكن أن يحدث ذلك، لم يكن الأمر مجرَّد أنك قرَّرت، لا بد أن هناك شيئاً آخر، شيئاً لم تخبريني به. أتذكرين ذلك اليوم...»

ـ «تشارلز، ليس هناك وقت، ولا أستطيع حقاً أن أتذكَّر، مضى على ذلك زمن طويل، حياة بأكملها.»

ـ «إنها كالأمس بالنسبة لي، كنت أعيش بها منذ ذلك الحين، أعيشها من جديد وأتذكَّرها وأتدبَّرها مرة بعد أخرى، وأتساءل أين الخطأ فيها، وماذا حدث لك، وأين أنت، وأعتقد أنني ساءلت نفسي أين أنت في كل

يـوم من أيام حيـاتي. وكنتُ وحـدي طيلة هـذا الـوقت. لبثت في الحـريـة بسببك. إنه بالأمس يا هارتلي. إنه الزمن الحقيقي الوحيد الذي لم أَحْيَ في زمن سواه.»

ـ «وحدك. أنا متأسِّفة.»

ومرَّت لحظة قبل أن أدرك أنها ليست ساحـرة. وحدك؟ أجـل، وأوحت نبرتها بأنها لم تتخيَّل ذلك، ولم تفكِّر فيه.

ـ «تقـولين إنـك قرَّرت فحسب أنـك لا تـريـديني، غـير أن هـذا ليس تفسيراً، أريد أن أعرف...»

ـ «كفاك.. إنه لم يحدث فحسب، هذا كل ما في الأمر. لو أنني أحببتك بما فيه الكفاية، لتزوَّجتك، ولو أحببتني بما فيه الكفايـة، لكنت تزوَّجتني.. لا أسباب هناك.»

ـ «تقولين لـو أنني أحببتك بمـا فيه الكفـاية... لا تـدفعيني إلى الجنون! لقد أحببتك إلى أقصى حد، وما زلت، حاولت الوصـول إلى أقصى حد. لم أهرب، لم أتزوَّج بـأحد غـيرك، كانت غلطتـك، ستدفعينني إلى الجنـون لو بدأت..»

ـ «ينبغي ألاَّ نتحـدَّث عـن هـذه الأشيـاء... إننـا أشبـه بمـن.. يغوصون.. لم يعد لهذه الأمور أي معنى الآن. انظر، لا بد أن أفضي إليك بأشياء، معينة، ولكنك لا تريد أن تصغي...»

قلت لنفسي، ينبغي ألاَّ يسـوقـك الانفعـال إلى الجنـون. يجب أن أكفّ عن التحقيق معهـا الآن، وإن كـان لا بـد من أن أكتشف، وسـأفعـل. «هارتلي، خـذي شيئاً من النبيـذ.» وصببت لها كـأساً من النبيـذ الاسباني، وبدأت ترتشفه آلياً. «إليك زيتونة.»

ـ «لا أحب الزيتون، إنه مر. أرجوك أن تنصت إليّ...»

ـ «يؤسفني أن الجـو بارد هنـا، هذا البيت يستـطيع أن يكـون بارداً حتى عنـدمـا... حسن، أخـبريني بتلك الأشيـاء، ولكن تـذكَّـري، إنـك هنـا

وستمكثين. . . مهما حدث أو لم يحدث في الماضي فأنت تنتمين إليّ الآن. ولكن أخبريني بشيء واحد، تلك الليلة التي كنت فيها على الطريق هنا وأضاءت تلك السيارة أنوارها عليك، أكنت آتية لرؤيتي حينئذ، تلك الليلة؟»

- «كلا. . . غير أني. . . كنت أريد أن ألقي نظرة على منزلك فحسب. كانت ليلة من ليالي النجارة، أرأيت.»

- «كنت تريدين أن تلقي نظرة على منزلي. أن تقفي في الشارع وتنظري إلى النوافذ المضيئة. أواه يا عزيزتي، إنك تحبينني، لا مندوحة لك عن ذلك.»

- «تشارلز، لا أهمية في أن. . .»

- «ماذا تعنين، إنك تسوقينني إلى الجنون مرة أخرى!»

- «ليس هناك أي مكان، أية إمكانية، أي نوع. . من البناء. . كل شيء قد انهار، ستفهم عندما أخبرك ما جئت لأخبرك به. . .»

- «طيب، سأنصت الآن، ولكن، دعيني أقبّلك أولاً، وسيكون كل شيء على ما يرام، قبلة السلام.» انحنيت عليها، وبرفق شديد، ولكن بإصرار، مسّت شفتاي الجافتان شفتيها الرطبتين. ما أشد تباين القبلات المختلفة! كانت هذه نوعاً من القبلة المقدّسة. أغمض كلٌّ منا عينيه. «فليكن الآن، استمرّي.» ملأت كأسها بالنبيذ. وكانت يدي ترتعش، فانسكب النبيذ على المائدة.

قالت مرة أخرى: «الوقت ضيِّق، وقد أضعنا بعضه.» ثم قالت: «يا إلهي، لم أحضر ساعتي، كم الساعة الآن؟».

نظرت إلى ساعتي. كانت العاشرة إلا ربعاً. قلت: «إنها التاسعة وعشر دقائق.»

- «الأمر يتعلّق بتيتوس.»

- «تيتوس؟» تيتوس؟ لم أكن أفكّر أي تفكير جدّي في تيتوس، وأحسست بشيء من الفزع.

ـ «أجل، الآن أريد أن أخبرك. . يا إلهي، أشعر بأنني سكرت فعلاً، فأنا لم أتعوَّد على النبيذ. يجب أن أخبرك، فكّرت أحياناً منذ أن رأيتك في القرية أنك ربما استطعت أن تساعد على نحو ما، ولكن الحق أنك لن تستطيع أن تساعد إلا بابتعادك، بابتعادك فوراً. . »

ـ «هذا هراء. . . »

ـ «أنت ترى، لقد أخبرتك أن تيتوس ابن بالتبنّي. . . »

ـ «نعم، نعم. »

ـ «كنا نتمنّى طفلاً، «بن» كان يريد ابناً، وأنا أيضاً، وانتظرنا. ثم أردت أن أتبنّى، ولكنه لم يكن يريد، بل ظل يأمل. وبدأت أشعر بالقلق بسبب الحد الزمني، فهم لا يسمحون لك بالتبنّي إلا في سنٍّ معيَّنة، وحتى في هذه الحالة كنت سأكذب فيما يتعلّق بسنّي. «بن» أصغر مني، ومعه كان. . . »

ـ «أهو كذلك؟ ظننت أنه كان في الحرب. »

ـ «كان فعلاً، ولكن في الشطر الأخير منها. . . »

ـ «ماذا كان يفعل في الحرب؟»

ـ «كان في المدفعية، وهو لا يتحدَّث عنها كثيراً. لقد وقع في الأسر، وكان سجيناً في معسكر حربي. »

ـ «كان في الـ ENSA».

ـ «أعتقد أنه استمتع بالحرب تمام الاستمتاع، وكان يرى نفسه جندياً. وقد احتفظ بمسدس الجيش، إذ كان معجباً به. ولم يكن من المفروض أن يكون كذلك. والواقع أنه لم يستقر أبداً في الحياة المدنية، ويقول أحياناً، «فلتأتِ الحرب القادمة. »

ـ «غير أنك كنت متزوِّجة حينذاك، عندما كان أسيراً؟ أين كنت؟»

ـ «كنت مقيمة في لايشستر، في منطقة سكنية، كنت أعمل كاتبة في مكتب لبطاقات التموين. كانت فترة من الوحدة»

كانت فترة من الوحدة. إذن عندما كنت غارقاً في الغزل مع كليمنت،

وأرحل من بلد إلى آخر في حافلة لكي أضم المسرح إلى المجهود الحربي، كانت هارتلي وحيدة تعسة. يا للسيد المسيح، إنني ذهبت إلى لايشستر. «أوه، يا إلهي . . . »

ـ «ولكن اسمع، فيما يختص بتيتوس. . . أنت ترى، استطعت أخيراً، في اللحظة الأخيرة أن أقنع «بن» بأنه ينبغي أن نتبنى طفلاً. لم يكن يريد ذلك حقاً، ولكنه فعلها على ما أظن لأنه رأى الحالة التي أنا فيها. . أوشكت. . أوشكت. . كنت منفعلة غاية الانفعال، وأنا التي قمت بترتيب كل شيء حقاً، قمت بكل شيء، كل الرسميات، كل الأوراق، وما شاكل ذلك، ولم يفعل «بن» شيئاً سوى توقيع الأوراق دون أن ينظر فيها، فعلها وهو في حلم، لم يكن يريد أن يعرف. وكنت أستطيع أن أرى أنه ليس سعيداً بها، غير أنني فكّرت. . . عندما يكون الطفل الصغير هناك، فسيحبه. . . كل شيء سيكون مختلفاً. . . وسنكون جميعاً سعداء. . . »

ـ «لا تبكي، يا هارتلي الحبيبة. . إليك. . دعيني أمسك يدك، سأرعاك الآن. . »

ـ «تيتوس كان مخلوقاً صغيراً مسكيناً، له شفة كالأرنب البري، وكان لا بد من إجراء عملية. . . »

ـ «نعم، نعم، كفّي عن البكاء واستمرّي في القصة، إذا كان لا بد أن تحكيها. »

ـ «والآن ارتكبت خطأً فادحاً. . . »

ـ «هارتلي، لا تحزني على هذا النحو، لا أستطيع احتمال ذلك. . خذي مزيداً من النبيذ. »

ـ «ارتكبت خطأً فاحشاً جداً. . ودفعت ثمنه الفادح. . كان ينبغي عليّ أن أعرف أفضل من ذلك. . . »

ـ «ما المسألة إذن؟»

ـ «لم أخبر «بن» بشيء عنك. أعني أنني لم أخبره في البداية، وكلما مضى الوقت، تزايدت استحالة أن أخبره. . . »

ـ «لم تخبريه أبداً كيف شببنا معاً، وكل منا يحب الآخر. . ؟»

ـ «لم أخبره أبداً كيف كانت الأمور. وعندما سألني هل كان هناك أي شخص آخر، قلت لا. وبالطبع لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك، وكذلك لم يكن أولاد عمي يعرفون. وأنت تتذكّر كيف كنا كتومينْ، عندما كنا طفلينْ. . . ».

ـ «أجل، كان شيئاً ثميناً، يا هارتلي. طبعاً كنا كتومين. كان حبنا ثميناً وسرياً، ومقدّساً.»

ـ «ومن ثم لم يكن هناك خطر من أن يخبره أحد. . . »

ـ «خطر؟ ولكن ما أهمية ذلك؟ لقد تخلّيت عني على كل حال.»

ـ «كان «بن» شديد الغيرة، هو شخص غيور بشكل فظيع. . وفي البداية ،لم أكن أفهم شيئاً عن الغيرة، أعني لم أكن أفهم أنها يمكن أن تشبه الجنون.»

أجل، تشبه الجنون. فهمت ذلك بالطبع.

ـ «وقبل أن نتزوّج اعتاد أن يهدّدني تقريباً، فإذا ضايقته كان يقول: «سأنتقم لذلك عندما نتزوّج!»، ولم أكن على يقين أبداً بأنها مجرّد نكتة. وكانت كلها أمور تتصل بالغيرة. فإذا نظرت إلى شخص آخر، أعني حرفياً مجرّد النظر، كان يغضب غضباً شديداً. . . واستمر ذلك بعد أن تزوّجنا. . . وأخيراً استبدّ بي الخوف وطاش صوابي، فأخبرته.»

ـ «أخبرته بأنك أحببتني، وبأنني أحببتك؟»

ـ «أخبرته بشيء من هذه العلاقة. لم أكن أريد أن يبدو الأمر مهماً، غير أن مجرّد إحجامي عن الإفضاء به في وقت مبكر جعله بالطبع يبدو على جانب كبير من الأهمية.»

ـ «كان مهماً، وكان خطيراً!»

ـ «يا ليتني كنت من الفطنة بحيث أقرّر منذ البداية أن أخبره أو لا أخبره على الإطلاق! ولكنك ترى، عندما رأيت غيرة «بن» الشديدة، وغضبه حين يغار، انتابني الرعب في حالة. . . ظهورك يوماً ما. . . »

ـ «وقد ظهرت!»

- «وكان لا مفرّ لي من حماية نفسي بأنني ذكرتك على الأقل قبل ذلك. أنت ترى، كنت خائفة أن يقول أحد شيئاً، أو أن تكتشف أين أقيم. . . حاولت في حرص شديد ألا أدع أحداً يعرف، أي أحد يمكن أن يخبرك. قطعت كل الصلات، وانتقل أبواي إلى مكان آخر، وظننت أنك قد تحاول العثور عليّ و. . .»

- أن تقطعي الصلات، فلا بأس! ولكن، يا هارتلي، إذا كنت خائفة منه على هذا النحو منذ البداية، فلماذا تزوّجت هذا الكارثة؟»

- «ظننت دائماً أن الأمور ستتحسَّن فيما بعد.»

- «إنك لم تخافي مني أبداً، أليس كذلك؟»

- «بلى، بلى. غير أنني كنت أخشى أن تجد مكاني، وأن تكتب إليّ. كان يطلع دائماً على خطاباتي. وكنت أنهض أولاً من الفراش، أعواماً بعد أعوام، وأركض نازلة كل صباح حتى أجد البريد أولاً في حالة ورود خطاب منك.»

- «أواه، يا إلهي.»

- فعلت ذلك أيضاً بعد أن أخبرته. كنت مذعورة دائماً من البريد، في حالة وجود شيء يمكن أن يلتقطه وأن يسيء فهمه. وأياً كان الأمر فقد شعرت بأن الحياة أشد ما تكون بشاعة حين تصبح مهدَّدة دائماً باكتشافه للمسألة، ومن ثم أخبرته. . . وكان ذلك. . . رهيباً.»

- «كان ثائراً، غيوراً؟»

- «كان بشعاً. أنت ترى، لم يستطع أن يصدِّق أن ما بيننا كان شيئاً بريئاً».

قلت: «هارتلي، لقد كان بريئاً، ولكنه كان جاداً، شيء حدث لنا إلى الأبد في تلك السنين، ومن ثمّ فإن «بن» مُحِقٌّ على نحو ما إذا تأثّر، إذ كنت تخبرينه بشيء جعل كل شيء مختلفاً. أستطيع أن أفهم ذلك.»

- «لم يصدِّق أننا لم نكن عاشقينْ، واعتقد أنني كذبت عندما قلت إنني عذراء. وكان ذلك شيئاً مريعاً بوجه خاص لأن ما فكّر فيه لم يكن حقّاً،

ولم أستطع أن أقنعه على الإطلاق، وإن أخبرته مرة بعد أخرى. وأحياناً يحاول أن يوقعني في كمين بقوله إنه سوف يغفر لي إذا اعترفت فحسب، غير أنني كنت أعرف أنه لن يفعل ذلك، وظلّ يسألني ويضغط عليّ ويسألني مرة تلو أخرى تلو أخرى، والمسألة هي أنه لا يستطيع التصديق.»

ـ «حبيبتي، لقد كنا عاشقين، وإن لم يكن بذلك المعنى...»

ـ «وما انفكّ يسألني ويسألني كل يوم، وأحياناً كل ساعة. وكان يوجّه نفس السؤال بنفس الألفاظ مراراً وتكراراً، أياً كانت إجابتي عليه. وبالطبع كلما ازداد غضباً، ازددت أنا ارتباكاً وغباء وتعاسة بحيث لا بد أن الأمر بدا وكأنني أكذب...»

ـ «أود أن أقتل ذلك الرجل.»

كانت قد احتست مزيداً من النبيذ، وهي الآن جالسة ترتعش، ولكنها كفّت عن البكاء، وزادت عيناها الواسعتان قتامة، وارتخى الجفنان، وهي تحملق في الشمعة، ممسكة بفوطة الشاي لاشعورياً إلى وجهها، ضاغطة بها على عظام وجنتيها كأنها حجاب. أما جبينها العريض الذي بدا أبيض في ضوء الشموع فكان منقّطاً مبقّعاً بظلال صغيرة، غير أن الطريقة التي قلبت بها ياقة سترتها القطنية الخضراء خلف شعرها أضفت عليها مظهر فتاة شابة. لعل هذا هو ما اعتادت أن تفعله بياقة معطفها في تلك الأيام التي كنا نتنزّه فيها بدراجتينا. وحتى عندما كنت أُنْصت بتركيز لكلماتها، كنت أتفرّس طيلة الوقت بنوع من العاطفة الخلّاقة في محياها الذي تضيئه الشموع، وكأنني إله أعيد جَمْع جمالها لأغراضي الخاصة.

ـ «انظري يا هارتلي، كل شيء على ما يرام.» ذلك أنها تطلّعت ببصرها فجأة متوجّسة، «سأذهب لإشعال مزيد من الشموع، أريد أن أتأمّلك.» كان الظلام يتراكم في الخارج. أخرجت صندوقاً من الشموع وأضأت أربع شمعات أُخَر، وسكبت قطرات منها في فناجين الشاي وأوقفت الشموع مستقيمة فيها، ورتّبتها حولها كأنها أضواء في محراب. ثم ذهبت وجلست

قبالتها، لا على مقربة منها ولكن ناظراً إليها. كنت أتوق إلى رؤية ابتسامتها، فهذا يمكن أن يساعد عملية إعادة الخلق.

- «هارتلي، انزعي هذا الحجاب. ألا تريدين أن تبتسمي لي؟»

أنزلت فوطة الشاي، فرأيت تعاسة ثغرها الرطبة المتهدِّلة. «تشارلز، كم الساعة الآن؟»

كانت الساعة العاشرة وخمساً وعشرين دقيقة. «أوه، التاسعة والنصف، بل قبل ذلك. انظري، يا هارتلي، عزيزتي، لا شيء مهم من هذا كله. لقد انتهى كل شيء. ألا ترين؟ فليكن، لقد كان رجلاً غيوراً غبياً، رجلاً بشعاً يستحق العقاب، كل ما في الأمر أن هذا لم يعد يهم الآن. ليس عليك أن تعودي إلى ذلك الجحيم. ولكن، ما علاقة كل هذا بتيتوس؟ كنت على وشك أن تخبريني بشيء عن تيتوس.»

- «إنه يظن أن تيتوس ابنك.»

- «ماذا؟»

- «يظن أن تيتوس ابنك.»

وكانت هارتلي قد بسطت يديها فوق المائدة. ولما سطعت عليها أضواء الشموع بدت الآن أشبه بسجين يتعرَّض لاستجواب.

جلست مستقيماً كأشد ما تكون الاستقامة، وقد صعدت الدماء إلى وجهي من أثر الدهشة والصدمة؛ فألفيت أنني قد بسطت يديّ أيضاً على المائدة. أخذ كلٌّ منا يحملق في الآخر. «هارتلي، لا يمكن أن تكوني جادة، لا يمكن أن يكون جاداً! كيف يمكن أن يكون تيتوس ابني؟ إن زوجك ليس مختلّ العقل، أهو كذلك؟ إنه يعلم أن تيتوس بالتبني، ويعلم من أين أتى...»

- «كلا؛ هذه هي المسألة... إنه لا يعلم من أين أتى تيتوس. كنت أنا التي أحضرته إلى حياتنا، كانت فكرتي. ورتبت الأمر كله. وكان «بن» في حالة صدمة خلال العملية كلها، ولم يفعل شيئاً على الإطلاق، سوى

التوقيع على أوراق دون الاطلاع عليها. وذات مرة حضر شخص من المشرفين على التبني إلى المنزل وقابل «بن»، غير أنني قمت بالحديث كله. . كان «بن» أشبه بطرطور. »

- «ولكن هارتلي، انتظري لحظة، إنه كان يعلم أنني شيء من الماضي، ولم تتبني تيتوس إلا بعد أعوام وأعوام من هجرانك لي. »

- «كان يظن أننا مستمرّين في علاقتنا. واعتقد أننا نتواعد سراً. » كانت هارتلي في وضع يكاد يكون اتهاماً، بدموعها التي جفّت، وبعينيها المحملقتين، وبوهج التعاسة، وجبينها الشاحب المنقّط.

- «هارتلي، حبيبتي، لا يستطيع الناس أن يصدِّقوا أشياء مخبولة تماماً ولا دليل عليها إطلاقاً. كان ينبغي أن يعلم أنك لا تلتقين بي. »

- «كيف يمكن أن يعلم؟ كنت وحدي طيلة اليوم، وأحياناً الليل بطوله، كان لا بد أن يسافر بعيداً عني. »

- «فليكن. . فلنلتزم العقل في هذا. . . فلنقل إن هذا كان بعيد الاحتمال إلى أقصى حد! وفضلاً عن ذلك. . أوه، كيف يمكن ألا يصدِّقك، كيف يمكن أن يعذِّبك بمثل هذه الأشياء المُخْتلقة المجنونة التي نسجها الخيال!»

قالت هارتلي: «لم يحدث هذا كله دفعة واحدة. » وكرعت مزيداً من النبيذ. «اتخذ موقفاً معادياً لتيتوس منذ البداية، ربما لأن التبني كان الشيء الوحيد الذي أكرهته على فعله رغم إرادته، ولهذا نفر منه وتمنّى بعمق أن يُخْفق بطريقة أو بأخرى. ها أنت ترى، لقد استمر واستمر حتى ذلك الوقت يردِّد قوله بأنك كنت طبعاً عشيقي، وأنك ما زلت كذلك، وواصلت أنا من ناحيتي إنكار ذلك حتى أصابني الكلال، أظن أن الكلل أصابنا معاً، اعتدت أن أفكِّر في شيء آخر عندما يتحدَّث عنك. واعتقدت في البداية أنه لا يصدِّق حقاً أنني ما زلت معك، وإنما كان يقول ذلك لإغاظتي، وربما لم يكن يعتقد ذلك في البداية، ولكني على يقين من أنه

يعتقد أننا كنا عاشقيْن. وبالطبع لم نستطع أن ننساك، لأنك كنت دائماً في الصحف، ثم شاهدناك فيما بعد في التليفزيون. . .»

ـ «يا إلهي!.»

ـ «وأصبح ذلك أشبه بالتقيّح في ذهنه، وفجأة، كان كمن أعمل فكره، كان أشبه بنوع من الكشف، حين ربط بينك وبين تيتوس. هناكَ شيئان سيِّئان في حياته، استمر في إمعان الفكر فيهما حتى أحسَّ بأنه لا بد من وجود ارتباط بينهما، وكان كل منهما خطأي أنا.»

ـ «ولكن، كم كان عُمْر تيتوس حينذاك، وما نوع الدليل. . .؟»

ـ «لا أستطيع أن أتذكَّر عمر تيتوس عندئذ، وربما لم يحدث هذا كله بغتة على هذا النحو. كان فظاً دائماً مع تيتوس حتى عندما كان طفلاً صغيراً، وفيما بعد كانت معاملته أسوأ. يجوز أنه قال ذلك كشيء مجنون يريد أن يؤذيني به، وحين انفعلت بعد ذلك انفعالاً شديداً بدأ يفكِّر فيه ويرى كل ما أقوله على أنه دليل على الذنب.»

ـ «ولكن، هارتلي، هذا جنون. لا بد أنه مجنون، مجنون إكلينيكياً. . .»

ـ «إنه ليس مجنوناً.»

ـ «هذا ما يفعله المجانين، يرون كل شيء دليلاً على ما يريدون تصديقه.»

ـ «إنه يقول إن تيتوس يشبهك.»

ـ «شيء عجيب، ها أنت أيضاً. . .»

ـ «والشيء العجيب هو أنه يشبهك قليلاً بالفعل.»

ـ «إنه يشبهك لأنك قمت على تربيته، وأنت تشبهينني لأننا حملقنا وحملقنا كل منا إلى الآخر أعواماً طويلة. ينتهي الأمر بالعاشقيْن إلى أن يشبه كل منهما الآخر.»

ـ «حقاً؟ ربما كنت على صواب. غير أن هذا يبدو غريباً، بل يكاد يكون خارقاً للطبيعة.»

ويبدو أن هذه الفكرة قد صدمت هارتلي أكثر من أي شيء آخر قلته، حتى لو أنني قلته في لحظة لإسعادها.

ـ «وفضلاً عن ذلك، لا بد أن هناك دليلاً مستقلاً على مولد تيتوس وأبويه.»

ـ «كان هذا جزءاً من المشكلة. فاهم؟ عندما أخذت تيتوس لم أكن ببساطة أريد أن أعرف من يكون أبواه، لم أكن أريد أن أفكِّر في أنه ليس لي تماماً. أعطتني جمعية التبني كثيراً من المعلومات، بل أعطتني رسالة من أمه، غير أنني لم أقرأ شيئاً منها، وأتلفتها فوراً. لم أكن أريد أن أعطي أي شطر من أفكاري لأبويه الحقيقيين. كما لم أكن أريد أن أتذكَّر أي شيء يتعلَّق بتيتوس قبل أن حملته معي إلى المنزل، ولم أتذكَّر شيئاً، لقد محوت كل شيء من عقلي. وهكذا عندما أصبح «بن» مهتماً ومستريباً على هذا النحو، وبدأ يسألني لم أكن أعرف كيف أجيب، وفي البداية لم يكن في وسعي حتى أن أتذكَّر اسم جمعية التبنِّي. ولا بد أن الأمر كله بدا سيئاً غاية السوء، أشبه ما يكون بأكذوبة...»

ـ «ولكن هناك السجلات، أليست هناك، السجلات الرسمية؟»

ـ «إنها هناك الآن، غير أن الأمور كانت أقل رسمية حينذاك، ولم يكن هناك أي قانون عن الأطفال يمنحهم الحق في معرفة آبائهم الأصليين. بالطبع، لا بد من وجود سجلات، على ما أظن، ولكن في الوقت الذي أراد فيه «بن» أن يعرف التفاصيل لم يكن لجمعية التبني أي وجود، وأظن أن كمية كبيرة من الأوراق قد أتلفها حريق، أو هذا ما قاله شخص ما على كل حال. ولم يصدِّق «بن» أي شيء من هذا أبداً، ولم يكن هناك من يرد على الخطابات، وقد حاولت اكتشاف الأمر، وذهبت إلى لندن، وقد أبى أن يصحبني، وأقمت في فندق...»

ـ «أوه هارتلي، هارتلي..» وكنت أصوِّر لنفسي هذه الرحلة، وكذلك العودة إلى المنزل.»

ـ «حاولت جاهدة، ولكنني لم أعثر على شيء، بل لم أكن أريد أن أعثر على شيء نوعاًما.»

ـ «ولكنني ما زلت غير فاهم، كيف كان يفكِّر فيما حدث؟»

ـ «كان يعتقد أننا ما زلنا نلتقي، ربما لا يكون ذلك كل الوقت، وإنما من حين إلى آخر، سراً. وأظن أنني أصبحت حاملاً و...»

ـ «ولكنه كان يعاشرك!»

ـ «كان ذلك شيئاً غريباً آخر. قبل أن يستقر التبنِّي نهائياً كنت في مكان بعيد فترة طويلة، وكانت هذه هي الفترة الوحيدة التي رحلت فيها بعيداً. ذهبت إلى والدي الذي كان مريضاً، وقد مات عندئذ.. وفي تلك الفترة التي مكثتها بعيداً، اعتقد «بن» أنني وضعت الطفل. ولم أعد نحيفة كما كنت أبداً، وكان من الممكن أن أكون حاملًا، ها أنتِ ترى أن كل شيء يلائم بعضه بعضاً. وظنَّ أنني اخترعت مسألة التبنِّي كلها لكي أحضر الطفل إلى منزله.»

ـ «ولكنه رأى الأوراق..»

ـ «حسناً، كان من الممكن أن أحتفظ بالأوراق بطريقة ما، غير أنه لم يطلع عليها على كل حال. وكان من الممكن أن تكون الزائرة الموفدة من الجمعية متواطئة معي.»

ـ «زوجك رجل لا نظير له. معذِّب شرير بغيض قاسٍ نصف مجنون لا نظير له.»

ولم تفعل هارتلي شيئاً ـ وهي تحملق الآن في لهيب الشموع ـ سوى أن هزَّت رأسها.

ـ «ولكن تيتوس نفسه لم يكن يعرف شيئاً، على ما أظن. أعني ما يفكِّر فيه «بن»؟»

قالت: «ولكنه عرف.. فيما بعد، أعني عِندما بلغ التاسعة أو العاشرة من عمره. بالطبع أخبرناه دائماً بأنه ابن بالتبنِّي، كما هو مفروض أن نفعل.

غير أن «بن» بدأ يخبره بأنه ابن عشيق أمه، وأن أمه عاهرة.»
ـ «يا له من خبث وحشي تام..!»
ـ «ودخل «بن» في مرحلة ضرب تيتوس حتى يقع على الأرض. واستنجد بعض الجيران برجال تحريم القسوة. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً، أن أدافع عنه، بل لم أجد بداً من الانحياز إلى صف «بن»، كانت مرحلة رهيبة، كل شيء تحطّم، وكأنما يستطيع المرء أن يظل واقفاً بعد أن تحطّمت كل عظامه ومفاصله الصغيرة، لم يعد المرء كلاً متكاملاً، لم يعد شخصاً بعد الآن.» وانحدرت دموع بطيئة، وما برحت تحدّق في الشموع، وأخذت تبحث عشوائياً عن الفوطة الموضوعة على المائدة، فدفعتها نحوها.
ـ «ولكن، لماذا لم يكن بوسعك الدفاع عنه.. أوه، هذا سؤال غبي. هارتلي، أنا لا أستطيع أن أحتمل ذلك...»
ـ «كان يشعر أن كل شيء كان بسبب غلطتي، وكان كل شيء غلطتي حقاً، كان ينبغي أن أخبره منذ البداية، لقد سألني إن كان هناك شيء آخر، فكذبت حقاً لأنك كنت هناك، وإن لم نكن عاشقيْن، وعندما أخبرته فيما بعد، بدا كل شيء غامضاً متضخّماً. وتزوّجته لأنني كنت أشفق عليه، وأريد أن أجعله سعيداً.. ثم... ثم...»
ـ «أوه هارتلي، كفّي عن ذلك.»
ـ «وتورّطت على نحو ما في طريق محتوم، كل ما أفعله خطأ، كل ما أرتكبه خطأ، بحيث أسيء إليه، وكأنني أفعل بالضبط الشيء الذي يغضبه. وذات ليلة، عندما كان خارج البيت في فصل مسائي، وضعت السلسلة على الباب مصادفة وذهبت إلى الفراش ونمت، ولم يستطع الدخول حتى استيقظت في الساعة الثالثة، وكانت تمطر، فشرع يضربني ولا يتركني لأنام...»
ـ «هارتلي، لا تخبريني بالمزيد من هذه الفظائع، أرجوك. لا أريد أن أسمعها، وعلى كل حال، لقد انتهى كل شيء.»
ـ «أوه، لقد كنت غبية، غبية جداً، وبالطبع، لم يستقر تيتوس في

المدرسة أبداً، وانحرف كل شيء عن جادة الصواب، كل شيء، بل إنني لست على يقين من أن «بن» اعتقد هذا منذ البداية، أو أنه اعتقد ذلك حقاً دائماً فيما بعد؛ كل شيء أفعله فحسب بدا وكأنه يجعل الأمور تزداد تفاقماً، وكأنه كان ينوّمني تنويماً مغناطيسياً لأتصرَّف وكأنني مذنبة. كما أنني لست متأكِّدة ممَّا كان يعتقده تيتوس، أو ممَّا يعتقده. اعتاد تيتوس أن يجلس هناك منصتاً لبن وهو يقول شيئاً، على حين أقول أنا شيئاً آخر، كان شيئاً أشبه بالابتهال، قصيدة بشعة. . ولا أدري أكان يعرف الحقيقة أم كانت هناك أية حقيقة، كان كل شيء سابحاً في ضباب جدل رهيب وشقاق يخلو من المعنى. اختلط كل شيء في كابوس، وفي النهاية أخذ يلومني على ذلك، وقد كان على حق بمعنى ما، وأحياناً كنت أعتقد أنه يلومني ويستنكرني أكثر مما يلوم «بن» ويستنكره. وبالطبع، عندما كان تيتوس صغيراً، كان خائفاً طيلة الوقت، ويلتزم الهدوء، وكان يجلس المساء كله في مقعده الصغير عند الجدار، ممتقع الوجه متوتراً، هادئاً، هادئاً هدوءاً شديداً. وفيما بعد، عندما بلغ الخامسة عشرة اعتاد أحياناً على التظاهر بأنه ابنك، ومرة أو مرّتين أخبر «بن» بأنني أخبرته بأنه ابنك. ولكن أعتقد أنه فعل ذلك ليغيظ «بن» عندما أصبح تيتوس أكبر من أن يعود «بن» لضربه كما كان يفعل.»

- «هارتلي، كفى. أخبريني الآن بالمزيد عن تيتوس. متى هرب؟ وأين تظنين أنه موجود؟»

- «عندما ترك المدرسة، ذهب إلى مدرسة الفنون، الفنون التطبيقية، حيث كنا نقيم، وحصل على منحة دراسية، وكان يدرس الكهرباء، ويقيم معنا في البيت، ولكنه كان يتجاهلنا، وقد أرسلناه إلى كوفنتري Coventry. وكنت أشعر أحياناً أنه يبغضنا كِلينا بالفعل. ولم يستطع أن يغفر لي مطلقاً امتناعي عن حمايته عندما كان صغيراً. ثم قبل أن ننتقل إلى هنا مباشرة ذهب ليقيم في مسكن مستقل، ثم اختفى تماماً، وترك مساكنه المستقلة ولم يترك لنا أو يبعث إلينا بعنوانه. فذهبت إلى حيث كان

وسألت عنه ولكن ما من أحد كان يعرف أو يعبأ بمكانه، ولم يكتب إلينا مطلقاً. وكان يعلم أننا سنأتي إلى هنا. وأظن أنه راح يبحث عن أبويه الحقيقيين. قال دائماً إنه سيفعل ذلك. وكان يسأل عنهما مراراً وتكراراً، وعما إذا كانا من أهل الثراء. على كل حال، لقد ذهب الآن. ذهب.»

ـ «لا تكوني مأساوية على هذا النحو يا هارتلي، سيعود مرة أخرى، فهو يعرف أين تقيمين، أليس كذلك؟ سوف يعود. سيرجع إلى البيت عندما يحتاج إلى نقود. إنهم يفعلون ذلك دائماً.»

هزَّت رأسها: «أحياناً لا أريده أن يعود. وأحياناً أخرى أعتقد أنه مات. وفي بعض الأحيان أكاد أتمنَّى لو أنه مات حقاً، وأنني أستطيع أن أسمع بموته، وذلك حتى يمكن لقلق الرجاء والخوف والجزع أن يتوقَّف، وأن نعيش في سلام. أما لو أنه عاد، فمن المحتمل أن يكون الموقف.. مريعاً..»

ـ «تقصدين؟»

ـ «مريعاً.» كانت الدموع المتمهلة قادمة، وجعلت ترمش بجفنيها لتجعلها تنسكب على وجنتيها. قالت: «ليتنا لم نتبنَّ طفلاً على الإطلاق، كانت تلك غلطتي، كان «بن» على حق تماماً، كنا أفضل بدونه. وربما استطعت أن أتصرَّف حينذاك، وأن يكون «بن».. كما أصبو أن يكون...»

ورغم ما تنطوي عليه قصتها من ألم وفزع فإن عقلي كان يقفز قُدُماً إلى أرض مشرقة، إلى جميع أنواع الآفاق التي تكاد تكون تفصيلية للأمل الطارىء. سأصحب هارتلي، وسنعثر معاً على تيتوس. وكان ذلك حقاً بمعنى ميتافيزيقي غريب، فسأجعله حقاً: كان تيتوس ابني، ثمرة حبنا القديم!

ـ «هارتلي، يا صغيرتي، كفِّي عن البكاء، لقد كان لك نصيبك من الفظائع، والآن، أوقفيها. أنت لي الآن، وسأقوم برعايتك وحمايتك..»

وأخذت تهزّ رأسها مرة أخرى. «وأنا التي تزوّجته لأجعله سعيداً! ولكن ينبغي ألا تفكِّر في أن الأمر كان كله سيئاً، إنه لم يكن كذلك. ما قصصته عليك هو الجانب السيِّء، ولكن من المحتمل أنني أعطيتك انطباعاً خاطئاً تماماً.»

ـ «الآن ستقولين لي إنك فزت بزواج سعيد!»

ـ «كلا، ولكنه لم يكن كله سيئاً، ولم يكن «بن» فَظّاً دائماً مع تيتوس. إن في «بن» شيئاً من جيكل وهايد، لعل الرجال جميعاً كذلك. والمسألة هي أنك أخذت «تَنطّ» بيننا، وكان هذا يثيره دائماً، ولم يكن بوسعنا أن ننساك لأنك كنت ذائع الصيت، ولكننا كنا نقضي أيضاً أوقاتاً أفضل...»

ـ «كيف كانت تلك الأوقات؟»

ـ «أوه، مجرَّد أوقات عادية، قد تظن أنها مملّة، كانت لنا حياة هادئة...»

ـ «حياة هادئة؟»

ـ «لم يكن «بن» يحب عمله كثيراً، ولكنه كان يحب أن يصنع أشياء في المنزل، كان يحب الـ DIY.»

ـ «وما معنى هذه الـ DIY؟»

ـ «معناها «اصنع ذلك بنفسك» (Do it yourself). وذهبنا ذات مرة إلى لندن لنزور معرض أوليمبيا. كما اعتاد أن يذهب إلى الفصول المسائية.»

ـ «ماذا كان يتعلَّم في الفصل في ذلك المساء الهادىء الذي تركت فيه السلسلة على الباب؟»

ـ «كان يتعلَّم كيف يقوم بلحام الصيني.»

ـ «أوه... يا ربي..! هارتلي، ماذا كنت تصنعين طيلة الوقت، أكنت ترفِّهين عن نفسك، ألديك أصدقاء؟»

ـ «لم يكن «بن» يحب الحياة الاجتماعية، ولم أكن أبالي. والحق أننا لم نكن نعرف أحداً هنا أيضاً.»

- «وهل كنت تذهبين إلى الفصول المسائية أنت أيضاً؟»
- «بدأت ذات مرة في تعلّم الألمانية، ولكنه لم يكن يحب أن يخرج في المساء، وكانت الفصول في ليالٍ مختلفة.»
- «أوه.. هارتلي... وفي كل تلك الأعوام كان مخلصاً لك، ألم يكن له أحد سواك أبداً؟»

بدت لحظة وكأنها لا تفهم: «كلا، بالطبع لا!»
- «إنني لأعجب كيف يمكن أن تكوني متأكِّدة كل هذا التأكّد. وأنت، ألم يكن لك أحد سواه أبداً؟»
- «كلا بالطبع لم يكن لي!»
- «جميل، أظن أن الأمر يكون معقولاً بمقدار ما تكون حياتكما جديرة بذلك.»
- «أنت ترى حقاً أننا كنا ملفوفين أحدنا في الآخر، نحن...»
- «ملفوفان! أجل! أستطيع أن أرى هذا كله.»
- «كلا، إنك لا تستطيع أن ترى الأمر كله.» وفجأة استدارت نحوي، وهي تطرف بعينيها وتسحب أصابعها على عينيها وثغرها. «إنك لا تستطيع أن ترى ذلك، ما من أحد يستطيع أن يفهم زواجاً. لقد صلّيت مراراً وتكراراً لكي أستمر في حب «بن»...»
- «هذه صورة زائفة، يا هارتلي، ألا ترين الآن أخيراً أن الموقف لا يطاق، محال؟ كفّي عن القيام بدور السيد المسيح إزاء ذلك المعذِّب، إذا كان هذا هو ما تفعلينه.»
- «إنه يتعذَّب هو أيضاً ولا يمكن أن أكون بهذه القسوة. إنها ليست غلطته، وإنما كانت غلطتي منذ البداية.»
- «إنك تملئينني إلى الحافة بهذه القصص الفظيعة، ثم تتوقّعين مني أن أتعاطف معه، لماذا أتيت إلى هنا، لماذا جئت إليّ، لماذا تقصّين عليّ هذه الأشياء على الإطلاق؟»

وبدت هارتلي وكأنها تتروَّى في الأمر، وهي ما زالت محملقة. قالت

متمهِّلة: «ربما لأن أمامي بعض الوقت، وقد علمت هذا دائماً، أن أخبر أحداً، أن أقول هذا، أن أقول هذه التجديفات، أو ما تسميه أنت فظائع، لشخص ما. وكما أخبرتك، لم يكن لديّ حقاً أي أصدقاء، لقد عشنا «بن» وأنا معاً بصورة حميمة، لا يتدخل بيننا أحد، في نوع من السرّية، نوع من الحياة في الخفاء، مثل المجرمين. لم يكن هناك من أتحدَّث إليه أبداً، حتى لو كانت بي رغبة في الحديث.»

- «إذن، فقد انتهى الأمر إلى أن أكون صديقك الوحيد!»

- «أجل، أظن أنك الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أُنْزِل به هذا العقاب...»

- «تنزلي به هذا... إنك تريدين أن أشاطرك العذاب...»

- «على كل حال، كنتَ مسؤولاً على نحو ما...»

- «عن حياتك المحطَّمة؟ مثلما كنت مسؤولة عن حياتي! إذن فهذا هو انتقامك؟ كلا، كلا، لست جاداً...»

- «لم أكن أقصد هذا، إنما أقصد أن أفكار «بن» عنك كانت مثل.. مثل شياطين في حياتنا. غير أن الأمر لم يكن مجرَّد الرغبة في أن أخبر إنساناً، أنت تعلم، عندما رأيتك في القرية أول مرة، أوشكت على الإغماء. كنت أنعطف إلى الناصية قادمة من الشاليهات، وكنت تدخل من فورك للحانة، فتخاذلت ركبتاي، فلم أجد بدّاً من الصعود قليلاً إلى التل والجلوس على الحشائش. ثم حسبت أنني أحلم، أو أنني أصبت بمسٍّ من الجنون، فلم أعد أعرف ماذا أفعل. وفي اليوم التالي سمعت شخصاً يتحدَّث عنك في المتجر، ويقول إنك تقاعدت وجئت للإقامة هنا. وتساءلت لحظة إن كان ينبغي أن أخبر «بن»، لأنه قد لا يكون قادراً على التعرّف عليك، فأنت تشبه صورك تمام الشبه، ثمّ فكَّرت في أنه سيسمع عنك حتماً على كل حال، شخص ما في فصل بناء القوارب سيعلم، ومن ثم فقد أنبأته بأنني رأيتك، فاهتاج هياجاً شديداً، وقال إننا لا بد من أن نبيع منزلنا فوراً، وأن نبتعد، وبالطبع كان يعتقد أو قال إنه يعتقد أنك

أتيت متعمِّداً من أجلي، وبالطبع كان غريباً كل الغرابة أن. . .»

ـ «ولكن، هل عرض المنزل للبيع؟»

ـ «لا أدري، ولكنه قال إنه سيقابـل وكيل المنـزل، وربما قـابله فعلاً، لم أسـأله. ولكنني أتيت هنـا الليلة حقـاً لأنني أردت أن أخـبرك عن تيتـوس، وعما يتخيَّله «بن»، وأن أطلب معونتك. . .»

ـ «معونتي! يا فتاتي الأعز، لم أنفكّ عن إخبارك بأنني كلِّي معـونة! دعينـا نذهب، دعينا نذهب، نستطيع أن نرحل إلى لندن غداً، بل الليلة إذا كان هناك قطار. . .»

ـ «كلا، كلا، كـلا، أنت ترى، أنني لا أستـطيع اتخـاذ قرار، مـا زلت أتـأرجح جيئـة وذهابـاً. ظننت أولاً أنني أستطيـع ببساطـة أن أطلب منـك الابتعاد، أن تبيع منزلك وترحل بعيـداً. لو أنـك فهمت مرة إلى أي مـدى يهمّني أنـا و«بن»، وأي درجة من الفـظاعة، ويـا له من كـابوس أن تكـون هنا، لرحلت فوراً.»

ـ «هارتلي، نحن ذاهبان، أنت وأنا ذاهبان، هذه هي الإجابة.»

ـ «رأيت أن أكتب لك خطاباً أطلب منك الرحيل، غـير أنه من العسـير أن أشرح لك هذا كله في خطاب.»

ـ «هارتلي، هل تأتين، الليلة، غداً؟ أتأتين؟»

ـ «ثم رأيت بعـد ذلـك ـ ولكن ربمـا كـان ذلـك جنـونـاً حقيقيـاً ـ أن تستـطيع أن تقنـع «بن» بطريقـة ما، أن تجعله يـرى، أنني كنت أصـارحـه بالحقيقة طوال تلك السنين، أن تؤثِّر عليه على نحو ما. .»

ـ «كيف؟»

ـ «أوه، لا أدري، أن تقسم عـلى شيء مقـدَّس، أو مـع مسجِّـل عقـود أو. . .»

هذه الكلمة «مسجِّل عقود» يبدو أنها تجمع حولها شيئاً من الجنون المطبق عـما كانت تقـوله. إذن فنحن الآن متـورِّطون مـع «مسجِّلي العقـود»! كنت

أستطيع أن أتخيَّل كيف يمكن أن أؤثِّر على «بن» تأثيراً عظيماً. وفي الوقت نفسه، في تلك الطريقة السريعة من التفكير، كنت أضع خططاً واقعية، طبعاً، ما زلت أرجو، عندما يقتضي الأمر، أن تقرِّر هارتلي البقاء معي الآن، الليلة. وأياً كان الأمر، فهناك إمكانية ألاَّ تقرِّر ذلك، وحتى لو فعلت، فقد يكون هناك تحوّل رهيب في الشعور فيما بعد. مثل هذه الأساليب التي تلجأ إلى الصدمة قد يكون ضررها أكثر من نفعها. ربما كان من الأفضل أن أتركها تتروَّى بهدوء في اجتماعها بي وأن تستخلص نتائجها الخاصة. كانت تبدو لي وكأنها ما زالت في حلم، امرأة حبيسة داخل كابوسها الخاص. ستخرج لا محالة، ولكن ينبغي أن يكون ذلك ببطء. وربما كان أمامي عمل طويل ينبغي أن أنجزه، أن أرد إليها الأمل والحياة، وأن أثير فيها غريزة الحرية التي كانت لا تزال تبدو لي طبيعية جداً بالنسبة لها. كما ينبغي عليّ في هذه الأثناء أن أجد السبل للحفاظ على الاتصال بها، ولأن أجعلها تخطّط، وتشيِّد ضروباً من المستقبل تحتويني. ومن المؤكَّد أنها ما إن تتصوَّر السعادة حتى تثب نحوها، ولكن قد يكون من الحكمة في هذه اللحظة أن نتفكَّه بفكرتها المخبولة عن «إقناعي» لـ «بن». ولو أنها طلبت مني بصراحة ووضوح أن أرحل لأصبحت مهمتي أصعب، وإن يكن من المؤكد أنها ستنجح في نهاية الأمر. لقد كانت هارتلي امرأةً عليلة.

قلت: «أعتقد أن فكرتك عن «بن» فكرة طيِّبة، وقد أكون قادراً على حل هذه المشكلة على كل حال، أن أجعله يرى ويعتقد حقيقة ما حدث أو بالأحرى ما لم يحدث في الأيام الخوالي، ويجب أن نطلب المشورة في كيفية أداء هذا العمل. ولكن، اسمعي يا هارتلي، الشيء المهم هو هذا، ستتركين «بن» وتأتين إليّ، نهائياً، وإلى الأبد...»

وفجأة ظهر الرعب على وجه هارتلي التي كانت تجلس حتى هذه اللحظة شاردة الذهن، مستغرقة في بلاغتها غير المعتادة. ألقت رأسها فجأة إلى الوراء وشرعت تتفرَّس في أرجاء الحجرة. «تشارلز، كم الساعة الآن؟»

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة. قلت: «إنها العاشرة ألا عشر دقائق.. حبيبتي، لماذا لا تمكثين هنا الآن، أرجوك؟»

ـ «لا يمكن أن يكون الوقت مبكراً على هذا النحو. سأستغرق خمساً وثلاثين دقيقة للوصول إلى المنزل، و«بن» يعود عادة حوالي الحادية عشرة.» ونهضت ثم قالت: «أشعر بأنني ثملة، أنا لم أتعوَّد على النبيذ، يجب أن أنصرف.» واستدارت، ثم قامت بانقضاض مباغت نحو يدي ونظرت في ساعتي، ثم أطلقت صيحة عويل حادة. «إنها الحادية عشرة، إنها الحادية عشرة! أوه، لماذا فعلت ذلك! لماذا صدَّقتك! ولماذا لم أحمل ساعتي! ماذا سأفعل، أوه ماذا سأفعل! بماذا أخبره! من المؤكد أنه سيعلم أين كنت! كنت شديدة الحذر، ولم أخبره بأكاذيب، والآن سيذهب به الفكر.. هذا أسوأ ما يمكن أن يكون، أوه، أنا غبية، غبية، ماذا أستطيع أن أفعل؟»

ـ «امكثي هنا، لست مُلْزمة بالرجوع!»

تأثَّرت وخجلت قليلاً عندما شاهدت حزنها وهلعها، ولكنني فكَّرت أيضاً: فلتحدث كارثة فوقها كارثة، أزمة على أزمة، فليتحطَّم كل شيء بسرعة إلى أنقاض. فهذا ينفعني. ثم فكَّرت أيضاً: إلا إذا قتلها. وأمعنت في التفكير: ينبغي أن أحتفظ بها هنا. هذا يحل المشكلة، ولا بد من إنجاز كل هذا الآن. يجب ألاَّ أدعها تذهب إلى المنزل.

ـ «لا أستطيع العودة، ولا أستطيع البقاء، سيكون من الضروري أن أخبره بأنني كنت معك، ولكن كيف أستطيع ذلك، سيكون الأمر على شاكلة تلك الليالي، أوه، سأموت، سأموت، أريد أن أموت، لماذا ينبغي عليّ أن أتعذَّب وأتعذَّب على هذا النحو. ماذا أستطيع أن أفعل، ماذا أستطيع أن أفعل؟»

ـ «هارتلي، كفِّي عن هذه الهستيريا، واعقدي عزمك على البقاء هنا.»

ـ «لا أستطيع البقاء، لا بد من أن أجري، أجري. ولكن لا جدوى من ذلك. لا بد أنه الآن في المنزل، وسينتابه القلق والغضب. لا أستطيع

أن أفعلها، لا أستطيع العودة، لماذا كنت حمقاء مأفونة، هذا شبيه بما أفعله دائماً، أجعل الأشياء أسوأ وأسوأ، كان ينبغي أن أعرف الوقت. . . »

ـ «لا تلومي نفسك، فكّري في الأمر على هذا النحو، تركت ساعتك وراءك متعمِّدة حتى ترتبطي بي، وإذا كنت قد جعلت من الرجوع أمراً مستحيلاً، فهذا أفضل!»

ـ «ما كان ينبغي أن آتي إلى هنا، وما كان ينبغي أن أخبرك بتلك الأشياء، سيعرف أنني أخبرتك، وسيرغمني على الافضاء بكل ما قلته.»

ـ «أتيت هنا لرؤية صديق قديم. ليس في هذا أي خطأ، وأنا صديقك، أنت قلت هذا، وأنا سعيد بما قلت، والأصدقاء يساعد بعضهم بعضاً. . . »

ـ «أوه، لو أني انصرفت منذ ساعة لكان كل شيء على ما يرام! ينبغي أن أركض، ينبغي أن أخرج من هنا. . . »

ـ «هارتلي، اهدئي! وإذا أصررت على الذهاب، فسأصحبك. . . »

ـ «كلا، يجب أن تتركني بمفردي، ينبغي ألا نتقابل مرة أخرى! أوه كيف، يا ليتني متّ قبل هذا!»

ـ «كفّي عن هذا العويل، لا أستطيع احتماله!»

وفي أثناء نحيبها، كانت هارتلي تجري في المطبخ جيئة وذهاباً كأنها حيوان هائج، وتتخذ خطوات قلائل مندفعة صوب الباب، ثم خطوات أخرى قلائل تعود بها إلى المائدة. وفي هياجها التقطت فوطة الشاي ودسّتها في جيبها. وكان مشهد هذا القلق المذعور قد بدأ يرعبني أنا الآخر، وشعرت الآن بالذعر. وكيما أخفّف من هلعي جريت إليها وقبضت على ذراعيها: «أوه يا حبيبتي، لا تخافي على هذا النحو، كفّي عن هذا، امكثي هنا، أنا أحبك، وسأرعاك. . . »

ثم شرعت بعد ذلك في مقاتلتي، في صمت، وعنف، وبقوة مدهشة، تركل كاحليّ، وتلتفّ بجسدها حولي، فتقرص ذراعي بإحدى يديها،

وتضغط بالأخرى ضغطاً شديداً على عنقي. واختلست لمحة إلى ثغرها الفاغر وأسنانها اللامعة التي علاها الزَّبد. حاولت أن أرفعها وأن أقبض على إحدى يديها، ثم أصبح من العناء والمشقّة أن أحاول سحق هذا الحيوان القارص الرافس وإخضاعه، فأطلقتها فجأة وتعثَّرت بطاقة قوية متقهقراً إلى الوراء، فاصطدمت بالمائدة وقلبت الشموع. وفي هذه اللحظة ولَّت هارتلي، مندفعة من المطبخ، غير متجهة إلى الباب الأمامي بل صوب الباب الخلفي إلى الحشائش مباشرة وإلى الصخور.

وكان ينبغي أن أندفع وراءها كالومض، أو ككلب وفيّ. وكان ينبغي أن أسحبها راجعاً بها ومحتفظاً بها في المنزل بالقوة. وبدلاً من ذلك أوقفتني غريزة قوية لألتقط الشموع. ثم تركتها بعد ذلك تسقط منحرفة في فناجين الشاي، وهرولت خارجاً إلى الظلمة الزرقاء والخواء الصامت الذي ران على الشاطىء الصخري. وبعد أن نظرت إلى الشموع الساطعة لم أكن أستطيع في البداية أن أرى شيئاً، واسترعى انتباهي على نحو غريب أنني بينما كنت أتحدَّث إلى هارتلي نسيت كل شيء عن البحر، ونسيت أنه موجود هناك، والآن أحسست بالاضطراب والضياع حين ألفيت نفسي نصف أعمى وسط هذه الصخور الرهيبة.

لم يكن هناك أثر لهارتلي، لا بد أنها تسلَّقت فوراً وتواثبت بخفّة فتاة في مكان ما فوق حلقة الصخور المحيطة ببرجتي الصغيرة. ناديت: «هارتلي!» وكان الصوت مرعباً، خَطِراً. أي طريق سلكت؟ لم تكن هناك طريقة سهلة للعودة إلى الشارع في أي من الاتجاهين، سواء من جانب القرية، أو من جانب البرج. ولم يكن ثمة شيء في تلك العتمة الزرقاء الشاملة سوى الصخور المطويّة المتغضنة، والبحيرات المنحدرة، والفجوات العميقة المباغتة. وقفت هناك وأرهفت سمعي، آملاً أن أسمع نداءها لي، أو أسمع صوت تعثرها.

وما كان يبدو سكوناً كشف الآن عن نفسه بوصفه خليطاً من الأصوات

الصغيرة، وإن لم يدلّني صوت منها على الطريق الذي سلكته هارتلي. كان هناك ارتطام خافت، وامتصاص للمويجات التي تلامس قدم الصخرة الصغيرة المشرفة على البحر، ثم انسحاب، وتلامس من جديد. كما تناهى إلى سمعي من بعيد ضجة سيارة على الطريق بالقرب من «فندق الغراب الأسحم». وكانت هناك همهمة تكاد لا تسمع داخل رأسي، لعلها كانت نتيجة للنبيذ الذي تجرَّعته. وهناك أيضاً صوت هسيس موقَّع يتبعه رجع صدى مكتوم يحدثه انسحاب المياه من «مرجل مين».

فكرة المرجل دفعتني الآن إلى خوف مريع آخر: أتستطيع هارتلي السباحة؟ لم أكن قد شكَّلْتُ حتى الآن فكرة أن تكون قد ركضت من المنزل مباشرة لتلقي بنفسها في البحر. كانت تصيح: «يا ليتني مت.» أتكون في تلك السنين قد فكَّرت في الانتحار، وكيف يمكن ألا تفكِّر حقًّا؟ السباح القوي لا يمكن أن يلقي بنفسه في بحر هادىء آملاً في الموت، أما لمن لا يحسن السباحة فإن البحر يمكن أن يكون صورة الموت المريح نفسه. أتستطيع العَوْم؟ لم تتعلم قط في الأيام الماضيات عندما كان البحر لكل منا حلماً بعيد المنال. لم يخطر على بالنا أن نجازف معاً في القناة السوداء، وإن كنت قد أصبحت سبَّاحاً متواضعاً في سن الرابعة عشرة، عندما ذهبت إلى ويلز بصحبة السيد ماكدوول. وفي أول حديث لنا في البانجالو قالت إن «بن» لا يستطيع السباحة، غير أنها لم تقل شيئاً عن نفسها. أتكون قد هرعت الآن مباشرة من ذراعيّ ومن خداعي إلى السلام السهل في البحر المُغْرق؟.

وكنت أثناء تفكيري هذا أتسلق الصخور صوب اليمين، في اتجاه القرية، ما دامت في ركضها نحو المنزل ستنعطف غريزياً في هذا الاتجاه. وكان طريق البرج هو أسهل طريقة للعودة إلى الشارع، نظراً لوجود أخدود عميق بين الشارع والصخور من ناحية القرية. هذا الأخدود لم يكن شاقاً في العبور أثناء النهار، ولكنه شديد الخطورة في الظلام. وربما كانت هارتلي

لا تعرف ذلك على كل حـال. تسلَّقتُ وزحفت، منادياً مرة أخـرى وقادراً علـى مزيـد قليل من الـرؤية في العتمـة الآخذة في الانتشـار. كانت نجمـة المساء حاضرة، وربمـا كانت هنـاك نجوم أخـرى، وقمر شـاحب البياض. فكَّـرت وصليت: دعها تسقط وتلوي كـاحلها، وسـأحملها عـائـداً بهـا إلى المنزل، ، وأحتفظ بها، ودع ذلك الشيطان يفعل ما يشاء.

كان من العسير تمـاماً السـير بخطوات منتـظمة فـوق الصخور، إذ كـانت مستعصية على التنبؤ خالية من كل تعقُّل. وافتقـارها إلى المعنى لم يؤثـر كثيراً في نفسي من قبل. وأصررت على محاولة الاقتراب من حافة البحر، غـير أن الصخور ثابرت على هزيمتي لا عن اهتمام خبيث، ولكن بـالتخبط البحت، وظللت أنزلق هابطاً من المنحدرات في البرك البحريـة المعشوشبـة ومواجهـاً لشقوق سود، وفجوات وسطوح ملساء لا سبيل إلى تسلقها. وكان حـدسي يهديني إلى ضوء ينتشر فوق البحر، وأردت أن أكون قادراً على النظر إلى هناك لأكون على يقين من أنه لا يوجد في مكـان ما رأس أسود لامرأة غـارقة، وذراعاها اليـائستان تعبثـان في السطح السـاكن. تأوهت تـأوهاً خفيفـاً وأنا أتشبث بالصخور تارة، وأنزلق تارة أخرى، وأنـا أهلِّل (أهتف) باسمهـا من حين إلى آخر كنعيب البومة، وأخيراً ألفيت نفسي على غـير توقـع فوق قبـة ملسـاء لصخرة طـويلة تطـلّ عـلى الماء مبـاشرة. وقفت على أعـلى نقطة في القبـة ونظرت إلى البحـر. لم يكن ثمة شيء عـلى الامتـداد المضيء المتغضن سوى نسخ صفـراء متماوجـة من نجمة المسـاء والقمر الحـاني الخفيض. وما برحت السماء مصطبغة بالأزرق المعتم المتوهج دون أن تنغمس بعد في زرقة الليل المائلة إلى السواد. ولم تكن تلوح سوى نجمة المساء. استـدرت لأنظر إلى اليابسة. بـدأت أشعر الآن بـالهواء الـدافىء، والصخور الـدافئة، بعـد تلك البرودة القارصة الغريبة التي انتشرت في منزلي. انبسطت الصخور إلى مسافات بعيدة، مرئية أشبه بكتل لا لون لهـا فوق فجـوات سود. ووراءهـا امتد الطريق، وتناثرت أضواء القريـة البعيدة، ومـزرعة آمـورن. . صحت

الآن بأعلى صوتي: «هارتلي! هارتلي! نادي عليّ وسآتي إليك.» نادي وسآتي: كان ذلك هو الموقف حقاً ـ ولكن، ما من مجيب، ما خلا الصمت الذي صنعته أصوات صغيرة..

تحيّرت فيما أفعله بعد ذلك. هل تمكنت هارتلي من عبور الأخدود لتصل إلى الطريق؟ من المحتمل أنها تعرف هذه الصخور أفضل من معرفتي بها. ومن الممكن أنها اعتادت على أن تأتي هي و«بن» في نزهات إلى هذا المكان. من الحق أن للزواج أماكن سرية. تُرى ما شكل تلك الأماكن هناك، وهل كانت اندفاعات هارتلي أحلام يقظة مغالية لامرأة هستيرية؟ ماذا كان «بن» يعتقد حقًّا؟ قررت العودة إلى الطريق، والرجوع صوب البرج. استغرق ذلك مني خمس دقائق من التخبط الحذر لعبور الأخدود، ثم أخذت أعدو منادياً حتى اجتزت المنزل وبلغت منعطف الطريق الذي أستطيع منه رؤية أضواء «فندق الغراب الأسحم». لا شيء، لا أحد. والآن، كانت الظلمة سائدة حقاً، ولم يعد من المجدي تسلق الصخور أكثر من ذلك. هل وصلت هارتلي الآن إلى منزلها، أم كانت ترقد فاقدة للوعي في شق من تلك الشقوق المظلمة في الصخور.. أم ترى الموقف أسوأ من ذلك؟ ماذا أنا فاعل بعد هذا؟ شيء وحيد كان من الواضح أنني لا أستطيع أن أفعله، هو أن ارتد إلى «شراف إند»، وأطفىء الشموع، وآوي إلى الفراش.

كان من الجلي الآن أن عليّ التوجه إلى النيبليتس إما لكي أؤكد لنفسي باستراق السمع أن هارتلي قد عادت، وإما.. ولم أكن متأكداً من البديل، ماذا يمكن أن يكون. فشرعت أسير بخطى سريعة عائداً صوب القرية. وأدركت أنني ما زلت أرتدي الجرسي الإيرلندي، إذ أحسست الآن بالسخونة، فخلعت الجرسي ووضعته خلف علامة الطريق التي نُقش عليها «نيرودين»، واستأنفت السير، ركضاً تقريباً، بعد أن دسست قميصي في السروال. وكنت قد اعتزمت في البداية أن أمشي في الطريق الأطول الأكثر أمناً الذي يلتف حول الميناء صاعداً بجوار الغابة، مقترباً من المنزل

بالطريق الخلفي، غير أن قلقي كان قد بلغ حدَّه الأقصى، فأخذت الطريق المعتاد المتعامد نحو القرية. وكانت هناك في الشارع ثلاثة مصابيح صفراء تلقي بأضوائها على مشهد خال، وأنا أعدو متجاوزاً المتجر المظلم الصامت، وتحت العلامة المعلقة لحانة «الأسد الأسود» التي كانت مغلقة هي أيضاً. والنوافذ المضاءة كانت قليلة، لأن القرويين يبكرون في الذهاب إلى سُرُرِهم، وكان وقع خطواتي المسرعة يردِّد صوت اللهفة والخوف. بلغت الكنيسة، وانعطفت لاهثاً للصعود إلى التل، لم تكن ثمة أضواء هنا، والطريق يمتد مظلماً تحت ظل الغابة المعلَّقة وراء التل. خفَّفت من سرعتي وأدركت أنني وصلت تقريباً إلى هدفي. هذه أنوار النيبليتس، وباب البانجلو مفتوح على مصراعيه، وهناك، منتصباً على البوابة ناظراً إلى أسفل الطريق، نحوي، كان «بن».

فات أوان الاختفاء، وعلى أي حال، لم تراودني الآن أية رغبة لأفعل ذلك. إذ يبدو أن ما يتسم به الاختفاء من صَغَار لم يكن وارداً، وكان ـ كما رجوت الآن بغتة ـ شيئاً ينتمي إلى الماضي على كل حال. هرعت صوب بن الذي برز من البوابة لينظر إليّ. لعله اعتقد ـ في الظلام ـ أن القادم قد يكون زوجته.

ـ «هل عادت هارتلي؟».

حملق «بن» في وجهي. يا للحماقة! إنه يناديها باسم ماري، ومن المحتمل أنه لم يسمع قط اسمها الحقيقي.

ـ «قلت، هل عادت ماري؟.»

ـ «كلا، أين هي؟».

أظهر الضوء المنبعث من النافذة الأمامية ومن الباب المفتوح ـ أظهر رأس بن الصبياني الصغير الحليق، واللون الأزرق للسترة العسكرية الطراز المصنوعة من نسيج قطني أزرق التي كان يرتديها. كان القلق مرتسماً على وجهه الشاب، وفي لحظة رأيته ـ لا بوصفه «شيطان» قصص هارتلي

المريعة، وإنما بوصفه زوجاً شاباً يساوره القلق ويتساءل إن كانت زوجته قد تعرضت لحادثة.

- «إلتقيت بها في القرية ورجوتها أن تعود لكأس من الشراب، ولكنها لم تمكث سوى هنيهة قصيرة ثم قالت أنها ستسلك طريقاً مختصراً إلى البيت عبر الصخور. وبعد أن رحلت ساءلت نفسي فجأة أتراها وقعت والتوى رسغ قدمها.» وبدت قصتي متهافتة زائفة.

- «طريقاً مختصراً عبر الصخور؟».

كاد أن يكون هذا تصوراً خالياً من المعنى، غير أن «بن» كان على درجة تمنعه من تحدِّيه أو حتى استعراض عداوته. «تقصد الصخور القريبة من منزلك؟ من الممكن أن تسقط هناك. من الأفضل أن نذهب ونرى، أو... سأذهب لإحضار بطارية...».

وما إن دخل المنزل حتى انصرفت عن النافذة وعن الممر المضيء ونظرت بعيداً إلى أسفل الطريق. وبعد لحظة لمحت شخصاً قاتماً. كانت هارتلي قادمة على مهل صاعدة التل في اتجاهي..

انثال عليّ عدد كبير من الأفكار الفورية، فكرة منها أنه كان جنوناً مني أن آتي إلى هنا فأحطّم الآن أي عذر كاذب اخترعته هارتلي لغيابها. وفكَّرت أيضاً أن أحذِّرها فوراً بأنني أخبرت «بن» بزيارتها - كما فكَّرت أيضاً أنه ينبغي علي أن أبقى الآن معها بطريقة ما حتى أحميها في مواجهته. غير أنني فكَّرت أيضاً في شيء من القلق بأن هذا محال. وفكرت أيضاً، حسناً، لماذا لا أجري ببساطة هابطاً التل، قابضاً عليها بيدي، وأجرُّها معي، أجري مبتعداً، إلى أي مكان، عبر القرية، إلى الحقول؟ لنقضي الليلة في مزرعة آمورن، ولنذهب إلى لندن بالقطار غداً. أو نحصل على توصيلة في سيارة نقل متجهة إلى أي مكان: مانشستر، يورك، بريستول، كارديف، جلاسجو، كارلايل. وبدا هذا مستحيلاً أيضاً لأسباب لم يكن في وسعي أن أوضحها تماماً. (لم يكن معي نقود، «بن» يمكن أن يتبعنا، قد تخشى

هي الذهاب، وهلم جرا. .) وفكرت أيضاً، فليتصادم كل شيء، فليدخلا معاً في أفظع مشاجرة وأشدها ضراوة نشبت بينهما على الإطلاق. لقد هربت إليَّ مرة. وستهرب إليّ مرة أخرى .وما عليّ إلا أن أنتظر.

في الفترة التي انثالت عليّ هذه الخواطر وهي حوالي أربع ثوانٍ، كنت قد هبطت من التل راكضاً بأقصى سرعتي والتقيت بهارتلي. لم ألمسها، بل قلت بسرعة شديدة وبوضوح وصوت منخفض، «أنا آسف، ساورني القلق، أخبرته بأننا التقينا مصادفة في القرية ودعوتك إلى كأس من الشراب، ثم شرعتِ في العودة إلى المنزل فوق الصخور، لا أستطيع أن أبقى الآن، ولكن تعالي إليّ عاجلاً. تعالي حالاً وإلى الأبد، لا ينبغي أن تستمري في حياتك هنا. سأنتظرك كل يوم. .

لم أكن أستطيع رؤية وجه هارتلي، غير أن شكلها كله كان يعبِّر لا عن الخوف، وإنما عن تعاسة واهنة مستسلمة كاملة تجاوزت إلى ما وراء الخوف. كانت أشبه بإنسانة غطست في الماء، وكأنها غرقت حقًّا وهذا شبحها.

والآن، كان بن قد عاد إلى البوابة، فناد.ـه: «إنها هنا!» ومشيت أنا وهارتلي للقائه.

خرج «بن» إلى الرصيف، وفيما كنا نقترب قال: «حسناً، إذن. حسناً، عمت مساءً». ثم استدار وعاد إلى المنزل، دون أن ينتظر ليرى إن كانت هارتلي تتبعه، أما أنا فاحتفظت بالباب مفتوحاً. فاجتازتني برأسها الغارق المتقاطر الأعشى.

استبد بي دافع إلى متابعتها، والاندفاع في أثرها داخل المنزل، والجلوس، وإجراء حوار، وطلب القهوة. غير أن ذلك كان محالاً، ولن يزيد الأمور إلا سوءاً بالنسبة لها. كل شيء ضلَّ سبيله. وانخبط الباب.

لم أجد لدي الآن رغبة في استراق السمع، والحق أن فضولي كله

فـارقني، وبقـوة ازورّ عقـلي في فـزع عــمّا في داخـل ذلــك المنـزل، ومــا في باطن ذلك الزواج. أحسست بالتقزز من نفسي، ومنه، بل ومنها.

اتجهت صوب البيت، دون إسراع أو إبطاء. وتذكرت استعـادة الجيرسي الذي كان الندى قد بلله الآن. وجـدت المنزل متلفعـاً بالـظلام، والشموع قد سقطت مرة أخرى وأحرقت نفسها على سطح المائدة الخشبي، فأحدثت حروقاً طويلة داكنة بقيت عـلى حالهـا منذ ذلـك الحين لتـذكّرني بتلك الليلة الرهيبة..

(٤)

ما تبع ذلـك، وما سبقـه مباشرة، كُتب في تـاريخ متـأخّر كثيـراً. ومن ثمّ فإن ما كتبته الآن قد خضع لتفكير أكثر تعمقاً ولتـذكُّر أكـثر انتظامـاً مما قـد يكـون إذا واصلت كتابـة يوميـات. فالحـوادث ـ كما وقعت ـ لا تتيـح لي بالتالي وقتاً طويلاً لكتـابة اليـوميات، وإن كان مـا أعقب ذلك مبـاشرة له طابع التمهيد (ولعله طابع هزلي). وهذه المذكرات الروائية ـ كما أصبحت الآن ـ هي على كـل حـال، فيمـا يتعلق بـوقائعهـا (ولكن ما هي حقّـاً هذه الوقائع؟ كما يمكن أن يقـول جيمس) دقيقة وصـادقة. فلديَّ بـوجه خـاص ذاكرة جيدة إلى أقصى حد للحوار، وربما كانت هذه صفة مهنيـة، وأنا عـلى يقين أن تسجيلاً على شريط للمحادثـة التي جرت عـلى ضوء الشمـوع بيني وبـين هارتـلي لن تختلف إلا قليلاً عـما سجلته. روايتي مختصرة، ولكنهـا لا تحذف شيئاً جوهرياً، وتحكي بأمـانة الكلمات الفعليـة التي قيلت. وما أكـثر المحادثات ـ الماضية والمستقبلية المسجّلة في هذا الكتاب ـ التي انطبعت بعمق في عقلي وقلبي!.

بعد رجوعي في ذلك المساء الذي وصفته، كان لدي ما يكفيني، فأويت إلى الفـراش لأنام. (لم آكـل الأسماك الكـوريـة، وقـد رميتهـا فيـما بعـد.) واستيقظت بعد التاسعة صباح اليوم التالي. وكانت السماء ممطرة. ويبدو أن الطقس الإنجليزي قد اتخذ مشهـداً آخر من مشـاهد تحـولاته. كـان البحر

مكسواً بضوء رمادي صاف مصحوب بستار سميك من المطر. وكان المطر معروضاً في الضوء وكأنه شواية مضيئة، وكأن كل قطرة من قطرات المطر ظاهرة بصورة منفصلة مثل حبات الخرز في ستار منزلي. كانت معلقة هناك، تهتز بخفوت في الهواء الرمادي اللامع، بينما كان المنزل يطن كآلة تدق بصوت منتظم. نهضت وأخذت أترنح داخل المطبخ لأصنع لنفسي كوباً من الشاي، وقد أطرقت برأسي كحيوان حرون في مواجهة أي طارىء من طوارىء الفكر. لم أسأل نفسي عن شيء مما حدث في النيبليتس بعد انصرافي. كل ذلك سرعان ما يتحول إلى تاريخ ماضٍ. وبينما كنت أجلس في الحجرة الصغيرة الحمراء، وما برح رأسي مطرقاً في عناد في مواجهة نور الصباح المطير، تبينت أنني ربما أنجزت شيئاً بأن ألقيت الموقف كله في منطقة الأزمة. والحق أنني لست في حاجة إلى أن أفعل شيئاً في الوقت الحاضر سوى أن أنتظر. من المؤكد أنها ستأتي. وإذا... لم تفعل ذلك... كانت هناك خطط أخرى أضعها فعلاً. لن أكون مفتقراً إلى الحيل. سأنتظر. وبهذا استقر بي الحال في نوع غريب غير مريح من السلام.

بعد ذلك بقليل، أعني بعد يوم أو يومين في حالة «التعلّق» (أو التأجيل) التي كنت فيها، أعلن جيلبرت أوبيان ظهوره كطيف متوقع نصف توقع. فلماذا لم أندهش حقًا عندما كشفت رنَّة حيية قصيرة من جرس الباب في منتصف الصباح عن جيلبرت مبتسماً ابتسامة عصبية، ووراءه عند نهاية الممر سيارته الصفراء؟ ومن الغريب أنني كنت قد وضعت نوعاً من الخطة يضم شخصاً مثل جيلبرت، ومن المؤكد أنه سيقوم بهذا الدور. القدر يتعاون هذه المرة.

- «ليزي؟.»
- «كلا.». أحسن. ما زالت السماء ممطرة..

رسمت على وجهي قناعاً ينم عن الدهشة والضيق.

- «ما خطبك إذن؟»

ـ «هل أستطيع الدخول، يا مَلِك الظلال؟ المطر يسيل إلى أسفل عنقي.».

تقدمته عائداً إلى المطبخ حيث كنت أتناول بسكويت الشوكولاتة الهضمي، وأشرب الأوڤالتين. ومن سمات حالة الانتقال التي كنت فيها، أنني كنت أتناول ابتداء من الساعة العاشرة والنصف فصاعداً، وجبات منتظمة وأخرى خفيفة طوال اليوم ـ وكانت هناك نار خشبية متوهجة في الحجرة الصغيرة الحمراء، وقد ظهرت تركيباتها الحيوية المتحركة متألقة من خلال الباب المفتوح بحيث ألقت وهجاً خفَّاقاً في المطبخ الذي أسدل عليه المطر ستائره.

وكانت قطرات من الماء تتساقط من جيلبرت.

ـ «ماذا وراءك؟»

ـ «يا عزيزي، ليزي هجرتني.»

ـ «ثم؟»

ـ «ثم اعتزمت المجيء إلى هنا، أحسست بدافع مُلِحّ إلى هذا. أردت أن أخبرك بحكاية ليزي، شعرت أن هذا ما ينبغي أن أفعله على نحو ما، إنها مريضة، كما تعلم ـ أعني في عقلها. لقد عادت مرة أخرى إلى حبِّك بجنون، إنه المرض القديم، وكنت أخشى أن يعود. ومن أعراضه أنها لا تستطيع احتمالي. على كل حال، أظن أن تعايشنا معاً كان ضرباً من المعجزة المزعزعة. وأياً كان الأمر فقد انتهى الآن كل شيء، قصيدتنا المنزلية انتهت، منزلنا الصغير تحطم. أصابني انفجار. أما هي فقد ولَّت، ولا أدري أين هي الآن.».

ـ «إنها ليست هنا، إذا كان هذا هو ما تتخيَّله.»

ـ «أوه، أنا لا أتخيل ذلك...»

ـ «أظن أنك تفكِّر في أنها غلطتي، أهذا ما جئت لتقوله؟»

ـ «كلا، كلا، أنا لا أتهم أحداً. إنه القدر، أو لعله الله، أو أنا نفسي.

معركة الحياة وكيف نخوضها. وكل من يلزمني بشيء يرتكب خطأً جسيماً. الآن، لقد ذهبت، ويبدو مجافياً للتصديق أنها استطاعت أن ترعاني وأن تنشيء هذا المنزل معي، لقد اخترنا الأشياء معاً مثل أناس حقيقيين. كلا، كل ما فكرت فيه هو أن آتي إليك. كنتَ دائماً مغناطيسياً بالنسبة لي، والآن وقد أدركتني الشيخوخة لا أعبأ بما يفكر فيه الناس، وإلى أي مدى يزجرونني، فالأمر جدير دائماً بالمحاولة، كنت أتمنى فحسب أن أكون أكثر تقدماً في شبابي، وأنت تعلم مشاعري نحوك، فليكن، أنت تمقت هذه المواقف، وتحتقرها، إنها تثير اشمئزازك، وإن يكن المرء محظوظاً بالفعل إذا أحبه أي شخص آخر، وينبغي أن يكون ممتناً بذلك، على كل حال، بما أنني عاطل في الوقت الحاضر، فكرت أن أحضر وأن أراك، وربما سمحت لي أن أبقى فترة ما وأن أكون مفيداً، إذ إنني لا أطيق أن أمكث في البيت وحدي بدونها بينما يذكّرني كل شيء...»

- «مفيد؟».

- «نعم، فأنا أستطيع أن أطهو وأن أقوم بالتنظيف، وأداء بعض الأعمال العجيبة، ولِمَ لا؟ أحسست دائماً بأنه لا بد لي من الانتماء إلى شخص ما، أعني على نحو قانوني حقيقي، نوع من الملكية، مجرد قطعة من الأثاث، دون أن أكون شيئاً متعباً، أي بلا حقوق، هذا ما أعنيه. وكثيراً ما فكَّرت أن لي روح عبد. لعلي كنت عبداً منزلياً روسيًّا في خلال نوع من التناسخ السابق، بل أحب أن أفكر في أنني كنت كذلك، شاعراً بالدفء والحماية ولا أقوم إلا بمهام بسيطة، مثل أن ألثم كتف سيدي، وأنام فوق الجرن...».

- «أتريد أن تكون عبدي المنزلي؟».

- «أجل، أرجوك، أيها المحافظ. سأعيش في ذلك الكوخ الذي يعيش فيه الكلب، إذا أردت.».

- «فليكن، قد عينتك.»

وهكذا بدأت مرحلة شاذة صغيرة من حياتي أستعيدها ـ وهذا هو

الشيء الغريب حقاً ـ بنوع من الحنين الحزين، ولعل هذا راجع ببساطة إلى أنها كانت الهدوء المميت الذي يسبق عاصفة عاتية. بل أصبحت أقرب إلى الإعجاب بجيلبرت في دوْر العبد. وعلى الرغم من أن عبوديته في الماضي قد كبتت نظرتي، إلا أن ولاءه لي أثبت أن له بعض الأفكار السليمة. وكان مفيداً حتى في تلك المرحلة، وصار فيها بعد شخصاً أساسياً. وارتفع مستوى معيشتي، وكان جيلبرت يقوم بتنظيف المنزل، بل كان يزيل البقع من الحمّام، وتركته يطهو بأسلوب كان توفيقاً بين أسلوبه وأسلوبي. غير أنني لم أستطع رفعه إلى مستواي من البساطة، وقد يكون في هذه المحاولة شيء من القسوة. إذ كان السردين المشوي على شرائح الخبز والموز والكريم هي الفكرة التي يتصوَّرها عن الغذاء الجيِّد، كما لم أكن أميل أنا أيضاً إلى العلكّ الغاليّ Gallic (نسبة إلى بلاد الغال) الدسم الكثيف أكثر من اللازم. وكنا نأكل السلاطة الخضراء الشهية الممتازة والبطاطس الجديد، وهذا طبق من أطباقي المفضَّلة (أحضر المتجر مقادير من الخس وحبَّات البطاطس الصغيرة.) وسمحت له أيضاً بإعداد أنواع الحساء النباتية والطواجن، كما علَّمته صنع فطائر الفاكهة على الطريقة اليابانية، واستطاع من فوره أن يتفوَّق عليّ في هذا المجال. كما سمحت له أيضاً بإعداد أصناف الكعك. وكان يقوم بالتسوّق من أجلي في القرية، ويبحث عن النبيذ الاسباني في فندق الغراب الأسحم، حيث كان يرفِّه عن نفسه بادعاء أنه كبير الخدم في منزلي. وكان ينام ليلاً على الأريكة الضخمة المحطَّمة في الحجرة المتوسطة من الطابق الأرضي وسط الأخشاب. وكانت الأريكة رطبة، غير أنني سمحت له باستخدام زجاجة الماء الساخن.

كنت أعوم يومياً، تارة في الشمس، وتارة أخرى في المطر، وبدأت أشعر بأنني منقوع في البحر وكأنه يتخلّل مسام جلدي. فإذا أشرقت الشمس قضيت وقتي في الخارج على الصخور، على حين كان جيلبرت يقوم بمراقبة الباب الخارجي ويخرج لإحضار الخطابات، غير أن أحداً لم يسأل عني، كما

أن هارتلي لم تكتب إليّ. وهكـذا عدت إلى مهمتي المسيطرة عليّ وهي جمع الأحجـار، فكنت ألتقـطهـا من الشقـوق التي غسلهـا المـد ومن البحـيرات الصخـرية، وأحملهـا عائـداً إلى مرجتي، حيث كـان جيلبرت يسـاعـدني في وضعها وتنسيقها حول حوافي الحشائش. وكانت هذه الصخور ذات النسيج المتـلاحم، والزينـة المتباينـة، والمتفـرِّدة البـديعـة ـ إلى أقصى حـد ـ تجلب السرور إلى نفسي، وكـأنها قبيلة صغـيرة لا تلحق أذى بـأحـد وقـد قمت باكتشافها. وكان بعضها جميلاً بدرجة تفوق صنعة أي فنان: رماديـة فاتحـة بخطوط حمراء رفيعة، سوداء بصلبان بيضاء دقيقة الصنع، بنيـة تتناثـر فيها أشكال بيضاوية أرجوانية، وتتخلَّلها نقط وبقع وخطوط، وانبعجت أشكالها الملساء البديعة وتجعَّدت بفعل البحر آلافاً من السنين. وتتزايد أعدادها التي وجـدت الآن طريقهـا داخل المنـزل، لكي ترقـد على المـائدة المصنـوعة من خشب الورد، أو على إفريز نافذة حجرة نومي.

كان جيلبرت يحب أن يجمع الصخور أيضاً وأن يقطف الأزهار، غـير أنه ما إن يجازف باقتحام الصخور بحذائه اللندني الـذي صُنع نعـلاه من الجلد حتى يسقط فـوراً. وقد ابتـاع بعض النعال المـطاطيـة من مخـازن الصيـاد، ولكنه ما زال يتعثَّر. وبالطبع، لم يجازف بتاتاً باقتحام البحر. ومهما يكن من أمـر فقد كان ينشر الأخشاب ويحملها إلى المنزل. وكان هذا النشـاط الذي كان يشعر بأنه رمزي على نحو ما، يمنحه كثيراً من الرضا. وكـان يستمر في انشغاله طوال اليوم بأنشطة من الخدمة يخترعها لنفسه. فكان يغسـل ستـار الخـرز بالقيم، فيجعله يـبرق، بعد أن يـزيل السـطح القـذر اللزج الـذي اعتـدت عليه. وهكـذا عشنا معـاً فترة قصـيرة، يستغرق فيهـا كـل منـا في أوهامه الخاصة، وارتددنا معاً إلى حياة من البساطة البدائية ومن الـوسواس الشخصي الذي يكاد يكون فِتْشيا Fetishistic.

عندما سئمت من اصـطياد الأحجـار، اعتدت أن أجلس فـترات طويلة على الجسر الصخري المقوَّس حيث كان المـد الغاضب يتسـابق تحته داخـلاً

وخارجاً من «مرجل مين» فيرتطم بقدميّ العاريتين فوق الحافة فيتيح لهما الاستحمام في رشاش قوس قزح المتطاير. وكانت مراقبة الأمواج تمنحني متعة قَدَرية حزينة، وهي تتدافع داخل تلك الثغرة الغائرة المستسرة الملساء المستديرة، وتحطِّم نفسها في ثورة عارمة من تلاطم الأمواج وغليان الزبد الغاضب. وعندما يرتد المد يتحوَّل المرجل إلى دوَّامة ثائرة تمتص الأشياء هي أيضاً على حين تمخض المياه نفسها في رغوة دوَّارة تسعى في تعجلها اليائس إلى الهرب من خلال المنفذ الضيِّق الموجود تحت القوس عندما تلتقي رأساً بقوة ريح البحر الضاربة بالسياط. وكانت الرياح تهبّ باستمرار خلال تلك الأيام، وعندما تكون الأمواج قوية كانت تلطم الصخور وتئنّ وتمتص الفجوات داخلةً خارجةً بضجة بدأت أجدها مرهقة في حالتي تلك من التوتر العنيف. ولم أكن أتخيَّل أبداً أنني سوف أبغض يوماً ما صوت البحر، غير أنه كان في بعض الأحيان، وبخاصة أثناء الليل، عبئاً على الروح.

وفي الأمسيات، كنت أجلس بجوار النار الخشبية في الحجرة الصغيرة الحمراء. وأحياناً كان جيلبرت يجلس في المطبخ، مستمتعاً بكونه خادماً. (وأظن أنه كان يحب أن يرتدي ثياب وصيفة منزلية، غير أنه كان على حق حين افترض أن هذا لن يسرّني.) وأحياناً أخرى كان يجلس معي، صامتاً كالكلب، محملقاً فيّ وهو يقلِّب عينيه فيما حواليه بتلك الطريقة الحائرة. وفي بعض الأحيان كنا نتحدَّث قليلاً. ومن حين إلى آخر كان يأتي - في ضوء المصباح - لينظر بطريقة غريبة مثل ولفرد دانتج، وهو تشابه خلقه بالطبع اكتساب جيلبرت اللاشعوري للحركات الوجهية لبطله. غير أن هذا كان يبدو لأعصابي المتنبّهة الهشّة شيئاً أكثر من ذلك، شيئاً أشبه برؤية حقيقية. ولو كان الأمر كذلك لكان لجيلبرت الفضل في أن يكون أداةً لهذه الرؤية. كنا نتحدَّث عن الماضي، عن ولفريد وكليمنت والأيام الخوالي. ماضٍ مشترك، هذا شيء ليس هيِّناً. وكنت أفكِّر في كليمنت. ولو كانت هناك عدالة لكانت كليمنت هي التي هيمنت على حياتي وصنعتني، وهي التي

ينبغي أن يكتب عنها هذا الكتاب. ولكن لا وجود للعدالة في مثل هذه المسائل، أو بالأحرى العدالة قاسية.

- «تشارلز، عزيزي.»

- «نعم.»

- «لا يضيرك أن أسأل؟ هل أحببت كليمنت حقاً، أم أن المسألة كانت هي أن كليمنت أحبّتك؟ كثيراً ما تساءل الناس.»

- «طبعاً أحببت كليمنت.»

الواقع أنني انتهيت إلى أن أحبها. هل أحببتها منذ البداية؟ لقد أحببت جمالها، شهرتها، موهبتها، تملّقها، مساعدتها. أكنت وجدت هارتلي لولا أنني أصبحت مِلْكاً لكليمنت؟ كانت كليمنت مهيمنة فوق الأعوام، كانت هي الشيء الوحيد الدائم، لا يزيله إلا الموت. كنت فتاها العاشق، إبداعها، شريكها في العمل، أقرب شخص إلى أن يكون لها زوجاً، وأخيراً ابنها الذي بلغ منتصف العمر دون أن ينفصل عنها أبداً. إن التحوّل الذي طرأ على حبي لكليمنت، والأشكال المتعدِّدة التي اتخذها، كان واحداً من مهام حياتي الرئيسية وإنجازاتها: ذلك الحب الذي أوشك أحياناً كثيرة على الإخفاق، ولكنه لم يخفق تماماً أبداً. أمن الممكن أن أجلس بجانب المدفأة مع هارتلي لأروي لها حكاية كليمنت؟ أمن الممكن أن تفهم، هل تود أن تعرف؟ ما أهم أن يواصل المرء حياته بتفسير نفسه للناس، بتبرير نفسه، باستخلاص العبرة الأخلاقية من غرامياته!

- «تشارلز.»

- «نعم.»

- «سمعت اليوم شيئاً مضحكاً في الحانة.»

- «أوه.»

- «ذلك السائق الذي كان يعمل عندك، فريدي آركرايت، إنه شقيق صاحب الحانة، سيأتي للإقامة في ويتسون Whitsun.»

ـ «أوه.» الخزي، الذنب، ذيل شيطان آخر.

ـ «شيء مضحك، أليس كذلك، تلك الطريقة التي يعود بها الناس إلى حياة المرء.»

ـ «أجل.»

ـ «تشارلز، عزيزي...»

ـ «نعم.»

ـ «لو عشت مع ليزي لكنت كبير الخدم. أتريد كأساً من الشراب؟»

ـ «كلا، شكراً.»

ـ «أيضيرك أن أفعل ذلك؟ أتمنّى لو أقلعتُ عن الشرب، إنه رمز على الانحراف، دليل على عبودية المرء. الوقوع في الحب، هذه عبودية أخرى. شيء غبي لو أمعنت النظر فيه، جنون حقيقي. تجعل من شخص آخر إلهاً. هذا لا يمكن أن يكون حقّاً. حمداً لله على أنني لم أقع في هذا الفخ. الحب الحقيقي حر وعاقل. التسلط والرومانس، أيستطيع المرء أن يكتسب النضج منهما؟ اعتدنا ليزي وأنا أن نتحدَّث في هذا الموضوع. الحب الحقيقي أشبه بالزواج عندما يولّي البريق. أو الحب عندما تنحدر إلى الشيخوخة، مثل الحب الذي أشعر به نحوك، يا عزيزي، ولكنك لا تريد أن تعرف. من الخير أن يشعر المرء كم هو مختلف عن الاشتهاء القديم. ليس معنى ذلك بالضبط أنني لا أريد شيئاً لنفسي، وإنما أريد سلوك هذا السبيل. الحب. يا إلهي، ما أكثر المرات التي نطقنا فيها هذه العبارة في المسرح، وما أقل المرات التي فكَّرنا فيها بهذه العبارة!»

ـ «سيأتي فريدي للبقاء في الحانة؟»

ـ «كلا، وإنما في مزرعة آمورن، هذا هو المكان الذي يقيم فيه آركرايت الآخر. يا له من فتى ظريف. أكنت تعلم أنه شاذ؟»

ـ «كلا.»

ـ «يا إلهي، كان الأمر أشبه بالجحيم عندما كنت شاذاً في شبابي.»

وبالطبع كنت طيلة الوقت ـ سواء كنت أتحدَّث إلى جيلبرت، أو أتذكَّر

كليمنت، أو أراقب الأمواج وهي تدمِّر نفسها في المرجل ـ كنت أفكِّر في هارتلي وأنتظرها، وأتساءل كيف ستنهار أعصابي عاجلاً. كنت قد قرَّرت فعلاً، في خطوط عريضة، التحرّك التالي الذي سأتخذه إذا لم تتخذ هي أي تحرّك، غير أنني كنت متردِّداً ـ في شيء من التطيّر ـ فيما يتعلَّق بوضع خطط مفصَّلة قبل أن أشعر بأن الوقت قد حان لتغيير العالم بالقوة. كنت دائم الشعور بهارتلي، وكأنني أشعر بحضورها الحقيقي، وكانت معي كما اعتاد السيد المسيح أن يكون معي وأنا طفل. وكنت أفكِّر فيها تفكيراً مكثَّفاً، وكان ذلك بنوع من التطيّر أيضاً، وفي شيء من التعمد، على نحوٍ مجرَّد يسوده الاحترام. تركت الذكريات من الماضي البعيد تأتي وتروح كما تشاء. ولكن فيما يتعلَّق بالحاضر الرهيب وبالهوة الخاصة بِسِني العذاب هاتيك، كان خيالي موسوساً مفرطاً في الاحتشام. لم أكن أريد أن تتسلَّط عليّ تعاستها فحسب. كما لم أكن أريد أن أبدِّد طاقتي في كراهية ذلك الرجل. فسرعان ما يصبح هذا كله خارج الموضوع. وهكذا ارتددت إلى الماضي حيث كانت بؤرة حبي البريء التي لم يدنِّسها شيء، ناظراً إليها كما كانت عندما تمثَّل فيها مستقبلي، وحياتي كلها، تلك الحياة التي سُلِبت مني، وإن تكن تبدو موجودة في مكان ما كإمكانية مسلوبة.

ومهما يكن من أمر، وقبل أن يتاح لي الوقت لكي أقرِّر التحرّك فيما يتعلَّق بانتظاري وصمتها، حدث شيء غير متوقَّع تماماً، وخارج على كل مألوف.

ربما أكون قد وصفت الفترة الغريبة التي قضيتها على انفراد تماماً مع جيلبرت وكأنها استغرقت أسابيع، والواقع أنها لم تستغرق سوى أيام. وفي آخر تلك الأيام، في اليوم الذي وقعت فيه بغتة نهاية هذا الانفراد، أحسست في صباح ذلك اليوم بحالة استثنائية من عدم الاستقرار. تحاشيت جيلبرت، وذهبت إلىء الصخور معلِّقاً نظارات الميدان حول عنقي، معتزماً النظر إلى الطيور، وكان في ذهني أيضاً احتمال رؤية عجل من عجول

البحر، إذ قال جيلبرت إنه يظنّ أنه رأى أحدهـا. ومهما يكن من أمـر فإنـه ما إن خرجت إلى هناك، واعتليت قمّة الصخرة المصفرة، حتى هاجمني نـوع من الخوف كان يبـدو مألـوفاً. ولكـي أبـدأ، أحسست بدوار وكـأن البحر تحتي بمئات الأقدام، بدلاً من أن يكون وهو في حالة المد على مسافة لا تزيـد عن اثني عشر قدماً، فلم أجد مناصاً من الجلوس. ثم شعرت بحـاجة عصبيـة إلى فحص سطح البحر بعنـاية بـواسطة النـظارات المقرّبـة. ولكن دون أن أبحث عن عجول البحر.

وبالطبع، مع كـل يوم يمـر، كنت أعرف أن شيئـاً يخيفني يقترب رويـداً رويداً، الحاجة إلى اتخاذ مبـادرة فيها ينبغي أن أفكّـر فيه بـوصفه نجـدة؛ أو عـلى أي حال اتخـاذ مبادرة مـا استجـابـة لصمت هـارتـلي المخيف، ذلـك الصمت الذي لم أكن أريد التفكير في أسبابه بعدُ. عندما تـندفع إلى المنـزل لإنقاذ الرهينة من حامل البندقية، كيف سيتصرَّف صاحب البندقية، وكيف ستتصرَّف الرهينة؟ ربما كان هذا الخوف هو الذي أزمـع الآن أن يقيم في هذا المشهد الهائل الخاوي. كان يوماً مشمساً، بارداً، يهبّ فيه شيء من الريح. وكان البحر مـائجاً بـزرقة داكنـة، والسماء شـاحبة تغشـاها سحـابة نـاعمة تومض بلون برتقالي فوق الأفق مباشرة كأنها خرقة حـريريـة طويلة. وكنت أرتـدي جيرسي دوريس الايـرلنـدي. شرعت في دراسـة البحـر من خـلال النـظارات. وبحثت بقلق مـتزايـد في السـطح الـذي لا يعـرف الاستقـرار والذي تناثرت فيه بقع بيضاء، مدركاً أن ما أبحث عنه الآن وأتوقَّع أن أراه بـين لحظة وأخـرى، كان هـو وحش البحر الـذي له رقبـة ثعبـان. أنـزلت النـظارات، وألفيت أن قلبي يدقّ بسرعـة، ويخفق بصوت متسـارع مكتوم أشبه بصوت الهيوشيجي Hyoshigi الذي استمعت إليـه آخر مـرة في ذلك المعرض الكئيب المليء بالدخان في مجموعة والاس.

وفي شيء من التعمّد ولكي أهدّىء نفسي باكتشاف أنه لا وجود بـالطبـع لشيء يمكن أن أراه، بـدأت مرة أخـرى في دراسة الميـاه المتواثبـة. وتعرَّفت

على بقعة أو بقعتين سميكتين قاتمتين بوصفهما من أعشاب البحر الطافية، وكانت هناك قطعة من الخشب ظلّت ترفع طرفها من حين إلى آخر، وبعض طيور النورس ذات العيون الزجاجية طافية على سطح الماء، وثمة غرانق عبر فجأة دائرة الرؤية اللامعة. وبلا سبب معينٍ انتقلت حتى تستطيع نظرتي المسحورة المكبّرة أن تتحرَّك من البحر إلى البر، فاستطعت أن أشاهد الأمواج وهي تتكسَّر على الصخور الصُّفْر عند أقدام البرج، والماء المزبد يرتدّ إلى الوراء من الثنايا والفجوات. الصخور المبلَّلة، ثم الصخور الجافة، ثم بعض الرقع من الحشائش اللحيمة الشبيهة بالصبَّار، ثم أجمة من المنثور الورقي الأبيض تعبث بها الرياح. ثم مستوى الحشائش بجوار البرج. ثم قاعدة البرج نفسه، الصخور الضخمة المنحوتة ملطَّخة بالأُشنة الصفراء التي تتخلَّلها بقع من الشقوق السوداء. ثم شطر من الطريق الصاعد إلى البرج، وقدم بشرية يحتويها حذاء رياضي رخيص.

عند رؤية هذه القَدَم أسقطت نظاراتي، ونظرت بعينين منبهرتين وبتظليل جبهتي استطعت أن أرى بوضوح تام شخصاً في منتصف الطريق إلى البرج، يقعي كالضفدعة على الصخور متشبِّثاً بمقابض اليدين، متلمِّساً مواضع قدميه، يحاول الهبوط. والواقع أن البرج لم يكن مستعصياً على التسلّق بالنسبة لشخص خفيف الحركة. غير أنني أحسست بخفقة خوف فورية جعلتني أمسك بالنظارات لأرفعها إلى عينيّ مرة ثانية. وفي هذه الأثناء كان المتسلِّق قد هبط مسافة أخرى، ثم وثب الآن إلى الأرض من المسافة المتبقية، وعندما ركَّزت بؤرة النظارات عليه كان قد انعطف مستنداً إلى البرج بظهره، باسطاً يديه على كل من الجانبين، وناظراً نحوي مباشرة، فتذكَّرت فجأة الشخص الذي سلّطت عليه مصابيح السيارة الأمامية وسمَّرته على الصخرة. وكان الدخيل المتسلِّق الذي يحملق الآن في نظاراتي المرفوعة غلاماً، أو بالأحرى في مرحلة الازدهار الكاملة، وإن كانت أقرب إلى المرحلة المتوسطة في بواكير الرجولة. وكان يرتدي بنطلوناً بنياً مطويّاً بحيث يصل تقريباً إلى الركبتين، وقميصاً رياضياً أبيض يحيط

بالعنق، وقد كُتب عليه شيء ما. كان وجهه بارز العظام مع شحوب مُنَمَّش أبرز الحمرة الحلوة التي تصبغ شفتيه المفترقتين. وكان شعره الكستنائي الضارب إلى احمرار خفيف، والأقرب إلى التشابك منه إلى التجعيد يصل حتى كتفيه، بل إن بعضه كان منتشراً بالفعل فوق الصخرة الخشنة القائمة خلفه، وقد لجأ إليها. كان يحملق نحوي في انتباه ملحوظ. ولم يكن هناك شيء غير مألوف في شخص ينتهك حرمة منطقتي الصغيرة. غير أن هذا الشخص لم يكن منتهكاً عادياً.

نهضت مسرعاً، وشرعت أتحرَّك عبر الصخور. كان من الواضح على نحو ما أنني أنا الذي ينبغي أن أذهب إليه، لا أن يأتي هو إليّ. وكانت النظارات تعوق تقدّمي، ومن ثمّ توقَّفت لكي أضعها على قمّة صخرة، ومضيت صاعداً، وقد فقدت رؤيتي للصبي. اجتزت «جسر مين». وتطلَّب تسلّقي الأخير من صدع في طريقي إلى المستوى الأعلى، تطلَّب كل ما أملك من قوة، وعندما صعدت إلى الحشائش ووقفت هناك كنت لاهث الأنفاس، أتنفَّس بعمق وأقاوم دافعاً يدعوني إلى الجلوس. أما الفتى فكان قد تحرَّك ووقف عند الحافة الأخرى للحشائش والبحر من خلفه.

كنت أنا البادىء بالكلام: «هل اسمك ـ على سبيل المصادفة ـ تيتوس؟»

ـ «نعم يا سيّدي.»

ووسط هذه المفاجأة كلها كانت هذه الـ «سيّدي» صدمة طفيفة منفصلة. ثم جلست، فأخذ يقترب مني، وجلس هو أيضاً راكعاً وهو ينظر إليّ. وكنت أستطيع أن أتبينَّ تنفّسه السريع، والقميص الرياضي القذر وقد كُتِبَت عليه أسطورة «جامعة ليدز» والحمرة الرطبة لشفتيه، والزغب النامي فوق الندبة. وكان قد وضع إحدى يديه، بحركة رشيقة لا شعورية، فوق قلبه.

ـ «هل أنت... السيد آروبي... تشارلز آروبي؟»

ـ «أجل.»

كانت عيناه أقرب إلى الطول منهما إلى الاتساع، فهما ضيّقتان بزرقة مبلَّلة مائلة إلى اللون الرمادي مثل لون الصخور. وكان جبينه المتحرِّك المنمَّش متغضِّناً بالقلق. وقد أدركت لأول وهلة ـ بالطبع ـ شبهاً بينه وبين هارتلي، تشابهاً شبحياً معلَّقاً به أو حوله، مثلما كان الشبه بولفريد دانتج معلَّقاً بجيلبرت. كما أنني لمحت شفة الأرنب.

الشيء التالي الذي قاله: «هل أنت أبي؟».

كنت أجلس ممسكاً بركبتيّ، مثبتاً قدميّ كلاًّ في ناحية. أحسست الآن برغبة في القفز مرة أخرى، وفي الخبط على صدري، معلناً إعلاناً مطلقاً عن الانفعال، وكأنما ينبغي أن يُحْتَفل بهذا السؤال، لا أن يجاب عليه. أحسست أيضاً بدافع متميِّز إلى أن أقول نعم، وبفيتو أقوى وأوضح يصادر على كل كذبة تقال لهذا الصبي إلى الأبد. ولماذا لم أفكِّر في مثل هذا، هذا الظهور، هذا السؤال، لماذا لم أتوقَّعه؟ كنت مضطرباً، مأخوذاً على حين غرّة، ولا أدري كيف أخاطبه.

ـ«كلا، لست أبيك.» كانت الألفاظ ضعيفة، فرأيت أن وجهه لم يطر عليه أي تغيير، وما زال مقطَّباً. وكنت أعلم أنه من المهم جداً أقناعه فوراً. وكل التباس هنا يمكن أن يتمخَّض عن فظائع. تحرَّكت لاتخاذ وضع الركوع حتى أواجهه في مستواه. «كلا، صدّقني. **كلا**.»

أطرق برأسه، ومطَّ شفتيه المرتعشتين، وارتسمت على وجهه نظرة صبيانية مؤقتة. سحب شفته السفلى إلى الداخل وأطبق عليها بأسنانه. وبحركة سريعة أفزعتني انتصب واقفاً، فوقفت أنا أيضاً. كنا الآن مقتربين الواحد من الآخر. كان أطول مني قليلاً. وانداحت في عقلي آفاق هائلة من الفكر.

عاد الآن ألى تقطيبته، وبدا عليه التجهم، وقد ألقى برأسه إلى الوراء، واشرأبَّ بعنقه النحيل الطويل. «متأسّف، أعني أنني متأسِّف لإزعاجك.»

ـ «أوه، تيتوس، ما أشد سروري بمجيئك!» كان هذا أكثر الأشياء

مباشرة بين عدد كبير من الأشياء التي أردت أن أقولها له، والتي كبتُّها بالفعل ورتَّبتها في ذهني. بسطت يديّ إليه.

وفي شيء من الدهشة الوقور شدَّ على يدي بطريقة أقرب إلى الرسمية، وارتدّ خطوة إلى الوراء. «أنا آسف. لقد كان سؤالاً غبياً.. بل ربما كان... وقحاً.».

وقد نقل إليّ شيء في هذا التردّد الطفيف، بالطريقة الغريبة التي يمكن أن ينقل بها الحديث السريع شيئاً - نَقَل إليّ انطباعاً بالذكاء. كما لاحظت أيضاً طريقة نطقه الواضحة التي تنمّ عن التأمّل، وإن كان يتحدَّث بصوت مسطّح وفقاً لأسلوب أهل ليفربول الذي كان الآن هو اللكنة القبلية للشباب وهي اللكنة التي وجدت الممثلين الناشئين الذين يعملون معي محجمين عن التخلّي عنها.

قلت: «كلا... لا عليك...» ثم أردفت قائلاً: «إذن، فأنت طالب في جامعة ليدز؟»

قطَّب جبينه مرة أخرى، وهو يهرش ندبته، ويضيِّق عينيه ويزمّ شفتيه. «كلا، لست ملتحقاً بأية جامعة، وإنما اشتريت هذا القميص، تستطيع أن تشتريه من المحلات، ولست ملزماً بأن تكون ما هو مكتوب عليه.» ومضى متحدِّثاً بنغمة تفسيرية: «لديهم قمصان أمريكية أيضاً.. من فلوريدا و... كاليفورنيا و... أي انسان يستطيع أن يشتريها.»

- «فاهم.» وحملت دوَّامة أفكاري إلى السطح السؤال الجلي غير المريح.

- «أكنت معهما؟»

- «معهما؟»

- «أبوك وأمك.»

تصاعد الدم إلى وجهه وعنقه بسرعة. «تعني السيد والسيدة فيتش؟»

- «أجل.» كنت مذعوراً من الحرج والهشاشة، مذعوراً خشية إيذائه وكأنه طائر صغير لا حول له ولا قوة.

- «إنهما ليسا أبي وأمي.»
- «نعم، أنا أعرف ذلك، إنهما تبنَّياك...»
- «كنت أبحث عن أبويّ. غير أن الحظ لم يصادفني.. لا وجود لسجلات، كان ينبغي أن تكون هناك سجلات. من حقِّي أن أعلم. ولكن لا وجود لشيء. ومن ثم فقد راودني الأمل في أن...»
- «في أن أكون أباك؟»

قال بنظرة صارمة رسمية: «في أن أستطيع توضيح الأمر على نحو ما. غير أنني لم أكن أتخيَّل أبداً...»
-«أكنت معهما، هناك، في البانجالو، حيث يقيمان؟»

ألقى عليّ نظرته الباردة الصخرية، متحفِّظاً متصلِّباً: «كلا.. جئت إلى هنا لأراك فحسب. وسأذهب الآن.»

احتفظت برأسي في مواجهة موجة من الهلع. من الممكن أن يختفي الفتى، أن يضيع، ألاَّ يراه أحد على الإطلاق. «ألن تذهب لرؤيتهما، لتخبرهما بأنك هنا؟ إنهما قلقان أشد القلق عليك، وسوف يسرّهما أن يرياك.»
- «كلا. آسف لإزعاجك.»
- «كيف عرفت مكان إقامتي؟»
- «رأيته في مجلة أخذتها.. مجلة موسيقية.» ثم أردف قائلاً: «أنت رجل مشهور، والناس يعرفون.»
- «حدّثني عن نفسك. ماذا تفعل الآن؟»
- «لا شيء. أنا أتلقَّى معونة الحكومة.. عاطل عن العمل.. مثل كل الآخرين.»
- «ولكن، هل انتهيت من تدريبك.. الكهرباء، أليس كذلك؟»
- «كلا.. أغلقت الكلية. ولم أستطع الالتحاق بكلية أخرى. الواقع أنني لم أحاول. وأتلقَّى تلك المعونة، مثل كل انسان آخر.»

ـ «كيف أتيت إلى هنا؟

ـ «بالتوصيلات المجانية. آسف، لقد أزعجتك، وأخذت من وقتك. أنا ذاهب الآن.»

ـ «أوه، أرجو ألاّ تفعل. سأذهب معك إلى الطريق، إنه أسهل من هذه الناحية. ولكن، أولاً، هل يزعجك أن تبحث عن نظاراتي المقرّبة؟ إنها هناك، على تلك الصخرة.»

لاح السرور على تيتوس لأني طلبت منه هذه الخدمة. وفي لحظة كان قد هبط من المكان المنحدر الذي ارتقيته بجهد جهيد، وأخذ يقفز كالجدي من صخرة إلى أخرى في اتجاه الجسر. وكنت في حاجة إلى مهلة قصيرة أفكّر فيها. أوه، لقد كان مراوغاً، مراوغاً، حسّاساً، ومتكبِّراً. ينبغي أن أمسك به، ولا بد أن أكون لبقاً، حذراً، لطيفاً، حازماً، وينبغي أن أفهم كيف يكون ذلك. كل شيء، كل شيء، شعرت الآن أنني أعتمد على تيتوس، كان مركز العالم، كان المفتاح. كنت مفعماً بانفعالات أليمة ومبتهجة، وبحاجة مطلقة إلى إخفائها. كان من الممكن هنا بسهولة، أن أنذر، أن أهاجم، أن أثير الاشمئزاز.

عاد بسرعة غير متوقعة، وارتقى الصخرة المنحدرة في ركض محفوفٍ بالخطر، وناولني النظارات بأول ابتسامة أراها فوق هذا الوجه المتحفِّظ المستريب الذي ما زال أقرب إلى الطفولة. «ها هي. أتعرف أن هناك منضدة جيدة جداً منصوبة هناك بين الصخور؟

وكنت قد نسيت هذه المنضدة. «أوه، أجل، شكراً، ربما استطعت أن تساعدني بها فيما بعد. انظر، لا ترحل، أودّ أن أتحدَّث إليك. أمن الممكن أن تبقى لتناول الغداء؟ لا بد أنك جوعان. ألست جوعان؟»

كان من الجلي في الحال أنه جائع. أحسست باندفاعة من الاهتمام والشفقة، من كل تلك الانفعالات الخطرة القوية الزاخرة بالسرور التي كانت تلحّ في طلب لحظتها السرية المترفة.

قال متردِّداً: «شكراً لك. حسناً، فليكن سأبقى لأكلة سريعة. إذ لا بد لي.. من أن أكون.. في مكان آخر...»

لم أكن أؤمن كثيراً بهذا المكان الآخر.

وفي هذه الأثناء، كنا قد وصلنا بالطريق السهل إلى الشارع، وتسلَّقنا الجزء الأخير ووقفنا لحظة نطلّ على خليج الغراب الأسحم، حيث كان البحر الأكثر هدوءاً وضحالة بلون الفيروز.

ـ «بلدة جميلة، أليست كذلك. هل تعرف هذا الجزء من العالم؟»

قال: «كلا.» وهو يبسط يديه فجأة: «أوه، البحر، البحر... إنه رائع إلى أقصى حد.»

ـ «أعرف ذلك. وأشعر به أيضاً. لقد نشأت في وسط انجلترا. وكذلك أنت، على ما أظن؟»

ـ «أجل.» ثم استدار إليّ. «انظر...»

ـ «نعم؟»

ـ «لماذا أتيت... أعني... لماذا أتيت إلى هنا من أجل أمي؟»

كانت هناك أمور كثيرة ينبغي أن تُكْتشف، وأن تُفَسَّر، وأن يتم هذا كله بعناية شديدة وبالترتيب السليم. قلت: «أنا سعيد بأنك تدعوها أمك. إنها كذلك فعلاً حتى لو كنتَ بالتبني. هناك نوع من الواقع، نوع من الحقيقة. إنهما أبواك في الواقع، ومن الظلم إنكار ذلك.»

ـ «نعم، أفهم هذه المسألة. ولكن هناك... أمور أخرى...»

ـ «ألا تريد أن تخبرني...؟» كانت هذه غلطة، غلطة فادحة، وبهذه السرعة.

قطَّب جبينه، وردَّد سؤاله. «لقد أتيت إلى هنا من أجل أمي، وراءها، أو ماذا؟» كانت النغمة جافة تنطوي على الاتهام.

واجهته، وأنا أقاوم دافعاً لأخذه من كتفيه...

ـ «كلا، صدّقني، لم أحضر إلى هنا وراءها، على حد تعبيرك. كان مجيئي إلى هنا مصادفة بحتة. وكانت أغرب مصادفة. لم أكن أعرف أنها هنا. ولم أكن أعرف أين هي. فقدت اتصالي بأمك تماماً منذ أمد بعيد جداً. وكنت مذهولاً، مندهشاً... بصورة مطلقة... أن ألقاها مرة أخرى... كان ذلك حدثاً محضاً.»

ـ «نوع غريب من الحدث...»

ـ «ألا تصدّقني؟»

ـ «بلى. أظن ذلك. بلى. فليكن. على كل حال، ليس هذا من شأني.»

ـ «لقد أخبرتك بالحقيقة.»

ـ «فليكن، فليكن. لا أهمية لذلك. لا أهمية لهما.»

ـ «لهما...؟»

ـ «بن وماري. لا أهمية لهما. لقد كنت كريماً بدعوتي إلى الطعام. ربما استطعت أن أتناول شيئاً من الجبن أو شطيرة فحسب. ثم عليّ أن أنصرف.»

كانت «بن وماري» صدمة أيضاً. بدأنا نسير على مهل عائديْن صوب المنزل. والتقط تيتوس حقيبتين من البلاستيك كان قد تركهما على صخرة بجانب الطريق.

ـ «متاعك الدنيوي؟»

ـ «ليس كله بالضبط.»

وبينما كنا ننعطف إلى الممر المؤدِّي إلى المنزل ظهر جيلبرت من الباب الأمامي، ووقف مشدوهاً. وخطر لي أنني لم أذكر شيئاً عن وجود تيتوس لليزي، أو لجيلبرت. وكان جيلبرت يعرف ما أخبرته به ليزي عن «الشعلة القديمة»، غير أنني كبحت جماح محاولاته المتلهِّفة لمتابعة الموضوع. ولم يظهر تيتوس بوصفه جزءاً من القصة؛ وحتى في إشارات هارتلي عنه كان يبدو شبحاً في مخيلتي، على حين أنه الآن...

وفيما كنّا نقترب قلت لجيلبرت بنغمات رنّانة، «أوه، هاللو، هذا هو تيتوس فيتش الصغير، ابن السيد والسيدة فيتش، أنت تعرفهما، صديقاي في القرية. وهذا هو السيد أوبيان الذي يساعدني في شؤون المنزل. كان من المقرَّر أن تعمل هذه النغمة وهذا الوصف على تدعيم جيلبرت، في الوقت الحاضر على الأقل، بوصفه واقفاً وراء حاجز يفتقر إلى التخصيص. وكانت عينا جيلبرت قد اتخذتا بالفعل نظرة ضبابية غائمة. لم أكن أريد أية متاعب من هذا النوع، ولكي أكون صادقاً فقد بدأت أشعر بالفعل بشيء من التملّك نحو تيتوس.

قلت: «تعال إلى هنا.» وبينما دفعت تيتوس من خلال الباب، ركلت جيلبرت ركلة على رسغ قدمه على سبيل الانذار المبهم. «جيلبرت، أيمكنك أن تعدَّ الغداء لي ولتيتوس في الحجرة الحمراء؟ تيتوس، هل لك في شراب؟».

شرب البيرة، واحتسيت أنا النبيذ الأبيض، بينما كان جيلبرت ـ الذي ارتدى الآن مريلته ـ يعد طعام الغداء بسرعة وحذر لاثنين على المائدة المصنوعة من الخيزران (البامبو). وأعتقد أن جيلبرت كان يمكن أن يكون سعيداً بخدمتي على هذا النحو كل يوم، كل ما في الأمر أنه كان يخشى أن يضايقني لو اقترح ذلك. ودوره المدروس الدقيق بوصفه «ساقيا» كان من الممكن أن يزيّن أية ملهاة من ملاهي قاعة الاستقبال Drawing room comedy. وفي مرة، عندما تصيَّد نظرتي من فوق رأس تيتوس، غمز بعينه. فرددت عليه بنظرة باردة. قدَّم إلينا لحم الخنزير مطهواً في السكر البني بوصفه من اختراع جيلبرت، مع سلاطة من الطماطم والأعشاب الإيطالية المعلَّبة. (من الأفضل أن تؤكل هذه الطماطم الممتازة باردة. ومن الممكن تدفئتها، ولكن لا ينبغي أن تُغلى إطلاقاً، لأن هذا يقضي على نكهتها المتميِّزة.) ثم قدَّم إلينا الكرز مع كعك جيلبرت الاسفنجي المخلوط بالليمون. وتلا ذلك جبن جولسستر المزدوج مع بسكويت ناشف جداً أعاد

جيلبرت خبيزه في الفرن. وما لبث ساقينا أن اختفى عن عيوننا، وكأنما تلقّى أوامره عن طريق التخاطر Telepathy. واحتسينا النبيذ الأبيض أثناء تناول الوجبة. وأكل تيتوس بنهم شديد.

أجريت محادثة مهذّبة قصيرة على سبيل التقديم، وبينما كان جيلبرت لا يزال في مجال الشهود. «أتوقّع أن تكون منتمياً إلى الجناح اليساري كمعظم الشبان.»

- «أوه كلا.»
- «أتهتم بالسياسة؟».
- «السياسة الحزبية؟ لا.»
- «إذن، أي نوع من السياسة؟».

اعترف بأنه مهتم بالمحافظة على الحيتان. فناقشنا هذا الموضوع. «أما أنا فضد التلوّث، وأعتقد أن مشكلة النفايات النووية مشكلة فظيعة.» وناقشنا هذا أيضا.

وفي فترة السكوت التالية قلت: «إذن فأنت لم تأت إلى هنا لتراهما؟»

- «كلا، وإنما جئت لأراك.»
- «لتسأل ذلك السؤال.»
- «نعم، وشكراً على إجابتك عنه. لا حاجة إلى القول بأنني لن أزعجك مرة أخرى.»
- «أوه، لا تقل هذا. ولكن... إذن.. لن تذهب لزيارتهما وتتيح لهما أن يعرفا بأنك هنا؟»
- «كلا.»
- «ألا ينبغي أن تفعل ذلك؟ بالطبع أنا أفهم تماماً أنه من الممكن ألا تريد هذا. أنا الآن في علاقة سعيدة جداً مع أبويّ، ولكن...»
- «كانت علاقتي تعسة جداً مع أبويّ.»

أطلق الشراب لسانه. وكنت أدير في رأسي مقداراً كبيراً من التفكير

العاجل. خطة، وكانت الخطة في سبيلها إلى الظهور. «مع كليهما؟»

ـ «أجل. على كل حال لم تكن غلطتها كثيراً. لقد تحامل عليّ، فوقفت هي إلى جانبه. وأظن أنها لا بد أن تفعل ذلك.»

ـ «كانت خائفة.»

ـ «على كل حال، لقد كان مشهداً سيِّئاً. لقد منعها من التحدّث إليّ. كما كانت تشعر دائماً بأن عليها أن تخبره بأكاذيب، أكاذيب صغيرة لمجرَّد أن تجعل الحياة أسهل. وكنت أمقت هذا.»

ـ «ينبغي ألا تلومها.» كان هذا مهماً.

ـ «لا أظن أنه كان رجلاً شريراً. ولكنه لم يكن يستطيع أن يُفْلح في أي شيء، وكان هذا سبباً للكآبة، وربما جعله حاقداً إلى حدٍّ ما، فكان ينفس عن حقده علينا. ولم يكن في وسعها أن تفعل شيئاً. من يدري، ربما كنت أبالغ. كانت هناك أوقات طيِّبة أو شبه طيِّبة، كل ما في الأمر أن الأوقات السيِّئة كانت. . حاسمة إلى أقصى حد.» ثم عاد إلى تردّده مرة أخرى. أتكون نغمة صوت شخص آخر؟ صوت مَنْ؟

ـ «فاهم.»

ـ «لن تعرف أبداً متى سيبدأ الأمر من جديد. وعليك أن تكون حذراً فيما تقول».

لا بد أن تجريح كبرياء هذا الولد وانكسارها كان شيئاً مقيتاً، لا سبيل إلى التعبير عنه. وقد استحضرت صورة هارتلي للطفل الصامت ذي الوجه الأبيض. يا لهارتلي المسكينة! لقد كانت الشاهد الذي لا حول له ولا قوة لهذا كله. «لا بد أن أمك تعذَّبت كثيراً، من أجلك ومعك.»

ألقى عليّ نظرة من نظراته السريعة المستريبة المقطّبة، ولكنه لم يتابع ما قلت. وبالفحص القريب بدا أقل وسامة، أو ربما أكثر قذارة وبهدلة. كانت له البشرة الشاحبة لشخص أحمر الشعر، غير أن شعره الطويل الذي لم يمشَّط كان دهنياً وفي حاجة إلى الاغتسال. وكان وجهه نحيلاً، أشبه

بالذئب، والوجنتان غائرتان تقريباً. ولعينيه صبغة باردة برّاقة رمادية مائلة إلى الزرقة. (كانتا منقّطتين قليلاً ومرقشتين مثل صخرة من صخوري.) ولكنه كان يضيّقهما دائماً. لعله كان قصير النظر. وله فم صغير جميل، الشفتان محدّدتان، والأنف صغير حازم مستقيم، تحسده عليه الفتيات. وكان حليقاً بشكل محترم، وتظهر لحيته في نقاط لامعة من الذهب الضارب إلى الاحمرار، غير أن الزغب الداكن غير المألوف الذي كان ينمو نمواً عشوائياً في الندبة، بدا أشبه بشارب دقيق مائل إلى جانب. وكان من الجلي أنه على وعي ذاتي بتلك الندبة، ولا يكفّ عن لمسها. وكانت يداه في غاية من القذارة، والأظافر مقضومة.

- «ثم كانت هذه المسألة التي دارت بشأني.» لم أكن أتحدَّث منذراً، غير أنني كنت أريد أن أحتفظ به لمواصلة هذا الموضوع.

- «أوه أجل. كانت تظهر من حين إلى آخر، غير أنني لا أريدك أن تخرج بفكرة...»

- «أتوقَّع أنك تعلم أنني أحببت أمك حباً جمّاً عندما كنا صغيرين. ولم أرها منذ ذلك الحين حتى التقينا بغتة هنا...»

- «لا بد أنها تغيَّرت قليلاً!»

- «ما زلت أحبها. ولكن لم تتحوَّل المسألة أبداً إلى قصة غرام.»

- «هذا لا يعنيني في شيء. آسف، ليست هذه هي الجملة التي أريدها. لا بد أنني سكرت. أعني، لا تخبرني بأشياء مثل هذه، فأنا لست... لست مهتماً. أصدّقك في أنك لست أبي، انتهى الأمر. ومع ذلك، لا أستطيع أن أفهم تماماً سبب وجودك هنا. هل رأيتها، أم ماذا؟»

- «أوه، من حين إلى آخر.»

- «إذا لم يكن في ذلك ما يضيرك. أؤثر ألاَّ تخبرها...»

- «عنك؟ كلا، لك ما تريد. وكما قلت لك، أنا ما زلت شديد التعلّق

بأمك، شديد الاهتمام بها. وأحب أن أساعدها. ولا أظن أن لها كثيراً من الحياة.»

- «أي حياة فهي حياة.»

- «ماذا يعني ذلك؟»

«لا يدري المرء أبداً. ولكني أستطيع أن أقول إن معظم الحيوات فاسدة. ولا يتوقع المرء أن تكون شيئاً غير ذلك إلا عندما يكون صغيراً. إنها خيالية قليلاً، تحيا من الأوهام، أظن أن معظم النساء على هذا النحو. يجب أن أنصرف الآن. شكراً على هذه الوجبة».

قلت ضاحكاً: «لن أدعك تذهب بعدُ!. أريد أن أسمع عنك أكثر من ذلك كثيراً. قلت إن كليتك قد أُغلقت. ولكن ماذا تحب أن تفعل إذا كان لك أن تختار ؟».

- «اعتدت أن أفكر في أنني أحب العمل مع الحيوانات بطريقة ما، أنا أحب الحيوانات».

- «ألا تريد أن تعود إلى الكهرباء؟».

- «أوه، كان ذلك لمجرد الابتعاد عن المنزل. حصلت على منحة فجلوت عن المنزل. كلا، أظن أنني لو استطعت أن أختار الآن لاخترت أن أكون ممثلاً».

هنا كانت ضربة حظ. وكان من الممكن أن أصيح فرحاً: ««ممثلاً؟ هنا أستطيع أن أساعدك».

قال وقد احمرت وجنتاه بسرعة، وفي تدقيق عدواني: «لم أحضر إلى هنا لذلك. لم أحضر طلباً لمساعدتك، أو للتسول أو لأي شيء. كل ما في الأمر أنني جئت لأسأل. لم يكن الأمر هيِّناً. فانت رجل شهير. وقد فكرت في ذلك طويلاً، فراودني الأمل أن أحل هذه المشكلة من الناحية الأخرى بالعثور على هيئة التبني، غير أن هذه المحاولة لم تنجح. أنا لا أريد مساعدتك، أو أن أقتحم حياتك. وما كنت لأريد ذلك حتى لو كنت أبي».

نهض مزمعاً الرحيل، فنهضت أنا أيضاً. ورغبت في تطويقه بـذراعيّ: «حسناً. ولكن لا تذهب بعد. أتحب أن تقوم بشيء من السباحة؟».

- «سباحة؟ أوه. . . أجل».

- «إذن، استرح لحظة، فنحن نستطيع أن نعوم فيها بعد، ولنتناول بعد ذلك شيئاً من الشاي».

- «أحب أن أسبح الآن».

مشينا على الحشائش، متجاهلين جيلبرت الذي نهض باحترام حين مررنا به في المطبخ، ثم تسلّقنا الصخور صوب البحر، ثم بلغنا القمّة الصغيرة المطلّة على البحر. وكان المدّ قد اكتسب مزيداً من التقدّم، وأصبح الماء الآن يزيد قليلاً عن عشرة أقدام تحتنا. كان البحر أهدأ مما كان في الصباح، والمياه شبه الشفّافة كانت خضراء غنية كخضرة الزجاجة من أشعّة الشمس الساطعة.

- «أتسبح هنا؟ يبدو المكان رائعاً. ويستطيع المرء أن يغطس. أنا أكره ألا يقوم المرء بالغطس».

لم تكن هذه لحظة الإنذارات الكئيبة. ولم أكن أسمح لنفسي أن أضع أمام تيتوس أية مصاعب، أو أي خوف من البحر. «نعم، هذا هو أفضل مكان».

كان تيتوس في نشـوة لاقتحام المـاء. «ليـس لدي أي شيء من ثيـاب السباحة».

- «أوه، لا أهمية لذلك، لا يستطيع أحد أن يرانا. أنا لا أضع شيئاً على الإطلاق».

كان تيتوس قد نزع عنه فعلاً قميص جامعة ليدز الرياضي، كاشفاً عن كمية من الشعر الجعد الذهبي - الأصم. وأخذ يتطلع وهو يخلع سرواله. وانتابتني فجأة رغبة للضحك حبوراً، حين شرعت في خلع ملابسي بسرعة مماثلة، غير أنني لم أكن قد فككت بعدُ أزرار قميصي عندما تطاير رشاش الماء

من غطسته الكاملة فلطّخ الصخرة المتألقة عند قدمي. وفي اللحظة التالية كنت في أثـره، لاهثاً من برودة الماء، وبعد ثوان بدأت أشعر بالدفء وبشيء من الانتشاء الضاري.

وجاء رجلي أوبيان حاملاً المناشف. تظاهر بأنه ينسحب في تحفظ، غير أنني كنت أستطيع أن ألمحه مختلساً للنظر من صخرة قريبة، ومـراقباً لأداء تيتوس. أما الفتى الذي كان يستعرض مهارته بالـطبع ـ فقـد أخذ يسبـح كالدرفيـل، رشيقاً، لعـوباً، متبعـاً طريقـة سريعة تـرسل ومضـات بيضٍ مقوّسة، معطياً لمحات مباغتة من يديه وكعبيه، مع كتفين نشيطتين، وردفـين شاحبين، ووجه ضاحك مُبْتل متهلل يحيط به إطار من شعر متشبث أشبه بعشب البحر. ومن المؤكد أن شعره الذي أحاله البحر إلى القتامة قد غيَّر من مظهـره فأصبح داكناً مسترسلاً مستنداً على عنقه وكتفيه، وجعل وجهه أملس كوجه فتاة. ولما كان في وعي بهذا التـأثير فقد جعل يلقي برأسه إلى الوراء في حركة ساحرة ليزيح عن عينيه وجبينه الخصلات الثقيلة الغارقة في الماء، وكان يجيد السباحة بطريقة الكرول Craul (الزحف) التي لم أتقنها أبداً، وفي مرحه البحري ظلَّ يغطس إلى تحت عمودياً، ليختفي ثم يعود إلى الظهور من مكان آخر، وهو يهتف منتصراً، واستولى عليّ سرور مجنون مماثل، وكان البحر مبتهجاً ومذاق الماء المالح هو مذاق الأمل والحبور. لم أكفّ عن الضحك، والغرغـرة بالماء، والانبثاق، واللفّ والدوران. وعندما التقيت بصـاحبي درويش البحر صحت: «الآن ألستَ سعيداً بأنك سعيت إليّ؟».

ـ «بلى، بلى، بلى!».

لم يجِد بالطبع أية صعوبة في تسلق الصخرة الصغيرة المنحدرة. ألم أكن قد رأيته قبل كل شيء لأول مرة أشبه بالذبابة فوق ذلك البرج؟ صادفت صعوبة طفيفة، أنا نفسي، ولحظة حرجة، ولكنني أخفيت ذلك عنه. كان الوقت مبكراً جداً لكي أبدأ في التخاذل وإظهار شيخـوختي. أردت أن يتقبلني كرفيق.

وبعد ذلك نام في ظل صخرة. ثم تناول شاياً كاملاً. ووافق بعد ذلك أن يمكث الليلة، هذه الليلة فحسب على أن يرحل مبكراً في اليوم التالي. وكنت في هذه الأثناء قد صادرت وأخفيت الحقيبتين البلاستيكيتين إذا عنَّ له فجأة أن ينسل هارباً. فحصت الحقيبتين، لم يكن فيهما من الأشياء الثمينة إلا أقل القليل: أدوات الحلاقة، الملابس الداخلية، قميص مخطط محترم، رباط عنق، حذاء، سترة من القطن مطويّة ومجعَّدة، أزرار معدنية ثمينة للقمصان موضوعة في علبة مخملية. وقصائد الحب لدانتي بالإيطالية والإنجليزية في طبعة فاخرة مزيَّنة برسوم فاحشة. وهذان الشيئان الأخيران جعلاني أفكِّر قليلاً.

والآن بعد أن أدرك جيلبرت هوية زائرنا تمام الإدراك، كان بالطبع في حالة من الانفعال والفضول تتجاوز قدرته على التحكم. «ماذا أنت فاعل به؟» «انتظر وانظر» «أنا أعرف ما أحب أن أفعله!» بحق الإله ابتعد عن طريقنا.» «فليكن، أنا أعرف مكاني!».

وباقتراح منّي غسل تيتوس شعره بماء عذب. وما إن جفَّ ومُشِّط حتى صار خفيفاً كالزغب، كتلة كثيفة من الخصلات المتماوجة الكستنائية الضاربة إلى الحمرة، أصلحت كثيراً من مظهره. وفي المساء ارتدى قميصه النظيف ولكن بدون الأزرار الخاصة بإسورة الأكمام. على حين قام جيلبرت سراً بغسل القميص الرياضي الذي كُتبت عليه عبارة جامعة ليدز.

تناولنا عشاءنا، أنا وتيتوس، على ضوء الشموع. قال فجأة: «هذا شيء رومانسي إلى أبعد حد!» وضحكنا حتى انشقت جنوبنا.

كان تيتوس ينظر الآن إلى جيلبرت وإلى أداء جيلبرت الكامل نظرة مليئة بحب الاستطلاع، ولكنه لم يوجه أية أسئلة. فتطوعت بالقول في شيء من الغموض: «إنه ممثل قديم، تخلى عنه الحظ». وكان يبدو أن ذلك يكفي لوصفه في الوقت الحاضر.

وتحدثنا أثناء العشاء عن المسرح والتلفزيون. وكان يبدو أنه شاهد عدداً كبيراً من مسرحيات لندن، ويعرف أسماء كثير من الممثلين العظام. ووصف كيف أخـــرج «كـــريتشتـــون العجيب» The Admirable Crichton في المدرسة. وقد كان متواضعاً، مستريباً في طموحه. «إنها مجرد فكرة». ولم ألح عليه، في هذا أو في أي شيء آخر. وضحكنا كثيراً.

أوى إلى فـراشـه مبكـراً، ونـام عـلى الـوســائـد وسط كتبي في الحجــرة الأمامية من الطابق الأرضي. وأبدى اهتماماً شديداً بالكتب، غير أنه أطفأ شمعتـــه مبكراً (كنت أراقبه من السلم). وفي الصباح وافق على البقاء حتى موعد الغداء. وسمحت لجيلبرت المتذلل أن ينضم إلينا في المحادثة العامة أثناء الفطور. إذ لم أكن أريد أن يصبح جيلبرت سراً مشوّقاً.

وبعد الفطور، أطلقت سراح تيتوس ليقوم بالسباحة واستكشاف الصخور بعد أن ذكرت له أنني سأكون مشغولاً بـ «كتابتي». ووجدت من الأفضل ألا أزحمه بصحبتي، كما أنني كنت أريد على كل حال أن أكسب وقتاً للتفكير. وكـان تيتوس يبـدو في غايـة السعادة وهـو يمارس ألعـابه الصبيـانيـة بنفسـه. وأخذت أراقب مرات ظهوره واختفاءاته خفيفة الحركة من النافذة بمزيج نافذ من الحب والحسد. ولم يلبث أن عاد أخيراً حاملاً المنضدة الجوالة رافعاً إياها بذراع واحدة متباهياً فوق رأسه. ثم وضعها على الحشائش، واقترح أن يأكل في الخارج، غير أنني رفضت هذا الاقتراح. (كنت أتفق مع السيد نـايتلي بخصوص الوجبات التي تؤخذ في الهواء الطلق al fresco) وكان جيلبرت قد خرج في تلك الأثناء للتسوق، وصنع تحت إشرافي أكلة سمك محـترمة بالأعشاب المجمدة.

وعند الغداء، عندما انفردنا أنا وتيتوس، قـررت أن الوقت قـد حان للحديث الجاد. فقد اكتسبت الآن ما يكفي من ثقته، ولم أعد أخيفه. وعلى

كل حال، كانت أعصابي قد بدأت في الانهيار، وكنت أرغب في معرفة مصيري.

- «تيتوس، أنصت، ثمة شيء مهم أريد أن أخبرك به».
نظر مذعوراً، وبسط يده على المائدة، وكأنه يستعد للوثوب والهرب.

- «أريدك أن تبقى هنا، فترة قصيرة على الأقل، وسأشرح لك السبب. أريدك أن ترى والدتك».
ضاقت عيناه مزيداً من الضيق، واتخذت شفتاه الجميلتان وضعاً ساخراً: «لن أذهب إلى هناك».
- «أنا لا أقترح أن تذهب. وإنما هي التي ستأتي إلى هنا».
- «إذن فقد أخبرتها. لقد قلت لي أنك لن تفعل».
- «لم أخبرها. وإنما مجرد اقتراح، وأنا أسالك. ولو عرفت أمك أنك هنا فستأتي. ولا حاجة تدعو لإخباره».
- «ستخبره. إنها تفعل ذلك دائماً».
- «لن تفعل هذه المرة. سأقنعها بألا تفعل. كل ما أريده هو أن تزورك هنا. على كل حال، ماذا يستطيع أن يفعل حتى لو عَلِم؟ لن يجد بداً من التظاهر بأنه مسرور. ليس هناك ما تخافه».
- «لست خائفاً!».

كانت هذه بداية سيئة، كنت أتعثر وأرتبك، وقد تخيلت حتى وأنا أتكلم أن «بن» يزمجر عند الباب.

قال تيتوس متروياً: «أنا آسف من أجله على كل حال. لم ينل من الحياة شيئاً يذكر، على حد تعبيرك».
- «أية حياة فهي حياة، على حد تعبيرك أيضاً. وإذا كنت آسفاً من أجله فيجب أن تكون بالأحرى آسفاً من أجلها. لقد تألمتْ من أجلك كثيراً. ألا تريد أن تراها وتدخل السعادة على نفسها؟».

ـ «ما من شيء يمكن أن يسعدها. لا شيء. . . على الإطلاق». وكانت هذه النهائية القاطعة في الرد شيئاً مريعاً.

قلتُ في شيء من الغضب: «ولكنك تستطيع أن تحاول! لن يكون شيئاً لطيفاً جداً ألا تعلم ما حدث لك».

ـ «فليكن إذن، يمكنك أن تخبرها بأنك رأيتني».

ـ «هذا لا يكفي. ينبغي أن تراها بنفسك. ولا بدّ لها من أن تأتي إلى هنا».

وكان تيتوس يبدو اليوم أشد وسامة مرة أخرى، بعد أن لوحت الشمس وجنتيه، وأحاط شعره اللامع الناعم كالإطار بكتلة وجهه الناتئة العظام. أما القميص الرياضي البشع فقد جف فعلاً، غير أنه عاد إلى ارتداء القميص المخطط بعد أن ترك ياقته مفتوحة.

ـ «قلت إنك رأيتها «من حين إلى آخر». وهذا يبدو لي عجيباً. فقد كنت الرجل الغول سنين طويلة، الشيطان نفسه. وأستطيع أن أتذكر النظرة اليائسة التي تلوح في عينيها عندما يُذْكر إسمك. ليس من الممكن أن يصفحا عنك؟ حسناً، إنك لم تفعل شيئاً، ولكنك تعلم ما أعنيه. أكنت تزورهما وتلعب البريدج أم ماذا؟».

ـ «كلا، بالطبع لا. إنه ما زال يمقتني، على ما أتخيل، والله وحده يعلم ما يعتقده حقاً. لعله لا يعرف هو نفسه. غير أنني بدأت أفكر في أنه لم يعد مهماً.»

ـ «لماذا، من فضلك؟».

ـ «لأنني أعتقد أن أمك سوف تتركه».

ـ «لن تفعل ذلك أبداً. . أبداً، لا أمل في ذلك».

ـ «أظن أنها من الممكن أن تفعل ذلك في ظروف معينة. وأعتقد أنها ستفعل إذا استطاعت أن تتصور ذلك ممكناً. ولو نظرتْ إليه على أنه ممكن فمن الممكن أن تراه يسيراً».

- «ولكن أين ستذهب حينئذٍ؟».
- «إليّ».
- «تعني . . . أنك تريدها؟».
- «نعم».
- «ومن ثمّ تريدني أن أقنع أمي بأن تهجر أبي؟ لا بد أنك تمزح! هذا شيء كثير يتوقعه المرء نظير الغداء والعِشاء».
- «والفطور والشاي».
- «أنت شخص بارد».

لم أكن أشعر بأنني بارد. كل شيء في محادثته يسير في الطريق الخاطىء لأنه يعرضه بخشونة وفظاظة. وكنت حريصاً على ألا أدفعه لأي رد فعل مباغت بأن أعزف نغمة مسرفة في التشاؤم. ولا بد في الوقت نفسه من أن يقرر جديّتي، والحقيقة التي تثير الجنون هي أنني جمعت الآن كل العناصر التي يتكون منها حل، ولكن هل يُسْمح لي بأن أقوم بتوليفها معاً؟ «عزيزي تيتوس، بالطبع أنا لا أريدك أن تقنع والدتك بأي شيء. أنا أريدك أن تراها لأنني أعرف أن هذا سيريح بالها راحة عميقة. وأريدك أن تراها هنا لأن هذا اللقاء لا يمكن أن يكون إلا هنا».

- «أعليّ أن أكون طُعْماً . . . نوعاً من . . . الرهينة . . .».

كان هذا ـ على نحو مخيف ـ أقرب ما يكون إلى الحقيقة، غير أنني أغفلت شيئاً في غاية الأهمية أدركت الآن أنه كان ينبغي عليّ أن أذكره منذ البداية. «كلا، كلا. أرجو أن تصغي بعناية. أريد أن أخبرك بشي آخر. لماذا تظن أنني أقنعتك بالبقاء هنا بدلاً من أن أتركك تذهب؟».

- «بدأت أعتقد أن ذلك من أجل أن تأتي أمي إلى هنا بسببي».

كانت الصياغة دقيقة بحيث لم أستطيع أن أقول مرة أخرى: كلا. كان هذا هو الحق على نحوٍ ما، ولكنه حق بطريقة لا ضرر فيها، طريقة حميدة،

بل تكاد أن تكون رائعة. وبينما كان كل منا يحملق في الآخر تمنيت أن يرى ذلك بغتة في هذا الضوء. غير أنه احتفظ بقناعة المتشكك القاسي، وربما كان ذلك عن عمد. قلت وأنا أحاصر عينيه وأقطِّب في حزم: «أجل، أنا أريد ذلك. غير أنني أريده أيضاً بسببك، ومن خلالك، ومن أجلك، أنت جزء منه، أنت الآن جزء من كل شيء، أنت شيء أساسي».

- «ماذا تعني؟».
- «أغريتك بالبقاء هنا لأنني أحبك».
- «أوه، شكراً جزيلاً».
- «وقد مكثت لأنك تحبني».
- «والطعام. والسباحة. فليكن!».
- «ضعها على هذا النحو، وانظر إليها من الناحية الافتراضية كما تشاء في هذه اللحظة. إنك تبحث عن أب، وأنا أبحث عن ابن. لماذا لا نعقد صفقة؟».

رفض أن يتأثر أو يظهر الدهشة. «أشك في أنك قد فكرت في فكرة الابن هذه الآن. على كل حال، أنا أبحث عن أبي الحقيقي، لا لأنني أحتاج إلى أب أو أريد أباً، وإنما لأقتل شيطان حب الاستطلاع التعس الذي ظل يلدغني والذي عايشته طيلة حياتي».

كلا، إنه لم يكن كل ما توقعته، وإن كنت لا أستطيع الآن أن أفكِّر كيف توقعت أن يكون مغفَّلاً. ربما كان وصف هارتلي اليائس له هو الذي أوحى إليّ بهذا. فقد كان ولداً ذكياً جذاباً، وسأبذل أقصى ما في وسعي للاحتفاظ به. أن احتفظ به أولاً ثم بأمه بعد ذلك.

«إذن، قلِّب الأمر على وجوهه. إنه مجرد اقتراح، وهو بالنسبة لي اقتراح عميق الأهمية. أنت ترى... على نحو عجيب... بسبب علاقتي القديمة لإمك... أنني وضعت في دور أبيك. أنا أعلم أن هذا هراء، غير أنك ذكي

بما يكفي لفهم هذا الهراء. كان من الممكن أن تكون ابني. وأنا لست شخصاً عادياً. وقد جَمَع القدر بيننا. وأستطيع أن أقدِّم كثيراً من العَوْن...».

- «أنا لا أريد مالك أو نفوذك اللعين، ما جئت إلى هنا من أجل ذلك!».

- «هذا ما قلته، وقد تجاوزنا هذه المرحلة منذ مدّة، ومن ثمّ أَغْلق هذا الموضوع الآن. أريد أن أصحب أمك بعيداً، وأريد أن أجعلها سعيدة أخيراً، وهذا ما تعتقد أنه محال، بينما لا أعتقد أنا ذلك. وأريدك أن تكون في الصورة أيضاً. من أجلها، في الصورة. أنا لا أقترح أكثر من ذلك. وتستطيع أن تغيّر فيها كثيراً أو قليلاً كما تشاء».

- «أتعني أن تأخذنا كلينا بعيداً لنعيش ثلاثتنا معاً في ڤيللا في جنوب فرنسا؟».

- «نعم. إذا شئت. لِمَ لا؟».

أطلق صيحة متفجرة، وبسط يديه بحركة مسرحية، وكانتا الآن أنظف:

- «أنت تحبها؟».

- «نعم».

- «ولكنك لا تعرفها».

- «الشيء العجيب يا ولدي العزيز - هو أنني أعرفها».

قال تيتوس «حسناً» ثم لاحت على محياه أخيراً نظرة إعجاب. «فلنفترض... أنك... طلبت منها أن تأتي وتراني...».

كنت مضطجعاً وسط الحشائش الخضراء الطويلة العطرة التي ازدهرت أزهارها الوردية في التو واللحظة. كانت الحشائش باردة وشديدة الجفاف ويصدر عنها صرير خفيف أثناء تحركي. كنت أرقد على حافة الغابة، على الجانب البعيد من ممر المشاة، في نفس مستوى حديقة النيبليتس. وكنت ممسكاً بمرآة جيب. وقد خرجت هارتلي في هذه اللحظة إلى الحديقة.

لم يكن تيتوس قد وعد بشيء في المستقبل. فقد عالج المسألة باستهتار

مصطنع ولم يسمح لي بلمحة من الانفعالات التي كانت تعتمل بلا ريب وراءه. وتظاهر بأنه يعتبر الأمر كله مجرد نكتة، لعبة، أو على الأقل بوصفه شيئاً على استعداد أن يقوم به لإرضائي، لكي يرى - بحق الجحيم - «ما حدث». وكان قد وافق على البقاء، «إذ لا يوجد ما يفعله أفضل من ذلك» في الوقت الحالي، وعلى أن يقول «هاللو» لأمه. وإن يكن قد أضاف - بلهجة أشدّ صرامة نوعاً ما - أنه متأكّد تماماً من أنها لن تأتي.

علينا أن ننتظر لنرى؛ كما لم يكن من الواضح أيضاً بالنسبة لي كيف كان يشعر نحوها بعد كل تلك السنين التي «سايرت» فيها «بن»، لأنها كانت «مجبرة» على ذلك. أين يقوم الصفح بدوره في هذا المشهد وكيف؟ الرحمة، الولاء، الحب؟ أتراني أتخبط في شيء مخيف؟ شيء لا سبيل إلى التنبؤ به بكل تأكيد. وما جعلني أحتفظ بشجاعتي كان نوعاً من التفاؤل الذي ولده تيتوس بجنون بتلك الصورة التي تضم ثلاثتنا في حياة واحدة معاً في جنوب فرنسا! فلو أنه تمسَّك بي، وخرجت هي، فسيكون هذا - بالنسبة لنا جميعاً - انطلاقاً روحياً هائلاً أشبه بالنشوة المباغتة التي شعرنا بها أنا وتيتوس في البحر. سأجعلها سعيدة، سأفعل ذلك بكل تأكيد، وسأجعله سعيداً وناجحاً وحرّاً.

مسألة أخرى برزت بيننا بعد أن وافق تيتوس، على حد تعبيره الساخر، أن يكون «رهينة». فبعد أن وافق على البقاء إذا أردت ذلك «لفترة ما» قلت له عرضاً وبجرأة: «أليس لك أحد ينتظرك إذن في أي مكان؟ أعني فتاة أو أي شيء؟».

فقال بشيء من الجفاء: «كلا. كان هناك شخص ما. غير أن هذا قد انتهى».

تساءلت: أتراه أتى إليّ لأنه وحيد، يائس؟ وإذا كان الأمر كذلك أفلا يجعله هذا أكثر استعداداً لقبول... عروضي.. وحبي..؟.

كان الوقت مساء اليوم نفسه. ولم يكن هناك ما يدعو إلى الانتظار أكثر من

ذلك. بل إنني أخبرت جيلبرت بملخص خطتي، وإن كنت لا أزال أخفي شطراً منها، حتى عن تيتوس. وكان جيلبرت ـ وهو الذي سيلعب الآن الدور الرئيسي ـ يستمتع بالدراما كلها بطريقة مخزية. انتظرت مختفياً في الغابة لمدّة ساعة تقريباً حتى ظهرت هارتلي. ولم يظهر اي أثر للجنتلمان.

راقبتها لحظة في هدوء. كانت ترتدي الثوب الأصفر المزيّن بنموذج الزهرة البنية؛ وعليه عفريتة (أوفر أول) زرقاء فضفاضة. كانت تمشي بشيء من الارتباك، وقد احدَوْدب كتفاها، وأطرقت برأسها، ودست يديها بعمق في جيبي عفريتتها. دلفت إلى نهاية الحديقة، ووقفت هناك برهة، أشبه بحيوان، وجعلت تحملق ببلادة في الحشائش. ثم رفعت رأسها وشرعت تنظر إلى البحر، صورة الحرية بعيدة المنال. ثم أخرجت إحدى يديها من جيبها ولامست وجهها. لا بد أنها تبكي. لم أعد أطيق هذا المشهد.

وفي حذر شديد كشفتُ عن مرآة الجيب، وانحنيت إلى الأمام فأملتُها لتصيد الشمس. وظهر الانعكاس الصغير اللامع الجاري في الحال، مثل كائن دقيق حي ـ على سفح التل أسفل الحديقة مباشرة. وكنت حريصاً على الاحتفاظ به بعيداً عن المنزل. وأوصلت بقعة الضوء الصغيرة اللامعة ببطء إلى أعلى التل صوب قدميها، وفي لحظة أدركتُ أنها لاحظتْها، وأنها فهمت ما تعنيه. وكانت هذه حيلة من الحيل التي اعتدنا أن نلعبها أحدنا على الآخر في مواسم الصيف عندما كنّا طفلين. أرسلت الومضة لحظة إلى وجهها، ثم بدأت أسوقها بعيداً، وأنا أرسم خطاً عبر الحشائش في اتجاه الغابة.

وقفت هارتلي شاخصة البصر إليّ. فنهضت متخذاً وضعاً راكعاً وحرّكت برفق الغصن المزدهر بلون الكريم في أجمة أكبر سناً. أتت هارتلي بإشارة، وهي ترفع يدها إلى حَلْقِها. ثم استدارت وقفلت راجعة نحو المنزل. كدت أنادي عليها متحيّراً، ولكنني أدركت فيما بعد أنها ذهبت للتأكد من نشاط «بن» ومكانه. لعله كان يقوم بلحام الصيني. انتظرت لحظة قلقة، فلم تلبث

أن برزت مرة أخرى، بدون العفريتة، وركضت نحو السور، وانحنت من خلال السلك، وجاءت عَدْواً عبر الحشائش نحوي.

انسحبت قليلاً في فرجة صغيرة تحت شجرة دردار. وكان فرع كبير من فروع الشجرة قد أنتزعته عاصفة شتوية، ومن خلال تلك الفجوة سطعت الشمس على أجمة وورود برية شاحبة الازدهار، وعلى كتلة ذابلة من البقدونس وأزرار الذهب (الحوْذان). وقفت بجوار شجرة الدردار التي أرجع جذعها الرمادي الأملس بنسيجه السميك ذكريات طفولة عابرة تتصل بهارتلي. فكنت أستطيع أن أشاهدها الآن وهي تزيح جانباً رؤوس الزهرة الضخمة المفلطحة من الشجرة العجوز. وفي اللحظة التالية لحقت بي، ولاحظت كيف كانت تتحاشى على نحو غريزي بقعة ضوء الشمس.

أحطتها بذراعي، فرضخت لهذه الإحاطة في شيء من التصلب، وهي تحني رأسها. وسحبت يدي هابطة على ظهرها وأنا أضمها إليّ، شاعراً بدفئها الناعم، وقد لامست ركبتي ركبتها. تنهدت وأدارت رأسها جانباً، غير أن يديها ظلتا مرتخيتين. وجعلني دفء جسدها تحت ثوبها الهش أُغْمض عينيّ، وكدت أنسى خطتي وتنفيذها العاجل.

- «أوه، هارتلي، حبيبتي، يا من أنت لي».

- «ما كان ينبغي أن تأتي».

- «أحبك» وجلست عند قدم الشجرة، مستنداً إليها، وجذبتها لتجلس بجانبي. كنت أريدها أن ترقد مسترخية مسندة رأسها إلى صدري. «تعالي». كنا نتخذ دائماً هذا الوضع. أليس كذلك؟ أتذكرين؟» ولكنها لم تفعل. رأيتها في ضوء الشمس الظليل، ونهداها يشدان أزرار ثوبها، بصورة أحب كثيراً، وأشبه كثيراً بذاتها القديمة، وكأن شيئاً من سحر الغابة قد أعادها إلى الشباب.

ركعتْ إلى جانبي، وأمسكت بإحدى يديّ، وتطلعت إليّ بعينيها

الداكنتين الواسعتين. وفجأة، وبحنان بالغ، رفعت يدي ولثمتها.

هذه اللفتة أثّرت في نفسي وأثارتني كثيراً بحيث أفادتني فعلاً في الرجوع إلى صوابي. كانت المسألة العاجلة هي إبعاد الفتاة، ولم أكن حتى الآن قد بدأت في محاجتي.

- «هارتلي، يا صغيرتي، أنت تحبينني، ما أسعدني! ولكن، اسمعي، لدي ما أخبرك به. أين هو؟».

- «إنه في الخارج. وإنما دخلت لأتأكد من ذلك. ولكنه، أوه، ما كان ينبغي أن تأتي على هذا النحو...».

- «إلى أين ذهب، ومتى سيعود؟».

- «ذهب ليقابل رجلاً بخصوص كلب. سيقضي وقتاً طويلاً في الخارج».

- «كلب؟».

- «نعم. أنه مشوار طويل، هناك عند مزرعة آمورن. ولما كان الجو جميلاً فقد قرر أن يذهب سائراً».

- «سائراً؟ ظننت أنه أعرج... أله ساق مهيضة؟..».

- «ساقه متصلبة، وهي تبطىء من مشيته، ولكنه يحب المشي، والتمرين يُصلح حاله. هل تفهم، كان هناك إعلان في المتجر، كانوا سيعدمون كلباً إن لم يجدوا له مالكاً، إنه من نوع الكولي الويلزي Welsh Collie، كلب كبير، وليس جَرْواً. ولكنه لا يستطيع حراسة الماشية، وحسبنا أننا نستطيع رعايته. اتصلنا بهم هاتفياً، فكانوا ظرفاء، هم أناس يدعون آركرايت».

- «أوه... آركرايت. ولكنك لم تذهبي... وقررت البقاء هنا في حالة مجيئي...».

- «ظنّ بن أنه من الأفضل ألاّ أذهب إلى هناك، فسوف أنفعل انفعالاً شديداً

بسبب الكلب، ومن المستحسن أن يقرِّر بنفسه. إنها مجازفة دائماً أن يتّخذ المرء كلباً كبيراً. . .».

- «هارتلي، اسمعي. لقد عاد تيتوس، وهو الآن في منزلي». ترنحت جانباً، وأطلقت يدي: «كلا. . .».

- «نعم. إنه لا يريد أن يراه. . . أنت فحسب. إنه يريد أن يراك بشدّة. تعالي، تعالي بسرعة».

- «تيتوس. . . ولكن لماذا ذهب إليك. .؟ أوه ما أغرب ذلك، ما أبشعه!. .».

- «حسبت أنك ستكونين سعيدة!».

- «أما أن يأتي إليك. . . أوه يا عزيزي، ماذا سأفعل، ماذا سأفعل. .» استحالت بغتة إلى طفل شاك مشتت الذهن.

- «تعالي لتريه، هيا، انهضي». وجذبتها لكي تقوم. «ما خطبك؟ ألا تريدين أن تري ابنك، أليس من المدهش أن يعود؟».

- «بلى، من المدهش. . ولكن يجب أن أبقى هنا. . أخبره أن يأتي إلى هنا. وينبغي أن يقول إنه لم يكن معك. .».

- «إنه لا يريد أن يأتي إلى هنا، هذه هي المسألة! هيًا، يا هارتلي، كفّي عن التصرّف كالسائرة أثناء نومها، تحرّكي، تصرّفي! لن يأتي إلى هنا أبداً. وأنت تعلمين ذلك. تعالي معي، إنه ينتظرنا، وفي الوقت متّسع لرؤيته قبل أن يرجع «بن». لديّ سيّارة تنتظر عند قاع التل». وشرعت أجرّها صوب الغيضة وممرّ المشاة، ولكنها قاومت، وجلست بجنون مرّة أخرى على الأرض.

- «ولكن أخبرني. تيتوس. . . هل هو. . .؟».

- «أوه، أسرعي! إذا كنت تريدين ألا يقول تيتوس إنه رآني، فمن الأفضل أن تأتي وتقولي له ذلك بنفسك!».

هـذا الجدل المشوَّش بما فيـه الكفايـة يبدو أنـه أثَّر عليهـا، أو على الأقـل مسَّها من خلال الهلع الذي استولى عليهـا. «فليكن، غير أنني لن أمكث سوى دقائق قلائل، على أن تعود بي في الحال!».

- «نعم، نعم، نعم. . .». . . وجذبتها لتقف على قدميها مرة أخرى.
- «وينبغـي أن نمكث في الغابة، قد يرانا أحد. . .».
- «كنت أظن أنك لا تعرفين أحداً هنا! والآن هيا أسرعي. . .».

نزلنا عن طريق الغابة. وكانت غزيرة النمو في أماكن معينة، ويسودها الـظلام، فتعثرت خـطانا، وجلدتنـا الفروع الكبـيرة، وأعاقتنـا باستمـرار الشجيرات الصغيرة النامية في منتصف الممرّ. وجعلني الارتباك الغبي المحصّن الذي اتسم به تقدمنا أرغب في الصراخ. وكان جسم هارتلي الذي يتحرك إلى جانبي متشنجاً لا رشاقة فيه، أشبه بجر كتلة من الخشب.

خرجنا متسِّخين لاهثين إلى طريق الساحل. وكان جيلبرت قـد سحب الفولكس ڤاجن حتى حافة الحشائش. وما إن شاهدنا خارجين من الغابة حتى أدار المحرك ورجع بالسيارة نحونا.

كانت أيام الإجازة القلائل التي قضاها جيلبرت على شاطىء البحر قد حوَّلته من حال إلى حال. فبدا أكثر شباباً، ولياقة، بل إن خصلات شعره البيض كانت أكثر استرسالاً، وطبيعية. وكان قد ذهب إلى محلات الصيادين وابتاع لنفسه حذاءً مطاطياً خفيفاً وسروالاً من التيل الفاتح، وجيرسا قطنياً فضفاضاً يرتديه الآن فوق قميص أبيض. وقد تخلى الآن عن مكياجه البشع. كانت هذه أياماً بديعة لجيلبرت، إذ أصبح شخصاً ضرورياً، وكان يعاونني في الحصول على امرأة أخرى غير ليزي، كما كان منغمساً في مغامرة تتعلق بغلام ساحر. وكانت عيناه تتوهَّجان بالحيوية وحبّ الاستطلاع. أسلمت هارتلي إلى مؤخرة السيارة، وركبت بعدها، محاولاً بغتة أن أرى كلّاً منهما من خلال عينيْ الآخر. فكان جيلبرت يبدو كجنتلمان وسيم أحسنت تغذيته وأشبه بشخص

موسر يقضي إجازته. ولّت تصرفات الساقي (كبير الخدم) وظهرت الآن تصرفات السيد المهذب الذي يملك يختاً. ولكن كلا، لم أكن أتخيل كيف يرى جيلبرت حبيبتي، أو ماذا كان يتوقع أن يكون شكل «الحب الأوحد».

ـ «هذه صديقتي يا سيد أوبيان. السيدة ڤيتش، أسرع بنا، يا جيلبرت».

التفتت هارتلي نحوي أثناء سير السيارة بسرعة على طول الطريق الساحلي، ولكنها لم تتفوه بشيء. وتشبثت ـ ربما لا شعورياً ـ بكم قميصي بإحدى يديها. جلست مسترخياً، راضياً عن شعوري بملمس أناملها وركبتها. واصطبغت عيناها بلونهما البنفسجي، كما اكتسى وجهها بذلك التعبير المتوتر المتوجس الذي كان يجعلها أثناء شبابها مشتهاة بضراوة. أما الآن فقد جعلها أشبه بالمجنونة. ألفيت نفسي أبتسم فرحاً بشعور الأمان المُغْلق داخل السيارة، وبسرعتها. وكان إحساسي غامراً بهذا الهرب الناجح. فابتسمتُ إليها كالمخبول.

وعندما توقفت السيارة عند مدخل المنزل ترددت في النزول. «أيعرف أنني قادمة؟ الا يمكنه أن يأتي إلى هنا في السيَّارة؟».

ـ ««هارتلي، حبيبتي، افعلي ما تؤمرين به!».

وعندما أقنعتها بالخروج، مضى جيلبرت بالسيارة، وفقاً للتعليمات، فاختفت عند الناصية في اتجاه الغراب الأسحم.

وكنت قد أخبرت تيتوس بأن يمكث في المطبخ، غير أنه عندما شاهدنا في منتصف الطريق عبر المدخل فتح الباب الأمامي.

كان ذهني مستغرقاً في التفاصيل الآلية لخطتي بحيث لم أفكر حقاً فيما يمكن أن يكون عليه شكل هذا اللقاء. فمقاصدي كانت قد تجاوزته، كما أن آمالي كانت تقوم بتجميع مستقبل أقل ارتباكاً. أما الآن فقد رُدِدْتُ ـ على كل حال ـ رداً عنيفاً إلى الحاضر، وإلى إحساس مضطرب محفوف بالخطر بما صنعته.

ما إن وقع بصر هارتلي على تيتوس حتى توقفت وطرأ على وجهها تغيُّر رهيب. فغرت فاهاً، وتهدلت شفتاها بصورة دميمة وكأنها تريد أن تبكي، وأغمضت عينيها نصف إغماضة، واتخذ جبينها تلك الهيئة «الضارعة» Pitted التي شاهدتها من قبل؛ غير أن ما كان يعبِّر عنه هذا كله لم يكن صدمة ولا شيئاً من الفرح الغامر الحزين، إنما كان تعبيراً عن الذنب والتوسل. وفي الوقت نفسه بسطت يديها ـ لا شعورياً ـ مفتوحتين على آخرهما على كلا جانبيها، لا في حركة عناق، بل في ضراعة.

أدركت هذا كله بسرعة، وتألمت فوراً بسببه حتى كدت أن أصرخ، كفِّي عن هذا، كفِّي عن هذا! أردت أن أتدخل بدافع الرحمة بين مقاتلين غير متكافئين. غير أنني استُبْعِدتُ فعلاً من المشهد. فقد تقدم تيتوس إلى الأمام، مقطّب الجبين، بصورة رجولية، وقد زوى عينيه، معتزماً أن يكون حازماً هادئاً لا يبدي أي انفعال. بيد أنه لم يستطع على كل حال أن يخفي انفعالاته، لأنها تبدت في كل حركاته، حتى في طريقة مشيه، وفي أنه كان ينحني لإنهاض متضرعة. إذ تقدم نحوها ولملمها بشيء من الخشونة وهو يدفعها نحو الباب. ورأيته يدفعها من خلال المدخل، وقد وضع يديه في منتصف ظهرها. فهرولت في أعقابهما.

وعندما دخلت كانا يتحادثان فعلاً، وهما يقفان في الصالة. وأحسست أن ما بينهما لا يشبه ما يكون بين الأم وابنها. ومع ذلك لِمَ لا؟ العلاقات الأسرية تتسم كلها بالاضطرابات والغرابة. أو لعل هارتلي لم تفلح في أن تصير أمه، أو لم يُسمح لها بذلك؟ ماذا يمكن أن يقولا؟.

ـ «لم نكن نعرف أين كنت، أين ذهبت، حاولنا وحاولنا أن نكتشف المسألة، حاولنا جاهدين، وسألنا بكل تأكيد. . .» هذا وكأنما كان تيتوس يتهمها بأنها أخفقت في العثور عليه.

ـ «نعم، نعم، أنا على ما يرام، أنا على خير ما يرام، أنا في أحسن حال»، وذلك في إجابةٍ على سؤال لم يوضع بعد.

ـ «أنت بخير، ولديك عملك أم ما زلت. . . أين تقيم؟».

ـ «أنا عاطل، ولا أقيم في أي مكان».

ـ «تركنا عنواننا مع الناس في حالة ضياعه منك، في حالة عودتك. وكتبت خطاباً. . .».

ـ «كل شيء على ما يرام، يا ماري، كل شيء على ما يرام. .».

ولإيقاف هذه المحادثة التي أراها مريعة إلى حد ما (لم أكن أطيق الاستماع إليه وهو يطمئنها ويدعوها «ماري») قلت: «لماذا لا تدخلان إلى المطبخ؟ أتحبان تناول مشروبٍ؟» كنت في حاجة إلى كأس من الشراب، وفي موقفهما هذا كنت أتلهف عليه، غير أن أحداً منهما لم تَبْدُ عليه ضرورة لذلك، والواقع أنهما تجاهلا السؤال.

ذهب تيتوس ليدخل المطبخ وتبعته هارتلي، ثم وقفا بجوار المائدة متمسكين بها، وكل منهما ينظر إلى الآخر بوجه متوهج مجروح. وكانت نظرة هارتلي تعبرِ عن التوسل الخجول وعن الخوف، أما نظرته فكانت تنم عن شفقة خزيانة متقززة. كان في الحجرة قَدْرٌ وفيرٌ من الألم، وكان أشبه بحاجز مادي. وقفت أراقبهما، راغباً في مدّ يد العون، في اعتراض حديثهما. «ألكما في شيء من العشاء؟ دعونا نتناول شيئاً من العشاء، ألنا في ذلك؟ دعونا نتحدث. . .».

قال تيتوس: «بالطبع أنا لم أفقد عنوانك أبداً».

وقالت هارتلي: «ينبغي الا أبقى. أتحب أن تأتي إلى مسكننا؟ ولكن ينبغي أن تقول إنك لم تكن هنا. أتحب. . ؟».

وهز تيتوس رأسه.

واصلت قائلة: «بن لا يعرف أنك أتيت، وقد خرج، ذهب ماشياً إلى مزرعة ليسأل عن كلب».

قال تيتوس: «عن كلب؟».

- «نعم، نحن نفكر في اقتناء كلب».
- «من أي نوع؟».
- «كولي ويلزي».
- «هل سيصحب الكلب معه عند عودته؟».
- «لا أدري».

كان هذا على الأقل أشبه بموضوع للمحادثة.

وكنت قد تعبت من بقائي لا مرئياً ولا مسموعاً، ومن ثم فقد صحت: «تناولا مشروباً، تناولا شيئاً من العشاء!».

ولوح تيتوس بيده في اتجاهي دون أن ينظر إليّ، ثم قال لهارتلي: «تعالي إلى هنا». فتبعته إلى الحجرة الصغيرة الحمراء، وأغلق الباب في وجهي.

قرّرت الآن - ولم يكن قراري فورياً - أن من الخير أن أتركهما على انفراد. وفضلاً عن ذلك، كان لا بد بعد أن أصبحت هارتلي هنا الآن، من أن أجتهد في وضع مزيد من التفاصيل للخطوات التالية الحاسمة الخطرة. وقفت لحظة في الصالة مستغرقاً في التفكير، ثم صعدت ركضاً إلى الطابق الأعلى ومنه إلى حجرة المكتب، وانتزعت أوراقاً للكتابة. وكنت قد وجدت في أحد الأدراج ورقة مزخرفة تتعلق بـ «شراف إند» لا بد أنها تخص السيدة تشورني، وعلى صفحة ملساء من هذه الأوراق كتبتُ:

عزيزي السيد ڤيتش

لمجرد أن أقول إن ماري موجودة هنا معي، وتيتوس أيضاً.

المخلص

تشارلز آروبي

دبست هذه الورقة في مظروف وخرجت ركضاً من المنزل.

أدهشني إلى حد ما أن أستقبل أمسية صيف دافئة تسعى إلى القدوم. أو لعل المنزل كان بارداً، أو لعلي كنت أشعر بالبرودة، أو ربما شعرت بأن الزمن العادي ينبغي أن يتوقف. وكانت الحشائش على الجانب الآخر من الطريق تموج بخضرة زمردية، والصخور التي تتناثر هنا وهناك بين الحشائش تشعّ بأضواء باهرة تنبعث من ماسات صغيرة. صافحني الهواء الدافىء بموجة كثيفة من عبق الأرض والسماء والزهور.

عدوت عبر الممر ثم على طول الطريق في اتجاه البرج والخليج، ثم حول الناصية حيث كان الخليج ظاهراً. وهنا كان جيلبرت قد أوقف السيارة في الانتظار، خضوعاً لأوامري. وكنت أريدها متوارية عن الأنظار إذا كان لا بدّ من إنباء هارتلي بأكذوبة فيما بعد.

كان جيلبرت جالساً على صخرة، متأملاً للماء الأزرق المتلألىء بأضوائه. وما إن رآني حتى وثب ناهضاً وجرى نحوي.

- «جيلبرت، أيمكنك أن تأخذ الآن هذا الخطاب وأن تسلّمه في النيبليتس في البانجالو، أنت تعرفه، إنه آخر بانجالو في الطريق».

- «سمعاً وطاعة أيها الرئيس. كيف تجري الأمور هناك؟».

- «على ما يرام. إذهب الآن، هناك رجل طيب. ثم ارجع مرة أخرى وانتظرها».

- «ماذا عن عشائي؟ الا أستطيع أن أحضر إلى المنزل؟» وكان جيلبرت الذي ينفجر بالفضول - يشتاق إلى التدخل في شؤون الآخرين المحيطين به.

ولم أحقق له مأربه: «كلا، ليس بعد. من الأفضل أن تبتاع لنفسك

شطيرة من حانة «الأسد الأسود»، ثم عد إلى هنا. لست أدري بالضبط ما سوف يقع».

ـ «ليست أشياء عنيفة، على ما أرجو؟».

ـ «وكذلك أرجو أنا أيضاً، أسرع، الآن...».

ـ «ولكن يا سيدي الحا.. كم».

ـ «اذهب».

ـ «أستطيع أن أبقى في الحانة لكأس من الشراب، هل أستطيع، أكاد أموت شوقاً إلى الشراب...».

ـ «أجل، ولكن لا تَغِبْ طويلاً، أربع دقائق».

ولما نظرت إلى وجه جيلبرت المزمجر تذكرت باستياء «فريدي آركرايت». والآن أصبح هؤلاء الأركرايت» في كل مكان، كما أنهم سيطروا على «بن».

عدت راكضاً، ومرت بي السيارة وأنا في طريق المدخل. دخلت المنزل (الذي كان بارداً) ومضيت إلى المطبخ حيث صببت لنفسي نصف كأس من الشيري الجاف. ولم أنصت على باب الحجرة الحمراء، بل خرجت إلى الحشائش، وتسلقت مسافة قصيرة إلى إحدى الصخور التي أستطيع منها رؤية البحر وبدأت أرتشف الشيري.

الأمور حتى الآن تسير سيراً حسناً. ولكن كيف ستسلك هارتلى عندما أشرع في تشغيل البرِّيمة؟ وماذا سيفعل «بن» عندما يتسلم إخطاري؟ متى سيحصل عليه؟ إذا سار إلى مزرعة آمورن ومنها، وسمحنا بنصف ساعة للكلب، فسيعود إلى النيبليتس في حوالي التاسعة والنصف. وكان الوقت الآن قد تجاوز الثامنة بقليل. تذكرت أنني جوعان، وقد جعلني الشيري خفيف الرأس. ومهما يكن من أمر، إذا أسرع به آركرايت الملعون عائداً بالسيارة إلى المنزل، فإنه سيرجع إلى المنزل بعد الثامنة والنصف. ومن ناحية أخرى، إذا سار عائداً بصحبة الكلب، فمن الجائز ألَّا يصل إلَّا في الساعة

العاشرة تقريباً. على كل حال لماذا أراد هذا الكلب بغتة، ولأي غرض؟ أيريد أن يبرمج (يدرِّب) هذا الحيوان لمهاجمتي؟.

وقررت بعد إمعان الفكر أنه ليس من المهم كثيراً أن يعود «بن» في وقت معين ما دام من المحتمل ألا يقوم الليلة بأي تحرك. سوف ينتظر، متوقعاً أن تظهر هارتلي وتيتوس أولاً، ثم يصرف بأسنانه. بل تخيَّلته وقد وجد رضىً أسود في غضبه المتصاعد. إنه ليس رجلاً لطيفاً.

أنهيت الشيري وذهبت إلى الداخل. واستمرت همهمة الأصوات في الحجرة الصيفية الحمراء. وظننت عندئذٍ أنه كلما طال الكلام بينهما حقاً كان ذلك أفضل، فإن كل دقيقة تمضي يمكن أن تربط كلًّا منهما بالآخر برباط أوثق، كما أنها يمكن أن تستهلك الوقت الخَطِر. وإذا قرصهما الجوع فقد يخرجان. ولكن الأرجح هو أنهما كانا من شدة الانفعال بحيث لا يشعران بالجوع.

وعلى الرغم من خوفي لم أكن كذلك. فجلست برهة آكل البسكويت والزيتون، ثم وضعت بقايا أكلة السمك على صحن وأخذته إلى الخارج مرة أخرى، مع كأس من النبيذ الأبيض، واستأنفت تأملي للبحر. كنت أشعر بأنني في غاية الغرابة، وفي شدة الانفعال، عصبياً، ثملاً إلى حد ما، وإن كنتُ صافي الذهن.

وعلى الفور سمعت تيتوس وهو يصيح. وكان من الجلي أنه لا يستطيع أن يقرر هل يصيح «تشارلز» أو «السيد آروبي!»، وإنما نادى عدة مرات، «أنتم يا من هناك!» تلتها أنواع عاجلة متباينة من نعيق البوم.

رأيت أن أتجاهل هذه الصيحات، غير أنني قررت أن من الأفضل ألا أتجاهلها، وإن كان توقع «بن» بعيد الاحتمال في هذا الوقت المبكر. عدت محاذراً إلى الغيضة بصحني وكأسي.

كان تيتوس وهارتلي يقفان في الخارج عند الباب، وقد لاحت على وجهها تلك النظرة المذعورة الذاهلة التي أعرفها الآن جيداً.

قال تيتوس: «انظر، ماري تعتقد أنه من الأفضل أن ترحل. أخبرتها أن هناك متسعاً من الوقت، ولكنها تريد أن تذهب الآن، موافق؟».

قالت هارتلي: «هل أستطيع أن آخذ السيارة فوراً، من فضلك؟» وكانت تتكلم بنبرة جافة توشك أن تكون غاضبة.

قال تيتوس: «نظرت في الواجهة الأمامية، فلم أستطع أن أراها. إنها منزعجة غاية الانزعاج».

قلت: «لا شيء يدعو للانزعاج»، ودخلت المطبخ، فتبعاني. «ألا تريد أن شيئاً من العشاء؟».

قالت هارتلي: «ينبغي أن أذهب»، كان زمنها مع تيتوس ـ أياً كان ـ قد انتهى الآن، وجاء الزمن القاسي الذي يسيطر عليه الزوج والذي يستعبدها فيه، بحيث طرد حتى تيتوس من رأسها. وعاد الهلع القديم. ما أشد بغضي لتلك النظرة الجامحة التي لا ترحم، نظرة الخوف التي تطلّ من وجهها! إنها تحيلها إلى شيء دميم، على حين بدت جميلة وهي في الغابة عندما لثمت يدي.

قال تيتوس: «هيا، أين السيارة، لا بد أن تعود إلى البيت».

من الجلي أن تيتوس قد نسي أن مهمته هي الاحتفاظ بهارتلي في «شراف إند». أو الأرجح أنه قد أصيب بعدوى خوفها. وكنت شديد اللباقة في تفسيراتي لتيتوس. وشديد الإبهام. فلم أخبره بكل ما يدور في ذهني لأنني لا أعرف كيف يمكن أن يكون رد فعله. وكنت قد أخبرته بأن فكرتي هي أن تريد هارتلي البقاء، وأن عليه هو أن يضيف ضروب إقناعاته. غير أنني رأيت الآن أن من واجبي أن أكون أكثر صراحة.

قلت: «لا داعي للذهاب».

قالت هارتلي: «لقد مكثت بالفعل فترة أطول مما كنت أقصد. قال إنه سيعود حوالي الساعة التاسعة والنصف. ولكن من الممكن أن يعود قبل

ذلك. ومن ثمّ، أرجوك، يجب أن أذهب الآن، هذه اللحظة بالذات».

ـ «لا داعي لذلك. لقد أرسلت أوپيان بإخطار يقول إنك هنا مع تيتوس، ومن ثمّ فلن يساوره القلق، وسيأتي إلى هنا. وعلى هذا يمكن لجيلبرت أن يعود بكم جميعاً.

وأطلق تيتوس صفيراً. فقد أدرك على الفور جسامة ما فعلت.
واستغرقت هارتلي لحظة في إدراك هذه الفعلة. «تعني... تعني... أنك أخبرته، عَمْداً أخبرتَه... أوه، أنت أيها الشرير، أوه، أيها الأحمق.. إنك لا تدري... إنك لا تدري...» وانبجست دموع الغضب واليأس من عينيها، واتقد وجهها نحوي.. فتراجعتُ إلى الوراء.

قلت، وأنا أتابع الدور الذي تبنيته، وإن كنت أتحدث أيضاً بإخلاص: «هارتلي، ينبغي ألا تخافي منه على هذا النحو! لقد سئمت تماماً موقفك من هذا الرجل اللعين. لماذا ينبغي أن تشعري طيلة الوقت بأنه لا بد لك من أن تكذبي عليه؟ لماذا بحقّ الجحيم لا تكونين هنا مع تيتوس؟ هذا شيء طبيعي تماماً وسليم!».

نظر تيتوس إلى هارتلي باهتمام تام، ونظر إليّ بنظرة ملغزة. «وهل دعوته إلى هنا؟ يا للسيد المسيح!» ثم أردف قائلاً: «إنه لم ير الخطاب بالطبع لأنه لم يذهب إلى البيت بعد».

ونظرت هارتلي إلى ساعتها فأدركت هذا أيضاً. «أوه، نعم، ينبغي ألا يراه، ينبغي ألا يراه! ولو ذهبنا من فورنا لأتيح لنا الوقت للوصول قبل أن يراه. ومن ثمّ سيكون كل شيء على ما يرام. كل ما في الأمر، ينبغي ألا يرى الخطاب. أرجوك، يجب أن نذهب في الحال؛ السيارة، السيارة!».

وبهدوء يثير الجنون قلت: «متأسف بفظاعة، غير أن السيارة ليست هنا، إنها ذهبت إلى حظيرة السيارات في فندق الغراب، هناك أعطال في المحرك».

قال تيتوس: «متى ستعود؟».

ـ «لا أدري، عاجلاً، على ما أظن».

ـ «نستطيع أن نتصل بهم هاتفياً».

ـ «ليس عندي هاتف».

«فصرخت هارتلي: «يجب أن أذهب، يجب أن أذهب، يجب أن أذهب، إذا ركضت فسوف أصل إلى هناك في الموعد. . .».

قال تيتوس: «سأجري من أجلك».

قلت وأنا أحملق فيه: «كلا، لن تفعل، والآن، اجلسي يا هارتلي هنا عند المائدة، وكفّي عن التصرف كشخص مخبول. من المحتمل أن تعود السيارة في أية لحظة. ولكن، اسمعي، أنا لا أريدك أن ترجعي إلى هناك، أن ترجعي إليه، أن ترجعي إلى منزلـه. أريدك أن تمكثي هنـا، أن تمكثي مع تيتـوس ومعي». وألقيت على تيتوس نظرة أخرى ذات معنى. وشعرت بأنني أعيد الصواب إلى رأسه.

جلست هـارتـلي وأخذت تنقّل عينيهـا مني إلى تيتوس وبـالعكس كأنها حيوان مذعور. جلست بجوارها. كانت ترتجف، وشاهدت شيئاً من بزوغ الفهم في عينيها المرتعبتين. وساد فجأة جو الأزمة.

قال تيتوس: «إنها تريد العودة. وسأعود معها. لقد قررت ذلك».

قلت محاولاً كسب الوقت: «كلا، كلا، سيبقى كل منكما هنا. هارتلي، عزيزتي، سيعرف أين أنت، ولن يذهب به الفكر إلى أنك غرقت. ويستطيع أن يأتي ليرى تيتوس هنا، تيتوس سيبقى هنا، إنه يقيم هنا. تيتوس، إنك لا تريد أن تذهب إلى هناك حقاً، أليس كذلك؟».

قال تيتوس مرة أخرى وقد بدا عليه الغم: «إنها تريد العودة. ولا تريده أن يرى الخطاب. ما زال في الوقت متسع. أستطيع أن أجري إلى هناك في

عشرين دقيقة. المنزل وراء القرية مباشرة، أليس كذلك؟» وصاحت هارتلي:

- «أوه، إذهب، أرجوك، أرجوك، إذهب الآن. ليس الباب موصداً، إنك تستطيع أن. . .».

- «أم ينبغي أن أجري إلى الفندق؟ أيهما أقرب؟».

قلت لتيتوس: «إنني أريده أن يرى الخطاب. وأن تمكثا هنا كلاكما. أترانا عبيد ذلك الرجل؟ إنني أريد أن أُخْرج أمك من ذلك القفص».

وأطلقت هارتلي صرخة جزع.

قال تيتوس: «لماذا تريده أن يطّلع على الخطاب؟ أنا لا أفهم شيئاً من هذا كله، إنه أشبه بمؤامرة. قلت إنك تمنيت أن تريد هي رؤيتي هنا، وقد حدث. ولكنني أظن أنك كنت تقصد أن تلقي حقيبة الألاعيب كلها على أم رأسها».

قلت: «هذا بالضبط هو ما أردت أن أفعله: أن ألقي بحقيبة الألاعيب كلها على رأسها».

- «كلا، كلا!» وهبّت هارتلي واقفة، واندفعت صوب الباب.

هرولت وراءها، فلما أدركت كتفها أخذت بتلابيب ثوبها فتمزق قليلاً. وعندما أحسست أنه تمزق، توقفت. ثم رجعت إلى المائدة ودفنت وجهها بين يديها.

قال تيتوس: «انظر، أنا لا أحب هذا، إنك لا تستطيع أن تحتفظ بها هنا رغم أنفها».

- «أريدها أن تكون قادرة على اتخاذ قرارها بحرية».

قال تيتوس: «بحرية؟ إنها لا تستطيع. لقد نسيت معنى الحرية منذ أمد بعيد. وفضلاً عن ذلك، إذا احتفظت بها هنا فإنها ستكون في حالة من

الخوف لن تسمح لها بالتفكير. أنت لا تدري معنى هذا، إنها قد تصاب بالجنون. أخشى أنني أسأت الفهم، إنك لم تقل هذا، غير أنني ظننت أن هناك نوعاً من التفاهم معها. وحسبت أنها مستعدة على نحو ما. غير أنك لا تستطيع أن تجعل شخصاً ما يهجر شخصاً آخر بغتة بعد أن عاشره عدة سنين».

- «ولِمَ لا؟ عندما يهجر الناس أشخاصاً عاشروهم عدة سنين فإنهم يفعلون ذلك بغتة، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة. وأنا أساعدها على أن تفعل ما تريده حقاً، ولكنها لا تستطيع أن تفعله بلا مساعدة. أليس هذا واضحاً؟».

- «كلا، ليس واضحا».
- «ستهدأ، وستكون قادرة على التفكير عاجلاً، غداً».
- «غداً؟ هنا؟».
- «نعم».
- «أتريد إبقاءها طوال الليل؟».
- «نعم».
- «افترض أنه أتى؟».
- «لا أعتقد أنه سيأتي. وللإجابة على سؤالك السابق، أنا لم أوجِّه الدعوة».
- «أوه، يا للسيد المسيح! ماذا سيظن؟».

قلت: «لا يعنيني إطلاقاً ما يظنه، والواقع أنه كلما ذهب تفكيره إلى الأسوأ، كان ذلك أفضل. دعه يفكر في أي شيء يصوره له خياله السقيم».

«أهذا جزء... من شد كل شيء إلى أسفل؟».
- «نعم».

قال تيتوس: «يا إلهي!» ثم قال: «أعتقد أن هذا شيء مبتذل. ولا أحب هذا الكلام عنها كأنها طفلة أو مريض عقلي. سأذهب للسباحة».

- «تيتوس... لا تظنّ بي سوءاً أنت أيضاً... فأنت ترى...».

- «أوه، أنا لا أظن بك سوءاً بحال من الأحوال. والواقع أنني مبهور الأنفاس إعجاباً بك. كل ما في الأمر إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك أنا نفسي».

- «ستجرى إلى هناك من أجل الخطاب؟».

- «كلا، أتوقع أن الوقت أصبح متأخراً جداً على كل حال».

- «ولن تهرب مني؟».

- «لن أهرب منك».

وخرج من الباب الخلفي.

وفي الخارج، كان المساء في أواخره وقد تكاثر عليه الغيم، وكانت ظلال الصخور طويلة، طويلة على الحشائش. ولم أنظر في ساعتي، بل جلست إلى جانب هارتلي.

كانت قد أزاحت يديها عن وجهها، وجلست مسترخية، وهي تحملق في المائدة. وفي المكان الذي سحبتها فيه من ردائها كان ثمة مثلث صغير ممزق. وكنت أستطيع أن ألمح تلويحة الشمس الضاربة إلى الحمرة الداكنة التي تقود العين ابتداءً من حلقها إلى أسفل منه. كما كنت أستطيع أن أرى حمالة قميصها واستدارة نهديها المضمومين، وحركة تنفسها السريعة اللاهثة.

كان الموقف مبتذلاً بكل تأكيد. كنت أريد من الشروع في هذه الخطة التي دارت في ذهني أن أستبقي هارتلي هنا، بالقوة إذا استدعى الأمر؛ غير أنني لم أتخيل التفاصيل، كما كنت أرجو على نحو ما أنها ما إن ترى تيتوس في منزلي حتى تقوم بوثبة ذهنية، بالحدس، بذلك التخمين الضروري: أن تشاهد حريتها وإمكانية العيش مع تيتوس ومعي. وما إن تستحوذ على حريتها، حتى

يكـون لديّ أمـل قوي عميق في أن تـأتي إليّ، حتى لـو كـان تيتـوس مقـداراً مجهولاً يمتلك حريته الخاصة التي يستطيع أن يتصرف بها كيفما شاء. ولكن لعلي قد تحركت بأسرع مما ينبغي حقاً، مستلهماً لظهور الصبي ـ الذي لم يكن في الحسبان ـ بعنايـة الله وفضله. ذلك أن فـظائع نصف السـاعة الأخـيرة قد زعزعت عزيمتي بحيث أوشكت بعد هذا كله على التفكير في اصطحابها إلى بيتها، ومع ذلك، هل أستطيع أن أفعل هذا الآن؟ من المؤكد أنه عاد وقرأ ذلـك الخطابٍ و. . قـد نجحت خطتي عـلى أحسن وجه بحيث أوقعتني بـدوري في فخٍها. ونـظرت الآن إلى ساعتي. كـانت تشير إلى خمس وعشرين دقيقة بعد التاسعة.

تناولت راحتيهـا ووضعت إحداهما فوق الأخرى بعناية، ثم وضعت كفّي عليهما. ثم أدرتُ وجهها ناحية لتنظر إليّ. لم تكن تبكي. ولم أتلق نظرتها الحـادة القلقة التي أخشـاها كثيـراً، الأمر الـذي بعث في نفسي ارتيـاحـاً لا سبيل إلى وصفه، وإنمـا تلقيت نظرة جـديدة هـادئة، وديعـة، مستغرقـة في التفكـير؛ ومع أنها كـانت تبدو شـديدة الحـزن، إلاّ أنها كانت تبـدو أصغر سنّاً، وأكثر شبهاً بذاتها القديمة، بل أشدّ حيوية أيضاً، وأقـلّ فتوراً، وأكـثر ذكاءً. . عادت إليّ ثقتي. من يـدري، لعلّ حـريتها بـدأت تتحرَّك، وربّمـا كانت خطّتي سديدة. وكانت المسألة مسألة علاج، علاجٍ نفساني. وقـرّرت في الحـال أن إظهـاري لأي ضعف الآن سيكـون قـاتـلاً. ينبغي أن أكـون مُـطْلقاً، ينبغي أن أكـون بالكـامـل الشخص الـذي جعـل تيتـوس مبهـور الأنفاس إعجاباً.

«لن أدعك تذهبين، يا هارتلي، لا هذه الليلة فحسب، بل إلى الأبد. لن تستـطيعي الرجـوع الليلة على كـل حال. وقـد فات أوان اسـترداد ذلـك الخطاب. لقد حصل عليه الآن. دعيه يفكر كيفما شاء له الهوى، لماذا ينبغي أن تخافيه وأن تكذبي عليه؟ هذا يسيء إليّ كثيراً. ولا أستطيع احتماله، كما لا يستطيع تيتوس احتماله، تيتوس يريدك، ولكنه لا يريده. ألا يوحي ذلـك

بشيء لعقلك؟ إنني أحب تيتوس، وتيتوس يحبني. لماذا لا يكون تيتوس ابني، ولماذا لا تكونين زوجتي؟ إنه القدر، يا هارتلي، القدر. لماذا ظهر تيتوس الآن في هذه اللحظة، ولماذا أتى إليّ؟ ولماذا كان لا بد أن أكون هنا على كل حال؟ لا بد أن تدركي كيف تضافرت الأحداث على هذا النحو غير المألوف. تيتوس يتمنّى أن يكون معك، غير أنه لم يكن ليذهب إلى هناك على الإطلاق. لقد كنت سعيدة برؤيته، أليس كذلك؟ وكنت قادرة على الحديث إليه. فيم كنتما تتحدثان؟».

- «عن الكلاب...».

- «الكلاب؟».

- «كان يتذكر الكلاب التي اقتنيناها أثناء طفولته، إنه يحب الحيوانات».

- «أوه.. طيِّب. هارتلي، استرخي، دعي الأمور تجري في مجراها، دعيها تسقط..».

- «ما هذا الذي أدعه يسقط؟».

- «أنت تعرفين... هذا العبء، هذا الوفاء اللامجدي، هذه التضحية التي لا معنى لها. إنك تجعلين حياته تعاسةً أيضاً، دعي الأمور تجري في أعنتها.. دعيه يذهب. إنك أشبه بإنسانة نصف ـ ميتة».

قالت في شيء من التروي: «أجل، أحسست بأنني نصف ميتة... نعم.. في كثير من الأحيان. وأظن أن كثيراً من الناس يشعرون بذلك. غير أنك تستطيع أن تعيش على نصف الموت هذا، وتستمتع في الوقت نفسه بمباهج الحياة».

هذه النغمة المتروية في صوتها جعلتني أريد أن أغنّي فرحاً. أوشكت أن أصل إليها. كانت تتحدث عنها، عنها. كنت أوقظ أميرتي النائمة. «لا بد أنك جوعانة. إليك شيئاً من النبيذ، ومن السمك، هذه قطعة بقيت».

- «سأكتفي بشيء من النبيذ. وبقطعة من هذا الخبز».

- «والجبن، والزيتون».
- «أنا لا أحب الزيتون، قلت لك ذلك من قبل».

أكلت لقيمات من الخبز والجبن، ثم أزاحتهما جانباً، واحتست شيئاً من النبيذ، وشربت أنا أيضاً قليلاً منه. ولم تكن لي شهية للأكل.

- «أتدرين يا هارتلي، أعتقد أنك عبرت الروبيكون* Rubicon. فماذا كان على الجانب الآخر؟ الحرية، والسعادة».

قالت: «شيء حدث بكل تأكيد»، ثم أعطتني وجهاً أكثر هدوءاً، وهي تتعمد تنعيم جبينها بيدها. ثم عمدت أيضاً إلى تنعيم وجنتيها في محاولة لتشكيل وجهها وجعله هادئاً طَلْقاً. كانت هناك مقدرة، مقدرة شدَّت من عزمي. شاهدت مرة أخرى الطريقة التي تكون بها «شراستها» أيضاً نوعاً من السكينة «غير أن ذلك ليس ما تفكر فيه. إنه لا يمت بصلة إلى السعادة. لن أدخل في نضال معك يا عزيزي تشارلز، أعني لن أناضل جسدياً، فأحاول أن أندفع أو أبكي وأصرخ في الوقت الذي لا أستطيع فيه ذلك، وإن كان هذا هو ما أقوم به الآن في ذهني، أبكي وأصرخ. تعلمت أن هناك لحظات ينبغي على المرء فيها أن يطوي يديه. أستطيع أن أرى ما تريد أن تفعله ولماذا. تريد أن تحطم زواجي، أن تجعله ينفجر، ولكنه لن يتحطم ولن ينفجر. إنه غير قابل للتدمير».

- «تتحدثين عنه كأنه سجن».
- «الناس يعيشون في سجون».
- «إلا إذا كانوا يستطيعون الخروج منها».

(★) الروبيكون نهر إيطالي يصب في البحر الأدرياتيكي إلى الشمال قليلاً من ريميني Rimini. وهو يشكل الحد الفاصل بين إيطاليا الجمهورية وإقليم الغال. وعندما قام قيصر بعبوره على رأس فيلق عام ٤٩ ق.م. أعلن الحرب على مجلس الشيوخ (المترجم).

ـ «أحياناً. ولكنك. . . أوه إنك لا تفهم. لن يمكنك إلا أن تجعل الأشياء أسوأ. وقد فعلت هذا الليلة».

كانت كلماتها، ونبرتها تبدو الآن رهيبة، وكأنها قاضٍ هادىء ينطق حكماً بالإعدام. ومع ذلك حدثت نفسي قائلاً لو أنها كانت حريصة على الذهاب بصورة يائسة مطلقة، إذن لبكت وصرخت، واستطاعت أن تعتقد ـ على نحو معقول ـ بأن هذا كفيل برضوخي لها. ومن ثمَّ، ما دامت قد ثابت إلى الهدوء، وإن يكن ذلك بصورة مأساوية، فلا بدّ أنها تشعر بشيء من السرور لأنني أرغمتها على البقاء. ولم يكن من شك في أن مشاعرها كانت مختلطة متشابكة على نحوٍ فظيع.

ازدادت الظلمة قليلاً الآنَ في المطبخ. ودخل تيتوس من خلال الباب الخارجي وذهب إلى الموقد. لم ينظر إلينا. ووجد الصحن الذي يحتوي على بقايا أكلة السمك. وفجأة، تذكرت جيلبرت الذي لا بد أن يكون ملازماً لموقعه في الخارج. ناديت تيتوس الذي اختفى في الصالة مع صحن السمك. «إذهب وأخبر جيلبرت أن يأتي. إنه هناك عند البرج مع السيارة. ثم أوصد الباب الأمامي».

قدَّمت لها مزيداً من النبيذ. كان في هدوئها المستسلم الآن شيء ينذر بالشر. هل تتوقع أن أصحبها إلى بيتها فجأة بعد هذا كله؟ أمن الممكن أن يكون خوفها من هذا الاحتمال هو الذي جعلها بهذا الهدوء؟.

لم أتابع فوراً ما قالته. وإنما نهضت وأوصدت الباب الخارجي، ووضعت المفتاح في جيبي. لم أكن على يقين تام من أن «بن» لن يظهر الليلة على مسرح الأحداث. وأحسست الآن إحساساً قوياً بأنني لا أعبأ كثيراً بحضوره أو غيابه. سمعت جيلبرت أثناء دخوله وهو يشكو لتيتوس بصوت مرتفع، وسمعت المفتاح وهو يدور في الباب الأمامي. أضأت شمعة، وأسدلت الستائر، وإن كان الضوء ما زال منتشراً في الخارج، يصحبه قمر ضخم

فـاتر يصـطبغ بلون أشبـه بجبن ونسلي ديـل Wensley Dale . ولأول مرة أصبحت مع هارتـلي دون حد زمني عـاجل. وكـان إحساس الانفـراد بها، وامتـداد الوقت، شيئـاً غريبـاً، إذ شعـرت بـأنني مبتهـج ولا حقيقي في آن معـاً. واحتسيت مزيداً من النبيذ.

ـ «هارتلي، لا أظن أنني ذقت طعم السعـادة الكاملة ـ أبـداً ـ منذ أن فارقتني. لا يمكن أن تتصوَّري كيف تعذَّبت حينذاك. غير أننا كنـا سعيدين، أليس كذلك؟ عندما كنا نركب دراجتينا. كان هذا هو الشباب، كما ينبغي أن يكون، مبتهجاً، كاملاً. لم أحب أحداً سواك أبداً. وهذا هو السبب الذي يجعلك حقـاً تلتمسين لي العـذر بلا ريب، إذا تمـاديت قليلاً.» اتخـذت نـبرة مخففة، آملاً أن أغريها بإجابة تنطوي عـلى شيء من الرفق، وفكَّـرت، يا إلهي، لو أنني عثرت عليها أثناء الحـرب، لو أنني صـادفتها في شـارع من شوارع ليسستر! وبسرعة خيال الشريط السينمـائي شاهدت كيف يمكن أن ألتقي بها، وكيف يمكن أن تخبرني بأن زواجها كان فاشلاً، أو شيئاً أفضل من ذلك وهو أن «بن» قد مات ميتة الأبطال، و. . . و. . . بل لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك فأخذت أؤلف تفسيري لكليمنت قبل أن تستـأنف هارتـلي حديثها.

ـ «ترى هدوئي هذا أمراً غريباً. إنه نوع من الطمأنينة. أحياناً أشعر بأنه لم يبق أمامي ما أنتظره».

ـ «ماذا تقصدين بذلك؟».

ـ «أحياناً أود لو أنه. . .».

ـ «لو أنه ماذا؟ هل هدَّدك؟»

ـ «كلا، كلا. . . لم يكن هذا ما هممت بقوله».

ـ «ماذا تعنين إذن؟ انظري، إنك لا تستـطيعين أن تعـودي إليه، لن أدعك تذهبين، حتى لو لم تريدي البقاء معي». ولكن، ماذا يمكن أن أفعل إن أرادت ذلك، أعرضها في محل للزهور؟.

ـ «هارتلي، عليك أن تمكثي معي ومع تيتوس، هذا مكانك. وبغض النظر عن أي شيء آخر فإن مجيء تيتوس إليّ سيؤكِّد فكرة «بن» بأنه ابني».

ـ «أفكَّرت في هذا فحسب؟».

ـ «أوه، هارتلي، حبيبتي، ترفّقي بي، ولا تترفَّعي عنِّي كل هذا الترفُّع. اعترفي بذلك، وقوليه، إنك لم تحبي أحداً حقاً سواي، لقد جئت إلى بيتك في نهاية المطاف. في تلك الليلة حين لمحتك في أنوار السيارة كنتِ قد أتيت إلى هنا، لقد أتيت. قولي إنك تحبينني، قولي إن كل شيء سيكون على ما يرام، وإننا سنكون سعيدين. بحق السيد المسيح الا تريدين أن تكوني سعيدة أخيراً وتعيشي مع رجل يحبك، ويشفق عليك ويصدِّق ما تقولين؟ هارتلي؟ انظري إليّ. كلا، تعالي إلى هنا، لست أدري لِمَ نجلس إلى هذه المائدة الغبية؟».

تناولت الشمعة وسحبت هارتلي إلى الغرفة الصغيرة الحمراء وأسدلت الستائر. جلست إلى المقعد ذى المساند وأردت أن أجلسها على ركبتي، ولكنها أنزلقت إلى الأرض عند قدمي، وأمسكت بيدي. شرعت أقبلها ببطء شديد وبعناية، ثم أخذت أهدهد نهديها. كنا أشبه بطفلين، بمراهقين. أحسست نحوها برغبة لا سبيل إلى تمييزها ـ على نحو رائع ـ عن الحب العفيف، رغبة موقَّرة، قوية، تدفعني بحرقة إلى حمايتها. كما كانت رغبتي أيضاً رغبة صبي، غرير، غير مدرَّب، متواضع. لم أكن أعرف كيف أمسك بها أو كيف أجعل شفتيها الجافتين تستجيبان. وأخيراً، انزلقت أنا أيضاً إلى الأرض، مناوراً لكي أجعلها ترقد بطولها إلى جانبي، وضممتها بقوة وأنا أختلس النظر مرتبكاً إلى وجهها.

ـ «هارتلي، إنك تحبينني، أليس كذلك؟».

ـ «أوه. . . نعم. . . ولكن ماذا يعني هذا؟».

ـ «إننا ملتصقان، وكل منا يعرف الآخر».

- «أجل، وهذا غريب، غير أنني أعرفك على نحو ما، وليس هناك من هو قريب مني مثل ذلك. أظن أن هذا لأننا كنا صغيرين، ولم نستطع أن نعرف الناس بعد ذلك، أو لم أستطع أنا».

- «أنت تعرفينني، وأنا أعرفك».

- «أحسست وكأنني لست موجودة، وكأنني لامرئيـة، بعيدة مسافة أميال عن العالم، أميال بعيدة. لا يمكن أن تتصور كم كنت وحيـدة طيلة حياتي كلها. لم تكن هذه غلطة أحد، وإنما كانت غلطتي».

- «أستطيع أن أراك، يا هارتلي، إنك موجودة، إنك هنا. وأنا أحبك، وتيتوس يحبك. وسنكون جميعاً معاً».

- «كفَّ تيتوس عن حبي منذ أمد بعيد».

- «لا تبكي. إنه يحبك، وأنا أعلم ذلك. لقد أخبرني به. سيكون كل شيء على ما يرام، الآن وقد ابتعدت عن ذلك الرجل البغيض».

وجعلت ألامس الدموع الحادثة على وجنتيها، وأخيراً دفعتني برفق، وبدأت تربِّت على وجهي. «أوه، تشارلز... تشارلز... ما أغرب ذلك».

- «نحن الآن كما اعتدنا أن نكون، راقديْن في الغابات... هارتـلي، أتمكثين الليلة معي أخيراً، أرجوك، لمجرد أن نبقى معاً في هدوء؟ لا شيء يرغمنا على أن نرقد هكذا طوال الليل، أليس كذلك؟».

بدت عليها الصرامة، فنهضت جالسة. «إنه النبيذ... لم أتعود عليه... لا بد أنني ثملة... ثملة».

- «إذن، فلا تطلبي مني أن أعود بك الآن! لقد فات الأوان، من كل وجهة نظر ممكنة!».

نهضت على ركبتيها، ثم تصلبت واقفة على قـدميها. نهضت أنـا أيضاً ووقفت في مواجهتهـا ملامساً مرفقيها لمساً لطيفاً بأطراف أصابعي.

ـ «تشارلز، إنك لا تدري ما فعلت. بالطبع سأعود غداً. ولا بد أن أنام الآن، كل ما أريده أن أنام الآن، بمفردي، ويا ليتني مت في نومي، وأتمنى لو عدوت لأهوي في الماء».

ـ «ما هذا الهراء. أتستطيعين السباحة؟».

ـ «كلا».

ـ «دعينا نصعد إلى الطابق العلوي، وعديني ألا تهربي أثناء الليل».

ـ «غداً، لا بدّ أن أعود إلى هناك. هذا كله راجع إلى المزيد من غبائي، أوه، أنا شديدة الغباء، غبية دائماً، ما كان ينبغي أن أترك المنزل أبداً. لست غاضبة عليك. إنها غلطتي، كل شيء من غلطتي. نعم، أظن أنني أحبك، ولم أنسَك قط، وعندما رأيتك أحسست به كله مرة أخرى، غير أنه شيء صبياني، ليس جزءاً من العالم الواقعي. لم يكن هناك أبداً مكان لحبنا في العالم. ولو كان هناك مكان لكان الفوز من نصيبه، وما كنا افترقنا أبداً. لم أكن أنا السبب فحسب، بل كنت أنت أيضاً. لقد رحلت، ولا يمكن أن تتذكر كيف كان وقع ذلك عليّ. . . وليس لهذا الحب مكان في العالم الآن، إنه يخلو من المعنى، وليس وارداً، إنه مجرد حلم، نحن في أرض الأحلام، وغداً ينبغي أن نغادرها. تقول إن هذا شيء مقدَّر، لعله هذا، ولكنه ليس كما تتصور. إنه قَدَر شرير، إنه قدري، أنا الذي جعلته يقع على نحو ما، هذه المحنة، هذا الرعب. لماذا أتيت إلى هنا؟ أنا التي جعلتك تأتي على نحو ما، كما ينجذب الناس إلى الدمار، لا إلى أي خير، بل إلى الكارثة والموت. هذا ما ظللت أفعله طيلة حياتي، لا بيت، لا ابن، وإنما مجرد فظائع».

وتذكرت كلمات تيتوس: «إنها هائمة بالخيال». ولم يكن من شك أنها سَكْرى تماماً بكل تأكيد. ولم يكن هناك الآن مجال للجدال في جنون كلماتها. ضممتها بعنف: «كفي عن هذا، أيتها الحبيبة القديمة، الصغيرة،

هارتلي. أنا لم أفارقك، ليس على هذا النحو، وأنت تعلمين أنك تلتمسين أعذاراً فحسب! سيصنع حبنا مكانه في العالم، وسوف ترين، الآن وأنت هنا، كل شيء في غاية البساطة حقاً. انتظري حتى الصباح وضوء النهار فحسب، وعندئذٍ سوف تشعرين بالشجاعة. تعالي معي إلى الطابق العلوي. وستنامين حيث تشائين».

تقدمتها خلال المطبخ حاملاً الشمعة. وما إن وصلنا إلى السلّم حتى لمحت ضوءاً خافتاً تحت باب الحجرة الأمامية حيث ينام تيتوس، وسمعت همهمة أصوات. وعندما خطرت لي فكرة أن تيتوس وجيلبرت يجلسان على الأرضية فوق تلك الوسائد على ضوء الشموع، أحسست بانقباض سريع من الغيرة. وارتقيت أنا وهارتلي إلى الطابق العلوي.

أريتها غرفة الحمام، وانتظرتها. ثم تقدّمتها إلى داخل حجرة نومي، ولكن من الواضح تماماً أنها لن تنام معي. كان من الأفضل الآن على كل حال أن أتركها وحدها، إذ استولى عليها ضرب من الرعب المتطرف الذي اتخذ شكل الرغبة الجامحة للغياب عن الوعي. «أريد أن أنام، يجب أن أنام، النوم وحده هو المهم، النوم، سأنام». وكان لدي الإحساس بالتنبؤ بهذا الموقف، وهيأت فراشاً على أرضية الحجرة الصغيرة الوسطى في الطابق العلوي، فوضعت مرتبة أريكتي. كما زودتها بشمعة وعيدان كبريت، وإبريق للماء. وقدمت إليها منامة (بيجاما)، غير أنها رقدت من فورها بثوبها وسحبت البطانية فوق رأسها وكأنها جثة تغطّي نفسها. وبدا أنها نامت في التو واللحظة: الهرب السريع من النسيان الذي يلوذ به الشخص المصاب بتعاسة مزمنة.

انسحبت وتركتها. ثم أغلقت الباب، وبهدوء أوصدته من الخارج. فما كان من الممكن أن تغيب عن ذهني الآن تلك الصورة الكابوسية لامرأة مخبولة تندفع لإغراق نفسها في البحر. وذهبت إلى حجرتي، فخلعت حذائي،

وزحفت إلى الفراش. كنت مرهقاً تمام الإرهاق، غير أنني تخيلت أنني لن أنام من شدة الانفعال. وكنت مخطئاً. فقد استغرقت في النوم بعد ثوانٍ.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت على إحساس بعالم متغيّر تماماً، ربما كان عالماً مخيفاً، أشبه باليوم الأول من نشوب الحرب. وفي أعقاب هذا جاء الفرح والأمل أيضاً، غير أن الخوف كان أوّلاً، وكأن المنطق العميق للكون قد ضل مساره بغتة. ما هذا الذي كنت موقناً به، واثقاً فيه كل هذه الثقة؟ ماذا أعتزم بالضبط؟ هل اقترفت عملاً طائشاً مخيفاً بالأمس، شيئاً أشبه بجريمة ارتكبت في حالة السكر، واسترْجَعَتْها الذاكرة في حالة الصحو؟ كان هناك أيضاً ـ من الأشياء المتوقعة -زيارة «بن».

حضور هارتلي نفسه في المنزل كان أشبه بالحلم، ومجرد بقائها تلك الليلة أصبح الآن موضع تساؤل عاجل. شعرت بشعور طفل يندفع إلى قفص حيوان مستأنس جديد، خائفاً من أن يجد جثة لا حياة فيها ليس غير. وبإحساس بالغثيان، وخفقان في القلب، عدوت خارجاً إلى الدهليز، وشققت طريقي خلال ستار الخرز، وفتحتُ بابها برفق، وطرقت. ما من مجيب. أتكون قد ماتت أثناء الليل كحيوان أسير، هل تمكنت من الهرب على نحوٍ ما وأغرقت نفسها؟ فتحت الباب، واختلست النظر إلى الداخل. كانت هناك، وكانت مستيقظة. وكانت قد دفعت الوسائد إلى الحائط ونامت على المرتبة بعد أن أسندت رأسها، وسحبت البطانية فوق ثغرها. حملقت عيناها باتجاهي تحت جفنين مرتخيين. وظل رأسها يتحرك حركة خفيفة، فرأيت أنها ترتعش.

ـ «هارتلي، حبيبتي، أأنت على ما يرام، هل نمت؟ أكنت دافئة بما فيه الكفاية؟».

أزاحت البطانية قليلاً، وتحرك ثغرها.

ـ «هارتلي، سوف تمكثين معي إلى الأبد، هذا هو اليوم الأول في عالمنا الجديد... أليس كذلك؟ أوه، هارتلي...».

بدأت تلم شتات نفسها في عناء شديد، مسندة ظهرها إلى الحائط، وما برحت متوارية وراء البطانية.

قالت بنبرة متلعثمة متعثرة دون أن تنظر إليّ: «ينبغي أن أذهب إلى البيت».

- «لا تبدأي هذا من جديد».

- «جئت بدون حقيبتي، بدون أي شيء، لم أحضر أدوات زينتي ولا أي شيء».

- «يا إلهي، وكأن لهذا أية أهمية!».

كنت أستطيع أن أرى أن هذا مهم بالنسبة لها على كل حال. ففي ضوء الصباح الكئيب النازف الراشح إلى الداخل من النافذة المؤدية إلى حجرة المكتب، كانت بشعة. كان وجهها منتفخاً دهنياً، وجبينها متغضناً، وخطوط الأرق ترسم حدود ثغرها. وكان شعرها الأشعث الجاف الجعد أشبه بباروكة قديمة. وكلما نظرت إليها شعرت بنوع من القوة الجديدة تمتزج فيها الشفقة والحنان. وكلما فكرت في أن أريها كيف أنني لا أبالي إلا قليلاً بضعف حيلتها، كان حبي الهائل كفيلاً بأن يرغب في عجائب أكبر.

قلت: «تعالي، أيتها العجوز. انهضي، هيا بنا ننزل لنتناول طعام الفطور. وسأرسل جيلبرت بعد ذلك إلى النيبليتس لإحضار حاجياتك جميعاً. هذا أمر في غاية البساطة». أو على الأقل كنت أرجو أن يبدو لها كذلك.

لملمت نفسها ببطء، ثم قامت على أربع ونهضت بمشقة على قدميها. وكان ثوبها الأصفر في حالة مريعة لا أمل فيها من التجعُّد، فأخذت تشده وتسويه بلا جدوى. وكان جسدها كله يعبِّر عن الارتباك الخزيان لشخص نزلت به نازلة.

ـ «انظري، سأعيرك عباءتي المنزلية، لدي واحدة بديعة». عـدوت إلى حجرة نومي وأحضرت إليها أفضل عباءاتي الحريرية ذات الزهيرات الحمراء. وكانت تقف عند باب حجرتها محملقة في ستـار الخرز.

ـ «ما هذا؟»

ـ «إنه ستار من الخرز، والآن ارتدي هذه العباءة. هناك غرفة الحمام، أتذكرين».

تركتني أعاونها على ارتداء العباءة، ثم سارت متمهلة إلى الحمّام. انتظرت جالساً على السلم. وعندما خرجت، صعدت السلم عائدة صوب حجرتها، وهي تتحرك متثاقلة كامرأة عجوز.

ـ «انتظري لحظة، سأحضر لك مشطاً، أو تستطيعين أن تأتي وتستخدمي المرآة في حجرتي، أتحبين ذلك، إن المكان هناك أكثر إشراقاً».

عادت إلى حجرتها الخاصة. أحضرت المشط ومرآة يد. مشطت شعرها، ثم نظرت في المرآة، وجلست مرة أخرى على الحشيّة. لم يكن هناك حقًّا أي أثاث آخر، إذ كانت المائدة التي استرجعها تيتوس من الصخور ما برحت في الطابق الأرضي.

ـ «ألا تريدين النزول إلى الطابق الأرضي؟».

ـ «كلا، سأبقى هنا».

ـ «سأحضر لك شيئاً».

ـ «أشعر بأنني مريضة، النبيذ أمرضني.».

ـ «أتحبين الشاي، القهوة؟»

ـ «أشعر بالمرض». ورقدت مرة أخرى، وسحبت البطانية.

نظرت إليها يـائساً، ثم خـرجت. أغلقت الباب وأوصـدته. فلم أكن أستبعد إمكانية هربها بغتة بعد كل هذا العرض لعدم الاكتراث، واندفاعها

خارجة من المنزل. واختفائها بين الصخور، لتغرق نفسها في البحر.

نزلت إلى الطابق الأرضي فوجدت جيلبرت جالساً إلى مائدة المطبخ. وقف باحترام عند دخولي. وكان تيتوس واقفاً عند الموقد الذي أتقن استعماله، يطهو بيضاً. وكان يبدو الآن أنه «على راحته» تماماً في المنزل. وشعرت لذلك بسرور وسخط في آن واحد.

قال جيلبرت: «صباح الخير، أيها المحافظ».
- «هالو، أبي».
لم أعبأ بهذه المزحة من تيتوس.
- «إذا كان لا بد أن ترفع الكلفة، فإن اسمي هو تشارلز».
- «آسف، يا سيد آروبي. كيف حال والدتي هذا الصباح؟».
- «أوه، تيتوس، تيتوس...».

قال جيلبرت: «إليك بيضة مقلية».
- «سأحمل إليها شيئاً من الشاي، هل تشربه مع اللبن والسكر؟».
- «لا أستطيع أن أتذكر».

رتبت صينية صغيرة عليها الشاي واللبن والسكر والخبز والزبد والمربّى. وحملتها إلى الطابق العلوي، محافظاً على توازنها، وفتحت الباب. وكانت هارتلي لم تزل راقدة تحت البطانية.

- «فطور بديع، انظري...».
حملقت في وجهي بتعاسة تكاد تكون مسرحية.

- «انتظري. سأحضر منضدة ومقعداً. أسرعت إلى الطابق الأرضي، وعدت بمنضدة صغيرة ومقعد. أفرغت الصينية على المنضدة، تعالي، يا حبيبتي، لا تتركي شايك يبرد. وانظري، لقد أحضرت إليك هدية بديعة، صخرة، أجمل صخرة على الشاطىء» وضعت بجوار صحنها الصخرة

البيضاوية، أول صخرة جمعتها، جائزة مجموعتي، وكانت بحجم الكف، وردية مرقشة، تتخللها خطوط بيضاء غير منتظمة في تصميم ينحني له كلي Klee وموندريان Mondrian حتى تمسّ جبهتاهما الأرض.

جاءت هارتلي متمهلة، زاحفة ثم قائمة، ووقفت عند المائدة، وهي تحبك العباءة حول جسدها.

لم تنظر إلى الصخرة ولم تلمسها، فطوّقتها لحظة بذراعيّ، ولثمت شعرها الشبيه بالباروكة، ثم لثمت كتفها الدافئة الحريرية اللمس. وتركتها بعد ذلك وأوصدت الباب. المهم أنها لم تقل شيئاً عن رجوعها إلى المنزل، ولا ريب أنها كانت خائفة، وإذ كانت تخشى أن تعود الآن فإن كل ساعة تبقيها هنا تساعد على الفوز ببغيتي. غير أن هيئتها التي تنم عن التعاسة اللامبالية كانت تؤلمني. ولم يدهشني أن أكتشف فيما بعد أنها احتست قليلاً من الشاي ولكنها لم تأكل شيئاً.

نظرت إلى ساعتي. لم تكن قد أعلنت بعدُ الثامنة. وتساءلت متى سيصل «بن» وكيف سيكون وصوله. وتذكرت في غير ارتياح أن هارتلي قالت شيئاً عن احتفاظه بمسدس الجيش. ونزلت إلى المطبخ لإصدار أوامري.

كان جيلبرت يأكل بيضاً مقلياً، وخبزاً محمصاً، وطماطم مشوية.

- «أين الغلام؟».
- «ذهب للسباحة. وكيف حال هارتلي؟».
- «أوه. . . فظيع. أعني، على ما يرام. اسمع يا جيلبرت، أتستطيع أن تخرج للمراقبة؟ حسناً، انته من فطورك أولاً، إنك تسلك مسلكاً طيباً، أليس كذلك!» فقال جيلبرت بارتباك:
- «ماذا تعني، أن أخرج للمراقبة؟».

- «مجرد الوقوف، وإن شئت فاجلس، على الطريق، عند نهاية الممر، وعليك أن تدخل لتخبرني عندما تراه قادماً».

- «وكيف أتعرف عليه؟ بالسوط الذي يمسك به؟».

- «لا سبيل إلى الخطأ في التعرف عليه». ووصفت له «بن» وصفاً دقيقاً.

- «فلنفترض أنه هاجمني، أو شيئاً من هذا القبيل؟ لا يمكن أن يكون شاعراً بالسرور. قلت عنه إنه شخص شرس، سفاح إلى حد ما. أنا أحبك يا عزيزي، ولكنني لن أقاتل»..

قلت معرباً عن أملي: «لن يقاتل أحد».

قال جيلبرت: «لا يضيرني أن أجلس في السيارة. سأجلس في السيارة بعد أن أوصد أبوابها وأراقب الطريق. فإذا شاهدته، سأطلق البوق».

كانت هذه فكرة طيبة. «فليكن، ولكن اجعله مدوّياً».

خرجت من الباب الخلفي، واجتزت الحشائش، وتسلقت الصخور حتى بلغت الصخرة الصغيرة في الوقت المناسب لأرى ساقيْ تيتوس النحيلتين الشاحبتين ترتفعان إلى السماء وهو يغوص تحت المياه الخضراء. فأعاد إلى ذاكرتي لوحة برويجل التي صورها لـ «إيكاروس» Absit Omen.

لم تكن لديّ رغبة للسباحة، إذ لم أكن أحب أن يجدني «بن» بلا سروال؛ كما كانت الأمواج من الارتفاع بحيث أدرك أنني قد أجد مشقة في الخروج من الماء. أما تيتوس فلن يشق عليه ذلك بالطبع. ولا بدّ أن أتذكّر تركيب «حبل» آخر في نهاية درجات السلم.

كانت الشمس مرتفعة فعلاً، والبحر شفاف الخضرة بالقرب من الصخور، لازوردياً لامعاً إذا ابتعد عنها، متقلّباً وامضاً وكأن أطباقاً بيضاء تطفو على السطح. وكان الأفق خطاً من الذهب. وكانت دفقة ضخمة - وإن

تكن بطيئة ناعمة ـ من الأمواج تتقدم نحوي وتتكسر في صمت وسط الصخور؛ وهناك تهديد هادىء في القوة الرشيقة ـ وإن تكن شبيهة بقوة الآلات ـ تنذر به حركاتها القوية المنتظمة.

انتظرت بشيء من نفاد الصبر أن ينتهي تيتوس الشاب من سباحته. إذ لم يكن من مصلحته أن يسرِّي عن نفسه في لحظة من لحظات الأزمة. شاهدني، فلوّح لي، ولكن كان من الواضح أنه ليس في عجلة من أمره. وصاح داعياً إيّاي أن أقتحم البحر، غير أنني هززت رأسي.

كنت أريد بإلحاح أن يخرج تيتوس إلى البر لأنني أبغي أن أمحو الانطباع الفج الذي تركته محاوراتنا الغبية في المطبخ من جهة، كما كنت أريد أن يكون تيتوس بجانبي ـ من جهة أخرى ـ مرتدياً ملابسه، كفؤاً، وبعقله السليم عندما يظهر الجنتلمان. ولم أكن أتخيل حقاً أن «بن» سيأتي، ليغتالنا جميعاً، ولكنه من الممكن أن يرغب في تحطيم رأسي إن لم يواجه شيئاً من استعراض القوة؛ وعندما كنت رياضياً وعلى شيء لا بأس به من القوة، لم تكن فنون العدوان من بين منجزاتي على الإطلاق. وكثيراً ما ساءلت نفسي أثناء الحرب كيف يمكن لبعض الرجال أن يواجهوا رجالاً آخرين ويقتلوهم. ربما كان التدريب هو الذي ساعد على ذلك، ولعله الخوف أيضاً على ما أظن.

وخطر لي أيضاً حينذاك، بينما كنت أراقب ألاعيب تيتوس الدرفيلية، أنني لا أعرف كيف سيكون ردّ فعله. لقد أشار بوضوح إلى أنه يمقت أباه بالتبني. غير أن العقل الشاب محفوف بالأسرار. من يدري ربما دفعته المواجهة إلى شيء من التخاذل، أو أثارت فيه شيئاً من التعاطف المباغت. أو لعلها تحرك فيه عواطف قديمة عميقة من البنوة التي لا تُقاوَم. أيستطيع تيتوس أن يغيِّر الجانب الذي ينضم إليه؟ هل يعرف تيتوس هو نفسه؟.

وأخيراً عاد سابحاً إلى الصخرة شديدة الانحدار، وتشبث بأصابعه

وأطراف قدميه فرفع جسده العاري بسهولـة من الموجـة القويـة الصاعـدة الهابطة. وزحف إلى أعلى، ثم تأرجح فوق الحافة ورقد لاهثاً.

تيتوس، فتاي العزيز، إلبس، بسرعة، ها هي منشفتك». أطاعني وهو ينظر إليّ: «ماذا حدث؟ هل سنذهب إلى مكان ما؟».

ـ «كلا، ولكنني أخشى أن يصل أبوك في أية لحظة».

ـ «بحثـاً عن والدتي. صحيـح، أعتقـد أنـه قـد يفعـل ذلـك. مـاذا ستفعل؟».

ـ «لست أدري. ماذا سيفعل هو؟ اسمع يـا تيتوس، وأرجـو أن تغفر تسرعي المرتبك، ثمة أشياء كثيرة أريد أن أفضي بها إليك. ينبغي أن يتمسك كل منا بالآخر، أنا وأنت. . .».

ـ «أوه أجل، أنا من الممتلكات المهمة جداً، أنا البطة ـ الطُعْم، أنا الرهينة!».

ـ «كلا، هذا بالضبط هو هدفي. هذا هو ما أتى بي إلى هنا لأخبرك به. لا من أجل هذا. وإنما من أجلك أنت. أعني أنني أريدك، أريد أن أكون أباك. وأريدك أن تكون ابني، مهما حدث، أعني حتى ولو لم ترغب أمك في البقاء معي. . . ولكنني أرجو وأعتقد أنها ستبقى. . ولكن، حتى إذا لم تبـقَ فإنني ما زلتُ أريد أن تقبلني بوصفي أباك».

قال: «هذا فعل مضحك، أعني قبول شخص ما بـوصفه أبـاك، حين تكون قد كبرت. لست واثقاً كيف يمكن أن يتم هذا».

ـ «سيرينا الزمن كيف يحدث هذا. ما عليك إلا أن تملك الإرادة، النيَّة. أرجوك. أشعر أن هناك رابطة حقيقية بيننا، وسوف يشتد عودها، بالطبع. لا تظن أنني أستغلك لا أكثر، أنا لا أفعل ذلك، إنما أشعر بالحب نحوك. أرجو أن تغفر ارتباكي الأخرق فيما أقول. فليس لـدي متسع من الـوقت

يسمح لي بتحضير حديث لبق. أشعر بأن القَدَر أو الله أو شيئاً ما قد منح كلاً منا للآخر. فلا ينبغي أن ندع هذه الفرصة تفوتنا بسبب الغباء. لا تدع الكبرياء الحمقاء أو الارتياب أو نقص الخيال أو قصور الأمل أن يُفْسد هذا الشيء المتاح لنا. دعنا من الآن فصاعداً ينتسب أحدنا للآخر. ولا تعبأ بما يعنيه هذا بالضبط ولا بما يترتب عليه، فنحن لا نستطيع أن نتبينَّ هذا بعدُ. ولكن هل تقبل، هل ستحاول؟».

لم أكن قد أعددت أو توقعت مثل هذه المرافعة الحارة. فحملقت إليه متلهِّفاً. راجياً أن أكون قد تركت في نفسه انطباعاً ما.

كان قد فرغ الآن من ارتداء ملابسه، ووقفنا معاً فوق الصخرة العالية المطلّة على الماء. نظر إليّ مقطّباً وهو يزوي عينيه، ثم التفت بعيداً. «فليكن.. أظن.. أجل.. فليكن. أنا ـ في الواقع ـ مأخوذ قليلاً، بالفعل. وأنا سعيد بما قلتَه من أنك تريدني من أجل نفسي. لم أكن موقناً من ذلك. أنا أصدِّقك.. على ما أظن. من الغريب أنني فكرت فيك كثيراً، شطراً كبيراً من حياتي، وكنت أعرف دائماً أنه ينبغي عليّ ان أجيء وأن أنظر إليك يوماً ما، وظللت أرجىء هذا لأنني كنت خائفاً. وظننت أنك لو رفضتني... أقصد لو حسبتني مراهناً كاذباً يسعى إلى المال فحسب.. ولماذا على كل حال.. لا تفكر في مثل هذا، إن المسألة كلها غريبة... فسوف يكون هذا الرفض ضربة قاضية. ولا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن أشفى منها، سأشعر بالخزي والشناعة، وسوف يسيطر عليّ هذا الشعور إلى الأبد فيما بعد.. كنت أراهن بالكثير».

ـ «بالكثير جداً، أجل، غير أن كل شيء على ما يرام، هنا على الأقل. لن يسيء أحدنا إلى الآخر، ولن يفقد أحدنا الآخر».

ـ «حدث كل شيء بسرعة فائقة».

- «حدث كل شيء بسرعة فائقة لأنه صحيح، والأمر يسير لأنه صحيح».

- «حسناً إذن، سأحاول، والله يعلم ما يعنيه هذا على حد قولك، ولكنني أقبل، أو على الأقل سأحاول».

بسط إليّ راحته فأمسكتها، وهناك وقفنا لحظة يغمرنا التأثر والارتباك.

ثم سمعت من الطريق نعيق البوق المتعجِّل الذي أطلقه جيلبرت.

«ها هوذا» ووثبت قائماً وشرعت في الاندفاع مذعوراً صوب المنزل. تجاوزني تيتوس وسابقني فوق الحشائش. وعندما وصلت إلى باب المطبخ كان جيلبرت ينتظر تيتوس.

- «إنه هنا، جاء سائراً على الطريق، وتوقف عند الممر، غير أنه عندما رآني في السيارة، وعندما بدأت في إطلاق النفير مضى في سيره».

- «مضى سائراً بحيث تجاوز المنزل؟».

- «نعم. لعله يريد أن يأتي من الخلف فوق الصخور». وكان جيلبرت يبدو مذعوراً حقاً.

عدوت من خلال الصالة وخرجت إلى الممر ومنه إلى الطريق. لم يكن هناك أي أثر لـ «بن». ولاحظت أن جيلبرت، في محاولة لتأمين انسحابه بلا أدنى ريب، قد أوقف السيارة في الانتظار عند نهاية الممر تماماً، وكأنما يقصد بها أن تكون متراساً يسد الطريق. وهذا بلا شك هو السبب الذي جعل «بن» يواصل سيره. وبينما كنت في ترددي أتلفت حولي تناهى إلى سمعي صياح تيتوس من الجانب الآخر للمنزل.

تخطيت جيلبرت - الذي كان يهرف بكلام أو بآخر - عند الباب، واندفعت إلى الخارج مرة ثانية من خلال المطبخ. كان تيتوس يقف فوق قمة صخرة من أكثر الصخور ارتفاعاً، مشيراً: «إنه هناك! هناك! أستطيع أن أراه. إنه قادم من البرج»..

لم يعد يراودني شك الآن في الجانب الذي انحازَ إليه تيتوس. حمداً لله على ذلك.

ناديت تيتوس قائلاً: «انتظر هناك. سأذهب لملاقاته. وإذا احتجت إليك فسوف أصيح».

شرعت في تسلق الصخور واضعاً البرج نصب عينيّ، وفي لحظة شاهدت «بن»، وكان يتسلق بدوره، في خِفَّة مؤثرة، في اتجاه المنزل.

وفي المكان الذي تقاطعت فيه سبيلانا، وهو بكل تأكيد الطريق الميسَّر الوحيد من المنزل إلى البرج، أعني «جسر مين» وهو القوس الصخري الذي يدخل من تحته البحر إلى المِرْجَل. وصوب هذا المكان الطبيعي للملتقى اندفع كل منا وانزلق حتى بلغنا الجسر وواجه كل منا الآخر على بُعْد عشر أقدام. وساءلت نفسي بسرعة وفي شيء من القلق: أما زلنا - كما كنت أتمنى - في مجال رؤية تيتوس في موقعه فوق الصخرة العالية. تلفّت بسرعة حوالي فأدركت أننا لم نعد في مجال هذه الرؤية.

كان «بن» يرتدي سروالاً قطنياً متيناً يميل إلى السواد، مائل اللون عند الركبتين، ومن المحتمل أنه اشتراه من محلات الصيادين، وفوقه قميص أبيض. لم يكن يرتدي سترة، رغم أن الصباح لم يزل قارس البرد. أكان يضع هذه الثياب ليؤكد لي أنه لم يكن يحمل سلاحاً، أم أنه ارتدى هذه الملابس لمجرد القتال؟ كان يبدو قوي البنية، وقد ضاق عليه سرواله قليلاً، غير أنه كان متماسكاً أشبه برجل الأعمال، ويبدو أنه حلق ذقنه، وهذا ما لم أفعله أنا. لقد قام بالحلاقة وحيداً هناك في ذلك المنزل الذي خلا فجأة من سكانه، والله وحده يعلم ما كان يدور بخلده من أفكار وهو يواجه نفسه في المرآة. وكان شعره الفئراني القصير، ورأسه الصبياني الضخم، ومنكباه العريضان، وبنيته الرَّبْعة. . كان هذا كله يذكِّر المرء بكبش صغير أو بحيوان آخر صغير، ولكنه ذَكَرٌ عدواني. وعلى نقيض نظرته الكثيفة الثقيلة، كنتُ أشعر شعوراً إيجابياً

بأنني لينّ العريكة، مفكّك، مشوَّش، منكوش الشعر، كما أدركت بغتة أن سترة منامتي المخططة ما زالت مسدلة فوق سروالي.

تقدمت قليلاً فوق الجسر، وكذلك فَعَل. وكان المد يقتحم المرجل، والأمواج الضخمة العاتية تتزاحم في دخولها إليه، وتغسل في نهم ما حولها داخل المكان العميق الأملس للمرجل. وكان هناك هدير ينبعث منه صفير منخفض، لا يعلو بما يكفي لإعاقة التفاوض. وقفت وأنا أراجع أزرار منامتي، وأنتظره أن يبدأ. وجلب إليّ صوت الهدير شيئاً من الراحة. وتمنيت أن يشتت ذهن «بن». كانت الضجة دائماً من أعواني.

كنت أرى الآن عن كثب وجه «بن» في ضوء جيد لأول مرة. كان أقرب إلى الوسامة مما تخيلت من قبل. فله عينان عسليتان طويلتان تظللهما رموش طويلة، وثغر واسع حسن الشكل، وإن يكن ينم الآن فحسب، عن استهزاء طفيف، وحساسية مرهفة. ، وكان ذقنه يتراجع داخل عنقه السميك. وأدركت في الحال أنه عصبي إلى أقصى حد، وكانت رؤيتي لهذه العصبية المفرطة مدعاة لارتياحي، كما كان غاضباً إلى أقصى حد أيضاً. أتراه كان خائفاً مني ولو قليلاً؟ هل كان يشعر بالذنب؟ والشعور بالذنب يولِّد الخوف.

- «أين زوجتي؟»

- «هنا، في منزلي، حيث تريد البقاء. وتيتوس أيضاً، إنه لم يكن ابني، كما تعرف ذلك جيداً، ولكنه ابني الآن، لقد تبنيته».

- «ماذا؟».

- «أجل!».

- «ماذا قلت؟».

أدركت بمزيد من الرضا أن «بن» أصم قليلاً، أكثر صمماً مني على الأقل، وأن الضوضاء تزعجه. والحق أنني نطقت عبارتي السابقة في كثير من

السرعة. فقلت الآن بوضوح مهين وبصوت مرتفع: «إنها... هنا. وتيتوس... هنا.. وهما يقيمان... هنا».

- «جئت لأصحبها إلى البيت».

- «انظر، أنت لا تعتقد حقاً أن تيتوس ابني، أليس كذلك؟ أؤكد لك أنه ليس ابني».

- «أريد زوجتي».

- «إنني أخبرك بشيء ينبغي أن يهمك. تيتوس ليس ابني».

- «لم أعد أعبأ بهذه القصة بعدُ، لقد انتهت، وأنا أريد ماري».

- «إنها تريد أن تمكث هنا».

- «أنا لا أصدقك... إنك تحتجزها بالقوة. لقد اختطفتها. أنا أعرف أنها لا يمكن أن تبقى بإرادتها الحرة، أنا أعرف».

- «لقد جاءت إليّ، هربت إليّ، كما فعلت من قبل، في ذلك المساء عندما كنت في فصل النجارة. أتتخيل أنني أستطيع أو يمكن أن أخرجها من منزلك بالقوة؟».

- «لقد تركت حقيبة يدها وراءها».

- «إنك لا تحبها، وهي لا تحبك، إنها مذعورة منك، لماذا لا تعترف بذلك لنفسك؟ لماذا تستمر في معايشة هذه الأكذوبة البشعة؟».

- «أطلق سراح ماري، وإلا فسألجأ إلى الشرطة».

- «سيضحكون منك. أنت تعرف جيداً أن الشرطة لا تتدخل في حالة من هذا القبيل».

- «أريد زوجتي».

- «إنها لا ترغب في الرجوع إليك، حسبها ما نالت منك. سأرسل السيارة لإحضار حاجياتها».

- «أية أكاذيب أَخْبَرَتْك بها؟».

ـ «أهذه سياستك الآن؟ تشويه سمعتها، وإلقاء اللوم عليها! ما أروع الطريقة التي تكشف بها خبيئة نفسك!».

ـ «أنها شخص هستيري يتصور أشياء كثيرة، إنها ليست على ما يرام».

ـ «من المؤكد أنها تتخيل أنها نالت ما يكفي من قسوتك. استمر. حاول اللجوء إلى الشرطة، وانظر ما سيحدث!».

ـ «إنك لا تدري ما تتخبط فيه، أنت لا تفهم. إنها زوجتي وأنا أحبها، وسأعود بها إلى بيتها الذي تنتمي إليه وتريد أن تكون فيه. لماذا أتيت بغتة لتتدخل في حياتنا، لماذا قررت أن تجيء وأن تقيم هنا وأن تزعجنا، إننا لم نكن نريدك، ولا نريدك الآن. أنا أعرف أي طراز من الرجال أنت، لقد قرأت عنك، إنك شخص عفن، فاسد، مدمِّر، أنت القذارة بعينها. وليست ماري واحدة من بغايا استعراضاتك، إنها امرأة محترمة، لا يحق لك أن تلمسها. دعنا وحدنا، إن كنت تؤثر السلامة. وأنا أنذرك، دعنا وشأننا».

كان «بن» ـ وهو يبحث في غير إتساق عن الكلمات التي تناسب غضبه، وهو يمدّ رأسه الضخم إلى الأمام ـ يكشف عن أسنانه القوية المبتلّة باللعاب. وكان هدير الأمواج العاتية الآلية في هسيسه الموقّع قد غيبني عن الوعي لحظة من الزمن، وكأنني أستطيع ـ دون أن أنظر تحتي ـ أن أحس بحركتها المتلاطمة في الفجوة الصخرية السفلى. وخطر لي بوضوح، وبدقة احتوت جسدي كله، أنه يكفيني فحسب أن أخطو بسرعة إلى الأمام وأن أدفع هذا الوغد البغيض فوق الحافة. قد يكون أقوى مني، ولكني أخفّ منه حركة. وهو لا يستطيع السباحة؛ بل إن السباح الماهر قد يلْقَى حتفه بغتة في ذلك المرجل الذي يغلي. ما من أحد يرانا. وأستطيع أن أقول إنه هاجمني. وما عليّ إلا أن أدفعه، فتنتهي متاعبي جميعاً.

وبينما كانت هذه الأفكار تراودني كنت أثبّت «بن» بعينيّ. وأحسست بحركة جنينية تسري في جسدي، وإن لم أتحرك في واقع الأمر حركة ظاهرة بلا

ريب. كانت عيناي تكفيان على كل حال، وكنت على يقين من أنه قرأ نيتي، إن كان من الممكن أن تسمّى نية حقاً، إذ لم أكن أقصد تنفيذها أبداً بالطبع. فانسحب إلى الطرف البعيد من الجسر، وأطلقت يديّ المطبقتين، وخفضت عيني، وتراجعت بدوري.

قال رافعاً صوته بعد أن قامت زمجرة الماء كجدار يحول بيننا: «أحضرها!.. أحضرها هذا الصباح، وإلا طَرَقْتُ كل السبل لأحطمك. ها أنذا أخبرك. وأنا أعني ما أقول».

لم أتفوه بشيء.

قال، وكأنما اختلطت عليه الأمور فجأة وأُصيب بحبسة في صوته، «فكّر فيها. إنها تريد أن تأتي إلى البيت. أنا أعلم أنها تريد ذلك. أنت لا تفهم. لا تدع الأمور تمضي على هذا النحو. هذا يسيء إليها. ولا مناص لها من أن تأتي إلى البيت في النهاية. ألا ترى ذلك؟».

قلت بصوت غير مسموع: «اغرب عن وجهي».

وشرع في الابتعاد، ثم استدار وصاح: «أخبرها أنني أحضرت الكلب ليلة أمس. وحسبت أن هذا سيسعدها كل السعادة».

راقبته وهو يمضي بمزيد من البطء، ويبدو الآن أخيراً أشبه بشخص أعرج، إذ جعل يتسلق الصخور، ظاهراً ثم مختفياً، حتى بلغ الطريق تقريباً. نفضت عني الغيبوبة التي استولت عليّ، وبدأت أتلمس طريقي عائداً إلى المنزل بأسرع ما في وسعي. كنت أريد أن أتأكد بأنه رحل حقاً.

أما تيتوس الذي ما برح جالساً فوق صخرته الشاهقة، فقد وثب وتبعني. وكان جيلبرت فوق المرجة. وشرع الاثنان فوراً في توجيه الأسئلة إليّ، غير أنني عدوت متجاوزاً إيّاهما، فركضا ورائي، وخرجنا نحن الثلاثة جميعاً إلى الممر، وتقدمنا حتى سيارة جيلبرت التي ما زالت في موقعها. ووقفنا صفّاً

خلف السيارة. وكان «بن» يسير في الطريق متجهاً نحونا. حملق فيه تيتوس لحظة ثم استدار حوله ووقف هناك مولياً ظهره للطريق. كانت هذه الحركة مؤثرة. وتجاوزنا «بن» متجهم الوجه دون أن ينطق بكلمة، أو يلقي نظرة، وسار في سبيله قُدُماً دون إسراع باتجاه القرية.

قال تيتوس: «ماذا حدث؟» وقد بدا الآن مهزوزاً، خائفاً.

- «لا شيء.»

- «لا شيء، كيف؟».

- «قال ما ينبغي أن يقوله».

- «ماذا قال؟».

- «أكاذيب. قال إنها هستيرية، وتتخيل أشياء».

قال تيتوس: «هستيرية نعم. ومن الممكن أن تبقى في هذه الهستيريا لمدة ساعة. كان ذلك مخيفاً، وكانت تقصد أن يكون مخيفاً».

- «إذا قررت أنه أبوك بعد هذا كله فإنك تستطيع أن تذهب الآن إلى البيت. أنا لن أمنعك».

- «لا تتحدث إليّ على هذا النحو. كل ما في الأمر أنني حزين عليها».

- «ألا تريد أن تصعد لتراها؟».

- «كلا... ليس في هذه الحالة عندما تكون... كلا».

- «أوه...!» وأحسست بغضب عنيف إلى حد القتل. فعدت ركضاً إلى المنزل وارتقيت الدرج. وفتحت باب هارتلي.

كانت جالسة على المرتبة مولية ظهرها للجدار، رافعة ركبتيها، وقد تلفعت بالعباءة السوداء. نظرت إليّ بعينين مرتخيتين متورمتين، وبدأت الحديث بصوت رتيب قبل أن أدخل من الباب. «أرجوك دعني أذهب إلى البيت. أريد

أن أذهب إلى البيت، ينبغي أن أذهب إلى هناك، لا وجود لأي مكان سواه أستطيع الذهاب إليه. دعني أذهب إلى البيت، أرجوك».

ـ «هذا هو البيت، معي يكون البيت، أنت في بيتك!».

ـ «دعني أذهب الآن. كيف يمكن أن تكون معي بهذه القسوة؟ وكلما طال بقائي ازدادت الأمور سوءاً».

ـ «لماذا تريدين الرجوع إلى ذلك المكان البغيض؟ أأنت منوَّمة تنويماً مغناطيسياً، أم ماذا؟».

ـ «أتمنى لو مت. أعتقد أنني سأموت عاجلاً. أشعر بذلك. وفي بعض الأحيان كنت أشعر بأنني سأموت بمجرد الرغبة في ذلك إذا أخلدت إلى النوم، غير أنني كنت أستيقظ دائماً وأجد أنني ما زلت هناك. كل صباح أجد أنني ما زلت كما أنا، هذا هو الجحيم».

ـ «فلتخرجي من الجحيم إذن! البوابة مفتوحة وأنا أمسك بها!».

ـ «لا أستطيع، فأنا نفسي الجحيم».

ـ «أواه، يا هارتلي، انهضي! إنزلي معي واجلسي في الشمس وتحدثي إلي، وتحدثي إلى تيتوس. لست سجينة. كفِّي عن أن تكوني بهذه التعاسة البشعة، ستدفعين بي إلى الجنون. أنا أعرض عليك الحرية والسعادة، أريد أن أصحبك أنت وتيتوس إلى... إلى باريس، إلى أثينا، إلى نيويورك، أي مكان تريدين الذهاب إليه!».

ـ «أريد الذهاب إلى البيت».

ـ «ما خطبك؟ لم تكوني أمس بهذا الشكل».

ـ «أعتقد أنني على وشك الموت، أشعر به».

كانت عيناها اللتان ترفضان ملاقاة عينيّ تغشاهما تلك البرودة الدفاعية التي تبدو على أولئك الذين اعتزموا خسران الرجاء.

ثم كان أن أقبل يوم من أغرب الأيام التي أتذكرها. رفضت هارتلي النزول إلى الطابق الأرضي، وبقيت متوارية في حجرتها كحيوان عليـل. أوصدت الباب، فقد خشيت أن تُقْدم على إغراق نفسها، ولم أترك شموعاً أو ثقاباً خوفاً من أن تشعل النار في نفسها. كنت أخاف على سلامتها ورفاهيتها في كل لحظة، ومع ذلك لم أجرؤ على البقاء معها طيلة الوقت أو حتى أكثره، بل لم أكن أعرف حقاً كيف أكون معها على الإطلاق. تركتها وحدها أثناء الليل، وكانت الليالي طويلة، إذ كانت تأوي إلى فراشهـا مبكرة، وتنـام في الحال (كنت أسمع صوت شخيرها). وكانت تنفق وقتاً طويلاً في النوم، سواء في الليل أو بعد الظهر. كان هذا النسيان هو صديقها على أقل تقدير. وفي هذه الأثناء كنت أراقب وأنتظر، محتسباً فترات ظهوري الصحيحة وفقاً لنظريـة عميقة لا أستطيع الإفصاح عنها. وكنت أواكبها في صمت إلى حجرة الحمّام، كما قضيت جلسات حراسة طويلة خارج الدهليز. ووضعت بعض الوسائد في الفجوة الخالية من جدار السرير، وهي المكان الذي حلمت بأن فيه باباً سرياً ستظهر منه السيدة تشورني لكي تطالب بملكية منزلها. وقد جلست على الوسائد لمراقبة باب حجرة هارتلي مُرْهِفاً السمع. وكنت أغفو أحيانـاً أثناء شخيرها.

وكثيراً ما جلست بالطبع في الحجرة معها، متحدثـاً إليها أو محـاولاً أن أتحدث، فإن لم أستطع، التزمت الصمت. ركعت إلى جوارها وأنا أربِّت على راحتيها وشعرها وأحتضنها كـما يحتضن المرء طـائراً صغيـراً. وكانت سـاقاهـا وقدماها عارية، ولكنها كانت تصر على ارتداء عباءتي فوق ثوبها. غير أنني استطعت باتصلات صغيرة أن أتعرف خفية على جسدها، وعلى وزنه وكتلته، وعلى نهديها الرائعين المستديرين، وعلى كتفيها الممتلئتين، وعلى فخذيها؛ وكان يسرني أن أرقد معها، لولا مقاومتها بأرق الإشارات لأرقّ جهودي لتجريدها من ثيابها. وكانت تشكو من افتقارها إلى مساحيق الزينة فأرسلت جيلبرت إلى

القرية لشراء ما تريد، وفي حضوري قامت بتجميل وجهها. وكان هذا التنازل الضئيل عن الغرور بشيراً يبعث على الأمل، غير أنني ظللت خائفاً منها وعليها. وكان رفضي الذي لا هوادة فيه عنفاً كافياً. وخشيت إمكان أن يولّد أي مزيد من الضغط نوبة عداء أو مزيداً من الانسحاب المفرط الذي يؤدي بي إلى الجنون مثلها؛ إذ كنت آخذها في بعض اللحظات على أنها مجنونة. وهكذا تعايشنا معاً في ضرب من التسامح المتبادل الغامض الذي يتسم بالجنون، ويحف به الخطر. وعلى فترات زمنية كانت تردد أنها تريد الذهاب إلى البيت، ولكنها أذعنت لرفضي الحازم ذلك الأمرَ، وكان في هذا ما يبعث على التشجيع. وبالطبع، في كل ساعة تمر، كان خوفها من العودة لا بد أن يتزايد، وهذا في حد ذاته قد أمدني بالأمل. فمن المؤكد أنه لا بد أن تأتي اللحظة التي تكون فيها كمية خوفها كفيلة بأن تجعلها مِلْكاً لي بصورة تلقائية؟.

والواقع أننا استطعنا ـ على نحوٍ غير منطقي وفي فترات غريبة ـ أن نتبادل الحديث. وعندما حاولت تذكيرها بالأيام الخوالي لم تكن ترفض التجاوب دائماً؛ وفي لحظات من «علاجي» لها، أحسست بالحب والرثاء نحوها إلى درجة أنني أحرزت تقدماً طفيفاً. وذات مرة سألتني على نحو غير متوقع: «ماذا حدث للعمة إستيل؟» لم أستطع أن أتذكر أنني حدَّثتُها عن العمة إستيل، وبخاصة لأنني جعلت من عائلة عمي موضوعاً محظوراً. وفي مرة أخرى قالت: «لم يحبك فيليب إطلاقاً». وفيليب هذا هو أخوها.«ماذا يفعل فيليب الآن؟».

ـ«لقد قتل فيليب في الحرب». واستطردت: «لقد كنت أخي حقاً». ولم تسألني قط عن شيء من حياتي في المسرح، ولم أحاول من ناحيتي أن أخبرها بشيء، وأظن أنها لم تشعر حقاً بالفضول لمعرفة شيء عنها. وقد طاف بذهني الآن ـ على كل حال ـ أنها شعرت بقليل من الندم أو بلا شيء على الإطلاق

لإخفاقها في الزواج من رجل شهير. غير أنها سألتني مرة أو مرتين إن كنت قد التقيت بهذا الممثل المعروف أو بذاك، وكان من الواضح أنها لا تعرف سوى النزر اليسير عن المسرح، وأنها لا تتابع أي شيء مما أقول. وذات مرة سألت: «هل عرفت ممثلة تدعى كليمنت ميكين؟» وبعد لحظة من التروي قلت: «نعم، كنت أعرفها جيداً، وكانت تحبني، وعشنا معاً فترة قصيرة». «تقصد أنها . .» «كانت عشيقتي». «ولكن لا بد أنها كانت تكبرك بسنين وسنين». «أجل، غير أن ذلك لم يكن ذا أهمية كبيرة». «لا بد أنها كانت امرأة مُسِنَّة». وبعد هنيهة من هذا الحديث شرعت هارتلي في البكاء وتركتني أطوِّقها بذراعي. ولم تتحدث عن كليمنت مرة أخرى. وكانت تلك لحظة من اللحظات التي بدا فيها أن الأمل نفسه يُقْبل عليّ خارجاً من الشفقة والحب. وفكّرت ملياً في السرّ الذي تنطوي عليه هارتلي، ذلك السر الذي يتسع بقدر شعورها ويطول بمقدار تاريخها، ذلك السر الذي تنطوي عليه نفسي أيضاً، والذي لن أعرفه أبداً، ولن أجد سبيلاً للوصول إليه، أعني ذلك الكائن الباطن. وبالطبع، كنت نافد الصبر. إذ توقعت منها بعد أن استولى عليها اليأس أن تكون في حاجة شديدة تدفعها إلى اللجوء إليّ تماماً، وبخاصة لأنها لا تملك ملجأً آخر. وكان إخفاقها حقاً في التحلل هو الذي تركني الآن في حالة من الضياع المريع.

وهنا توقعت أن يتقدم تيتوس لمساعدتي، ولكنه لم يكن على استعداد لذلك، ولعله كان عاجزاً عن المساعدة. كان يبدو خائفاً إلى حد ما من هارتلي، خائفاً من موقفها، ومن وقوعها في الأسر، ومن ضعف حيلتها البشع، ومما يتخيله عن عقلها. كان يمقت مذلتها، ولا يريد أن يتورط فيها. كان يبدو أنه يشعر إزاء المسألة كلها، إزاء «مكيدتي» أو «لعبتي» ـ كما كان يسميها ـ بمزيج من التقزز والذنب الناجم عن التواطؤ. وليس من شك أنه كان خائفاً من «بن»، بوصفه بديلاً عن الأب على أقل تقدير. وكان يشكو من

الرائحة التي تفوح من حجرة هارتلي ويقول انه لا يستطيع أن يتنفس هناك، ومع ذلك كان محرجاً أشد الحرج أن يجهد نفسه لإقناعها بالخروج. وكان يتوسل إليّ أن أبقى معه حين يتحدث إليها، فإذا تركته معها على انفراد كان يسارع بالفرار. وأظن أن الصعوبة كانت تكمن في عجزها عن الحديث عن «بن»، وقليلة هي الموضوعات التي لم تتصل بذلك الجنتلمان. كما لاحظت بالفعل أيضاً أن تيتوس كان ميّالاً إلى كتمان ما كان يفعل منذ أن هجر البيت، فلم يُبْدِ أي استعداد للإجابة عن أسئلتي التي وجهتها إليه عن هذا الموضوع، وقطعت هذه المراوغة الطريق على موضوع آخر ممكن للمحادثة. والواقع أن هارتلي لم تظهر أي فضول مُلح لمعرفة تصرفاته. كانا يتجاذبان أطراف الحديث حقاً، ولكن بطريقة مهذبة، أو كان ذلك على الأقل في اليوم الأول. أما بعد ذلك فإن إحجام تيتوس عن رؤيتها أخذ يتزايد، ولما أصبحت أشد ذهولاً، كنتُ أشد تردداً في أن أطلب منه ذلك.

ولم أستطع التعود على سماعه وهو يناديها باسم «ماري».

- «ماري، لماذا لا تخرجين إلى الشمس، فالجو بارد هنا في الداخل».

- «كلا، أشكرك».

- «هل تشعرين بأنك أحسن حالاً؟» هذا الاتفاق على أنها مريضة وصل بصورة مفيدة من مكان ما. وفي مظهر من المجاملة المبتذلة كانا يتناقشان بشأن البانجالو. ولكنهما ما كانا يدريان في أغلب الظن ماذا يقولان.

- «وهناك حديقة بديعة؟ لم تكن لدينا حديقة مناسبة في رقم ٣٤، أليس كذلك؟ لقد كانت أقرب إلى الفناء».

- «نعم، أقرب إلى الفناء في رقم ٣٤».

- «إني لأتذكّر دائماً المكواة الأسطوانية العتيقة الموضوعة تحت الظُّلة هناك، أتتذكر المكواة العتيقة؟».

ـ «أجل. . .».

ـ «إذن، فأنت تستطيعين الآن أن تزرعي الورود، كنت تريدين دائماً أن تفعلي هذا، أليس كذلك؟».

ـ «أجل، كميات كبيرة من الورود، من كل الألوان».

ـ «وتستطيعين أن تشاهدي البحر مباشرة من النافذة كما اعتدنا أن نقول إن هذا سيكون رائعاً؟».

ولم أستطع أن أفهم ماذا يمكن أن يفعل ذلك لهارتلي. وأدركت أنني كنت ساذجاً عندما تخيلت أن الأم والابن سيحتضن كل منهما الآخر، وسيكتشفان ـ في الحال ـ لغةً للحب. من يدري، ربما كانت هذه هي لغة الحب. كان الحب هناك، لا ريب في ذلك، غير أن الاثنين بقيا مرتبكين مربوطي اللسان بصورة تدعو إلى الدهشة. وكان الحوار يتصل بينهما بجهد مرتبك يبذله تيتوس في معظمه. وسرعان ما استهلكا محاسن البانجالو، فتنفست الصعداء. وتألفت أنجح محادثاتهما بعد ذلك من ذكرياتهما الطفولية البسيطة التي تتعلق بتفصيلات لا معنى لها عن المنازل والحدائق في طفولة تيتوس.

ـ «هل تتذكّر الثغرة التي كانت في السور والتي اعتدت أن أختلس النظر منها حيث كنا نقيم في رقم ٦٧؟».

ـ «أجل. . .».

ـ «كنت أقف فوق صندوق، أليس كذلك؟».

ـ «أجل، فوق صندوق».

لماذا لا يستطيعان الكلام؟ هل انهار التعاطف بينها وبين تيتوس حقاً في تلك الأعوام، كما تقوض تعاطفه معها؟ فكرة رهيبة. ورأيت فيما بعد أن الموقف كله بالطبع هو الذي جعلهما عاجزينْ عن التحادث؛ وأنني كنت الشخص الذي خلق هذا الموقف وحافظ على استمراره.

في ذاكـرتي يمتد زمن الحجز الذي فرضته على هارتلي زمناً طويلاً وكأنه يتضمن تاريخاً كاملاً لدراما عقلية: بتطوراته الواسعة، وتغيراته، ومراجعاته، ومفاجآته، وتقدماته، وانتكاساته، وأزماتـه. والواقـع أنها فترة لم تستغـرق سوى أربعة أيام أو خمسة. والحق أنها تحتوي على التاريخ والدراما والتغير. والغريب أنني كففت بعد اليوم الأول عن القلق المريع الذي كان يساورني من ناحية «بن». بالطبع، لم يكن من الممكن أن أنساه، بل كنت أتوقعه. غير أنني كنت أوصد الأبواب بعناية أثناء الليل، فقد خطر لي أنه قد يحاول إشعال النار في المنزل، وهذه الفكرة طاردتني إلى حد ما؛ فهو قبل كل شيء رجل مطافىء محترف. غير أنني لم أعد ألقي إليه بالاً. ربما لأنني نجحت حتى الآن في حبس نفسي عقلياً على حد سواء، وبدت الخطورة التي يمثلها «بن» أقل واقعية. لماذا لم يتحرك؟ أكان يضع خطة مفصلة، أم أنه يُؤْثر فحسب أن يعذِّب نفسه بالانتظار، وبهذه الطريقة يغذِّي غضبه؟ أيكون من الممكن أنه يخشى تيتوس؟ ولم ألبث أن كففت عن التساؤل.

أمـا فيما يتعلق بتيتـوس وجيلبرت فـما إن كـانـا يتمكنـان من الابتعـاد عني وعن هارتلي حتى يتصرفـا وكأنهما في إجـازة. ولم يكن تيتوس يحب أن يتنـاقش بشأن أمه ولا أبيه. كان قد اختار الانصراف عن هذه المشكلات. فأخذ يسبح كل يوم، ودائماً من الصخرة الصغيرة، مرتين أو ثلاث مـرات أحيانـاً في اليوم الواحد. وكان يكسو جسده بلوسيون صبغة الشمس، ويرقـد عاريـاً فوق الصخور. ويبدو الآن أن كل هواجس «التطفل» (أي المجيء للتسول) قد ولَّت تماماً. فهو يقبل الآن كرم ضيافتي بوصفه حقًّا من حقوقه ولا يعطي شيئاً في المقابل، لا مساعدة، ولا دفئـاً. وهذا بـالطبـع حكم جائـر. فأنـا لا ألوم تيتوس على «عدم رغبته في معرفة» ما يدور في الطابق العلوي. بل أعتقد أنه لا يفكِّر في هذا الموضوع على الإطلاق، ومن المؤكد أنه من العسير التفكير فيه. وفضلاً عن ذلك، كنت لا أمنحه إلا القليل من وقتي، ولعله كان حانقاً

على هذا الإهمال المُحْرج. وانتهيت الآن إلى أن تيتوس كان شخصية أبسط مما تخيلت لأول وهلة؛ أو لعله بعد أن واجه كل تلك الفظائع ـ قد آثر البساطة.

أما جيلبرت فكان أشد فضولاً بكثير، ولكنه كان أيضاً حريصاً على المساعدة مدفوعاً بحسن النية (وصل به الأمر إلى أنه كان يريد أن يضع زهوراً في حجرة هارتلي)، غير أنني صرفته بحزم عن هذه الأمور. وقد ظل وجوده أساسياً بالطبع، كان يطهو الطعام، ويقوم بالتسوق بينما كان تيتوس يأخذ حمّامه الشمسي. ولكنني منعته من الصعود إلى الطابق العلوي. ومن السمات الغريبة لتلك الفترة، وهي سمة ما زالت تعيدها إلى ذهني بشكل مريع ـ هي أن جيلبرت وتيتوس اكتشفا أنهما مطربان. كان جيلبرت مغنياً مجيداً من طبقة الباريتون، على حين ظهر تيتوس أنه تينور مقبول، ويستطيع أن يتكلف الغناء بصوت عالي الطبقة (Falsetto). وزاد الطين بلة أنهما ـ على ما يبدو ـ كانا يشتركان في رصيد ضخم إلى أقصى حد من المقطوعات الغنائية. وجَعَلا المنزل يضج بأصواتهما حتى أمرتهما ـ بشراسة ـ أن يخرجا إلى الصخور. وبالطبع كان يطيب لهما أن أكون مستمعاً لهما حباً في الاستعراض (المطربون جميعاً مصابون بالغرور)، كما كان يحلو لهما أن يجلسا نصف الليل ينشدان الترانيم Carols ويحتسيان نبيذي. (كان كل منهما يشرب مقادير كبيرة، فكان لا بد من إرسال جيلبرت إلى فندق الغراب لإحضار مزيد من النبيذ). وحتى وهما على مسافة بعيدة من المنزل كانا مسموعيْن، إلى هذا الحد كان صوتاهما من الارتفاع ونفساهما من السرور بهذا الاستعراض المشترك لمواهبهما. (لم تشر هارتلي إلى الغناء أبداً؛ لعلها كانت لا تعير ذلك التفاتاً أو ربما كانت مثل زوجها مصابة بشيء من الصمم). وكانا يهدران بمقطوعات من الأوبرا والكوميديات الموسيقية، والمادريجالات، وأغاني البوب والأغاني الشعبية والترجيعات Rounds، والبالادات الداعرة، وأناشيد الغرام القصيرة بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية. وأعتقد أنهما كانا يسكران فعلاً بموسيقاهما خلال تلك الفترة؛ وربما كان ذلك رد فعل طبيعياً للتوتر السائد داخل المنزل.

قلت لتوي إنني ألفيت تيتوس الآن أبسط مما تصورت في البداية. كان ذلك على هذا النحو فيما يتعلق بأمه وبمشكلاتي الخاصة. (وربما كنت أعني بكلمة «أبسط» «أكثر تشتتاً»، أو «أقل انتباهاً»). ولكن الشيء الجدير بالملاحظة - وقد لاحظه جيلبرت أيضاً - هو أن تيتوس كان أكثر ثقافة - من بعض الجوانب السطحية - مما يتوقعه المرء من غلام ترك المدرسة مبكراً ليتعلم «الكهرباء» في مدرسة للصنايع. أين كان تيتوس خلال العام أو العامين الأخيرين؟ ظل هذا شيئاً غامضاً. وتذكرت أزرار أساور القميص والكتاب الذي يضم قصائد دانتي الغرامية. وكان الافتراض الذي وضعته للتفسير هو أنه كان يعاشر امرأة أكبر منه سناً. إذ كان الآن في حوالي السن التي كنت قد بلغتها عندما اختطفتني كليمنت؛ «خطف الأطفال» كما يسميه الناس جميعاً. هل اختطفت إحداهنّ تيتوس، ثم نبذته بعد ذلك؟ أما نظرية جيلبرت - ولم يكن فيها ما يدعو إلى الدهشة - فهي أن تيتوس كان يقيم مع رجل. وأخلد تيتوس نفسه إلى الصمت فيما يتعلق بهذا الموضوع. (ربما كان هذا الموضع مناسباً للقول بأن بيري كان مخطئاً بالطبع فيما يختص بطبيعة علاقاتي مع فريتزي آيتل).

تحدثت عن تواريخ وتغيرات. ومن المؤكد أنه قد بدا لي بعد ذلك على نحو ما أن ما كنت أفعله في تلك الأيام هو أن أحيا مرة أخرى تاريخ حبي كله لهارتلي، لا مجرد الأيام الخوالي فحسب، بل والفترات الوسيطة كلها على حد سواء. وفي كل يوم، وكل ساعة، كنتُ أتذكر المزيد. وفي مساء اليوم الثاني تقريباً أمست هارتلي برهة أشد رغبة في الحديث، وبدا عليها أنها كانت تفكِّر، وأن هذا الحديث ما هو إلا ثمرة ذلك التفكير. وأفضى هذا إلى حوار كانت نتيجته أشد ما تكون اكتئاباً.

كنا جالسيْن على أرضية الحجرة، أما هي فكانت جالسة على الخشبة، على حين جلست أنا على الألواح العارية، وقد مددنا أرجلنا مواجهين النافذة

الطويلة المرتفعة التي تطل على حجرة المكتب. أما الحجرة الوسطى التي كانت مظلمة عادة، فقد احتواها الغسق، وإن كان وهج المساء يبعث نوراً دافئاً معتماً. لمست راحة هارتلي فأحسست أنني مرتبط بها من رأسي حتى قدميّ.

- «حبيبتي، إن عباءتي الحريرية تناسبك، ولكن، ألا تريدين أن تخلعيها أحياناً؟».

- «أشعر بالبرد».

- «ألم تبدأي بالشعور بأنك تقيمين هنا؟».

- «تعتقد أن الشيء المهم هو أنني أخطأت عندما لم أتزوجك».

- «كانت هناك غلطة. والأهم الآن هو إصلاحها».

- «كل ما في الأمر أنك تريد شخصاً يتذكر الأشياء معك».

- «هذا شيء جائر تماماً، عندما أريد بشدة أن أتحدث عن المستقبل فإنك لا تريدين ذلك!».

- «إنك تشعر بالتحامل عليّ لأنني هربت».

- «إذن فأنت تعترفين بأنك هربت؟».

- «أظن ذلك، كان هذا منذ أمد بعيد».

- «قلت إنني سأكون خائناً».

- «أقلتُ ذلك؟ لا أستطيع أن أتذكر». عشت حياتي على كلماتها، وها هي الآن لا تستطيع حتى أن تتذكرها! «أظن أنني هربت لأنني أحسست بالذنب».

- «بالذنب لأنك جرحتني؟».

- «نعم، حقاً، شعرت دائماً بأنني مذنبة، واعتقدت أنك تلومني. وبطريقة عجيبة كان عليّ أن أحمي نفسي منك بفكرة أنك تكرهني».

- «وكيف يمكن بحق السماء أن «تحميك» هذه الفكرة؟».

ـ «عندما رأيتك في القرية ظننت أنك رأيتني وتظاهرت بأنك لم ترني لأنك تكرهني».

ـ «ولكنني لم أكرهك قط، يا حبيبتي، ولو لحظة واحدة!».

ـ «لا بد أن أعتقد ذلك».

ـ «ولكن لماذا؟».

ـ «لكي أكون على يقين من أنك ذهبت فعلاً، وأن كل شيء قد انتهى حقاً. لكي أجعلها شيئاً ميتاً في ذهني»:

ـ «أوه، هارتلي. أما بالنسبة لي فلم تنته أبداً، لم تمت أبداً في ذهني. إذن فقد كنت تريدينني، تفتقدينني، وكنت خائفة من التفكير فيّ؟ ألا يثبت ذلك أنك تحبينني؟».

ـ «ظننتُ أنك تكرهني، ولهذا تشعر بالتحامل».

ـ «تقصدين الآن؟ أنت مخبولة».

ـ «إنه التحامل حقاً، وإلا ما كنتَ بهذه القسوة».

ـ «هارتلي، لا تعذبيني، إنك تفكرين بمنطق شخصي مخبول».

ـ «أو لعله الفضول، كأنك سائح، إنك تزورني، تزور حياتي وتشعر بأنك أعلى مني».

ـ «هارتلي، كفّي عن ذلك، هلا فعلت! أم تراك تحاولين الإساءة إليّ؟ أنت التي تمارسين القسوة. تمت رابطة أبدية بيننا، أنت تعلمين أنها موجودة، إنها أوضح شيء في العالم، أوضح من المسيح. أريدك أن تكوني زوجتي أخيراً، أريدك أن تستريحي فيّ، وأريد أن أرعاك إلى الأبد، حتى أسقط ميتاً».

ـ «أود لو سقطت ميتة».

ـ «اسكتي».

ـ «أود لو انتهى كل شيء، لقد نلت حياتي. أود لو قتلني أحد...».

ـ «إذن فقد هدّد حياتك؟».

ـ «كلا، كلا، هذا كله يدور بخلدي. . .».

ـ «لا تستطيعين العودة الآن، لن أدعك، حتى لو كنت لا تريدينني. إنه أمر في غاية البساطة، ولكنك تميلين إلى تعقيد الأمور».

ـ «إنك تريد تعقيد الأشياء على طريقتك، إنك تلتوي وتلتف، وأنت أشبه بثعبان البحر، أتذكر ذلك عنك».

ـ «إذن فأنا الآن أشبه بثعبان البحر! لم أَلْتَوِ أبداً ولا التففت فيما يتعلق بك، إنما أردتك دائماً وحدك ولا أحد سواك. أنا الشخص المخلص، فلم أتزوج أبداً».

ـ «أجل، ولكنك عاشرت نساءً، عاشرت تلك الممثلة العجوز».

ـ «فليكن، ولكنني أستطع أن أجدك. كنتِ المرأة التي أريدها. حاولت وحاولت أن أجدك. بحثت وبحثت، وعلى نحو ما لم أتخلَّ حقاً عن الأمل إطلاقاً. . . وربما كان هذا هو السبب في أنني وجدتك الآن».

ـ «كنت ظالمة تجاه بن».

ـ «يا إلهي، ألا تستطيعين نسيان «بن»؟ «بن» قد انتهى».

ـ «تعذَّب كثيراً بسبب تيتوس، عندما اختفى، كان ذلك أشبه بتكفير».

ـ «يجوز أنه تعذب كثيراً، ولكنه يستحق أن يتعذب، لقد أرغم تيتوس على الهرب. وأتوقع أن يكون ذلك قد أسعده حقاً».

ـ «كلا، كلا، إنه لم يكن سيئاً إلى هذا الحد مع تيتوس، لا إلى الحد الذي قلته. كان قاسياً. . .».

ـ «كان عنيفاً. ونحوك أنت أيضاً. لا تحاولي الدفاع، أوه لا تدعينا نتحدث عن ذلك الرجل البغيض».

ـ «المسؤولون عن حماية الأطفال لم يأتوا مُطلقاً، قلتُ إنهم جاءوا ولكنهم لم يأتوا».

- «أوه، اللعنة على المسؤولين عن حماية الأطفال، ماذا يعنيني إن كانوا قد جاءوا أو لم يجيئوا؟».

- «ولكنني قلت إنهم جاءوا، وهم لم يجيئوا».

- «وحتى لو لم يجيئوا، فقد كان ينبغي أن يجيئوا».

- «غير أن ذلك لم يكن صدقاً».

- «لماذا تحاولين أن تحسّني صورة هذا الرجل الشرير القاسي؟. إن تيتوس يكرهه. أليس هذا دليلاً كافياً؟ إنه كذلك بالنسبة لي».

- «ليس لـ «بن» أحد في العالم سواي. ليس له أي شيء في العالم».

- «ولكنه سيعيش. ماذا عني؟ لماذا لا تأسفين عليّ على سبيل التغيير؟ لقد انتظرت بما فيه الكفاية. لا يوجد شيء مهجور كممثل عجوز. ماذا أملك الآن سوى ذكرياتي؟ لقد انتزعت نفسي من كل سلطان ومن كل مجد... من أجل شيء ما... وهذا الشيء - وإن كنت لا أعرفه - كان أنتِ. ولا تستطيعين أن تخذليني الآن».

- «أتؤمن بالله؟».

- «كلا».

- «أعتقد أنني أؤمن بالسيد المسيح. لا بد أن تؤمن بشيء وأن تمسك بشيء ما. يصاب الناس بالجنون إن لم يؤمنوا بالله، أليس كذلك؟ اعتدنا أن نتحدث عن هذا الموضوع، أليس كذلك؟».

- «يسعدني أنك لم تنسي تلك الأحاديث. أتذكرين عندما كنا نتلقى تثبيت العماد؟ كان يعني أشياء كثيرة، أليس كذلك؟ تعال، يا روح القدس، وأرواحنا فألهم...».

- «أظن أنني أؤمن بغفران الخطايا».

- « كلّنا بحاجة إلى شيء من ذلك».

- «الحب فداء، وهذا يعني شيئاً ما، أليس كذلك؟».

- «لا تقولي لي أنك تريدين أن تفدي «بن» بالحب! لقد سئمت بن. ماذا عن الفداء عني؟».

- «ما من أحد يمكن أن يفديه سواي، ولا أحد سواي يمكن أن يحبه».

- «المسيح سيحبه».

- «كلا، بالنسبة لـ «بن»، لا بد أن أكون أنا المسيح».

- «هذا قول مأفون، يا حبيبتي، مأفون تماماً. حاولي أن تفكري قليلاً. ألم يخطر على بالك أن «بن» سوف يتنفس الصعداء إذا هجرتِه؟ عليه اللعنة، لقد هجرتِه فعلاً. إنك لست ضرورية له إلى هذا الحد. وربما فكّر في طردك. ولكنه الآن سعيد كل السعادة بفرارك».

- «إنك تريد أن تجعله شيئاً غير حقيقي، ولكنه حقيقي».

- «الأشياء الحقيقية تصبح غير حقيقية عندما تدخلين الحقيقة».

- «لم يكن حبنا حقيقياً، كان صبيانياً، كان أشبه بلعبة، كنا أشبه بأخ وأخت. ولم نكن نعرف ما الحب حينذاك».

- «هارتلي، أنت تعلمين أننا كنا متحابين...».

- «نعم، ولكننا لم نمارس الحب الصحيح، ويا ليتنا فعلنا».

- «ظننت أنك لا تريدين، أما أنا فكنت أريد طبعاً. أوه، يا للسيد المسيح!».

- «كنا طفلين. ولم تصبح أبداً جزءاً من حياتي الواقعية».

- «يبدو أن ما تسمينه حياتك الواقعية كان هو الجحيم على الأرض! سحقاً له، قلت هذا لنفسك. المرأة السعيدة لا تتحدث عن الموت».

- «ليتني لم أخبرك بأشياء. سأندم على إفضائي بأشياء. بالطبع هذه ورطة، ولكنها ورطتي، إنها حيث أعيش، وهي ما أنا عليه. ولا أستطيع

الفرار منها وتركها ورائي هشياً مفككاً كصدفة مكسورة».

ـ «هذا بالضبط هو ما تستطيعين أن تصنعيه! الفرار، الهرب، ترك كل شيء وراءك! ترين أن الألم يمكن أن يتوقف!».

ـ «أمن الممكن أن يتوقف؟ أمن الممكن أن يتوقف الألم؟».

وساءلت نفسي وهي تحملق الآن فيّ بعينيها الواسعتين ـ وبتوقف مباغت ينم عن الحيرة ـ أتكون مجنونة، هل ضلّ عقلها تماماً، أهي مجرد حطام تعس، أم أنها أضحت نوعاً من الكائن الروحاني الخارق، شفّت نفسه بالمعاناة؟ أكانت هذه النظرة الغريبة الوحشية التي ميزت جمالها في مرحلة الشباب والتي أحببتها كل هذا الحب، وعبدتها هي أول علامة تنبؤية على روحانياتها الخارقة؟ هناك قديسون مخفيون لهم مصائر غريبة. ومع ذلك، كلا، لقد كانت حطاماً، مجرد غصن مقصوف بائس تحطم تكاملها، واندحرت هويتها الأخيرة بواسطة القوة القاسية التي جعلتها تتخلى عن تيتوس. ولكنها أياً كانت فأنا أحبها ومرتبط بها، وكنت مرتبطاً بها دائماً، هنا وعبر النجوم... تلك النجوم، وراء النجوم، وراء النجوم التي شاهدتها في تلك الليلة حينما كنت راقداً فوق الصخور، والسماء الذهبية تَقْلب الكون على مهل ظهراً لبطن.

ـ «أجل، يا حبيبتي، يا مليكتي، يا ملاكي، يمكن أن يتوقف».

أواه، لو أنني استطعت أن ألمس عقلها وأن أحرِّره! كنت أريد أن أراها في حالة أمل، أن أشاهد فجراً من الرجاء أو الرغبة، الرغبة في الاعتزاز بشيء، في حياة سعيدة. غير أنها في حيرتها الآن قطبت وجهها وعادت إلى الحديث عن «بن».

ـ «لم أكن طيبة معه بما فيه الكفاية».

ـ «أنا متأكد من أنك كنت قديسة، قديسة طويلة المعاناة!».

ـ «كلا، بل كنت سيئة».

- «أوه، فليكن، سمّيه سوءاً إن شئت! أياً كان، فقد انتهى».

رأيتها الآن بوصفها امرأة بريئة، كما اعتاد الرجال في الماضي أن يروا فتيات الأديرة فيقولون: «نحن وحوش، أما هؤلاء فملائكة، نقيات، غير ملوثات مثلنا». رأيتها جميلة في براءتها، بسيطة في تفكيرها، حمقاء، لا تفقه شيئاً: كانت تأنيباً موجهاً إليّ لأنني قضيت حياتي وسط رجال يتصفون بالغرور والأنانية، ونساء فاجرات محترفات. غير أنني رأيت أيضاً الذنب الذي ارتكبته بوصفه ذنباً حقيقياً على ضروب من الإخفاق الحقيقي. وكيف يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك؟ وتذكرت كلمات برجراين: الشريك الذي يشعر بالذنب، مهما كان شعوره لاعقلانياً، يصبح عبداً للآخر، ولا يمكن أن يكون له موقف أخلاقي. لقد حَمَلَتْ وزره على نفسها، كما حملت أوزارها الصغيرة. وشَعَرَتْ بأنها مذنبة على آثامه التي ارتكبها ضدها، وضد تيتوس. كنت أستطيع أن أرى هذا كله. وحين حملت على عاتقها هذا الوزر ونسبته لنفسها وقرّت الشخص المذنب واعتبرته مقدساً. أوه، لو أنني استطعت فحسب أن أحررها من هذا الذنب الباتر المشوِّه، ومن هذا التوقير الأجوف! يا إلهي، بل إنها تشعر بأنها مذنبة فيما يتعلق بي، وأن عليها أن تعزي نفسها بالتفكير في أنني أكرهها! كانت مأخوذة، مقيدة بسحر حماية الذات الذي جعلت تنمِّيه طيلة تلك السنين للدفاع عن نفسها ضد ذلك الألم الناشيء عن زواجها من شخص غيور مخبول مبتذل شرس الطبع. وتعرَّضت لعملية غسيل للمخ من جراء خوفها منه. غسيل للمخ تولد عن سماعها لأشياء بعينها تتكرر مرة بعد أخرى بعد أخرى: بأنها كانت غلطتها، دائماً غلطتها. فلا عجب إن أراد تيتوس أن يذهب ويغني فوق الصخور بدلاً من تذكيره بتلك المشاهد.

بكت قليلاً. ذلك أن دموع الشيخوخة ليست دموع الشباب. «كُفِّي عن البكاء، يا هارتلي، فإن منظرك أشبه بالخنزير الطفل في حكاية «أليس» كما اعتدت أن تكوني».

- «أنا أعلم أنني دميمة، بشعة. . .».

- «أوه، يا عزيزتي، اخرجي من هذه الحالة، اخرجي فوراً من هذه الحالة اخرجي من هذا الكابوس. . .».

جففت عينيها بمنديلي، وتركتني أمسك يدها لحظة، وشرعت مرة أخرى في التفكير.

- «ولكن ما الذي جعلك تفكّر في أن زواجي كان شقياً إلى هذا الحد؟» كانت الآن تتفرس في وجهي بنظرة تكاد أن تكون ماكرة، وكأنها على وشك أن تصدر تفنيداً كاسحاً لكل شيء يمكن أن أقوله إجابة على سؤالها.

- «هارتلي، حبيبتي، إنك في ورطة. لقد اعترفت بأنك تعسة، وكنت تتحدثين الآن عن الألم الذي تتركه هذه الحالة في نفسك!».

- «الألم يختلف، في كل زواج يوجد الألم، والحياة ألم. . . ولكن بالنسبة لك. . . قد مرّ عليك هذا كله مَرَّ الكرام».

- «ربما فعل ذلك حمداً لله».

- «هل تعلم، في كثير من الليالي الهادئة في البيت، اعتدت أن أفكر في الناس الذين يكدحون في معسكرات العمل. . .».

- «إذا كنت لا تجدين ما تعرفين به روحك المعنوية سوى التفكير بأنك لست على الأقل في معسكر للعمل، فمعنى ذلك أنك لم تكوني سعيدة جداً!».

- «ولكن، ما الذي جعلك تعتقد أن زواجي سيّىء إلى هذا الحد، من أين لك أن تحكم؟ إنك لا تستطيع أن ترى، ولا تستطيع أن تفهم. . .».

- «أستطيع أن أحكم. أنا أعلم».

- «لكن كيف تستطيع أن تعلم، إنها مجرد فكرة، إنك لا تفهم عن الزواج شيئاً، لم تعاشر إلا نسوة ساقطات، وهذا شيء مختلف، ولا تملك أي دليل».

- «عنك وعنه. . . نعم، عندي الدليل».
- «لا يمكن أن يكون لديك. كل ما لديك هو أنك قابلتنا، ولا تعرف أحداً يعرفنا، وعلى هذا النحو لا يعرفنا أحد، لا يمكن أن تحصل على دليل».
- «بلى، حصلت على دليل، استمعت إليكما وكنتما تتحدثان، الطريقة التي تتحدثان بها. . .» قلت ذلك في انفجار نهائي للغضب، وكان لا بد أن أعترف تدفعني رغبة إلى الإيذاء. فذلك الإصرار الهادىء العنيد، والآن هذا التعبير الماكر المتعالي كان يسوقني إلى الجنون.
- «ماذا تعني؟».
- «أنصتّ، تواريت خارج النافذة، وأصغيت إليك وإليه وأنتما تتحدثان، استمعت إلى الصوت الغليظ، وطريقته الشرسة، الطريقة التي كان يصيح بها في وجهك، الطريقة التي جعلتك بها ترددين مراراً وتكراراً: «أنا آسفة. أنا آسفة». وتمنيت أن أحطم النافذة، وأكسر رقبته اللعينة. سأقتل هذا الرجل، وأود لو دفعته في جوف البحر».
- «أنصتّ. . . وسمعت. . متى؟».
- «أوه، لا أستطيع أن أتذكر، منذ أسبوع، أسبوعين. . . أنا مضطرب إلى درجة أنني فقدت حساب الزمن. . . وهكذا ترين أنني لم أعد أستطيع التظاهر أكثر من ذلك، وأنت لا تستطيعين أن تحسّني صورته وتخبريني بأن زواجك سعيد، لأنني أعرف الحقيقة!».
- «الحقيقة. . أوه، إنك لا تفهم! لقد أنصت. . إلى متى؟».
- «عصور، ساعة، كلا، لا أستطيع أن أتذكر. . كان كل منكما يصيح في وجه الآخر، كان الموقف بشعاً تمام البشاعة، أو على الأقل كان يصيح وكنت تتأوهين، كان شيئاً مقززاً. .».
- «كيف تجرأت. . . إنك لا تدري ما فعلت. كيف تجرؤ على التطفل،

على التجسس علينا على هذا النحو. . لم يكن شيئاً يخصك. . كيف يمكن أن تتدخل في أمور سرية ليس من الممكن أن تفهمها. . . هذا أخبث وأنذل شيء ارتكبه شخص نحوي على الإطلاق. . . ».

- : «هارتلي، حبيبتي، إنك تعلمين أنني لم أقترفه إلا بغرض المساعدة، أعني لأنه كان لا بد من أن أعرف، أن أكون متأكداً، أن أكون على يقين. . . ».

- «وكان في إمكانك أن تعرف شيئاً. . . لقد أسأت إليّ كثيراً. . . لن أصفح عنك أبداً، أبداً، إنه أشبه، أشبه بجريمة، قتل. . إنك لا تفهم. . . أوه، هذا ضرر بالغ، بالغ. . . ».

- «حبيبتي، أنا متأسف، لم أكن أتخيل. . . ».

كانت تبكي الآن بكاءً لم أشاهد أية إمرأة (وقد شاهدت كثيرات) تبكيه من قبل، وقد جلست مستقيمة تمام الاستقامة ملتصقة بالجدار. كانت الدموع تبدو منبثقة من عينيها كالسيل، ثم انفتح ثغرها المُبْتَل على صيحة مختنقة، صرخة حيوان يتعذب عذاباً أليماً. ثم أطلقت عويلاً خافتاً مرتجفاً، وأخذت تتساقط على هذا الجانب وعلى ذاك، وهي تقبض على عنقها، وتشد العبارة كأنها تختنق. وأعقب العويلَ لهاثٌ مرتعد، وفي لحظة استولت عليها الهستيريا.

وثبت على قدمي، وأخذت أراقبها مرتاعاً. كنت قد وعيت جيداً ما قاله تيتوس عن هذه الحالة: إنها مخيفة، ومقصود بها أن تكون كذلك. وشعرت أن أعنف هجوم هو الذي يُشَن على روحي، على سلامة عقلي. وكنت قد شاهدت نوبات هيستيرية صارخة من قبل، ولكنها لم تكن مثل هذه. ركعت مرة أخرى وحاولت الإمساك بها، وهزّها، ولكنها بدت بغتة في غاية القوة، وأنا في غاية الضعف، كما أصبح لمسها أيضاً شيئاً رهيباً. كانت تنتقض متصلبة بكهربائية مخيفة مدمرة. وكان وجهها أحمر، وحشياً بالدموع، واللعاب يسيل من ثغرها. وصوتها متحشرج، ثاقب، زاعق، كشخص

مذعور غاضب يصرخ صراخاً فاحشاً، بصوتٍ ينم عن الهلع والهياج، ويطلق آهة (آآآه) متصلة تحولت إلى عويل منتحب «أوه.. أوه.. أوه» سريع. مصحوب بـ «أوووه» هادئة تنتهي إلى ما يشبه النعومة، لتعود الصرخة مرة أخرى: وتستمر هذه بطريقة آلية، تلقائية، وتمضي دون توقف وكأن مخلوقاً بشرياً قد سيطرت عليه آلة شيطانية غريبة. أحسست بالرعب، والخوف، وبضرب من الخزي المقزز، الخزي من نفسي، والخزي منها. ولم أكن أريد أن يسمع تيتوس أو جيلبرت هذه الضجة المروِّعة الموَقَّعة، هذا الهجوم للعويل العدواني. وكنت أرجو أن يكونا بعيدين فوق الصخور ينشدان أغانيهما. صحت: «كفى، كفى، كفى!» أحسست بأنني سأصاب بجنون عنيف إذا استمرت على هذه الحالة لحظة أخرى، وأحسست بأنني أريد إسكاتها حتى لو كان ذلك بقتلها، هززتها مرة أخرى وصِحْت في وجهها، وجريت نحو الباب، ثم جريت عائداً. لن أنسى أبداً الصورة المرعبة لذلك الوجه، لذلك القناع، والصفة القاسية الإيقاعية التي لا ترحم لذلك الصوت...

انقطع الصوت في نهاية الأمر، كما لا بد لكل شيء مريع أن ينقطع، حتى لو لم يكن انقطاعه إلا بالموت. أما حضوري، وصيحاتي، فلم يكن لها تأثير عليها، بل إني أظن - بمعنى ما - أنها لم تكن تعلم بوجودي هناك، وإن كان هذا الاستعراض - بمعنى ما أيضاً - يستهدفني، وعنفه موجهاً إليّ. نال منها الإرهاق، فتوقفت بغتة، وسقطت إلى الخلف كأنها في إغماءة. أمسكت يدها، وكانت باردة، أصابني الهلع، وكدت أركض خارجاً واستنجد بطبيب، لولا أنني كنت أخشى أن أتركها، كما كنت من الإرهاق بحيث لا أستطيع أن أتخذ أي قرار. رقدت إلى جانبها وعانقتها وأنا أنطق باسمها مرة بعد أخرى. أصبح نفسها عميقاً، منتظماً، وكأنما هي تدخل في النوم. ثم نظرت إليها فألفيت عينيها مفتوحتين. كانت تنظر إليّ ثانية بتلك النظرة الماكرة الغريبة، وكأنما تقوم الآن فعلاً بتقدير أثر «نوبتها». وعندما بدأت

تتحدث فيها بعد مرة أخرى، كانت تبدو سليمة تماماً، معقولة تماماً، أكثر مما كانت من قبل بكل تأكيد.

- «أوه، تشارلز.. حبيبي.. أنا في غاية الأسف...».

- «أنا متأسف.. أنا أحمق، عبيط يفتقر إلى الإحساس».

- «كلا، كلا.. أنا متأسفة لأنني كنت مضطربة أشد الاضطراب، وأحدثت كل هذه الضجة. أظن أنني في حالة صدمة».

- «آسف جداً، يا حبيبة القلب».

- «لا عليك. أخبرني، كم من الزمن مكثت هنا، في هذا المنزل؟».

- «يومين».

- «وهل حضر إلى هنا، أقصد زوجي؟ أم كتب لي رسالة؟» وكانت هذه أول مرة تسأل فيها هذا السؤال.

- «لم يرسل خطاباً. وإلا كنت أعطيته لك. لقد حضر، في ذلك الصباح بعد وصولك».

- «ماذا قال؟».

- «يريدك أن تعودي إلى المنزل، وأن...».

- «وأن ماذا؟».

أحسست بالبساطة والاضطراب إلى درجة أنني استرسلت بغباء: «قال إنه أحضر الكلب معه».

- «أوه... الكلب.. الكلب... لقد نسيت...» انبثقت دموع أخرى وانسابت على وجنتيها اللتين انتفختا بالبكاء إلى درجة أوشكتا معها أن تكونا غيرَ ما هما، غير أنها تمالكت نفسها. «أوه يا عزيزي... أوه يا عزيزي.. كم أتمنى لو كنت هناك عندما حضر الكلب!».

قلت: «انظري، يا هارتلي، لا يبدو أنك قادرة على التفكير في هذا الأمر،

ومن ثمّ دعيني أفكر نيابة عنك. إننا لا نستطيع أن نمضي على هذا النحو، وبدأت أشعر كأنني إرهابي. لقد وضعتني في موقف لا بد أن أقوم فيه بدور «الفتوة» وهو الدور الذي أمقته أشد المقت من بين الأدوار جميعاً. لـك ما تشاءين، أنا لا أعرف ما كـان عليه شكـل زواجك، وربمـا لم يكن بتلك البشاعة على الإطلاق، كما لم يكن هو بكل تلك الفظاعة، ولكن من الجلي أنه لم يكن زواجاً ناجحاً، ولا أرى لماذا ينبغي أن تعاشري رجلاً عنيفاً بغيضاً ما دمت لست مرغمة على ذلك. تستطيعين الخروج. وأستطيع القول بأنه كان من الممكن أن تخرجي من قبل لـو كان لك مكان آخر تستطيعين الخروج إليه. والآن، لديك هذا المكان. دعينا نذهب إلى لندن. هذا الموقف هنا يسوقني إلى الجنون. وأنا أتركه يمضي لأنني لا أريد أن أكرهك على شيء. ولا أريدك أن تقولي فيما بعد أنك لم تتخذي قرارك بنفسك. لا أريد أن أُكْرَه على إكراهك. أظهري نحوي شيئاً من الاعتبار، ونحو تيتوس أيضاً. أنا معجب كل الإعجاب بتيتوس، واعتبره ابني، أجل اعتبره كذلك. وهو يبغض ذلك الرجل، وإذا ذهبت إليهفلن تري تيتوس أبداً مرة أخرى. إنك لا تختارين بيني وبين زواجك الفاشل المقيت فحسب ـ وأرجو أن تغفري لغتي ـ بل إن هناك تيتوس في الميزان أيضاً. دعينا نذهب إلى لندن، ثلاثتنا جميعاً، ثم بعيداً إلى مكان ما، إلى أي مكان. نحن الآن أسرة. . وهذا شيء لم أتمتع به منذ أن تركت منزل أبويّ. دعينا نذهب بعيداً معاً إلى أي مكان تحبينه، وأن نسعى وراء شيء من السعادة. ألا تحبين أن تشاهدي تيتوس سعيداً؟ إنه يريد أن يكون ممثلاً، وأنا أستطيع مساعدته. ألا تحبين أن تَرَيْـهِ سعيداً؟.

أنصتت إليّ، غـير أنها في نهاية الحـديث بـدأت تهـز رأسهـا. قـالت: «أرجوك، أرجوك ألا ترغمني على الذهاب إلى أي مكان، إنك تقتلني. لا بد من أن أذهب إلى البيت. أنت تعرف أنه لا بد من أن أذهب، وتعرف أنني لا أريد البقاء هنا. . لن يكون هناك ذهاب إلى أي مكـان. . أي ذهاب. . تريد. . . سيكون هذا أشبه بمعجزة في عقلي».

ـ «أوه أجل، يا هارتلي، يا حبيبتي، انتظري تلك المعجزة، انتظريها، إن اسمها هو الحب».

ـ «كلا، ليس هذا اسمها، وهي لم تأتِ، ولن تأتي. ألا ترى أنك تعمل على تدميري؟ الآن، لن يصدقني أبداً، أبداً. وهذا عملك، جريمتك. إنه أشبه بجريمة قتل. أبداً، أبداً، أبداً».

ولم تلبث أن قالت بعد ذلك مباشرة إنها مكدودة وتريد أن تنام، فتركتها.

استيقظت بغتة. كان القمر ساطعاً في حجرة نومي حيث أغفلت إسدال ستار النافذة. وكنت أستطيع أن أسمع ارتطام أمواج البحر وصليلاً خافتاً ينبعث من الأحجار التي كانت الأمواج تنتزعها برفق أثناء انسحابها من المرجل. لا بد أن المد منخفض. كما كنت أستطيع أن أسمع أيضاً، أو أحس، فراغاً شاسعاً، قبّة من الصمت كان قلبي يخفق في جوفها خفقاناً مفرط السرعة. شعرت بالاختناق، وكان لا بد لي من الجلوس فجأة واللهاث من أجل التنفس. وتذكرت، كما أفعل الآن كلما استيقظت بخفقة من القلق والحب والخوف ـ تذكرت أن هارتلي في المنزل. وفي الوقت نفسه أحسست بأشنع أنواع الجزع، توقع لكارثة ما، رعب ما، أو التأكد من أن هذا قد وقع فعلاً. شرعت في الخروج من السرير وأنا أرتعد ارتعاداً عنيفاً، وهرولت بحثاً عن شمعة. أضأتها ثم وقفت وأرهفت سمعي. كان المنزل المظلم الخاوي هادئاً هدوءاً ينذر بالشر. فتحت باب حجرة نومي بسرعة وأطللت على البسطة. فبدا أن هناك نوراً خافتاً ينبعث من المشكاة، غير أنه ربما كان حيلة من القمر. أنصت، وبدا لي أنني أسمع صوتاً موقعاً، ضجة ثقيلة، عميقة متسارعة، نائية جداً جداً. تقدمت ببطء إلى الأمام، واضعاً كل قدم بحذر شديد حتى لا أجعل الألواح تقرقع. كنت أستطيع الآن أن أرى باب هارتلي بوضوح، والمفتاح في القفل. أردت أن أصل إليه، أن أضع يدي على المفتاح، غير أنني كنت أخشى التعجل، متوجساً من دخول الحجرة الرهيبة.

أدركت المفتاح بيدي وأدرته وخطوت من خلال مدخل الباب ممسكاً بشمعتي. كانت الحشية الموضوعة على الأرض التي كنت أنظر إليها دائماً حين دخولي ـ خالية، وملاءات السرير منكوشة. لقد ذهبت هارتلي. . حملقت حولي، مستعداً للصراخ من هول الهلع. ثم رأيتها. . كانت واقفة في الركن. وقلت لنفسي، ما أغرب أن أنسى إلى أي حد هي طويلة. وحدثت نفسي بأنها واقفة على شيء ما، ما أغرب هذا، لا بد أنها تقف على المقعد أو على المنضدة. ثم رأيت أنها معلّقة في حاملة المصباح. لقد شنقت نفسها.

استيقظت. وومضة الفكر الخاطفة التي أرتني الحلم جعلتني في اللحظة نفسها أدرك أنه كان حلماً. كنت راقداً في سريري. ولم أكن قد ذهبت إلى حجرة هارتلي ووجدتها ميتة، بعد أن شنقت نفسها بأحد جواربها وتدلت من حاملة المصباح الحديدية بعد أن صعدت على المنضدة وقذفت بنفسها. أحسست بارتياح عنيف حاد: ثم هاجمني هذا الخاطر، ماذا لو افترضنا أن الحلم كان حقيقة؟ نهضت عليلاً مرتجفاً، فأضأت وفتحت باب حجرة نومي في هدوء. وأضاء نور الشمعة حاجز ستار الخرز، دون أن يضيء ما وراءه. كان الستار يصلصل برفق نتيجة للتيار الصادر عن الباب، بلا ريب. أزحت حبال الخرز بحذر شديد وانسللت إلى حجرة هارتلي وأدرت المفتاح بهدوء شديد. انحنيت خلال مدخل الباب وأطللت على الحجرة.

كانت هناك، ظاهرة في ضوء شمعتي، راقدة على الحشية، ملتفة على نفسها، مغطاة بالبطانية، وقد وضعت يدها فوق وجهها. راقبت وسمعت تنفسها الهادىء المنتظم. وفي صمت سحبت الباب وأوصدته مرة أخرى. ثم رجعت من خلال ستار الخرز محاولاً ألا أحركه كثيراً، ودخلت حجرة المكتب مشتت الذهن تماماً. وكنت قد تحاشيت هذه الحجرة منذ أن احتجزت هارتلي، على سبيل نوع من النظافة الأخلاقية، لأن النافذة الطويلة كانت تطل على حجرة هارتلي. دخلتها الآن، ولدي شعور مبهج بفكرة أنني أريد

التأكد من أن أحداً لا يوجد فيها، وبالطبع لم يكن هناك أحد. وقفت ممسكاً بشمعتي، ونظرت إلى النافذة الداخلية الطويلة التي كانت تشبه الآن مرآة سوداء لامعة، وخطر لي أنني لم أكن أتحاشى حجرة المكتب بدافع من النظافة الأخلاقية وإنما خوفاً من تلك الإمكانية البشعة وهي أنني قد أرى هارتلي تطل بالفعل إلى الخارج. وفجأة تذكرت الوجه الذي رأيته ناظراً إليّ من خلال المرآة السوداء، وتذكرت أن هذا الوجه كان مرتفعاً جداً. ولم يكن من الممكن أن يكون وجه شخص يقف على أرضية الحجرة، وإنما كان في المستوى الذي يمكن أن يكون فيه وجه هارتلي إذا كانت قد شنقت نفسها حقاً.

ثم خطر لي أن شمعتي تضيء في حجرتها، وتبعث ضوءاً شبحياً في حجرتها. أية هواجس ومخاوف يمكن أن تنتاب تلك الأسيرة المسكينة إذا استيقظت أثناء الليل؟ هل ارتقت مقعداً لتختلس النظر إلى حجرة المكتب الخالية المعتمة التي ينيرها ضوء القمر؟ هل حاولت في هدوء شديد أن توصد الباب، آملة وخائفة من أن تكون قادرة على أن تزحف على السلم لتهرب في الليل المظلم؟ هرعت عائداً إلى حجرتي وأغلقت الباب. وجلست على السرير وأنا أرتعد، ونظرت إلى ساعتي. كانت قد تجاوزت الثانية بنصف ساعة. ماذا كنت أفعل، أو بالأحرى ماذا يحدث لي؟ أمسكت رأسي بين يديّ. كنت بلا حول ولا قوة تماماً. فقدت التحكم في حياتي تماماً وفي حياة المتصلين بي. أحسست بجزع وقَدَرية رهيبة، وحزن مرير، حزن لم أشعر به في حياتي أبداً بعد أن هجرتني هارتلي منذ أمد بعيد. لقد أيقظت جنيًّا كان غافياً، وأدرت آلة مميتة، وما سيحدث لا بد أن يحدث.

في صباح اليوم التالي، وقع شيء ما، هو أن روزينا عاودت الظهور. أفلحت في النوم، بعد ذلك الفاصل الليلي الرهيب. ولعل تلك القدرية المطلقة هي التي أرسلتني إلى النوم. فليأت «بن»، دعه يشعل النار في المنزل، دعه يقتلني. فأنا أستحق الموت. أحسست عندما استيقظت في الصباح أنني

أقل قدرية بكثير وأشد قلقاً. كان يبدو لي من الضروري بصورة عاجلة أن اتخذ قراراً، ولكن لم تكن هناك مادة أو معطيات أو بينة أستطيع أن أصيغ منها القرار. كنت أريد متلهفاً أن أصحب هارتلي بعيداً، إلى لندن، إلى أي مكان، أو بالأحرى كنت أريد هذا بما يكفي أن يجعلني قادراً على أن أفعل ذلك الآن. ولكن هل أستطيع ذلك ضد إرادتها؟ هل أستطيع أن أسحب إمرأة تقاوم وتصرخ إلى سيارة جيلبرت لكي يقودها بعيداً؟ أمن الممكن أن أخدعها وأجعلها تظن أنها ذاهبة إلى بيتها؟ أمن الممكن أن يدعني جيلبرت؟ وهل يدعني تيتوس؟ وإذا أخذتها بالقوة، فقد يجعلها ذلك تتشدد معي، ويعوق حركة إرادتها الثمينة التي انتظرتها على هذا النحو من نفاد الصبر.

ومع ذلك، هل يمكن لهذا الموقف أن يستمر؟ وإذا لم يستمر، فما هو الاحتمال الآخر الذي يمكن أن يتمخض عنه؟ كنت أشعر أن تفكيري في أن أدع هارتلي تعود إلى ذلك الرجل أمر مستحيل استحالة مطلقة، ولاسيما بعدما قالت أمس إنه لن يصدقها الآن أبداً أبداً. فلنفترض أنني تركتها تعود إليه فقتلها؟ سأكون أنا قاتلها. أمن الممكن أن أتخيل نفسي وقد فتحت لها الباب قائلاً، فليكن، أعلن التسليم، تستطيعين أن تعودي إلى بيتك؟ كلا. إن الشطر المعقول الوحيد الذي يمكن أن أتمسك به من الحديث، وكان ذا قيمة كبرى، هو ما قالته هارتلي عن المعجزة التي يمكن أن تجري في عقلها والتي لم تأتِ بعد. فإذا استطاعت أن تنطق مثل هذه الكلمات مجرد نطق، ألا يدل ذلك على أن عقلها منقسم، وأن لديها بذرة من الأمل يمكن أن تكون مشجِّعة، مجرد مَيْل خالص صغير إلى أن تجعل نفسها تريد ما أريد؟ ولكن لا بد أنها تريد أن تكون حرة وسعيدة. كل إنسان يريد ذلك. ولا بد أنها في مكان ما من روحها المعذبة، تريدني أن آخذها بعيداً عن التعاسة، وعن العبودية. لا بد أنها تأثرت بفكرة تيتوس، والفداء الذي يمكن أن يقدمه الحب له، أسرة جديدة، وعالم جديد. وما عليها إلا أن تفتح عينيها وأن تبسط يدها، وأن تقول نعم. كانت هناك قوى تحريرية هائلة تنتظر في مكان ما

للانطلاق. وكانت المسألة مجرد انتظار، واحتفاظ بها هنا، وتَرْك الزمن ينير إرادتها.

قدمت لها الفطور، وحاولت أن أتجاذب معها أطراف الحديث، وأن أشرح لها ما كتبته لتوي هنا، غير أنها ظلت تردد أنها تريد الذهاب إلى البيت. وجعلتني عيناها اللتان أحاطت بهما حلقتان سوداوان، ووجهها المنتفخ والفتور المثير للأعصاب الذي استولى على حركاتها ـ جعلني هذا كله أتساءل: أتكون مريضة حقاً، وأن من واجبي استدعاء طبيب. ويتغلب الغضب فيّ على الشفقة فأتساءل. ألا يكون من المفيد لقضيتي أن أكون قاسياً، فأتركها بغتة، ثم أتأسف على هذا الموقف. كنت واقفاً بجوار ستار الخرز، ألامسه، دون أن أتأكد مما أنا صانع بعد ذلك، عندما تناهت إلى سمعي قهقهة عالية مباغتة تنبعث من الطابق الأرضي، أعقبها غناء يشترك فيه صوت نسائي.

عدوت هابطاً إلى المطبخ. كانت روزينا جالسة إلى المائدة تؤرجح ساقيها وقد أخذ يتعبد لها (لا توجد كلمة أخرى للتعبير عن هذه الحالة) جيلبرت وتيتوس. كانت ترتدي معطفاً رمادياً غامقاً غاية في الأناقة، وسترة خفيفة بديعة جداً، وجونلة وبلوزة حريرية بيضاء، وحذاء برقبة عالية بيضاء متغضنة وبكعبين. وكان شعرها اللامع الفاحم مقصوصاً أو معقوصاً بواسطة حلاق زكي في تصفيف مستدير يبدو معقداً ومرتجلاً في آن واحد. (هذه تصفيفة يمكن أن تفوز بإعجاب هوراس) وكان وجهها الحيواني الحاد متوهجاً بالصحة والحيوية والفضول الضاري. وكانت متحكمة تماماً في موقف كان فيه الآخران، ربما نتيجة للتوتر المتصل ـ قد تحولا إلى شخصين مخبولين لا حول لهما ولا قوة إلا مجرد القهقهة البلهاء والضحك الجنوني. وأثار ظهوري نوبة أخرى من الضحك الهستيري الخفيف، ولم يلبثوا جميعاً أن استأنفوا الغناء تلقائياً مرة أخرى. كانوا ينشدون بالدور ـ ولا يظهرون أية علامة على

التوقف ـ أغنية إيطالية (كتبت لعدة أصوات يتوالى أحدها وراء الآخرCatch)
أستطيع أن أتذكر كلماتها، إذ كان تيتوس وجيلبرت ينشدانها دون انقطاع في الأيام السابقة. وكان تيتوس قد لقّنها لجيلبرت، وتعلمتها روزينا الآن أيضاً. ويعلم الله وحده الموضوع الذي تدور حوله، وهذا هو نصها الإيطالي:

Eravamo tredici, siamo rimasti dodici, sei facevano rima,
e sei facevan'pima - poma - pima - poma.

والغناء هو بالطبع شكل من أشكال العدوان.

والأفواه المبلولة المفتوحة وأسنان المغنّين اللامعة تتحرق شوقاً إلى التهام المستمع ـ الضحية. والمغنون يشتهون المستمعين كما تشتهي الحيوانات فريستها. وفي انتشائهم بأصواتهم، رفعوا الآن عقيرتهم، دوراً بعد دور، جيلبرت الباريتون العذب، وتيتوس الشبيه بالنيبوليتاني، وروزينا الكونترالتو القوى الذي يميل إلى الخشونة. صحت: «كفوا! كفوا، كفوا عن هذه الضوضاء اللعينة». ولكنهم مضوا يغنون في وجهي، وقد سددوا عليّ عيونهم البراقة المنداة بالضحك، ولوحوا بأذرعهم على إيقاع اللحن، حتى نال منهم التعب في نهاية الأمر، فتوقفوا، ودخلوا في نوبة ضحك مجنونة أخرى.

جلست على مقعد، وأخذت أراقبهم.

ولما تماسكت روزينا أخيراً قالت وهي تمسح عينيها: «تشارلز، أنت مضحك للغاية، إنك مصدر لا ينتهي للتسرية بالنسبة لأصدقائك. سمعت أن سيدة حبك هنا، مختفية في الطابق العلوي! أنت حقاً لا تقدَّر بثمن!».

قلت لجيلبرت وتيتوس: «لماذا بحق الجحيم كان عليكما أن تخبراها؟» تحاشى جيلبرت نظرتي وهو يحاول دون جدوى أن يمحو غضون الضحك من محياه. وشرع يدير عينيه ويؤرجحهما.

أما تيتوس فقال في شيء من التجهم: «لم تقل لنا ألا نخبرها». ثم تصيَّد عين روزينا فأشرق وجهه.

كان جيلبرت قد التقى ـ طبعاً ـ بروزينا من قبل، ويعرفها معرفة طفيفة. وكان ينظر إليها منذ ذلك الحين نظرة العداء المتحفظة التي يشعر بها الشواذ من الذكور غريزياً نحو النسوة المفترسات المفرطات في الأنوثة (بينما يتوافقون تماماً مع النسوة اللطيفات الدمثات من أمثال ليزي). ومع ذلك بدا الآن وكأنه يعاني من تحول فوري. أما تيتوس فكان مجرد غلام تولته حالة من الإثارة المطلقة لرؤية ممثلة شهيرة بلحمها وشحمها، ووجد أنها لم تكتفِ بالانتباه إليه فحسب، بل أبدت تقديرها لمفاتن شبابه. فأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر، أما هو ففي شيء من الحياء، وأما هي ففي استمتاع جريء. وكان مظهر تيتوس قد أفاد من الشمس والبحر، كما أفاد جيلبرت. اذ اكتسب شعره الأشقر المائل إلى الاحمرار بريقاً ولمعاناً فاستحال إلى هالة من الأسلاك البديعة، وكان قميصه الذي يتركه مفتوحاً في معظم الأحيان ـ يكشف عن بشرة متوهجة وخصلات حمراء متقدة تغطي صدره. وكان قد لفّ سرواله إلى أعلى ليكشف عن ساقين رشيقتين برونزيتين. ويسير عاري القدمين. أما شفته ذات الندبة فكانت تضفي على ثغره الجميل قوة ذكورية ملتوية. وكانت روزينا في أفضل حالاتها، مبتهجة مستمتعة بممارسة سلطانها. ولما كانت هي المهيمنة على الاجتماع فقد كانت نظرتها الثاقبة الحولاء تتنقّل مشجعة بين الرجال الثلاثة المذهولين المفتونين الواحد تلو الآخر. وبدا عليهم أنهم مبهورون تماماً بمحاسنها. وكان هذا بكل تأكيد تغييراً طرأ على جو منزل «شراف إند» الذي اشتدت كآبته.

ـ «ماذا تريدين، يا روزينا؟».

ـ «ماذا تقصد: «بماذا تريدين؟» يا لها من طريقة للترحيب بزائرة!» وكررت العبارة في محاكاة لي «ماذا تريدين؟». «أي نوع من السؤال هذا؟».

وانفجر الاثنان الآخران في الضحك. ويبدو أنهما كانا يجدان كل ما تقوله روزينا ذكياً مضحكاً.

- «لماذا أنتِ هنا؟».

- «ألا تستطيع أن تبذل مجهوداً لتكون متحضراً مع صديقة قديمة؟».

- «لست في مزاج اجتماعي».

- «وهذا ما أراه. ومع ذلك فلديك بالفعل ضيفان ساحران، ثلاثة ضيوف في واقع الأمر، بما في ذلك سيدة - حبك. حسناً، أنا لا أرمي إلى الحصول على دعوة للبقاء. أعتقد أن هذا هو أقذر وأحط وأسوأ منزل دخلته على الإطلاق».

قال تيتوس: «إنه يحتوي على ذبابات سيئة».

قال جيلبرت: «تستطيع أن تقول ذلك مرة أخرى».

إنهم يتواطئون ضدي.

- «ولكن هل سيدتك المضحكة في الطابق العلوي حقاً؟ ماذا أنت صانع بها؟ هل تذكر أنك وعدتني بأن تخبرني بما يدور في حياتك الغرامية الشائقة، وكان ينبغي أن أكون قد عرفت الآن أنك لا تفي بوعودك. على كل حال، لقد قررت المجيء لأرى كيف تسير بك الأمور. اشتغلت كثيراً ورأيت أنني بحاجة إلى إجازة، وقد عدت للإقامة «بفندق الغراب الأسحم»، أنا أحب هذا المكان. أحب الخليج وتلك الصخور الغريبة. والطعام ممتاز، وليس على أسلوبك».

- «أرجو أن تظفري بإقامة ممتعة في فندق الغراب».

- «تنتشر في لندن أغرب الشائعات عنك».

- «أنا على يقين أن الناس جميعاً مفتونون».

- «أبداً، ليسوا كذلك حقاً. وقد بدأت أنا نفسي بشائعات قليلة لكي أحافظ على ذكراك مُخضرَّة بعض الشيء. لقد نسوك بالفعل. كنت موضة بالية أثناء وجودك بيننا، ولكنك أصبحت الآن تاريخاً قديماً. جيل الشباب لم

يسمع بك أبداً، يا تشارلز. لقد انفجرت، ولم تعد حتى أسطورة. أستطيع أن أرى ذلك الآن، يا عزيزي تشارلز، إنك عجوز. أين ذلك السحر الذي اعتدنا أن نحوم حوله؟ لم يكن شيئاً سوى النفوذ حقاً. والآن، عندما فقدت نفوذك، فقدت سحرك. فلا عجب أن وقعت في غرام «سيدة ملتحية».

ـ «ما عليك إلا أن تنصرفي، فهلا فعلت؟».

ـ «ولكن ماذا يحدث يا تشارلز؟ يكاد الفضول يدفعني إلى الجنون. علمت من هذين الاثنين أنها أشبه بالسجينة هنا. هل أستطيع أن أصعد إليها وأشاغبها من خلال القضبان؟».

ـ «روزينا، أرجوك...».

ـ «ولكن، تشارلز، ماذا تدبر، هناك زوج في الموضوع، أليس كذلك، على ما أتذكر؟ لا أقصد أن الأزواج كانوا يزعجونك كثيراً، وإنما أعني أنك لن تمضي معها إلى آخر الشوط، إنك لا تستطيع أن تتزوجها! الحق أنك أصبحت مدعاة للسخرية. لم تكن مضحكاً أبداً في الأيام الخوالي. اعتدت أن تكون صاحب كرامة وأسلوب».

بدا على تيتوس وجيلبرت ـ اللذين أصبحا أقل استمتاعاً بالموقف ـ شيء من الارتباك، فأخذا يدرسان مربعات البلاط الكبيرة التي كست أرضية المطبخ.

ـ «سأصحبك إلى الطريق يا روزينا. هل سيارتك في الخارج؟».

ـ «أوه، لا أريد الذهاب بعد. أريد أن أغني مزيداً من الأغاني. مَنْ يكون هذا الفتى الجميل؟» وأشارت إلى تيتوس.

ـ «إنه ابني تيتوس».

قَطَّب تيتوس وخبط على شفته ذات الندبة، ورفع جيلبرت حاجبيه، وتغيَّر لون روزينا، وسددت إليّ نظرة سريعة يشيع فيها خبث نافذ، ثم ضحكت.

«فليكن، فليكن». لك ما تريد، سأنصرف. سيارتي في الخارج، وتستطيع أن تصحبني إليها. وداعاً، أيها الاثنان. استمتعت بـالغناء». وخـرجت من المطبخ وهي تؤرجح حقيبة يدها، وتبعتها.

سارت روزينا مباشرة من الباب الأمامي واجتازت ممر الدخول دون أن تلتفت وراءها. وتبعتُها حتى سيارتها الحمراء البشعة.

وهناك استدارت إليّ وقد لاح الغضب على وجهها المشاكس.

- «أهذا الفتى ابنك حقاً؟».

- «لا، ولكنني توليت أمره على نحو ما. كنت دائماً أريد إبناً. إنه إبنها، إنه ابن بالتبني لـ. . . لهارتلي وزوجها».

- «فهمت. وكان ينبغي أن أدرك أنها نكتة سخيفة. وقد خيِّل إلي لحظة أنه. . ماذا أنت فـاعل بتلك المرأة؟ إنك لا تستـطيع أن تُصلح امـرأة نصف مجنونة في هذه المرحلة من حياتها. ولا تستطيع أن تحتجزها مقيدة بالسلاسل كشيء مجنون. أو لعلني فهمت كل شيء فهماً خاطئاً؟».

- «إنها ليست سجينة. وهي تحبني. كل ما في الأمر أنها تعرضت لغسيل مخ».

- «الزواج يقوم بغسيل المخ. وليس هذا بالضرورة شيئاً سيئاً. قد يستطيع مخك أن ينصلح بعملية غسيل. أوه، يا إلهي، إنني أشعر بارهاق شديد. تلك الرحلة الطويلة المريعة. . أظن أن عقلك في طريقه إلى الذهاب، أنت تنحدر إلى الشيخوخة، وتعيش في عالم الأحلام، وهو عالم قذر. هل أخبرك بشيء يوقظك؟».

- «كلا، أشكرك».

- «تقـول إنك أردت دائـماً أن يكون لـك ابن». هـذه بـالضبط أكـذوبـة عاطفية، إنك لا ترغب في المتاعب، ولا تريد أن تعرف. إنك لم تضع نفسك

أبداً في موقف يمكن أن يكون لك فيه ابن حقيقي. أبناؤك أوهام، ومن الأيسر ـ بوصفهم كذلك ـ أن تتعامل معهم. هل تتخيل أنك تستطيع حقاً أن «تتحمل مسؤولية» هذا الصبي المراهق الأحمق غير المتعلم؟ سيختفي من حياتك كما اختفى كل شيء سواه، لأنك لا تستطيع أن تقبض على مادة الواقع. سيتكشف بدوره عن طفل أحلام هو أيضاً. عندما تلمسه سيذوي ويتلاشى... وسترى».

ـ «فليكن.. لقد قلت ما تريدين، والآن اذهبي».

ـ «إنني لم أبدأ بعد. لم أقل لك هذا أبداً في الوقت المناسب، وظننت أنني لن أقوله أبداً. لقد حَمَلْتُ منك، وتخلصت من الطفل».

رسمت دائرة في الغبار فوق رادياتير السيارة. «ولماذا لم تخبريني؟».

ـ «لأنك لم تكن هناك لأخبرك، كنت قد رحلت، رحلت مع ليزي، أو مع فتاة الأحلام التالية أياً كانت. يا إلهي، من وحشية الرجال اللامبالية التي تورث المرض.. ومن النساء اللواتي يُتركن وراءهم لاتخاذ قرارات مضنية بمفردهن. اتخذت هذا القرار بمفردي. يا للسيد المسيح، كم كنت أتمنى ألا أفعل ذلك. كنت مجنونة. اتخذته في شطر منه مدفوعة بكراهيتي لك، لماذا بحق الجحيم لم أحتفظ بهذا الطفل! لا شك أنه كان قد شب عن الطوق في هذه المدة».

ـ «روزينا».
ـ «وكنتُ لقنته أن يكرهك... وفي هذا عزاء أيضاً».
ـ «متأسف..».

ـ «أوه، أنت متأسف. وأستطيع أن أقول إنني لم أكن الوحيدة التي حدث لها هذا. لقد حطمت زواجي عمداً، وبإصرار، وحماسة، واجتهدت في تحطيمه. ثم مضيت في طريقك وتركت لي لا شيء، أقل من لا شيء، مع

تلك الجريمة التي كان عليّ أن أرتكبها بنفسي. بكيت شهوراً. . . سنوات. . . على هذا. . ولم أكف أبداً عن البكاء». اغرورقت عيناها بالدموع لحظة، ثم لاح عليها أنها أبعدتها بضرب من السحر. وفتحت باب السيارة.

ـ «أوه. . . يا روزينا. . . .».

ـ «إنني أكرهك، أمقتك، لقد تمثلت لذهني شيطاناً منذ ذلك الحين. . . .».

ـ «انظري، أنت على حق، لقد تركتك، ولكنك أنت التي دفعتني إلى ذلك، كنت مسؤولة أيضاً. إن حصول النساء على حريتهن لم تمنعهن من إلقاء اللوم كله علينا عندما يناسبهن ذلك. تخبرينني الآن بهذه الحكاية لـ. . .».

ـ «أوه، إخرس. ما اسم تلك الأنثى؟».

ـ «تقصدين. . . هارتلي. . . ؟».

ـ «أهذا اسمها العائلي؟».

ـ «كلا، اسمها العائلي هو فيتش».

ـ «فيتش. جميل. السيد فيتش، ها قد وصلت».

ـ «ماذا تعنين، بحق السماء؟».

ـ «إنه يقيم هنا، أليس كذلك؟ سأعثر على مكان إقامته وسأذهب لتعزيته. سيفيده أن يلتقي بامرأة حية حقيقية بدلاً من تلك العجوز الشمطاء. لا بد أنه نسي شكل النساء. لن أسيء إليه، وإنما سأرفع من معنوياته فحسب، سيكون أقلّ ضرورةً له مما تفعله أنت بها. لا بد أن أحصل على شيء من التسلية في إجازتي. فكرت في إغواء الفتى الجميل، غير أن هذا سيكون يسيراً جداً. أما الأب فسيكون مشروعاً أكثر تشويقاً بكثير.

والحياة قبل كل شيء مليئة بالمفاجآت. والشيء الوحيد الذي أصبح مضجراً، مضجراً بصورة مطلقة هو أنت، يا تشارلز، مضجر. وداعاً».

دخلت السيارة، وأغلقت الباب بعنف، وانطلقت السيارة مثل صاروخ أحمر باتّجاه القرية.

حملقت وراءها. وفي لحظة لم يكن في الطريق سوى سحابة من الغبار تعلوها سماء زرقاء باهتة. وأحسست أنني سأجن إذا أمعنت الفكر فيما أخبرتني به روزينا عما وقع في الماضي.

أما بقية ذلك اليوم (قبل أن يحدث شيء آخر في المساء) فقد مرّت كأنها حلم محموم. بل إن الطقس نفسه، وقد أحسن بمزاجي أو لعل عدواه انتقلت إليه، ازداد قيظاً، غير أنه كان ذلك القيظ المكفهر الذي يتعذر فيه التنفس، والذي ينذر بعاصفة رعدية. وغشيت النورَ ظلمةٌ، وإن كانت الشمس تلوح متوهجة من خلال سماء خالية من السحب. أحسست بالوهن والارتعاد وكأنني في بداية إصابتي بالبرد. وازداد انطباعي بأن هارتلي كانت مريضة. كانت عيناها تلمعان، ويداها ساخنتين. واستحالت حجرتها الخانقة التي تفوح منها روائح خاصة أشبه بحجرة إنسان طال عليه المرض. وكانت متمالكة لتفكيرها السليم، وليست في حالة هياج، وقد جادلتني فعلاً. توسلت إليها أن تنزل إلى الطابق الأرضي وأن تخرج في الشمس والهواء الطلق. ولكنها رقدت على ظهرها وكأن مجرد الفكرة قد أرهقتها. وحتى معقوليتها كانت تتسم بشيء مثير للأعصاب، وكأنه تعقّل شخص مخبول هادىء أو تدريب «يُمارس من أجل التدريب لا غير». وكانت تردد باستمرار أنها تريد الرجوع إلى البيت، وأنه لا وجود لبديل آخر، وهكذا دواليك، غير أنها بدت لي مفتقرة إلى الإرادة الحقيقية النهائية للرجوع. وجعلت أحاول النظر إلى هذا الافتقار للإرادة على أنه عامل يبعث على الأمل. غير أنه بدأ الآن يخيفني على نحو ما.

وكذلك ساعد صمت «بن» على الحط من معنوياتي. ماذا يعني هذا الصمت؟ أتراه قرر بعد إمعان الفكر أنه لا يريد أن تعود هارتلي؟ أتراه استقر في حياة عزوبيةٍ سعيدة مع الكلب؟ أم لعل له صديقةً في الخفاء هرع إليها الآن في ارتياح؟ أتراه يدبِّر خططاً معقدة لانقاذها أو لـلانتقام مني انتقاماً شنيعاً؟ أتراه استدعى بعض الأوغاد، ربما كانوا أصدقاء الجيش القدماء الذين يمكن أن يصلوا في أية لحظة لضربي ضرباً مبرِّحاً؟ أتراه لجأ إلى محامٍ؟ أم لعله يلعب لعبة ماكرة، وينتظر أن تنهار أعصابي، وينتظر أن أذهب أنا إليه؟ أو لعله قد وقع هو نفسه في نوع من اللامبالاة العصبية التي تشبه الغيبوبة، جعلته غير واثق مما يريد، غير واثق مما ينبغي عليه أن يفعل؟ أنا نفسي أحسست في لحظة معينة بأن تصرف المرء مُكْرَهاً حتى ولو كان باللجوء إلى الشرطة أفضل من هذا الفضاء الخاوي الذي تتردد فيه أصداء الأمكانيات المؤرقة.

كنت أحاول الآن جاهداً أن أقنع نفسي باصطحاب هارتلي إلى لندن، وجرِّها إلى السيارة، وخداعها بإخبارها إنها ذاهبة إلى بيتها. وأحسست بأن الأوان قد آن لأفعل ذلك، وإن كنت أبعد ما أكون عن التأكد من أن هذا هو التصرف السليم. من الجائز أن «شراف إند» تحتوي على «ذبذبات شريرة» كما قال تيتوس، غير أنها كانت بيتي، وقد اعتدت عليه. وهنا أستطيع أن أتصل بهارتلي في هدوء، ولاسيما حين نتحدث عن الماضي. وعلى نحو غريب، كنا نشعر بالارتياح في وجودنا معاً. ومن المؤكد أن يحدث عاجلاً مَخْرج ما، نوع من التغيّر الجدلي (الديالكتيكي). ماذا سأصنع بحق السماء في لندن مع هارتلي التعسة الباكية في تلك الشقة الضيقة البشعة التي تتكوم مقاعدها فوق المائدة، والتي لم تزل أوانيها الصينية في طرود لم تُفَك بعدُ؟ إلى مَنْ أستطيع الذهاب في لندن؟ لم أكن أريد عَرْض هارتلي على الناس الذين، وإن كانوا على استعداد للمساعدة، سيسخرون منها خفية. الواقع هو أنني كنت أريد، ـ أو ربما كنا نريد كلانا ـ شخصاً يرعانا، أو على الأقل شخصاً يكون

هنـاك بمثابة حماية وضمان للنظام. وقد يكون تيتوس وجيلبرت على قليل من النفع، غير أن مجرد وجودهما كان يجعل الموقف أكثر احتمالاً.

ومهما يكن من أمر فقد كان تيتوس وجيلبرت ـ منذ زيارة روزينا ـ في حـالة من الثورة المكتومة، كانا متمردَيْن. وأظن أن صمت «بن» كان يقلقهما أيضاً من وجوه مختلفة. إذ كانا يريدان انفراجاً للأزمة، نهاية للموقف يمكن أن تخلِّص عقليهما من العناء. فأما جيلبرت فقد كان يخاف ببساطـة ـ من بن، يخـاف من المعارك وسفـك الدمـاء. وأما مـا كان يشعـر بـه تيتـوس فلم أكن متأكداً منه. وفي بعض الأحيان كان الرعب ينتابني مما يمكن أن يفكِّـر فيه تيتوس. ومنذ وصول هارتلي لم أتحدث إليه كما ينبغي. وكان ينبغي أن أتحدث إليه، وكنت أريد ذلك، ولكنني لم أفعل. كان من الممكن أن يعاني تيتوس من عذاب التوتر والتردد، يريد ولا يريد أن يلجأ إلى أبيه، أن يصالحه، أو حتى أن يعاني العقوبة، وأن يهرب من أمه، وأن يهرب مني. وكانت إمكانية أي شيء مريع في الحالة العقلية التي استولت على الصبي تجعلني أخشى من جس نبضه وأنا أواجه أموراً أخرى كثيرة، وعليّ أن أتخذ فيها قراراً. وفي الوقت نفسه، آثر الانسحاب، في شيء من التجهم، راغباً في التودد والملاطفـة. وكان من الممكن أن أتودد إليه، غير أنني لم أكن أملك الروح أو القوة في الوقت الحاضر. كما أنني منيت بخيبة الأمل فيه. كنا في حاجة إلى مساعدته، إلى تأييده المحب مع هارتلي، إلى ألمعيته، إلى التزامه. ولكنه أظهر بوضوح أنه قد تخلى ـ في هذا السياق العجيب ـ عن مشكلة أمه، وآثر أن يفكر في الحرج الفاحش الذي سببه احتجازها. ولم يكن يرغب أن يتشـارك معي بوصفي زميلاً سجَّاناً. وكان هذا شيئاً قابلاً للفهم، غير أنه ضايقني حين تظاهر بأنه يمتِّع نفسه، فكان يسبح، ويغني، ويجلس مع جيلبرت فوق الصخور ليحتسي النبيـذ الأبيض وعصير الـزبيب الأسود (هـذا هو أحـدث مشروباتهـما). كان يسلك مسلك المراهق الذي أنكره على نفسه (في البداية) بكل فخـر. ولما

أعلن جيلبرت الآن أنه يخشى من التسوق بمفرده فقد ذهب تيتوس معه، وابتاعا مقادير كبيرة من الأغذية الفاخرة وشربا بنقودي. ولم يلتقيا مرة واحدة بـ «بن». أيكون بن قد رحل؟ وإلى أين؟ وإلى مَنْ؟ كل هذه الأسرار أزعجتني.

ومن الصور التي اتخذها تمرد جيلبرت وتيتوس أنهما بدآ يقترحان أنه يجب عليّ أن أفعل شيئاً فيما يتعلق بـ «بن». أو على الأقل كان جيلبرت هو الذي يتقدم بالمقترحات، غير أن تيتوس كان مشاركاً فيها بكل تأكيد. أما ما يجب أن أفعله فلم يكن على شيء من الوضوح، غير أنهما كانا يريدان مبادرة. وكان غناؤهما قد قلّ الآن، على حين ازداد جلوسهما في المطبخ ووضع الخطط؛ وحتى في وسط انشغالاتي الأخرى وتعاساتي أحسست بالغيرة، الغيرة الصريحة الغبية، عندما كنت أشاهد هذين الرأسين معاً، فيلزمان الصمت ـ في شيء من العصبية ـ حين أدخل المطبخ. وكانا يهرعان طيلة الوقت للبحث عن الخطابات. بل إن جيلبرت ابتاع سلة ضخمة مربّعة قام بتركيبها فوق الصخور داخل بيت الكلب حتى يتأكد أن أية خطابات تأتي لن يصيبها البلل أو تذروها الرياح. وكنت أتجنب المناقشة، إذ كنت أخشى كثيراً أن أسمع تيتوس وهو يعلن أنه سيذهب إلى النيبليتس ليتجسس على المنطقة. ماذا يكون الحال لو أن تيتوس ذهب إلى النيبليتس ولم يعد؟ بالطبع لم أخبر الآخرين عن تبجح روزينا الطائش الذي قررت بعد إمعان الفكر أن المقصود منه هو مجرد مضايقتي، غير أنني لم أكف عن التفكير فيما أخبرتني به عدا ذلك، مع أنني كنت أجاهد بشدة أن أطردها من ذهني. وتمنيت أن تكون قد عادت إلى لندن.

وعند اقتراب مساء ذلك اليوم انتهيت إلى هذه النتيجة وهي أنه إذا لم يُبْد «بن» أي تحرك، فسأفعل شيئاً ما في اليوم التالي: شيئاً توضيحياً، شيئاً حاسماً؛ وإن كنت لا أستطيع أن أرى ما يمكن أن يكون عليه هذا التحرك

المحرِّر. مِن المرجح أنني سأصطحب هارتلي وتيتوس إلى لندن. فقد انتظرت طويلاً أن تعلن هارتلي عن إرادتها، وبدأت أعتقد أنها تريدني أن أجبرها. وعندما شعرت بأنني بلغت من اليأس ما يكفي لكي أحزم أمري أحسست بشيء من الارتياح. غير أن الغد الذي كنت سأتخذ فيه قراري بالشكل الذي تصورته ـ لم يأت أبداً.

في حوالي الساعة السادسة والنصف مساءً بدا أن الهواء الأزرق الكثيف آخذٌ في الإظلام شيئاً فشيئاً، كما بدا أشد اختناقاً، وإن كانت الشمس تسطع في شجاعة والسماء لا تشوبها شائبة من سُحب. كأنما كانت الشمس تتلألأ من خلال الغيم، غير أنه غيم مصنوع من الجزيئات الزرقاء القاتمة التي تتألف منها السماء نفسها. وإني لأتذكر الانطباع المريع الذي تركته هذه الأمسية في نفسي: الضوء القاتم المثير، الألوان اللامعة المتموجة للصخور وللحشائش على الجانب الآخر من الطريق، ولسيارة جيلبرت الصفراء. لم يكن للريح زفير، ولم يصدر عنها أخف نسيم. وكان البحر هادئاً هدوءاً منذراً، ناعماً تمام النعومة، زجاجياً، صقيلاً، زيتياً، تغشاه زرقة موحّدة. ثم أعقبت ذلك ومضات صامتة، بروق غير عادية تضيء الأفق كله، وكأنها ألعاب نارية نائية، أو تجربة ذرية عجيبة. لا سحابة واحدة، لا صوت للرعد، وإنما عروض هائلة لضوء سريع صامت أبيض مائل للاصفرار.

كنت أتحدث إلى هارتلي، أتحدث عن الماضي، مستمتعاً بذلك الخط الرفيع النقي من الاتصالات اليسيرة معها، وكنت أستطيع أن أقنع نفسي بأنها تزداد عمقاً واتساعاً. وكان من الحق أننا كلما اتصلنا، كان اليسر الذي يتسم به اتصالنا استثنائياً، فريداً في مذاقه. هنا أستطيع أن أقيم راية حبي، والأمل في الإقناع تدريجياً. اتخذ حبها في هذه الفترة بشدة شكل الشفقة والتعاطف والرغبة المطلقة في الإعزاز، والعلاج، وإثارة الرغبة في السعادة والعمل على نموها حيث لم تكن تنمو من قبل. ولتحقيق هذه الغاية حاولت متوسلاً بالمكر

استبعاد فكرة العودة إلى البيت، مصوراً لها ـ عَرَضاً ـ بأنها الآن شيء محال؛ وفي الوقت نفسه تركت هارتلي تستمر في تهدئة نفسها بوهم عودة سرعان ما تراها مستعصية على التفكير، واعتبارها شيئاً لم تعد تريده. وفي الخفاء، كنت أزيد من الضغط والتوكيد. وكانت سياستي في التدرج سليمة، وسيتدعم نجاحها قريباً. ومضت هارتلي تقول إنها ينبغي عليها أن تعود لزوجها، ولكنها كانت تقول هذا في هدوء معقول، وخيل إلي أن ترديد هذا القول أصبح أقل، وأن الكلمات التي يقال بها صارت أكثر خواءً.

وتركتها في نهاية المطاف. لم أعد الآن أعبأ بإيصاد بابها أثناء النهار. ذلك أن رغبتها في الاختفاء، في الاختفاء عن جيلبرت، وبالأخص عن تيتوس، جعلتها حبيسة بالفعل أثناء النهار. وعلى كل حال، إلى أي مدى يمكن أن تهرب دون اكتشاف أمرها؟ أما ضروب اليأس التي تهاجمها بالليل فلها شأن آخر. رَنَّ جرس الباب الأمامي، وبينما كنت نازلاً داخل الصالة شاهدت السلك مرتعشاً قبل أن أسمع رنين الجرس في المطبخ. تبادر إلى ذهني أنه «بن». وتساءلت: وحده؟ وهرولت بسرعة غير محاذر إلى الباب لأتغلب على خوفي. فلم أضع السلسلة على الباب، وإنما فتحته على مصراعيه في الحال. وكان الرجل الواقف في الخارج هو ابن عمي جيمس.

كان جيمس يبتسم تلك الابتسامة الهادئة الجوفاء الراضية عن الذات التي يرسمها أحياناً على وجهه. وكان يحمل حقيبة ملابس. وكنت أستطيع أن ألمح سيارته «البنتلي» تنتظر على الطريق بجوار سيارة جيلبرت الفولكس ڤاجن.

- «جيمس! بحق السماء، ماذا تفعل هنا!».

- «أنسيت أنها نهاية أسبوع ويت Whit*. لقد دعوتني».

- «لقد دعوت نفسك. طبعاً نسيت».

(★) ـاختصار كلمة Whitsun، وهو يوم عطلة دينية (ويطول أحياناً أسبوعاً بأكمله) يقع في الأحد السابع بعد عيد الفصح Easter. (المترجم)

- «أتريدني أن أرحل؟».

- «كلا... كلا... ادخل.. للحظة على كل حال».

أحسست بالاضطراب، والسخط، وأجفلت بعمق. كان ابن عمي دائماً نذير شؤم مثير. ووجوده في المنزل يمكن أن يقلب كل شيء رأساً على عقب، حتى غلاية الشاي. وما كنت أستطيع أن أتحمل جيمس هنا، أو أتكيف معه، كما لم أكن أستطيع أن أمضي في حياتي معه على هذا المنوال.

دخل، ثم وضع حقيبته على الأرض وهو يتلفت حوله في فضول. «أحب موقعك. وهذا الخليج بصخوره الكروية غير مألوف تماماً. أتيت طبعاً عن الطريق الساحلي».

- «طبعاً».

- «تلك الصخرة الهائلة البارزة من البحر التي تغطيها طيور الجلموت*... أنت تعرف المكان الذي أعنيه؟».

- «كلا».

- «ألم تشاهده؟ إنه.. حسناً، لا أهمية لذلك. أرى أن هناك برجاً دائرياً martello tower. أهذا ضمن أملاكك أيضاً؟».

- «أجل».

ـ أنا أدرك الغرض من هذا المكان. ما هو تاريخ بناء هذا المنزل؟».

- «أوه، لا أدري، ألف وتسعمائة، قبل أو بعد ذلك. أوه، يا إلهي».

- «ما خطبك؟ أنظر، أنا متأسف، كان ينبغي أن أكتب إليك لأخطرك. حاولت الاتصال بك هاتفياً، غير أنني أدركت أنك لا تملك هاتفاً. لن أمكث هنا، وقد مررت على فندق بديع المنظر على بُعْد ميل أو ميلين.. هل أنت على ما يرام، يا تشارلز؟».

(★) Guillemots طيور تعيش في البحار الشمالية (المورد ـ طبعة ١٩٨٦، ص: ٤٠٤).

- «ادخل المطبخ».

كان المطبخ أقرب إلى الظلام بسبب الضوء الغريب. وعند دخولنا بالضبط حضر جيلبرت وتيتوس من الخارج، وبَرْق منتصف الصيف الغريب الصامت يبعث بإشارته وراءهما.

كان لا مفر من تقديم كل منهم للآخر. «أوه، مرحى. هذا ابن عمي جيمس الذي وصل في التو واللحظة. جيلبرت أوپيان. وهذا صديق شاب من أصدقائي، تيتوس. ولا وجود لأحد سواهما هنا، وهذه مجاملتنا». وعندما قلت هذا وضعت إصبعي فوق شفتي، كأنما بالمصادفة. وتمنيت ألا يكون الظلام دامساً بحيث لا يريان.

قال جيمس: «تيتوس، إذن فقد أتيت، طيب».

قلت لجيمس: «ماذا تعني؟ أنت لا تعرفه، أليس كذلك؟».

رأيت أن تيتوس يحملق في جيمس وكأنما تعرَّف عليه.

- «كلا، ولكنك ذكرت اسمه لي... ألا تتذكر؟».

- «أوه، بلى... حسناً، ألك في كأس من الشراب، يا جيمس؟ قبل انصرافك».

- «شكراً، أي شيء. ذلك النبيذ الأبيض المفتوحة زجاجته».

قال تيتوس: «إننا نشربه مع عصير الزبيب الأسود».

وسأل جيلبرت: «أأنت ابن خالته أو ابن عمه؟» وكان يحب أن يدقق في مثل هذه الأشياء.

- «كان أبوانا شقيقين».

- «يتظاهر تشارلز دائماً بأنه بلا عائلة. ويحيط نفسه بالأسرار».

وصَبَّ جيلبرت - وهو يدير عينيه متظرِّفاً - أربعة كئوس من النبيذ. ويبدو

أنه فقد شيئاً من وزنه بعد تسلقه للصخور بحذائه المطاط الجديد. فكان يبدو أصغر سناً، وأكثر استرخاء. وأضاف تيتوس جرعة الزبيب الأسود، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة. وكان من الواضح أن كلا منهما سعيد بهذه التسلية، سعيد بانضمام شخص آخر، غريب غير مرهون، جاهز للحديث إليه، لتخفيف حدة الجو، وربما سعيد أيضاً لوجود مقاتل إضافي.

قال جيمس: «نعم، لقد حصلتَ على منزل غريب كل الغرابة وطريف».

- «ألا تشعر بأية ذبذبات شريرة؟».

فنظر إليّ جيمس: «مَنْ الذي كان يملكه من قبل؟».

- «سيدة تدعى تشورني، ولا أعرف شيئاً عنها».

- «أتستطيع أن ترى البحر من النوافذ العليا؟».

- «أجل، غير أن المنظر يبدو أفضل إذا وقفت على الصخور. وسأريك إذا استطعت أن تستغني عنه لحظة. أي نوع من الأحذية تنتعل؟ إنه مكان عظيم لكسر كاحلك».

كنت أريد أن أُخْرج جيمس من المنزل. فدفعته بسرعة إلى الحشائش في الخارج، وتبعني مسافة قصيرة فوق الصخور حتى استطعنا أن نجلس فوق قمة دافئة تشرف على البحر. وكان البحر قد غيَّر الآن لونه فاستحالت زرقته إلى لون رمادي خفيف باهت يتلألأ، وينبعث من حركاته الصغيرة ما يشبه الفرقعة.

- «ما أشد ركود الجو، يا جيمس، أرجو ألا يضيرك الذهاب إلى ذلك الفندق، إنه يسمى «فندق الغراب الأسحم»، ويتميز بالإشراف على منظر بديع فوق الخليج الذي أحببته. وتستطيع أن تقود سيارتك هابطاً إلى الساحل وأن تتأمل تلك النوارس والأشياء. والحقيقة هي أنني لا أستطيع أن

أستضيفك لأنه لا يوجد سرير آخر. المنزل كامل العدد. بل إن تيتوس ينام على الأرض».

- «إنني أفهم الموقف حق الفهم».

إنك لا تفهم، أيها الديك العجوز، وحمدا لله على ذلك، بذلك حدثت نفسي، وقلت لها: في دقيقة واحدة، سأعيده إلى سيارته.

نظرت إلى ابن عمي، وقد ظهر الآن بوضوح في الضوء المعتم اللامع الذي يحدِّد كل شيء في وضوح مخيف. وكان جيمس قد حمل معه زجاجة النبيذ فوق الصخور فأخذ يرتشف منها على نحو مثير من الراحة الراضية، مطلًّا على البحر. وكان يرتدي سروالاً خفيفاً أسود، وقميصاً بنفسجياً مفتوح الرقبة وسترة صيفية بيضاء. كان مهملاً في ملبسه، ولكنه يستطيع أن يكون متأنقاً بطريقته الخاصة. وكان أنفه المعقوف داكناً بلحيته الجامحة وبسحابة غريبة ربما تشكلت بتأثير عينيه العسليتين القاتمتين المعلقتين دائماً فوقه. وكان شعره الكستنائي كثاً مشعثاً.

وفجأة طرأت على ذهني هذه الفكرة، إذا كان قد خرج من الجيش فلماذا كان عليه أن يأتي ليراني في عطلة نهاية الأسبوع حين تكون الطرق مزدحمة بحركة المرور؟

قلت: «أتعمل أي شيء؟ أعني هل التحقت بوظيفة جديدة أو أي شيء؟».

- «كلا، يا جنتلمان الفراغ».

كان هذا شيئاً غريباً. فخطر لي في ومضة من ومضات الفكر أن جيمس لم يترك الجيش حقاً، على الإطلاق. وإنما انتقل إلى العمل السري. وهو يستعد للقيام بمهمة سرية للغاية، ربما كانت تتعلق بالعودة إلى التبت. لماذا بدا عليه كل هذا الضيق عندما رأيت ذلك الرجل الشرقي الغريب في منزله؟ لقد أصبح ابن عمي عميلاً سرياً!

حاولت أن أفكر في حيلة لَبِقة تجعله يعرف ما تكهنت به عندما يستأنف كلامه.

- «وماذا حدث بشأن ماري هارتلي سميث؟».
- «ماري هارتلي سميث؟».
- «أجل. حبك الأول. لقد أخبرتني بأنها تقطن هنا مع زوجها. وهذا الفتى هو ابنها. وسألتك عن اسمه. تيتوس. هل نسيت هذا أيضاً؟».

الشيء الغريب هو أنني نسيت، نسيت تماماً أنني أخبرت جيلبرت بهذه الحكاية. لماذا أراد جيمس أن يعرف اسم تيتوس؟ قلت: «لا بد أنني مجنون، لقد نسيت، ولكني أتذكر الآن. لقد أسديت إليّ نصيحة طيبة».

- «وهل أخذت بها؟».
- «نعم. كنت مصيباً بالطبع. وكنت أتخيل أشياء فحسب. ذلك أن صدمة رؤيتها أطلقت كثيراً من الذكريات القديمة.. وقد شفيت الآن وبالطبع لست واقعاً في غرامها، فلن يكون لهذا أي معنى. وعلى كل حال فإنها ليست الآن أكثر من عجوز تبعث على الضجر. وهذا الصبي يزورني من حين إلى آخر. وهو مُضْجر أيضاً».
- «مفهوم، إذن فالعبرة بالخواتيم».
- «ألديك رباط عنق؟».
- «رباط عنق؟ نعم».
- «ستحتاج إلى رباط عنق لكي تدخل إلى قاعة الطعام في فندق الغراب الأسحم. وسأصحبك إلى سيارتك فحسب؟.

صحبته دائراً إلى جانب المنزل حتى أتحاشى مزيداً من المحادثة في المطبخ.

- «سيارة بديعة. أهي جديدة؟».
- «أجل، وهي تسير جيداً. إلى أين أنعطف؟».

ـ «وراء الصخرة مباشرة. ما أشد الظلام. تكاد تكون في حاجة إلى المصابيح الأمامية».

ـ «نعم، إنه يوم عجيب. يبدو أشبه بالعاصفة. أشكرك على الشراب، اعتنِ بنفسك؟».

ـ «وداعاً، قُدْ السيارة بحذر؟».

تحركت «البنتلي» السوداء، وانعطفت جانباً، ثم انطلقت إلى الطريق، ولوّح لي جيمس، ثم لـم يلبث أن أختفى عند الناصية. هل سيعود؟ لا أظن ذلك.

سرت متمهلاً عبر الممر، ثم دخلت المنزل، وأغلقت الباب. ما أغرب نسياني بأنني أخبرته بتلك الأمور. لا بد أنني كنت مخموراً. على كل حال، سيكون غداً يوم المصير. سأقدم على الفعل غداً. وفكرت أن أصحب هارتلي إلى لندن. فهذا المكان يفسد كل شيء على نحو ما.

وقفت في الصالة برهة. كنت أريد أن أخلو إلى نفسي. وضعت زجاجة النبيذ التي تركها جيمس على الدرج. وكنت أستطيع أن أسمع أصوات جيلبرت وتيتوس المتآمرة الخافتة وهما يتحدثان في المطبخ. غداً، سأتحدث إلى تيتوس. سيكون تيتوس وهارتلي وأنا على انفراد معاً، في مكان آخر. سأبني بفعلي وإرادتي أسرة جديدة.

سمعت صوت صرير متوتر. رفعت بصري فرأيت السلك الممتد من جرس الباب الأمامي يرتعش. ثم سمعت صوت جلبة عالية مشوّشة. أيكون «بن»؟ استدرت بسرعة وفتحت الباب على مصراعيه.

كان برجراين آربلو يقف في الخارج ممسكاً بحقيبة ملابس.

ـ «هاللو، تشارلز، يا له من مكان عجيب!».

ـ «پيري!».

- «أود أن تدعوني «برجراين». ماأكثر المرات التي قلت لك فيها ذلك؟ ألف مرة؟»..

- «ماذا تفعل هنا بحق السماء؟»..

- «إنه يقول: ماذا تفعل هنا بحق السماء. لقد أرسلتَ دعوة فقبلتُها. إنها نهاية أسبوع ويت Whit، أتتذكر؟ قمت بقيادة سيارتي في رحلة متعبة طويلة جداً. وكنت أتطلع إلى ذراعين مفتوحتين وصيحات السرور على المائة ميل الأخيرة».

كنت أستطيع الآن أن ألمح سيارة برجراين «الألفا روميو» البيضاء تنتظر حيث أوقف جيمس سيارته البنتلي مؤخراً.

- «برجراين، أنا شديد الأسف، إنك لا تستطيع أن تبقى هنا، لا توجد أية أسِرَّة و...».

- «انظر، هل أستطيع أن أشق طريقي إلى الداخل؟» وقد فعل.

وقام صوت برجريان المرتفع بتنبيه المتآمرِيْن في المطبخ.

- «برجراين!».

- «جيلبرت! يا لها من مفاجأة سارّة. تشارلز، أستطيع أن أستولي على سرير جيلبرت».

- «لن تستطيع بكل أسف، وسأدافع عن أريكتي».

- «قدِّم إليّ صديقك الغلام الساحر، يا جيلبرت».

- «هذا تيتوس فيتش. ليس من أملاكي، للأسف».

- «هاللو، تيتوس. أنا برجراين آربلو. جيلبرت، أحضر لي كاساً من الشراب، هذا زميل طيب».

- «طيب، ولكن لا يوجد هنا سوى النبيذ والشيري، أنت تعلم أن تشارلز لا يعاقر الخمر».

ـ «أوه، عليك اللعنة، لقد نسيت، كان ينبغي أن أحضر زجاجة».

قلت: «برجراين، لن تكون سعيداً هنا. فليس هناك ما تشربه، ولا مكان لك تنام فيه. أنا آسف، فقد نسيت التاريخ، ولا أظن بالفعل أنني دعوتك على الإطلاق. هناك فندق ممتاز يقع بالضبط على الطريق...».

وفي هذه اللحظة دق جرس الباب الأمامي مرة أخرى. فاستدار برجراين ليفتح الباب، وعبر كتفه استطعت أن ألمح ابن عمي جيمس.

قال برجراين: «هاللو، مرحباً في قاعة الضيافة، المالك تشارلز آروبي، لا يوجد ما تشرب، ولا مكان للنوم، ولكن...».

قال جيمس: «أهلاً. آسف لعودتي، يا تشارلز، غير أن فندق الغراب كامل العدد، وقد تساءلت...».

قال برجراين: «يخيَّل إليّ أن هذا هو المكان الذي يريد أن يركنني فيه».

قال جيلبرت: «دعونا ندخل المطبخ»..

كان جيلبرت أوّل من دخل، يتبعه تيتوس، ثم پيري، ومن ورائه جيمس. وقفت لحظة، ثم تناولت زجاجة النبيذ من على الدرج، وسرت في أعقابهم.

ـ «أنا برجراين آربلو».

قال جيمس: «أظن أنني سمعت عنك».

ـ «أوه، ما أروع ذلك...».

قلت: «هذا ابن عمي، الجنرال آروبي».

قال جيلبرت: «لم تقل أبداً إنه كان جنرالاً».

قال برجراين: «لم أكن أعرف قط أن لك ابن عم، أهلاً، يا سيدي».

أمسكت بجيمس من كم سترته البيضاء الناصعة وجررته عائداً به إلى الصالة. «انظر، إنك لا تستطيع البقاء هنا، أقترح عليك أن...».

في هذه اللحظة رأيت عينيْ جيمس تتسعان وهو ينظر خلفي، فأدركت أن هارتلي كانت واقفة على الدرج.

وفي صمتنا المباغت ظهر الثلاثة الآخرون. ووقفنا جميعاً شاخصة أبصاونا إلى هارتلي.

كانت لا تزال ترتدي عباءتي الحريرية السوداء المنقوشة بورود صغيرة حمراء. وكانت العباءة تصل إلى قدميها وقد رفعت ياقتها لتجعلها إطاراً لشعرها، وبذلك كانت أشبه بثوب للمساء. أما عيناها المذهولتان الواسعتان، فقد اصطبغتا بلونهما البنفسجي، وعلى الرغم من أنها كانت تبدو عجوزاً مخبولة بشعرها الرمادي الأشعث فقد بدت في هذه اللحظة الفريدة كأنها ملكة.

تمالكت نفسي بعد ثانية أو ثانيتين، فاتجهت إلى الدرج. وما إن لمحت هارتلي حركتي حتى استدارت ولاذت بالفرار. فشاهدت وميض كاحل عار، وقدم عارية. وقبضت عليها في منحنى السلّم، وهرعت بها صوب البسطة العليا.

وركضنا معاً تقريباً على طول البسطة، ودفعتها إلى الداخل من خلال باب حجرتها. فدخلت في الحال وجلست على الحشية كأنها كلب مطيع. ولا أظن أنني في فترة احتجازها كلها رأيتها تجلس قط على مقعد.

ـ «هارتلي، حبيبتي، إلى أين كنت ذاهبة؟ ألعلك نزلت لتبحثي عني؟ أم حسبت أن «بن» قد جاء؟ أم كنت تريدين الهرب؟».

أحكمت العباءة حول جسدها، ولم تقل شيئاً سوى أن هزت رأسها عدة مرات. وكانت مبهورة الأنفاس بتأثير الانفعال. ثم ألقت عليّ نظرة حزينة مترددة عذبة ذكّرتني فجأة بأبي.

ـ «أوه، هارتلي، أحبك حباً جماً!» وجلست على المقعد، ورفعت كفّي إلى

وجهي، وشبكت يديّ، وأحسست بأنني قريب من طفولتي قرباً عاجزاً لا حول لي ولا قوة فيه. «هارتلي، لا تهجريني، لا أدري ماذا أفعل لو رحلت».

قالت هارتلي: «من كان ذلك الرجل؟».

- «أي رجل؟».

- «الرجل الذي كنت معه أثناء وقوفي على السلّم؟».

- «إنه ابن عمي جيمس؟».

- «أوه، أجل... ابن العمة إستيل».

هذا العرض اللامتوقع للذاكرة كان صدمة مثيرة إلى حد المرض.

وفي الطابق الأرضي، في المطبخ، كنت أستطيع أن أسمع جلبة نشطة من الأصوات. فعندما أحس جيلبرت وتيتوس بأن ظهور هارتلي قد حرَّرهما من كل ضرورة للكتمان، كانا - بلا ريب - يقصان على جيمس وبرجراين كل ما يعرفانه وزيادة.

زمجرت في يديّ.

وفي تلك الليلة نمنا على النحو التالي: نمت أنا في حجرة نومي، ونامت هارتلي في الحجرة الوسطى، ونام جيلبرت على الأريكة، ونام برجراين على الوسائد في حجرة الكتب، ونام جيمس على مقعدين في الحجرة الصغيرة الحمراء، ونام تيتوس في الخارج على المرجة. وكانت ليلة شديدة القيظ، ولكن بلا عاصفة.

وفي صباح اليوم التالي شاع بين ضيوفي جو الاحتفال بالعطلة: سبح تيتوس كالمعتاد انطلاقاً من الصخرة؛ وبعد أن قام جيمس باستكشاف البرج والإدلاء بمختلف التكهنات التاريخية عنه، سبح ابتداءً من درجات السلم الخاصة بالبرج. (ما زلت أنسى تثبيت حبل، غير أن المدّ كان عالياً). أما برجراين، وكان كتلة بيضاء ضخمة من اللحم، فقد رقد شبه عار ليستمتع

بحمام شمس فوق الحشائش، فاحترق تماماً. وقاد جيلبرت سيارته إلى القرية وعاد بكمية ضخمة من المواد الغذائية وعدد من زجاجات الويسكي قيدها على حسابي في المتجر. وقاد جيمس سيارته فيما بعد إلى القرية للحصول على صحيفة «التايمز»، ولكنه فشل. وقد سادت دهشة عامة لقدرتي على الحياة بلا «أخبار». ولخص بيري هذه الأخبار بقوله: «من مات، من اختطف، من قام بالإضراب». وكان قد أحضر معه جهاز ترانزستور، غير أنني أخبرته بأن يحتفظ به بعيداً عن طريقي. وكان جيمس رائداً في وضع خطة شعبية للذهاب إلى فندق الغراب والفرجة على مباراة استطلاعية في التلفزيون، غير أن جيلبرت الذي أرسل مرة أخرى للمتجر لشراء لوسيون الحروق الناجمة عن الشمس من أجل برجراين ـ أفاد بأن هناك أعطالاً كهربائية قطعت الإرسال التلفزيوني المحلي. ونجح جيلبرت وتيتوس في الحصول على أعضاء جدد في الكورس (الجوقة) المكوّن منهما، بانضمام بيري الذي يغني بصوت أجش غليظ من طبقة «الباص» Bass، ولكنهما أخفقا مع جيمس الذي لم يكن يستطيع أن ينشد نغمة واحدة. واحتلت في الأمسية السابقة لتحذير تيتوس وجيلبرت بالامتناع عن إخبار برجراين بزيارة روزينا. وكان هذا تصرفاً حسناً. إذ كنت في الصباح عاجزاً تقريباً عن التفكير العقلاني، إذ أحسست وكأن شيئاً قد انقصف داخل رأسي، ورماً مخياً انفجر، أو شيئاً من هذا القبيل.

كانت حالتي اليائسة ترجع في شطر منها إلى حضور جيمس الذي بدا كأنه مركز للجاذبية المغناطيسية بالنسبة للثلاثة الآخرين ـ وقد أفضى إليّ كل منهم على حدة بأنه معجب به أشد الإعجاب. ولا شك أنهم كانوا يتوقعون إدخال السرور على نفسي بهذا التصريح. قال تيتوس: «شيء عجيب، فأنا أشعر وكأني التقيت به من قبل، ومع ذلك فأنا أعرف أنني لم ألتق به. لعلني رأيته في حلم من أحلامي». والشيء الآخر الذي دفعني إلى ما يشبه الجنون

ذلك التغيير المفاجىء الذي طرأ على لهجة هارتلي. كانت لا تكف عن ترديد قولها بأنها ينبغي أن تعود إلى البيت، ولكنها أخذت تقول هذا مؤخراً بفتور شديد وكأنها تعلم أن هذه العودة أصبحت مستحيلة. والآن بدأت تقول هذا القول وكأنها تعنيه، وتؤيده بحجج تكاد تكون عقلانية.

- «أعرف أنك تظن أنك كنت عطوفاً نحوي...».
- «عطوفاً! إنني أحبك.»
- «أعرف أنك تظن أن ما تفعله خيرٌ وأنا معترفة بالجميل...».
- «معترفة بالجميل! أوه، ما هذا الذي تقولين!».
- «غير أن هذا كله هراء، حادث، حدث عارض... لا نستطيع أن نبقى معاً، إنه يجافي المنطق السليم».
- «أنا أحبك. وأنت تحبينني».
- «إنني أهتم بك...».
- «لا تستعملي هذه اللغة الطائشة. إنك تحبينني.»

- «فليكن، وإنما بطريقة لاواقعية، في حلم، فيما كان يمكن أن يجوز. حقاً، لقد انتهى هذا كله منذ أمد بعيد، ونحن نحلم به».

- «هارتلي، أليس لديك أي إحساس بالزمن الحاضر، ألا تستطيعين الحياة في الحاضر؟ استيقظي وحاولي ذلك!».

- «أنا أحيا في الأزمنة الطويلة، لا في اللحظات الحاضرة المفاجئة، ألا ترى ذلك... إنني متزوجة، ولا بد أن أعود إلى حيث يجب أن أكون. ولو أخذتني كما قلت منذ لحظة، لكان لزاماً عليّ أن أهرب منك. إنك تجعل كل شيء أسوأ وأسوأ. أنت لا تفهم...».

- «فليكن، أنت متزوجة، فماذا في ذلك؟ أنك لم تكوني سعيدة».
- «لا أهمية لذلك..».

ـ «بل لا بد أن أقول إن لهذا أهمية كبيرة. ولا أستطيع أن أفكر في شيء أكثر من هذا أهمية».

ـ «أنا أستطيع».

ـ «أنت تعترفين بأنك تحبينني».

ـ «يستطيع المرء أن يحب حلماً. أنت تظن أن هذا يشكِّل نوعاً من القوة الدافعة على الفعل...».

ـ «دافع، أجل!».

ـ «كلا، لأنه حلم. إنه مكوَّن من أكاذيب».

ـ «هارتلي، إننا نملك المستقبل. وهذا معناه أننا نقوم بتحويل الأشياء إلى حقيقة».

ـ «لا بد من أن أعود».

ـ «سيقتلك».

ـ «لا بد من أن أجتاز ذلك الباب، إنه الطريق الوحيد بالنسبة لي».

ـ «لن أدعك تفعلين ذلك».

ـ «أرجوك...».

ـ «وماذا عن تيتوس؟ سيكون معي. ألا تريدين أن تكوني مع تيتوس؟».

ـ «تشارلز، يجب أن أعود إلى البيت».

ـ «أوه، كفى، ألا تستطيعين أن تفكري في شيء أفضل، وتحصلين عليه؟».

ـ ولا يستطيع المرء أن يفعل ذلك بعقله. إنك لا تفهم من هم على شاكلتي، على شاكلتنا، الآخرين. أنت أشبه بطائر يطير في الهواء، بسمكة تسبح في البحر. أنت تتحرك، وتنظر حولك، وتريد أشياء. ولكن هناك آخرون يعيشون على الأرض، ويتحركون ولا ينظرون...».

ـ «هارتلي، ثقي فيَّ، تعالي معي، اركبي فوق ظهري. أنت أيضاً تستطيعين أن تتحركي حولك وأن تنظري إلى الأشياء...».

- «أريد أن أعود إلى البيت».

تركتها، وأوصدت الباب، واندفعت خارج المنـزل. تسلقت صخرة أو صخرتين، ورأيت ابن عمي واقفاً على الجسر فـوق المرجـل. لوح بيـديه وناداني، وذهبت لألحق به.

- «تشارلز، يكفي أن تنظر إلى قوة هـذا الماء، أليست خـرافية، أليست مرعبة؟» وكنت أستطيع بمشقة أن أسمع صوته فوق هدير المد المنسحب.

- «أجل».

- «إنها شيء جليل، نعم، بالمعنى الدقيق، شيء جليل. وكان من الممكن لـ «كانت» أن يحب هذا، وكذلك ليوناردو، وهوكوساي Hokusai».

- «أستطيع أن أقول ذلك.»

- «والطيور. . . يكفي أن تنظر إلى تلك الطيور الشاجز Shags. . .».

- «كنت أعتقد أنها طيور الغاق».

- «كلا، إنها شاجز. وقد رأيت بعض الغربان الصغـيرة ذات الأرجل الحمر، والطيور صائدة المحار، كما سمعت كرواناً يحوم حول الخليج».

- «متى سترحل؟».

- «أقول، إنني أميل إلى أصدقائك».

- «وهم يميلون إليك».

- «يبدو أن الفتى طيب».

- «أجل. .».

- «قبعتي، انظر إلى ذلك الماء، ماذا يفعل الآن!».

بدأنا نعود على أعقابنا صوب المنزل. كان الوقت قد حان تقريباً لتناول الغداء، هذا إن كانت التقاليد ما زالت مرعيَّة.

كان جيمس ـ وكان من الجلي أنه أحضر معه الوسـائل الكفيلة بقضـاء

إجازته على شاطىء البحر ـ يرتدي سروالاً كاكياً قديماً من القطن، وقد طواه على ساقيه، وقميصاً أزرق نظيفاً، وإن يكن من طراز عتيق، تركه مفتوحاً دون أن يحكم تزريره، ويكشف عن جذعه الوردي الذي يندر فيه الشعر. كما كان ينتعل صندلاً يُظْهر قدميه البيضاوين المهزولتين بأصابعهما العجفاء الطويلة البارزة المفاصل التي كانت تبعث على نفوري عندما كنت شاباً (كنت أقول لأمي «جيمس له قدمان أشبه بالأيدي»، وكأنما اكتشفت تشويهاً سرِّياً).

وعندما اقتربنا من المنزل قال: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

ـ «في أي شيء؟».

ـ «فيما يتعلق بها».

ـ «لا أدري. متى ترحل؟».

ـ «هل أستطيع البقاء حتى غد؟».

ـ «لا مانع».

دخلنا المطبخ، والتقطت تلقائياً الصينية التي وضعها جيلبرت من أجل هارتلي، وحملتها إلى الطابق العلوي. وفتحت الباب، ثم وضعت الصينية على المنضدة كالمعتاد.

كانت تبكي وتأبى أن تقول شيئاً لي.

ـ «أوه، هارتلي، لا تحطميني بهذا الحزن، أنت لا تدرين ما تفعلين بي».

لم تقل شيئاً ولم تبدي أية إشارة، وإنما استمرت في البكاء مسندة ظهرها إلى الجدار، ومحملقة أمامها، وهي تمسح الدموع البطيئة من حين إلى آخر بظهر يدها.

جلست برهة قصيرة معها في صمت. جلست على المقعد وأخذت أتلفت حولي وكأن مثل هذا الانشغال العادي يمكن أن يجلب إليها شيئاً من العزاء. لاحظت بقعة رطبة في السقف، وشرخاً في أحد ألواح النافذة الطويلة، وزغباً

أرجوانياً على الأرضية، لا ريب أنه من مخلفات أثاث السيدة تشورني. وأخيراً قمت، ولمست كتفها برفق، وانصرفت. ولم أكن أمكث أبـداً لأراها وهي تأكل، وأوصدت الباب.

وعندما رجعت إلى المطبخ وجدت هناك الأربعة جميعاً واقفين حول المائدة حيث وضع جيلبرت غداءً مكوناً من لحم الخنزير واللسان والسلاطة الخضراء والبطاطس الجديـد، وبيض مسلوق لجيمس. ولم أكن أعبأ الآن ـ طبعـاً ـ بطعامهم، بل كان اهتمامي بطعامي أنا نفسي قليلاً. وكانت هناك زجاجتان مفتوحتان من النبيذ الأبيض تبتردان في دلو الثلج. أما برجراين الذي تحسنت حالته حين ارتدى مـلابسه فكـان يحتسي الويسكي وينصت إلى وصف مباراة للكـريكيت في جهازه الترانزستور. أخلدوا إلى الصمت حـين دخلت. وأسكت بيري المذياع. وساد جو من الترقب.

صببت لنفسي كأساً من النبيذ والتقطت شريحة من لحم الخنزير. «امضوا في ما أنتم فيه. سآكل في الخارج».

قال برجراين: «لا تهرع إلى الخارج، نريد أن نتحدث إليك».

ـ «أما أنا فلا أريد أن أتحدث إليكم».

قال جيلبرت: «نحن نريد أن نساعدك».

ـ «أوه، أغرب عن وجهي».

قال جيمس: «أرجوك، أمكث لحظة. تيتوس عنده شيء يريد أن يقوله لك. أليس كذلك يا تيتوس؟».

غمغم تيتوس وقد احمر وجهه، دون أن ينظر إليّ: «أعتقد أنه ينبغي عليك أن تدع أمي تعود إلى البيت».

ـ «هذا هو بيتها».

قال برجراين: «ولكن، إذا أردت الجد، أيها الرجل العجوز...».

ـ «لا أريد نصيحتك. ولم أطلب منك أن تأتي إلى هنا. . أو من أي أحد منكم».

قعد جيمس، وحذا الثلاثة الآخرون حذوه، أما أنا فظللت واقفاً.

قال جيمس: «نحن لا نريد أن نتدخل. . .».

ـ «إذن، فلا تتدخلوا».

ـ «كما لا نريد ـ في الواقع ـ أن نفرض أية نصيحة عليك. إذ إننا لا نستطيع أن نرى حقيقة الموقف، وكيف نستطيع ذلك؟ وانطباعي هو أنك لا تكاد تفهمه أنت نفسك. نحن لا نريد أن نقنعك. . .».

ـ «إذن فلماذا أوعزت إلى تيتوس أن يقول ما قاله منذ لحظة؟».

ـ «لأنه جزء من الدليل. . إنه شيء يعتقده تيتوس، ولكنه يخشى أن يخبرك به».

ـ «أوه، كفى هراء».

ـ «إن عليك ـ بقدر ما أستطيع أن أرى ـ أن تتخذ قراراً عسيراً وعاجلاً، وإذا وافقت على الحديث إلينا فحسب فإننا نستطيع أن نساعدك على اتخاذه بطريقة عقلانية، كما نستطيع أيضاً أن نساعدك على تنفيذه بطريقة عقلانية. ينبغي أن ترى أنك بحاجة إلى المساعدة، إنك تحتاجها».

ـ «أريد سائقاً. ولا شيء سواه».

ـ «إنك بحاجة إلى المساندة. وأنا قريبك الوحيد. أما جيلبرت وبرجراين فإنهما صديقان حميمان».

ـ «إنهما ليسا كذلك».

ـ «يقول تيتوس إنه يعتبرك والده».

ـ «يبدو أنكم تبادلتم بشأني حديثاً ظريفاً».

قال برجراين: «لا تغضب يا تشارلز. فنحن لم نكن نتوقع أن نقع في هذه

الورطة. جئناإلى هنا لتمضية إجازة. غير أننا نراك في أزمة ونريد أن نخرجك منها».

ـ «لا شيء هناك تستطيعون أن تفعلوه من أجلي».

قال جيمس: «بل هناك. وأعتقد أن مما يساعدك مساعدة كبيرة أن تناقش المسألة كلها معنا، ليس من الضروري أن تناقش التفاصيل وإنما ستنصب المناقشة على نوع من استراتيجية المسألة. وتستطيع أن تفعل ذلك دون أن تحنث بولائك. والآن، هناك على وجه التقريب طريقان ممكنان للتصرف: أن تحتفظ بها أو أن تعيدها، تمام؟ حسناً، فلنبحث أولاً ماذا يحدث لو أنك أعدتها...».

ـ «لن أعيدها، على حد تعبيرك. إنها ليست زجاجة».

ـ «فهمت من تيتوس أن سبباً من أسباب امتناعك عن إعادتها، حتى لو كانت تريد الذهاب...».

ـ «إنها لا تريد».

ـ «هو أنك تخشى أن يكون زوجها شرساً معها.»

ـ «هذا سبب واحد، وهناك حوالي مائة أخرى».

ـ «ولكن، على افتراض أن شراسته تقوم على سوء تفاهم، وعلى افتراض أن سوء التفاهم ذاك يمكن أن يزول...».

ـ «جيمس، لا تكن أحمق، إنك تعرف جيداً أنه لا يوجد أي تفسير أو عذر لما فعلت، أياً كان ذلك. وأنصحك أن تكون حذراً فيما تقول لي».

قال جيمس: «انظر، إنني أقول شيئين، أولاً، إذا كنت تريد أن تعيدها فلا بد أن يتم ذلك بذكاء. وينبغي أن نذهب جميعاً معك، كنوع من استعراض القوة، وكذلك لتعزيز قرارك».

ـ «قراري؟».

ـ «وثانياً، إذا كان خوف العنف واحداً من أسبابك للامتناع عن إعادتها، وإذا كان من الممكن تخفيف هذا الخوف، فإن ذلك يمكن أن يكون داخلاً فيما قررت أن تفعله».

قال برجراين: «أترى ما يعنيه؟».

ـ «نعم! ولكن على حد اعتراف جيمس فإنكم لا تستطيعون أن تفهموا الموقف! إنكم تتحدثون عن تفسير أو اتخاذ قرارات. . . على هذا المنوال يمكن أن تحاولوا تفسير الأمر لثور من الثيران! وعلى كل حال فإن هذه المحاجة تخرج عن الموضوع، ما دام ليس هناك إمكانيتان. فأنا لا أعترف بعودتها إلى زوجها على أنها ممكنة».

قال جيمس: «إذن، دعنا نبحث في السبيل الآخر. .».

ـ «لن نبحث في شيء! ولا أريد لجماعتكم أن تخوض في هذه المشكلة. لقد كنتم وقحين، وأنا أرفض ذلك تماماً! ولكن ما دام الموضوع قد أثير فإنني أسأل تيتوس لماذا يعتقد أن من واجبي أن أدع أمه تذهب إلى البيت».

بدا على تيتوس ـ الذي كان طيلة هذا الوقت يحملق في لحم الخنزير (لعله كان جوعان) ـ بدا عليه التردد في الإجابة، فقد تصاعد الدم إلى وجنتيه، ولم يرفع عينيه. قال: حسناً. . . أنت ترى. . . إنني أشعر بأن اللوم يمكن أن يلقى عليّ. . .».

ـ «لماذا بحق السماء؟».

ـ «الأمر شديد الصعوبة، فالمرء تنتابه أنواع كثيرة من. . . الانفعالات. . ومن التحيزات، فيما يتعلق بالآباء والأمهات. أشعر بأنه كان من الممكن أن أجعلك تفكر في أن الأمر أبشع مما كان، وإن كان فظيعاً حقاً. وهي تبالغ أيضاً، ولديها خيالات وأفكار تدور في رأسها. لست أدري. لعلها تؤثر أن تكون معه، وأنا ضد إكراه الناس، وأعتقد أنهم ينبغي أن يكونوا أحراراً.

وأنت في عجلة من أمرك لإصلاح كل شيء في الحال. وإذا كانت تريد أن تأتي إليـك فإنها تستطيع أن تأتي على نحو أفضل من ذلك فيما بعد عندما يتاح لها الوقت للتروي».

قال جيمس: «أحسنت القول، يا تيتوس».

ووجَّه تيتوس نظرة إلى جيمس حركت غيرتي اليقظة دائماً.

قال برجراين: «إنك لا تفهم الزواج، يا تشارلز، لأنك لم تكن في داخله أبداً. إنه عميق. وتحسب أن الزوبعة تعني الضياع، النهاية، وهي ليست كذلك».

قلت: «لكي أبدأ فإن كلمة «حرة» لا تنطبق هنا، فنحن بصدد شخص خائف، بصدد سجينة. ينبغي جَرُّهـا بالقـوة، لأنها لن تمشي أبداً. ومن ثمّ ينبغي إصلاحها الآن. وإذا عادت فلن تتركه أبداً، لن تهرب مطلقاً».

قال جيمس: «فليكن، ألا ينطوي هـذا على دلالـة أيضاً؟ أليس هـذا اعترافاً بأنها ينبغي أن تعود؟ بأنها ستختار البقاء هناك؟ وفي أحيان أكثر مما تتصور يختار البشر بالفعل ما يريدون أن يفعلوه».

- «من الجائز أن تبقى، أما أن «تختار»؟ ليست هذه مسألة «زوبعة» على حد تعبير پيري الساخـر، الأمر الـذي يدل عـلى أنه لا يملك أيـة فكرة عن الموضوع كلّه. إنها امرأة مذعورة مرعوبة لم تعـرف للسعادة طعـماً مع ذلـك الرجل، لقد أخبرتني هذا بنفسها».

- «قد لا يكون زواجها سعيداً، ولكنه دام فترة طويلة. إنك تفكر كثيرا في السعادة، يا تشارلز، غير أنها ليست بكل تلك الأهمية».

- «هذا ما قالته».

- «ها أنت ذا تتمسك بموقفك».

قلت: «تيتوس، هل السعادة مهمة؟».

قال: «أجل، بالطبع إنها لكذلك». ونظر إليّ أخيراً.
قلت جيمس: «ما رأيك؟».

قال جيمس: «إجابة شاب. والآن دعني أطرح مسألة أخرى. . .».

قال برجراين الذي لا يزال يحتسي الويسكي «مشكلتك، يا تشارلز، كما قلت لك من قبل هي أنك تحتقر النساء، إنك تنظر إليهن بوصفهن إماء. وتعتبر هذه المرأة أَمَة. . .».

ـ «مسألة أخرى. . هذه الدراما تتطور بسرعة، وهي أشبه بدوامة من الانفعالات والأفكار. قلت إنك احتفظت بصورة حبك الأول النقي إلى جانبك طيلة هذه السنين. وربما انتهى بك التفكير فيه إلى أنه قيمة عليا، معيار فشلت (بمقياسه) كل ضروب الحب الأخرى. . .».

ـ «نعم».

ـ «ولكن، ألا ينبغي عليك انتقاد هذه الفكرة المادية؟ لا أريد أن أسميها خيالاً. ولكن دعنا نسميها حلماً. بالطبع نحن نعيش في الأحلام وبالأحلام، وحتى في الحياة الروحية المنظّمة، وبخاصة في مثل هذه الحياة من بعض الوجوه ـ من الصعب التمييز بين الحلم والواقع. وفي الشؤون البشرية العادية يهرع الحس المشترك العادي إلى نجدة الإنسان. وهذا الحس المشترك هو الحس الأخلاقي في نظر معظم الناس. ولكن يبدو أنك تعمدت استبعاد هذا المصدر المتواضع للنور. إسأل نفسك، ماذا حدث بينهما حقاً طيلة تلك السنين الماضية؟ لقد صنعت منه قصة، والقصص زائفة».

(وعند هذه النقطة أمسك تيتوس ـ الذي لم يعد يتحمل أكثر من ذلك ـ بقطعة من لحم الخنزير وشيء من الخبز).

ـ «وأنت تستغل هذا الشيء من الماضي البعيد كمرشد لتحركات مهمة لا رجعة فيها تقترح القيام بها في المستقبل. إنك تجري استقراءً Induction

خطراً، والاستقراء متزعزع في أفضل الحالات، واعتبر بدجاجة رسل*. . . ».
- «دجاجة رسل؟».

- «كانت زوج الفلاح تخرج كل يوم لإطعام الدجاجة، وذات يوم خرجت، ودقّت عنق الدجاجة».
- «أنا لا أفهم، دعنا نطرح هذه الدجاجة جانباً».

- «أقصد، أنك تسلِّم - بقدر ما بوسعي أن أرى - ببيِّنة واهية، وتذكّرك في بعض الأوقات المدرسية الرومانسية وما شاكل ذلك، بأنك لو فزت بها عنوة فستكون قادراً على حبها، وإسعادها، وبأنها ستكون قادرة على حبك وإسعادك. مثل هذه المواقف نادرة في واقع الأمر، ومن العسير تحقيقها. وفضلاً عن ذلك، وكمسألة لا تنفصل عن السعادة التي تقدرها كل هذا التقدير، تسلِّم بأنه من السليم أخلاقياً أن تنقذها على هذا النحو، حتى في الغياب الظاهر لموافقتها. والآن، ألا ينبغي عليك. . . ».
- «جيمس، أرجوك أن تكف عن إهاناتي بآرائك الفخمة؟ وإني لأتساءل ألا تدرك إلى أي حد أنت شخص لا يطاق؟ وكما قلت، هذه المسألة قد تطورت بسرعة، وأصبحت ورطة من الطراز الأول. فليكن، أنا الذي خلقت هذه الورطة. ولكن، لم تعد تنطوي بداخلها على أية أخلاقيات كاملة. هذا هو حال الحياة الإنسانية العادية. وربما كان الجنود Cloistered المتوحدون لا يعرفون شيئاً عن مثل هذه الأمور».
ابتسم جيمس: «يعجبني التعبير «الجنود المتوحدون». إذن فأنت تعترف بأنك لست متأكداً من أن هذه الإغاثة ستكون شيئاً حسناً؟». .

- «لست متأكداً، كيف يمكن أن أكون كذلك؟ غير أنك تحاول أن ترغمني

(★) المقصود هنا هو الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠). (المترجم).

على الدخول في محاجة هي محاجة الموقف. وما تقوله يقع كله على هامش المناقشة، إنه نوع من التعليق المجرد. أنت الشخص الذي «يروي حكاية». أما أنا ففي المكان الذي تحدث فيه الأشياء الواقعية».

- «إذن، فما هي محاجة الموقف؟».

- «هي أنني أحبها، وهي تحبني. إنها تقول ذلك. والحب لا يعتمد على «البيِّنة» و«الاستقراء». الحب يعرف. وقد كانت تعسة ولن أدعها تعود إلى فتوة يمكن أن يكون من بعد ذلك أشد قسوة عليها. وسيزداد الأمر سوءاً. فليكن، أنا جعلته كذلك، غير أن الحقيقة تبقى. وعلى قسوته لدينا شاهد، وإن كان الشاهد ليس على استعداد للشهادة».

قال جيمس: «ليست هذه محاجة، وإنما هي بالأحرى تقرير مشوَّش للنية».

- «على كل حال، هذا ما اقترح التصرف على أساسه. ولا أستطيع أن أتصور كيف تركت نفسي أُجَرُّ إلى هذه المناقشة المضحكة تماماً».

- «لا عليك. إن ما أفكر فيه شخصياً قد ظهر فعلاً، وليس بحاجة إلى أن يكون مسألة تنطوي على أية مصلحة لك على الإطلاق. غير أنني أحب أن أضيف هذا: وهو أنك إذا قررت - بما يخالف الحكمة في رأيي - أن تصحبها بعيداً، فإننا نريد جميعاً أن نبذل ما في وسعنا لمساعدتك. هذا هو الوضع، أليس كذلك؟».

قال برجراين: «نعم».

وقال جيلبرت: «أظن أنني أتفق مع تشارلز من بعض الوجوه».

- «وعلى سبيل المثال، إلى أين ستأخذها؟ لا بد من بحث التفاصيل. ماذا ستفعل اليوم بطوله؟».

قال برجراين: «هذا السؤال وحده يكفي لردع أي رجل عن الزواج؟».

- «تشارلز، أرجو ألا تظنني وقحاً، ولا تحسبني خالياً من الشفقة قبل كل شيء. كل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أقف هنا وأراك تزيد الطين بلّة. الأمر يستدعي عملية مشتركة. وأتساءل أتسمح لي بالحديث إليها. مرة واحدة باقتضاب شديد؟».

- «أنت؟ تتحدث إليها؟ لا بد أنك مجنون!».

في هذه اللحظة سمعت صوتاً رهيباً، صوتاً كنت أخشاه منذ أن شرعت في مغامرتي الخطرة. إذ بدأت هارتلي بغتة تصرخ في الطابق العلوي وتدق على الباب. «دعني أخرج، دعني أخرج!».

هرولت من المطبخ، وأغلقت الباب بعنف ورائي، وارتقيت الدرج. وعندما بلغت باب هارتلي، كانت ما برحت تصرخ، وتركل الألواح. لم تكن قد فعلت شيئاً مثل هذا من قبل. «أخرجني، أخرجني!».

أردت أن أصرخ أنا نفسي. ضربت الباب بقبضتي بعنف واهتياج: «أوه، كفّي عن هذا، كفّي عن هذا، اسكتي، كفّي عن الصراخ، هلا فعلت!».

صمت.

ركضتُ إلى الطابق السفلي مرة أخرى. كان الصمت يسود المطبخ أيضاً. عدوت خارجاً من الباب الأمامي عبر مدخل المنزل، وشرعت أسير في الطريق صوب البرج.

في وقت متأخر من ذلك اليوم، عند اقتراب المساء، وبينما أنا جالس مع جيمس فوق الصخور، بدأت أتفق معه في أشياء كانت تبدو حتى الآن شيئاً محتوماً.

- «تشارلز، إنه لموقف رهيب. وهذا سبب من الأسباب التي تدعوك إلى إنهائه. وهناك سبيل وحيد لإنهائه. وأنت ترى ذلك الآن؟».

- «نعم».

- «وستكتب الخطاب؟».

- «نعم».

- «أعتقد أن الخطاب مهم. تستطيع أن تشرح الأشياء بوضوح في الخطاب».

- «إنه لن يقرأه. سيمزقه ويدوسه بقدميه».

- «يجوز. أو قد يحتفظ به كدليل ضدك؛ غير أنني أعتقد أن هذه المجازفة جديرة بالإقدام عليها. وأعتقد أنه سيقرؤه على سبيل حب الاستطلاع».

- «إنه أدنى من مستوى حب الاستطلاع».

- «وتوافق على أنه ينبغي علينا أن نأتي؟».

- «أوافق على أنه ينبغي عليك أن تأتي».

- «أظن أنه كلما زاد عددنا، كان ذلك أفضل».

- «ولكن بدون تيتوس بالطبع».

- «بلى، وتيتوس أيضاً. قد يساعدها هذا، وقد يساعد تيتوس إذا استطاع أن يكون مؤدباً بالنسبة لوالده لمدة خمس دقائق».

- «مؤدب؟ هذا أشبه بحفلة شاي».

- «كلما كان أشبه بحفلة شاي، كان ذلك أفضل؟.

- «لن يوافق تيتوس».

- «لقد وافق».

- «أوه».

- «إذن، فلا مانع من أن يذهب برجراين إلى القرية الآن، وأن يقوم بتلك المكالمة الهاتفية؟».

ترددت. كانت اللحظة الأخيرة، وإذا قلت «نعم» الآن فإن الموقف كله سيفلت من سيطرتي. وسأكون كمن يقوم بالتصديق على مستقبل جديد تماماً ولا سبيل إلى التنبؤ به. «نعم».

- «عظيم. ابق هنا. سأذهب لإبلاغ برجراين».

وفي العصر تحدثت مع هـارتـلي. لم أقبـل حجج جيمس، غـير أن «مناقشته» أعانتني على أن أرى بعض الأشيـاء بمزيـد من الوضـوح، أو هي أطـاحت ببعض الأفكار التي عششت في رأسي؛ أو هي جعلتني أصـل على كل حال إلى نقطة حاسمة من اليأس. هذه العبارة الرهيبة. «دعني أخرج. دعني أخرج» قد شرخت إيماني وأملي. سألتها إن كانت تريـد حقاً الـرجوع إلى البيت. فأجابت بأنها تريد ذلك. فقلت لها، لك ما تريـدين. ولم أتقدم بأية التماسات أو أعـرض مزيـداً من الحجج. وبينـما كان كـل منا ينـظر إلى الآخر صامتـاً دون أن يجسر على الإضـافة إلى الكلمات التي قيلت بحـزم - أحسست بحاجز جديد يرتفع بيننا. وكنت أعتقد من قبل أن الاتصال بيننـا عسير، والآن أدركت إلى أي مدى كنا على صلة وثيقة أحدنا بالآخر.

كانت الخطة هي أن يذهب برجراين إلى القريـة فيتصل هـاتفياً بـ «بن» ويقول إن السيد آروبي وأصدقاءه يعيـدون «ماري» إلى البيت. أمن الممكن أن يقول «بن» «إذهب إلى الجحيم، أنا لا أريدها الآن»؟ كـلا. هذا بعيـد الاحتمال. وأياً كان ما يريده في نهاية الأمر فإنه لن يمن عـليّ بهذا التحـرك. ولكن، قـد لا يكون في البيت، وربمـا كان قـد اختفى، أو لعلٍ هـارتلي إذا وجـدت أن المسألـة قد وصلت إلى هـذا الحد - لعلهـا أن تغـير رأيهـا. . . ولكن - إلى الآن - كان أي شيء أفضل من الأمل.

أخذ جيمس يظهر حيناً بعد حينا، متسللاً فوق الصخور.

وكان قلبي يخفق بشدة، وبحزن.

- «كـل شيء على مـا يـرام، يقـول أحضروهـا، ولكن صبـاح غـد، لا الليلة».

- «هذا شيء غريب، ولماذا لا يكون الليلة؟» لعل ذلك بسبب فصـل النجارة! «إنه يريد أن يوضح لنا أننا نذهب وفق هواه. سيان. هذا يتيـح لك

مزيداً من الـوقت لكتابـة ذلك الخـطاب. وقد يكـون من المناسب تسليم الخطاب قبل أن نصل جميعاً، وسيكون ذلك أدعى إلى أن يقرأه».

- «أوه، جيمس. . .».

- «لا تقلق Sic biscuitus disintegrat».

- «ماذا؟».

- «هذه هي الطريقة التي يتفتت بها البسكويت».

عزيزي السيد فيتش.

ليس هذا خطاباً تسهل كتابته. كل ما أريده أن أجعل عدداً من المسائل واضحاً تمام الوضوح. المسألة الرئيسية هي أنني أحضرت زوجتك إلى منزلي واحتجزتها رغم إرادتها. وكونها لم تصحب معها حقيبة يدها دليل على ذلك، إذا كان الأمر في حاجة إلى دليل على أنها لم تكن «هاربة» (سامحني إذا كنت أقول ما هو جلي، لأنني أريد أن يكون الخطاب نهائياً وتفسيراً حاسماً لما حـدث). أغريتهـا بركـوب سيارتي بأن أخبرتهـا أن تيتوس في منـزلي، وكان هنـاك فعلاً. وعنـدما وصلت، أوصـدت عليها الأبواب. إذن، فقد كنت محقًّا حين اتهمتني «باختطافها». وهي لم تكف عن المطالبة بالعودة إلى البيت. ومن نـافلة القول إنـه ليس بيني وبينها أيـة «علاقـات». وقد قاومت بإصرار طيلة هذا الوقت مقترحاتي ومشروعاتي جميعاً، وكانت ترغب ببساطة أن أسمح لها بالرجوع إليك. ومن ثمّ، فلا تثريب عليها إطلاقاً في هذه المسألة. وسيقسم أصدقائي الذين كانوا هنا معي في المنزل على صدق ما أقول وهم السيد أوبيان والسيد آربلو وابن عمي الجنرال آروبي.

لا جدوى من الاعتذارات أو المزيد من التفسيرات. كنت في حالة من الوهم وكنتُ سبباً في كثير من الحزن العقيم لزوجتك ولك، وهذا ما أعتذر عنه. بيد أنني لم أتصرف بدافع الشر، وإنما بدافع من عاطفة رومانسية قديمة أرى الآن أنها لا تمت بصلة إلى ما هو قائم في الوقت الحاضر. وعند هذه النقطة كـان ينبغي أن أضيف

(وهو شيء جلي آخر) أنني لم أر زوجتك بالطبع ولم أتصل بها بأية وسيلة منذ أن كانت فتاة شابة، وأن لقاءنا الأخير كان مصادفة بحتة.

وإني لعلى ثقة، كما أفترض أنك ما دمتَ رجلاً عاقلاً عادلاً فإنك لن تتخذ أي موقف انتقامي من زوجتك البريئة كل البراءة. وهذه مسألة على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة لي. ولابن عمي، ولأصدقائي. كانت زوجتك وفية لك تماماً قولاً وفعلاً، وهي جديرة باحترامك وامتنانك. أما فيما يتعلق بي فأعتقد أنك تشعر بأنني عانيت ما يكفي من إذلال، ولا أقل من ذلك في وعيي بحماقتي.

المخلص

تشارلز آروبي

كان من الخير أن أتيح لي ذلك الوقت الإضافي، إذ استغرقت المساء كله في كتابة هذا الخطاب. وقد كان ـ بكل تأكيد ـ خطاباً عَسير الكتابة، كما كنت أبعد ما أكون عن الرضا عن النتيجة النهائية. كانت صياغتي الأولى أكثر رغبة في القتال بشكل ملحوظ، غير أن جيمس الذي أطلعته عليه، أشار عليّ بأنني لو اتهمت «بن» بالشراسة والطغيان فإن هذا سيوحي في الحال بأن هارتلي هي التي قالت ذلك. ولن أستطيع تبرير تصرفاتي على هذا الأساس دون أن أوجه طعناً إلى «الولاء الكامل» الذي أحنث به بعد أن أقسمت على أن هارتلي قد أظهرته. هذا الخوف ترك ـ بالطبع ـ دفاعي عن الذات وكأنما لا وجود له، وكنت مدركاً تمام الإدراك، دون أن يذكر جيمس ذلك لي ـ أن كلاً منا ـ أنا وبن ـ لو عشنا في عصر آخر لكان علينا أن نتقاتل حتى الموت وفقاً للتقاليد ولضميرينا المتمسِّكيْن بالشرف. في عصر آخر، وفي حالة رجل مثل «بن»، قد يحدث ذلك في هذا العصر أيضاً. وكانت «اعتذاراتي» الهزيلة عَسِرة الصياغة أيضاً، ما دام كان عليّ أن أزحف بما فيه الكفاية للاستعطاف، إذ كان «بن» مهيئاً للصفح، ولكن ما كان عليّ أن أتمادى في هذا الاستعطاف بحيث أبدو

خليقاً بالإهمال إذا آثر «بن» أن يقاتل. وما كنت أستطيع أن أرجو سوى أن يُضْعف إحساس «بن» بالذنب من غرائزه العدوانية. وإشارتي الفخمة إلى «ابن عمي وأصدقائي» كانت فكرة جيمس، وإن كان التأكيد الزائف بأنهم كانوا حاضرين «طيلة» إقامة هارتلي، كان من بنات أفكاري. وكان جيمس يظن أن الحضور المبهم لجماعة كبيرة من الأشخاص منزّهة عن الغرض يمكن أن يُشْعر «بن» بأن إجراءاته يشهدها جمهور، وبذلك يمكن أن تخفف من عنف ردود أفعاله. ولم أكن أعتقد هذا. ذلك أن سلوكه يمكن أن يكون موضع «اهتمام عميق» لكل أنواع الأشخاص المحترمين، فيما عداي، ولكن ماإن يغلق الباب الأمامي على الزوجين حتى يفعل «بن» ما يشاء. ولم يكرر جيمس طلبه للسماح له بالحديث إلى هارتلي. وقد فات أوانه، على كل حال. وأسقط جيلبرت رسالتي من خلال صندوق الخطابات في النيبليتس حوالي الساعة العاشرة ذلك المساء.

أنفقت برهة قصيرة مع هارتلي. وكان الموقف غاية في الغرابة. أخبرتها بأنها ستعود إلى البيت غداً. فأومأت برأسها، وطرفت بعينيها في ذكاء. فسألتها إن كانت تريد النزول إلى الطابق الأرضي لتناول العشاء مع الآخرين فاعتذرت، وكان ذلك مبعثاً لارتياحي. جلسنا على أرضية الحجرة، ولعبنا الورق، نوعاً من اللعب اخترعناه لأنفسنا عندما كنا طفلين. وأوى كل من في المنزل إلى فراشه مبكراً.

- ٥ -

كان اليوم التالي من أسوأ أيام حياتي، بل لعله أسوأها جميعاً. استيقظت وكأنما لألاقي تنفيذ حكم بالإعدام - ولم يكن لأحد شهية للفطور فيما عدا تيتوس. واستمر الطقس القائظ الخانق مصحوباً الآن بدمدمات بعيدة للرعد.

كانت هارتلي تبدو بشعة. إذ زيَّنت وجهها بعناية خاصة، وجعلها هذا تبدو أكبر من سنها بصورة تدعو إلى الشفقة. وكان ثوبها الأصفر قذراً،

متجعِّداً، ممزقاً، فما كنت أستطيع أن أعيدها إلى زوجها في عباءتي، ففتشت في ثيابي وعثرت على نوع من سترة زرقاء للبلاج تصلح للجنسين، فطلبت منها أن ترتديها. كما وجدت أيضاً وشاحاً فاتحاً يمكن أن تغطي به رأسها. كان الأمر أشبه بإلباس طفل. ولم يجرؤ أحد منّا على إطالة الحديث مع الآخر. فأنا الآن أريد أن تنتهي المسألة كلها، وما كنت أحتمل فكرة أن تقول الآن: «لا أظن أنني أريد الذهاب بعد هذا كله»؛ وكان الدافع إلى الصراخ بهذه العبارة: «كفى!» يسبِّب لي ألماً كنت أريد التخلص منه بإلحاح. ولعلها كانت تشعر بالشعور نفسه. وفي إحدى اللحظات طاف بذهني هذا الخاطر: لماذا، إن الأمر أشبه تماماً بما كان حينئذ. فعلت كل ما كان بوسعي من أجلها، كل شيء. وها هي تتركني. وضعت أدوات زينتها في حقيبة من البلاستيك، كما وضعت الحجر الوردي المرقَّش مع الشرائط البيضاء التي أعطيتها لها (والتي كان من الواضح أنها لم تنظر إليها منذ ذلك الحين). لم تتفوه بشيء، ولكنها راقبتني وأنا أضع الحجر في الحقيبة. وصاح جيلبرت بأن السيارة على استعداد.

وبينما كانت هارتلي في حجرة الحمام نزلت على الدرج حاملاً الحقيبة، وانتظرت في الصالة. وكانوا قد قرروا أن ما يسميه برجراين «بالوفد» ينبغي أن يستقل سيارة برجراين «الألفا روميو» البيضاء. وكان جيمس وبيري وتيتوس في الخارج بالفعل. وخرج جيلبرت من المطبخ. وقال لي: «تشارلز، حدث شيء عجيب، ليلة أمس، لم أخبرك به».

- «ماذا؟».

- «عندما سلمته ذلك الخطاب في مقره، أظن أنني سمعت صوت امرأة تتحدث في الداخل».

- «لقد كان التلفزيون».

- «لا أظن ذلك. تشارلز، لن يكون هناك قتال، أليس كذلك؟ أعني

طلبه منا ألا نأتي إلا اليوم. لعله قد حشد أصدقاءه جميعاً ليضربونا».

خطرت لي هذه الفكرة أنا أيضاً. «ليس لديه أصدقاء». أيكونون زملاءه في فصل النجارة؟.

وشرعت هارتلي في نزول الدرج. دفعت جيلبرت، فخرج من المنزل. سارت متثاقلة متشبثة بالدرابزين، وكأنها تجد صعوبة في المشي. وكانت تضع الوشاح على رأسها، كما أردتها أن تفعل، وكانت الظلال تغشي وجهها. كنت أحب أن تضع نقاباً. هذه لحظتنا الأخيرة، ثانيتنا الأخيرة، معاً على انفراد. أخذت يدها، وضغطت عليها، ولثمت وجنتها، وقلت، وكأنه أمر طبيعي جداً: «إنه ليس وداعاً. وستأتين إليّ، وسأكون في انتظارك». هصرت يدي، ولكنها لم تقل شيئاً. لم تكن ثمة دموع في مآقيها. وإنما كانت عيناها تنظران بعيداً. خرجنا معاً إلى الممر المؤدي إلى المنزل، وكان الآخرون ينتظرون عند السيارة. وكان المشهد غريباً وكأنه خروج عروس وعريسها.

كانت العيون جميعاً تتجنب النظر إلينا ونحن نقترب من السيارة. ولم أكن قد رتبت الجلوس في السيارة. ففتح تيتوس الباب الخلفي، ودفعت هارتلي إلى الداخل وتبعتها، ثم جلس تيتوس بعدي. أما الثلاثة الآخرون فتدافعوا إلى الجزء الأمامي. وأسدلت هارتلي وشاحها لتواري وجهها. ولم يلتفت الثلاثة الجالسون في المقدمة وراءهم.

قال برجراين، وكان يتولى القيادة، «الطريق مستقيم إلى الأمام. ثم إلى اليمين؟».

قال جيلبرت: «إنه يخترق القرية. سأقوم بتوجيهك».

كانت هارتلي ملتصقة بي. وكانت متصلبة، متصلبة. وتيتوس متصلب متخشّب هو الآخر، عيناه محملقتان دون أن تريا شيئاً، وثغره الوردي مفتوح قليلاً. وكنت أستطيع أن أشعر بتنفسه السريع. وما من أحد إلا وكان

يحدِّق أمامه في خط مستقيم. شبكتُ يديّ معاً. وكانت الشمس ساطعة. وكان اليوم مشرقاً خليقاً بحفلة عُرْس.

كنا نقترب من الصخور الضخمة التي يشقها الطريق في ممر ضيق، وهو المكان التي كنت أسميه «ممر خيبر»، حين ضرب حجر زجاج السيارة الأمامي بقوة غريبة. وفي لحظة اندفع كل من في السيارة إلى الخارج أياً كانت حالة الذهول التي كان فيها. ثم خبط السيارة حجر آخر، يتلوه آخر. توقف برجراين. وكان من الممكن أن يسرع قائد آخر، أما پيري فلم يكن من ذلك الطراز. «ماذا هناك بحق الجحيم؟ ثمة أشخاص يقذفوننا بالحجارة، إنهم يقذفون متعمدين». وخرج من السيارة.

كنا الآن في الممر الذي تعلوه الصخور الصفر على كلا جانبيه. وكان جيمس يقول شيئاً لبرجراين، ربما كان يخبره بأن يعود إلى السيارة. وكان لدى وقت للتفكير: لقد أعد «بن» كميناً ذكياً. حين اختار المكان الملائم. وفجأة تناثر زجاج السيارة الأمامي، إذ دُفِعت صخرة ضخمة من الحافة العليا فسقطت فوقها مباشرة، فاستحال الزجاج إلى اللون الأبيض محدثاً أزيزاً، ثم تشقق وصار معتماً. وقفزت الصخرة على الرادياتور، فبعجته، وانطلقت فوق الطريق. وأطلق برجراين صيحة غضب.

وكان تيتوس قد وثب خارجاً من السيارة، فتبعته. أما جيلبرت فظل في مكانه. وانتقل جيمس إلى مقعد السائق، وبمنديل لفَّه حول يده، أحدث ثغرة في الزجاج بلكمة منه. ثم خرج بدوره.

وصاح برجراين مشيراً إلى أعلى: «هناك! هناك!».

وطارت صخرة إلى جوار رأسي فرفعت بصري، ولمحت روزينا على مهاد من السماء الزرقاء. كانت راكعة بإحدى ركبتيها على قمة صخرة من أعلى الصخور، ومن الواضح أنها زوَّدت نفسها مقدماً بترسانة من الصواريخ.

كانت سوداء، ساحرة سوداء، ترتدي شيئاً يشبه شال امرأة ريفية. ورأيت ثغرها المزموم وأسنانها. وسرعان ما أصبح من الواضح أن هدفها الرئيسي هو برجراين. إذ أصابه حجر في صدره، وآخر في كتفه.

وبدلاً من البحث عن الاحتماء، ردَّ على النيران، وهو يجأر متوجعاً. وتطايرت الأحجار حول رأس روزينا، غير أنها لم تُصَب بشيء منها.

قال جيمس بنبرته المتبرِّمة: «من تكون تلك السيدة؟».

- «إنها زوجة برجراين السابقة».

- «أتريد أن تعوقنا عن التقدم؟».

- «بيري،إرجع إلى السيارة! إرجع إلى السيارة!»، وقبضت على ذيل سترته. فانتزع نفسه من يدي غاضباً وانحنى ليلتقط مزيداً من الذخيرة.

وخبطني حجر خبطة موجعة فوق رأسي فهرعت عائداً صوب السيارة.

- «روزينا! روزينا» وكان تيتوس يصرخ، ملوِّحاً بيديه. كانت أشبه بصرخة حرب. كان يأتي بحركات، ويرقص، غير أنني جررته معي. وأمسك جيمس بيري. وفي لحظة كنا جميعاً داخل السيارة، فأسرع بنا برجراين بعنف. وانطلقت السيارة قدماً إلى الأمام، ثم انعطفت في المنحنى حيث كان طريق القرية يتفرع داخل اليابسة.

هنا أوقف برجراين السيارة بارتجاجة عنيفة، ثم ذهب إلى المؤخرة وعاد برافعة انهال بها بعنف على ما تبقى من لوح الزجاج الأمامي، فانهمرت علينا جميعاً شظايا زجاجية بيضاء. وفحص انبعاج الراديـاتور، ثم قـال: «بحق الجحيم ماذا تفعل تلك العاهرة اللعينة هنا؟» غير أن لهجته لم تكن تتطلب جواباً. وبعد برهة قصيرة قال متفكراً. «لقد كانت تمارس لعبة الكريكيت في المدرسة».

تركني العنف العجيب الذي اتسمت به هذه الحادثة مذهولاً، ورجعت بصدمة عليلة إلى شعوري الحاد بهارتلي التي لم تتحرك خلال الحدث كله،

بل بدت وكأنها لم تلحظ ما يحدث. وبغتة تذكرت ما قاله جيلبرت عن سماعه لامرأة تتكلم في البانجالو الليلة الماضية. هل قامت روزينا بتنفيذ تهديدها الفاحش فذهبت لـ «عزاء» «بن»، وإذا كان الأمر كذلك،فهل هذا هو السبب الذي جعل «بن» غير مستعد لاستقبال هارتلي في الليلة الماضية؟ كيف عرفت روزينا أننا سنأتي إن لم يكن عن هذا السبيل؟ هذه الفكرة ملأتني بغضب مضطرب لا حول له ولا قوة.

كنا الآن قد اجتزنا القرية، وخلّفنا وراءنا الكنيسة التي تحدثت فيها بذلك الحياء الشديد مع هارتلي منذ أمد بعيد، ودرنا حول التل متجهين إلى الشاليهات. وكان برجراين الذي يقود السيارة بوحشية، أحمر الوجه، مستغرقاً تمام الاستغراق في أفكاره بحيث لم يشترك اشتراكاً إيجابياً فيما تلا ذلك من إجراءات، وبدا عليه أنه لا يكاد يدري ما يدور حوله.

عندما تخيلت هارتلي ذاهبة إلى بيتها لم أتخيل أنني أفتح باب السيارة وأدعوها إلى الخروج، وأسحب مزلاج البوابة، وأسير في الممر، وأهتف في أية لحظة أثناء تلك الإجراءات: «كلا! كفى!» وأمسك يدها وأجرّها بعيداً. لم أفعل شيئاً من ذلك. ولم ألمسها. انخلعت من الوشاح ومن السترة الزرقاء، وانسلت بسرعة من السيارة. فتحت لها البوابة، وتبعتها في الممر. وسار جيمس في أعقابنا، ثم تيتوس وقد بدا عليه الخوف، وكذلك بدا جيلبرت خائفاً، وأخيراً برجراين وقد استولى عليه نوع من الغضب الخاص.

دقت هارتلي الجرس. وقبل أن يتعالى رنينه العذب انطلق وابل من النباح الوحشي أعقبه صوت سباب بشري. وخبط باب بعنف وصار النباح أبعد عن السمع. ثم فتح «بن» الباب فظننت أنه يجب أن يدعها تدخل، ثم يغلقه مرة أخرى، غير أنني تمشياً مع أوامر أصدرها جيمس دخلت بسرعة في إثرها، وجاء الآخرون ورائي.

وكذلك لم أتخيل المشهد داخل المنزل، أو على قدر ما تخيلته، تصورت

مشادة فورية أو مجلساً وقوراً، وكلاهما تحضر فيه هارتلي. غير أن ما حدث كان شيئاً مختلفاً، فما إن دخلت هارتلي من الباب حتى اختفت. ففي لحظة تسللت مثل فأر، ودخلت حجرة نومها، وأغلقت الباب (أعني حجرة النوم الرئيسية لا الحجرة الصغيرة التي تحدثت فيها إلى «بن»).

أما الكلب الذي يبدو أنه حيوان ضخم فقد استمر في نباحه كأنه مصاحبة لما يدور في الصالة. وانسحب «بن» إلى باب حجرة الجلوس. وكان جيلبرت يتكىء على الباب الأمامي الذي أغلق الآن، على حين كان برجراين يفحص غاضباً صورة الفارس الذي يلبس الدرع، وجيمس ينظر إلى «بن» في شيء من الاهتمام، بينما كان كل من بن وتيتوس يحملق أحدهما في الآخر.

كان «بن» أول من تكلم: حسناً، ها أنت ذا يا تيتوس».

- «هاللو».

- «حضرت إلى البيت مع ماما، ستمكث هنا الآن؟».

كان تيتوس صامتاً، مرتعشاً، يعض على شفته.

- «ستمكث هنا الآن، هيه؟، هيه؟».

هزّ تيتوس رأسه، وقال في همسة مختنقة، «كلا... أظن أنني سأمكث... بعيداً».

قلت: «ليس تيتوس ابني، غير أنني أقترح تبنيه». تهدج صوتي من شدة العصبية، وبدت الكلمات غير مقنعة، بل طائشة. فتجاهلها «بن». وأتى بتلك الحركة العنيفة التي تطرح ما قلت جانباً، وهو ما يزال يحملق في تيتوس. أما تيتوس فقد أجفل.

كان «بن» أقصر الحاضرين من الرجال، ولكنه كان أقواهم بنية من الناحية الجسمانية.. كان عنقه شبيهاً برقبة الثور، وكتفاه الضخمتان تكادان تمزقان القميص الكاكي القديم الذي ضاق بهما الآن. وكان حزامه الأسود مشدوداً بإحكام على كرشه المستدير قليلاً، غير أنه كان يبدو في لياقة

تامة. كان يتوهج بلفحة الشمس، وشعره الفئراني القصير ينتصب كالفراء، وكانت لحيته قد حُلقت لتوّها. أما يداه فكانتا متدليتين إلى جنبيه، وقد أخذ يهز أصابعه، ويشرئب قليلاً على أطراف قدميه وكأنه على وشك أداء مجهود بدني. كانت الصالة فاسدة الهواء، كما أذكرها، غير أن رائحتها كانت مختلفة، كانت أقذر. ولاحظت وجود عدد من الجفان التي تحتوي على ورود ميتة. وقد أخلد الكلب الآن إلى الصمت.

قلت: «هل قرأت رسالتي؟».

فلم يعرني «بن» التفاتاً، وإنما كان ينظر الآن إلى جيمس، وكان جيمس ينظر إليه. كان جيمس مقطب الجبين مستغرقاً في التفكير، ولم يلبث أن قال:

- «الرقيب الأول (ستاف سرجنت) فيتش».
- «نعم، هذا صحيح».
- «المهندسون الملكيون».
- «هذا صحيح».
- «كنت ذلك الشخص الذي أبلى بلاءً حسناً في الأردن Ardennes».
- «هذا صحيح».

قال جيمس: «أحسنت العمل».

وتصلب وجه «بن» ربما ليكبت انفعالات تريد الظهور، أو حتى ومضة عابرة من الرضا. «أنت ابن عمه؟».

- «أجل».
- «أما زلت في الخدمة؟».
- «نعم، وإن كنت متقاعداً بالفعل».
- «تمنيت أن أبقى في الخدمة».

وسادت لحظة من الصمت وكأنهما كانا يفكران في الماضي، وعلى وشك تبادل الذكريات. ثم قال جيمس في شيء من العجلة: «أنا آسف لهذه

المسألة التي تجري الآن. أنا... لم تكن غلطتها على الإطلاق، إنها بريئة تماماً، ولم يحدث شيء وأنا أعطيك كلمة شرف».

قال بن بلهجة تخلو من أي تعبير: «فليكن». وأتى بحركة من رأسه وكتفيه تشير إلى صَرْفنا.

إستدار جيمس إليّ، في شيء من الرِّقّة، وكأنه رئيس اجتماع يسأل في لباقة متحدثاً متميزاً إن كان لديه ما يريد أن يضيفه. لم أستجب لنظرته، بل استدرت للانصراف. وفتح جيلبرت الباب، وسار برجراين إلى الخارج، يتبعه جيلبرت ثم تيتوس، وأنا، وأخيراً جيمس. وأغلق الباب برفق وراءنا.

وقبل أن أصل إلى السيارة أدركت أنني ما زلت أحمل الحقيبة البلاستيك التي تحتوي على أدوات زينة هارتلي والحجر الذي أهديتها إياه. فاستدرت بطريقة آلية، وحاول جيمس أن يمسكني، ولكنني أفلت منه وسرت بخطى منتظمة عائداً إلى الممر. كان من الضرورة الملحّة النابعة عن شيء من التطير أن أترك تلك الحقيبة مع هارتلي، لا أن آخذها منها إلى «شراف إند» لتكون نوعاً من التذكار المنحوس الجامع لحثالة الشياطين. ولم يخطر على بالي إلا فيما بعد أنني كنت أستطيع أن أتركها على عتبة الباب. قرعت الجرس وانتظرت. وبدأ النباح الوحشي من جديد. وصاح بن: «إخرس، أيها الشيطان!».

وبعد لحظة أو لحظتين فتح الباب. وكان القناع الخالي من التعبير قد ولّى. وعلا وجهه تقطيب ينم عن الكراهية. فأحسست بأن هناك نوعاً من الطيش فيما أفعله، وإن كان لا بد من فعله. كما أدركت أيضاً أنني كنت أقاطع المشهد التالي، فقد كان باب حجرة النوم مفتوحاً.

قدمت إليه الحقيبة: «هذه أشياؤها. آسف، نسيت أن أتركها».

تناول بن الحقيبة وقذف بها بعيداً وراءه في الصالة حيث ارتطمت وقرقعت. ودفع رأسه المقطّب الساخر خارج الباب في وجهي، فارتددت

إلى الوراء. «ابق بعيداً وإلا قتلتك. وأخبر ذلك الطفل الوضيع أن يبتعد أيضاً. سأقتلك!».

وخبط الباب بعنف جعل الجرس يصلصل. وكان الكلب يصرخ الآن تقريباً. عدت من الممر واجتزته إلى السيارة حيث لم تكن كلمات «بن» مسموعة.

كان جيلبرت وتيتوس يجلسان في الخلف. وكان المقعد مغطى بأحجار بيضاء معتمة أشبه بلآلىء ضخمة. قلت: «ما هذه المادة؟»..

قال جيمس: «لقد تحطم الحاجب الزجاجي، ألا تتذكر؟ والآن، دعنا نعود إلى البيت، يا برجراين؟».

بدأت السيارة في السير، وهدرت صاعدة التل، وانعطفت هابطة التل، وهي تمضي بسرعة شديدة. وهب الهواء بعنف من خلال النافذة الأمامية المفتوحة. ولم ينطق أحد بشيء.

وعندما اقتربنا من الوصلة مع الطريق الساحلي قال تيتوس: «هل تسمح بالتوقف؟ أود أن أسير ابتداءً من هنا».

توقف برجراين بهزة عنيفة ألقت بنا جميعاً إلى الأمام. وشرع تيتوس في الخروج.

صحت في وجهه وتشبثت بقميصه: «تيتوس، إنك لن ترجع إلى هناك؟.

«كلا!» وانفتل خارجاً وقال وهو ينعطف بعيداً. «سأغدو عليلاً، إذا أردت أن تعرف». وشرع في المسير متجهاً إلى الميناء. وانطلق برجراين مرة أخرى، وهو يقود بعنف.

قال جيلبرت لجيمس: «ما هذا الذي حدث في الآردن، وكنت تتحدث عنه؟».

كان جيمس يبدو يقظاً ومسروراً إلى حد ما. ويبدو أن لقاءه بـ «بن» جعل

مزاجه رائعاً. قال: «إنها حكاية غريبة. كان الجندي فيتش أسيراً في معسكر في الأردن، ولا بـد أنه أُسِـرَ عام ١٩٤٤. ولم يكن هنـاك أي ضبـاط في المعسكر، وأظن أنه كان أعلى الجنود رتبة (الضابط غير المنصوص N C O)، أو كان يتولى القيادة على كل حال. وفي مايو ١٩٤٥ عندما كان الألمان على وشك الجلاء عن المعسكر قبل وصول قواتنا شن حرباً خاصة من تلقاء نفسه. واستطاع أن يفرض نفسه على كل إنسان. وكانت معه جماعة من الأشاوس بـين الأسرى، وهكذا انضم إليـه الجميع، وكـان التنظيم جيـداً، قطعـة كلاسيكية تماماً من التخطيط، فقاموا بتخريب وسائل النقل، وأظن أنهم نهبوا قطاراً بأكمله، واستولوا على أسلحة وشرعـوا يطلقـون النار عـلى الألمان. وكانت معركة وحشية إلى حد ما، ومن المحتمل أنهم ارتكبوا بعض الثارات الشخصية. وعلى كل حال، عندما وصلت قواتنا كان الألمان الباقون على قيد الحياة هم الأسرى، وتمكن الشاب فيتش من وضع المعسكر كله تحت رحمته، وكان يقف عند البوابة للترحيب بنا. وكان هذا كله تمريناً بارعاً على الشجاعة الشخصية والمبادرة. وثار جدل بسيط حول «الوحشية غير اللازمة»، غير أنه سرعان ما تلاشى. وفاز بوسام عسكري».

قال جيلبرت: «أكنت هناك؟».

ـ «كلا، كنت في مكان آخر، غير أن تجهيزاتي هي التي حررت المعسكر، وأخبرني شخص آخر بما حدث. وأذكر أنني رأيت صورة للشاب، وهو لم يتغير كثيراً. كما تذكـرت اسمه، واستقـرت الحكايـة كلها في ذاكـرتي، إذ اجتذبت خيالي. كان رجلاً شجـاعاً. ومـا أغرب أن ألتقي بـه على هـذا النحو!».

قلت: «يا له نـوعـاً مـن الشجاعة يخلو من الجاذبية!».

قال جيمس: «وكان هناك نوع دائر من الحرب يخلو من الجاذبية».

ـ «هذا الرجل قاتل».

ـ «بعض الناس يجيدون القتل أكثر من غيرهم، وليس معنى هذا أنهم أشرار. لقد تصرف كما يتصرف جندي كفيّ».

وكنا قد وصلنا إلى المنزل. وحكّ برجراين السيارة بصخرة، فتوقفت برجّة مباغتة فخرجنا منها جميعاً. ونظرت إلى ساعتي. كانت الساعة العاشرة. وما برح اليوم ممتداً أمامنا.

دخلت المنزل، واجتزت المطبخ بصورة تلقائية، ودلفت منه إلى المرجة. وكان جيمس الذي سار في إثري يقف عند باب المطبخ ناظراً إليّ. قلت له: «شكراً على معونتك. والآن وقد أنهيت مهمتك هنا أتوقع أنك ترغب في الرحيل».

قال: «حسناً، إن لم يكن في ذلك ما يضيرك، أظن أنني سأبقى حتى غد».

ـ «خذ راحتك».

مشيت عبر الصخور في اتجاه البرج، ومررت على جسر «مين». وجدت مكاناً يهبط عند حافة المياه حيث أستطيع أن أشاهد ما يدور داخل خليج الغراب الأسحم. وكانت ريح حارة تهب عليه من البحر، والجو ينذر بارتفاع طفيف في الموج، وإن كان أقل إنذاراً بالرعد. لعل العواصف قد مضت.

كانت يدي تؤلمني في الموضع الذي أصابه حجر روزينا. وبدأت كدمة زرقاء في الظهور. وألفيت نفسي أتفصد عرقاً غزيراً. وكانت الريح الساخنة تجفف قميصي وسترتي القطنية، وكان كل منهما يلتصق بظهري. خلعت السترة وفتحت أزرار القميص. وكانت هناك غمامة تجثم فوق الخليج، والماء شاحب الزرقة يحف به شريط بديع من الأمواج المتكسرة. وكانت جلاميد الصخر المستديرة الضخمة تبدو ساخنة، وكأن الحرارة المختزنة التي كانت تنفثها تَرِفُّ رفيفاً مرئياً. وكانت تلوح عليها نظرة مهيبة تكاد تكون دينية. وبقع أعشاب البحر الصفراء الداكنة تبدو أشبه بالحروف الهيروغليفية. وعبر

الذراع الأخرى للخليج كانت تتناثر في البحر نقط أرجوانية. جلست واضعاً قدميّ في متناول المد المرتفع والماء المتساقط الذي كان يقذف الصخور الصفر برشاش من زَبَد سريع الجفاف. وأحسست أنني تصرفت بحماقة في المشهد الأخير، وانتابني الحزن عندما فكرت أنني في علاقتي بمثل هذا الأمر الجلل قد بدوتُ سخيفاً مضحكاً.

تناهى إلى سمعي وقع أقدام خافت وأبصرت ظلاً، وجاء جيمس فجلس بجانبي. ولم أعره التفاتاً، وجلسنا برهة صامتيْن.

وأخذ جيمس يعبث بأصابعه بالصخور، ويلتقط أحجاراً صغيرة يلقي بها في الماء. وأخيراً قال: «لا تمعن في القلق، أعتقد أنها ستكون على ما يرام، أنا متأكد أنها ستكون كذلك».

- «لماذا؟».
- «هذا تقديري العام للموقف».
- «فهمت».
- «وكذلك تلك الحكاية الغريبة».
- «أتظن أن احترام الصول فيتش للجنرال آروبى سيكون بحيث...؟».
- «ليس هذا بالضبط. ولكن المسألة تبدو وكأن شيئاً ما حدث بيننا».
- «تخاطر عسكري».
- «شيء من هذا القبيل، على ما أظن.. من الصعب التعبير عنه... عِرق من الشرف قد مُسَّ...».

قلت: «أوه، هراء. إنه شيء مضحك، يا جيمس، ولكن كلما بدأت في الكلام عن الجندية. يبدو لي أنك أصبحت غبياً تمام الغباء. إنه الغرور العسكري، على ما أظن».

ران علينا الصمت فترة أطول. وعثرت بدوري على أحجار قليلة،

وألقيت بها في الماء بعد أن فحصت كلاً منها لأرى إن كانت جديرة بأن تُحْفَظ. وتخيلت أن «بن» سيرمي عاجلاً ذلك الحجر الجميل القابع في الحقيبة البلاستيك. ربما ألْقَمَهُ الكلب. وأحسست بالأسف من أجل هذا الكلب.

قال جيمس: «أرجو ألا تشعر بأنني أثَّرت عليك بأية طريقة ضد حكمك الأفضل؟».

- «كلا». ولم أكن أريد أن أجادل في هذه النقطة. طبعاً، لقد أثَّر عليّ. ولكن ماذا كان حُكْمي، هذا إذا غضضنا الطرف عن حكمي الأفضل؟.

- «ماذا تنوي أن تفعل فيما يتعلق بتيتوس؟».

- «ماذا؟».

- «ماذا تنوي أن تفعل فيما يتعلق بتيتوس؟».

- «لا أدري. من المحتمل أن يرحل».

- «لن يفعل ذلك إذا تمسكت به، ولكن عليك أن تتمسك. يقول إنه يريد أن يكون ممثلاً؟».

- «أخبرني بذلك، وفي هذا من الغرابة ما فيه».

- «هل تستطيع أن تلحقه بمدرسة للتمثيل؟».

- «ربما».

- «سيكون تيتوس مشغلة لك».

- «شكراً على تفكيرك في مشاغلي».

- «أظن أنك ستترك هذا المنزل الآن؟».

- «ولماذا ينبغي عليّ أن أفعل ذلك بحق الجحيم؟».

- «حسناً، ألن يكون ذلك أفضل...؟».

- «هذا بيتي. وأنا أحب هذا المكان».

- «أوه... هاه...».

وألقينا بضع أحجار أخرى.

- «هل أستطيع أن أمضي في الكلام، يا تشارلز؟».

- «نعم».

- «كنت أفكر. . . هل أنت متأكد أن ذلك لن يضيرك؟».

- «أوه، واصل حديثك، ماذا يهم».

- «يستطيع الزمن أن يفصلنا عن واقع الناس، يستطيع أن يباعد بيننا وبين الناس ويحيلهم إلى أشباح. أو بالأحرى نحن الذين نقوم بإحالتهم إلى أشباح أو شياطين. بعض أنواع المشاغل العقيمة بالماضي يمكن أن تخلق مثل هذه الصور الزائفة التي تستطيع أن تمارس سلطانها، مثل أولئك الأبطال الذين قاتلوا في طروادة من أجل طيف اسمه هيلين».

- «أتظن أنني أحارب من أجل طيف اسمه هيلين؟».

- «أجل».

- «إنها حقيقية بالنسبة لي. أكثر حقيقية منك. كيف يمكن أن تهين إنسانة معذَّبة شقية بأن تدعوها شبحاً؟».

- «أنا لا أدعوها شبحاً. إنها حقيقة، كسائر الكائنات البشرية الأخرى، غير أن الحقيقة التي هي عليها توجد في مكان آخر. إنها لا تتطابق مع شخصية أحلامك. إنك لم تكن قادراً على تحويلها. وينبغي أن تعترف بأنك حاولت وأخفقت».

لم أقل شيئاً ردًّا على هذا الكلام. من المؤكد أنني حاولت وأخفقت في صُنْع شيء؟ ولكن ماذا، وماذا يُثْبت هذا الإخفاق؟.

- «وما دمت قد حاولت، ألا تستطيع الآن أن تهدأ بالاً؟ لا تعذِّب نفسك بعد الآن بهذه المسألة. أجل، كان لا بد لك من أن تحاول، أما الآن فقد انتهى كل شيء، وأنا على يقين من أنك لم تُلْحق بها ضرراً مستديماً. فكِّر الآن في أمور أخرى. هناك جريمة في الجيش تسمّى تعمد المرء أن يجعل من نفسه شخصاً غير لائق بالخدمة. لا تفعل هذا. فكِّر في تيتوس».

- «لماذا تصر على إقحام تيتوس في الحديث؟».

- «متأسف. ولكن، بكل جدية، حاول أن تنظر إلى المسألة على هذا النحو. إن حبك لهذه الفتاة - عندما كانت فتاة - وضعته الصدمة في حالة من الحيوية المعلّقة. وأفضت بك الآن صدمة لقائك بها مرة أخرى إلى استحضار جميع مشاعرك القديمة نحوها. إنها تمثيلية ذهنية، وربما كانت ضرورية، أعني أن لها ضرورتها الخاصة، ولكنها ليست مثل ما تفكر فيه. وبالطبع لا تستطيع أن تجتازها في الحال، غير أنك في أسابيع قلائل، أو شهور قلائل، ستكون قد استعرضتها كلها، وأمعنت فيها النظر مرة أخرى، وشعرت بها كلها من جديد، وتخلّصت منها. إنها ليست شيئاً أبدياً، كل ما هو إنساني لا يمكن أن يكون أبدياً. الأبدية - بالنسبة لنا - وهم. إنها أشبه بحكاية خرافية. وعندما تدق الساعة الثانية عشرة تتداعى كلها إلى شظايا وتتلاشى وستجد أنك تحررت منها، تحررت منها إلى الأبد، وأنك تستطيع أن تترك الشبح المسكين يمضي إلى حال سبيله. أما ما سيبقى فلن يكون سوى الالتزامات العادية، والمصالح العادية. وستشعر بالارتياح، وبأنك حر. أما في الوقت الحاضر فإنك ممسوس، منوّم تنويماً مغناطيسياً».

وبينما كان جيمس يتحدث، كان ينحني على الماء ويقذف بالأحجار المستوية بحيث تتواثب على السطح، غير أن الموج كان من الارتفاع بحيث يحول دون أن تقفز بعيداً. وفي أثناء مراقبتي للأحجار المتواثبة غمرني شعور بالأسى، إذ تذكرت أنني كنت أمارس هذه اللعبة مع هارتلي عند بحيرة قديمة بالقرب من منزلنا. وكانت تجيدها أكثر مني.

أجبت: «إن ما تقوله يتسم بالذكاء، ولكنه أجوف. والحب يجعل هذا النوع من علم النفس الوضيع هراءً يخلو من المعنى. ويبدو عليك أنك عاجز عن تصور أن الحب يستطيع أن يدوم. غير أن هذا الدوام ينتمي إلى طبيعته المعجزة. ولعلك لم تجد أحداً أبداً بهذا القدر من الحب».

وبينما كنت أقول ذلك تذكرت شيئاً أخبرني به توبي إِلِّسمير Toby Ellesmere في سياق ما كنت أتساءل فيه عما إذا كان جيمس مصاباً بالشذوذ الجنسي. أخبرني توبي أن جيمس كان يكنُّ عاطفة قوية لجندي مراسلة في الهند، متسلق للجبال من نيپال، قضى نحبه على نحو ما فوق جبل منها. ولا يعرف المرء شيئاً بالطبع عن غراميات الآخرين، ولن أعرف شيئاً قط عن غراميات جيمس. ولكي أغطِّي ملاحظتي الفجة، فقد مضيت قائلاً: «يبدو أنك تظن أن الماضي غير حقيقي، وأنه حفرة غاصة بالأشباح. غير أن الماضي بالنسبة لي هو أكثر الأشياء حقيقة من بعض الوجوه، والوفاء له أهم شيء على الإطلاق. إنه ليس مجرد حالة طرطشة عاطفية نحو شعلة قديمة. إنه مبدأ حياة، إنه مشروع».

ـ «تعني أنك ما زلت تؤمن بفكرتك بعد أن حاولتها، بعد أن اعترفت بأنها تريد أن تعود إلى البيت، وبأن من الأفضل لها أن تعود إلى البيت؟».

ـ «أجل. وهذا هو ما يدعوني إلى البقاء هنا. ينبغي عليّ أن أنتظر. ينبغي أن أرابط في موقعي. وستعرف أنني سأنتظر، أنني سأكون هنا. ولديها هي أيضاً هواجسها. وكان لا بد أن تعود الآن لأن كل شيء كان يقع بسرعة فائقة. أما بعد هذا فسوف تفكِّر، وستجد أن السلسلة قد انكسرت على كل حال. وستأتي إليّ هنا، عاجلاً أو آجلاً، أعرف أنها ستأتي. ولقد أتت من قبل. وستأتي مرة أخرى».

ـ «وإذا لم تأتِ؟».

ـ «سأبقى إلى الأبد، هذا واجبي، وهذا موقعي. سأبقى حتى النهاية. أو بالأحرى... سأنتظر. وسأبدأ المسألة كلها ببساطة من البداية مرة أخرى».

ـ «تعني خطة الانقاذ؟».

ـ «أجل. وكف عن إلقاء تلك الأحجار».

قال جيمس: «آسف. لقد اعتدنا أن نفعل ذلك، هل تتذكر، عند تلك البحيرة بالقرب من شاكستون عندما كنت تأتي لزيارتنا مع العم آدم والعمة ماريان».

- «ينبغي عليّ أن أنتظر. ستأتي إليّ هنا. إنها جزء مني، وليست نزوة ولا حلماً. عندما تعرف أناساً من الطفولة، وعندما لا تستطيع أن تتذكر متى لم يكونوا هنـاك فإن ذلك ليس وهماً. إنها نُسجت فيّ ألا تفهم كيف يمكن للمرء أن يرتبط ارتباطاً مطلقاً بشخص آخر على هذا النحو؟».

قال جيمس: «بلى. حسناً، لا بد من أن أرحل. ولا بد أن أذهب مع برجراين إلى حظيرة السيارات وأن أعود به سائقاً. أراك على الغداء. أظن أن سيكون هناك غداء».

وكان هناك غداء، وإن لم يكن ودياً بما فيه الكفاية. تناولنا سمكاً طازجاً من نوع الماكريل كان جيلبرت قد أحضره من مكان ما. كما وجد أيضاً شيئاً من الشمّار البري. وقد قام بالطهي طبعاً. لم يُقْبل على الطعام أحد فيما عدا تيتوس. وأحسست بارتياح شديد عندما ظهر، عائداً كـالكلب ليثبت أين بيته. أجل، سأقدم له العون، وسأعتز به، وسأجعل منه عملاً وموضـوعاً للانشغال، وإن كان كل منا يتحاشى النظر في عينيْ الآخر في الوقت الحاضر. نوع من الخزي مُعَلَّق فوق كل منا. كان يشعر بالخزي من والديه، من أمه التعسة التي انحدرت إلى الشيخوخة، ومن أبيه الفظ الغبي. أما أنا فكنت أشعـر بالخـزي لأني أخفقت في الاحتفـاظ بهـارتـلي، ولأنني أرغمت عـلى إرجاعها، عـلى أن أعيدهـا إلى ذلك الجحيم الـزوجي. نعم، لقد أرغمت على أن أفعل هذا، بواسطة جيمس على نحو ما، بـل لم يكن جيمس وحده هـو الذي أجـبرني على ذلـك، وإنما جيلبرت أيضـاً، وبرجـراين، بـل حتى تيتـوس. ولـو تُـركت وحـدي لتمسكت بـإيمـاني، ولنجحت، واستــطعت الاحتفاظ بها. لقد هبطت روحي المعنوية بسبب كل هؤلاء المتفرجين.

استرد برجراين، أو تظاهر بأنه استرد، إتزانه العدواني المعتاد. وتبادل هو وجيلبرت نوعاً من الدردشة. وكان جيلبرت ينفث الرضا المستسر لشخص خرج سالماً من مغامرة فاتنة يتطلع إلى النميمة عنها في سياق آخر. أما جيمس فكان شارداً شروداً رفيقاً، أقرب إلى الكآبة. بينما كان تيتوس خزيان حانقاً. سألت الثلاثة الآخرين متى يرحلون، وأعربت عن رغبتي في أن يكون ذلك عاجلاً، بعد أن انتهى العرض. وكان هناك اتفاق عام على أن يكون الغد هو يوم الرحيل. وستكون سيارة بيري عندئذ على أهبة الاستعداد، على أن يقوده جيمس إلى حظيرة السيارات. ووافق جيلبرت في شيء من التردد على الرحيل هو أيضاً، وإن كان احتمال جلب بعض الأخبار من لندن قد رفع من معنوياته. وبعد هذا سأكون وحدي مع تيتوس.

وبعد الغداء وضعت قائمة تسوُّق مطوّلة لجيلبرت وفقاً لاقتراحه الألمعي، وذلك حتى يتمكن من أن يزودني بالطعام والشراب في الفترة التي ما زالت فيها السيارة متاحة لي. وذهب بعد ذلك مرة أخرى إلى القرية. وانصرف تيتوس للسباحة من الصخرة. على حين رقد برجراين ـ الذي أصبح في لون المحار لامعاً بلسيون صبغة الشمس ـ على الحشائش بجوار البرج. واستقر جيمس في حجرة الكتب على الأرضية وهو ينقِّب في كتبي، ويقرأ من هنا وهناك. وعاد جيلبرت بسيارة مشحونة وبتقرير سمعه في المتجر مؤداه أن فريدي آركرايت قد وصل إلى مزرعة آمورن لقضاء إجازاته. ورجع برجراين مترنحاً إلى المنزل مصاباً بصداع أغشى عينيه وذهب للرقاد في حجرة الكتب بعد أن أسدل ستائرها. وخرج جيمس إلى المرجة، وشرع يأخذ الأحجار من الحوض ويقوم بترتيبها على الحشائش في تصميم دائري معقد. وتقدم الأصيل، قائظاً شديد القيظ، بدمدمات متجددة لرعد بعيد. وكان البحر أشبه بجيلي jelly سائل، يعلو وينخفض بحركة سميكة ناعمة كثيفة. وبعد برهة من رجوع تيتوس من ساحته بدأ مزاج البحر في التغير. هبَّت ريح

مباغتة، وأصبح المد الناعم أشد قوة، والأمولج أكثر ارتفاعاً وعنفاً. فكنت أستطيع أن أسمع هديرها في المرجل. وكان هناك صفٌ طويل من السحب المتفضة في الأفق، غير أن الشمس كانت تهبط من خلال احتفال أزرق من الضوء الذي لا تشوبه سحابة. وكان جيلبرت وتيتوس قد صعدا الآن إلى ارتفاع البرج، وجلسا في ظله الذي كان يلقيه على الحشائش. وكنت أسمعهما ينشدان أغنية Eravamo tredici.

أعلنت عامداً متعمداً هدنة لعقلي المجروح الذي طاش صوابه. كان من الواضح حقاً أن ما حدث كان من تدبير جيمس ضد إرادتي. فلو أنني أمسكت أعصابي، واحتفظت برباطة جأشي، ولو خطر لي أن آخذها منذ البداية مباشرة، لكان من الممكن أن تسلم هارتلي نفسها لي. كان من الممكن أن تستسلم، وأن تسلم نفسها أولاً بدافع من القنوط الضعيف الذي استولى على شخص قُتِل فيه كل أمل في السعادة. وكانت مهمتي وميزتي أن أعلمها الرغبة في الحياة، وسأفعل هذا رغم كل شيء. أنا، وأنا وحدي، أستطيع أن أشيع فيها الحياة؛ وكان مُقدَّراً عليّ أن أكون الأمير المنتظر. وقلت لنفسي، ربما كان من الخير أن أتركها تعود إلى بيتها، هذه المرة، لفترة قصيرة. وأسلوب الصدمة الذي اصطنعته لن يكون عبثاً على كل حال، فسوف يسنح لها وقت للتفكير، ولعقد المقارنة بين رجلين، وتطوير مفهومها لمستقبل مختلف. وهكذا، لن تذهب الدروس التي حاولت أن أعلمها هدراً. وجرعة من «بن»، بعد أن كانت معي، قد توقظها جيداً، على إمكانية الهرب، ثم على الرغبة الملحّة فيه. جرعة من «بن» يمكن أن تدفعها إلى التركيز في نهاية الأمر. وهكذا يمكن أن يكون الخير فيما حدث في واقع الأمر، لأنها يمكن أن تتخذ قرارها الواضح بنفسها، لا لمجرَّد الرضوخ لقراري. فإذا استطاعت أن تكون أقل خوفاً، وأقل شعوراً بأنها وقعت في مصيدة، فسوف تمعن الفكر، وتقرر المجيء. وكانت غلطتي هي أنني تصرفت بصورة فجائية وبلا هوادة. ما كان

ينبغي عليّ أبداً أن أوصد عليها الأبواب، هذا ما أتبينه الآن. وكان في إمكاني الاحتفاظ بها في يسر، لفترة قصيرة، بإغراءات قوية، لأستطيع بعد ذلك التأثير على عقلها. أما ما حدث فهو أن الصدمة كانت أقوى من أن تستوعب هذا كله. فقد أعطيتها دور السجينة والضحية، وهذا في حد ذاته قد خدَّر قدرات التفكير عندها. والآن، تستطيع على الأقل وهي تشعر بأنها في بيتها في تلك الزنزانة الرهيبة ـ أن تكون قادرة على التفكير. إنه لن يستطيع دائماً أن يسحق عقلها، وأن يسيطر على جسدها. سأنتظر. وستأتي. لن أترك المنزل. فقد تأتي في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار. وقلت في نفسي بعزم نهائي، أجل، وإذا لم تأتِ فسوف أفعل ما قلته لجيمس، سأبدأ المسألة كلها مرة أخرى من أوَّلها.

اقترب المساء، ودخل تيتوس وجيلبرت لإعداد الشاي، ثم ذهبا بسيارة جيلبرت إلى «الأسد الأسود». وظهر برجراين ليخفف من صداعه باحتساء الويسكي، ثم انسحب مرة أخرى. أما جيمس فقد أخذ يتجول في الخارج بحثاً عن مزيد من الأحجار لرسومه «المندالة»* Mandala، أو لرسوم أخرى أياً كانت. وحين جالت تلك الأفكار عن هارتلي في خاطري، وأحسست بأنني أقل قنوطاً بتأثيرها، تسلقت مسافة قصيرة فوق الصخور باتجاه القرية. وكنت أستطيع أن أرى رذاذ الماء الذي تلقيه الأمواج وقد ازدادت توحشاً من حافة البحر على هيئة قوس قزح، وكانت القطرات الصغيرة تبلغني في صورة مطر لطيف. تسللت إلى صدع طويل، مكان سري اكتشفته من قبل، في وقت مبكر، حيث ترسم الصخور الطويلة حرف V على نحو عميق. وكان شطر من أرضية الأخدود تشغله بحيرة ضيقة، والشطر

(★) المندالة: رمز الكون عند الهندوس والبوذيين وهي بخاصة دائرة تطوق مربعاً□ وعلى كل من جانبها رسم إله (المورد طبعة ١٩٨٦ ـ ص: ٥٥٥).

الآخر ينساب فيه غدير من الحصباء. وكانت الصخور الملساء شديدة السخونة، فأراح الدفء جسدي في ذلك المكان المغلق. جلست فوق حبات الحصى. وقلبت بعضها ظهراً لبطن. فألقيتها رطبة في أسفلها. جلست ساكناً، وحاولت أن أسْكِت عقلي. وتدحرجت حصاة من الصخرة لتسقط في غديري، فنظرت إليها متكاسلاً. وبعد لحظة أو لحظتين تدحرجت حصاة أخرى إلى أسفل. ثم أخرى. فتطلعت إلى أعلى. كان هناك رأس تحيط به يدان على هيئة إطار، تحدق إليّ من القمة فوقي. وكذلك هفهفت فوق قمة الصخرة خصلة أو خصلتان من شعر جعد كستنائي، طوّح بهما الريح. وحملقت فيّ عينان براقتان عسليتان فاتحتان، قصيرتا النظر، نصفهما ضحك، ونصفهما خوف.

- «ليزي!».

ورفعت ليزي نفسها فوق القمة الصخرية الحادة، بحيث وضعت ساقاً بنية كانت مكشوطة فعلاً، وتدمى إدماءً خفيفاً، فوق القمة، ثم طوّحت الساق الأخرى وقد أعاقتها تنورة ثوبها الأزرق - إلى أعلى ففقدت توازنها، وتزحلقت فوق سطح البحيرة الطويل الأملس.

- «أوه، ليزي!».

سحبتها وأنا أهدهدها ضاحكاً تلك الضحكة المتوجعة التي تقترب كثيراً من مزيج من السخط الضاري والدموع.

أما ليزي التي كانت تعصر الآن حافة ثوبها المبتلّة فقد أخذت تضحك هي أيضاً.

- «لقد جرحت نفسك».

-«إنه لا شيء».

ـ«لقد فقدت فردة حذائك».

ـ«إنها في البحيرة. أمن الممكن أن تناولني هذه الفردة، أم تُـراك تجمع أحذيتي؟ أوه تشارلز. . . أرجو ألا يضيرك مجيئي؟».

ـ«ألا تعلمين أن جيلبرت هنا؟».

ـ«بلى، لقد كتب إليّ. لم يتمالك من التفاخر بأنه يقيم معك».

ـ«هل طلب منك المجيء؟».

ـ«كلا، كلا، أظن أنه أراد أن يستخلصك لنفسه. غير أنني اشتقت بغتة شوقاً شديداً إلى المجيء، وفكرت، لم لا؟».

ـ«فكـرت «لم لا»، أليس كذلـك، يـا صغـيرتي ليزي. هـل تقـودين سيارتك؟».

ـ«كلا، جئت بالقطار، ثم بسيارة أجرة».

ـ«حسناً فعلت. فلن يكون هناك مكان آخر للانتظار. تعالي إلى الداخل وجففي نفسك. لا تتزحلقي مرة أخرى، هذه الصخور مضللة».

وتقدمتها صوب المنزل، عن طريق المرجة.

ـ«ما هذه الأحجار؟».

ـ«أوه مجرد نوع من التصميم يخططه شخص ما. أنت أشد نحولاً».

ـ«كنت أرمي إلى النحافة. أوه تشارلز. . عزيزي. . . أأنت بخير؟».

ـ«ولِمَ لا أكون؟».

ـ«لست أدري. . . ».

دخلنا المطبخ. «إليك هذه المنشفة». لم أكن أريد أن أتحرى عن الوقائع المبتذلة الوقحة التافهة التي عرضها جيلبرت في خطابه. وكان من الممكن أن تؤلمني الطريقة التي يمكن أن تُحكى بها القصة لو لم أكن أعاني متاعب أعظم.

كانت ليزي ترتدي ثوباً طاووسياً صيفياً أزرق مصنوعاً من نسيج فقاعي خفيف بفتحة منخفضة عند العنق على هيئة حرف V، وتنورةً واسعة. كانت

بكل تأكيد أكثر نحافة. وكان شعرها الجعد الذي تشابك بفعل الريح قد تطاير في خصلات طويلة أشبه بمجموعة من البريمات (نازعات السدادات الفلينية) البنّية، شارداً على الياقة الزرقاء اللامعة. وكانت عيناها العسليتان الفاتحتان، المرطبتان البراقتان بفعل الريح، والحنان، والارتياح، تتطلعان إليّ. كانت تبدو شابة على نحو غير معقول، تشع بالحيوية والمرح الذي لا سبيل إلى التنبؤ به، بينما كانت تنظر إليّ في الوقت نفسه بانتباه شديد، وتواضع أشد، وكأنها كلب يقرأ أدق حركات سيده. ولم يسعني إلا أن أرى الاختلاف الشديد بين هذه المخلوقة اليقظة المفعمة بالصحة وبين المخلوقة الثقيلة المضطربة التي سمحت بإبعادها عن منزلي محجّبة صامتة. ومع ذلك فإن الحب يسعى إلى غاياته الخاصة، ويميِّز، بل يخترع مفاتنه الخاصة. وإذا اقتضى الأمر فسأشرح هذا لليزي. .

بعد أن جلست ليزي على مقعد خلعت نعليها، وشبكت ساقاً عارية فوق الأخرى، وأخذت تحكم وضع تنورتها الواسعة المجرجرة الزرقاء التي أحالتها مياه البحر إلى لون أشد قتامة، وتجفف أحد قدميها.

دخل جيمس وتوقف مذهولاً.

قلت له: «زائرة أخرى. هذه صديقة من صديقات المسرح. ليزي شيرر. وهذا أحد أبناء عمومتي، جيمس آروبي».

فرحَّب كل منهما بالآخر.

ودق جرس الباب الخارجي.

ركضت، وقد لمحت هارتلي بالفعل فوق العتبة، وقد عصفت بها الرياح، مضعضعة، مرتمية بين ذراعيّ.

وغير بعيد، وقف رجل يضع قلنسوة (كاب) على رأسه: «الغسيل».

- «الغسيل؟».

- «الغسيل. طلبت من محل الغسيل أن يتصل بك. وأنا من محل الغسيل».

- «أوه يا إلهي، نعم، لا شيء في هذه اللحظة، أشكرك، اتصل مرة أخرى الأسبوع القادم أو...».

ركضت عائداً إلى المطبخ. وكان برجراين قد وصل. كان يعرف ليزي بالطبع، وإن لم تكن معرفته بها جيدة. وكانا لا يزالان يتبادلان التحية عندما دخل جيلبرت يصحبه تيتوس.

- «حبيبتي!».
- «جيلبرت!».
- «أهذه حقيبتك؟ لقد وجدناها في الخارج!».

ودق جرس الباب الأمامي مرة أخرى. أتكون هارتلي هذه المرة؟ أوه، ليتها هي.

- «الهاتف؟».
- «طلبت هاتفاً. وقد جئت لتركيبه».

وفي الوقت الذي استقر فيه رأيي على موضع تركيب الهاتف كانت الجماعة الموجودة في المطبخ تنشد كلها أغنية «الكرز طاب» Cherry Ripe.

وواصلوا الغناء. وغدونا سكارى. وكان جيلبرت قد أعد سلاطة عظيمة وقدَّم الخبز والجبن والكرز. وبدا تيتوس سعيداً كل السعادة، جالساً في الوسط وليزي متكئة على المائدة بالقرب منه تطعمه حبات الكرز. فتذكرت تلك الحجرة الخانقة في الجانب الآخر من القرية حيث كانت هارتلي تواري وجهها وتقول مرة بعد أخرى بعد أخرى «أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آسفة». تجرعت مزيداً من النبيذ، وكان هناك مقدار كبير منه اشتراه جيلبرت على حسابي. وعندما وقب الليل، وانتقلوا من غناء «اسكن معي» إلى «اليوم

الذي منحته يا رب، قد انتهى»، خرجنا جميعاً إلى المرجة. وكان التصميم الحجري الذي قام جيمس بترتيبه قد تناثر فعلاً بعد أن وطئه الناس. وأردت أن أنفرد بليزي لأشرح لها أشياء. فتقدمتها مسافة قصيرة عبر الصخور وجلسنا مختفيَيْن عن المنزل. ومنحتني من فورها واحدة من قبلاتها الطاهرة الجافة المتشبثة.

- «ليزي...».

- «عزيزي، وحبيبي، أنت سكران!».

- «ليزي، أنت صديقتي، أليس كذلك؟».

- «بلى، دائماً وإلى الأبد».

- «لماذا جئت إليّ، ماذا تريدين؟».

- «أريد أن أكون معك دائماً».

- «ليزي، هذا ما لا يمكن أن يحدث على الإطلاق، تعلمين ذلك، لا يمكن أن يحدث إطلاقاً».

- «لقد طلبت مني.. طلبتَ مني شيئاً... أنسيت؟».

- «إني أنسى أشياء كثيرة جداً. نسيت أن الحاجز قد تحطم».

- «ماذا...؟».

- «لا شيء. إسمعي يا «ليزي، إسمعي...».

- «إني مصغية!».

- «ليزي، هذا لا يمكن أن يحدث. إني مرتبط بتلك الإنسانة التعسة جداً. وستعود إليّ. ألم يخبرك جيلبرت؟».

- «كتب جيلبرت شيئاً. ولكن، أخبرني أنت».

- «لا أستطيع أن أتذكر ما تعرفينه».

- «قالت روزينا إنك مقبل على الزواج من سيدة ملتحية، وقلتَ أنت إنك التقيت بهذه المرأة من الماضي وأن ما قلته لي كان غلطة...».

- «ليزي، إني أشعر بالحب نحوك، ولكن ليس مثل ذلك الحب. أنا مقيَّد إليها، مقيَّد، إنه... شيء مطلق».

- «ولكنها متزوجة».

- «إنها ستترك زوجها وتأتي إليّ. إنه رجل شرير وهي تمقته».

- «وهي تحبك؟».

- «أجل...».

- «وهل هي حقاً دميمة للغاية؟».

«إنها... ليزي، إنها جميلة. وأتساءل هل عرفت ما يعنيه أن تحرسي أشخاصاً معينين، أن تقومي بحراستهم في قلبك ضد أي أذى أو ظلام، وتقومي بتجديدهم وكأنك إله...».

- «حتى ولو كان ذلك كله... غير حقيقي... كأن المرء في حلم؟».

- «ثمة طريقة لا بد أن يكون بها شيءٌ حقيقياً، لا يمكن أن يكون حلماً، الحب النقي يجعله حقيقة».

- «أعرف... إنك تشفق عليها...».

- «إنها ليست شفقة. إنه شيء أعظم كثيراً، أنقى كثيراً. أوه ليزى... إنه قلبي يمكن أن يتحطم به...» وألقيت رأسي فوق ركبتيّ.

- «أواه يا عزيزي...» ولمست ليزي شعري، وهي تربت عليه برفق شديد، وحنان وفير، كما يلمس المرء طفلاً أو حيواناً صغيراً وديعاً.

- «حبيبتي ليزي، أتبكين؟ لا تبكي. إني أحبك. فليحب كل منا الآخر، مهما حدث».

- «أنت تريد كل شيء، أليس كذلك يا تشارلز؟».

ـ «نعم، ولكن ليس على هذا النحو. فليحب أحدنا الآخر بطريقة حرة مكشوفة، كما قلتِ في رسالتك، حُرَّيْنِ ومنفصلين دون أن نتشبث كالمجانين. . . ».

ـ «كانت رسالة غبية. فأنا أعتقد أن التشبث كالمجانين هو الشيء الوحيد الذي أفهمه. . . ».

ـ «أما معها، مع هارتلي. . . فإنه أشبه بشيء أبدي موجود دائماً، شيء أعظم كثيراً من كلٍ منا. ستأتي إليّ، لا بد لها من ذلك. كانت دائماً معي، وهي تعود إلى موطن نفسها. وأشعر على نحو غريب أن تقاعدي، ومجيئي إلى هنا، كان هذا كله نوعاً من الزهد في العالم من أجلها. أعطيت لها معنى حياتي منذ أمد بعيد، أعطيته، وما زال في حوزتها. حتى لو لم تعلم أنها تحوزه فإنها تمتلكه».

ـ «مثل: حتى لو أنها دميمة فإنها جميلة، وحتى لو أنها لا تحبك فإنها تحبك. . . ».

ـ «ولكنها تحبني. . . ».

ـ «تشارلز، إما أن يكون هذا شيئاً في غاية الروعة وغاية النبل، وإما أنك مجنون».

ـ «عزيزتي ليزي. . أشعر أنني مفعم بالحب هذه الليلة بسببها».

ـ «لقد اكتسبته لتمنحه».

ـ «أجل، ولكن، ليس لأي شخص. عندما تشعرين أنك ممتلئة حتى الحافة بحياتك الخاصة، وبأنك ملتزمة، معطاءة، كاملة، فهذا يشعرك أيضاً بأنك في غاية الحرية. أنا لا أدري يخبّئه المستقبل يا ليزي. كل ما أعرفه هو أنه متعلق بها كله. غير أن هذا يجعل الحب الآخر واقعياً على نحو ما إذا كان موجوداً على الإطلاق، إنه نقي، لا يعرف الأنانية، ولا يسعى إلى مقابل.

أمن الممكن أن تحبي بلا مقابل، يا ليزي، وألا تطلبي شيئاً، ولا تذهبي إلى أي مكان، لمجرد أننا نحن فحسب؟».

- «إما أن تكون هذه هي الحكمة، وإما أنك تخادع. من المؤكد أنك ثمل».

- «أمن الممكن أن تفعلي ذلك، يا ليزي العزيزة؟».

- «أجل». وتناولت يديّ وشرعت تلثمهما.

وتناهى إلينا صوت جيلبرت: «ليزي، ليزي، أين أنت؟».

ساد الظلام تقريباً، وإن شعشع ضوء ضئيل فوق البحر حيث كانت الشمس الغاربة لا تزال تنير خط السحب البيض التي كانت تتألق كمصابيح شاحبة فوق الأمواج التي كانت تتسابق صوب اليابسة. وكان المد آخذاً في الارتفاع.

- «ليزي، إرجعي، نريد أن نغني Voi che sapete».

ابتَعَدتْ عني في لحظة، مدَّت ساقاً طويلة عارية. وكنت أستطيع أن أرى جيلبرت الآن، وهو يمد يده إلى أسفل لتصل إليها من فوق. ومكثت حيث كنت.

يا لها من صورة مزيَّفة ساحرة رائعة للسعادة كانها ذلك المساء، وكأنه قناع اصطنعه روح الاكتئاب! هل سأكون قادراً على ألا أذهب إلى ذلك المنزل لأعرف ماذا يجري، الا أنفجر في حياتهما كالعاصفة، كالمطر ينهمر فوقهما، كالرعد؟.

بعد برهة قصيرة رجعت صوب «شراف إند». كان يبدو مضيئاً على غير العادة، كأنه بيت دمية. لا بد أن جيلبرت ابتاع على حسابي عدداً آخر من المصابيح. حزمة من الضوء سقطت على المرجة. وفيما كنت أقترب منها، كانت ليزي ما برحت تغني منفردة (صولو). كان صوتها الصادق الصدوق يطوف في الهواء صاعداً محاكياً له، وقد جعل جماعة الرجال المحيطين بها

ساكنين تماماً. وكان پيري الذي أفرط في الشراب واقفاً بذراعين مطويتين بالقرب من باب المطبخ. وكان يكبح نفسه من الإتيان ببعض الحركات المتمايلة من حين إلى آخر. أما جيلبرت الذي كان يبتسم ابتساماً عاطفياً فقد جلس واضعاً إحدى ساقيه فوق الأخرى. وكان تيتوس راكعاً، وقد انفرجت شفتاه ولاح على وجهه التركيز انفعالاً وسروراً، واتّسعت عيناه. ولم أستطع في البداية رؤية جيمس، ثم تبينته تحتي مباشرة مستلقياً على الحشائش. حفل عائلي.

كانت أغنية Voi che sapete قد انتهت منذ فترة، فأخذت ليزي تغني الآن «ورود في پيكاردي» Roses in Picardy. وهي أغنية اعتادت العمة «إستيل» أن تغنيها بمصاحبة نفسها على البيانو في حجرة الجلوس في رامسدنز Ramsdens. وهنا خطرت لي هذه الفكرة مصحوبة بوجع الذاكرة الخاص ألا وهي أن جيمس ربما طلب من ليزي أن تغنيها. ثم تذكرت أنني أخبرت ليزي بأنني أحب هذه الأغنية، وإن لم أخبرها بالسبب. كانت ليزي تغنيها من أجلي.

ولم تكن أغنية «ورود في پيكاردي» أروع قليلاً. وبينما كنت أنزل إلى المرجة أحس بي جيمس فنهض. جلست بالقرب منه، غير أنني لم أنظر إليه، وإن كان قد أخذ ينظر إليّ الآن. وبعد برهة مد يده ولمسني، فغمغمت قائلاً: «نعم، نعم». وانتهت الأغنية.

وبعد ذلك، وإلى أن حدث الشيء الرهيب، كان يبدو أن المساء يحل هيِّناً، أو أنه ينتشر ويتفرّق برفق كالمراحل الأخيرة من حفل ناجح. أو لعل الأمر كله قد اختلط في ذاكرتي. كان هناك شيء من النور فوق الصخور، وإن كنت لا أتذكر من أين جاء. ربما كانت السحب لا تزال تشع شيئاً من الضوء. وأعلن القمر عن ظهوره، وقد تشكل وتناثرت فيه البقع بصورة عشوائية، وكان هو نفسه كبيراً شاحباً كسحابة. وبدا الزبد العاتي عند حافة البحر مضيئاً.

تجولت باحثاً عن ليزي التي اختفت. ويبدو أن الجميع كانوا يسيرون فوق الصخور ممسكين بالكؤوس في أيديهم شاعرين بالخطر. وأرسلت بومة نعيبها في مكان ما من البر، كما كانت أصوات ضيوفي تتردّد بين حين وآخر بحيث بدت بدورها بعيدة، واهنة، جوفاء. وكنت أريد أيضاً أن أجد جيمس، إذ أحسست بأنني ربما كنت فظّا معه. كنت أريد أن أقول شيئاً ـ لا أدري ما هو بالضبط ـ عن العمة إستيل. لقد أشرقت بطريقة ما على طفولتي. Che cosa è amor حقاً. ذهبت إلى الصخرة وراقبت الأمواج تلطمها بعنف. وكانت هناك دمدمة ناعمة للرعد. وكنت أستطيع أن أشاهد البياض المتألق لأعراف الموج الخارج من البحر. وبدأ صوت جيلبرت الباريتون يثغو غير بعيد. امكثن أيتها الحوريات العِين وتكلمن، هل نلعب لعبة الـ barley-break ترالا لا؟ ثم بعد ذلك، وفي ناحية أخرى. كان تيتوس يؤدي على انفراد أغنية jock of Hazeldean . كان هناك شيء لا معقول ومؤثر في هذا الاستغراق والرضا عن الذات الانعزالي لهؤلاء المنشدين السكارى. وأخيراً تناهي إليّ صوت ليزي تغني من بعيد Full Fathom Five. أرهفت سمعي جيداً، غير أنني لم أستطع تحديد الاتجاه، إذ كانت مصاحبة البحر المضطرب المندفع شديدة الارتفاع. ثم خطر لي هذا الخاطر: ما أغرب الصدى الذي يتردد عن صوتها! كأنه ينبعث من مكبّر للصوت. لا بد أنها تغني داخل البرج.

كنت لا أزال على مسافة قريبة من المنزل وشرعت في دخول ما يمكن أن يعد الآن مشهداً أشد إظلاماً على نحو ما. كانت السحب المضيئة قد انطمست وأمسى القمر أصغر وأكثر إشراقاً بدرجة طفيفة، بحيث لم يكن منيراً تماماً في سماء تقترب من منتصف الصيف وقد عَلِقَتْ بها آثار من الضوء. كنت أستطيع أن أسمع صوت ليزي يغني، يناديني مرة تلو أخرى. جرس دينج دونج دينج دونج، جرس دينج دونج دينج دونج. تخبطت في سيري خلال الصخور، مجتازاً المنحنيات التي أعرفها الآن حق المعرفة. بلغت

الجسر الممتد فوق «مرجل مين» وتوقفت هناك، كما اعتدت أن أفعل لأنظر إلى الحفرة الملساء حيث كانت أمواج المد المقتحم تجلد نفسها في غضب مزبد مدمِّر للذات. ويبدو أن ضوءاً كان يرتفع هنا في رشاش صادر عن البحر نفسه. نظرت تحتي فكأنما أنظر إلى زجاج عميق قاتم الخضرة. وبغتة، جاء شخص خلفي ودفعني فيها.

من الجلي ما دمت أكتب هذه القصة أنني لم أمت، كما لا أطمح إلى نقل ماهية هذه التجربة، وما كان طولها، وكيف كانت رهيبة، وبلا أي أمل: إنها تجربة أساسية لفقدان تام للأمل. فالسقوط الذي يخافه الطفل، ويجزع منه الرجل، هو في حد ذاته صورة للموت، حين يصبح الجسد بلا حول ولا قوة، عاجزاً عن الدفاع عن نفسه، شاعراً بهشاشته وتعرضه للفناء، وخضوعه المطلق للعلل الخارجية. بل إن في السقوط الذي لا يحدث ضرراً في الطريق لحظة من الرعب عندما يدرك الساقط أنه لا يستطيع أن يساعد نفسه؛ إذ تكون قد استولت عليه آلية (ميكانيزم) لا ترحم، ولا بد أن يستمر معها إلى النهاية، خاضعاً للعواقب. «ما من شيء آخر أستطيع أن أفعله». ما أطول اللحظة، وما أشد قابليتها للامتداد إلى ما لا نهاية، حين تنطوي على هذه الفكرة التي تعد رمزاً على الموت. والسقوط الكامل من الفضاء ـ وهو شيء تخيلته كثيراً في الطائرات ـ هو بالطبع أفظع الأشياء جميعاً. فالأيدي والأقدام والعضلات وكل أجهزة الحماية المألوفة للجسم تصبح بغتة عديمة الجدوى. وهنا تنطلق عداوة المادة ضد الصورة الحيوانية الهشة القابلة للكسر والانسحاق، تلك الصورة التي ربما كانت دائماً أجنبية في هذا المشهد الجاذبي المعدني الصلب.

كأنما كان كل جزء من جسدي يعاني يأسه على انفراد. احس ظهري وخصري بالطابع المخيف لليدين اللتين دفعتا بي فوق الحافة بعنف شديد مباغت وعزم لا شك فيه. امتدت يداي عبثاً للإمساك بأي شيء كان.

واختلجت قدماي اللتان ما برحتا تلامسان الصخرة التي افترقتا عنها ـ في تشنج ضعيف عقيم-في محاولة هزيلة أخيرة للحفاظ على التوازن. ثم أخذتا في الاهتزاز في الفضاء الخاوي، فلم يعد بُدٌّ من السقوط رأساً إلى أسفل، وكأن رأسي وكتفي مصنوعان من الرصاص. وفي الوقت نفسه شعرت ـ أو فكرت كنوع من التفكير النهائي ـ بهشاشة رأسي، بل عرفت أن يديّ تحاولان الآن حمايته. والتوى جذعي التواءً موجعاً محاولاً أن يدرك بلا جدوى معقولية موضعه. وأبصرت بالفعل في الضوء المعتم لمنتصف الصيف المنتشر، الأمواج الجعدة المزبدة تحتي مباشرة، واللولبية الخاصة بحركتها في المكان المحصور. ثم ألفيت نفسي في الماء الذي باغتتني برودته الشديدة بصدمة منفصلة، وقمت بحركة السباح الغريزية في محاولة استرداد توازنه، غير أن جسدي كان مدركاً استحالة السباحة في تلك الدوامة. وأحسست كأن رقبتي تنقصف وأنا أتطلع إلى أعلى لأرى قبة من الخضرة المعتمة نصف الشفافة، هي الموجة من فوقي. كنت أشرق بالماء وأبتلعه، مستغرقاً في مهمة وحيدة هي أن ألتقط نَفَساً آخر. وفي الوقت نفسه كنت قادراً على التفكير. هذه هي الخاتمة. ناضلت، ناضل جسمي كله، وقد أخذ يهوي الآن بلا شعور في إعصار من القوى التي يبدو أنها على وشك استئصال أعضائي. ثم اصطدم رأسي بعنف بالصخرة الملساء، وفقدت الوعي.

كنت راقداً على ظهري فوق الصخور. فتحت عينيّ فشاهدت نجماً. كنت قد حلمت بحلم غريب مألوف، ومع ذلك لم يكن هذا الحلم قد راودني من قبل. حلمت أن ابن عمي جيمس كان يقبلني في فمي. وكنت في وعي بالنجم وبأعجوبة: وهي أنني أتنفس. أدركت تنفسي على أنه شيء عظيم، نوع من الحركة الكونية، كان طبيعياً ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ معجزة. كنت أتنفس، ببطء، وبرفق، وعمق، وحزم. وهناك، في مكان ما تحتي، كان هدير منتظم رتيب، رقدت في كأسه وأخذت أتطلع إلى النجم. أحسست

بالألم، ومع ذلك كنت أشعر بالراحة، منفصلاً عنه. رقدت مسترخياً وكأنني صحوت من نوم ذهبي، وربما عدت الآن إلى النوم مرة أخرى. أغمضت عينيّ. وتنفست.

سمعت أصواتاً أخرى، أصواتاً مميزة، مختلطة بالضوضاء، ثم منفصلة عنها، فعرفت أين أنا. كنت مستلقياً فوق قطعة الصخر المستوية التي تؤدي إلى الجسر، كما كنت مدركاً أيضاً ـ وإن يكن ذلك على نحو مبهم تماماً ـ ما حدث لي. سمعت أحداً يئن. لعله بيري. وشخصاً آخر ينتحب، ربما كان تيتوس أو ليزي. قال صوت جيمس: «ابتعدوا عنه، لا تتزاحموا». وقال صوت آخر: «أظن أنه يتنفس». وخطر لي، وظننت أنه ينبغي، أن أخبرهم بأنني بخير. هل أنا بخير؟ وكوّنت جملة اعتقدت أنني قد أقولها حالاً: «أنا على ما يرام، ما سبب هذه الجلبة كلها؟» شعرت شعوراً غريباً بأنني لا أقدر على الكلام، وبدا ذلك شديد الصعوبة. أدركت أن فمي مفتوح. وبذلت مجهوداً إرادياً، ثم أغلقت فمي وفتحته من جديد وبدأت: «أنا...» ولم أستطع أن أستمر أكثر من ذلك. شيء من الصوت خرج مني. وأتيت بحركة تشنجية، محاولة جنينية للنهوض، وواصلت التنفس.

قال أحدهم: «شكراً لله».

ومضت الأصوات في الكلام.

ـ «أظن أننا نستطيع تحريكه الآن».

ـ «ولكنه، ماذا لو كانت بعض العظام مكسورة؟».

ـ «ينبغي أن نحرص على تدفئته، إنه لا يستطيع أن يبقى هنا».

دارت هذه المناقشة زمناً. ثم تجادلوا فيها إذا كان من الممكن إعداد نقّالة، وأي طريقة أفضل في التوجه. وأخيراً حملوني، أو سحبوني ـ بما بدا أقصى ما يمكن من الخشونة ـ في بطانية. وكانت الرحلة فوق الصخور كابوساً. حاولت أن أقول إنني أستطيع السير غير أنني لم أُصْدر سوى أنين غير مفهوم (كما

استنتجت فيما بعد). وكانت أوجاعي جميعاً قد حدَّدت الآن مواضعها. وكان رأسي يؤلمني جداً، والحركة ترسل أضواءً تومض في عينيّ. وكان في ذراعي ألم بشع يشبه وجع الأسنان. وتساءلت هل كُسِرَت ذراعي، وشرعت العَظْمة تنكسر من خلال الجلد. وامتدت شريحة من الجزع في ظهري. وكان الحامنون مضطربين ولا كفاءة لهم بصورة خرافية، يتشاجرون باستمرار فيما يتعلق بالطريق، وينزلقون ويخبطونني على الصخور.

وأخيراً دخلوا المطبخ، وفي ارتباك لا سبيل إلى وصفه نزعوا ثيابي جميعاً، ودعكوني بالمناشف وألبسوني ثياباً أخرى وأخذوا يتجادلون فيما إذا كان من الممكن إعطائي شيئاً من الحساء أو البراندي أو الأسبيرين. وعندما خطرت لهم الفكرة الألمعية بإشعال نار لم يعثروا على أي خشبٍ جاف، ثم لم يستطيعوا العثور على أعواد الثقاب. وأخيراً كنت راقداً على وسائد موضوعة على الأرضية أمام النار في الحجرة الصغيرة الحمراء. وعندما سرى الدفء في جسدي خفّ شعوري بالألم، وبينما كنت أرقد بلا انزعاج استرخيت وبدأت أشعر بالنعاس. أحسست بالارتياح وبشيء من تلك الراحة الغريبة التي شعرت بها عندما تطلعت إلى النجم. وعندئذ فحسب، وقبل أن أستسلم للنوم مباشرة، تذكرت أنها لم تكن حادثة، وإنما كان هناك شخص دفعني.

لا بد أن أسجل هنا شيئاً لم أتذكره إلا فيما بعد، وكنت مهيئاً من قبل للتفكير فيه بوصفه حلماً. كنت راقداً على أرضية الحجرة تحت كومة من البطانيات، وحدي، لا أبصر الحجرة إلا بواسطة الضوء المتقطع المنبعث من النار. وساورني إحساس ملحّ بأن هناك شيئاً ينبغي أن أفعله بسرعة قبل أن يعود شخص ما، وبخاصة قبل أن أنسى واقعة على أكبر جانب من الأهمية أوشكت أن تتلاشى من ذهني. كان لا بد لي من تسجيل هذا الشيء المهم، أن أمسك به وأن أقبض عليه قبل أن يختفي. نهضت على ركبتي، وأحضرت قلماً وورقة من المنضدة التي كنت أعمل عليها أحياناً، وكتبت ما كان ينبغي

أن أتذكره تذكراً مطلقاً. كتبت بسرعة، غير أنني لم أكن واثقاً من أنني تذكرت كل شيء. طويت الورقة بعناية وأخفيتها في مكان ما من الحجرة. كل هذا، وهو أنني كتبت شيئاً ما وأخفيته، تذكرته في صباح اليوم التالي كما يتذكر المرء حلماً. غير. . . أنني لم أستطع أن أتذكر ذلك الشيء الذي حسبته مهماً، أو ما كتبته عنه، كما لم أستطع، وإن كنت قد قمت بتفتيش الحجرة تفتيشاً دقيقاً، أن أجد الورقة المكتوبة. أحاط بهذا «الشيء» جو من الانفعال المفرط الحاسم؛ ومع أنني كنت دائم التنقيب عنه في ذهني فإني لم أستطع أن أتبين كنهه. أما الورقة فلم يعد لها أثر. من المحتمل أنني حلمت بهذه الحكاية كلها. ولم يكن لدي بالطبع أدنى شك عن الموضوع الذي يدور حوله ما كتبت، إن كان له وجود: إنه يتعلق بهوية الشخص الذي حاول اغتيالي.

سألت ليزي: «كيف بحق السماء خَرَجْتُ؟» كنت جالساً على مقعد ذى مسَندين في الحجرة الصغيرة الحمراء، احتسي الشاي وآكل شريحة من الخبز المحمص بالأنشوجة.

وفي حوالي الساعة الثانية صباحاً وصل طبيب أقرب ما يكون إلى الغضب وأيقظني وجرّني وأعلن أنني سليم. قال إنه لا توجد بي عظام مكسورة، وأنني أعاني من صدمة وارتجاج في المخ. وكان لا بد لي من الراحة والحرص على الدفء، وألا أتجول بين الصخور في المستقبل أثناء الليل عندما أكون قد شربت كثيراً من الخمر. وكانت هذه أول نقطة دخل فيها عقلي المشوش بأنه ما من أحد يعرف بالطبع ـ سوى القاتل وأنا ـ أن المسألة لم تكن حادثة.

كان الوقت الآن حوالي العاشرة صباحاً. وكان الجو قائظاً مرة أخرى مصحوباً بأصوات للرعد، أعلى وأقرب. وكانت ومضات البرق تتوالى كأنها صدمات مرئية. قام الناس بزيارتي وبالسؤال عن صحتي، وهنأوني بنجاتي التي تمت بشق الأنفس. وكان يحيط بهذه التهاني جو يتسم بالفظاظة إلى حد

ما، ربما كان ذلك لأن أصدقائي شعروا بأنهم كانوا عاطفيين نحوي بما فيه الكفاية في الليلة الأخيرة، وأصبحوا يشعرون الآن بأنهم أكثر جفافاً، أو لأنهم كانوا يشاطرون الطبيب رأيه في المسألة. والواقع أنه قد كان هناك إحساس بأنني تسببت بغبائي في كثير من المتاعب. ونصحتني غريزة لم يسنح لي الوقت بعد لفحصها ـ بألا أكشف، أو بأن الوقت لم يحن بعد لأكشف أن سقطتي لم تكن مصادفة.

كان لا بد لي في وقت قصير أن أقرر ما ينبغي أن أفعله. كنت آسفاً لأنني لا أستطيع أن أعثر على قصاصة الورق الثمينة. ولكن لم يساورني بالطبع أي شك في شخصية القاتل.

قالت ليزي: «يظن جيمس أن موجة عجيبة هي التي رفعتك».

كانت ليزي مشرقة، وشعرها الطويل الجعد مشتبكاً كثاً، ينمو كنبات صحي. وكانت ترتدي قميصاً مخططاً وسروالاً قطنياً قصيراً مقطوعاً عشوائياً عند الركبة. وحتى بعد نحافتها كانت أكثر امتلاءً على هذا النوع من الملابس، غير أنني لم أعترض. وكانت بشرتها تتألق بالصحة. بيد أن الغضون الدقيقة التي كانت تحيط بعينيها هي وحدها التي قد تمكن من تخمين سنّها. ولم تشاطر أحداً من الذكور شعوره بضيق مبهم من الحادثة التي وقعت، بل كانت على استعداد للاستمتاع بالدراما حال استرجاعها ما دامت قد انتهت بخاتمة سعيدة، وكانت نجاتي سبباً في ازدياد إحساسها بامتلاكي.

قلت: «ما كان من الممكن أن تفعل (الموجة) ذلك. الفجوة شديدة العمق. من الذي سحبني بالفعل؟».

ـ «أوه، كلهم فعلوا ذلك. عندما سمعنا صياحك، التقينا جميعاً عنده، وإن كنتُ آخر من وصل. وعندما وصلت كان تيتوس وجيمس يسحبانك من الجسر صوب الصخرة المستوية، وكان جيلبرت وبرجراين يساعدان».

- «أستطيع أن أتخيل قيمة مساعدتها. من الغريب أنني لا أتـذكر أنني صِحْت».

- «قال الطبيب إنك قد لا تتذكر أشياء حدثت قبل الحادثـة مباشرة أو بعدها مباشرة. هذا أثر من آثار ارتجاج المخ. إذ لا يقوم المخ بالتخزين أو شيء من هذا القبيل».

- «وهل ستعود الذاكرة؟».

- «لست أدري، لم يقلْ شيئاً عن هذا».

- «أتذكر أنني حُمِلت إلى المنزل. وأظن أنني تلقيت من الكدمات أكثر مما تلقيتُ وأنا في الماء. يا إلهي، ما أكثر كدماتي!».

- «أجل، كان ذلك شنيعاً، كنتَ أشبه بِجوال ضخم قاتم يقطر ماءً، كنت ثقيلاً للغاية، وكدنا نسقطك في صَـدْع. غير أن هـذا كان فيـما بعد بكثير».

- «كيف، فيما بعد؟».

- «ألا تتذكر أن جيمس قد أعطاك قُبلة الحياة؟».

- «آه... حسناً... نوعاً من...».

- «كنا نظن أنك غرقت... وكان عليه أن يستمر حوالي عشرين دقيقة قبل أن تبدأ في التنفس كما يجب. كان شيئاً مروِّعاً...».

- «ليزي المسكينة! على كل حال، ما زلتُ موجوداً هنا، مستعداً لإحداث مزيد من المتاعب لمن يهمه الأمر. أين نمتم جميعاً في الليلة الماضية. لقد تحوَّل هذا المكان إلى ما يشبه فندق الغراب الأسحم».

- «نمتُ أنا على الأريكة هنا في منتصف الحجرة، وفاز جيمس بسريرك، وپيري في حجرة الكتب، وجيلبرت في حجرة الطعام، أما تيتوس فنام في الخارج. هناك من الوسائد والأشياء الأخرى ما يكفي لترتيب الأمور!».

ـ «تخيلي جيمس العجوز متكوماً في سريري».

ـ «شعروا بأنهم لن يستطيعوا حملك إلى الطابق العلوي، وعلى كل حال كان من الممكن إشعال النار هنا».

ـ «لم يحضر جيمس لرؤيتي بعد».

ـ «أظن أنه ما زال نائماً، كان مرهقاً أشد الإرهاق».

ـ «آسف لأن مصيبتي أفسدت حفلكم. أستطيع أن أتذكر أنكم كنتم تنشدون «أنت وحدك الذي تعرف» (Voi che sapete)».

ـ «تمنيت أن تكون قادراً على سماعها. أواه يا تشارلز...».

ـ «الآن، يا ليزي، من فضلك لا...».

ـ «هل تتزوجني؟».

ـ «ليزي، كفاك...».

ـ «أستطيع أن أطهو وأن أقود سيارة، وأنا أحبك، وأنا معتدلة المزاج إلى أقصى حد، ولست عصابية، وإذا كنت بحاجة إلى ممرضة فسأكون ممرضة...».

ـ «لقد كانت مزحة».

ـ «كنت تهتم بي عندما كَتَبْتَ...».

ـ «كنت أحلم، أخبرتك بأنني أحب إنسانة أخرى».

ـ «أليس ذلك هو الحلم؟».

ـ «كلا».

ـ «لقد ذهبت».

ـ «نعم... ولكن الآن... يا ليزي... لقد أُعطيت لي الآن فحسب علامة رائعة... وبغتة وجدت الطريق... مفتوحاً».

ـ «انظر..، لقد بدأ المطر».

- «دعي كلاً منا يحب الآخر بالطريقة الحرة التي تحدثت عنها أمس».

- «إذا ذهبت إليها فمعنى ذلك أنك لا تريد أن تراني مرة أخرى أبداً».

وخطر لي فجأة أن هذا حق. فلو حدث أنني امتلكت هارتلي فسوف آخذها بعيداً في التو واللحظة. سأخفيها، وسأختفي معها.

لن نذهب بعيداً معاً، لا إلى باريس ولا روما ولا نيويورك، فهذه رؤى لا واقعية. وأنا لا أستطيع تقديم هارتلي إلى «سيدني آسن» أو إلى «فريتزي آيتل» أو إلى «جان» الماكرة التي تشبهت الآن بالأميرات. بل إنني لا أستطيع أن أخرج بها للعشاء مع «ليزي» أو «برجراين» أو «جيلبرت». لقد كانت بهذا المعنى الرائع غير قابلة للخروج. سأعيش أنا وهارتلي بمفردنا، سراً، مجهولينْ، في مكان ما من إنجلترا، في الريف، في منزل صغير على البحر، وستقوم بالحياكة والتسوق، وسأقوم أنا بأعمال الحديقة وطلاء الصالة، وستكون لي كل الأشياء التي فاتتني في حياتي. وسيرعى كل منا الآخر باعتزاز ورفق، وسيكون هناك خير واسع، وفضاء رحب وهدوء، لا يعكر صفوه شيء، ولا يفسده شيء. وسأنضم إلى العاديين من الناس، وسأكون شخصاً عادياً، وأستريح، يا إلهي أصبو إلى الراحة! وسيربط هذا نهايتي ببدايتي على نحو سليم شاءه القَدَر. هذا، وهذا وحده، هو ما كانت تسعى إليه غرائزي جميعاً عندما أذهلت الناس كافة بالتخلي عن عملي، والمجيء هنا، هنا. سأكون أنا وهارتلي معاً على انفراد، ولن نقابل أحداً، وسنصنع إخلاص كلٍّ منا للآخر من جديد، وسيقوم العالم القديم البريء المبكر بتجميع نفسه حولنا في هدوء.

انصرفت ليزي أخيراً، دون أن أفضي لها بشيء مما كتبته آنفاً. وكنت أستطيع أن أرى أنها متشبثة بالأمل؛ فمهما قلت فإنه لم يكن في استطاعتها أن تؤمن بهارتلي. وأطل الآخرون عليّ، أو على الأقل برجراين وجيلبرت وتيتوس. غير أن أحداً منهم لم يتحدث الآن عن

الرحيل. وكان يبدو وكأنما لا بد من استمرار الإجازة. أي متع أخرى يمكن أن تقدمها؟ سألت عن جيمس، غير أن جيلبرت أخبرني بأنه ما زال يستريح في الطابق العلوي، في سريري، يعاني من إرهاق تام. ولعله أصيب ببرد أثناء وجوده فوق الصخور، منحنياً فوق الجسد الذي يقطر ماءً، ويبدو في الظاهر مفارقاً للحياة.

إنهمر المطر مستقيماً فضياً كأنه عقوبة ناجزة توقع بقضبان من الصلب. وكانت قعقعته تتردد في جنبات المنزل وفوق الصخور، وتنقر صفحة البحر. وأصدر الرعد أصواتاً أشبه بمعازف ضخمة (بيانوات) تتساقط على الطابق السفلي، ثم استقرت على جلبة مستمرة أكثر نعومة، أوشك صوت المطر أن يطغى عليها. وتضامت ومضات البرق لتتألف منها أنوار طويلة جعلت الحشائش تبدو زاهية الخضرة، والصخور بلون الغراء الأصفر، في صفرة سيارة جيلبرت. وغمر المنزل التوتر والإثارة ونوع من الخوف، وكأنما تقوم عناصر الطبيعة بمحاكاة آثار نكبتي. نهضت من مقعدي ذى المسندين وقلت إنني سأذهب لرؤية جيمس، غير أنهم أخبروني بأنه نائم. وأعلن جيلبرت بأن المطر يسيل فوق درجات السلّم ليدخل حجرة الحمام. تحاملت على نفسي حتى بلغت المطبخ، فأحسست بدوار. كان جسدي مصاباً برضوض شنيعة، وبارداً برودة عميقة عميقة، فرجعت إلى النار. ولما تصادف أن كان هذا هو موعد تناول الغداء فقد احتسيت شيئاً من الحساء ثم أبديت رغبتي في الراحة والانفراد بنفسي. وجلست في مقعدي متلفعاً بالبطاطين وشرعت في التفكير. وكان المطر يثير ضوضاء لم أتمكن معها من الاستماع إلى البحر.

كان «بن» بالطبع هو الشخص الذي أراد اغتيالي، دون أدنى شك في ذلك. كانت كلماته الأخيرة التي وجهها إليّ هي: «سأقتلك». وما جعلني أكثر يقيناً هو أنني أنا نفسي قد استرعيت نظر «بن» إلى هذه البقعة بالذات بوصفها مكاناً ممتازاً لارتكاب جريمة. بل لقد شعرت أنا نفسي بدافع إلى إلقائه فيه،

ومن المؤكد أنه انتبه إلى فكرتي. بل لقد تدخل عنصر من الانتقام وكان لا بد أن يقوم بذلك **الآن**... كان هذا احتمالاً نفسياً وارداً. كان لا بد أن يتخلص من هجوم أذاقه طعم الذل، وعندما فكّر فيه فيما بعد لم تستطع كبرياؤه أن تحتمله أو تتحمله. هل كانت هذه الفعلة مع الترصُّد وسبق الإصرار؟ هل انتظر متوارياً بجوار الجسر؟ أم أتى متطفلاً لإشباع حقده الخاص، فسنحت له حينئذ هذه الفرصة التي لا سبيل إلى مقاومتها؟ أياً كان الأمر فلا بد أنه كان موقناً بإنجاز مهمته على أكمل وجه. وكانت نجاتي فلتة مدهشة حقاً، رأما بالنسبة له فكانت نذيراً يورث المرض.

ولكن، ما هي الخطوة التالية؟ ماذا تفعل في مجتمع متحضر إذا هَمَّ أحد بقتلك؟ لم أكن أستطيع أن أهيب بالقانون، ولم يكن ذلك بسبب عدم وجود دليل فحسب. فما كنت أستطيع أن أتهم زوج هارتلي أمام محكمة قانونية، أو أَدَع ابتذالات القانون تمس هذا الموقف. كما لم أكن أتصور أن أحوم بأصدقائي أو أن ألحق بـ «بن» أي أذى. وإنما كنت أريد مواجهته، وهذه المواجهة بحد ذاتها يمكن أن تكون مجرد ترف، كما كان من الممكن أن أستمتع بمحو الانطباع المذلّ الذي صنعته في مقابلتي الأخيرة مع «بن». ينبغي أن أفعل شيئاً بما عرفته، وبما أصبحت عليه الآن: شخص نجا من الموت يثيره غضب أخلاقي ودافع. وكان هذا هو ما قصدته عندما تحدثت إلى ليزي عن علامة رائعة غريبة. فالآلهة الذين أبقوا على حياتي قد فتحوا باباً وأرادوا أن أعبر من خلاله.

كانت المشلكة هي إيَّاها، ولم يتغير إلا الضوء. ينبغي أن أُبْعد هارتلي، أن أكسبها لنفسي، وأن أوقظها، أجعلها تنتفض وتختلج بإحساس بالحرية الممكنة. أجل، الانفراد هو المفتاح، لقد فهمت ذلك الآن. لا بد أن أنفرد بها عاجلاً، ثم إلى الأبد، فيما بعد. عندما كانت سجينتي، ما كان أشد إذلالها بحضور أناس آخرين بالمنزل. **ينبغي ألا يكون هناك شاهد آخر.**

سأخبرها بذلك. وليس عليها أن تنضم إلى عالمي الأجنبي الفخم المخيف. ولكي يتزوج الملك العذراء الـمتسولة عليه أن يكون متسولاً هو الآخر، وأن يكون سعيداً بهذا التنازل. ستكون رؤية هذا التواضع الشافي هادياً لي من الآن فصاعداً. وكان هذا حقاً هو الشرط الجوهري لحريتها، لماذا لم أدرك ذلك من قبل؟ سأرى وجهها متغيراً في نهاية الأمر. واكتشفت أن جزءاً من تصوري للمستقبل هو أن هارتلي عندما تكون معي سوف تسترد بالفعل كثيراً من جمالها القديم: فهي أشبه بسجينة أطلق سراحها من معسكر للعمل فهي تبدو عجوزاً للوهلة الأولى، ولكنها مع الحرية والراحة والطعام الجيد سرعان ما تعود إلى شبابها مرة أخرى. سيترك الألم والقلق وجهها، وستكون هادئة وجميلة، وقد شاهدت هذا الوجه المتجدد الشباب مشرقاً كمصباح يبرز من المستقبل. وعندما تركت المسرح كنت أصبو إلى عزلة: والآن ها هي معروضة عليّ في هيئة حبيبتي «بياتريس»*. وهنا فحسب كانت السعادة بالنسبة لي هدفاً بريئاً مسموحاً به، بل مثلاً أعلى. ففي كل مكان آخر سعيت إليها فيه كانت تتمخض عن سراب خادع أو شكل من أشكال الفساد. وعثور المرء على الرفيق الحقيقي معناه العثور على الشخص الذي تكون السعادة معه بريئة براءة خالصة.

وعلى أي حال فقد كان السؤال الفوري سؤالاً فنياً (تقنياً). كيف آخذها بعيداً؟ صار الانتظار الطويل الآن أمراً خارج الموضوع، ما دام لا بد لي من ممارسة سلطاني الجديد على «بن» وهو ما زال في أوج قوته. ولم يكن ما بدأت أتصوره هذه المرة مجرد اختطاف، بل غارة بالقنابل. سأكتب أولاً وقبل كل شيء رسالة إلى هارتلي. ثم سأقوم بزيارة بصحبة تيتوس. ولكن لماذا سوف يسمح لنا «بن» بالدخول؟ لأنه سيكون مذنباً وخائفاً. سيريد أن يرى ما نسعى إليه. أنّى له أن يعرف أنه لا وجود لدليل؟ وأنّى له أن يعرف أنه لم يكن

(*) بياتريس هي حبيبة دانتي صاحب «الكوميديا الإلهية» (١٢٦٥ - ١٣٢١) (المترجم).

ثمة شـاهد؟ وعند هذه النقطة توقفت. لماذا لا يكـون هناك شـاهد؟ من الممكن أن أخبره بوجود شـاهد! بل أستطيع أن أطلب من شخص (مثـل جيلبرت؟ أو بيري؟) أن يقول إنه شاهَد ما حدث. وعلى كل حال فـإنه من الممكن أن يكون هناك شـاهد، وقـد يكون هنـاك بالفعـل! مثل هـذا الأمر يمكن أن يلقي في نفسه الرعب تمـاماً. لمـاذا لا أبتز «بن» لكي يـدع هارتـلي ترحل عنه؟ لو أنني استطعت أن أجعله يقول: «إذهبي إذن»! كم مرّة كان على وشك أن يقول ذلك على كل حال؟ أيكون معنى سكـوته الـطويل بعـد الاختطاف أنه كان منقسم الرأي فيما يتعلق برغبته في رجوعها؟ لو أنـه قَبِل فسوف تسقط الأغلال وسيخرج ملاكي متمتعـاً بحريتـه. أو لعلها إن رأتـه منكشفاً لها بوصفه قـاتلاً فسيجلب لهـا هذا بـركة الـرفض التام: الـرعب، والاشمئزاز، والذعر، في صورة أكثر فعالية في عنفها. لـو كان هنـاك مفتاح حقيقي لاتخاذ هذا المـوقف! ماذا كتبت بحق السـماء في تلك القصاصـة من الورق التي أخفيتها عن نفسي بكل هذا الذكاء؟.

أجل، كان التصرف عاجلاً أمـراً حيويـاً، قبل أن يتـاح لـ «بن» وقت لاسترداد عافيته. لا بد أنه في حالة من الصدمة العنيفة، وإن كان يعلم الآن لسوء الحظ ـ من صمت جهازي الإذاعة والتليفزيون عنده ـ أنه أخفق في قتل تشارلز آروبي الشهير. ومهما يكن من أمر ـ وقد أصبـح ذلك واضحـاً الآن ـ فإنني لا أستطيع أن أتقدم بأكثر من رسالتي لهارتلي أثناء وجود ليزي وجيمس في المنزل. إذ سيكون من الظلم لليزي أن أتوقع منها شهود إنقاذ غريمتها أو حتى المعاونة في هذا الإنقاذ. وفيما يتعلق بجيمـس فقـد كان يصدر أحكاماً أخلاقية، ولا همّ له إلا تشويش تفكيري. ومن ثمّ، كان لا بد من التخلص من هذين الاثنين. أما جيلبرت وبرجراين فمن الممكن أن يكونا نافعين لفترة أطول قليلاً. وكذلك تيتوس بالطبع...

وعند هذه النقطة بدأت أمعن الفكر وأتساءل: أَلَمْ أخطىء في تصور دور تيتوس ـ فيما يتصل بهارتلي ـ خطـأ خطيـراً؟ أيمكن أن يتلاءم تيتـوس مع

الفردوس الذي لا يضم سوى اثنين فحسب à deux والذي كنت أتصوره مؤخراً؟ كلا. لا أهمية لذلك بالطبع. والناس يفرّقون في أغلب الأحيان بين الصلات الزوجية والصلات البنوية. ستكون لي علاقة منفصلة تماماً بتيتوس؛ ومن الحق أنه قد بيّن لي بالفعل أن هذا هو ما يريده. غير أنني كنت أفترض مع هذا أن هارتلي ستريد أن يكون تيتوس في الصورة على نحوٍ ما. أكان افتراضه مخطئاً؟ وعند هذه اللحظة دخل الشاب نفسه من خلال الباب.

لم أكن قد تبادلت مع تيتوس حديثاً هادئاً جاداً منذ فترة طويلة، وكنت ألوم نفسي على ذلك. فبغض النظر عن اهتمامي بهارتلي، كنت ملتزماً بالصبي التزاماً مطلقاً، إذ كان بالمعنى الحرفي «مبعوث العناية الإلهية». وتبقّى أن يُرى إلى أي مدى أستطيع معه أن أدرك معنى دور «الأب». وكنت على وعي الآن بأن جيلبرت، بل وبرجراين أيضاً، ينظران إلى علاقتي بتيتوس في ضوء آخر تماماً!

خلال خواطري تلك، كان المطر قد توقف، وكانت الشمس تحاول أن تشرق من بين فروج السحب الضخمة القاتمة الرمادية الرصاصية ـ على عالم مبلّل إلى أقصى حد. وكانت المرجة مغمورة بالماء، والصخور تتواطأ على الظهور بمظهر الإسفنج. ومن الطابق العلوي تناهى إليّ صوت جيلبرت وليزي يتصايحان، الأول في حجرات السطح يفحص السقف، والثانية في حجرة الحمام تزيل السيل. وعندما ظهر تيتوس اعتزمت الخروج لكي أتحاشى المقاطعة وأضمن الانفراد به. كنت أقوى قليلاً، ولم يعاودني الدوار. غير أنه عندما ساعدني ببطء فوق الصخور أحسست بإحساس الرجل العجوز، وعندما بلغنا «جسر مين» لم أستطع أن أتحامل على نفسي لاجتيازه. كيف نجوت من هذا الأخدود العميق، ومن هذه الجدران الملساء، وذلك الماء الضاري؟.

بدأت الصخور تتبخر في الشمس... وكأنما انتشرت الينابيع الساخنة في

كل مكان. افترشنا المناشف التي أحضرها لنا تيتوس العاقل من المطبخ ـ على صخرة تشرف على خليج الغراب الأسحم، غير بعيد من المكان الذي جلست فيه مع جيمس. وعلى الرغم من أن البحر كان يبدو هادئاً بسبب لمعانه ونعومته إلى غير حد بعد المطر، فقد كان في حالة عنيفة كامنة الخطر، إذ كان يأتي في أمواج ضخمة صقيلة محدودبة لا يبدو عليها أثر من الزبد حتى تلتقي بالصخور في دوامة قشدية. وواصلت الشمس سطوعها وإن أعتمت الأفق الآن صفحة من المطر الرمادي. وكان خليج الغراب الأسحم في لون الزجاجة الخضراء، وهو لون لم أر أنه اكتسى به من قبل أبداً. وساءلت نفسي لحظة أين يمكن أن تكون روزينا.

قمنا بتسلقنا في صمت، وأطبق علينا نوع من الصمت فجعلنا لا نبدي حراكاً. لم أكف عن النظر إليه، ولم يكف هو عن التحديق في الخليج. وارتسم على وجهه الوسيم تعبير عن السخط، وعلى ثغره استقرت نظرة الشباب العابسة التي لا شكل لها. وكانت ندبة الأرنبة عميقة على شفته كأنها تنبض، إذا أخذت تنفتح وتنغلق بحركة لا واعية تكونت عن عادة لازمته العمر كله. وكان شعره كثاً ملبَّداً إلى أقصى حد.

ـ «تيتوس».

ـ «نعم».

ـ «أتستطيع أن تناديني بـ «تشارلز»؟ أمن الممكن أن تتعود عليه؟ أشعر أن هذا سيساعد كلَيْنا».

ـ «لك ما تريد، يا تشارلز».

ـ «تيتوس... أنا... أنت مهم جداً بالنسبة لي، وأنا بحاجة إليك...».

تحركت ندبة تيتوس فوضع عليها إصبعه ليوقف اختلاجتها الصغيرة. ولم يخطر لي إلا حينئذٍ فحسب أن تيتوس ربما كان يفكِّر في تلك الالتباسات

المتعلقة بعلاقتنا وقد استرعت انتباه جيلبرت كثيراً، وربما وُضعت بالتأكيد في ذهنهما بتأثير نكتة فجة أطلقها جيلبرت. ولم أكن قد فكرت في هذه الفكرة الجلية من قبل نظراً لأنني كنت منشغلاً بتيتوس من ناحية، ولأنني بسطت عليه ستاراً من البراءة مستمداً من معاناة هارتلي، من ناحية أخرى.

أردفت قائلاً: «لا تسيء فهمي».

وهنا التوى ثغر تيتوس الرطب بابتسامة أو علامة استهزاء.

مضيت قائلاً: «أريد أن أخبرك بشيء». قررت فجأة أن أخبر تيتوس بمحاولة «بن» لقتلي.

- «إذا كان ذلك بخصوص ماري...».

- «نعم...» ولم أكن قد تحدثت إلى تيتوس منذ ذلك المشهد المريع في النيبليتس عندما أرجع «الوفد» الزوجة الضالة إلى الزوج البغيض.

- «هذا كله يمرضني. أنا آسف، اغفر لي. غير أنني لا أريد أن أشارك في هذا. لقد هجرت البيت حتى لا أنزعج بمهاترات من هذا النوع، أنا أمقت المهاترات، وقد تعرضت لها طوال حياتي مع هذين الاثنين، مهاترات، مهاترات، مهاترات. إنهما ليسا شخصين رديئين حقاً، كل ما في الأمر أنهما لا يدركان معنى أن يعيش المرء حياة إنسانية».

- «إنها ليست شخصاً رديئاً، أوافق...».

- «لا أستطيع أن أخبرك كم كنت أشعر بالقرف عندما ذهبنا إلى بيتهما بالسيارة، تمنيت من الله لو لم أحضر وأشاهد هذا كله. والآن، لن أنسى ذلك أبداً. أحسست بهوان شديد. كانت ماري تُعَامل كأنها قطعة من الأثاث، أو طفل. ينبغي الا تتدخل في حياة أناس آخرين، ولا سيما المتزوجين منهم. هذا سبب من الأسباب التي تجعل الزواج شيئاً مريعاً. ولا أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن يُقْدم عليه أي إنسان. عليك أن تتركهما وحدهما. إذ إن لهما

طريقتهما الخاصة في كراهية أحدهما للآخر، وإيذاء أحدهما للآخر، إنهما يستمتعان بذلك».

- «إذا كان الأمر بهذه الشناعة فلا بد للمرء أن يتدخل. لا ينبغي أن تكون ساخراً متشائماً بهذا القدْر».

«لست ساخراً ولا متشائماً، هذه هي المسألة. أنا لا أعبأ. أنت تظن أنني أفكر في هذا الأمر، ولكنني لا أفكر فيه، أنا لا أريد أن أرى، ولا أريد أن أعرف، ولا أكترث مقدار خردلة بتعاستها الملعونة!».

- «أما أنا فأكترث، وسأُخرج أمك من هذا المأزق، سأخرجها بكل تأكيد».

- «لقد حَاوَلْتَ، غير أنها أخذت تصرخ للعودة إلى البيت. لو كنت أنا لتركتها تذهب. آسف، أنا لا أعني ذلك. لقد ارتكبت غلطة، هذا كل ما في الأمر، والآن، عليك أن تنساها. بأمانة، أنا لا أفهم لماذا تريدها، أنا لا أستطيع أن أدرك السبب، أهي طرطشة عاطفية، أم جيش الخلاص، أم شيء من هذا القبيل؟. لا تستطيع أن تريد شخصاً على هذا النحو، أنا لا أدرك الحكمة في ذلك. هناك تلك المرأة ليزي شير التي يبدو أنها تحبك حباً جماً، وروزينا ڤامبورج...».

- «تصادف أنني أحببت أمك».

- «أوه... الحب... أنت تعني...».

- «ربما كنت أصغر من أن تفهم».

- «أظن أنه من الطبيعي أن أهتم بالفتيات بطريقة سوية. وعندما تكون عجوزاً فقد يختلف الحال».

كنت متخشباً مليئاً بالكدمات، وكان من الحمق أن أوغل في السير إلى هذا المدى البعيد. وكنت أشعر بالتعب والضعف والحنق. إن مجرد شباب تيتوس

وقوته المفعمة بالأمل التي لم يفسرها شيء كـانت تضايقني إلى درجـة تدفعني إلى الصراخ. وساقاه الطويلتان البنِّيتان العاريتان ـ المكسوّتان بشعر يميل إلى اللون الأحمر، وكانتا تظهران من سرواليه المطويين بلا عناية ـ كانتـا تبعثان الضيق في نفسي. وأحسست أنني أفقد الاتصال به، وقد أكون حاداً معـه، ثم يتحول الأمر في النهاية إلى التماس العذر منه.

ـ «أنا آسف لانزعاجك من المسألة كلها على هذا النحو. أنا أفهم جزئياً. غير أنني أريد مساعدتك، أو فلتكن مساندتك لي. كما أريد أن أخبرك بشيء مهم عن أبيك».

ـ «عن «بن». لا عن أبي. الله وحده يعلم من هو أبي. لن أعرف أبداً. انـظر، دعنا لا نتحـدث عن «بن»، إنه يضجـرني. ولست سعيـداً بهـذا الشيء...».

ـ «ما هو الشيء الذي نتناوله الآن؟».

ـ «هذا الشيء الذي بينك وبيني. دعنا ننسى أمرهما. فلنتحـدث عنك وعني».

ـ «موافق. إني أريد أن أتحدث عن ذلك أيضاً. تيتوس أنا لا أحاول أن أخطفك».

ـ «نعم، أنا أعلم...».

ـ «نحن حُرَّان كلانا في علاقة كل منا بالآخر. وليس هناك ما يدعو إلى تعريف الأشياء».

ـ «الأب» تعريف، على ما أظن!».

ـ «إنه فكرة. فلنكن صديقين إذا كنت تؤثر ذلك. دعنا ننتظر ونرى. أنت تعرف أنه لا يوجد شيء من... الشر. في هذا، أنت تعرف ما أعني...».

ـ «أوه، أنا أعرف ذلك».

ـ «كل ما أريده هو الشعور بأن هناك رابطة، علاقة خاصة، اتصالاً خاصاً».

قال تيتوس: «أنا لا أرى سبباً لذلك. آسف لأن أكون جحوداً.. وقد أقمت هنا وأكلت من طعامك وشربت من شرابك، أعرف ذلك... غير أنني كنت أفكر... على كل حال، لماذا تشق على نفسك بالاهتمام بي؟ إذا كنت أبي الحقيقي، عظيم، حتى لو كان الأمر كذلك... حسناً، على كل حال فإن ما أردتُ أن أقوله هو هذا. لقد استمتعت بلقائك، واستمتعت بإقامتي هنا رغم الفظائع. وقد أفكر فيها بعد، لقد قضيت وقتاً طيباً، أجل، طيباً. ولكنني أريد أن أكسب عيشي، وأن أحيا حياتي، وأريد أن أحياها في المسرح، لست فتى أحمق مفتوناً بالمسرح، ولا أتخيل أنني سأصبح نجماً. بل إنني لا أعرف بعدُ إن كنت موهوباً في التمثيل، غير أنني أريد أن أعمل مع أهل المسرح، وأظن أن هذا هو ساحتي. أما هذا المكان فهو رائع بالنسبة لقضاء إجازة، ولكنني أريد العودة إلى لندن حيث تحدث الأشياء الواقعية».

ـ «ألا تحدث الأشياء الواقعية هنا؟».

ـ «أوه.. أنت تعرف ما أعنيه. أين يقيم ابن عمك؟».

ـ «في لندن». لدغة ثعبان الغيرة مرة أخرى. هل استطاع جيمس أن يطوي تيتوس تحت جناحيه. كان يبدو أن ثمة صلة بينهما منذ البداية.

قلت بسرعة: «أرجوك لا تتحدث إلى أحد من الآخرين عن... أنت تعرف...».

ـ «بالطبع لا، لا كلمة، ولم تكن بحاجة إلى أن تقول ذلك، وحقِّ المسيح!».

ـ «جميل...».

- «المسألة هي أنني لا أريدك أن تشعر بأي التزام نحوي. فلو أنك ارتبطت بالتزامات لكان عليّ أنا أيضاً أن أرتبط بالتزامات. وأنا لا أريد أن أقيم هنا على نفقتك أكثر من ذلك، أريد أن أنطلق لحال سبيلي. وأنا لا أبالي إن ساعدتني قليلاً إذا شئت، ربما استطعت أن تساعدني في الالتحاق بمدرسة للتمثيل. فإذا استطعت أن أحصل على مكان في مدرسة، فمن الممكن أن أفوز بمنحة وبهذا سأظفر باستقلالي. قد يكون في ذلك شيء من التطفل أن أسألك إلحاقي بمدرسة، غير أنني لا أعبأ بهذا القدر من التطفل. ثم أستطيع بعد ذلك أن أعول نفسي، وأن نكون صديقين، أو ما تشاء، ولكن لا بد من أن أكون مستقلاً، هل فهمت؟».

ما أضعفني وأقل حيلتي أمام هذه القوة الحرة البريئة العاتية! سيتملص مني حتى قبل أن أتعلم كيف أحبه، أو أتعلم كيف أتحايل على الإمساك به!.

- «نعم، سأساعدك في الالتحاق بمدرسة للتمثيل، ولكن لا بد لنا من التفكير في هذا الأمر. سأذهب معك إلى لندن فيما بعد، وفي خلال ذلك قد يمكنك أن تساعدني هنا. غير أنني أريد أن أخبرك بشيء عن «بن»، شيء ينبغي أن تعرفه. قلت إنه ليس شخصاً سيئاً، ولكنه كذلك. إنه رجل شرير شرس. لقد حاول أن يقتلني». كنت أريد أن أؤثر على تيتوس وأن أهز حياده المروّع.

- «أن يقتلك؟ كيف؟».

- «لقد دفعني في الماء. لم أسقط مصادفة في تلك الحفرة البحرية. لقد دفعني فيها».

لم يُبْد تيتوس سوى انفعالٍ طفيف. وإنما انحنى إلى الأمام ليهرش لدغة بعوضة على كاحله. «هل رأيته؟».

- «كلا، وإنما شعرت به!».

- «كيف عرفت أنه هو؟».

- «وكيف يمكن أن يكون (الفاعل) أحداً سواه؟ قال إنه سيقتلني آخر مرة التقينا فيها!».

- «لا أستطيع أن أتخيل أنه يفعل ذلك، ليس هذا من طبعه، إنه شيء بعيد الاحتمال». قال تيتوس هذا في لهجة ثائرة مجنونة.

- «لقد دُفِعت! شخص ما دفعني في ظهري!».

- «أواثق أنت؟ من الممكن أن تكون قد سقطت إلى الوراء على صخرة ثم انزلقت إلى الماء، فتشعر وكأنك دُفعت. وقد احتسيتَ عدداً من المشروبات، كما تعلم. وقال الطبيب إنك كنت مشوشاً قليلاً فيما يتعلق بالمسألة كلها فيما بعد».

أحسست بأنني من التعب والتعاسة بحيث لا أستطيع المضي فيما أنا فيه. كنت أحمق عندما مشيت إلى هذا المدى. «فليكن يا تيتوس، فلنترك المسألة هنا. لا تردد ما قلته لأحد».

نظر إليّ تيتوس بعينيه الضيقتين اللتين بلون الصخر. «ها أنت ترى أن الأمر لم يكن لهواً كما توقعت، أقصد اللعب بالآباء والأبناء». وكان هذا أكرم شيء قاله.

قلت: «سأساعدك فيما يتعلق بمدرسة التمثيل. سنتحدث في هذا فيما بعد. والآن، انصرف، هلاّ فعلت!».

ونهض قائلاً: «لا بد أن أساعدك في الرجوع».

- «أستطيع أن أتصرف».

- «إنك لا تستطيع، وفضلاً عن ذلك، فإنها بدأت تمطر».

بسط إليّ يده فتناولتها، وشدّني إليه، ثم ظل ممسكاً بي. قال: «سيعرف كل منا الآخر يوماً من الأيام. هناك متسع من الوقت».

- «هناك متسع من الوقت».

هارتلي، الأعز، إصغي إليّ. أريد أن أفضي إليك بأشياء عديدة. أولاً، أنا آسف حين أخذتك بعيداً على هذا النحو واحتجزتك معي. كان هذا عملاً من أعمال الحب، غير أنني أرى الآن أنه كان عملاً طائشاً. لقد أشَعْت الخوف والاضطراب في نفسك. اصفحي عني. لقد كان هذا على الأقل برهاناً على أنني أهتم بك اهتماماً مطلقاً وعلى أنني حريص على اصطحابك بعيداً. أنت تنتمين إليّ، ولن أتنازل عنك. ومن ثمّ، فسوف ترينني عاجلاً مرة أخرى!.

أتوقع أن تكوني قد أمعنت الفكر في تلك الأوضاع منذ عودتك، ولعلك ترينها الآن أقرب قليلاً إلى وجهة نظري. وعلى كل حال، لماذا تبقين يا حبيبتي في أرض الشقاء؟ ليس الأمر وكأنما أنا غريب يعرض عليك شخصاً ما، وشيئاً لا تعرفين عنه شيئاً. قلتِ أنت نفسك إنني صديقك الوحيد! ويبدو عليك، عندما كنتِ هنا - أنك على استعدادٍ تقريباً لأن تقولي: «نعم» - كل ما في الأمر أنك كنت تخافينه. والخوف عادةً قبل كل شيء. ولكن، ألا تشعرين الآن في صميم قلبك أنك تتغيرين؟ وسوف تكونين في يوم قريب قادرة على أن تفعلي ما أردت أن تفعليه منذ سنين... الخروج من الباب!.

واسمعي... إنني أريد أن أخبرك بهذا. إنني لا أريد أن آخذك إلى عالم عظيم ساحر زاخر بالممثلين والمشاهير. فأنا لا أحيا في هذا النوع من العالم، على كل حال. قلتِ إنك تحبين حياةً هادئة. رائع، وكذلك أنا. وهذا هو سبب مجيئي إلى هنا، قبل كل شيء! سنذهب بعيداً كلانا فحسب، وسنحيا ببساطة في منزل صغير في مكان صغير، في إنجلترا، في الريف، بالقرب من البحر إن شئتِ، وسيجعل كل منا الآخر سعيداً بسبل بسيطة. هذه هي الحياة التي أردتها دائماً، والآن وقد تحررت من المسرح أستطيع أن أنالها - معك - في نهاية المطاف. سنعيش في هدوء، يا هارتلي، مستمتعين بالأشياء البسيطة. ألا يمكن أن تريدي الخروج من المنزل الذي تُسْتَضْعفين فيه غير محبوبة؟ وبالطبع سوف نساعد تيتوس وسيأتي إلينا بملء حريته، وسوف تلتئم تلك الندوب القديمة جميعاً. سوف نرعاه، غير أن الأهم دائماً سيكون أنت وأنا.

والآن، أريد أن أخبرك بشيء آخر، شيء رهيب. منذ ليلتين حاول «بن»

اغتيالي. إذ دفعني من فوق الصخور في الظلام إلى مياه المد المخيفة. ويعلم الله كيف نجوت منها. وأصابني من هذا ارتجاج في المخ، وأنا الآن أستطيع التجول بوجه عام. وقد عرضت على الطبيب (لا تنزعجي، فأنا على ما يرام). ومحاولة الاغتيال ليست من الأمور التي يمكن أن يتجاهلها المرء بهدوء، وأن يمضي في حياته وكأن شيئاً لم يحدث. لم أذهب إلى الشرطة بعد. وأن أذهب إليهم أو لا أذهب أمر يتوقف على «بن». وينبغي أن أضيف، وهذه نقطة جوهرية في الموضوع، أن هناك شاهداً لما وقع.

ومهما يكن من أمر، فلست حريصاً على الانتقام. أريد ببساطة أن أصحبك بعيداً. وبغض النظر عن أي شيء آخر. من المؤكد أنك لا تريدين البقاء مع رجل ثبت أنه خليق بارتكاب جريمة قتل. كفّي عن الرغبة في العذاب، هلا فعلت! وأرجوك أن تشرعي في إخراج حاجياتك، وأن تحزمي أمرك على ما سوف تأخذين من ثياب معك، وما شاكل ذلك. لن أستعجلك. غير أنني سأكون حول المكان، سأكون دخيلاً منتظماً، وسأتطفل في الداخل والخارج! وإذا اعترض «بن» فيمكنه: إما أن يَقْبل رحيلك، وإما أن يرغمني على اللجوء إلى الشرطة. ليس هذا ابتزازاً، وإنما مجال عادل أتيح أخيراً!.

لا داعي لإخبار «بن» بهذا، إلا إذا شئت ذلك. سأحضر عاجلاً في أعقاب هذا الخطاب، وسأخبره بنفسي! ولمّا كان موتي لم يُعْلن فسيعلم الآن أنه ليس متهماً بالقتل. استرخي يا حبيبتي، ولا يساورك القلق، ودعي الآن كل شيء لي. أخرجي تلك الثياب. أحبك. وسنكون معاً، أيتها العزيزة.

بحثت في مسألة الكتابة مباشرة إلى «بن»، ولكن بدا من الأفضل أن أُعِدَّ هارتلي أولاً. وكانت الصعوبة التي تواجهني مرة أخرى هي كيف أوصل الخطاب إليها. لم أكن أريد المجازفة بإفساد تدخلي بأن أسلِّمه لها بنفسي. ولم أكن أحب أن أطلب من تيتوس الذهاب، أما جيلبرت الذي طلبت منه فقد قال إنه خائف، كما لم أكن أريد أن أندب جيمس أو ليزي أو برجراين للقيام بهذه المهمة، أو معرفة أي شيء عنها. وفكرت في إرساله بالبريد في ظرف

مكتوب على الآلة الكاتبة، غير أنه كان يفتح بالطبع كل رسائلها. ولكن، ربما لم يكن من المهم كثيراً لو أنه فتح هذا الخطاب. كانت اللعبة تقترب من نهايتها.

كان هذا في اليوم التالي، وكنت قد كتبت خطابي في الصباح، غير أنني لم أستقر على رأي فيما سأفعله به. وبقي الآن أن أتخلص من جيمس وليزي. وكان بوسعي أن أطلب من جيمس الرحيل ببساطة. أما ليزي فكان لا بد من اختراع كذبة تُقال لها.

كان جيمس لا يزال في الفراش، وهذا أمر يدعو إلى الدهشة. فقد نام ساعات إثر ساعات. على حين أنني أنا الذي تعرضت للمحنة الحقيقية كنت أشعر بتحسن. صعدت لرؤيته.

ـ «جيمس، أيها الكسول. هل أنت على ما يرام؟ أعاودتك لمسة الملاريا القديمة؟».

كان جيمس لا يزال مستلقياً على ظهره في سريري، مستنداً بمكر في عش من الوسائد، باسطاً ذراعيه على نحو مستقيم فوق البطاطين. لم يكن يقرأ، وكان يبدو يقظاً، وكأنه يفكر، غير أن جسده كان يبدو مترهلاً نتيجة للاسترخاء، وقد نَمَت لحيته شيئاً من النمو غيَّر من وجهه، فجعله التغيير إسبانياً، رجلاً من رجال الكنيسة، أو محارباً زاهداً. ولم يلبث أن ابتسم ابتسامة تنم عن المرح، وتذكرت كم كانت هذه الابتسامة البلهاء تثير ثائرتي، وكم كان يبدو عليها أنها تدل على استعلاءٍ واثقٍ من نفسه. وكان الهدوء يسود الحجرة، وصوت البحر يأتي مكتوماً.

ـ «إنني على ما يرام. لا بد أنني أصبت ببرد. سأنهض حالاً. كيف تشعر؟».

ـ «بديع. أأستطيع أن أحضر لك شيئاً؟».

- «كلا، شكراً، لا أريد أن آكل. أحضرت لي ليزي شيئاً من الشاي».

قَطَّبتُ وجهي.

قـال جيمس: «أين تيتوس؟».

- «ليست لديّ أية فكرة».

- «إحرص على مراقبته».

- «يستطيع أن يعتني بنفسه».

ساد الصمت لحظة، فقال جيمس: «اجلس. ولا تتخذ مظهر من يريد الانصراف».

جلست. ويبدو أن استرخـاء جيمس ترك تـأثيره عـليّ. مددت سـاقيّ وشعرت بأنني قد أنام أنا نفسي، حتى وإن كنت جالساً على مقعد مستقيم الظهر. أحسست بكتفيّ وذراعيّ تدب فيها النعومة والتثاقل. كنت بالطبع مرهقاً أشد الإرهاق.

قلت: «لا أظن أنـك مـا زلت تنتـظر أن يعـود تيتـوس إلى بن، أليس كذلك؟».

- «هل قلتُ هذا؟».

- «ألمحتَ إليه».

- «إنه ينتمي إليهما على نحو ما».

- «إليهما؟»، قريباً، قريباً جداً لن تكون هناك هذه الـ «إليهما».

وعقب ذلك أردف جيمس: «أما زلت تحلم بذلك الإنقاذ؟».

- «أجل».

وران صمت آخر، وكأننا على وشك أن ننام. ثم استطرد جيمس: «وعلى كل حـال فإنه ابنهما بمعنى حقيقي عميق. وانطباعي كان أن تلك العلاقة تتجاوز كل إنقاذ».

أثارني «انطباعه» هذا. على أي أساس أقيم؟ وخطرت لي الإجابة الرهيبة: بالمحادثة مع تيتوس. كنت قد صعدت إلى الطابق العلوي لرؤية جيمس لكي أستعجل رحيله، واعتزمت ألا أخبره بشيء عن جريمة «بن». هذا الكشف يمكن أن يكون شائقاً جداً. غير أنني أحسست الآن بإغراء لزعزعة رضاه عن نفسه. وبينما كنت أفكر في هذا قلت: «إنني سأتبنى تيتوس».

- «تتبناه، قانوناً، أتستطيع ذلك؟».

- «نعم». والواقع أنني لم أكن أعلم. «سأحاول تشكيل مهنته. وسأترك له أموالي».

- «ليس الأمر بهذا اليسر».

- «وما هو الأمر العسير؟».

- «أن تعقد صلات، إنك لا تستطيع ذلك بمجرد انتقاء الأشخاص، هذا لا يمكن أن يُصْنع بالتفكير والإرادة».

كنت على وشك أن أرد عليه بقولي، أنت لا تجد هذا هيِّناً! ثم استحضرت صوت تيتوس وهو يقول: «أين يقيم ابن عمك؟» وتذكرت ما أخبرني به توبي إليسمير عن متسلق الجبال الذي كان جيمس مُغْرماً به، والذي قضى نحبه فوق جبل، وأحسست بدافع وقتي عصبي يحثني على سؤاله عن هذا «التعلق». غير أن هذا يمكن أن يكون وقاحة خطرة، إذ لم يغب عني الوعي إطلاقاً بأن جيمس يملك من القوة ما يستطيع به أن يلحق بي أذىً كبيراً. وما أعجب أن خوفي حتى الآن كان جزءاً لا ينفصل من علاقتنا المعكوسة! أبناءِ العمومة، جوار خطر Consinage, dangereux voisinage. كنت أشعر بالضيق في صحبته على السواء، إذ يجعلني أحس بالارتباك وعدم الكفاية، وكنت أرغب في إثارة هدوئه النعسان. غير أنني لم أستطع أن أحزم أمري بشأن إخباره عن «بن». فلو أنني أخبره فهل سيرجىء

هذا من رحيله؟ ومع ذلك كنت أتوق تـوقـاً شديداً إلى إخباره. والحق أن التفكير في أن كل فعل صغير له عواقبه أمر يوحي بالرهبة، وبخاصة إذا كان هذا الفعل علامة في مفترق الطرق بحيث يؤدي إلى نهايات متباعدة تباعـداً شاسعاً.

قال جيمس مستأنفاً الحديث: «أشـد العلاقـات واقعية هي العـلاقات اللاإرادية».

- «كما هو الحال في الأسرة، ماذا كنت تقول عن تيتوس؟».

- «نعم. أو أحياناً تبدو كأنها مُقَدَّرة. ويقول البوذي إنكما قد التقيتما في حياة سابقة».

- «أمِن الممكن أن تقول إنك رجل متطير؟ ولا تقل إن هذا يتوقف على ما تعنيه بالتطير».

- «في هذه الحالة أستطيع أن أجيبك».

- «هل تؤمن بالتناسخ؟ هل تظن أن الإنسان إذا ساءت أفعاله فسيولد من جديد على هيئة فأر. . أو. . . حمار قبّان*؟».

- «هذه مجرد صور، أما الحقيقة فتكمن وراء ذلك».
- «يبدو لي أنه مذهب مروِّع».

- «أديان الشعوب الأخرى تبدو مروِّعة في كثير من الأحيان. وتصوركم تبدو المسيحية مروِّعة في نظر غير المؤمن بها».

قلت: «إنها تبدو هكذا في نظري». وإن لم أكن قد فكرت في هذا من قبل. «هل يؤمن البوذيون بالحياة بعد الموت؟».

- «هذا شيء يتوقف. . .».

- «أوه، كفى. . .».

(★) Woodloux دويبة صغيرة كثيرة القوائم إذا لمسها المرء اجتمعت مثل حبة أو شيء مطوي (المورد).

قال جيمس: «بعض سكان التبت يؤمنون: . . » ثم قال مصححاً نفسه: (وكان يتحدث الآن دائماً عن هذه البلاد بصيغة الماضي وكأنها مدنية انقرضت) «. . كانوا يؤمنون بأن أرواح الموتى أثناء انتظارها للميلاد من جديد، تتجول في نوع من المطهر Limbo، لا يختلف عن «هادس» الهوميرية. ويسمونها Bardo. والأرجح أن تكون مكاناً غير بهيج. وهناك تلتقي بكل صنوف الشياطين».

- «إذن فهي مكان للعقاب؟».

- «نعم، ولكنه ضرب تلقائي من العقاب. والعلماء ينظرون إلى تلك الهيئات بوصفها رؤىً ذاتية تتوقف على نوع الحياة التي كان يحياها الميت».

- «لأنه في نوم الموت هذا يمكن أن تأتي أية أحلام». . .

- «نعم».

- «ولكن ماذا عن الإله أو الآلهة؟ ألا يمكن أن تذهب الروح إليهم؟».

- «الآلهة؟ الآلهة أنفسهم أحلام. إنهم ليسوا أيضاً سوى رؤى ذاتية».

- «إذن، على الأقل يمكن أن يأمل في شيء من الأوهام السعيدة في الحياة الآخرة!».

قال جيمس بلهجة حكيمة، وكأنه يناقش احتمال اللحاق بقطار: «ممكن. . غير أن قليلاً من الناس. . يكونون بغير. . . حراس من الجن. . .».

- «وهل يذهب الناس جميعاً إلى الباردو (المطهر)؟».

- «لست أدري. ولكنهم يقولون إن لديك فرصة في لحظة الموت».

- «فرصة؟».

- «لتصبح حراً. ففي لحظة الموت تُعْطى لك رؤية شاملة للواقع كله الذي يأتي إليك في ومضة. ولأكثرنا تكون هذه الومضة ـ حسناً ـ مجرد ومضة

عنيفة، أشبه بقنبلة ذرية، شيء مرعب وباهر ولا سبيل إلى فهمه. ولكن إذا استطعت أن تفهمه وتدركه، عندئذٍ تكون حراً».

- «إذن فمن المفيد أن تعرف أنك راحل. أي حراً في...؟».

- «مجرد حر... نيرڤانا... خارج العجلة».

- «عجلة التناسخ؟».

- «العجلة، نعم، عجلة الروابط والأطماع، والشهوات، كل ما يقيِّدنا بعالم غير حقيقي».

- «روابط؟ تعني حتى الحب؟».

- «ما نسمِّيه حباً».

- «وسنوجد حينذاك في مكان آخر؟».

قال جيمس: «هناك صور. البعض يقول إن النيرڤانا موجودة ولا يمكن أن تكون سوى هنا والآن. صور لتفسير صور، ورسوم لتفسير رسوم».

- «والحقيقة تكمن فيها وراء ذلك!».

أخلدنا إلى الصمت فترة قصيرة. وتراخى جفنا جيمس، غير أنني كنت أستطيع أن أرى بريق عينيه. سألته مداعباً: «أأنت في حالة تأمل؟».

- «كلا. لو كنت أتأمل حقاً لأصبحت لامرئياً. ويلاحظ كل منا الآخر لأننا مراكز لنشاط عقلي لا يهدأ. الحكيم المتأمِّل لا يُرى».

- «أجل، المذهب المروِّع بجلاء!» وما كان بوسعي أن أتبيَّن إن كان جيمس جاداً. أظن أنه لم يكن كذلك. وجعلتني المحادثة أشعر بحرج تام. قلت: «متى تعتزم الرحيل؟ غداً، على ما أتخيل؟ وبغض النظر عن أي شيء آخر، أريد أن أسترد سريري!».

قال جيمس: «نعم، متأسف، تستطيع أن تسترد سريرك الليلة. سأرحل غداً. لدي أعمال كثيرة أنجزها في لندن. عليّ أن أقوم بالإعداد لرحلة».

إذن فقد كان تخميني صحيحاً! إن جيمس لم يترك الجيش حقاً وها هوذا يعود سراً إلى التبت. أردت أن أشير في لباقة إلى أنني عرفت. «أوه، رحلة، بالطبع! أظن أنني أستطيع أن أتخيل.. على كل حال.. أنا لا أسأل أية أسئلة..!».

كان جيمس صامتاً، وهو ينظر إليّ الآن من خلال وجهه القاتم غير الحليق، وبعينيه الداكنتين. ألقيت نظرة سريعة وتطلعت بعيداً. قررت أن أخبره عن بن. «أنت تعرف... يا جيمس... عن سقوطي في الفجوة...».

- «مرجل مين». نعم».
- «لم أسقط مصادفة، وإنما دُفعت إليها».

فكّر جيمس ملياً: «ومن الذي دفعك؟».

- «بن».
- «أرأيته؟».
- «كلا، غير أن أحداً دفعني، ولا بد أن يكون هو».

نظر إليّ جيمس متفكراً، ثم قال على مهل: «هل أنت متأكد؟ هل أنت على يقين (أ) من أنك دُفِعت و(ب) أن بن هو الذي دفعك؟».

لم أكن أريد أن أكون أَلِفَ جيمس وباءاته. لم يكن يبدو أنه بتأثر بشيء، حتى محاولة الاغتيال. «حسبت أنني أستطيع أن أخبرك. لا عليك، إنسَ هذا الموضوع. إذن، فأنت راحل غداً، هذا بديع».

وفي هذه اللحظة سمعت صوتاً لن أنساه أبداً. وما زلت أسمعه أحياناً في هلوسات النهار. لقد مزّق شعوري ببيِّنته المباشرة على حَدَث مخيف، وامتلأت الحجرة بالخوف كأنه ضبابة. كان صوت ليزى. وكانت تصرخ في مكان ما أمام المنزل. ثم صرخت مرة أخرى.

حملقت أنا وجيمس كلٌ منا في الآخر. قال جيمس: «أوه كلا...» واندفعتُ أنا خارجاً فاشتبكت في ستار الخرز، وشرعت أتخبط نازلاً من الدرج. ركضت لاهثاً عبر الصالة ومنها إلى مدخل الباب الأمامي، وكدت أنكفىء على وجهي وكأنما التفت بي سحابة كثيفة من الإنهاك والقنوط حتى أوشكت على الإغماء. واستطعت أن أسمع جيمس راكضاً أثناء نزوله من الدرج خلفي.

يبدو أن شيئاً غير عادي يحدث على الطريق. كان أول شخص شاهدته هو برجراين الذي كان يقف بجوار سيارة جيلبرت ناظراً إلى الطريق في اتجاه البرج. ثم رأيت ليزي متكئة على ذراع جيلبرت، وتسير على مهل عائدة صوب المنزل. وهناك في الأعلى بالقرب من البرج كانت سيارة وجماعة من الناس يقفون وينظرون إلى أسفل إلى شيء على الأرض، فخطر لي أن حادثاً وقع في الطريق.

التفت برجراين فناديته، «ماذا حدث؟».

وبدلاً من أن يرد عليّ تقدم إلى الأمام، وحاول الإمساك بذراعي واحتجازي، غير أنني تخلصت منه.

كان جيمس الآن في إثري. وكان يرتدي عباءتي الحريرية التي كانت هارتلي ترتديها. وقال بدوره لپيري: «ماذا حدث؟».

توقفت، فقال برجراين لجيمس، دون أن يتوجه إليّ بالكلام: «إنه تيتوس».

تقدم جيمس صوب الفولكس ڤاجن الصفراء، وانحنى عليها. وغمغم شيئاً مثل: «كان ينبغي أن أراقبه...» ثم جلس على الأرض.

كان برجراين يقول شيئاً لي غير أنني ركضت صوب الركن متجاوزاً ليزي التي كانت جالسة فوق صخرة، وقد ركع جيلبرت بجوارها.

أدركت جماعة الناس. كانوا من الغرباء، وكان ينظرون إلى تيتوس الذي

كان راقداً على حافة الحشائش. غير أنه لم يكن مصدوماً بسيارة، كان غريقاً.

لا أستطيع احتمال وصف ما حدث بعد ذلك بالتفصيل. كان تيتوس قد فارق الحياة فعلاً، لا ريب في ذلك، وإن كنت لم أرد تصديق هذا في الحال. كان يبدو متكاملاً أشد ما يكون التكامل، جميلاً كأحسن ما يكون الجمال، راقداً هناك بلا حراك، عارياً يقطر منه الماء، وشعره داكناً بالماء، وقد أزاحه شخص ما عن وجهه، وعيناه مغمضتان تقريباً. كان يرقد على جنبه كاشفاً عن ثنية بطنه الرقيقة. وكان ثغره منفرجاً قليلاً، مبدياً أسنانه، وأتذكر أنني لاحظت شفته الشبيهة بشفة الأرنب. ثم لمحت علامة قاتمة على جانب جبهته، وكأنه ضُرِب بشيء.

عدوت عائداً صوب المنزل صائحاً على جيمس. وكان جيمس لا يزال جالساً على الأرض بجوار السيارة. قام متثاقلاً: «جيمس، جيمس، تعال، تعال!» لقد ردَّني جيمس إلى الحياة، ومن المؤكد أنه يستطيع أن يرد إليها تيتوس.

كان جيمس يبدو مذهولاً مبهوتاً. وكان على برجراين أن يعاونه على السير.

ـ «أوه، بسرعة، بسرعة، أسعفه!».

وفي الوقت الذي وصل فيه جيمس إلى الناصية كان أحد الغرباء ـ وهم سياح ـ يحاول أن يفعل شيئاً فعلاً. وكان قد أدار تيتوس على جبهته وأخذ يضغط على كتفيه بلا نتيجة.

قال برجراين، وكأنه يتحدث مخاطباً جيمس: «قبلة الحياة أفضل».

ركع جيمس على الأرض، وبدا عليه أنه لا يستطيع الكلام، فأشار بأنه ينبغي أن يعود تيتوس إلى وضعه السابق. وكانت هناك لحظة اضطراب، عدد من الناس يتحدث في وقت واحد، ثم صوت «سيرينة» الشرطة. وعلمنا فيما

بعد أن سيارة في طريقها إلى فندق الغراب قد نقلت الأنباء، واتصل الفندق هاتفياً بالشرطة.

تولى المسؤولية شرطي كِفِيّ سريع الحركة، فطلب منا أن نتراجع إلى الوراء، وبدأ هو نفسه محاولة إعادة التنفس فماً بفم. ووصلت عربة الإسعاف.

ابتعد جيمس وجلس على الحشائش. وبدأ أحد رجال الشرطة في توجيه الأسئلة إلى برجراين وإليّ عما إذا كنا نعرف من يكون تيتوس. وأجاب برجراين على أسئلته.

وظهر أن السياح حين ذهبوا إلى الاستحمام من الصخور إلى خليج الغراب شاهدوا جثة تيتوس يحملها المد حول الركن من البرج، فسبحوا خارجين بعد أن سحبوها إلى الشاطىء.

لم يكن هناك شيء يستطيع أحد أن يفعله. وضع الرجال تيتوس على نقالة، وأنزلوه في عربة الإسعاف. وتوقفت سيارات عديدة. وانصرفت سيارة الشرطة متوجهة إلى النيبليتس لإخبار الوالديْن. وكانت نتيجة التحري وفاة بكارثة. قضى تيتوس نحبه غرقاً بعد ضربة على الرأس. وافتُرِض أن موجة دفعت به إلى صخرة. أما ما حدث بالضبط فلم يتضح أبداً.

ومهما يكن من أمر فقد أصبح من الجلي جلاءً لا مزيد عليه بالنسبة لي أن تيتوس قد قتل. وأننا نواجه سفاحاً مجنوناً. واليد التي أخفقت في اغتيالي قد نجحت في القضاء عليه. غير أنني لم أتحدث بهذا إلى أحد في الوقت الحاضر.

نُقِلت جثة تيتوس إلى مستشفى في مدينة تبعد عدة أميال، وهناك تلقتها رحمة الحرْق التي لا تُفرِّق بين هوية وأخرى.

انقضت فترة قصيرة. مضى الزمن بالنسبة إليّ في غمامة من الغم والندم المرير، وفي اتخاذ القرارات التي يمليها الحقد.

كـان لا بد لجيلبرت من أن يعـود إلى لندن ليشـترك في تمثيل مسرحيـة تليفزيونية. وأما ليزي فقد بقيت. فلم ألبث أن اعتـدت على وجههـا التعس الذي اصطبغ بحمرة من البكاء. كما بقي برجراين أيضاً يعاني من الضجر الذي يوشك أن يكون غضباً، مرتدياً سرواله من التويد، وقميصه وحمالاته، ويسير يومياً متوغلاً في القرية على مقربة من «مزرعة آمورن»، ثم يعود ساخناً سهل الإثارة. كان من الجلي أنه بائس، غير أنه كان يبدو عاجزاً عن انتزاع نفسه من هذا البؤس. وكان يقود ليزي بسيارته مرة أو مـرتين إلى القـرية للتسوق. وكذلك بقي جيمس، ولكنه كان معتزلاً تماماً. كان لطيفاً معي، شديد الرفق بي، غير أنه لم يكن يتكلم إلا لماماً. كنا نمكث معـاً، وإن لم يتحدث أحدثنا إلى الآخر، بدافع من الإحساس بالحماية المتبادلة. وربما كان كل منهم يود أن يكون آخر من يرحل. وكنا جميعاً كمن ينتظر شيئاً.

كانت ليزي تقوم بالطهي. وكنا نعيش على الفطائر والجبن. إذ كان من المستحيـل أن نعود إلى الأعيـاد والاحتفـالات العـاديـة التي تتخلل الحيـاة البشرية، وإلى الوجبات التي يتطلع إليها الناس ويستمتعون بها. وكنا جميعاً ـ فيما عدا جيمس ـ نعب كثيراً من الخمر.

وفي اليوم الذي سـأصفه الآن استيقظت في ساعة مبكرة من الصبـاح يخامرني شعور بأنني حلمت بكابوس مريع، مريع. حلمت أن تيتـوس قد غرق. وذقت الراحة التي يستمتع بها الحالم المستيقظ. ثم تذكرت...

قمت من الفراش، وذهبت إلى النافذة. كانت الساعة حوالي السادسة، وكانت الشمس قد أشرقت منـذ فترة. وكـان جو الصيف البـارد قد عـاد مصحوباً بسماء غائمة وبحر هادىء. وكان الماء مصطبغاً بلون أزرق ـ رمادي شفاف شديد الشحوب يكاد يكون أبيض، في نفس لون السماء، يتحـرك حركة صغيرة راقصة سريعة، تنثر عليه الشمس الغائمة انفجارات دقيقة من

ضوء معدني ذهبي باهت ـ وكان البحر يبدو سعيداً، وشعرت أنني كنت أنظر إليه من خلال عينيْ تيتوس.

وكنت قد رجعت إلى مخدعي الخاص. أما الثلاثة الآخرون، وإن كنت لا أحب أن يتجاوروا على هذا النحو، فكانوا نائمين في الطابق الأرضي. وقد اعتزمت أن أطلب منهم جميعاً الرحيل في هذا اليوم. إذ كنت أشعر أنني الآن من القوة بحيث أستطيع أن أفعل ذلك، ورغم أنني كنت أخشى من الوحدة، إلا أن خططي كانت تتطلب العزلة.

ارتديت ملابسي بسرعة، ونزلت إلى المطبخ. وهناك وجدت برجراين يحلق ذقنه. تجاهلني فخرجت إلى المرجة ـ كان جيمس يهبط لتوه من الصخور. وبعد لحظة سمعت ليزي تتحدث إلى برجراين. كنا جميعاً قد استيقظنا مبكرين ذلك اليوم.

جلس جيمس على المقعد الطبيعي بجانب الحوض الذي وَضَعتُ فيه الصخور التي جمعتها، أو بالأحرى التي اعتدت أن أجمعها. شخص ما، لعله تيتوس، التقط الحجارة التي تناثرت من المرجة بعد تدمير «ماندالا» جيمس في ليلة الحفل. وكانت «حدودي» الحجرية سليمة نسبياً. فذهبت وجلست أنا أيضاً. وكانت الصخور دافئة فعلاً.

كان جيمس حليق الذهن، وكان وجهه الذي لوحته الشمس فأضحى مصطبغاً باللونين الأحمر والبني ـ ناعماً أشد النعومة فوق شعيرات لحيته الداكنة. وكان يبدو أوضح وأشد ظهوراً عن المعتاد على نحو ما، أو ربما كان الضوء أفضل. كانت عيناه العسليتان الغائمتان تبعثان بأشعتها الملونة بلون الغراء Ochre وشفتاه الرفيعتان الذكيتان متوردتين نُسجتا على نحو بديع، وشعره الفاحم لامع يشع بالحيوية، ويخفي بقعته الصلعاء. وكان القناع الغامض من مشابهته للعمة إستيل أشد حضوراً عن المألوف، وإن لم يكن مبتسماً.

ـ «جيمس، أريد منك أن ترحل، أريد منكم جميعاً أن ترحلوا. غداً، موافق؟» قطب جيمس جبينه. «هذا إذا أتيت أنت أيضاً. تعال وامكث معي في لندن».

ـ «كلا، ينبغي أن أبقى هنا».

ـ «لماذا؟».

ـ «لدي أشياء أريد أن أنجزها».

ـ «ماذا؟».

ـ «أوه، هذا وذاك، أشياء متعلقة بالمنزل، فربما بعته على كل حال. أريد أن أخلو الآن إلى نفسي. أنا بخير».

تناول جيمس حجراً من الحوض، وكان بنياً مذهباً بخطين أزرقين فاتحين يسريان حوله. «أنا أحب مجموعتك من الأحجار. أمن الممكن أن أحتفظ بهذا؟».

ـ «نعم، بالطبع. إذن فقد اتفقنا، أليس كذلك؟ سأخبر الآخرين».

ـ «ماذا تعتزم أن تفعل فيما يتعلق بـ «بن» وهارتلي؟».

ـ «لا شيء. لقد انتهى هذا الأمر».

ـ «أنا لا أصدقك».

هززت كتفيّ وهممت بالنهوض، غير أن جيمس أمسك بكم قميصي.

ـ «تشارلز، أخبرني بما تظن أنك فاعله. أعرف أنك تخطّط للإقدام على شيء».

ماذا كنت أخطّط حقاً لفعله؟ كنت في حالة أعرف جيداً أنها وثيقة الصلة بنوع من الجنون، ومع ذلك لم أكن مجنوناً. ضروب من الأفكار المتسلّطة، منها الوقوع في الحب، تصيب بالشلل جهاز التشغيل الحر العادي للعقل، وانفتاحها الطبيعي يهم طرائق عجيبة من الوجود، تُعَرَّف أحياناً تعريفاً مقنعاً

بأنها العقلانية. (أو التعقّلية). وكنت عاقلاً بما يكفي لأن أعرف أنني في حالة مسٍّ شامل (خضوع لفكرة متسلطة) بحيث لا أستطيع أن أفكر إلا في أفكار معذِّبة معينة تارة بعد أخرى، ولا أستطيع إلا أن أسلك باستمرار نفس المسارب الخاصة بالتوهم والقصد. غير أنني لم أكن عاقلاً بما يكفي لإيقاف هذه الحركة الآلية أو حتى الشعور بالرغبة في أن أفعل ذلك. كنت أريد أن أقتل «بن».

عندما أقول أنني أردت أن أقتل بن فإن ذلك لا يعني أنني وضعت خطة محددة أو برنامجاً محدداً له تاريخ معلوم. فإن هذا سيأتي إليّ، وسيأتي عاجلاً، إذا خلوتُ إلى نفسي. أما المرحلة الضرورية الخاصة بمجرد التأمل البائس فقد انتهت، وسأكون قادراً في وقت قريب على اتخاذ القرارات. لقد حاول «بن» اغتيالي، ويدهشني الآن، عند استرجاع ما حدث، كيف كنت قادراً على التغاضي أو «الصفح» عن هذه الجريمة، هذه الإهانة، بحيث لم أشعر بأنني مرغم على عقابها بوصفها كذلك. وكانت خطتي السابقة التي فات أوانها الآن - بمحاصرة هارتلي عن طريق «التجول في الداخل والخارج» كانت غايتها تستهدف «الإنقاذ» لا «العقاب». وقد اقترحت إرهابه لكي أتمكن من إبعادها فحسب؛ أما تحطيمه فلم يكن هدفي الرئيسي. أما الآن فقد اختلف الموقف تمام الاختلاف. إذ لم يكن في وسعي «التغاضي» عن مقتل تيتوس، أو أن أتركه بلا انتقام. ولأنني أخفقت في أن أموت فقد ضرب «بن» تيتوس على رأسه وأغرقه. لقد قتل الفتى مدفوعاً بحقده البشع عليّ؛ وكان من الممكن أن أصدِّق أنه مجنون بما يكفي لأن يفعل ذلك، عندما أرى كيف أصبحت الآن مجنوناً أنا نفسي. والحق أن أساس جنوني هو الحزن المحض، فقدان ذلك الطفل الغالي، الغالي، والهلع الذي استولى عليّ بموته المباغت، مصحوباً بإحساس بأنه ضحية شر غشوم. وكان البلسم الوحيد لموت تيتوس هو الكراهية، والإحالة الفورية للشقاء إلى غضب منتقم هادف. كما يكون مزيد من القتل في حرب أهلية هو العزاء الوحيد؛ وكما بدا لي حينئذ

لكي أتمكن من البقاء بعد مقتل تيتوس. فلا مناص لي من أن أصبح إرهابياً.

وخلال الأيام الأخيرة، عندما سمحت لنفسي أن أكون مراقباً في هدوء من جيمس وليزي، وفيما أنا أقوم بدوري في الحِداد البسيط، صوَّرت في الخيال مدى الكراهية الرهيبة التي لا بد أن يضمرها لي «بن» بمعتقداته المجنونة، ولتيتوس بسببي طيلة الأعوام البائسة التي استغرقتها طفولة تيتوس. ولا بد أن الصلة بيني وبين تيتوس قد تحولت في ذهنه إلى نموذج تسلطي دينامي (حركي)، فهو يرى الفتى أمامه باستمرار (كما يدور في ذهنه) رمزاً مجسَّداً لخيانة زوجته وهرب غريمه البغيض اللعوب دون عقاب، ذلك الغريم الذي يشاهد صورته الساخرة بانتظام في الصحف وعلى شاشة التليفزيون. و«بن» بطبيعته رجل عنيف، مدمِّر، قاتل. ما أشد بغضه لي ولطفلي الذي جاء سِفاحاً، وما أعنف ما تمزقت أحشاؤه بهذا البغض! إن معاقبة الزوجة والصبي لا يمكن أن تكون كافية أبداً، بينما يمرح المذنب الأول ويرتع حراً ضاحكاً! الكراهية الخالصة يمكن أن تكون شكلاً آمراً من أشكال الجنون. وكم من مرة بعد مرة، في كل تلك السنين، قتلني «بن» في خياله!.

وعندما التقينا أخيراً رأى في الحال أن عنفه وغضبه يتناسبان ـ سواء بسواء ـ مع العواطف الجياشة التي تعتمل في نفسي. وكان يعرف تمام المعرفة باعثي إلى دفعه في الماء، أثناء تلك المناسبة عندما وقفنا وجهاً لوجه فوق الجسر الصخري. كان يعلم أنني أريده أن يتنحى عن طريقي، ولعله خمَّن إلى أيّ مدى يمكن أن أذهب في نهاية الأمر. بل يستطيع أن يجادل بأنه حاول قتلي دفاعاً عن النفس. غير أنني عندما أخفقت أن أموت ـ لسوء حظه ـ وما زلت باقياً هناك، موبِّخاً إياه بوجودي الحر، وحمايتي الصفيقة لطفل السِفاح البغيض بوصفه «ابناً» لي، ماذا يمكن أن يكون أشد طبيعية من أن تتحول ثورة «بن» المجنونة عليّ من خلال الغلام، بحيث ربما تمخض ذلك عن

فعل للانتقام أكثر إشباعاً؟ وتذكرت كلمات «بن» الأخيرة التي وجهها إليّ حين ألحق لعنته على «الطفل الوضيع» قوله: «سأقتلك».

أمن الممكن أن أسير في العالم، و«أتغاضى» عن هذا الفعل، عن هذه الحقيقة؟ هذا شيء لا سبيل إلى التفكير فيه. الفعل ينبغي أن يُقَارِع الفعل. ولكن كيف؟ في كل هذه الأفكار كنت من سلامة العقل بحيث أحاول تثبيت نفسي بصورة هارتلي. حاولت أن أرى وجهها ناظراً إليّ، حزيناً وديعاً، جميلاً كما كان وربما كما يمكن أن يكون مرة أخرى. وسأنتقل إليها فيما بعد وأعانقها، وسيعزّي كل منا الآخر أخيراً. أما ما لم أستطع أن أدفع نفسي إلى رؤيته حقاً أو الشعور به فهو كيف يمكن أن يكون شكل السبيل الذي يؤدي تدمير «بن» من خلاله إلى هارتلي، أو ماذا يمكن أن يكون الشكل الذي يتخذه بالضبط تدمير «بن». والآن وقد شعرت بحريتي في تدميره، كنت أحس أحياناً بأن بغضي له أشد تسلطاً من حبي لهارتلي، أو على الأقل، كنت أعرف الآن - وأنا أراقب شعوري المتسلط - أنني لم أكن أرغب في إزالته بسببها فحسب. ذلك أن الإزالة أصبحت غاية في ذاتها.

وفيما يتعلق بما أعتزم القيام به فعلاً وضعت عدداً من الخطط المختلفة تماماً. لم تتجاوز بعد مرحلة التخيلات. وعندما أخلو إلى نفسي سيكون لديّ التركيز اللازم لتحويل إحدى هذه الخطط إلى اقتراح عملي. فكّرت في اللجوء إلى الشرطة. حاول شخص أن يقتلني، وتفسير كل الملابسات يشير بإصبع مبهم إلى «بن»، وسيكون من طبع «بن» - على ما خمّنت - أن يجيب على اتهام رسمي - أو حتى أن يشير - باعتراف بالذنب على سبيل التحدي. وقد تكون هذه بكل تأكيد أبسط وسيلة للإمساك به: أعني فتح شبكة كبيرة، وتركه يجري مباشرة ليدخل فيها. وكنت أرى «بن» بوصفه رجلاً بسيطاً عدوانياً ستشعره دقائق القانون المعقدة بالحرج، ومن ثم ستدفعه إلى احتقار الأشكال المهذّبة من الكذب. تلاعبت مع هذا التوهم كثيراً إلى درجة أن المسألة كلها

أخذت تبدو لي وكأنها أُنجِزت فعلاً. ومن ناحية أخرى، إذا أنكر «بن» التهمة في شيء من الاتساق المنطقي، فسأكون بالتأكيد مفتقراً إلى الدليل.

كما بحثت أيضاً ـ سواء بسواء ـ أخلاطاً متباينة من الخداع والعنف. فلو استطعت أن أستدرجه إلى المنزل وأن أدفعه إلى «مرجل مين» فسيكون هذا أعدل شيء على الإطلاق. غير أنه سيحترس بالطبع من المجيء. وبحثت طرائق أخرى لإغراقه. فلم تكن منها طريقة يسيرة. وكان أكثر ما يجذبني أنواع العنف المباشرة، وهي لا يمكن أن تكون مباشرة جداً على كل حال، لأن «بن» كان رجلاً قوياً خطراً، وإذا استطاع أن يلحق بي ضرراً خطيراً أثناء محاولة الإضرار به فسأجنّ حقاً من الكمد. وقد يكون شريك لي عوناً على ما أنا بصدده، غير أنني أقسمت أن أتصرف بلا شريك. ولم أكن قد نسيت أن هارتلي أخبرتني بأن «بن» يحتفظ بطبنجة الجيش. ولم يخالجني شك في أنه يحتفظ بها مُزيَّتة وملمّعة، ولكنه قد لا يمتلك الذخيرة. وكنت أملك مسدساً زائفاً أوتوماتيكياً جميلاً، من عهدة المسرح، غير أنني كنت أحتفظ به في لندن. ماذا لو جعلته يرفع يديه بهذا المسدس، وجعلته يدير ظهره إليّ، ثم ضربته بمطرقة! ثم ماذا؟ أُبْلغ الشرطة بالحكاية كلها؟ أجعل هارتلي تشهد بأنني فعلت ذلك دفاعاً عن النفس؟ ولما كان من الممكن في كل لحظة أن يقوم «بن» بمحاولة أخرى لقتلي فإن أفعالي المتخيلة بدأت في الواقع تبدو ـ أكثر فأكثر ـ أشبه بالدفاع عن النفس.

إن أولئك الذين يُحْبَسون في أقفاص ذهنية يستطيعون في كثير من الأحيان أن يتصوروا الحرية، غير أنها تكون مفتقرة إلى قوة الجاذبية. كما كنت أعرف أيضاً، وسط هذا كله، أن ذنباً ما اقترفته ولم يلق مني فحصاً دقيق كان يدفعني إلى مزيد من البغضاء؛ غير أن هذه لم تكن اللحظة المناسبة لكي يقوم الذنب بالتشويش عليّ. وبينما كنت أتحرك كالشبح، مؤدياً في المنزل وما حوله ضرباً من الرقص الطقوسي تحت أعين جيمس وليزي وبيري،

كنت أفكر في هارتلي وقد صوَّرتُ لنفسي حياة السكينة معها في ذلك المنزل الصغير الذي سنختفي فيه إلى الأبد. ومع ذلك فلو أنني فعلت ما أتوق إلى فعله بكل هذه الشدة، وما أعزي نفسي بالشوق إليه، فلو أنني حطمت «بن»، لو أنني قتلته أو أعجزته، أو دمرت عقله أو جعلته يذهب إلى السجن، أيمكن عندئذٍ أن أبتعد مع هارتلي في سلام؟ وماذا يمكن أن يكون شكل هذا السلام؟ ماذا يمكن أن تكون فكرة العدالة قادرة على أن تفعل من أجلي بعد ذلك؟ أليس موتي، تحت كل هذه الأقنعة، هو الذي كنت أخطط له؟.

قلت لجيمس، منتزعاً منه كمي الذي ما زال يمسك به: «لن أقدم على فعل شيء، كل ما في الأمر أنني أشعر بأنني محطَّم تماماً بالتعاسة».

- «تعال إلى لندن معي».
- «كلا».
- «أستطيع أن أرى أنك تدبِّر أمراً. وعيناك ممتلئتان برؤى رهيبة».
- «أفاعي البحر».
- «تشارلز، قصّ عليّ».

هذه الكلمات المعينة أعادت إلى ذهني كيف كان من الصعب عليّ أن أضلل جيمس عندما كنت صبياً. كانت له طريقة في استخراج الأشياء من نَفْس الإنسان، وكأن الأكذوبة المقصودة تتحول إلى صندوق على شفتي المرء ذاتهما. ومهما يكن من أمر فلن أخبره الآن بشيء. كيف يمكن أن أفشي لأحد بالفظائع التي تتزاحم الآن في عقلي؟ «جيمس، إذهب إلى لندن. سألحق بك فيما بعد، قريباً. سأذهب، وسأقوم بترتيب شقتي. لا تعذبني الآن. كل ما أريده يوم أو إثنان من الهدوء أخلو فيهما إلى نفسي هنا، هذا كل ما في الأمر».

- «لا بد أن في رأسك فكرة رهيبة».
- «ليست لدي أية فكرة، ذهني خاوٍ».

ـ «قلت لي شيئاً من قبل عن تخيلك أن «بن» هو الذي دفعك في المرجل».

ـ «نعم».

ـ «ولكنك بالطبع لا تعتقد ذلك حقاً».

ـ «بل أعتقده، غير أنه لم يعد مهماً بعدُ».

كان جيمس ينظر إليّ بطريقة حسابية. ونادت ليزي من المطبخ لتعلن أن الفطور جاهز. وأشرقت الشمس هادئة متألقة على الحشائش التي أنعشها المطر، على حافة الصخور الفاتنة، على الصخور الصفراء المتلألئة. وكان هذا رسماً ساخراً (كاريكاتور) لمشهد سعيد.

قال جيمس: «إنه مهم. ولا أريد أن أتركك ورائي هنا مع هذه الفكرة الزائفة تماماً التي استقرت في رأسك».

ـ «دعنا نتناول فطورنا».

ـ «إنها زائفة، يا تشارلز».

ـ «يبدو أنك تتحدث بحرارة واضحة! لك رأيك، ولي رأيي. تعال».

ـ «انتظر، انتظر، إنه ليس مجرد رأي. أنا أعلم. أنا أعلم أنه لم يكن «بن»».

حملقت في وجهه: «جيمس، ليس بوسعك أن تعلم. هل شاهدت الحادثة أثناء وقوعها؟».

ـ «كلا، لم أفعل، ولكن...».

ـ «هل شاهدها شخص آخر؟».

ـ «كلا...».

ـ «إذن، فأنّى لك أن تعلم».

ـ «أعلم وكفى. تشارلز، أرجوك، أمن الممكن أن تثق فيّ؟ بالتأكيد

يمكنك أن تثق فيّ. كل ما في الأمر، لا توجّه أية أسئلة. إقبل تصريحي لك بأن «بن» لم يفعلها. «بن» لم يفعلها».

تفرس كل منا في وجه الآخر. وكانت شدة لهجة جيمس، وعيناه، ووجهه الوحشي قد أنفذت الاقتناع داخل عقلي المقاوم. غير أنني لم أستطع تصديقه. كيف يمكنه أن يعلم ذلك؟ إلا.. إذا، إلا.. إذا كان جيمس نفسه هو الذي دفعني؟ كنا دائماً غريمين على هذا العالم، وكنت أنا الشخص الناجح. وكراهية في الطفولة، مثل حب في الطفولة، يمكن أن تدوم حياةً بأكملها. كان جيمس فتى شاذاً، رجلاً غريباً، ذا عقل غريب. وكان يمتهن مهنة لا رحمة فيها ولا شفقة، وتذكرت ملاحظاته المحترمة عن «بن». بل قد يكون الأمر أنه حاول إزالتي ببساطة لأنه يعلم أنني تكهنت بأنه عميل سري، وبأنه عائد إلى التِبْت ووضعتُ يديَّ حول رأسي.

وعلى كل حال فقد قلت: «انصت، يا جيمس، وكف عن محاولة التأثير عليّ. إن «بن» لم يحاول أن يقتلني فحسب، بل لقد قتل تيتوس».

قال جيمس: «أوه، يا إلهي!» وأعرض عني كأنما فَقَد كل أمل، ثم قال: «ما هو دليلك على أنه قتل تيتوس؟ هل رأيته؟».

- «كلا، ولكن هذا جليّ. لم يفحص أحد تلك الضربة على الرأس. وقد كان تيتوس سبّاحاً قوياً. وعندما حاول بن أن يغتالني...».

- «أجل، ذلك هو «دليلك»، غير أنني أعرف أنه ليس كذلك».

- «جيمس، ليس بوسعك أن تعرف! أنا أفهم هذا الرجل، وإلى أي مدى يمكن أن يكره. كل ما في الأمر أنك سررت برؤية جندي من زملائك. أما ما أراه أنا فقاتل بارع، ورجل يستهلكه البغض، مجنون بحقد الغيرة، مع تاريخ كامل، وأنا أعرف ما هو حقد الغيرة».

قال جيمس: «هذا هو ما أخشاه، حقدك. بماذا أقسم حتى أرضيك؟

أقسم بطفولتنا، وبذكرى آبائنا، وبقرابتنا كابنيْ عم، على أن «بن» لم يقترف هذا الفعل. ألا يمكنك أن تقبل هذا القَسَم وألا توجِّه إليّ أية أسئلة أخرى؟ دع هذا كله الآن، دعه يـذهب تعال إلى لندن، ودعنا نخرج من هذا المكان».

- «كيف يمكن أن «أقْبل»؟ إنك تجادل بأنه لم يكن «بن»، ولا تجادل بـأنني تخيلت هذا كله! أيمكنك أن «تقبل» هذه الحقيقة فحسب، وهي أن شخصاً مجهولاً حاول أن يقتلني؟ ولا يمكنك أن تكون على يقين من أنه لم يكن بن. إلا إذا تصادف أنه كان أنت؟».

قال جيمس مقطباً: «لم يكن أنا، لا تكن سخيفاً».

أحسست بدرجة مضحكة من الارتياح. لعلني إذن في لحظة من اللحظات قـد راودتني جدياً فكرة أن ابن عمي ممتـلىء بكراهيـة إجراميـة لي؟ بالـطبـع صدقته في الحال، وبالطبع كان تفكيري سخيفاً. ولكن، إن لم يكن جيمس هو القاتل، أو لم يكن «بن» كـما يجادل جيمس، فمن يكـون؟ تأثـرت بقسمه المهيب، وإن لم أستطع تصديقه. أيكون جيلبرت، المجنون بغيرته الخفية على ليزي؟ أتكون روزينا التي تندب ابنها المفقود؟ ربما كان هناك عدد كبير من الناس تحدوهم دوافع لقتلي. أيكون فريدي آركرايت؟ ولم لا؟ إنه يمقتني، وهو الآن في «مزرعة آمورن» حيث ذهب «بن» لإحضـار الكلب. أيكون «بن» قد استأجر فريدي ليقتلني، أو ربما لمجرد جعلي معوقاً، فانتهى الأمر بتلك السقطة الشنيعة؟.

كان جيمس يستطيع أن يراني مستغرقاً في التفكير، فأتى بحركة تنم عن اليأس.

قلت: «لست بارعاً في التكهن بالألعاب.. ظننت أنه «بن» وما زلت أظن ذلك».

قال جيمس: «تعال إذن إلى الداخل». ونهض

دخلنا المطبخ. كانت ليزي تقف عند الفرن. وكانت قد شبكت شعرها بمشبك إلى الوراء. وكانت ترتدي عفريتة (أوفرأول) قصيرة جداً فوق رداء قصير جداً. كانت تبدو أصغر سناً على نحو مضحك، وتنظر نظرة تلميذة حمقاء قلقة كانت تتخذها أحياناً. وكان پيري يجلس إلى المائـدة، وقد مـد رجليه تحتها، وأسند مرفقيه فوقها. وكان وجهه الضخم قد أخذ ينز دهنـاً ويتفصد عرقاً، وتوهجت عيناه. وربما كان مخموراً بالفعل.

اقتصر جيمس على قوله: «برجراين».

قال برجراين دون أن يتحرك، وما زال يحملق بعينيه الملتهبتين أمامه: «إذا كنتما تتناقشان عمن قتل تشارلز أو أخفق في قتل تشارلز، فقد كنت أنا».

- «پيري... ».

- «اسمي برجراين».

- «ولكن، برجراين، لماذا بحق الجحيم... أكنت حقاً... لماذا؟».

تحركت ليزي، دون أن تلوح عليها الدهشة، وجلست لتراقب. وكان من الجلي أنها كانت تعرف فعلاً.

قال برجراين دون أن ينظر إليّ: «أنت تسأل لماذا؟ فكِّر فحسب لماذا، فكِّر فحسب».

- «أنت تعني... يا للسموات، أنت تعني روزينا؟».

- «أجل أنا أعني ذلك. وإن يكن في هذا من الغرابة ما فيه، لقد حطمت زواجي عمداً، وأخذت زوجتي التي أعبدها، فعلت ذلك بعناية، وبأعصاب باردة، ودبَّرت ذلك. وعندما انتزعتها مني، هَجَرْتَها. بل إنك لم تكن تريدها لنفسك، وإنما كل ما كنت تريده هو أن تسلبها مني لتشبع الدوافع البهيمية لحبك للتملك وغيرتك! وعندما أشبعتها، وعندما تحطم زواجي إلى الأبد، رحت تستمتع بالرحلة في مكان آخر. وأكثر من هذا أنك توقعت مني أن

أتحمل ذلك وأن أستمر في حبي لك! لماذا؟ لأنك تعتقد أن كل إنسان يمضي دائماً في حبه لك أياً كانت الأشياء العفنة التي ترتكبها لأنك تشارلز آروبي الرائع الرائع».

- «غير أنك قلت لي يا برجراين أنت نفسك، أكثر من مرة، إنك كنت سعيداً بالتخلص من العاهرة. . .».

- «أجل، ولكن لماذا صدَّقتني؟ ولا تستعمل هذه اللغة البذيئة من فضلك. بالطبع، كل إنسان يعرف أنك تنظر إلى النساء بوصفهن بغايا. غير أن ما أزعجني هو أنك دمَّرت حياتي وسعادتي ويبدو أنك لا تعبأ على الإطلاق، لقد كنت متغطرساً ملعوناً».

- «لا أصدِّق أنك كنت سعيداً. . . إنما تقول هذا الآن. . .».

كلا، هذا حق، وأعترف بأن ذلك كان نزوة، وكنت سكران. كل ما فعلته هو أنني دفعتك، ومضيت في طريقي. ولم أشاهد حقاً ما حدث، فلم أكن أبالي».

- «أوه بحق المسيح! لقد أخذتها لمجرد الغيرة الحقود. فليكن، أنا أيضاً أستطيع أن أكون غيوراً».

- «غير أنك قد شجعتني أنت نفسك على الشعور بأن كل شيء على ما يرام! لماذا تحرص على التظاهر، وتعمد إلى تضليلي؟ ليس بوسعك أن تلومني الآن. . . لو بدا عليك أنك أشد تأثراً بالصدمة لأحسست بالذنب إحساساً أشد. غير أنك كنت لطيفاً كل اللطف معي، ودوداً إلى أقصى حد. . . كان يبدو دائماً أنك مبتهج لرؤيتي. . .».

- «أنا ممثل. . . وربما كنت مبتهجاً لرؤيتك. فنحن أحياناً نحب أن نرى الأشخاص الذين نبغضهم ونزدريهم حتى نستطيع أن نثير فيهم مزيداً من البراهين على مدى بشاعتهم».

ـ «وهكذا كنت تنتظر كل هذه السنين للانتقام!».

ـ «كلا، ليس الأمر على هذا النحو. وإنما كنت أستمتع باستدراجك للمضي فيما أنت فيه، ولمجرد النظر إليك، وتأملك، والتفكير فيما ستكون عليه دهشتك حين تعرف ما أشعر به نحوك حقاً. كنت حلماً سيئاً بالنسبة لي طيلة هذه السنين، كنت معي أشبه بشيطان، أشبه بسرطان».

ـ «أوه يا إلهي، إنني متأسف...».

ـ «لو تخيلت كم كنت أريد أن أسمعك تعتذر الآن...».

ـ «ربما أكون قد سلكت سلوكاً سيئاً نحوك، غير أنني لا أستحق الموت من أجل ذلك».

ـ «غير أنك قلت إنك لم تكن تحب العنف، وقلت إنك لم ترتكب مطلقاً...».

ـ «فعلاً، ولكنك كنت حالة خاصة. وكانت القشة الأخيرة هي رؤيتي روزينا الملعونة جالسة فجأة على قمة الصخرة، وكأنها ساحرة سوداء. فظننت أنك ما زلت على علاقتك بها، ومن الجلي أنك...».

ـ «لست شيئاً من هذا».

ـ «لم أعد أكترث...».

ـ «إني لأتساءل لماذا انقطعت عن الحديث عنها. كنت تدبِّر لقتلي».

ـ «لا أبالي بشيء، ولا أريد أن أعرف، ولا أصدِّق شيئاً مما تقوله، أنا أعتقد أنك شخص تافه. كل ما في الأمر أنني لم أستطع تحمل رؤيتها هناك، ولما كسر حاجز الريح الزجاجي لم أتحمل ذلك، كانت صدمة، جعلتني أشعر بالجنون، وأحدثت ثقباً في نفسي، وانصب إلى الخارج كل مخزون الكراهية القديمة، وكل الغيرة ذات العيون الخُضْر، في عنفوانها الدائم. وكان لا مناص من أفعل شيئاً لك. ولم أُرد حقًّا سوى أن أدفعك إلى البحر.

وأستطيع أن أقول إنني كنت ثملاً تماماً، فأنا لم أختر تلك البقعة، ولم أحسبها أنها تلك الدوامة المخيفة أو أياً كانت تسميتك لها. . .».

- «إذن فقد كنت محظوظاً، أليس كذلك؟ كان من الممكن أن ألقى حتفي».

قال برجراين: «أوه أنا لا أبالي، وأتمنى لو لقيت حتفك. فكرت في أن أناديك، لولا أن خطر لي أنك ربما قتلتني بدلاً من ذلك، لأنك تشرب أقل مما أشرب. وأظن أن الشرف راضٍ الآن على كل حال، ولن أكون مرغماً على تقديم مزيد من المشروبات إليك، حمداً لله، كما لم أعد مجبراً على أن أخبرك أي إنسان سافل أنت. أنت أسطورة منفجرة. وما زلت تعتقد أنك جنكيز خان! دعني أضحك «Laissez-moi rire». ولا أستطيع أن أتصور كيف تركتك تطاردني كل هذه السنين، أعتقد أن ذلك راجع إلى نفوذك وإلى المشهد الذي لا ينتهي لنجاحك وازدهارك مثل شجرة غار خضراء. أما الآن فأنت عجوز انتهى أمرك، وستذوي كما ذوى بروسبيرو* حين عاد إلى ميلان. ستصبح جديراً بالرثاء، شيخاً هَرِماً، وستقوم الفتيات الرحيمات من أمثال ليزي بزيارتك لرفع روحك المعنوية. أو سيفعلن ذلك على الأقل لفترة ما. إنك لم تصنع شيئاً على الإطلاق للبشرية، ولم تفعل مقدار خردلة لأي إنسان خلا نفسك. ولو لم تُعجب بك كليمنت لما سمع بك أحد على الإطلاق. لم يكن عملك جيداً أبداً، بل كان مجرد حزمة من الحيل التي تتسم بالادعاء، كما يمكن لكل إنسان أن يرى الآن أنها لم تعد ساحرة تأخذ بالألباب؛ وهكذا يخمد بريق المجد بسرعة، وستجد نفسك وحيداً، بل لن تكون وَحْشاً في عقل أي إنسان بعد ذلك، وسيتنفس الجميع الصعداء، ويشعرون بالأسى من أجلك، وسرعان ما ينسونك».

سادت لحظة صمت.

(*) شخصية من شخصيات شكسبير في مسرحية «تاجر البندقية» (المترجم).

قلت: «ولكن إذا كنت مسروراً كل هذا السرور من المسألة فلماذا تتحدث عنها؟ ما كان عليك إلا أن تلتزم الهدوء.. أم أنك تريدني أن أعرف؟».

- «أنا لا أعبأ بما تعرفه أو لا تعرفه. لقد استخرج مني ابن عمك هذا كله بوسيلة من وسائله الفنية في التحقيق. قال إنك تظن أنه «بن»، وأنك ترهق نفسك بهذه الفكرة».

- «إنك تتظاهر بأنك كنت تمقتني دائماً، وليس هذا حقًّا. لستَ ممثلاً عظيماً بهذا القدر. لقد أخبرتني عن عمك برجراين».

- «ليس لي عم اسمه برجراين».

أصابني ارتباك تام فقلت: «ولكن، ماذا عن تيتوس؟».

قال جيمس: «ماذا تعني؟».

- «ماذا حدث لتيتوس؟ من قتل تيتوس؟ أعني.. أنني فكرت.. من المؤكد أن «بن» قتله؟».

أجابت ليزي على هذا بعد لحظة. قالت: «تشارلز، لقد كانت حادثة، ولم يقتله أحد».

نهض برجراين وقال: «حسناً، المسألة على هذا النحو، وقد خرج ما كان في طي الكتمان، وأرجو أن يكون الجنرال راضياً. سأعود إلى لندن. وداعاً يا ليزي، كنت سعيداً برؤيتك». وسار إلى الخارج، وكنت أستطيع أن أسمعه وهو يجمع حاجياته. ثم تعالى صوت «الألفا روميو» وهي تتراجع بعنف في الممر الخارجي، ثم هديرها وقد أخذ يتلاشى رويداً رويداً.

قام جيمس وأطل من النافذة. وأخذت ليزي تبكي بلا صوت، وهي تملأ غلاية الشاي من الصنبور، ثم وضعتها على الموقد وأدارت مفتاح الغاز.

قلت لجيمس: «قلت إنك لا تريد أن تتركني خلفك هنا وقد استقرت

فكـرة زائفة في رأسي. والآن، لقـد ولّت هذه الفكـرة، ولم يعد ثمـة مـا يحتجزك».

استدار جيمس نحوي: «ألا تريد أن تأتي إلى لندن؟».

- «كلا».

- «ولكن، ماذا تنوي أن تفعله بشأنهما؟».

- «لا شيء. انتهى الأمر. انتهى الأمر».

وبالطبع لم يكن هذا حقًا.

مَرَّ ذلك اليوم واليوم التالي في شبه غيبوبة عليلة، فترة من الزمان بدت مثل سكينة الزهد والحزن الهادىء الذي يخلو من كل رجاء، غير أنه كان مفعماً حقًا بالخوف والحقد. كنت في لهفة شديدة على أن يرحل جيمس، ذلك أن مظهره وصحبته، وحضوره الفضولي اللامرئي كان يثيرني إلى ضروب من العذاب. وكانت ليزي تثيرني أيضـاً بـدموعها التي تسكبها من حين إلى حين والتي يبدو أنها لا تستطيع التحكم فيها، من نـاحية، وبـالتعبير المتعـاطف الأحمق الضارع الذي تتخذه عندما أنظر إليهـا، والذي يجعلني أرى بغتـة الصورة التي رسمها لي برجراين بوصفي ساحراً سابقاً هرماً لا حول له ولا قوة، يرثي لحاله الناس - من ناحية أخرى.

أستطيع أن أفهم لماذا تأبى ليزي الرحيل. إنها تريد أن تبقى حتى الذروة، فهي تنتظر اللحظة التي ينفد فيها صبري وأستدير إليها يائساً لكي يُمْسك بها وتُحمل بعيداً. أما السبب الذي يدعو جيمس إلى البقاء فكان أقل وضوحاً. ومن المؤكـد أنه يصـدِّق ما أخـبرته بـه، وهو أنني لم أعـد أنظر إلى بن بـوصفه قاتلاً. قد يرتاب في أنني لم أتخلَّ بعد عن فكرتي في إنقاذ هارتلي، غير أنه لا يستطيع مراقبتي - على كل حال - إلى الأبد. وكان من الواضح البيِّن أنني لا أرغب في العودة إلى لندن بسيارته «البنتلي». ولعل شيئـاً من اللباقـة - وكانت اللباقة لا تنقصه عادةً - يدفعه الآن إلى أن يتركني أنا وليزي على انفراد. ولم

يكن يبدو عليه أنه يريد حتى أن يتحدث إليّ، وكأنما يريد البقاء لغرض في نفسه. وأظن أنه كان يطيل التفكير في تيتوس، ويؤنب نفسه، كما كنت أؤنب نفسي، على التقصير في تشديد المراقبة على ما يفعله الغلام. وفي هذا الوقت تحاشيت الصخور والبحر، غير أن جيمس كان هناك دائماً، يسير فوق الصخرة المطلة على البحر، ويقف على جسر مين»، ويتسلق صاعداً إلى البرج، وكأنما كان يقيس المسافات المتّصلة بالموضوع.

وفي أصائل كثيرة كنتُ أسير أنا وليزي داخل القرية متجاوزين المكان الذي اعتزمت أن أضع فيه ـ في وجود سابق ـ حديقة أعشابي، في البلد الذي لم أستكشفه أبداً. وكانت المنطقة التي تمتد وراء الطريق مباشرة منطقة مستنقعات، مليئة بنتوءات صخرية وبأشجار الجولق، وبيحيرات صغيرة سوداء. وكانت هناك نباتات متشابكة من الخلنج ومقادير كبيرة من تلك النباتات الصفراء الدقيقة التي تتصيد الذباب، وزهور أرجوانية وبيضاء أشبه ببساتين منمنمة (منياتير). ويسكن في الهواء الأزرق زوجان من الصقور. وبعد المستنقع تنبسط الأرض الزراعية العادية، وتقوم سفوح التلال التي تتناثر فيها الماشية، وتبدو من بعيد حقول بلون الخردل تلتقط أشعة الشمس برقاعها الهائلة من الصفرة المتوهجة. وكان هناك عدد كبير من الأكواخ الحجرية المحطمة، بلا سقوف، غاصة بالأبيلوبيون (نبات أرجواني الزهر)، والبدليّة البرية والفراشات. ووصلنا إلى أطلال منزل ضخم، وقد تحولت أحواض الحديقة السابقة إلى غابة كستها الورود المتسلقة. وأنا أسجّل هذه التفاصيل التي أتذكرها بوضوح تام، لأنها كانت صورة دقيقة للأسى والشجن؛ أشياء تُرى، وكان من الممكن أن تبعث السرور، ولكنها عجزت عن ذلك.

كنت أنظر من خلال حجاب أسود من الشقاء والندم والتردد والخوف. وكان هناك شعور بأنني أحمل نعشاً صغيراً من الرصاص مكان قلبي. وكانت ليزى التي تسير إلى جواري تبكي تيتوس بملء جفونها، وما برحت تبكي في

كثير من الأحيان، وإن ازدادت هذه الأحيان في أوقات انفرادها واستغراقها في ذاتها؛ وفي شيء من الاقتصاد الذي تلجأ إليه المرأة في حزنها كنت أستطيع أن أشعر بمجساتها تتشبث بي. لم تكن ليزي موشكة على الهلاك، من أجل أي إنسان، ما دامت تستطيع أن تقاوم. ولو سقطتُ ميتاً لهرعت إلى البكاء في أحضان شخص آخر. هذه كلمات قاسية، غير أنني كنت أشعر بمرارة موضعية خاصة تجاه ليزي لأنني كنت أعرف حينئذٍ إلى أي مدى كان حزنها مؤقتاً، وما أسرع ما يتحول هذا الحزن ـ لو أنني احتجت إلى تعاطفها ـ إلى انتصار يتسم بالتملك. ليزي واحدة من أولئك النسوة اللواتي يذبن عذوبة وحناناً، واللواتي يعشقهن الرجال من أجل رقتهن المتعاطفة، غير أنهن يمتلكن قوة لا رحمة فيها حقاً للحفاظ على ذواتهن. فليكن، ولم لا؟ تحدثنا قليلاً أثناء سيرنا، وكنت أستطيع أن ألمح ليزي وهي تنظر إليّ من حين إلى آخر، وتقول لنفسها: هذا نوع من الارتياح يشعر به وهو يسير معي صامتاً على هذا النحو. إن حضوري، وصمتي يجلبان له الشقاء. ما من أحد آخر يمكن أن يمشي ويمشى معه بهدوء على هذا النحو. (هذا الاعتقاد الأخير مبرّر إلى حد ما). وبالطبع، قام الذنب أيضاً بتغذية سخطي. ذلك أن مسؤوليتي عن موت تيتوس التي احتلت عقلي الآن احتلالاً كبيراً، بلغت هذه الدرجة. لم أحذِّره أبداً من البحر. لماذا لم أفعل ذلك؟ بدافع من الغرور. وإني لأتذكر الآن بوضوح شديد ذلك اليوم الأول عندما قفزت أنا وتيتوس إلى الماء من فوق الصخرة المطلة على البحر. أردت أن أُريَه أنني أيضاً قوي لا أهاب شيئاً. وكنت سأفسد سحر هذه اللحظة لو قلت له: «هذا مكان خَطِر» أو «ليس من اليسير أن تخرج» أو «لا أظن أنني سأعوم هنا». كان لا بد أن أغوص معه وأن أخفي المصاعب التي أعرفها جيداً. كما أنني لم أبرز استحالة التسلق في أماكن أخرى. ولم أزكِّ أبداً درجات البرج؛ والواقع أنني لم أجدد الحبل هناك، ومع بحر هائج قد لا يكون صعود الدرجات أقل خطورة من تسلق الصخرة. وكذلك لم أراقب البحر أبداً من أجل تيتوس. كنت أتصرف

بدافع من الغرور، وبنوع من الزهو الأخرق ـ نيابة عنه ـ بشبابه وقوته، ورشاقته التي شاهدته يعرضها فوق البرج في اليوم الأول وكان يريد بالطبع أن يمارس الغوص دائماً. وما من فتى صغير يقتحم البحر بحذر إذا كان يستطيع الغوص. ولم أكن أريد أن أفسد صورتي عن تيتوس أو صورة تيتوس عني بأي احتراس خسيس.

أدرت هذه الأفكار في ذهني مرات ومرات، مفكّراً فيما كان يمكن أن أفعله، وفيما كان ينبغي أن أفعله، مثلما كان من المحتمل أن يفعل جيمس وهو يذرع تلك الصخور التي لم أكن أستطيع الآن النظر إليها. وكان شقائي من أجل تيتوس، وإحساسي الباكي الذي لا يفارقني بفقدان ما كان يمكن أن يكون أعظم نعمة في حياتي كان أشد ما يكون الآن بعد أن انتُزع مني اعتقادي المتسلط بشأن «بن». إذ كان ذلك الاعتقاد عزاءً حقاً. فقد حمل «بن» وزري. لقد ولّى الجنون، غير أنه لم يخلف وراءه حزناً أصح ولا أنقى. ذلك أن عبء الخطيئة والقنوط الذي حملته كان ثابتاً، كل ما في الأمر هو أنه أعيد توزيعه. وفتحت جوانب أخرى من الأسى أمامي. لقد قتلت ابن هارتلي، واقتحمت حياتها اقتحام الغشوم، وانتزعت منها نعمتها التي كانت تنتمي إليها بطريقة لا يمكن بها أن تنتمي إليّ أبداً. لم أكن أجرؤ على تخيّل حزنها، وكيف يمكن أن يؤثر على مشاعرها نحوي. هل تنظر إليّ الآن بوصفي قاتلاً؟ وفي بعض الأحيان؟ كنت أشعر ـ على نحو غريب ـ أنه لن يخطر لها أن تلومني. لن تكون قادرة على مثل هذه الفكرة: أن تراني مجرد سبب عابر غشوم. وكنت أشعر أحياناً أخرى بأن حزننا على تيتوس قد يجمعنا بالفعل، مع استبعاد «بن». ولا مندوحة لي في هذه الأثناء عن الانتظار. بل شعرت أنه ليس من المحتمل الآن أن تعطيني علامة. وفي تفكيري هذا ـ كما ثبت فيما بعد ـ كنت مصيباً.

وفي هذه الحالة من الانتظار، والمراقبة، والتأمل والحزن، أخذت أجوب أنا وليزي المنطقة الريفية. ثم بدأنا نتحدث عن الأيام الخوالي، عن ولفرد

وعن كـليمنت.وقالت ليزى كيف كانت غيرتهـا من كليمنت حتى بعد أن أقلعت عن معاشرتها. «كنت أشعر دائماً أنه مهما حـدث فإن كليمنت كانت تملكك». وتحدثنا عن المسرح وكم كان رائعاً، وكم كان رهيباً، وكم كانت سعادة ليزي بالخروج منه. وسألتني ليزي عن جان فأخبرتها بالقليل عنها، وندمت على ذلك إذ كان من الواضح أن ذلك أساء إليها كثيراً. وفي هذه الجولات، كانت ليزي بعرقها وبما ترتديه من ثياب باهتة مـجعَّدة، وبوجهها اللامع الأحمر الذي لفحته الشمس، وبدموعها المفاجئة ـ كانت تبدو في سنِّها الحقيقية. كانت امرأة يتباين مظهرها تبايناً شديداً. كانت تستـطيع أن تبـدو ـ مع هذا كله ـ طفولية، بتلك الـطريقة الغـامضة التي يمكن أن يمـتزج فيها الشباب بالشيخوخة في نظرات امرأة. غير أنها فقدت تألقها، أو لعل رؤيتي لها هي التي انطمست. كانت مخلصة وعذبة، وحـاولت جاهـدة أن تجلب العزاء لنفسي بحديثها عن الأشياء المحيطية لا عن الأشياء المركزية. «بالطبع إن بيري لا يكرهك، ولم يفعل ذلك إطلاقاً، إنما يقول ذلك فحسب. إنه يحبك، بل كان متفانياً فيك، وكان يتحدث عنك دائماً بإعجاب شديد».

وفي عصر يوم عدنا عن طريق يؤدي دون توقع منا إلى مزرعة آمورن، وكنت أحاول أن أتجنبه عادة. مررنا بسرعة بجوار المزرعة يصاحبنا كورس من الجراء العاوية، وما إن شعرت بشيء من الارتيـاح حتى ظهـر بغتة رجـل «الأسد الأسود» بوب آركرايت عند الناصية خارجاً من زقاق جـانبي. اقترب منا بنظرة هادئة مركزة أشبه بنظرة كلب يقترب صامتاً، ولكنه يتهيأ للزمجرة والعض.

ـ «كانت حكاية سيئة، يا سيد آروبي».

ـ «نعم».

ـ «حذرتك من البحر، أليس كذلك؟».

- «بلى».
- «لم يكن يستطيع الخروج، هذه هي المسألة».
- «ربما».

- «لقد رأيته، في اليوم السابق مباشرة. كنت في مكان عالٍ قريب من البرج، وشاهدته وهو يحاول ويحاول أن يتسلق تلك الصخرة الجرداء القريبة، من منزلك، ولكنه ظل يسقط مرة بعد أخرى. كان من الجنون المطبق السباحة وسط أمواجٍ كتلك الأمواج. ثم استطاع أن ينهض على نحو ما، ولكنه كان منهاراً تماماً. وما إن وصل إلى القمة حتى تخبط فجأة. ولا بد أنه أجهد نفسه فقذف به الموج على الصخور. هذا ما حدث، أراهن. ما كان ينبغي أن يسمح له بالعوم هناك. هذا البحر سفاح، كما أخبرتك، أليس كذلك، أليس كذلك؟».

- «بلى. ما كان ينبغي أن يحدث ما حدث». ومضيت في طريقي.

ناداني: «أخي فريدي يعرفك. إنه يعرفك».

لم ألتفت إليه. والتزمت أنا وليزى الصمت طوال طريق العودة إلى البيت. وقررت أن أخبر جيمس بالرحيل غداً، وأن أقوم بترحيل ليزى في اليوم التالي، وما كنت أستطيع أن أصرفهما معاً، لأنني لم أكن أريد أن يقوم جيمس بتوصيل ليزى في سيارته إلى لندن. شعرت بأنني لم أعد بحاجة إليها، كما أستطيع بكل تأكيد الاستغناء عنه، ويبدأ الموقف يصبح أمراً لا طاقة لي به أن أراهما شاهديْن على عقوبة الفزع التي أعانيها، وأشعر بها شعوراً متزايداً - من جراء المهانة التي لحقتني.

دخلت المنزل مصمماً على البحث عن ابن عمي وإبلاغه أن يرحل صباح اليوم التالي، وهنا سمعت صوت صيحة يتردد بارتفاع غير مألوف تماماً. وفاتت لحظة قبل أن أدرك أنه الهاتف الذي نسيت وجوده. كانت هذه هي

المرة الأولى التي ينبعث فيها رنينه، وفكرت لأول وهلة أنها قد تكون هارتلي. ثم لم أستطع بالطبع أن أعثر على ذلك الشيء، إذ لم أكن أتذكر الحجرة التي هو فيها. حددت مكانه أخيراً في حجرة الكتب، وهرولت إليه بأمل يائس.

كان صوت روزينا.

- «تشارلز. إنه أنا».

- «أهلًا».

- «أقول، إنني آسفة من أجل ذلك الفتى التعس».

- «نعم».

- «آسفة كل الأسف، ماذا يمكن أن يقول المرء؟ ولكن، اسمع يا تشارلز، أريد أن أسألك شيئاً».

- «ماذا؟».

- «أحقيقة أن برجراين حاول قتلك؟».

- «لقد دفعني إلى البحر. لم يكن يحاول قتلي».

- «لكنه دفعك داخل تلك الفجوة المريعة حيث يصطخب البحر».

- نعم».

- «يا للسموات!».

- «أين أنت؟».

- «في فندق الغراب الأسحم. وقد حصلت على بعض الأنباء».

- «ماذا؟».

- «هل تعرف ذلك الفيلم الملحمي البشع «الأوديسا» الذي يقوم فرتيزي آيتل بإنتاجه؟».

- «نعم».

- «جميل، لقد عرض عليّ دور كاليبسو!».

- «إنه يناسبك».

- «أليس ذلك مدهشاً؟لا أعرف متى شعرت بمثل هذه البهجة والسعادة».

- «عظيم. أرجو أن تتركيني وحدي، هلا فعلت، يا روزينا؟».

- «سأتركك وحدك».

ووضعت السماعة.

وفيما كنت أخرج من حجرة الكتب سمعت ليزي تتحدث إلى جيمس في المطبخ. كان الباب مغلقاً، ولكن شيئاً في لهجة المحادثة استرعى نظري لغرابته. توقفت، ثم ذهبت وفتحت باب المطبخ. قال جيمس وهو ينظر إليّ من فوق كتف ليزي: «تشارلز».

وما أسرع ما ينقضّ الذعر الذي يتنبأ بشيء! تسارعت ضربات قلبي، وجفّ فمي.

- «نعم؟».

خرجا إلى الصالة، وكانت ليزي خائفة، حمراء الوجه.

- «تشارلز، نريد أن نقول لك شيئاً أنا وليزي».

وما أسرع ما يندفع العقل البشري صوب أدقّ رؤى الكارثة. عشت لمدة ثانيتين في تجربة طويلة من العذاب الذهني. قلت: «أعرف ما تعتزم قوله».

قال جيمس: «إنك لا تعرف».

- «تعتزم أن تقول إن كلاً منكما قد أصبح شديد التعلق بالآخر، وتشعران بأنه ينبغي أن تخبراني بذلك. موافق».

قال جيمس: «كلا، ليزي متعلقة بك، لا بي. هذه هي المسألة، ولهذا لا بد أن أخبرك بشيء كان ينبغي أن أخبرك به منذ أمد بعيد».

- «ما هو؟».

- «تعارفت أنا وليزي منذ زمن طويل، غير أننا قررنا ألا نخبرك لأنه من المؤكد أنك ستكون غيوراً بصورة غير معقولة. هذا هو الموضوع بإيجاز».

حملقتُ في جيمس. كان يبدو على هيئة لم أكن أفكر أن أراه عليها طيلة حياته. لم يكن يبدو مذنباً بالضبط، وإنما مرتبكاً ضائعاً على نحو ما. استدرت لحظة، وفتحت الباب الأمامي على مصراعيه.

قالت ليزي وهي على وشك البكاء: «أرأيت...».

قال جيمس: «دعيني أَقُمْ بهذا».

قلت: «لا أظن أنك لست بحاجة إلى أن تقول شيئاً آخر».

قال جيمس: «إنك تقفز إلى النتائج».

- «ماذا تتوقع مني أن أصنع؟».

- «تنصت للحقيقة. التقيت بليزي منذ مدة طويلة في حفل أقمته احتفالاً بالليلة الأولى لإحدى مسرحياتك. وتصادف أن كنت في لندن، وحضرت هذا الحفل».

- «مرة واحدة: أظن أنني أستطيع أن أتذكر حتى المناسبة».

- «تذكَّرتني ليزي ببساطة لأنني كنت ابن عمك. ثم في وقت لاحق، بعد أن هجرتها، وكانت تعسة، اتصلت بي هاتفياً لتسألني إن كنت أعرف عنوانك في اليابان... كان ذلك عندما كنت تعمل في طوكيو».

قالت ليزي في صوت مختنق بالعبرات: «أردت أن أكتب إليك. أحسست بأنه ينبغي أن أفعل ذلك. كانت تلك فكرتي. وقد أقحمته في هذه المسألة...».

قلت: «ولكنكما تقابلتما.. ولم تكتفيا بالحديث في الهاتف».

- «أجل، تقابلنا، ولكن نادراً غاية الندرة، ربما في كل تلك السنين لم نتجاوز ست مرات».

- «أتتوقعين أن أصدِّق ذلك؟».

قالت ليزي: «كان آسفاً من أجلي».

- «فراهنت على أنه كذلك! وهكذا التقيتما لتناقشا حالتي».

- «نعم، ولكن بطريقة أستطيع أن أقول عنها إنها أشبه بطريقة عمل».

- «أوه، أشبه جداً بطريقة عمل!».

- «أعني أن ليزي لم تكن تريد سوى معرفة أين أنت، وكيف كنت. ولم تتناول مناقشتنا شيئاً آخر سوى ذلك. كانت معرفة كل منا بالآخر طفيفة، وكانت لا شخصية ولا عاطفية».

- «هذا لا يمكن أن يكون صدقاً».

- «كان الأمر متعلقاً بك تماماً، لا بليزي ولا بي. وكما قلت، لم نكن نلتقي إلا لماماً، ولم نتصل حقاً بأية طريقة».

قالت ليزي: «لقد أخبرني أن أكف عن إزعاجه، غير أنني كنت أتوق كثيراً في بعض الأحيان لمعرفة كيف كنتَ...».

- «إن جيمس هو آخر من يعلم على الإطلاق كيف كنت!».

قال جيمس: «بالطبع كان ينبغي أن نخبرك منذ أمد بعيد بأن كلاًّ منا يعرف الآخر معرفة سطحية. غير أن طبيعة هذا التعارف كان من المحتمل أن تثيرك. وإذا غفرت لي هذا القول فإنني أعلم أي استعداد لديك للغيرة المجنونة».

- «اجتهدت أشد الاجتهاد لكي توضِّح أنني هجرت ليزي في الوقت الذي نَضَجَتْ فيه معرفتك بها...».

- «إنها لم تنضج أبداً. والغيرة تولد مع الحب la jalousie nait avec l'amour»..

- «هذا حق تماماً».

قالت ليزي: «ماذا يعني هذا؟» وكانت لا تزال تبدو حمراء الوجه، مذعورة، بائسة.

ـ «الغيرة تولد مع الحب، غير أنها لا تموت دائماً مع الحب».

سألت جيمس: ولكن، لماذا تخبراني الآن؟ كان من الممكن أن تستغلاني كلاكما إلى الأبد».

كرر قوله: «كان ينبغي أن أخبرك مبكراً، كان من الممكن ألا يحدث هذا كله على الإطلاق. أية كذبة خَطِرة أخلاقياً».

ـ «تعني أنه من المحتمل اكتشاف أمرك؟».

ـ «كان ذلك حائلاً. و. . . و» ووجد الكلمة الصائبة «وصَدْعاً».

ـ «في تصورك لنفسك».

ـ ««في. . » وبحث عن الكلمة مرة أخرى: «في صداقتنا، أجل. . . وفيّ».

ـ «صداقة! أياً كانت العلاقة بيني وبينك فمن المؤكد أنها ليست صداقة!».

ـ «وفي وقت مبكر، شعرت بأنه ينبغي عليّ حماية ليزي».

ـ «طبعاً!».

ـ «ولكن الآن. . ـ مؤخراً ـ أضحى من الضروري إخبارك، من أجل ليزي، حتى لا يكون هناك أي عائق».

ـ «عائق لأي شيء، بحق الإله؟».

ـ «لحبها لك، ولحبك لها. الأسرار دائماً خطأ ومصدر للفساد».

وغمغمت ليزي بلا تفكير: «ثم كان هناك توبي Toby».

ـ «توبي؟ يا للسيد المسيح، كيف تدخل توبي في هذا؟» وسألت ليزى: «أتعنين توبي إليسمير، أليس كذلك؟».

قال جيمس: «لقد رآني أنا وليزي في المشرب معاً».

ـ «وتحدثتم عني طبعاً!».

ـ «نعم».

ـ «ولما كنتما تخافان أن يخبرني فقد شعرتما بأنه ينبغي عليكما أن تفعلا ذلك! وإلا لمضيتما في الكذب إلى ما شاء الله».

قالت ليزي: «كنا سنخبرك على أي حال. أحسسنا بأنه لم يكن هناك بد من ذلك. بدأت المسألة تصبح كابوساً، أو هكذا على الأقل بالنسبة لي. بدا الإفضاء شيئاً صغيراً يجب البدء به، لم نكن قد قطعنا شوطاً من علاقتنا، وكان يبدو من المعقول ألا نخبرك، لمعرفتنا بطبعك. ويجب أن تفهم، فإننا لم نتقابل إلا خمس دقائق فحسب كل سنة. ولم أتصل به هاتفياً إلا بين الحين والآخر، ونادراً جداً، إلا لأسأله عنك. ولم يكن موجوداً في العادة، على أي حال...».

ـ «ما أسوأ ذلك. كنتما تقومان كلاكما بالتجسس عليّ. أو هكذا بدأ الأمر على الأقل...».

قال جيمس: «لم يكن الحال على هذا المنوال. ولكنه، بالطبع، إذا شرع المرء في الكذب فإنه يستحق ما يلاقيه».

ـ «وعندما التقيتما هنا تظاهرتما بأن كلاً منكما لم يلتق بالآخر... هذا مشهد سوف أتذكره!».

قالت ليزي: «لم نخبرك لأننا كنا نعلم أنك ستصر على إساءة الفهم. وها أنت ذا مُصِرٌّ على إساءة الفهم».

ـ «وعلى هذا أظن أنكما تفكران كلاكما بأن الأمر كله خطأ مني لأنني ـ على حد تعبيركما ـ غيور بجنون!».

قال جيمس: «الغلطة غلطتي أنا».

قالت ليزي: «كلا، كلا، إنها غلطتي أنا. أنا التي أرغمته على ذلك، فأنا أعلم أنه يمقت الكذب...».

قلت لليزي: «ربما كنت أعرف جيمس بأفضل مما تعرفينه، على كل حال، إنه رجل لم يفرض عليه أحد قط شيئاً يكرهه».

- «إنها ليست غلطته. . .».

قلت: «هذا الجدل لا يهمني، وتستطيعان أن تستمرا فيه في مكان آخر، وأنا متأكد أنكما سوف تستمتعان به كثيراً».

قالت ليزي لجيمس: «قلت لك إنه سيكون على هذه الشاكلة. قلت لك إنه لن يفهم. . .».

قال جيمس: «فليكن، هذا هو الموقف. وهذا الاعتراف ليس مسرفاً في الجاذبية، غير أنني أرجو أن تستطيع الفهم، أو أنك ستفهم حين تهدأ ثائرتك. .».

- «ماذا تعني بـ «تهدأ ثائرتك؟»».

- «إنها ليست ـ من وجهة نظري ـ مسألة ذات أهمية يهتز لها العالم. من الطبيعي أن تثيرك. ولكنك سترى حين تمعن الفكر أنها لا تغير علاقتك بليزي، أو علاقتك بي، على ما أتمنى. ومن الجلي كيف حدثت ولماذا، فليكن، كان ينبغي ألا تحدث، وأنا آسف. . .».

- «أتخيل أنني أصدقك؟».

قال جيمس: «نعم». ونظر إليّ مقطّباً، غير أن وجهه ارتسم عليه تعبير يكاد يكون نوعاً لا معقولاً من الحزن على فقدان الكرامة، أو على فقدان المبادرة، ولو مرةً واحدة فحسب.

- «ولكنني لا أصدقك. ولِمَ ينبغي أن أصدقك؟ وكيف أستطيع؟ هذا شيء وضيع، فظيع. إنك تعترف بأنك لم تخبرني إلا لأن توبي رآك تقابل ليزي سراً في المشرب. أمن المفروض أن أكون سعيداً لأنكما كنتما تلتقيان منذ سنين. . .».

- «أحياناً قليلة جداً جداً».

- «وتتحدثان عني؟».

قالت ليزي : والدموع في عينيها: «إنك لا تتصور كيف كان الأمر. إنه لم يكن يشغلنا طيلة الوقت على الإطلاق، ولم تكن علاقة كما تظن، إنما مجرد أننا التقينا مصادفة في ذلك الحفل. . . ».

- «والمغزى الأخلاقي هو ألا يقيم المرء حفلات أبداً».

- «ولا نستطيع أن نمحو ما حدث، وقد سألت جيمس أحياناً عن حالك كيف أنت، وأين كنت، لأنني كنت أحبك، وكان هو صلتي الوحيدة بك، طيلة الوقت الذي كنتَ فيه مع جان. . وتلك الفترة التي كنت فيها في اليابان وفي أستراليا و. . . كنتُ أفكر فيك. . ولم يكن هناك أحد آخر سوى جيمس أستطيع أن. . . ».

- «لم يكن أحد آخر سوى جيمس، بديل مناسب جداً على ما أعتقد. ألا تستطيعين أن تـري ما ينطوي عليه من إساءة شريرة؟».

قال جيمس: «إنها على حق، إن الأمر يختلف تماماً عما تفكـر فيه. وأيـاً كان الأمر. . . ».

- «أستطيع أن أرى فحسب كـلاًّ منكـما ممسكـاً بيـديِ الآخـر وأنتـما تتحدثان عني!».

قالت ليزي: «لم يمسك أحدنا بيديِ الآخر أبداً!».

- «يا للسيد المسيح! أتراني أعبأ بأن كلاًّ منكما أمسك يديِ الآخر أو لم يمسك؟ أو أي شيء كنتما تفعلانه ولن تعترفا به أبداً؟ كنتما تتصلان هاتفياً وتلتقيان وينظر كل منكما في عينيِ الآخر. . . إنِّي أتوقع أن يكون كل منكما قد عرف الآخر إلى الأبد، بل أجرؤ على القول بأنك عرفت ليزي قبل أن ألتقي بها، كنتَ هناك أولاً، كنت هناك قبلي، كما كنتَ مع. . . كما كنتَ مع. . مع العمة إستيل. . ومع تيتوس. . لقد التقيت بتيتوس من قبل، لقد قال إنه شاهدك في حلم. أتوقع أن تكون أنت الشخص الذي عـاش معه تلكـما السنتين، ولا عجب أنه لم يقـل شيئاً! وأنت الذي جعلت ليزي تغني تلك الأغنية الخاصة التي كانت تحبها العمة إستيل. أنا واثق من أن ليزي تحلم بك

كل ليلة، إنك في كل مكان، مُفْسداً كـلَّ شيء في حياتي، ومن الممكن أن تفسـد هـارتلي إن استطعت، كل ما في الأمر أنك لا تستطيع أن تصل إليها، إنها الشيء الوحيد الذي ينتمي إليّ انتماءً مطلقاً!».

ـ «تشارلز!».

ـ «كنت في كل مكان قبلي، وستكون في كل مكان بعدي، وعندما أموت ستكون أنت وليزي جالسين في مشرب تتنـاقشان بشـأني، ولكن، لن يهم حينذاك من الذي يراكما».

ـ «تشارلز، تشارلز. . .».

مضيت قائلاً لجيمس: «لقد خاب ظني فيك. لم أفكر أبداً في أنك يمكن أن ترتكب أي شيء وضيع أو مخادع، بل لم أصدّق أبداً أنك يمكن أن تقحم نفسك في هذا النوع من التورط الدنيء. إنه نوع من الغباء البشري العادي الخبيث الذي كنت من الحمق بحيـث أتخيـل أنك لا تعاني منه. لقد سلكت كما يسلك أغرار الناس الذين لا يستطيعون تخيّل النتائج. وإحدى هذه النتائج هي أنني لا أصدِّقك، لا أستطيع أن أصدقك. قد يكون بينك وبين ليزي أي شيء. وأوساط الناس العاديون يحسبون أنهم لو اعترفوا بمعشار الحقيقـة فقد أبرأوا ذمتهم. لقد جعلت كـل كلماتك تتحـول إلى أكاذيب، لقـد جرَّدت حديثك من قيمته. . وفي لحظة واحدة أفسدت الماضي. . ولم يعد هناك ما يمكن أن يعوَّل عليه المرء بعد ذلك».

قال جيمس: «ربما كان من الخطأ أن أخبرك بهذه الطريقة». وكان يبدو عليه أنه بدأ يتضايق، وإن كان غاضباً أشد الغضب هو أيضاً. «بالطبع، كان لزاماً عليك أن تكره هذه الحكاية في أي وقت تظهر فيه، لم نقلل أبداً من قيمة ذلك. أرجو وأعتقد أنك ستقدِّر فيما بعد أن الشيء الذي أخفيناه كان تافهاً، وإن لم تكن حقيقة الإخفاء بهـذه التفاهـة. أدرك أن هذا كله كـان تحديـاً لكرامتك. . .».

- «كرامة؟ كرامتي؟».

- «أجل، إنه تحدٍّ. وأنا آسف حقاً عليه. ولكن إذا اعترفت بالغلطة، بالخطأ، فإنك لا تستطيع أن ترغب عادة في استمراره، هذا الاعتراف بالحق شيء أليم نقوم به من أجلك. وقد شعرت ليزي بأنها لا تستطيع أن تكون كما تتمنى من أجلك بهذه الكذبة بلا اعتراف. أرادت - وبخاصة الآن - ألا يكون هناك حائل من اللاحقيقة بينكما».

- «ولماذا «بخاصة الآن»، ما هو الخاص بشأن الآن؟».

قالت ليزي: «أرجوك، أرجوك...».

- «لا تقلقي، لست منفعلاً، بل لست غضبان، ليس هذا غضباً». ولم أكن قد رفعت صوتي على الإطلاق.

قالت: «إذن، فكل شيء على ما يرام. أليس كل شيء على ما يرام؟».

- «إنما ما تقولينه في كلماتك الخالية من القيمة قد يكون صادقاً، كما يمكن أن تفعله مثل هذه الكلمات بالصدق...».

- «إذن، فكل شيء على ما يرام... يا حبيبي تشارلز...».

- «إن كل ما حدث هو أننا وصلنا بهذا إلى النهاية».

قال جيمس: «ما هذا الذي أوصلنا إلى النهاية؟».

- «أريد منكما الآن أن ترحلا. وأريد منك أن تعود بليزي إلى لندن».

قال جيمس: كنت أقترح أن أرحل، وأن أترك ليزي هنا. والآن قلت لك بكل تأكيد أنني أستطيع أن أرحل وأتركها. كان هذا هو الغرض من إخبارك. وهذا ما كنت أنتظره».

- «ظننت أنني قد ألومك وأن عليك أن تتركها لأنني في حاجة شديدة إليها؟ أنا لا أحتاج إليها كل هذا الاحتياج، أستطيع أن أقول لك هذا».

قال جيمس: «تشارلز، لا تدمِّر نفسك، لماذا تحرص دائماً على تحطيم كل شيء يحيط بك ويؤازرك؟».

- «إذهب من فضلك، إذهبا معاً».

وفجأة، أمسكت بيد ليزي، فتشبثت بيدي لحظة، ثم تراخت. ثم أمسكت بيد جيمس وأرغمت اليدين على التماسك معاً. وناضلت اليدان في يدي كأنهما حيوانان صغيران أسيران يحاولان الفرار.

انتزع جيمس نفسه بعيداً، ودخل حجرة الكتب، وكنت أسمعه يلقي بحاجياته في حقيبة السفر.

قلت لليزي: «إذهبي واحزمي حقيبتك». واتجهت صوبي، ثم استدارت باكية. خرجتُ إلى الممر الخارجي، ومشيت حتى بلغت سيارة جيمس البنتلي. كانت ضخمة، سوداء، مترقبة، متربة قليلاً، في شمس الأصيل الكسول. فتحت الباب. كان داخلها يتسم بهدوء وفير وكأنه داخل قصر ريفي كبير أو محراب صامت ثري. وكان الخشب المصقول يتوهج، والجلد البني يبعث رائحة ناضرة نادرة. وكان ناقل الحركة يعيش في جلد ناعم مجعَّد. والسجادة سميكة، خالية من البقع. هذا الصمت، وهذه الحميمية التي تحيط بالسيارة كانت تدعو إلى سكنى متميزة. وفي هذا الداخل المقدس كنت على وشك أن أغلق على جيمس وليزي، وأن أرسلهما بعيداً عني إلى الأبد، متأكداً من ذلك وكأنما أغلق عليهما قارورة مختومة، ثم أغرقهما في البحر.

وما إن استدرت عائداً صوب المنزل حتى نظرت تلقائياً إلى بيت الكلب الحجري، حيث قام جيلبرت بتركيب سلة الخطابات بعناية حتى يحمي البريد من المطر. ورأيت خطاباً في السلة. فذهبت والتقطته. كان من هارتلي، فدسسته في جيبي.

خرجت ليزي أولاً حاملة حقيبة يدها وهي تبكي. وبدأت تقول شيئاً لي، غير أنني أمسكت بباب السيارة مفتوحاً، وأدخلتها لتجلس على المقعد الخلفي وأغلقت الباب خلفها بصوت حاسم ناعم.

وخرج جيمس حاملاً حقيبته وحقيبة ليزي، وتوقف عند الممـر الأمامي مبدياً رغبته في أن أقبل عليه، غير أنني لم أفعل. لففت حول السيارة وفتحت البـاب الآخر ووقفت بجـواره. جـاء جيمس ووضـع الحقيبتـين في مؤخـرة السيارة، وجاء إلى الباب حيث كنت واقفاً.

قلت: «لا أريد أن أرى أحداً منكما مرة أخرى. لقد أفسد كل منكـما الآخر عليّ بفعالية سأنظر إليها عاجلاً على أنها خبيثة».

- «لا تَـرَها كذلك، لا تكن أحمق. ومـا حدث كـان مصادفـة وخليقاً بالصفح. لا تدفع نفسك إلى الجنون بهذه الغيرة».

- «إنني أعني ما أقول. لا أريد أن أراك مرة أخرى، يا جيمس، أو أنت يا ليزي، إلى الأبد، من الآن وحتى نهاية العالم. سأمزق خطاباتكما دون أن أقرأها، وسأغلق الباب في وجهيكـما، وسأتجاهلكما في الشارع. لا يقترب مني أحد منكما مرة أخرى. قد يبدو في هذا شيء من الفظاظة، غير أنكما سوف تريان عاجلاً أن فيه نوعاً من العدالة التلقائية. كنت تتحدث عن العدالة التلقائية، يا جيمس، وها هي ذي. لقد صنعتما فيما بينكما آلةً وها هي كيفية عملها. وإذا شعرتما بـالكرب فأنا على يقين من أن كلًّا منكما سرعان مـا يحمل العزاء إلى الآخر. أريد منكما أن تكونا معاً. وسأفكر فيكما معاً. وليس عليكما أن تنتظرا موتي، بل تستطيعان أن تتشابكا بالأيدي منذ الآن. ولما كان جيمس سائقاً ماهراً، فإنكما تستطيعان أن تتشابكا بأيديكما طيلة الطريق إلى لندن. وداعاً».

قال جيمس: «تشارلز...».

عدت إلى الممر، وشرعت في عبوره. سمعت باب البنتلي يُغْلق في هدوء، ويبدأ المحرك في الهدير. كانت السيارة تبتعد والصوت يشتد، ثم أخذ يتلاشى بعد أن استدارت السيارة عند الناصية. ثم ساد السكون. دخلت المنزل الخاوي، وقد وضعت أطراف أصابعي فوق رسالة هارتلي القابعة في جيبي.

لم أفتح الرسالة من فوري. كان وجودها هناك في جيبي راحةً مطلقة. أو على الأقل سوف أشعر بذلك فترة من الزمن، كنت أريدها أن تبقى في هذه الفترة، شيئاً، شيئاً بسيطاً، طلسماً، حجراً سحرياً، خاتماً مقدساً، أثراً نفيساً، شيئاً واقياً تماماً، وحنوناً، ونقياً. ولم يتبق لي الآن في هذه الدنيا سوى هارتلي، ووجودها المنفصل الذي لم يفسده شيء. أجل، كان جيمس يفسد الأشياء دائماً بالنسبة لي. لقد أفسد العمة إستيل. أتراني قلت له شيئاً الآن بخصوص العمة إستيل؟ لم أستطع أن أتذكر بوضوح ما قلته. كان رأسي يغلي بالمشاعر. ولمست أصابعي الرسالة الثمينة. يا إلهي، إنني بحاجة إلى الخلاص وبحاجة إليه الآن.

ومع ذلك، وحتى حين تركت شفاء هارتلي وسكينتها تتدفّقان داخل نفسي في سباق للجزيئات العلاجية، كنت أفكر في شطر آخر من عقلي بأنني في برهة قصيرة سوف أعاني أفظع أسف وندم لأنني طردت جيمس وليزي معاً. لماذا كنت ذلك الأحمق الكامل؟ كان دافعاً «محتوماً» لنزعة تدميرية صِرْف، نزعة التدمير الذاتي التي اتهمني بها جيمس. كان من الممكن أن أصرف جيمس، وأحتفظ بليزي، ثم أصرفها هي الأخرى فيما بعد. في نصف ساعة كان يمكن أن أفعل ذلك. لم يكن لزاماً عليّ أن أستعجل كل منهما للارتماء في أحضان الآخر بهذا الشكل. غير أنني كنت أريد أن أجعل ما هو شنيع سيئاً إلى أقصى درجة بحيث أكون على يقين من أنه قاتل؛ مثلما كانت هارتلي تحمي نفسها بالتفكير بأنه لا مناص لي من أن أكرهها. لقد طردتهما معاً لكي أكون موقناً بأنني لن أتراجع أبداً؛ فكان أن ضمنت لنفسي ما هو أبعد من ذلك. فلن يغفر جيمس أبداً أبداً مثل هذه الإراقة الإجبارية لماء الوجه. لقد حطَّم ليزي وجيمس كل منهما الآخر، بالنسبة لي، كأنما تعاهدا فيما بينهما بميثاق انتحاري. بل لقد تصورت جيمس فجأة يصوب مسدسه على جبين ليزي، ثم على جبينه. أي تبرير شيطاني حقيقي جمع فيه القدر بين هذين الاثنين معاً؟ وأياً كان ما يمكن أن يحدث أو لا يحدث بينهما في الماضي -

وهذا شيء لن أعرفه أبداً ـ فإن شعر ليزي سوف ينتشر على كتف جيمس قبل أن يصلا إلى لندن بوقت طويل. أي مصيدة وقعتُ فيها! غير أنني كنت حكيماً حقاً. العلاج الوحيد هنا هو الوقت. لقد خرج الاثنان من حياتي.

ساد المنزل صمت عجيب خارق للعادة. فأدركت الآن أنني مكثت فترة طويلة دون أن أنفرد بنفسي. ما أكثر الزوار الذين توافدوا عليّ. جيلبرت، ليزي، بيري، جيمس. تيتوس. كانت حقيبة البلاستيك الصغيرة التي تضم كنوزه: رباط رقبته، وأزرار كمَّيْ قميصه، وقصائد دانتي الغرامية ـ كانت لا تزال قابعة في ركن من أركان حجرة الكتب كأنها كلب مهجور. وتذكرت كلمات بوب آركرايت. لقد أبى تيتوس أن تهزمه الصخرة. حاول مرة أخرى أن يتشبث بها، وفي كل مرة كانت الأمواج القوية الهادئة تنتزعه من مكانه. وعندما هدَّه اليأس والتعب حطمته موجة أقوى على جدار الصخرة. دخلت المطبخ وصببت لنفسي شيئاً من ويسكي بيري. وكان نسيم يهب من ناحية البحر خلال الباب المفتوح، فاستطعت أن أسمع ستار الخرز يصلصل في البسطة العليا. احتسيت الويسكي. كل شيء في العالم يعتمد على رسالة هارتلي. جلست إلى المائدة، ونظرت إلى ساعتي. كانت السادسة تقريباً. سوف يتوقف جيمس وليزي في طريقهما لتناول العشاء. من المؤكد أن جيمس يعرف مطعماً جيداً. وسوف يتجنبان طريق السيارات. فيجلسان في المشرب، ويدرسان قائمة الطعام. سوف يتغلبان على صدمتهما، ويشعران بالتحرر. لا داعي للسِّرية الآن. لا أهمية لمن يشاهدهما متشابكي الأيدي. أوه يا إلهي، ليتني أخبرت تيتوس ألا يسبح هناك، لأن ذلك المكان خطر. ولو ارتفع الموج فلن تستطيع الخروج. لا تسبح أبداً في بحر هائج، أيها الفتى العزيز، فهذا البحر سفّاح. غير أن الماضي أبى أن يعود، كما هي الحال في الأحلام، ليُصْنع من جديد. كان تيتوس يسير في أحلامي في زهرة شبابه الذي أصبح الآن أبدياً. أو كنت أحلم أحياناً بأنه ميت فأشعر بالسرور عندما أستيقظ.

أخرجت رسالة هارتلي، وضغطت بها على جبهتي، وصليت لها أن تنقذني من الكرب والهلاك.

نظرت إلى المظروف. لم أتلق رسالة من هارتلي منذ أكثر من أربعين عاماً، هذا ما جال بخاطري، غير أنني تعرفت في الحال على خطها بالطبع. كان هو نفسه تقريباً وإن كانت الحروف أصغر والعناية أقل. وكنت قد احتفظت بجميع رسائلها القديمة زمناً طويلاً، ثم مزقتها جميعاً عندما انتابتني حالة من الغضب (أو لعلها أثارتني) كلما رأيتها، ثم ندمت على ذلك. وبالطبع كنت قد اخترعت فعلاً عشرات من الخطابات التي كان من الممكن أن تكتبها إليّ. تشارلز. وداعاً، لن أستطيع أن أراك مرة أخرى أبداً. أو: لقد رحل «بن» فماذا أنا فاعلة؟ أو: حبيبي، سآتي إليك، جهِّز سيارة غداً. بل إنني راجعت بالفعل رقم الهاتف الخاص بسيارات الأجرة المحلية ووضعته بجوار الهاتف. تحسست المظروف فقررت أنها رسالة قصيرة. أتكون هذه علامة طيبة؟ على أي حال إنها لم تكن مجرد تخفيف غير متسق وغير حاسم من أعباء القلب. أحبك، ولكنني لا أستطيع أن أتخلى عنه. . . إلخ، إلخ، صفحات، إثر صفحات. لن يكون الأمر كذلك على كل حال. هل حزمت هارتلي رأيها حقاً؟ ماذا سنقول، ماذا نستطيع أن نقول ـ إذا التقينا ـ عن تيتوس؟ كان هذا هو الموضوع المسيطر، وربما قرّر هذا كل شيء. ما أغرب هذا من القدر وأفظعه، أن يأتي به إليّ ثم يغرقه. أمن الممكن أن أتقاسم أحزاني من أجله مع هارتلي؟ أي شكل يمكن أن يتخذه ذلك الحزن، وماذا يمكن أن يصنع بنا؟ وهكذا أرجأت فتح الخطاب. غير أن ما كتبته فعلاً لم يكن واحداً من جميع الأشياء التي تخيلتها.

ولم يمض زمن طويل في واقع الأمر. توقفت عن احتساء الويسكي، والحق أنني أكره هذا النوع. طفت بالمنزل كله، ودخلت كل حجرة، بل لقد صعدت إلى غرف السطوح، ونظرت إلى الثقب الموجود في السقف. كان المكان ما يزال رطباً هناك. وكانت ليزي وجيلبرت قد وضعا دَلْوين تحت

الثقب. وكان كل منهما ممتلئاً حتى الحافّة. تركتهما هناك، وفتشت المنزل كأنني أبحث عن شيء، وأنا أمسك طيلة الوقت برسالة هارتلي في يدي. وأخيراً، ألقيت بنفسي فوق سريري وشرعت أفتح الخطاب وكأنني طفل وهذه لعبة عجيبة حملتها معي لكي أستمتع بها سراً. وما حفزني إلى أنها مسرحية الآمال هي فكرة أنني لو أردت أن أحمل هارتلي بعيداً فإن من الأفضل أن أحجز سيارة أجرة في الحال. وفي اللحظة الأخيرة اعتراني نوع من الهياج إذا خطر لي أنني قد تأخرت بالفعل زمناً طويلاً.

ثم جاء الهلع الحقيقي المطلق. كانت أسناني تصطك، ومزقتْ أصابعي المرتعشة المرتبكة المظروف، وأخرجت الرسالة، ونشرتها. ثم كان لا بد أن أجري إلى النافذة لضوء أفضل.

عزيزي تشارلز

يسعدنا كثيراً أن تأتي لزيارتنا وتتناول الشاي معنا. الساعة الرابعة من يوم الجمعة تناسبنا. وستوقع أن تأتي في هذا الموعد، إلا إذا كتبت إلينا باقتراح آخر. أرجو أن تتمكن من الحضور.

المخلصة

ماري فيتش

أذهلني هذا الخطاب لأنني لم أكن أستطيع التفكير ولا الشعور، في كيفية رد فعلي عليه. أكان حسناً أم سيئاً؟ إنه يسأل عن اجتماع، ولكنه اجتماع «معنا». وإذا كانت تريدني ببساطة ألا أفعل شيئاً فإن خير ما تسلكه هو ألا تفعل هي نفسها شيئاً. ولكن ها هنا رسالة. ماذا تعني؟ وما معناها العميق؟ وكان يوم الجمعة غداً.

حملقت في الخطاب وقد تصاعد الدم إلى وجهي وارتعشتُ، وحاولت أن أفهم. لم يكن ذهني صافياً كل الصفاء. بل لقد استغرقت بعض الوقت لكي أدرك أن هذا الخطاب ليس خطاباً حقيقياً من هارتلي على الإطلاق. كان

التوقيع ماري «فيتش». لقد كتبته ولكن لم تكن هي التي أنشأته. كان رسالة مكتوبة تحت عينْ زوجها، بل لعلها أن تكون بإملائه. ولكن ماذا يعني ذلك في هذه الحالة؟ ألعلها وضعت في رأسه - بدهائها - الموافقة على زيارتي؟ ولكن كيف فعلت ذلك، وماذا تريد أن يحدث؟ هل حرضت هارتلي «بن» على دعوتي لكي تراني، وربما لترى وجهي فحسب؟ وهل ستقدّم لي عندما أصل مفتاحاً لهذا كله؟ أم لعلها مصيدة، خطة ثأرية شنيعة أرغمت على التعاون معها؟ وإذا كان «بن» يلومني على موت تيتوس فمن الجائز الآن أن يكون شبه مجنون بندمه الخاص وحقده عليّ. وقد يشعر الآن إلى أي مدى كان يحب تيتوس، ويكون الخلاص الوحيد هو الشعور إلى أي حد هو يمقتني. مثلما بحثت عن الخلاص من موت تيتوس بإلقاء اللوم على «بن». فليكن، لو كان الأمر مصيدة فسأسير قُدُماً إليها.

أخذت أنظر إلى الخطاب وأقلّبه المرة تلو المرة، بل لقد قمت بتعريضه للضوء عسى أن تكون به رسالة مخفيّة. وكان وقت الموعد قد طرأ عليه تعديل، فقد كان المكتوب في الأصل الساعة السادسة، فجعله التعديل الساعة الرابعة. وكان من الممكن فهم معنى ذلك التعديل. فبإملاء «بن»، وتحت عينه، كتبت الرقم ستة، ثم قامت بتعديله في عجلة من أمرها وهي تضعه في المظروف إلى الساعة الرابعة، وهي تعلم أن «بن» سيكون غائباً في الرابعة. ربما يكون ذلك بحثاً عن شيء أوعن آخر يتعلق بالمصيدة؟ وهكذا ربما تكون وحيدة على كل حال؟ وستُلْقي بنفسها بين ذراعيّ كما فعلت في تلك الليلة، الليلة التي هربت فيها فوق الصخور لأنها كانت خائفة من «بن»، خائفة من الرجوع إليه، خائفة من البقاء معي. لقد جاءت إليّ حينذاك بمحض إرادتها. هذا جزء من البيِّنة، أو هو في الواقع الجزء الرئيسي.

ثم فكرت: فلأفترض أنها وحدها، ولأفترض أنها قالت: خذني بعيداً. لا بد أن تكون لدي سيارة. أمعنت الفكر على نحو يائس بائس في هذه المسألة، وأخذ الأمل يصارع الخوف عندما تخيلت مدى الشناعة في أن تكون لدي

سيارة ولكن بدون هارتلي: رمـز الهرب ولكن من دون الأمـيرة. قرّرت أيـاً كان الأمر أنه ينبغي عليّ أن أثق في الأمـل وأن أخطط لـه. وهكذا اتصلت هـاتفياً بـالمسؤول عن سيارات الأجـرة، وطلبت أن تنتظرني السيـارة خـارج كنيسـة القريـة من الساعـة الرابعـة حتى اليوم التـالي. بعد أن فعلت هـذا أحسست أنني أحسن كثيراً، وكأنني أصلحت بالفعل ما لديّ من فرص.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة، فقررت أن آوي إلى الفراش. تجرعت شيئاً من النبيذ وأكلت بعض الخبز والعسل ثم ابتلعت حبة منوّمة. وما إن رقدت حتى تذكرت أنني فقدت جيمس. وكـما بدا لي حينـذاك، لم أفقده بسبب خطيئته، بسبب «الصدع» الذي تحدث عنه، ولكن لأنه رحل بسيارته السوداء الضخمة مع ليزي. ذهب إلى الضياع، بفعلتي. لم تعد هناك وسيلة لاسترجاع ابن عمي الآن، وإلى الأبد، من خلال الحاجز الذي أقمناه بيننا بكل تلك الألمعية. انفصلنا انفصالاً أبدياً. ولقد بدا لي من الغرابة على نحو ما أن هذا لم يحدث من قبل في وقت مبكر، كان كل منا شديد الـخطر على الآخر.

كان اليوم التالي مجرد مشكلة في تزجية الوقت حتى الساعـة الرابعـة. في البدايـة ظننت أن المشلكة غير قابلة للحل، وأنه لا مناص لي من أن أركض كالمجنون صارخاً من القلق. ومع ذلـك فقد تحايلت على قضاء الوقت دون جزع مفرط بأن شغلت نفسي باستمرار بمهام صغيرة تتعلق بهارتلي. أنفقت شيئاً من الوقت في الاهتمام بمظهري، وإن يكن في هذا عنصر من الادعاء، ما دمت لا أستطيع أن أتصور هارتلي مهتمة بتفاصيـل نظراتي، وكنت عـلى كل حال حسن الطلعة بما فيه الكفاية حين أكون رثاً سيّىء الهندام. غسلت واحداً من أفضل قمصاني، وجففته في الشمس. وأخرجت سترتي السـوداء الخفيفـة، وجوارب نـظيفـة، وانتقيت ربـطة عنق أنيقـة بـديعـة. وغسلت شعري وجعلته جميلاً رقيقاً. وكنت قد أقلعت عن السباحة، غير أنه كان لا يزال خشناً مملَّحـاً. ورأيت من الحكمة أن أحـزم حقيبة صغـيرة للملابس،

مجهزة للهرب الفوري الممكن.فعلت ذلك بقلب سريع الخفقان. وفي ساعة الغداء أكلت بما فيه الكفاية، لا عن شهية، وإنما بدافع من الواجب، ولم أشرب شيئاً من الكحوليات.

بعد أن تناولت الغداء، طفت حول المنزل مغلقاً جميع النوافذ بعناية وإحكام. وأفرغت الماء من دَلْوَيْ غرف السطح، ووضعتهما تحت الثغرة الموجودة في السقف. وعندما وصلت إلى الطابق الأرضي ودخلت الحجرة الصغيرة الحمراء، لمحت بغتة شيئاً رابضاً فوق المائدة، ومختفياً بشطر منه بواسطة الورق النشّاف ـ الخطاب الطويل الذي كتبته لهارتلي قبل وفاة تيتوس والذي لن أتمكن من تسليمه أبداً: الخطاب الذي شرحت فيه كيف حاول «بن» أن يقتلني، وتناولت فيه موضوع «التطفل في الداخل والخارج»، والحياة السرية الهادئة البسيطة التي سوف نحياها معاً. كثير من هذا أصبح بلا معنى بعد اعتراف پيري وموت تيتوس. شاهدت الخطاب متوجعاً، وكنت على وشك إتلافه، ولكنني قررت أن أقرأه أولاً. وكانت إعادة النظر في هذا الخطاب تنتمي على نحوٍ ما إلى الظروف المروِّعة لذلك اليوم. وبدا لي من المؤسف أن أبدِّد بلاغة الشطر الأول والتفسير المهم الذي يضمه، ومن ثمّ لم أتلف سوى الصفحتين الأخيرتين اللتين تشيران إلى تيتوس و «بن». ثم كتبت على ورقة منفصلة: **كتبت هذه الرسالة إليك من قبل، غير أنني لم أقم بتسليمها قط. إقرإيها بعناية. أحبك وسنكون معاً.** كما أضفت رقم هاتفي. أغلقت عليها في مظروف جديد، ودسستها في جيبي.

اتجهت إلى القرية مبكراً، حاملاً حقيبتي، كما قمت بتغيير إذن صرف (شِك) في المتجر. واشتريت مع أمواس الحلاقة نوعاً من الكريم وبودرة الوجه من الصنف الذي تستعمله هارتلي. لم يكن الوقت قد تجاوز الثالثة والنصف بعد، فسرت متجهاً صوب الكنيسة. كنت أشعر بغثيان من الخوف والرجاء، على وشك القيء، وعلى وشك الإغماء. وكانت سيارة الأجرة تنتظر

بالفعل، إذ لم يكن هناك شيء آخر يمكن أن يفعله السائق، وفقاً لتعليماتي. وقد أخبرته أن ينتظر حتى آتي إليه. فقال ضاحكاً: «ثلاث ساعات؟» فقلت: «إذا اقتضى الأمر». ودخلت فناء الكنيسة ونظرت إلى «قبر دامي» وتذكرت كيف كنت أعتزم إطلاع تيتوس عليه. دخلت الكنيسة نفسها، وجلست لاهث الأنفاس، وتذكرت بغتة أنني سأتأخر فهرولت خارجاً، وأسرعت الخطى مرتقياً التل. كان يوماً دافئاً، وإن يكن مصحوباً بنسيم كثير يهب من البحر.

وصلت إلى المنزل، وتوقفت لألتقط أنفاسي، ووضعت يدي على البوابة الخشبية الزرقاء ذات المزلاج المعقّد. وكان وهج الورود الضخمة المبهرجة من كل لون ممكن يومض في الشمس. وألفيتني ما أزال أحمل حقيبة ملابسي التي كنت أنوي تركها في سيارة الأجرة، وأدوات زينة هارتلي في حقيبة ورقية، كنت أعتزم وضعها في الحقيبة. وهنا سمعت صوتاً مرعباً مريعاً تجمد له الدم في عروقي، وتقطعت له أنفاسي انفعالاً. ففي داخل المنزل كان مسجل عالي النغمة (تريبل Treble) ومسجل آخر خفيض النغمة (آلتو Alto) يعزفان معاً في نغمة موحّدة أغنية «الأكمام الخضراء» Green sleeves .

لم يكن الأمر مجرد أن مسجلاً ثنائياً كان هو آخر شيء أتوقع سماعه الآن. ذلك أن أغنية «الأكمام الخضراء» كانت في الأيام الخوالي هي النغمة المميزة المتفق عليها بيني وبين هارتلي. وكان لدي مسجل اجتهدت أن يؤديها لي، كما اعتدنا أن نُخرجها على معزف أبويها القديم. وكان كل منا يغنيها للآخر. إنها أغنيتنا المفضلة، أغنية حبّنا. ولو أنني سمعتها الآن تُعزف على مسجل واحد لأخذت ذلك فوراً على أنه رسالة سرية للأمل. ولكن على مسجلينْ. . . أكان من الممكن أن يكون ذلك إهانة متعمدة، إفشاء مقصود لسِرِّية الماضي؟ كلا. إنها نسيت ببساطة.

طاف هذا كله بذهني في البرهة التي استغرقتها أصابعي في فتح البوابة. خطوت متمهلاً في الممر. انقطعت الموسيقى وشرع الكلب في النباح بصورة

هستيرية. تقدمت حتى الباب متحكماً بعقلي، وقد خطرت لي بالفعل أفكار جديدة. إن تدنيس ما أحاط أغنية «الأكمام الخضراء» من قداسة لا يعني شيئاً. فلعله كان يحب الأغنية، ولم تكن هي قادرة على أن تحول دون اتخاذها أغنية مفضّلة. وأداء المسجل لا يعني شيئاً. ومن الجلي أنها لو كانت تعتزم الهرب إذن لحرصت على أن تسلك مسلكها المعتاد. أو ربما كان المقصود بالأغنية حقاً أن تكون إشارة لي؟ ومهما يكن من الأمر فقد كان من الجلي فعلاً أنها ليست بمفردها. قرعت الجرس وإن كان الكلب قد جعل من ذلك أمراً لا ضرورة له، بل إن ضجته المهتاجة طغت على صوت الجرس.

فتحت هارتلي الباب. وكانت مُلْقية برأسها إلى الوراء بطريقة تضفي عليها طابعاً من الكبرياء، ولكن من المحتمل أنها كانت منفعلة فحسب. تفرست في وجهي دون أن تبتسم، وقد انفرجت شفتاها؛ فتفرست فيها بدوري والدم يتصاعد إلى وجهي ساخناً، وقد شعرت بأن عينيّ أصبحتا في سعة الأطباق. وكنت أستطيع أن أدرك على نحو ما أن «بن» وراءها عند الباب المفتوح لحجرة الجلوس. فحتى لو كانت تخطط لنوع من الاتصال الخاص في هذه اللحظة فإن ذلك سيكون محالاً. فقد أصابنا كِلَيْنَا الشلل. وكان الكلب ـ وهو من فصيلة الكولي ـ نحيلاً يمتزج فيه اللونان الأسود والأبيض وله أنف طويل، وكان يقف الآن عند قدمي هارتلي وهو ما برح ينبح.

ورفعت صوتي فوق الضجة قائلاً: «مساء الخير» فقالت هارتلي: «لطيف منك أن تأتي».

دخلت. امتزج أريج الورود التي ملأت عدة مزهريات تناثرت في كل مكان حتى في الصالة ـ امتزج بريح المنزل المُنْتن، وفاحت من الداخل رائحة أشبه برائحة امرأة عجوز طاعنة في السن.

قالت هارتلي: «إهدأ!» للكلب الذي فرغ من نباحه في وقته الخاص، ثم شرع يتشممني ويهز ذيله. وقال «بن» من حجرة الجلوس: «ادخل».

دخلت الحجرة. وكانت النافذة تكشف عن غيضة منحدرة وعن صعود البحر الأزرق وهو ينسحب في وهج القيظ، ولم أشهد قط منظراً جميلاً يبدو بهذه الكآبة. وكان المسجلان رابضينْ على رف النافذة الأبيض الرحب بجانب نظارات الميدان.

قالت هارتلي: «إجلس». فلاحظت أنها اليوم أقرب إلى الأناقة. كانت قد موّجت شعرها في كتلة محترمة، وترتدي ثوباً أزرق فاتحاً يخلو من الزخرف فوق بلوزة مخططة بالأزرق والأبيض. وكانت تبدو أصغر من سنها، وفي صحة أفضل. قالت: «أتحب أن تجلس هنا، أو هناك؟».

جلست في مقعد منخفض ذي مسندين خشبيين، متحاشياً المقعد الطشت الذي انحشرت فيه من قبل.

كانت أدوات الشاي الكاملة مصفوفة فوق منضدة صغيرة مستديرة، وعلى حامل للأطباق. وكان هناك خبز وزبد وكعك، ومربى، ونوع من الشطائر وكعكة مثلجة.

قالت هارتلي: «سأبلّل الشاي» واختفت في المطبخ، وقد تركتني مع «بن».

أخذ «بن» يتشاغل مع الكلب وهو ما يزال واقفاً. «تشافي!» كان من الجلي أن هذا اسم الكلب. «تشافي، تعال. كلب طيب. والآن اجلس. إجلس» وجلس تشافي، ثم جلس «بن»، وفي هذه الأثناء عادت هارتلي بالشاي، فنهض تشافي من جديد.

قال بن: «دعيه يختمر قليلاً».

أخذت هارتلي برّاد الشاي وقالت: «إنه مضبوط» ثم خاطبتني: «لبن، سكر؟».

ـ «شكراً، نعم، الاثنين».

ـ «ألا يضايقك أن أصب اللبن أولاً؟ شطيرة؟ أم شيئاً بالمربى؟ الكعكة

صناعة بيتية، ولكن ليس في هذا البيت، وهـذا يخيفني!» وصبّت هارتـلي الشاي.

- ««شطيرة، شكراً. أحب المنظر الذي يشرف عليه بيتكما». كانت هذه الملاحظة آلية تماماً، فقد كنت في غير وعي تقريباً بتأثير الانفعال.

قال بن: «أجل، إنه بديع»، ثم أردف: «بديع». ثم لنشافي: «إجلس! أيها الفتى الطيب». ومنحه قطعة من الشطيرة.

قالت هارتلي: «إنك تدلله!».

قلت: «هـذاالكلب من مزرعـة آمورن أليس كـذلك؟» مـا زال الجهاز الآلي يعمـل. ثم سـألت نفسي: أكـان من المفـروض أن أعلم ذلـك، ثم فكّرت، هذا شيء لا أهمية له.

قال بن: «بلى. إنهم يربونها. كلاب صغيرة جيدة، من فصيلة الكولي الويلزية. ومع ذلك فإن هذا الكلب لا ينسجم أبداً مع الماشية، أليس كذلك يا تشاف؟ ما كان لك أن تبدد وقتك مع تلك الأغنام الحمقاء، أليس كذلك، أيها الفتى؟».

فقفز تشافي مرة أخرى وهو يهز ذيله.

وكنت قد وضعت حقيبتي على الأرض بجـانبي، وفوقهـا الكيس الذي يحتوي على أدوات الزينة لهارتلي وأمواس الحلاقة. أنزلت فنجاني، وفتحت الحقيبة ووضعت الكيس فيها، ثم أغلقتها. وكنت أخشى أن يلمح «بن» أو يستنتج ما تحتويه الحقيبة. وأخذ كل من «بن» وهارتلي يراقبانني.

قال بن: «كنت حريصاً على الالتقاء بأخيكَ في الجيش».

لم تكن هارتلي تستطيع مناقشة موقفي العائلي بالتفصيل. فليس للوحوش عائلات.

- «إنه ابن عمي».

- «أوه، أجل، ابن عم؟» أين يخدم؟».
- «في فيلق البنادق الملكي».
- «أصحاب السترات الخضراء».
- «أعني أصحاب السترات الخضراء».
- «ألا يزال مقيماً معك؟».
- «كلا، لقد عاد إلى لندن».

قال بن: «كنت أتمنى أن أكون جندياً نظامياً».
قالت هارتلي: «أظن أن هذا العمل مضجر في زمن السِّلم».
قال بن: «كنت أود أن أفعل ذلك. إن المرء يعرف الناس في الجيش حق المعرفة. كما يتنقل المرء من مكان إلى مكان. ومع ذلك فإنه من الجميل أن يقيم المرء في بيته أيضاً».

- «جميل جداً».
- «كيف حال منزلك؟».
- «لقد تسرب إليه المطر».
- «إذن فقد أمطرت، أليس كذلك؟».

قالت هارتلي: «خذ شطيرة أخرى. أوه، إنك لم تأكل هذه بعد».

قبضت بعنف على الشطيرة. سحقتها، فتناثر شيء من الخيار على أرضية الحجرة. وبدأت أضع الشطيرة في جيبي. قلت «إنني شديد الأسف... إنني شديد الأسف بشأن... بشأن...».

قال بن: «بشأن تيتوس، أجل، ونحن كذلك». توقف ثم أردف قائلاً: «كان حدثاً من تلك الأحداث».

قالت هارتلي: «كانت مأساة». كانت تتكلم وكأن هذا نوع من الوصف الحاسم.

مضيت في الحديث يائساً. كنت أود أن أُجرَّنا جميعاً إلى حوض واحد من الشعور. أردت أن أوقف هذه الآلة التقليدية من الأدب الزائف البشع. غير أنني لم أكن أستطيع العثور على الكلماتِ المناسبة. قلت: «أشعر بأنها كانت غلطتي.. أنا لا أستطيع... لن أقوم مطلقاً....».

قالت هارتلي: «إنها لم تكن طبعاً غلطتك».

قال بن في حصافة: «من المؤكد أنها لم تكن غلطتك. من الأرجح أنها كانت غلطته».

ـ «لا أستطيع أن أتحملها، لا أستطيع أن أصدِّقها، أنا..».

قالت هارتلي: «لا مفر من أن نتحملها وأن نصدقها ـ لقد وقعت. ولا جدوى من الكلام».

قال بن: «كلا، لا جدوى من الكلام. كما هي الحال في الحرب. شيء يحدث، فتمضي قُدُماً. لا مفر لك من ذلك، إيه؟».

كانت هارتلي تجلس واضعة يديها في حِجْرها. ولم تكن تنظر إليّ أثناء حديثها. لقد تغيرت واعية بذاتها في هذا التغير، وربتت على لِمَّة شعرها المرتَّب الناعم. ولم تكن تضع طلاء الشفاه، ولم يبد أي أثر للتزين على محياها الذي لوحته الشمس. ولم تزرر ياقة بلوزتها المخططة لتكشف عن عنقها وعظام الترقوة التي لوحتها الشمس. وكانت تبدو أشد أناقة ونظافة واعتناء بنفسها عما كانت عليه في أي وقت منذ التقائنا.

ولاحظت أيضاً أن «بن» تبدو عليه آثاء الازدهار. كان يرتدي قميصاً نظيفاً مقلَّماً بخطوط متباعدة وربطة عنق مناسبة، وسترة صيفية بنية مفتوحة، مع سراويل بنية أفتح، وحذاء من قماش أبيض متين من طراز حديث. وكان بطنه المكسو بالقميص يبرز مرتاحاً فوق الحزام الجلدي المُحْكم. أما شعره القصير الأشبه بشعر التلاميذ فكان ممشطاً بنعومة، كما كان حليق الذقن

بعناية. وارتسم على وجهه تعبير عجيب عن هدوء بعيد. وكان جفناه مرتخيين قليلاً، وشفته العليا القصيرة متوترة، مرسومة بنوع من الرهافة المتكلفة. وكان هو أيضاً لا ينظر إليّ. وكان قد التهم عدة شطائر خلال تبادل الأحاديث السابقة.

قلت: «أظن ذلك». إجابة على سؤال بن.

قالت هارتلي: «دعني أعطيك فوطة، فقد جعلت يدك لزجة كلها». وتناولت فوطة ورقية من أحد الأدراج وقدّمتها لي.

قال بن: «هل تعتزم قضاء الشتاء هنا؟».

كان من الواضح أنهما قد فرغا من موضوع تيتوس.

لم يكن في وسعي أن ألومهما. لماذا ينبغي عليهما أن يعرضا عليّ عواطفهما. كان لا بد لهما من التعزي عن تلك الوفاة بطريقتهما الخاصة. لقد ارتاحا من أن الموضوع ذُكِر بيننا، وأصبح من الممكن الآن إسقاطه. ولعل هذا هو سبب الاجتماع.

- «أجل. فأنا أعيش هنا».

- «حسبت أنك قد تذهب إلى فرنسا أو ماديرا أو إلى أي مكان آخر في الشتاء كما يفعل الأثرياء».

- «لا بكل تأكيد. وعلى كل حال فأنا لست ثرياً».

- «أستطيع أن أخبرك بأن البرد قارص هنا».

قالت هارتلي: «انظر إليه، انظر إلى الطريقة التي يجلس بها!» مشيرة إلى «تشافي» الذي كان يقعي الآن وقد أدخل كفيه الأماميتين تحته وبسط قائمتيه الخلفيتين على امتدادهما الكامل. تطلع الكلب بناظريه مسروراً من نفسه.

قال بن: «إنك لكلب عجيب، ألست كذلك؟» وهز تشافي ذيله موافقاً.

قالت هارتلي موجهة حديثها إليّ: «هل تنوي الحصول على كلب؟».

ـ «كلا، لا أظن ذلك».

قال بن: «قط ذكر، إيه؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «قط ذكر؟».

ـ «أوه. . مطلقاً. . كلا».

قال بن: «إنه لأمر مضجر في الحجر الصحي، ستة أشهر، مثل هنا».

ـ «الـ . . . حجر الصحي؟».

قال بن: «نعم، فسوف نهاجر إلى أستراليا. لن نقضي فصول شتاء إنجليزية هنا بعد الآن. لم نكن نعرف أن المسألة ستطول بهذا الشكل عندما نصحب تشاف، غير أننا لا نستطيع أن نتركك خلفنا، أيها الفتى، أليس كذلك؟».

ـ «إلى أستراليا، تعني. . . إلى الأبد؟».

ـ «نعم».

نظرتُ إلى هارتلي فقابلت نظرتي بعينيها الواسعتين الهادئتين البنفسجيتين، وبنوع من الابتسامة، ثم قامت وأخذت براد الشاي ودخلت المطبخ.

ـ «إلى أستراليا؟».

ـ «نعم، ولا أستطيع أن أفهم لماذا لا يذهب كل إنسان. مناخ لطيف، طعام أرخص، مَسكَن أرخص. إلهي، كنت أتمنى أن أعود شاباً مرة أخرى، حتى أهاجر إلى هناك».

قالت هارتلي: «يستطيع بن أن يسحب معاشه في أستراليا» وقد عادت ببراد الشاي.

قال بن: «ألم تذهب إلى هناك أبداً؟».

- «بلى، ذهبت عدة مرات. إنه بلد مدهش».

- «ميناء سيدني، دار أوبـرا سيدني، نبيـذ رخيص، الكانجـاور، دببة كوالا، كل هذا، لا أستطيع الانتظار».

قلت وأنا أنظر إلى هارتلي التي تشاغلت بفنجان بن: «متى تذهبان؟».

- «ليس في الحال، بعد خمسة أو ستة أسابيع - لدينا أشياء كثيرة نـريد الانتهاء منها، وأن أرى أختي، وما شاكل ذلك. كنا نخطط لهذا منذ أمد بعيد، أما وقد رحل الصبي فقد أصبح الأمر أسهل».

وحاولت أن أقتنص عين هارتلي: «ولكن.. هكذا كنتما تعتزمان القيام بهـذا دائـماً.. أعني أن التخـطيط للذهـاب إلى أسـتراليـا يستغـرق بعض الوقت... لم أكن أعرف أنكما ستتركان هذا المكان...» وقلت لهارتـلي: «أشعر بشيء من الدهشة لأنك لم تخبريني..».

قـالت وهي تبتسم ابتسامة مبهمة: « لم أكن أستـطيـع تصـديق ذلـك تماماً. كان يبدو كحلم».

قال بن: «ستصدقينه حين تشاهدين دار الأوبرا مبتسمة مثل محارة عظيمة فوق المياه الزرقاء».

إذا كانا سيرحلان في ظرف خمسة أو ستة أسابيـع فمن المؤكد أن المشروع الأسترالي لم يكن له وجود عندما رأيت هارتلي آخر مرة. لماذا لم تخبرني؟ ما أغرب أن تفعل هذا، ألاّ تخبرني! ثم أمعنت الفكر، ربما لم تكن تصدِّق أن هذا سيحدث. ثم إنها إذا كانت تحاول أن تحزم أمرها للارتبـاط بي فإنها لن تخبرني، وهذا بالضبط ما كانت ستفعله، ألا تخبرني. لم أكف عن التحـديق فيها، غير أنها بعد تلك الابتسامة المُبهمة شردت ببصرها بعيداً.

قالت لبن: «أتظن أن تشافي سيعرفنا بعد كل هذا الوقت الذي سيقضيه في الحجر الصحي؟».

- «بالطبع سوف يعرفنا، أليس كذلك يا تشافي، إيه، إيه؟».

قالت هارتلي لي: «ألك في مزيد من الشاي، خذ شيئاً من الكعك، من الكعكة؟».

جرعت جرعة وناولتها فنجاني. وأكلت قطعة الشطيرة المهشمة التي أخفقت في دسّها في جيبي. شعرت بالارتباك تماماً، والضياع المطلق، وكأنني إنسان في بلد غريب ألفى نفسه ضحية لتمثيلية لغوية لا يستطيع فك طلاسمها. لم أكن قادراً على الفهم.

قال بن مشيراً إلى حقيبة ملابسي: «أرى أنك سترحل إلى مكان ما أنت أيضاً».

- «أوه... مجرد ليلة واحدة في لندن... سأعود مباشرة، سأكون هنا...».

قال بن: «أنا لا أطيق لندن. كل هذه الضوضاء، كل هؤلاء الناس، أجانب ملعونون يريدون تجريد المتاجر..».

قلت: «أجل، إنها غاصة بالسائحين في هذا الوقت من السنة». واحتسيت شايي.

قال بن بلهجة تنطوي بوضوح على إنهاء زيارتي: «جميل. ربما رأيناك مرة أخرى قبل رحيلنا، ولكن إذا لم يحدث ذلك، وداعاً».

قلت: «أنا واثق من أننا سنلتقي مرة أخرى. سأعود إلى القرية غداً، وسألزم المنزل طيلة الوقت، فليست لدي مشروعات للسفر. حسن، لا بد أن أنصرف الآن، شكراً على الشاي».

نهضت. فأخذ تشافي الأبله ينبح في الحال. لوحت لـ «بن» تلويحة غامضة، وتناولت حقيبتي واتجهت صوب الباب. تبعتني هارتلي. وصاح بن لـ «تشافي»، ثم أغلق باب حجرة الجلوس وراءنا لكي يمنع الكلب من

الاندفاع إلى الخارج. أصبحت وحدي مع هارتلي لحظات قلائل عند الباب الأمامي.

- «هارتلي، لن تذهبي إلى أستراليا، لن تذهبي؟» وطغى نباح الكلب العالي على كلماتي.

هزت رأسها، ولوّحت بإحدى يديها، وفتحت ثغرها وكأنها تشير إلى أنه من المستحيل الكلام في هذه الضجة.

- «هارتلي، إنك لا تستطيعين أن تذهبي. تعالي معي الآن. لدي سيارة أجرة تنتظر عند قاع التل. تعالي، الآن اهربي، اهربي معي، سنذهب إلى لندن، إلى أي مكان تحبينه. . . انظري، لقد كتبت لك هذا الخطاب، إنه يشرح كل شيء». لم أكن أدرك ما أفعله. أخرجت خطاب «الحياة الهادئة» من جيبي، وألقيت به في جيب من جيوب تنورة ثوبها الأزرق.

فتح بن حجرة الجلوس ودلف إلى الخارج. وكان تشافي لا يزال ينبح، وكنت أستطيع أن أسمع مخالبه وهي تخمش الباب من الداخل. ألقى بن نظرةً نحونا، ثم دخل المطبخ وترك بابه مفتوحاً.

تراجعت خطوة إلى الوراء ممسكاً بذراع هارتلي العارية، ومحاولاً أن أجذبها ورائي. وكانت قد شمرت كم بلوزتها، وأحسست بذراعها ناعمة دافئة، كذراع فتاة صغيرة، فلم تكن الشيخوخة قد أدركتها بعد. كنا كِلانا الآن خارج الباب مباشرة.

- «هارتلي. حبيبتي، حبي، حبي أنا وحدي، تعالي معي الآن، الآن، سنركض هابطين التل إلى سيارة الأجرة».

هزت رأسها. وسحبت ذراعها بعيداً. قالت شيئاً أشبه بأن يكون «لا أستطيع». وما زال الكلب الملعون ينبح.

- «لن تذهبي إلى أستراليا، لن أدعك تذهبين. دعيه يذهب، وامكثي

أنت. انـظري، سيارة الأجـرة هناك بجـوار الكنيسة. سـأكـون هنـاك في الكنيسة. سأنتظر ساعة، ساعتين، تذرعي بحجـة، وانزلي، لن نستـطيع مغادرة المكان من فورنا. لا يهم أن تحزمي حقيبتك، تعالي فحسب. هارتلي، لا تبقي هناك مع ذلك الرجـل. اختاري السعـادة، تعالي إليّ». أمسكت بذراعها مرة أخرى.

نظرت إليّ وكأنها على وشك البكاء، ولكن لم تكن هناك دموع. تراجعت خطوة إلى الوراء، فأطلقت ذراعها. «هارتلي، تحدثي إليّ. . .».

قالت، وإن كنت لا أكاد أسمعها: «إنك لم تفهم. . .».

- «هـارتلي، حبيبتي، تعـالي إليّ. ستجدينني في انتـظارك، سـأنتـظرك ساعتين في الكنيسة. أو سأتوقعك غداً. لن أذهب إلى أي مكان، سأبقى في المنزل. إنك تحبينني، لقد أتيت إليّ في تلك الليلة، وأخبرتني بتلك الأشياء. لا بد من أن تأتي. ليس الأوان متأخراً جداً، إنه ليس متأخراً أبداً. . .».

بهرتْ عينيّ الشمس والورود. وعاد «بن» فدخل الصالة، وكنت أستطيع أن أراه في الظلال خلف رأس هارتلي. وفي لحظة بدا وجهها قناعاً للألم، ولكنه بدا فيها بعد فارغاً، خالياً من المعنى، وربما لم يطرأ عليه أي تغيير حقاً. كانت عيناها الواسعتان الخاليتان من الدموع فارغتين من المعنى.

قال بن بصوت مرتفع طغى على نباح تشافي: «حسناً، وداعاً إذن».

تراجعت إلى الوراء، ثم استدرت وسرت إلى البوابة. وبعد أن اجتزت البوابة نظرت خلفي. كان الاثنان يقفان عند الباب وهما يلوِّحان. لوَّحتُ بدوري، وشرعت في المسير إلى أسفل التل.

جلست في الكنيسة زمناً يربو على ساعتين. ولكنها لم تأتِ. نقدت سائق التاكسي أجره، ومشيت إلى البيت.

إذن، فأمامي خمسة أسابيع. لم أنهزم بعد. ماذا يمكن أن تقول لي هارتلي

على كل حال وخلفها «بن» يتسمّع في المطبخ؟ ماذا قـالت بالفعـل، وماذا قلت؟ لقد تلاشى ما قلناه فعلاً. وأياً كان الأمـر فلديها الخطاب، والخطاب واضح وسيكون هذا الخطاب بؤرة تتجمع فيها أفكارها.

ماذا بحق السماء كان الغرض من هذه الدعوة لتناول الشاي؟ كان من الجلي أنها فكرة «بن». ربما كان لـ «بن» من التعقل ومن الرهافة أكثر مما ذهب إليه ظني. لقد قـام بترتيب مشهـد تستطيـع فيه هـارتلي أن تـراني ـ بهدوء وفي محضره ـ للمرة الأخيرة وأن تودعني وداعاً نهائياً محترَماً. كانت الفكرة تنم عن ذكاء، بل يمكن اعتبارها إنسانية. غير أنها كانت على كل حال وسيلة فاشلة. فمن الواضح أن هارتلي لا تريد الرحيل إلى أستراليا، وإنما هذه خطة «بن». متى وضعها؟ متى عرف أولاً أنني في القرية أفـي وقـت مبكر؟ على كل حال، لن تذهب هارتلي. وسوف تقفز في اللحظة الأخيرة إلى قارب النجاة.

تعودت معاقرة الخمر في الأمسيات. أو على الأقـل، مضت أربعة أيـام سكرت فيها أربع أمسيات، بالنبيذ طبعاً. كنت أجلس طويلاً طويـلاً مع الزجاجة في المطبخ، مستغرقـاً في الفكر حتى يتـلاشى ضوء النهـار في أيام منتصف الصيف الأواخر. مرة أخرى ها هو وقت آخر للانتظار، للانتظار والتفكير. وبالطبع، لم يحدث شيء، لا مكالمة هاتفية، لا رسالة، لا شيء، ولكن، لا بد من إشارة؛ إشارة تعطيها هارتلي أو تعطيها الآلهة.

استمر الطقس دافئاً. واسترد البحر نظرته الأرجوانية المرصعة بالجوهر، المحلاة بخطوط مرقّشة بالزمرد. كان يتألق في وجهي كما فعـل أول يوم. السحب القليلة، سحابات هائلة خاملة ذهبية ثقيلة الحركة تحوم فوق الضوء الذي تفرزه المياه. وكنت أطيل التأمل فيها وأتعجب من نفسي كيف استولى عليّ المس بحيث لا أستطيع أن أُعجب بالروائع المحيطة بي. غير أن معرفتي بمدى العمى الذي أصابني جعلني لا أبصر ما حولي. كنت أحياناً أبحث عن عجول البحر، فلا أجد منها شيئاً. كما لم تكن لدي أدنى رغبة للسباحة، بل

لقد ساءلت نفسي أمن الممكن أن أمارس السباحة مرة أخرى!.

حاولت أن أتحاشى التفكير في تيتوس. ولعل هذا المجهود وحده هو الذي دفعني إلى معاقرة الخمر. كنت أصرف عنه فكري بإصرار، أو أفكر فيه جاهداً في سياقات أخرى وعلاقات أخرى، كجزء من مشاكل أخرى، ومشاكل لم تزل حية. ونحّيته جانباً في لهفة ووضاعة، وتركت نفسي تأمل في أنني لو استطعت أن أطرحه جانباً مدة أطول قليلاً لوجدت أنني عدت ـ بعد كل شيء ـ إلى الدخول في العالم القاسي ـ عالم أولئك الذين نجوا من فقدان الأهل. كانت لدي متاعبي الخاصة، وكان عليّ أن أستمر في البقاء. ولم يكن الآن هو الوقت الذي أبدد فيه عقلي في الشعور بالذنب وعذابات الفقدان. وهكذا، لم أفكر فيه، وفي أنه قد مات. كان هناك شكل رمادي يقطر منه الماء يحاول مرة إثر أخرى أن ينهض في عقلي، فأطرده بعنف وبلا رحمة ولا شفقة. وفي لحظات أخرى كنت أكاد أشعر بالخوف وكأنه لا يزال في مكان ما، ينادي فكري، ويسترعي انتباهي، ويستاء من رفضي الحزن عليه. وهكذا شغلت فكري السريع بأمور أخرى. غير أن الطيف الذي كان يقطر ماءً ظل ماثلاً أمامي على نحو ما.

فكّرت في جيمس وليزي. أيهما قرر أن يخبرني ولماذا؟ خمنت أن أعصاب ليزي قد تحطمت ـ وبخاصة بعد ذلك اللقاء المشئوم بتوبي إليسمير، إذ كان هناك الكثير مما تخشى أن تفقده. فتركت حبها القديم لي يستولي عليها، وكان لديها من الأسباب ما يدعوها إلى التفكير بأن الفريسة قد خارت قواها وأنها على وشك السقوط. كان حبها نافد الصبر، جائعاً. ولن ألبث حتى ألجأ إليها تماماً، على حد تفكيرها، وكانت تريد أن تكون آمنة. وهكذا دفعها قلق ملحّ بالذنب أخذ يصارع أمانتها، إلى أن تجازف بالاعتراف. كانت في مسارها الطويل من حبها لي في أقرب نقطة. فأرادت أن تكون في اللحظة الكبرى القادمة مبرّأة من التهمة والشك، نقية بالاعتراف، فلا يطاردها خوف

من كشف يظهر في المستقبل. وربما كانت لا تدري ما يمكن أن تحدثه علاقتها بجيمس من تدمير رهيب. أما هو فكـان يعلم. غير أن المـوقف العجيب أصبح بعدئذٍ خارجاً عن إرادته، فكان عليه أن يقوم بدور الجنتلمان، بإنكاره أن الاعتراف لم يكن فكرتها أصلاً (وهكذا ما كنت أميل إلى تصديقه) من ناحية، وبـأنه حـين بلغ الموقف حـد الاعتراف، تـركها هي التي تقـوم به، من ناحية أخرى. هذا ما يمكن أن تكون عليه النتائج الشنيعة المترتبة على أكذوبة التزمت الحذر. كانت لـيزي تخشى أن تعترف بقصتها مع جيمس، مثلما كانت هارتـلي تخشى أن تفضي بقصتها معي؛ وهكـذا كذبت النسـوة جميعـاً، فهـذه هي طبيعتهن: هـارتـلي، ليزي، روزينـا، ريتـا، جـان، كليمنت... ويعلم الله وحده كم من الأكاذيب أخبرتني بها كليمنت. هذا شيء لن أعلمه أبداً.

وفكـرت في الماضي البعيـد، جالسـاً هناك في المـطبخ في غسق الصيف الدافىء، مرتشفاً النبيذ حتى يـدور رأسي، بلا مصبـاح ولا شمعة، وشكـل زجاجة النبيذ مرسوم على خلفية المستطيل الباهت للباب المفتوح، وعلى سماء لا تغشاها الظلمة التامة أبداً. وسمعت صوت العمـة إستيل - لا صـوت ليزي - وهي تغني «ورود في پيكاردي»، وتذكرت التألق المشع لحضورها، وكل الفرح وكل الألم الذي سببته لي ذات مرة. يا إلهي، ما أسرع ما يتلاشى كل ما هو شاب وجميل، فلا يُرى مرة أخرى!.

وتذكرت هارتلي على درّاجتها، ووجهها النقي الصادق الذي كانت عليه حينذاك، وما أغرب شبهه واختلافه عن الوجه العجوز المنهك الذي تعذب وارتكب الإثم طيلة تلك السنين، عندما كنت في مكان آخـر مع كليمنت وروزينا وجان وفرتيزي. وا أسفاه، يا حبي، إنك تخطئين عندما تطردينني هكذا بلا مجاملة، فقد أحببتك طويلاً، وابتهجت بصحبتك. لقد استثمرت الكثير مع مضيّ السنين - في اعتقادي بطيبة هارتلي. ولكن أتراني اعتززت دائماً

بتلك الأيقونة؟ الشباب أيضاً بلا رحمة ولا بد أن يبقوا على قيد الحياة. وبعد أن فقدت كل أمل في عودتها، كل أمل في العثور عليها، عشت زمناً على سخطي، على النجاة بقولي: دعها تذهب إذن! وإني لأتذكر الآن ـ طافية من كهوف بحر الذاكرة العميقة ـ محادثة عنها دارت مع كليمنت. أجل لقد حدثت كليمنت عن هارتلي، فقالت كليمنت حينذاك: «ضعها الآن في الصوان الذي تحتفظ فيه بلعبك القديمة، أيها الفتى العزيز». يا إلهي، إنني أستطيع أن أسمع صوت كليمنت القوي الرنّان يقول الآن تلك الكلمات، وكأنها ترددها في الحجرة المظلمة! وهكذا نحّيت هارتلي جانباً زمناً ما. ومن المؤكد أنني لم أتحدث عنها إلى كليمنت أبداً، بعد تلك الأيام البعيدة. إذ كان هذا سيبدو مجافياً لآداب اللياقة، وكليمنت لا تغفر أبداً ما هو مجافٍ لآداب اللياقة. ومن المحتمل أن تكون كليمنت قد نسيتها، غير أنني لم أنْس. ورقدت هارتلي في قلبي كالبذرة، ثم نَمَت مرة أخرى، مطهَّرة كما كانت من قبل.

أصبح من الواضح لي الآن فحسب إلى أي مدى صنعت أنا تلك الصورة، ومع ذلك لم أكن أستطيع الشعور بأنها كانت من قبيل الوهم بأي حال من الأحوال. الأحرى أنها كانت أشبه بنوع خاص من الحقيقة، يكاد يكون وسيلة للاختبار؛ وكأن فكرة من أفكاري يمكن أن تتحول إلى شيء، وأن تكون حقيقة في الوقت نفسه. لقد كانت السخط الطارد الذي دفعني إلى أن أقول: «دعها تذهب إذن»، وكان هذا أكذوبة. إن إخلاصي الغريب الذي يكاد يكون جنوناً قد أصبح في النهاية مكافأته على نفسه. لقد جعلت جبين هارتلي ناعماً لا غضون فيه، ومحوت الغشاوة التي ترين على عينيْ هارتلي الجميلتين مع مضيّ السنين، وأصبحت الصورة المُبهمة المُعَذَّبة صورة رقيقة ومنبعاً للنور.

ولكن، ماذا حدث الآن؟ لقد استحضرت ذلك المشهد الغريب الذي

جرى في حجرة الجلوس في النيبليتس بكعكاته وشطائر الخيار والتورتة المثلجة وبن وهارتلي في هيئتهما النظيفة الصحية. (هل عاد «بن»، بعد أن طرداني، لكي يقطع لنفسه شريحة ضخمة من الكعكة؟) كان في الجو نوع من السكينة المتسللة. كان المشهد أشبه بصورة بدائية حقاً، الزوجان الفاضلان السعيدان في منزلهما الصغير الجميل، مكتملاً بكلب من فصيلة الكولي. كانا «سمينين» في ذاكرتي، كما يقوم الفن بتسمين شخصياته، فيجعلهم أسمن وأنعم من حقيقتهم في الحياة، ويضفي على وجودهم مزيداً من المطلق. كانا يبدوان أحسن وأكثر صحة ووسامة مما شاهدتهما من قبل. لماذا؟ ما الذي أعطاهما هذه الهيئة الراضية الوادعة؟ وجاءتني الإجابة الرهيبة: موت تيتوس.

تذكرت ما قالته هارتلي في اليوم الذي هرعت فيه إليّ، وأخبرتني بتعاستها، وملأتني أملاً بتخليصها، اليوم الذي أخبرتها فيه بأنه «بيِّنة». قالت إنها محطمة، وأن بنيتها الداخلية تتصدع، وأن تكاملها يُدَمَّر، لأنها كانت طوال تلك السنين مجبرة على مناصرة «بن» ضد تيتوس. وساءلت نفسي، أكانت تائبة معذَّبة، أم مجرد حطام؟ «كل شيء كان محطماً، وكأن شخصاً ما زال يستطيع أن يقف على قدميه غير أن عظامه جميعاً مكسورة، لم يعد كلاً متكاملاً، ولم يعد شخصاً بعد الآن». من الجائز أن تلك السنين الرهيبة قد حطمت حقاً تعاطفها مع تيتوس. لقد عانت كثيراً من أجله. وتذكرت كلماتها: «أحياناً كنت أشعر بأنه يكرهنا... وأحياناً أخرى كنت أتمنى أن يموت». إن عبء الذنب كان أكبر من أن يُحتمل دون سخط بطيء عميق. إن تيتوس، تلك اللُّقَطة المهلكة التي سعت إليها هي نفسها بلهفة شديدة، وحملتها ذات يوم إلى المنزل، قد حطمت زواجها، ودمّرت حياتها. ولكن يبدو الآن وكأن تيتوس نفسه هو المخلِّص، لقد اختفى حاملاً معه وزرها. وذلك الضمير الذي يوجه الاتهام قد ولّى. لقد عاد الارتياح إلى «بن» في هدوء، وتستطيع أن تلحق به خفية وفي السر، وبالغريزة العمياء يمكن أن تلحق به في خلاصه. والآن وقد انتهت الجريمة، يمكن أن يشعرا معاً

بتحسن. والذنب يمكن أن يبدأ الآن بالذبول. وهكذا كان موت تيتوس - على نحوٍ ما - قدراً محتوماً؛ وعلى نحو ما، كان «بن» هو الذي قتله حقًّا، على كل حال.

بالطبع، كانت هذه خواطر مخمورة مشوَّشة، غير أنه لم يكن يسعني إلا أن أفكر في أنني كنت على صواب عندما رأيت قبولها لذلك الموت بوصفه خلاصاً بشعاً، وتسلياً بشعاً على السواء. وبالطبع كنت في محاولتي رؤية هذا الموت وهو يسقط على هذا النحو الغريب في نموذج حياتها - كنت أعلم أنني أحاول خفية تخفيف ندمي ووزري أنا أيضاً. ما أسرع محاولتنا إلى تغطية رعب الموت والفقدان - إذا استطعنا - بكل وسيلة للتفسير، وكأن علينا أن نبرر القَدَر الذي أصابنا بالعجز.

وأصبح من الممكن الآن أيضاً تصور الهرب إلى أستراليا بوعيٍ صافٍ. كيف يمكن لهارتلي أن تقبل فكرة مغادرة إنجلترا ولمّا يزل تيتوس مفقوداً؟ هل تقبلت هذا الفقد؟ لعلها لم تتقبله. وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يبدو لها كالحلم. كنت واثقاً من أنها لم تخبر تيتوس في محادثتها القصيرة المرتبكة - بمشروعها الأسترالي. ذلك أنها لم تخبرني به على كل حال. كان هذا الإغفال يبدو لي الآن بوصفه فألاً حسناً. إنها لم تخبرني لأنها كانت قد حزمت أمرها بالفعل على البقاء.

قال عنها تيتوس إنها كانت «خيالية»، وكلما أطلت التفكير أخذت نسبة الزيف المحتملة في ما أخبرتني بالارتفاع. ولقد تشقق بنيانها، كالعظام المكسورة التي لا تلتئم أبداً، كسرها «بن»، وتيتوس، ولقد ضلت طريقها، وفقدت إحساسها بالاتجاه نحو الحقيقة. إذن. أين كان مثلي الأعلى الآن؟ الشيء الغريب أنه ما زال هناك مصدر للضوء، وكأن هارتلي نفسها تُلْقِي ضوءاً على هارتلي. كنت أستطيع أن آخذ الأمر كله، أن أحتضن الأمر كله، وأياً كانت طبيعتها فقد كانت هي التي أحببتها. لقد حدث الأمر في حياتي

على هذاالنحو.ألا وهو أن لديّ مكاناً واحداً فحسب يلقّن فيه الحب الذي لا تثريب عليه، وليس فيه سوى معلم واحد. وهكذا يمكن أن يكون الناس مصادر للنور طيلة سنين في حياة الآخرين دون أن يدروا أبداً، بينما تتخذ حيواتهم مسالك أخرى مختلفة وخفية. وعلى هذا النحو أيضاً يمكن أن يكون المرء - وهنا تذكرت كلمات برجراين - وحشا، سرطانـاً، في عقل شخص يكون المرء قد نسيه تقريباً، أو ربما لم يلتق به أبداً.

ولكن، فلنفترض أن مثل هذا الحب فَقَد موضوعه في نهاية الأمر، وهل يستطيع الحب أن يفقد موضوعه، مهما حدث؟ أنواع الحب لا تنهزم بالموت، وإن لم يكن من اليسير - كما نـظن - أن نحب الموتى. غـير أن هناك آلامـاً ووسائل تهزم الحب ببراعة أعظم. أمن الممكن أن أفقد هارتلي أخيراً فقداناً مطلقاً بسبب الخداع أو الهجر من ناحيتها بحيث يحيل حبي إلى كراهية؟ أمن الممكن أن أبدأ برؤيتها بوصفها باردة، لا قلب لها، غريبة الأطوار، ساحرة شريرة؟ كنت أشعر بأن هذا لا يمكن أبداً أن يــكــون ، كما أحسست بهذا على أنه إنجاز، بل طريقة للتملك. وعلى حد تعبير جيمس: «لو أن ناب كلب عُبد عبادة حقـه فإنه سوف يتألق بالنور». كان حبي لهارتلي أقرب ما يكون إلى غاية في ذاته. فلتلتو ولتتحول كما تشاء، ومهما حدث فإنها لن تستطيع أن تفلت مني الآن.

لم يكن تأملي يحافظ دائماً على هذا المستوى الرفيع. ذلك أن مجرد فكرة عن روزينا تعود بي إلى صورة «بن» وهو يبدو مزدهراً على نحو غريب، أو كما يمكن أن تقول فريتزي آيتـل: «متألق العينين، غزير شعر الذيل». أيكون هذا فحسب نتيجة لموت مروِّع تم احتماله وقبوله كوسيلة لاكتساب الحرية، وإمكانية دار الأوبرا منعكسة في الأمواج؟ أين أمضت روزينا الليل قبل ذلك اليوم البشع الذي أرجعنا فيه هارتلي إلى بيتها؟ تذكرت ما قاله جيلبرت عن سماعه إمرأة تتكلم في المنزل حين قام بتسليم الخطاب. أعلنت روزينا أنها

ذاهبة «لتعزية» بن. قد تكون هذه مجرد مزحة دنيئة. ومن ناحية أخرى كانت روزينا قادرة على كل شيء Capable de tout. ولو أن شيئاً قد «وقع» بين «بن» وروزينا فإن هذا يمكن أن يفسر لا مجرد مظهر الرضا العجيب الذي بدا عليه فحسب، بل أن يفسِّر أيضاً موقفه الأكثر تحرراً تجاه هارتلي، وتسامحه في زيارتي، والمناقشة التي دارت على عتبة الباب واستغرقت حوالي دقيقة، وهلم جراً. ولعل روزينا قد ساعدت على تحول هارتلي، إما بأن أعطت «بن» شيئاً صغيراً يمكن أن يخفيه وأن يشعر بالذنب بسببه، أو بأن جعلته يدرك أن زوجته الحيزبون المضحكة تفضل عاهرة مغندرة من غانيات الاستعراض. كانت هذه - في الواقع - خواطر وضيعة،على أي وجه قلّبتها. غير أنها - في مستوى الفضول المبتذل - كانت أحياناً راحة من شدة الأشواق المتسامية.

ثم خطر لي بعدئذٍ أن روزينا ربما لا تزال في فندق الغراب الأسحم، وأن من الممكن أن أتمشى إلى هناك وأن أسألها. وحتى لو كذبت فقد أتوصل إلى معرفة شيء ما.

كنت محجماً بالطبع عن مغادرة المنزل لأنني أتوقع - من لحظة إلى لحظة أخرى - أن تأتي هارتلي أو تأتي «إشارتها»، غير أنني قررت المجازفة بالخروج، وتركت على الباب ورقة تقول: هـ. انتظري، عائد سريعاً. واعتزمت ألا أتصل هاتفياً بالفندق مسبقاً، إذ كنت أريد أن أغتنم ميزة من المفاجأة. فلو أنني اتصلت فسوف يتاح لروزينا الوقت لاختراع زيف مفصّل. كما كنت أريد أيضاً ذلك العزاء الضئيل وهو أن أشاهد سرورها المباغت لرؤيتي. فلا بد من أعترف أنني لم أكن أريد من روزينا المعلومات المتعلقة بحالتي فحسب، بل كنت أريد أيضاً لمسة من العزاء التي يمكن أن تعطيها المرأة العاشقة، حتى ولو كانت عاهرة. وكان المشي والهدف تلهية في حد ذاتها، مهمة، في مرحلة من الزمن كان فيها الانتظار السلبي والتفكير قد أصبحا عبئاً بالفعل. ولو لم تُعْطِ هارتلي أية إشارة، فسوف أتصرف بسرعة مرة أخرى. وفي هذه

الأثناء، يمكن أن يكون التحقيق مع روزينا مفيداً.

كان يوماً دافئاً ملبداً بالسحب، وكانت ريح خفيفة تتقاذف نُتَفاً صغيرة من الزبد الأبيض فوق منافذ الأمواج الكثيرة المغطاة في خليج الغراب الأسحم. وكان البحر في حالة من عدم الاستقرار المائج، مصطبغاً بلون أزرق قاتم، تلك الزرقة الشمالية الباردة المتجهمة التي يمكن أن تنـذر في فصل الصيف بخطر شتائي. وكانت السماء أيضاً قد اتخذت ذلك الطابع الشمالي، فتلونت بلون أزرق بارد شاحب بين سحب متلاحمة شديدة البياض، سريعة الحركة. وكان ضوء الشمس يلوح ويختفي وأنا سائر في الطريق المألوف، وجـلاميد الصخر المستديرة الضخمة الرابضة على الخليج تـبرز في تنوع مـدهش من الأشكال الحجرية البشعة، تكتنفها الظلال، وتلطخهـا بقع من الأعشـاب البحرية القديمة، وعيون الأشنة الصفراء البراقة، ثم يتلاشى كـل شيء في هدوء عندما يحتجب النور.

وصلت إلى الفندق، ولم أكن قد ذهبت إليه منذ اليوم الذي طردت فيه من حجرة الطعام لأنني لا أرتدي ربطة عنق. وكانت الشمس تسطع في القاعة الأمامية ذات الأثاث المريح البهيج عندما دخلتها، وخطر على بالي إلى أي مدى كان كل شيء نظيفاً أنيقاً لطيفاً بعد القذارة والفوضى الضاربة أطنابها في «شراف إند» حيث لم تعد لدي أية رغبة في التجميل أو التزيين. كانت في القاعة مقاعد وثيرة مكسوة بأقمشة مزخرفة مشرقة، ومزهرية ضخمة حافلة بزهور البوذليا البرية والفوشية الحمراء والأبيولوبيون (نبات أرجواني الزهر) وبعض الخبّاز البنفسجي الذي كان ينمو وسط الصخور. وتقدم مني خادم لم تنم سحنته عن قدر من السخرية ليسألني ما أريد. وكنت أرتدي سراويل قطنية قذرة ملفوفة قليلاً إلى أعلى وقميصاً شارداً أزرق، غير أن هذا كان من الممكن التسامح فيه في الصباح حتى مـع وجود المقـاعد الـوثيرة المكسـوة بالأقمشة البهيجة.

قلت: «أرجو المعذرة، ولكن، ألا تزال الآنسة ڤامبورج مقيمة في الفندق؟» نظر إليّ الرجل نظرة عجيبة إلى حد ما وأجاب: «السيد والسيدة آربلو في قاعة الانتظار، يا سيدي».

يا إلهي! مشيت إلى الباب الذي أشار إليه. كانت قاعة الانتظار الواسعة التي تطل على منظر هائل من الخليج خاوية إلا من شخصين يجلسان عند النافذة، وينظران إلى الخارج. التفتا إليّ عندما دخلت.

ـ «تشارلز!».

ـ «ماذا، هذا هو رجلنا المفضّل للتفكه! تشارلز، أيها الرجل العجوز، كنا نأمل في مجيئك، أليس كذلك، يا روز؟».

وجهان التفتا إليّ، يطفحان بخبث مستمتع بنفسه.

قلت: «أهلاً. ما ألطف أن أراكما معاً مرة أخرى. أمن الممكن أن أطلب لكما شراباً؟».

صاح برجراين: «كلا، كلا.. المشروبات على حسابنا! أيها الساقي، أيها الساقي. زجاجة من الشمبانيا التي طلبناها أمس، من فضلك، وثلاث كؤوس».

سألت برجراين: «هل عدتما إلى لندن، أم حضرتما إلى هنا مباشرة؟».

قال: «كلا. توقفت لأغرق أحزاني فحسب، فإذا بي ألتقي بالعاهرة العجوز الحولاء».

ـ «ثم وقع كل منكما بين ذراعي الآخر».

قالت روزينا: «ليس في التو واللحظة. كان لا بد أن نبدأ بمشاجرة لطيفة. كان برجراين عدوانياً إلى حدٍ ما. وكان أشد ما يزعجه هو حاجز الريح في سيارته».

قال برجراين: «كان ذلك الحاجز يضايقني، غير أنه رمزي أساساً. شكراً يا أيها الساقي».

هتفت روزينا: «دعني أفتحها. إنني أحب فتح زجاجات الشمبانيا». وتطايرت السدادة، وتعالت الرغوة فوق السائل الذهبي.

- «تشارلز!».

- «شكراً لكما. في صحتكما، السيد والسيدة آربلو».

قالت روزينا: «الحق أننا لا نكاد نصدّق. إننا سعداء. أو على الأقل أنا سعيدة. هل أنت سعيد يا برجراين؟».

- «هذا الإحساس غير المألوف-أحدده دون أن أخشى الخطأ بأنه سعادة. تشارلز، أطيب تمنياتي لك. أما زال ابن عمك العسكري الكئيب يحوم حولك؟».

- «كلا، لقد رحل».

- «إذن فأنت تضني نفسك بليز المخلصة إلى الأبد؟».

- «كلا، فقد رحلت هي أيضاً».

قالت روزينا: «وحدك تماماً؟ ماذ عن السيدة الملتحية؟».

- «أوه، سوف يرحلان. على أي حال، لقد تخليت عن «السعي وراء السيدة الملتحية. لقد كان انحرافاً عقلياً مؤقتاً».

قال برجراين: «ذلك هو الرأي العام. نحن نهنئك».

- «هل ستعودان إلى لندن؟».

- «غداً. وإن تكن الإقامة بديعة هنا. والطعام ممتاز. لدي عمل تلفزيوني أتريد أن نوصلك؟».

- «كلا، شكراً. وهل ستنضم حقاً إلى القوات مرة أخرى؟».

قالت روزينا: «أجل. كل شيء قد قفز عائداً إلى مكانه. لن يطغى أحدنا على الآخر أبداً، ولن يكون هناك الآن ما يدعونا لذلك أبداً. الأمر بهذه البساطة ولكن هل تعلم يا تشارلز، ما الذي جعلني أرى الحقيقة بغتة؟».

- «ماذا؟».

- «قَتْل برجراين لك!».

«قال برجراين: «محاولتي لقتله. ينبغي أن أكون متواضعاً؟».

سألت: «وما الشيء المحبَّب في ذلك؟».

- «أوه.. لست أدري، لقد كان شيئاً رائعاً. فأنت - على كل حال - تستحق القتل. لما فعلته بنا، إن لم يكن لأي شيء آخر».

قلت: «دعينا لا نتحدث عن هذا».

- «أوه، لا تنزعج، فلن نضع قائمة بآثامك، فنحن نشعر بحالة من المرح تحول بيننا وبين ذلك. غير أن تلك المحاولة كانت نوعاً من الرياضة وشيئاً رائعاً من برجراين أن يدفعك في تلك الفجوة. وقد كرهت دائماً فكرة أنه غَفَر لك. كل ما كنت أرجوه هو أن تكون قد غرقت، فهذا أكثر جمالية».

قال بيري: «لا أدري لماذا لم تغرق».

- «كانت مسرحية كاملة من العنف الصحيح الجدير بالمشاهدة. أنا أحب الرجل العنيف حقاً، الرجل الذي فيه شيء من خصال الوحش بطريقة مستقيمة محترمة. أما أنت فشخص ملتوٍ أشنع الالتواء يا تشارلز، وإن تكن في أساسك شخصاً ناعماً. لا أستطيع أن أتصور كيف تعلقت بك كل هذا التعلق. أظن أن أوهامك الشخصية عن القوة هي التي فتنت الناس بك، لا جاذبيتك الشخصية. كل ما في الأمر أننا وقعنا في أشراك خداعك. أما من حيث أنك رجل فأنت خرع. أستطيع أن أرى ذلك الآن».

- «يطيب لي أن أكون لطيفاً ناعماً، كالدمية اللينة. ولكن، هل تعتزمان

الزواج فعلاً مرة أخرى؟ من المؤكد أنكما لن تذهبا إلى ذلك المدى؟ أظن أنك قلت يا برجراين إن الزواج كان جحيماً، قلت إنه كان غسيلاً للمخ».

- «ليس الأمر كذلك عندما تتزوج الشخص نفسه للمرة الثانية. ينبغي على كل إنسان أن يفعل ذلك».

- «ولكن، ماذا عن باميلا؟».

- «أوه، ألم تسمع؟ لقد هربت پام مع ماركوس هنتي. أنت تعرف، لقد أصبح مزارعاً جنتلمان. إن حياة القصر الريفي تلائم پام تمام الملائمة».

- «وهكذا قررت أن من الأفضل لي أن أقتنص برجراين قبل أن يبدأ في التودد إلى آنجي!».

قال برجراين: «يا إلهي!» وأخذا يضحكان بجنون: وجه پيري الضخم المتغضن أحمر بتأثير الشمس والشمبانيا. أما روزينا فكانت جاثمة كالمعتاد، الآن على ذراع مقعد برجراين، وهي تؤرجح ساقيها الطويلتين العاريتين، وقد انحسر ثوبها الأبيض. وكانت تتكىء عليه، وهي تمشط شعره بأنفها. رمقني كل منهما ثم تبادلا النظر بجدية ثم انتقلا إلى نوبة أخرى من الضحك.

قلت: «أرجو أن يكون لبرجراين دور في «أوديسا» فريتزي. ربما استطاع أن يمثل دور الكلب العجوز».

قالت روزينا: «أوه، لقد انتهى ذلك».

- «هل غيّر فريتزي رأيه؟».

- «كلا، أنا الذي غيرت رأيي».

قال برجراين: «نحن ذاهبان إلى أيرلندا».

- «إلى أيرلندا؟».

- «نعم، إلى لندنديري. كفانا ما عانينا من صناعة الاستعراض في وست إند. وإننا نريد أن نأتي بالمسرح إلى الناس».

- «أوه يا إلهي!».
- «لا تستهزىء يا تشارلز. سوف يكون هذا بداية شيء عظيم...».
- «إذن فأنت تتخلين عن دور كاليبسو، يا روزينا؟».

قالت: «أجل».

قلت: «لقد أثّرت فيّ، أخيراً».

قال برجراين: «بداية شيء عظيم. سنكتب المسرحيات بأنفسنا، وسنقنع الأهالي المحليين بتمثيلها. الأيرلنديون ممثلون بالسليقة، وهناك مسرح صغير لطيف ضرب بالقنابل ضرباً هيِّناً فحسب...».

قلت: «أنا لا أستهزىء، بل أعتقد أنكما تتحليان بالشجاعة، كل منكما، وأتمنى لكما أطيب الحظوظ. كلا، لا مزيد من الشمبانيا، شكراً، لقد أسكرتني فعلاً».

قال برجراين وهو يصب لنفسه كأساً أخرى: «لم يكن لتشارلز أبداً رأس يحتمل الشراب».

قلت له: «لم أعد وحشاً في ذهنك بعد الآن، على ما أرجو؟».

قال: «كلا، لقد قتلت الوحش عندما دفعتك في البحر. وأنا سعيد لنجاتك، حقاً، كل ما ينتهي بخير، فهو خير. (العبرة بالخواتيم)».

- «آه، ولكن متى تحين النهاية؟ يجب أن أنصرف. شكراً على الشمبانيا».

قالت روزينا: «سأصحبك إلى الباب»، وهبت واقفة، فحييت برجراين وتبعتها.

تبينت أن ثوب روزينا الأبيض كان نوعاً من الرداء لا شكل له ترتديه الكاهنات ومصنوعاً من نسيج هفهاف رقيق جداً بحيث يرفرف حولها فوق الهواء. بسطت يديها وصفعته ثم لملمته بإحكام حول جسدها. خرجنا ووقفنا لحظة في الشمس فوق الحافة الصخرية للطريق. وكانت قدما روزينا عاريتين.

ـ «إذن فأنت تعتقدين أن الأمور سوف تسير على ما يرام، أعني بينك وبين برجراين؟».

ـ «لا أرى سبباً يمنع من ذلك. لم يكن ثمة خلاف بيننا سوى الغيرة».

ـ «وهذا في حد ذاته خلاف ضخم. وقائم دائماً وأبداً».

ـ «فليكن، إنها علامة الحب. كان برجراين مفتوناً بك، ثم تزوج پام لمجرد أن يغيظني. وأنت تعلم، أنني لا أستطيع أن أتحمل وقوف برجراين موقفاً سلبياً من استلابك لي، كنت أريده دائماً أن يحارب من أجلي».

ـ «عقدة هيلين الطروادية. لقد أصبحت شائعة».

ـ «وعندما سمعت أنه قتلك...».

ـ «إنه يفاخر بهذه الفعلة؟».

ـ «بالطبع...».

ـ «جميل، أتمنى لكما حظاً سعيداً. أخبريني يا روزينا، في ذلك اليوم الذي خرجت فيه وقلتِ إنك ذاهبة لرؤية بن، هل ذهبت إليه؟».

تطلعت إليّ روزينا بعينيها الحادتين الحولاوين، ولفت الرداء الأبيض وأحكمته حولها: «نعم».

ـ «وماذا حدث؟».

ـ «لم يحدث شيء. تحدثنا حديثاً هائلاً».

ـ «وهذا أسمِّيه حَدَثاً، وفيم دار الحديث؟».

قالت روزينا: «تشارلز، إنك تسأل أسئلة كثيرة، وأنت تريد شيئاً في مقابل لا شيء، وهذا ما تفعله دائماً. ولكنني أستطيع أن أؤكد لك شيئاً واحداً... سيدتك الملتحية هذه سيدة محظوظة. فذلك الرجل جذاب إلى أقصى حد».

ـ «أوه...!» استدرت ملوِّحاً بيدي. كنت مستعداً لدفع مبلغ كبير

للحصول على تسجيل لذلك «الحديث الهائل» ـ إذا كـان قد جـرى حقاً.
وخطر لي لأول مرة أن أتساءل: أترى كانت الجاذبية الجنسية هي التي جمعت بين «بن» وهارتلي؟.

«تشارلز!» وكانت روزينا قد ركضت مسافة قصيرة ورائي، ثم سـارت بأطراف قدميها العاريتين على المنطقة المعشوشبة، وقد أخذ رداؤها الأبيض يرفرف حرًّا طليقاً.

انتظرت.

ـ «تشارلز، حبيبي، يجب أن أعرف. عندمـا جئت إلى هنا اليـوم أكنت تريد أن تمنحني نفسك؟».

قلت: «إنك توجهين أسئلة كثيرة جداً».

وكنت أستطيع أن أسمع ضحكاتها المرحـة وأنا أمضي في طـريقي. إن تخليًها عن دورها في ذلك الفيـلم هو في حد ذاته لمسة صلبة من الواقع لا شبهة فيها.

في ذلـك المسـاء احتشـدت السحب، واحتجبت الشمس، وانهمـرت الأمطار، لقد قرر الطقس الإنجليزي المتقلب الذي أخذ يحاكي شهر يونيو محاكاة مقبولة ـ قرر الآن أن يقوم بدور شهر مارس. وهبت ريح باردة من ناحية الـبحر فحملت المطر في ضربات عدوانية غير منتظمة، أشبه بإلقاء الحصى على النوافـذ الخلفية. وامتـلأ المنزل بـأصوات غـريبة من القـرقعة والصرير، وردد ستار الخرز ثرثرة غير منتظمة لـطقطقـة مباغتـة مهتاجـة. بحثت عن الجرس الأيرلندي وأخيراً وجدته بين ملاءات السرير والوسائد التي ما زالت رابضة على الأرض في حجرة الكتب. حاولت إشعال المدفأة في الحجرة الصغيرة الحمراء، غير أن مخزوني الداخلي من الوقود كان قد نفذ، وكان الخشب الذي جمعته من الخارج قد أفسدته الرطوبة. تجرعت مقداراً

كبيراً من النبيذ الأحمر بعد أن تناولت حسائي من العدس، وأويت إلى فراشي مبكراً مع زجاجة من الماء الساخن.

وفي صباح اليوم التالي كانت السماء لا تزال تمطر طَلًّا، غير أن الريح خفَّت وكان الجو أقل برودة. وأحاط بالمنزل ضباب كثيف نَدِيٌّ رمادي بلون اللؤلؤ، فكان من المحال رؤية نهاية الممر المؤدي إلى المدخل. حملت صناديق القمامة التي لم أكن أفرغتها منذ زمن إلى الخارج على الطريق، ووقفت هناك برهة أرهف السمع. كان الريف اللامرئي سكوناً شاسعاً. فدخلت المنزل مرة أخرى، مبللاً بالضباب والرذاذ، وأعددت لنفسي فطوراً طويلاً من البوريدج المصحوبة بالكريمة المعلبة، والسكر البني، ومن البيض المسلوق، والبسكويت والعسل (لم يكن لدي خبز) وعدة فناجين من الشاي الساخن. وبعد أن جلست واضعاً سجادة فوق ركبتيّ التقت يدي بشيء في جيبي لم تستطع أصابعي أن «تقرأه» (تتبينه). سحبته فوجدت أنه شريحة هارتلي التي دسستها في جيبي في الليلة التي «هربت فيها إليّ». تفرست في الشيء الصغير الذي يكاد يكون بلا معنى، وحاولت أن أدركه بوصفه تعويذة، غير أنه كان يبدو مؤثراً، وملأني بالشجن، فأودعته أحد الأدراج في الحجرة الصغيرة الحمراء.

عدت إلى سجادتي وبدأت أعيد النظر في الموقف.

من الأفكار المُعَزِّية الموضحة كانت هناك فكرة ما فتئت تعاودني كلما حاولت تخيل حالة هارتلي العقلية، ألا وهي أنها قد تقرِّر الانتظار حتى اللحظة الأخيرة قبل أن تندفع في التنفيذ. فلتدعِ «بن» يذهب إلى أستراليا. فمن المؤكد أنها كانت رغبته، فكرته، لا فكرتها. وربما استطاعت أن تتخلص منه إلى الأبد بأن تنفلت بعيداً في اللحظة التي يوشك فيها على الإبحار. ثم تثبت بعد ذلك في زورقي، كما فعل اللورد جيم. إن طاقة «بن» الدافعة ستكون في أعظم حالاتها عندما يشرع في الرحيل، وربما قال: فلتذهب إلى الجحيم. كانت هذه النظرة إلى الموضوع ألمعية ومعقولة. ولكن،

هل من الممكن أن أعتمد عليها اعتماداً كافياً بحيث ألتزم السلبية، وهل أستطيع وأجرؤ على تحمل هذا القَدْر من السلبية دون توكيد حاسم من هارتلي؟.

قررت أنني أستطيع إمهال هارتلي يومين أو ثلاثة للتفكير في الخطاب الذي تركته معها. كنت سعيداً بأن لديها ذلك الخطاب، وتخيلت أنه يؤثر فيها لصالحي كأنه عفريت صغير مقيم. وتذكرت أيضاً أنني كنت من الفطنة بحيث أعطيتها رقم هاتفي. ومما لا شك فيه أن فصل الأعمال الخشبية قد قطع علاقته بـ «بن»، غير أنه من المؤكد أنه يترك المنزل أحياناً ليذهب إلى مكان ما، ليتسلم التذاكر، والتأشيرات، والنقود؛ وحتى في هذه الحالات التي قد يصطحب فيها هارتلي فإنه لن يستطيع أن يراقب كل حركة من حركاتها. ومن المؤكد أنها تستطيع أن تفلت منه لتتصل بي هاتفياً. لن يستدعي الأمر أكثر من كلمات قلائل: انتظر، سآتي إليك. وكان مجرد تخيلي لهذه الكلمات يحملني (بسلام) فوق رقعة أو رقعتين من الزمن العصيب. وجَعَلَتْ الإمكانية الدائمة لهذه المكالمة الهاتفية الفترة القصيرة من الانتظار المحض التي فرضتُها على نفسي ـ جعلتها قابلة للتحمّل.

ولكن، فلنفترض أن شيئاً لم يحدث. . وهل يحدث شيء؟ حينئذ لا بد من أن أحتال لرؤية هارتلي بطريقة عليّ أن أخترعها، حتى لو اقتضت نوعاً من «المواجهة» مع «بن». ينبغي ألا يكون هناك مزيد من الالتباسات. وملأتني إمكانية هذه المواجهة التي ربما تكون حاسمة ـ بمزيج من الخوف والإثارة الممتعة، إذ كنت أراها بوصفها الحائل الأخير الذي أستطيع أن أرى فيما وراءه إذا أسقطته بضربة قاضية ـ جائزتي المضمونة. ولم تكن صورة «الضربة القاضية» صورة مطمئنة على كل حال. وعلى أقل القليل ينبغي أن أكون على أهبة الاستعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن النفس. وقد كان «بن» رجلاً أشد عنفاً بالسليقة، وهذا من الناحية النفسية ميزة ملحوظة. ومن المحتمل

أنه يجب ضرب الناس، كما كان أصغر مني سناً، وشخصاً قوياً متين البنيان، غير أنه يميل الآن إلى البدانة وقد وتجاوز حد اللياقة البدنية قليلاً، على حين كنت لائقاً، خفيف الحركة. ذلك أن المسرح يتطلب اللياقة الجثمانيـة، وقد تجاوبت دائماً مع هذا المطلب بحرص الرجل الرياضي المدقّق.

ومن منظور الدفاع عن النفس فقد فتشت «شراف إند» بحثاً عن آلـة ملائمة لهذا الغرض. ففي أية لحظة، قد أتلقى - على كل حال - زيـارة، لا من هارتلي، ولكن من «بن». ولم تكن فكرة قتل «بن» قـد فارقت عقـلي تماماً. وكانت كأنما تركت أثراً عميقاً محفوراً في ذهني - مع مـا في هذا من مخالفة للعقل ولمزيد من التأمـل الهادىء، أشبـه بأثـر للذاكرة - غـير أن هذا كان يتعلق بالمستقبل. كان نوعاً من «أثـر النية أو القصـد» أو شيئاً أشبـه بما يمكن أن يوجد في عقل شخص ما يستطيع أن «يتذكر» المستقبـل كما نتـذكر نحن الماضي. وأن أدرك أن هذا يخلو من المعنى، غـير أن ما كنت أشعـر به هنا لم يكن قصداً عقلياً، ولا إرهاصاً ولا حتى تنبؤاً. بل كان مجرد نـوع من النـدبـة العقليـة التي تلقيتهـا والتي لا بـد لي من أن أحسب لهـا حسـابـاً. وأحجمت حتى هذه اللحظة عن التخطيط. وكنت أتصور لحظة «الاقتحام» تصوراً مشوَّشـاً بوصفهـا مشهداً من مشـاهد الـدفاع الشرعي عن النفس. وبحثت عن أداة غير حادة.

كـان الوقت متـأخراً الآن من مسـاء اليوم الـذي أعقب لقـائي ببـيري وروزينا. وقبل هذا بقليل أحسست بإغراء واضح للسير حتى فندق الغراب واحتذاء المَثَل الذي ضربه برجراين بإغراق أحزاني في الحانـ (البار). أحسست بحاجة إلى مجرد رؤية عدد قليل من البشر العاديين الذين يحيون حياة بشرية عـادية، شهـور عسل، مشـاجرات، متـاعب مع سيـاراتهم، متاعب مـع رهوناتهم. ومع ذلك كنت أخشى أن أجد الزوجين آربلو لا يزالان هناك، وشعرت بأنني أستطيع الآن أن أنعم بفاصل طـويل قبـل أن ألتقي بهذين الزوجين مرة أخرى. وربمـا ذهبت يومـاً لزيـارة المسرح الصغير الحبيب في

لندنديري، غير أنني رجّحت عدم الذهاب. ولم أكن أريد الذهاب إلى حانة «الأسد الأسود» بسبب قُرْبي الأليم من هارتلي، وكذلك بسبب العداء الفضولي الخطر الذي يبديه الزبائن نحوي، وأيضاً لاحتمال التقائي مصادفة بفريدي آركرايت. وفضلاً عن ذلك كان لا بد أن أمكث بالقرب من الهاتف. وهكذا كان البحث عن سلاح يمثل مشغلة على أقل تقدير.

كانت السيدة تشورني قد خلفت وراءها أشياء شتى في الغرف التي تحت السطح، وهي التي فتشتها بلا جدوى أثناء النهار. وقد وجدت خلف الحمام قطعة طويلة من المعدن، وربما كانت مخصصة للاستعمال كعتلة، غير أنها كانت من الثقل والضخامة بحيث لا يمكن حملها ـ بعد أن تصورت المسألة ـ في جيب معطف، وكنت قد استعرضت بالطبع أدواتي الخاصة، غير أن هذه الأدوات كانت هزيلة بشكل مضحك: مفكّات ولكن لا وجود لإزميل، ونوع من المطرقة الصغيرة التي يطلق عليها «مطرقة السيدة». وأخذت أبحث الآن في غسق الليل المظلم بالاستعانة بشمعة في مكان اكتشفته تحت حوض يبدو أنه كان مكاناً لإخفاء أشياء شتى. ولما تحسسته وسط الخشب الفاسد الرطب ومستعمرة من السوس، وجدت قطعة سميكة ثقيلة من المعدن تبينت أنها رأس مطرقة. وكان الساق أو المقبض أو الجزء الخشبي الذي يثبت في الرأس، أياً كان اسمه، قابعاً على حدة، فوضعت كلاً منهما على المائدة.

كان الظلام الآن منتشراً تقريباً في الخارج، وهبط الضباب الذي كان أشبه بسحابة بحيث أعتم ما تبقى من ضوء يمكن أن تمنحه سماء الغسق. وكانت السماء تمطر رذاذاً، ومع أن الريح لم تكن قوية، إلاّ أن المنزل كان يبدو وكأنه يتحرك، ويهز نفسه وينتفض، ويختلج، ويقرقع ويتمدد كأنه سفينة خشبية. وكنت أستطيع أن أسمع أطر النوافذ وهي تتقلقل، و ستار الخرز وهو يخشخش والباب الأمامي وهو يصر، وذبذبة صغيرة عالية النبرة تبينته بعد شيء من البحث ـ أنها آتية من الباب الأمامي المعلّق في المطبخ. كما أجفلت أيضاً

من صوت قادم من الخارج، عبر البحر، صوت نعيب طويل متكرر، يختلف عن بوق الضباب الذي تطلقه السفن. ولم أكن قد سمعت بوقاً للضباب من قبل على بحرنا العجيب غير المطروق؛ ألعلها سفينة ضلت طريقها وسوف تصطدم بعد فترة من الصمت على صخوري بضجة لا سبيل إلى تخيلها؟ وانقطع صوت البوق ـ إنه كان بوقاً حقاً ـ برهة من الزمن، ولكن، انبعث الآن صوت آخر، هو ذلك الارتطام المنتظم المكتوم العجيب الذي تحدثه المياه المتسابقة داخل «مرجل مين» والتي تُرْغَم بغتة على الخروج منه ثانية. وضعف الشمعة على المائدة بين رأس المطرقة والمقبض الخشبي اللذين يبدوان منفصلين أحدهما عن الآخر على نحو غريب، مثل الأدوات الطقوسية التي تنتمي لعقيدة غير مألوفة. أنصتُّ إلى الضوضاء العالية الجوفاء المنتظمة المنبعثة من المرجل وكأنما اقتحمت قوتها جسمي، وبدأت تبدو كأنها قلب قوي خفّاق، كأنها خفقان قلبي القوي، ثم أشبه بالصوت المتسارع المتوعد للمطارق الخشبية المستخدمة في المسرح الياباني.

أحسست فجأة بشعور أبعد ما يكون عن الارتياح، فقررت إيصاد الباب المؤدي إلى المرجة. وفيما كنت أتحرك نحوه، وظهري إلى الشمعة، كنت أستطيع أن أرى المنظر في الخارج معتماً من خلال النافذة. توقفت بخفقة حادة من الذعر، إذ شاهدت طيفاً مظلماً يقف بالقرب من الباب، بين المنزل والصخور. وفي اللحظة التالية تبينت على نحو ما أنه جيمس. نظر كل منا إلى الآخر من خلال الزجاج. وبدلاً من أن أفتح الباب استدرت راجعاً، وتناولت الشمعة وخرجت إلى الصالة للعثور على أحد المصابيح الزيتية. أشعلت المصباح، وأطفأت الشمعة، وعدت بالمصباح إلى المطبخ. وكان جيمس قد دخل في الظلام وجلس إلى المائدة. وضعت المصباح، وأدرت الذبالة، وقلت: «أوه، إنه أنت»، وكأنني لم أره من قبل، أو كأنما كنت أتوقع شخصاً آخر سواه.

- «أرجو ألا يكون ظهوري قد أزعجك؟».
- «كلا».

جلست، وجعلت أعبث بالمطرقة. نهض جيمس، وخلع سترته التي كانت منقَّطة بالمطرِ، ونفضها ثم علّقها على ظهر مقعده، وطوى أكمام قميصه، وجلس مرة أخرى متكئاً بمرفقيه على المائدة، وأخذ يراقبني.

- «ماذا تفعل؟».
- «أُصْلح هذه المطرقة». وكانت المشكلة أن الرأس رُكِّب في المقبض على ما يرام، ولكن بغير إحكام، ومن ثمّ يمكن أن يسقط عند الاستعمال.

قال جيمس: «الرأس غير مُحْكَم».
- «لاحظت ذلك!».
- «أنت بحاجة إلى إسفين».
- «إسفين؟».
- «احشر فيه كسرة من الخشب لتجعله مُحْكَماً».

وجدت قطعة من الخشب (كان المنزل مليئاً بقطع من الخشب لسبب ما)، ووازنتها داخل الثقب المعدني، وأدخلت المقبض، محتفظاً بالكسرة في مكانها. وهززت المطرقة. تماسك الرأس بإحكام.

قال جيمس: «ماذا تريد أن تصنع بها؟».
- «لأسحق خنفساء سوداء».
- «إنك تحب الخنافس السود، أو على الأقل كنت كذلك عندما كنا صغاراً».

قمت وأخذت زجاجة حجمها لتر من النبيذ الأسباني الأحمر ففتحتها ووضعتها على المائدة مع كأسين. وكانت الحجرة باردة، فأشعلت موقد غاز الكالور.

قال جيمس: «أي نوادر كانت لنا».

- «متى؟».

- «عندما كنا صغيرين».

لم أكن أستطيع أن أتذكر نوادر كانت لي مع جيمس. صببت النبيذ وجلسنا صامتين.

وكان جيمس يصنع بإصبعه - دون أن ينظر إليّ - نماذج على المائدة. من الممكن أن يكون مرتبكاً؛ وعندما جالت برأسي فكرة أنه قد يشعر بنفسه مرة في وضع المتوسل، شعرت أنا أيضاً بالارتباك. ومهما يكن من أمر فإنني لم أكن في حالة تسمح لي بإخراجه من ارتباكه. استمر الصمت. وأصبح الموقف أشبه باجتماع للكويكر*.

قال جيمس: «أيمكنك أن تسمع البحر؟».

- «هذا هو الاستشهاد الأثير لكيتس من شكسبير». أرهفت السمع. كان الصوت الإيقاعي قد توقف، وأعقبه نوع من الهسيس الحزين المنتظم على حين كانت الأمواج الضخمة المنتظمة تتسلق الصخور وتبللها ثم تتساقط متراجعة. لا بد أن الريح قد اشتدت. «أجل».

وبعد سكتة أخرى قال: «أليس هناك شيء يؤكل؟».

- «خليط من بروتين الخضروات».

- «أوه جميل، لقد مرضت من البيض».

جلسنا نحتسي الخمر برهة من الزمن. وكان جيمس يصب الماء على نبيذه وحذوت حذوه. ثم نهضت لتسخين الخليط. (كنت قد ألقيت به معاً ذلك الصباح بوصفه وجبة للطوارىء، وهو لا يفسد سريعاً). وفيما كنت أفعل

* الكويكرQuaker:اجتماع ديني يعقده الصاحبيون (الكويكرز) ويتميز عادة بفترات صمت طويلة (المترجم).

ذلك خطر لي أن الآلة التي شيدتها بعبقريتي لأفصل بها نفسي عن ابن عمي إلى الأبد ـ هذه الآلة يبدو أنها لم تكن تعمل جيداً جداً.

ـ «خبز؟».

ـ «نعم، أرجوك».

ـ «يا للجحيم، لا يوجد خبز، بسكويت فحسب».

ـ «فليكن، أي شيء».

جلسنا لتناول الخليط.

سألني: «متى ستعود إلى لندن؟».

ـ «لا أدري».

ـ «ماذا عن هارتلي؟».

ـ «ماذا عنها؟».

ـ «أي أخبار، آراء؟».

ـ «كلا».

ـ «هل استسلمتَ؟».

ـ «كلا».

ـ «رأيتها؟».

ـ «تناولت الشاي معها ومع بن».

ـ «كيف كان الموقف؟».

ـ «مهذباً. مزيداً من النبيذ؟».

ـ «شكراً لك».

كنت أخشى أن يزعجني جيمس بمزيد من الأسئلة، ولكنه لم يفعل، وبدا عليه أنه فقد الاهتمام. وفي لهجة تميل الآن إلى التعميم قال: «أظن أنك قد خرجت تقريباً من هذا الموضوع. لقد بنيت قفصاً من الاحتياطات وأسكنتها في مكان خال في الوسط. المشاعر القوية تحيط بها من كل جانب. الغرور،

الغيرة، الانتقام، حبك لشبابك... لم تكن هذه المشاعر مركَّزة عليها، لم تكن تمسها. بل كانت تبدو أنها أسيرة تلك المشاعر، غير أنك لم تؤذها حقاً على الأطلاق. إنك تستخدم صورتها، دمية، نسخة محاكية لها، إنها تعويذة. وسوف تراها عاجلاً بوصفها ساحرة شريرة. ثم لا يكون أمامك سوى أن تصفح عنها، وسيكون هذا في مقدورك».

- «شكراً لك... غير أن الواقع هو أنني لا أحب صورتها، وإنما أحبها هي، حتى لو كان هذا شيئاً رهيباً».

- «إيثارها له عليك؟ سيكون هذا عملاً فذاً».

- «كلا، إنه دمار، مذبحة، هذا ما يدور في ذهنها».

- «إذن، ما هذا الذي يدور في ذهنها؟ ربما كانت مرتبطة في ذاكرتك بشعور بالذنب. وعندما حررتها منه، كانت شاكرة لك، غير أن رفضها الخاص كان قد تحرر، ذكرياتها عن مدى إزعاجك لها، وبعد ذلك، يمكن أن ترتد إلى حالة من اللامبالاة. أهناك شيء من الجُبن؟».

- «جيمس، إنك لا تفهم شيئاً على الإطلاق في هذه المسألة. وأنا لم أستسلم، كما أنني لم أخرج منها تقريباً، على حد تعبيرك!».

- «قد يكون مصيرك أن تعيش وحيداً، وأن تكون عم كل إنسان كالقسّ العَزَب، هناك نهاية أسوأ من ذلك. أهناك شيء من الجبن؟».

- «أنا لا أسير إلى النهاية، وإنما يحدوني الرجاء! أجل، هناك شيء من الجبن». وضعت الجبن، وفتحت زجاجة أخرى من النبيذ.

قال جيمس: «بهذه المناسبة، أرجو أن تكون قد صدَّقت ما قلته لك عن ليزي؟».

ملأت كأسينا. «أستطيع أن أصدِّق أن المسألة كلها كانت فكرتها، وأن المطلوب منك هو أن تؤمِّن على ما تقول».

جلس جيمس برهة ممعناً في التفكير. تكهنت بأنه يسائل نفسه: أيبدأ من جديد في ذكر التفاصيل عن عدد المرات التي تقابلا فيها وما شاكل ذلك. وقررت فيما بيني وبين نفسي أن الأمر لا يهم. لقد صدَّقته. «لم يعد الأمر مهماً. إني أصدقك».

قال: «أنا آسف لحدوث ما حدث». لم يكن هذا اعتذاراً بالضبط.

- «فليكن. لا عليك الآن».

وعاد جيمس إلى رسم النماذج على المائدة. وعاودني الارتباك مرة أخرى. قلت في شيء من الحرج: «والآن، حدثني عن نفسك، ماذا أنت بسبيله؟».

- «سأرحل...».

- «آها، هكذا قلت، قلت إنك ذاهب في رحلة. ربما كانت حيث توجد الجبال، وربما الجليد، وربما حيث يدخل الجان ويخرج من الصناديق؟».

- «من يدري؟ أنت رجل البحر. وأنا رجل الجبال».

- «البحر نظيف. والجبال شاهقة. أظن أنني أصبحت ثملاً».

قال جيمس: «ليس البحر بهذه النظافة. ألا تعلم أن الدرافيل تنتحر أحياناً بالقفز إلى البر لأنها تتعذب بالطفيليات؟».

- «كنت أود ألا تخبرني بذلك. فالدرافيل حيوانات في غاية الطيب. وهكذا حتى الآن يقوم على حراستها أفراد من الجان. ما علينا، أنت الآن في إجازة، أرجو أن تخطرني حين تعود».

- «سأفعل ذلك».

- «لا أستطيع أن أفهم موقفك من التبت».

- «من التبت؟».

- «نعم، وفي هذا من الغرابة ما فيه! من المؤكد أنه كان طغياناً بدائياً خرافياً من العصر الوسيط».

قال جيمس: «بالطبع، كان طغياناً بدائياً خرافياً من العصر الوسيط، من يجادل في ذلك؟».

- «يبدو أنك ترى ذلك. يبدو أنك تنظر إليه بوصفه فردوساً بوذياً مفقوداً». لم أجرؤ من قبل أبداً على أن اقول لجيمس شيئاً من هذا القبيل. لا بد أنها الخمر.

- «أنا لا أنظر إليه بوصفه فردوساً بوذياً. فالبوذية التبتية كانت فاسدة تماماً في كثير من الوجوه. وكانت من قبل أثراً إنسانياً رائعاً، الوصلة الحية الأخيرة بالعالم القديم، بلداً فذاً لم يُمَس نسيج فريد من الدين والفلكلور (الفن الشعبي). كل هذا قد دُمِّر عمداً، بلا رحمة ولا شفقة ولا تمييز. مثل هذا التدمير السريع الأرعن للماضي لا بد أن يكون دائماً موضوع ندم أياً كانت المزايا اللاحقة».

- «إذن، فأنت تتحدث بصفتك من أنصار الماضي؟».

هز جيمس كتفيه. وكان يفحص عديداً من الهوام التي تطوف بالمصباح. «لديك عدد رائع من الهوام هنا. لم أشاهد منذ أجيال واضعة البيض في شجرة البلوط Qak Eggar. أوه يا عزيزي، أعتقد أن ذلك الفتى المسكين لديه منها. ألديك مانع إذا أغلقت النافذة؟ لن تدخل بعدئذٍ». وفي رشاقة اصطاد اثنتين من الهوام ووضعهما في الخارج، مع جثة رفيقهما الوسيم، ثم أغلق النافذة. لاحظت أن المطر قد توقف وأن الهواء أصبح أنقى. وكانت الريح قد أطاحت بالضباب.

قلت: «غير أنك كنت حريصاً على دراسة الخرافة؟» وكنت أشعر أن ابن عمي كان في هذا المساء - رغم كل ارتباكاتنا - أكثر انفتاحاً لي من أي وقت آخر عهدته فيه.

قال جيمس وهو يصب مزيداً من النبيذ في كأسينا: «ما هي الخرافة على

كل حال؟» ما هو الدين؟ أين تنتهي الخرافة وأين يبدأ الدين؟ كيف يمكن أن يجيب المرء على هذا السؤال فيما يتعلق بالمسيحية؟».

ـ «غير أن ما أعنيه هو أنك كنت طالباً لـ . . . ولست. . . » ماذا أعني؟ لم أكن أستطيع وضع سؤالي بشكل واضح.

قال جيمس: «بالطبع»، ويبدو أن تأثير النبيذ كان مقصوراً على إسراعه في أقواله. «أنت على حق في حرصك على استعمال كلمة «خرافة»، هذا التصور جوهري. وأنا سألت أين تنتهي الخرافة ومتى يبدأ الدين. أنا أظن أن كل دين تقريباً هو خرافة بحق. الدين هو القوة، ولا بد له من أن يكون كذلك، على سبيل المثال. القوة على تغيير الإنسان لنفسه، أو حتى على تدميره لنفسه. غير أن هذا أيضاً هو مصدر هلاكه. ذلك أن ممارسة القوة متعة خطرة. السبيل القصير هو السبيل الوحيد، ولكنه شديد الانحدار».

ـ «كنت أحسب أن المتدينين أناس ضعفاء ولهذا فإنهم يعبدون كائناً قوياً».

ـ «هذا ما يعتقدونه. إن العابد يضفي القوة على المعبود، القوة الحقيقية لا القوة المتخيلة، وهذا هو معنى البرهان الوجودي (الأنطولوجي)، وهو فكرة من أشد الأفكار التباساً التي فكَّر فيها الرجال الأذكياء على الإطلاق. غير أن هذه القوة نسيج مخيف. ذلك أن شهواتنا وارتباطاتنا هي التي تؤلف إلهنا. وعندما نتخلص من أحد ارتباطاتنا يأتي غيره على سبيل العزاء. ونحن لا نتخلى عن متعة على نحو مطلق، وإنما نقايضها بأخرى. وكل نزعة روحانية تميل إلى الانحلال في ضرب من السحر، واستخدام السحر له انتقامه الآلي حتى لو كان العقل قد تطهر من العادات الغليظة. السحر الأبيض سحر أسود. والتعامل مع العالم الروحي إن لم يكن كاملاً تماماً يُوَلِّد عند الآخرين مسوخاً. والجان الذين يُسْتخدمون من أجل الخير يمكن أن يحوموا هنا وهناك لإحداث الشر فيما بعد. والإنجاز الأخير هو التسليم المطلق للسحر نفسه،

نهاية ما تسميه أنت بالخرافة. ومع ذلك كيف يحدث؟ الخير يتخلى عن قوته ويؤثر على العالم على نحو سلبي. والأنسان الخيِّر لا سبيل إلى تخيُّله».

ربما كان جيمس مخموراً على كل حال. قلت: «الحق أنني لا أفهم نصف ما تقول. ربما كنت مسيحياً سابقاً عتيق الطراز، غير أنني كنت أعتقد دائماً أن الخير يتعلق بحب الناس، وأليس هذا ارتباطاً؟».

قال جيمس: «أوه، أجل». وأظن أنه قال ذلك دون قصد. «أجل..» وصبَّ لنفسه مزيداً من النبيذ. وكنا قد فتحنا زجاجة أخرى.

- «كل هذا التخلي عن الارتباطات لا يبدو لي شبيهاً بالخلاص أو الحرية، إنه أشبه بالموت».

- «وماذا في ذلك، لقد قال سقراط علينا أن نتدرب على الموت...» بدأ جيمس الآن يتخذ طابع الثرثرة.

قلت: «غير أنك أنت نفسك..» ذلك أنني كنت أريد أن أقتنصه وأن أُنزل كل هذه الميتافيزيقا الهوائية إلى الأرض، وكذلك لأشبع فضولي وأنا أراه مرة في هذا المزاج الثرثار. «أنت نفسك أحببت الناس، ولمَ لا على كل حال، وإن كان الله وحده هو الذي يعلم من كان هؤلاء الناس، ما دمت على هذا الطبع من الكتمان اللعين. أنت لم تقدمني لأي واحد من أصدقائك القادمين من الشرق».

- «لم يزرني أحد منهم قط».

- «أجل، إنهم يزورونك. كان هناك ذلك الرجل النحيف الملتحي الذي رأيته في شقتك ذات مرة، جالساً في حجرة خلفية».

قال جيمس: «أوه، ذلك الرجل. إنه لم يكن أكثر من متسلق للجبال».

- «أحد رجال القبائل من الطبقة الدنيا على ما أظن! وبمناسبة الحديث

عن متسلقي الجبال، ماذا عن متسلق الجبال الذي قال توبي إليسمير إنك مهتم به، ذلك الرجل الذي مات فوق الجبل؟».

أخلد جيمس برهة إلى الصمت، ثم بدأت أعتقد أنني تماديت كثيراً، غير أنني تركت الصمت يستمر. وكان البحر مسموعاً، ولكنه أهدأ.

قال أخيراً: «أوه،حسنـــاً. . أوه حسناً». ثم عاد إلى الصمت مرة أخرى، ولكن من الواضح أنه كان يريد أن يفضي بشيء، وهكذا انتظرت.

قـال في شيء من خيبة الأمـل: «لا تنطوي تلك القصـة على شيء من الأهمية. . ومهما يكن من أمـر فقـد ذاعت بسرعـة. أنت تعلم أن بعض البوذيين يؤمنون بأن الارتباط الأرضي إذا بقي حتى الـموت فإنه يقيِّدك إلى «العجلة». Wheel ويمنعك من اكتساب التحرر».

- «أوه أجل، تلك العجلة. . .».
- «عجلة السببية الروحانية. غير أن هذه مسألة اعتراضية».
- «أتذكر أنني سألتك هل تؤمن بالتناسخ فقلت. . .».

قال جيمس: «متسلق الجبال الذي نحن بصدده كان يُدْعى ميلاريبا. غير أنَ هذا لم يكن اسمه الحقيقي. لقد أطلقت عليه هذا الاسم تشبيهاً له. . . تشبيهاً له بشاعر أعجب به. وكان هذا الرجل خادمي. وكان علينا أن نقوم برحلة معاً. كان الوقت شتاءً، والممرات العالية ممتلئة بالجليد، كانت رحلة مستحيلة حقاً. .».

- «أكانت رحلة عسكرية؟».

- «كان علينا أن نجتاز هذا الممر. . والآن أنت تعلم أنه في الهند والتبت وما شاكل ذلك من أماكن ثمة حيل يستطيع الناس تعلمها، يستطيـع أي إنســان أن يتعلمهـا إذا أُحْسن تعليمهـا، وحـاول الاجتهـاد بمـا فيـه الكفاية. . .».

- «حيل؟».

- «أجـل، أنت تعلم مثـل. . مثـل حيلة الحبـل الهنـدي. . . أي شيء. . .».

- «أوه، مجرد هذا النوع من الحيل».

- «ما هو هذا النوع من الحيل؟ كما قلت، كل أنواع النـاس يمكن أن يقوموا بها، قد تكون متعبة إلى حد كبير ولكن. . أنت تعلم أنها لا تمت بصلة الى. . الى. . .».

- «إلى ماذا؟».

- «إحدى هذه الحيل هو رفع حرارة الجسم عن طريق التركيز الذهني».

- «كيف يتم هذا؟».

- «هذا مفيد في بلد بدائي، مثل أن يكون المرء قادراً على أن يـواصل السير ثمانياً وأربعين ساعة بسرعة خمسة أميال في الساعة بلا أكـل ولا شرب ولا توقف».

- «ما من أحد يستطيع أن يفعل ذلك».

- «وأن يكون قادراً على الاحتفاظ بالدفء عن طريق القدرة الذهنية. من الجلي أن هذا شيء نافع في رحلة شتوية».

- «مثل الملك الطيب ونسسلاس King Wenceslas!».

- «كان عليّ أن أجتاز هذا الممر، وقررت أن أصطحب ميلاريبا معي. وكان هذا يتطلب أن نقضي ليلة على الجليد. ولم يكن من الضروري أن آخذه معي. غير أنني فكرت في أنني أستطيع توليد الحرارة الكافية التي تحفظ علينا حياتينا معاً».

- «انتظر لحظة! تقصد أنك تستطيع أن تفعل ذلك الشيء، ألا وهو توليد الحرارة الجسمية عن طريق التركيز العقلي؟».

قال جيمس في شيء من نفاد الصبر: «قلت لك إنها حيلة. إنها لا تمت بصلة إلى أي شيء مهم، كطبيب القلب أو أي شيء من هذا القبيل».

ـ «ثم ماذا. . . ؟».

ـ «بلغنا قمة الممر وحاصرتنا عاصفة ثلجية عاتية. ظننت أننا سننجوا منها. غير أننا لم ننج منها. لم يكن هناك من الحرارة ما يكفي لاثنين، ومات ميلاريبا أثناء الليل، مات بين ذراعيّ».

قلت: «أوه، يا إلهي». لم أستطع أن أفكر في أن أقول أكثر من ذلك. كان عقلي مشوشاً وبدأت أشعر بأنني ثمل جداً، وفريسة للنعاس، سمعت صوت جيمس وهو يواصل الحديث، فكأنما كان يأتي إليّ من بعيد جداً. «كان يثق فيّ. . . وغروري هو الذي قتله. . إن دفع ثمن الخطأ شيء آليّ. . . إنهم يستطيعون أن يمضوا في العمل في أي مصيبة. . . خفّفت من قبضتي عليه. . . فقدتُ قبضتي. . . العجلة ما هي إلا. . . » كان رأسي قد هبط حينئذٍ على المائدة، واستسلمت للنوم تمام الاستسلام.

صحوت وكان الوقت نهاراً. نور الفجر الرمادي الصافي ـ فلم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ ـ يضيء المطبخ كاشفاً عن المائدة الملطّخة بالنبيذ، والصحاف المستعملة، والجبن المفروك. وكانت الريح قد طامنت من غلوائها، والبحر صامت. لقد ذهب جيمس.

وثبت من الفراش وناديت، راكضاً إلى المرجة، ثم عدت جرياً إلى المنزل، منادياً مرة أخرى، ثم هرولت داخل المنزل وخارجه عند الباب الأمامي، ثم إلى الممر. وكشف النور الصامت الرمادي الأبلج عن الصخور، والطريق، فألفيت جيمس يدخل سيارته، ويغلق بابها. ناديت ولوحت. أبصرني جيمس فأنزل زجاج النافذة، ولوّح لي، غير أنه كان قد أدار المحرك، وشرعت السيارة في المسير.

ـ «أخطرني عند عودتك!».

ـ «نعم، وداعاً!» لوّح في مرح، وانطلقت البنتلي مسرعة وانعطفت عند الناصية، وتلاشى صوتها في السكون. فعدت متباطئاً إلى المنزل.

سرت عائداً في الممر، شاعراً الآن بصداع مريع وبإحساس يتأرجح في رأسي: ولم يكن هذا أمراً مفاجئاً لي، إذ شربت أنا وجيمس ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ كمية تبلغ خمس زجاجات من النبيذ تقريباً، وكل زجاجة منها لتر كامل. وكان هناك أيضاً ستار من البقع المتزاحمة ينزلق بسرعة أمام عيني. هرولت إلى الداخل، وبلغت المطبخ، وجلست مرة أخرى إلى المائدة، مسنداً رأسي إلى يديّ. واجتهدت بعناية للعثور على كوب من الماء وشيء من الأسبيرين، فقمت ووجدت ما أريد،ثم جلست ثانية وغفوت. وظهرت الشمس.

استيقظت مرة أخرى جالساً إلى المائدة ورأسي يتدلى أمامي، وفي عنقي ألم عنيف. وتذكرت حلماً عجيباً مرّ بي أثناء غفوتي عن تجمد حتى الموت أثناء عاصفة ثلجية. ثم تذكرت أن جيمس حكى لي حكاية شديدة الغرابة عن رحلة في التبت. وتذكرت في شيء من الإلهام قدْراً كبيراً من أشياء أخرى غريبة كان جيمس يرددها. نهضت شاعراً بدوار فظيع، وارتقيت الدرج، ورقدت على سريري، ودخلت في نوع من غيبوبة النوم. صحوت فيما بعد دون أن أكون متأكداً من الوقت أهو صباح أم أصيل، وإن كنت أشعر بأن الدوار أخف، وبأنني أقرب إلى الجنون. نزلت إلى المطبخ، وأكلت شيئاً من الجبن، ثم رجعت إلى الفراش مرة أخرى.

ازدادت الأمور اضطراباً بعد ذلك. ولا بد أنني مكثت في الفراش وقتاً طويلاً من ذلك اليوم. وتذكرت أنني استيقظت أثناء الليل وشاهدت القمر ساطعاً. وفي صباح اليوم التالي نزلت إلى الطابق الأرضي مبكراً، واقتنعت فجأة، أو ربما طرأت على ذهني هذه الفكرة أثناء الليل، بأنني ما دمت قد أقلعت عن السباحة فقد حان الوقت للاستحمام. لم أكن أتخيل مشقة حمل

الماء الساخن صاعداً به إلى الحمام. وفي هذه المرة أفلحت على كل حال في استخراج حمام السيدة تِشورني العتيق من مخبئه تحت السلم، وبدأت في غلي قدور من الماء على موقد الغاز. وفي منتصف هذا الإجراء شعرت بألم حاد في الصدر، وبدأت أشعر بالإغماء. تخليت عن فكرة الاستحمام، وأعددت شيئاً من الشاي، غير أنني لم أستطع تناول شيء من الطعام. أحسست بأنني شبه مريض، وقررت العودة إلى الفراش. كنت على يقين الآن من أن عندي ارتفاعاً في درجة الحرارة، غير أنني لم أكن أملك ترمومتراً. لازمت الفراش، وكان سريري أشبه بشبكة في سفينة تجتاحها العاصفة. انتابتني أفكار سحابية ملوّنة، أو لاحت لي رؤى، ولم أكن متأكداً أبداً إن كانت عيناي مغمضتين أو مفتوحتين. وتساءلت إن كنت مريضاً حقاً. وها أنذا أملك هاتفاً، ولكن لا أعرف طبيباً. ولم أكن أتخيل استدعاء ذلك الطبيب الذي فحصني في الساعة الثانية صباحاً بعد الحادث المؤسف الذي تعرضت له، وعلى كل حال لم أكن أعرف اسمه. وفكرت في الاتصال هاتفياً بطبيبي في لندن ووصف الأعراض التي أشكو منها، غير أنني عدلت عن ذلك لأن الأعراض سوف تبدو غير مهمة، وكان من الصعب في أحسن الأحوال إثارة اهتمام طبيبي في لندن. وعزّيت نفسي بالتفكير بأنني قد أصبت بالبرد دون شك، أو المرض الذي أصيب به جيمس أياً كان، بعد أن نجوت من محنتي البحرية، وبأن شكوى جيمس لم تدم طويلاً.

غير أن شكواي دامت وقتاً أطول على ما أظن. وعلى كل حال فقد مضت بضعة أيام مكثت فيها راقداً، محجماً عن الحركة، عاجزاً عن الأكل. ولم يزرني أحد، أو يتصل بي هاتفياً. وزحفت إلى بيت الكلب، غير أن أحداً لم يكتب إليّ أيضاً. ربما كانت هناك عطلة طويلة في البنوك أو إضراب في البريد. ولم يزعجني هذا الافتقار إلى الأخبار، فقد كنت مشغولاً تمام الانشغال بمرضي إذ استغرقني في تلك الفترة، وكأنه شيء كنت أسعى إليه جاهداً. بل لقد كففت عن التعلق بشأنه؛ وكما توقعت بوجه عام فقد أخذ

ينحسر عني. فاستطعت أن أنزل الدرج مرة أخرى دون أن أستريح على كل درجة، وجلبت إليّ أحاسيسي بالجوع شيئاً من العزاء، فأكلت بسكويتات قليلة واستمتعت بها.

وفي ذلك اليوم، أو ربما في اليوم التالي إذ تذكرت أنني أقوى وأَقْوَمُ، رن جرس الهاتف في الصباح. وكنت أدرك الآن إدراكاً جيداً ماهية هذا الصوت الغريب.. وكنت أفكر بإلحاح في هارتلي، وعندما سمعت صوت الجرس الحاد المخيف قلت لنفسي في الحال هذه هي. هرعت مسرعاً ـ منكفئاً فوق قدمي ـ إلى حجرة الكتب. قبضت على الهاتف، وأسقطته، ثم تناولته من جديد.

ـ «أهلاً».

ـ «أهلاً، يا تشارلز».

كانت ليزي.

قلت: «أهلاً، انتظري لحظة».

وضعت الجهاز على بعض الكتب، وجلست هناك محاولاً تهدئة نفسي، واستجماع شتات فكري. انتابني وجع ـ البؤس في معدتي بشأن هارتلي التي أعلم أنها لن ترحل الآن. كان كل شيء عاجلاً الآن.

ـ «آسف يا ليزي، فقد كنت أطفىء الغاز».

ـ «تشارلز، أأنت على ما يرام؟».

ـ «نعم، ولماذا لا أكون؟ على كل حال، كنت مصاباً بنزلة برد، ولكني أحسن. هل أنت بخير؟».

ـ «أجل، أنا الآن في حانة «الأسد الأسود» هل أستطيع المجيء لرؤيتك؟».

ـ «كلا. امكثي هناك. سآتي لأراك. كم الساعة الآن؟ توقفت ساعتي منذ أيام».

- «أوه حوالي العاشرة، أو شيئاً من هذا القبيل».
- «هل المكان مفتوح؟».
- «ماذا؟ أوه، الحانة، كلا، ولكنه سيكون مفتوحاً عندما تحضر».
- «أنا في طريقي إليك».

عند سماعي صوت ليزي أحسست برغبة رعناء مفاجئة في الخروج. هرعت إلى المطبخ ونظرت إلى نفسي في المرآة الصغيرة المعلّقة فوق الحوض. لم أكن قد حلقت أثناء مرضي، فنَمَت لي لحية حمراء منفّرة. حلقت، وجرجت نفسي، ومشّطت شعري. عثرت على سترتي المجعّدة جداً وحافظة جيبي. كانت شمس واهنة قد ارتفعت في كبد السماء غير أن الهواء كان بارداً. ركضت خارجاً من المنزل على الممر وانعطفت صوب القرية. ولم ألبث أن توقفت عن الجري على كل حال، بعد أن غلّفت جسدي سحابة من الضعف واحتوته. فأبطأت من سيري. وأخذت أتنفس بحذر؛ وهنا خطر لي عندئذٍ فحسب أن أتساءل: هل منح جيمس بقشيشاً لليزي حتى تأتي لتراني. وكنت سعيداً باكتشافي أنني لا أكترث، بل كففت عن التفكير في هذا الأمر. وعندما دلفت إلى شارع القرية كان أول ما صادفته عيناي سيارة جيلبرت الفولكس ڤاجن الصفراء قابعة خارج «الأسد الأسود».

- «تشارلز!».

لمحتني ليزى فهرعت إليّ. وكنت أستطيع أن أرى جيلبرت يتكلف الابتسام عند باب الحانة. ما هو دوري في هذه المسرحية؟ أحسست بالاسترخاء وبالابتسام كرجل في حلم لا يستطيع أن يتذكر سطوره، ولكن يعرف أنه يستطيع أن يتصرف ارتجالاً.

- «لماذا، ليزي، أصلاً هناك، وجيلبرت أيضاً، ما أبدع ذلك!».
- «تشارلز، إنك تبدو شديد النحافة والشحوب».
- «أنا مسرور لسماع ذلك، فقد كنت مريضاً».

ـ «أكان ينبغي عليك أن تلازم الفراش؟».

ـ «كلا، فأنا الآن على خير ما يرام، يا لها من مفاجأة بديعة أن أراكما كِليكما هنا».

قال جيلبرت وهو يتقدم إليّ: «أهلاً، يا عزيزي تشارلز». واتخذ وجهه الوسيم الواعي بنفسه الكثير الغضون نظرة شبيهة بنظرة كلب تنم عن سرور وشيك عصبي مذنب، فإن رَبَت عليه أحد تواثب وأخذ في النباح.

ـ «إن تشارلز يبدو مريضاً حقًّا».

ـ «لست في حالة تسمح بانتقال العدوى، على ما أرجو؟».

ـ «كلا، كلا».

قالت ليزي: «كنا نجلس في الخارج. الجو دافىء تماماً في الشمس».

ـ «ما أبدع ذلك».

قال جيلبرت: «ماذا أحضر لك، يا تشارلز؟ كلا، كلا، أنت تجلس، فأنت الشخص المريض، سأحضره لك. ماذا عن عصير التفاح، أم هو حلو أكثر من اللازم بالنسبة لك؟».

ـ «أجل، بديع، شكراً. وأنت يا ليزي، يا له من حظ سعيد أن أراك، وما أسعد هيئتك التي تبدين عليها».

بعض النسوة ـ وكما قلت من قبل أن ليزى إحداهن ـ يتباين مظهرهن بصورة تدعو إلى الدهشة بحيث يتراوح من الدمامة الحقيقية إلى الجمال الحقيقي. وكانت ليزي اليوم قد ارتقت إلى الطرف الجميل، فبدت شابة مشرقة الطلعة، أشبه بصبي سمين مفعم بالصحة، وكان شعرها يهفهف في خصلات لولبية صغيرة بتأثير الريح. وكانت ترتدي قميصاً طويلاً أزرق وأخضر مخطَّطاً فوق سراويل سود. وعلى وجهها يرتسم ذلك الارتياب الجيلبرتي الشبيه بارتياب الكلب، وإن كان مصحوباً في حالتها بطابع إضافي من الثقة الشيطانية الدفاعية.

جلسنا على الأريكة الخشبية خارج الحانة، وأخذنا نتبادل النظرات، أنا في ابتهاج غامض، وهي في تركيز وعينين براقتين. وشعرت ـ كما لم أشعر أبداً من قبل ـ بالتعرض لنظرات المواطنين، غير أن قليلاً منهم كانوا يحومون حولنا.

قلت: «كان لطفاً منك أن تتصلي بي هاتفياً. أكنت مارة خلال هذه المنطقة فحسب؟ أصفحي عني إذا لم أطلب منك البقاء، أنا في حالة لا تسمح لي باستقبال زوار في الوقت الحالي».

ـ «كلا، كلا، وإنما لا بد لنا من العودة إلى طريق السيارات، ذلك أن جيلبرت يريد أن يلتقي بشخص ما في إدنبره. وهناك تلك المسرحية التي ستُعْرض في المهرجان...».

ـ «لا تخبريني».

ـ «أوه تشارلز، حبيبي، حبيبي، لقد صفحت عني، أليس كذلك؟».

ـ «عن ماذا، يا ليزي؟».

ـ «حسناً، لقد صفحت عني، أليس كذلك؟».

ـ «بلى، إذا كان ذلك ضرورياً، غير أنني ما زلت في الظلام. يا لك من مروِّجة صغيرة للأسرار! هذا هو جيلبرت العزيز يحمل إليّ كأس الشراب».

جاءت ليزي وجيلبرت لمجرد أن أعفو عنهما. جلسا يحملقان فيّ ويبتسمان كطفلين يريدان أن يمنحا شهادة عفو يستطيعان أن ينطلقا بها متواثبين مزدهرين في الهواء. كانا يريدان مني أن أحبهما وأن أزيل وصمة لطّخت سعادتهما. بأية عناية ناقشا المسألة قبل أن يأتيا إليّ بمثل هذا الطابع الرسمي! كانا الآن أشبه بطفلين في نظري، فأحسست فجأة بالشيخوخة، وربما شخت فعلاً شيخوخة لها دلالتها منذ أن أتيت إلى البحر.

لقد فقدت ليزي، ولكني متى، وكيف؟ ربما كان ينبغي عليّ أن أتشبث بها منذ البداية. أو ربما كانت تحب جيلبرت حقاً، أو أن الحياة مع جيلبرت

أفضل. أو لعلني حين أرسلتها مع جيمس أخفتُها كثيراً، على نحو عميق. كان اختيار ليزي يقع على اليسر والسعادة دون مزيد من المخاوف، وما كنت أستطيع أن ألومها. وكنت أعرف أن جيمس أقام حائلاً بيننا. وعلى الرغم من أنه «لم يكن هناك شيء حقاً»، فهذه «اللاشيء» كانت أكثر من اللازم. كان هذا هو الحال دائماً مع جيمس. إنه يستطيع أن يفسد كل شيء بالنسبة لي بمجرد لمسه بإصبعه الصغيرة. ربما كانت فكرتي الطفولية لا تُمحى بسهولة، فكرة أن جيمس ينبغي أن يكون مُفَضَّلاً دائماً. إن جيمس لم يقصد بالطبع أي شر. غير أن الأكذوبة نفسها كانت غلطة قاتلة. ومن المحتمل أنني لم أفقد جيمس، ولكنني فقدت ليزي. لقد «أضللتها» حقًا، كما كنتُ أريد من قبل. وألفيت نفسي أتذكر في جهد جهيد أنني أردت أن أضلل ليزي بسبب هارتلي. وقد خرجت راكضاً من المنزل هذا الصباح لأنني لم أعد أطيق البقاء فيه لحظة أخرى، بسبب هارتلي. وكان مرضي هو العلامة التي أقيس بها وقت الانتظار، وقد انتهت الآن هذه الفترة وكانت مكالمة ليزي الهاتفية إشارة غير مقصودة، استدعاء للفعل. لقد حانت الساعة بالنسبة لي وبالنسبة لهارتلي.

في تلك الأثناء كنت أجلس مبتسماً لليزي؛ ورغم ابتسامة كل منا للآخر ـ وربما كانت تبتسم ببراءة ورجاء، دون أن تدرك ما حدث وتتخيل أنها ما زالت تستطيع أن تمسكني ولا تمسكني، أو أكون لها أو لا أكون، وكل شيء من هذا يمكن أن يكون حسناً ـ على الرغم من كل هذا كانت الرابطة قد انفصمت. وتذكرت ما قاله جيمس من أن مصيري هو أن أعيش وحيداً، وأن أكون عماً لكل إنسان. قلت: «إذن فأنتما سعيدان لرؤيتكما العم تشارلز؟».

ضحكا وضحكت وضحكنا جميعاً، واعتصرت ليزي يدي. لقد منحتها الترخيص بالسعادة، وأستطيع أن أشاهد مدى سعادتها وامتنانها. كان كل إنسان يبدو لامع العينين سعيداً ما عداي.

كان عصير التفاح أحلى من اللازم، وقوياً بحيث بدأ يفعل مفعوله. وأصبحت رغبتي في إشاعة المرح أيسر، غير أن فكرة تيتوس جاءتني في هذه اللحظة بالذات فأشاعت الرهبة في نفسي وكأن شخصاً ما حمل رأساً مقطوعاً فوق طبق. وكان جيمس يردد شيئاً عن تيتوس لم أستطع أن أتذكره. السببية تقتل، و«العجلة» عادلة. وتذكرت صرخة ليزي في ذلك اليوم. وربما فقدت ليزي على نحو ما بسبب تيتوس، لأنها وجهت إليّ اللوم، ولأن الأمر كله تجاوز الحد. ما أشد إحكام نسيج الأسباب! وها هي ليزي تصيح الآن سروراً. أجل، كان لا بد لها من أن تعيش، لا بد لنا جميعاً من أن نعيش. وكان تيتوس غريباً لم يستقر معنا طويلاً.

تحدثنا برهة، وثرثرنا دون تكلف كأصدقاء قدماء. وكان جيلبرت قد حصل على دور جيد في مسلسل تليفزيوني يبدو أنه سيستمر إلى الأبد. وكانا يعتزمان إعادة تنسيق منزلهما. وعادت ليزي إلى وظيفتها في المستشفى لبعض الوقت. وقبلت دعوتهما للعشاء. غير أنهما لم يذكرا شيئاً عن هارتلي، وكان هذا الإغفال المتحفظ يبدو أنه يختم انفصالي عنهما، وإن يكن من العسير أن أتخيل ما كان يمكن أن يقولاه بشأنها.

سألت عن الوقت، فأخرجت ساعة معصمي من جيبي، وصححتها وفقاً لساعة ليزي. قالا إن وقت انصرافهما قد حان، فسرت معهما حتى السيارة. وكانت ليزي ترمي إلى مشهد صغير من العناق، غير أنني دفعتها إلى السيارة بعد أن رَبَّت عليها. وأظن أن جيلبرت كان يريد أن يقبِّلني، فلوحت لهما مودِّعاً، وكأنهما كانا خاتمة شيء ما. ثم شرعت في المسير في الشارع متجهاً صوب الكنيسة والطريق الذي يؤدي إلى الشاليهات. وكدت أبلغ الناصية عندما لمس شخص ما كتفي من الخلف، فاستدرت إليه، مصدوماً. كان ذلك الشخص امرأة بدت لأول وهلة غريبة عني. ثم تبينت أنها سيدة المتجر. وكانت قد ركضت خلفي لتخبرني أنها أحضرت أخيراً مشمشاً طازجاً للبيع.

وعندما شرعت في صعود التل أحسست بأنني مرهق وثقيل. ربما كان لا بد لي من الراحة يوماً آخر بعد مرضي. وربما كان ينبغي عليّ ألا أحتسي كل هذا السَّيْدر. ولعل ليزي وجيلبرت قد استنزفا قواي داخل حيويتهما، وقدرتهما على تغيير العالم، وعلى البقاء. لقد انتزعا قطعة مني، سوف يستخدمانها الآن لأغراضهما الخاصة. وربما كان ينبغي عليّ أن أشعر بالسعادة لأن أناساً آخرين يمكن أن يتغذوا على جوهر نفسي.

أحسست أنني لست مستعداً، ولست مرتدياً ثياباً لائقة، غير أن يد الحتمية كانت فوق رأسي. كان هذا هو اللقاء الذي لا يمكن أن أتنحى عنه، متوسلاً متضرعاً في طلب فرصة أخرى. أحسست بتثاقلي وكأنه حِمْل ساحق لا سبيل إلى مقاومته. ومع ذلك لم تكن لدي فكرة واضحة عما أعتزم فعله. ولم تكن هناك أداة للضرب أو سيارة أجرة. غير أنني كنت قد بلغتُ حيث لم أكن قد جئت من قبل، النقطة المباركة لليأس الذي لا يأس بعده.

جاهدت في صعودي متطلعاً إلى الحدائق والزهور وبوابات الحدائق. ولاحظت مدى اختلاف كل منزل عن الآخر. كان لأحدها زجاج بيضاوي مزخرف في الباب الأمامي، وكان للآخر مدخل مسقوف بزهور الجيرانيوم، وكان لثالث نوافذ ناتئة من السقف المائل في أعلاه. وصلت إلى بوابة النيبليتس الزرقاء بمزلاجها الصغير المعقد المثير للأعصاب.

كانت الستائر مسدلة جزئياً في حجرات النوم الأمامية على نحو غير مألوف. قرعت الجرس الدينج دونج. كان الصوت مختلفاً. كيف أدركت بسرعة أن المنزل كان خاوياً؟ بالتأكيد قبل أن أتأكد من هذه الحقيقة باختلاس النظر من خلال الستائر إلى حجرة النوم الكبرى ورؤيتي أن الأثاث كله قد اختفى.

رجعت إلى الباب الأمامي، ولسبب ما حاولت أن أدق الجرس مرات عديدة، منصتاً إلى الصدى في المنزل المهجور.

- «أوه، أرجو المعذرة، أتريد السيد والسيدة فيتش؟ .

قلت: «أجل» لسيدة ترتدي مريلة كانت تنحني من سياج عند الحديقة الأمامية للمنزل المجاور.

فأنبأتني في شيء من الزهو: «أوه، لقد رحلا، مهاجريْن إلى أستراليا».

- «كنت أعلم أنهما سيذهبان، وتمنيت أن أدركهما قبل الرحيل».

- «لقد باعا المنزل، واصطحبا معهما الكلب. كان لا بد طبعاً أن يمر بالحجر الصحي».

- «متى غادرا المنزل؟».

ذكرت ميعاداً. وأدركت في الحال أن هذا الميعاد كان بعد أن رأيتهما مباشرة. إذن فقد كذبا فيما يتعلق بموعد رحيلهما.

قالت المرأة الفخور: «تسلمت بطاقة بريد.. جاءت هذا الصباح. أتحب أن تلقي عليها نظرة؟» وكانت قد أحضرتها معها لتطلعني عليها.

رأيت على وجه منها «دار الأوبرا في سيدني»، وعلى الوجه الآخر سطوراً كُتبت بخط هارتلي: «وصلنا من فورنا، وأعتقد أن سيدني أجمل مدينة شاهدتها في حياتي، نحن سعيدان كل السعادة». ووقع كلٌ من بن وهارتلي على هذه السطور.

- «يا لها من بطاقة بديعة». ورددت إليها البطاقة.

- «أجل، أليست كذلك؟ غير أن إنجلترا تكفيني. ألنت قريب لهما؟».

- «إبن عم».

- «ظننت أنك تشبه السيدة فيتش قليلاً».

- «يؤسفني أنني لم أدركهما».

- «أخشى أنني لا أعلم عنوانهما، ولكن هذا هو الحال، عندما يذهب الناس فإنهم يذهبون حقاً، أليس كذلك؟».

- «على كل حال، أشكرك شكراً جزيلاً».

ـ «أتوقع أن يكتب إليك».

ـ «أتوقع ذلك. طاب يومك».

عادت إلى منزلها، وتحركت عائداً إلى الممر. كانت مظاهر الإهمال قد بدت على الورود فعلاً، وغطتها الزهور الذابلة. ولمحت صخرة غير مألوفة نصف متوارية تحت الأرض، فالتقطتها. كانت الصخرة الوردية المرقشة بمربَّعات بيض كالشطرنج التي أعطيتها لهارتلي، وحملتها إليها في الحقيبة البلاستيك في ذلك اليوم المشؤوم. فما كان مني إلا أن دسستها في جيبي.

طفت حول جانب المنزل ودخلت الحديقة الخلفية، ووقفت على الشرفة الخرسانية خارج النافذة الكبيرة، وأطللت إلى الداخل. كانت الستائر قد تُرِكت هنا أيضاً وأسدلت قليلاً، غير أنني كنت أستطيع أن أرى من خلالها داخل الغرفة الخاوية. وكان الباب مفتوحاً على الصالة، فتمكنت من أن أرى داخل الباب الأمامي ومكاناً باهتاً على ورق الحائط حيث علِّقت صورة فارس العصر الوسيط. بدأت أشعر برغبة رعناء في دخول المنزل فلعل هارتلي أن تكون قد تركت لي رسالة، أو تركت على الأقل أثراً دالاً على حضورها.

كان الباب الخلفي موصداً، وكانت نوافذ حجرة الجلوس مغلقة بطريقة مأمونة، غير أن نافذة المطبخ كانت تتحرك قليلاً. بحثت عن صندوق خشبي في ظلة الحديقة الخاوية ووقفت فوقه، كما وقف تيتوس للنظر من خلال الثغرة الموجودة في السور. «لقد وقفت على صندوق، أليس كذلك؟» «أجل، وقفت على صندوق». شددت النافذة نحوي، ووضعت إصبعي في الشق، وهنا انفتحت النافذة، إذ لم يكن المزلاج محكماً من الداخل، وتمكنت من تطويح ساقي إلى أعلى. وفي اللحظة التالية، كنت واقفاً في المطبخ، وأنا ألهث من الانفعال. كان ثمة سكون رهيب يزحف داخل المنزل.

كان المطبخ خاوياً على عروشه، ولم يكن نظيفاً كل النظافة. وهناك صنبور يقطر منه الماء. وكانت لفائف صغيرة من الزغب تدور حول نفسها فوق

الأرضية في التيار القادم من النافذة. فتحت صوان الأطعمة حيث كانت هناك بالفعل آثار من الدهون فوق الرفوف. مشيت في حجرة الجلوس، ودخلت حجرتيْ النوم. لم يكن هناك شيء، حتى ولا منديل ولا دبوس، ولا أي تذكار من حبي. دخلت الحمام ونظرت إلى البقع الملطخة في حوض الاستحمام. ثم لمحت أخيراً شيئاً جديراً بالاهتمام. فهناك وراء حافة المشمع حيث ينتهي عند الجدار، كان هناك خط دقيق أبيض. انحنيت وشددت. خطاب أُخْفى في هذا المكان، وقُذِف به تحت المشمّع. سحبته بعناية من مخبئه وأخذت أتأمله. كان خطابي الأخير لهارتلي، وكان غير مفتوح. فحصته لحظة أو لحظتين، متسائلاً أمن الممكن أن يكون قد فتح، ثم أُلْصق نفسه تلقائياً كما تفعل بعض الخطابات. ولكن كلا، إنه لم يُفْتح على الإطلاق.

كنت على وشك أن أدسه في جيبي، غير أنني عدلت عن هذا، بل مزقته إلى جذاذات أربع، ووضعته في المرحاض، ثم شددت السلسلة. عدت على عقبيّ وأمّنت نافذة المطبخ، ثم تسللت إلى خارج الباب الأمامي. وكانت المرأة الجارة تراقب هذا في استنكار، بل لقد فتحت نافذتها الأمامية، وأخذت تحملق ورائي أثناء هبوطي من التل.

وعندما بلغت القاع وانعطفت إلى اليمين في شارع القرية، رأيت فجأة شخصاً مألوفاً يقترب مني. كنت على وعي بأنه شخص عرفته، ولا تسرني رؤيته. كل هذا قبل أن أتعرف فيه على فريدي آركريات. كان الفرار مستحيلاً، فقد رآني فعلاً واندفع نحوي.

- «السيد آروبي!».

- «مَنْ، إنه فريدي!».

- «أوه يا سيد آروبي، إنني مسرور غاية السرور برؤيتك. كنت أفتقدك دائماً! كنت أعرف أنك هنا. كنت تحت عند ويتسون. وتمنيت أن أراك. يا له من حظ أن ألتقي بك الآن!».

- «جميل يا فريدي، لقد انقضى زمن طويل. كيف حالك، وماذا تعمل؟».

- «ألم يخبرك بوب؟ إنني ممثل!».

- «ممثل؟ هذا شيء يناسبك!».

- «كنت أريد أن أكون ذلك دائماً. وهذا هو السبب الذي جعلني أسعى إلى تلك الوظيفة معك، غير أن هذا كان أشبه بنوع من الرومانس. لم أعتقد أبداً أن الأمر سيتحوَّل إلى حقيقة. وقد أحببت العمل من أجلك، كان عظيماً، كل ما يدور في لندن، كل ما يدور في ذلك المكان، كنا ننطلق بسرعة فائقة، أليس كذلك؟ ثم عندما رحلت، فكرت «ولم لا؟» ثم عندما حصلت على «بطاقة الإنصاف»، ولم أكن صغيراً حينذاك، نفعني دائماً على نحو ما أن أعمل من أجلك، وكنت تجلب لي الحظ دائماً يا سيد آروبي. كنت عطوفاً جداً معي في تلك الأيام، وشجعتني كثيراً. «استقر على ما تريد وَاسْعَ إليه، يا فِردْ، إنها مجرد مسألة إرادة القوة!» أتذكر أنك قلت لي ذلك أكثر من مرة».

لم أتذكر أنني قلت ذلك، كما أنه لا يبدو أشبه بأي شيء يمكن أن يقوله أي إنسان أكثر من مرة، مع افتراض أنه سيّء الحظ ليقوله على الإطلاق، غير أنني كنت مسروراً لأن فريدي يحتفظ بمثل هذه الذكريات الوردية. سرنا هابطينْ إلى ممر المشاة الذي يؤدي إلى طريق الساحل. «حقاً، لقد كانت تلك أياماً طيبة يا سيد آروبي، سافوا، كونوت، ريتز، كارلتون، ما عليك إلا أن تسميها، فأقول إننا كنا هناك! كارلتون القديم (يقصد مسرح..) اختفى بالطبع، ولكن ما زالت لندن هي أحسن مدينة في العالم، وقد شاهدت الآن قليلاً منها. باريس، روما، مدريد، ذهبت إلى هناك لأعمال. واشتركت في فيلم في دبلن منذ فترة، هلا شربنا!».

- «ما هو اسمك المسرحي؟».

- «أوه، لقد احتفظت باسمي، فريدي آركرايت، يبدو أنه أنا. لا أستطيع أن أقول إنني حصلت على أي أدوار عظيمة، غير أنني أحببت كل

لحظة. كل ذلك عن طريقك، كنت عطوفاً جداً نحوي، وشجعتني كثيراً، ثم كان كل إنسان يقول: «أوه، إنك صديق لتشارلز آروبي، ألست كذلك»، حسناً، لم أكن أعتزم أن أقول لا، وساعدني ذلك مساعدة قيمة. حقاً، إنه لشيء طيب أن أراك، يا سيد آروبي، ولا يبدو عليك أنك كبرت يوماً واحداً. تخيل، تأتي لتقيم هنا، وأنا قد أتيت من هنا، كما تعرف، لقد ولدت في مزرعة آمورن، وما زال عمي وعمتي - يقيمان هنا. أنت الآن متقاعد، ألست كذلك؟».

- «بلى..».

- «لا أستطيع أن أتخيل أن أتقاعد من المسرح. «لا أحد مثل أهل الاستعراض»، تستطيع أن تقول ذلك ثانية! ولكنك ما زلت تأتي إلى لندن، ربما استطعنا أن نذهب معاً؟ يطيب لي أن تلتقي بصديقي الذي أقيم معه، ملبورن باقيت، هل سمعت عنه؟ كلا؟ حسناً، سوف تسمع عنه. إنه مصمم مسرحي».

- «أتوقع أن نلتقي مرة أخرى حول هذا المكان...».

- «آسف، لقد ثرثرت أكثر من اللازم، لماذا لا نذهب إلى حانة الأسد الأسود ونشرب على حساب الدار؟».

- «كلا، يجب أن أسارع بالعودة، هنا منعطفي. كان شيئاً بديعاً أن أراك يا فريدي، وأنا سعيد بنجاحك».

- «سأتصل بوكيلي ليبعث إليك ببعض اللقطات».

- «أفعل ذلك، وأتمنى لك أسعد الحظوظ».

- «فليباركك الرب، يا سيد آروبي، وشكراً لك مليون مرة».

ابتعدت سائراً في ممر المشاة، ملوِّحاً له في ود. من الممكن أن أسير بخطوات واسعة بوصفي شيطاناً في أحلام بعض الناس. ولكن من الجلي

أنني كنت أتخذ في عقل فريدي آراكرايت صورة إله خيِّر، دون أي استحقاق!.

عندما بلغت المنزل لم تكن الساعة قدو وصلت إلى الثانية بعد. حاولت إعداد حساء بارد متجمد من العلبة، غير أنني لم ألبث أن عدلت. تناولت حبتين من الأسبيرين وصعدت إلى الطابق الأعلى، واستلقيت على فراشي، وتوقعت تماماً أن أدخل بسرعة في اللاوعي، كما يتوقع المرء أحياناً في حالات التعاسة الحادة والصدمة، ولكنني انتقلت بدلاً من ذلك إلى نوع من الجحيم.

لو أن هناك عذاباً عقلياً عقيماً من الغيرة فربما كان هو تأنيب الضمير. حتى آلام الفقد يمكن أن تكون أقل إلحاحاً، وفي كثير من الأحيان بالطبع يتحد هذان العذابان كما فعلا الآن بالنسبة لي. أقول تأنيب الضمير ولا أقول الندم. وأشك في أنني قد عانيت الندم في صورة نقية على الإطلاق، ولعله لا يوجد في صورة نقية. أما تأنيب الضمير فإنه ينطوي على الذنب، غير أنه الذنب اليائس الذي لا حول له ولا قوة والذي لا يُعرف له علاج من الوخز الأليم.

لم أكن أقدر أن أفكر في هارتلي حقاً، أو لم أقدر بعدُ. كانت الصدمة عظيمة حقًا، أو لعلي كنت أتوقّى ـ خفية ـ بالفعل المعاناة التي تزيد عن الحد. وكانت أيضاً وكأنها بلباقة تنتسب إلى شبابها، أو بلفتة فحسب، قد وقفت جانباً. كانت دائمة الحضور بالنسبة لي، وكأنها تهمهم في شعوري، ولكنني لم أكن أركِّز عليها. وأحسست أحياناً ـ في صراعي النهائي معها ـ بأنني أريد أن أستريح، وها هي الآن تجعلني بغتة شخصاً خاملاً. غير أنه في الفجوة التي خلقتها نهائية اختفائها، جاء تيتوس، عائداً إليّ ليطالبني بنصيبه في ذنبي وحزني.

فظائع تأنيب الضمير تتوافر في حالات الشروط التي لم يتم الوفاء بها. فلم

يكن في وسعي أن أخفف من تكاثر رؤى السعادة القوية التي لا تدري شيئاً عن بطلانها. كنت سأصطحب تيتوس إلى لندن، وسيذهب إلى مدرسة للتمثيل، وسيأتي جذلان مَرِحاً ليراني هو وأصدقاؤه، وكنت سآخذه للقيام بإجازات طويلة رائعة، وسأحبه وأحوطه برعايتي. لماذا لم أر في الحال أن هذا، أعني امتلاك تيتوس، وأبوتي المسؤولة القلقة الحانية عليه ـ كان على نحو ما هو الهِبة الخالصة التي أرسلتها الآلهة حقاً إليّ، مصحوبة بكثير من الطرود التي لا تمت بصلة إليها؟ كان هذا هو ما ينبغي عليّ أن أدركه، هذا لا الوهم. وتذكرت كلمات روزينا التنبؤية بشأن تيتوس: هو أيضاً سيظهر في نهاية الأمر على أنه طفل الأحلام، وسيتلاشى ويختفي. لماذ لم أمسك به وأصنع واقعاً بيننا، وأوليه انتباهي كله، وأصحبه بعيداً عن البحر الذي لا ينجب أطفالاً، ولا يعرف الرحمة؟ بالطبع كان جيلبرت والآخرون سيطلقون ضحكاتهم الساخرة، غير أنهم سيكونون مخطئين. إن صلة الأبوة المقدسة يمكن أن تأتي إلى الوجود، حتى على هذا النحو من الغرابة، وكان من الممكن أن تجعلني الروابط الأخلاقية المقدسة حامياً لتيتوس، وراعيه، وخادمه دون أن أطلب شيئاً لنفسي مقابل ذلك. ربما كانت هذه صورة مثالية. فمن الجائز أن أكون مستبداً، ومن الجائز أن أكون غيوراً، ولكن كنت أستطيع أن أتعرف على مستبد أو غيور مطلق حين أراه، وكان من الممكن أن أفي بعهدي مع تيتوس. وبين هذه الأفكار التي كانت تجول في ذهني كانت هناك دائماً تلك الصورة بضوئها البحري الساطع لتيتوس الذي يرقد ميتاً، عاجزاً عن الحركة، تتساقط منه قطرات الماء، بعينيه نصف المفتوحتين، وبندبة الأرنب على شفته.

عانيت غيابه الأبدي كشيء يكاد يستعصي على الفهم. كان معي فترة غاية في القِصَر، وقد أتى إليّ وكأنما يسعى لحتفه، أو إلى جلّاده. بأي دَرْب غريب من الحوادث، الحبلى بكثير من الإمكانيات، شق طريقه إلى قاعدة تلك الصخرة حيث حاول أن ينتزع نفسه مرة تلو أخرى من براثن البحر القاتل

المتحرك الممزِّق؟ كان ينبغي عليّ أن أحذره، وما كان ينبغي عليّ أبداً أن أغوص معه في ذلك اليوم الأول؛ لقد حطمته لأنني كنت مبتهجاً أشد الابتهاج بشبابه، ولأنني تظاهرت بالشباب أيضاً. مات لأنه وثق فيّ. وغروري هو الذي حطمه. إنها مسألة علِّية causality. وعقوبة الأخطاء ذات آلية ذاتية automatic. أرخيت قبضتي فرقد ميتاً. مثل هذه الأفكار حملتني أخيراً إلى سباتٍ إغمائي تعس، وعندما استيقظت نسيت أن هارتلي قد رحلت، وبدأت من فوري نشاطي القديم في التخطيط لِما يجب أن أفعل لاستعادتها.

تعطّلت ساعتي مرة أخرى، غير أن السماء اتخذت هيئة مسائية بطائفة من السحب البرتقالية التي تتخللها ثقوب من الأزرق الشديد البرودة الشديد الشحوب. نزلت إلى الطابق الأرضي وأعددت شيئاً من الشاي ثم شرعت في احتساء النبيذ. وبدأت أفكر في هارتلي ولكن بحذر وكأنني أختبر الأفكار لأرى إن كانت ستدفعني إلى الجنون ألماً. كان لا بد من أقلب هذه الأفكار على وجوهها المختلفة، وأن أستوعبها. لقد شاهدت المنزل الخاوي على عروشه، وبطاقة البريد المرسلة من سيدني. تأملتها، وأنا أرى وجهها الشاب الرقيق متطلعاً إليّ، وقد أزيح الآن وكأنه وراء ستار شفاف. لقد دعتني بهدوء إلى المعاناة. وكان هناك الآن فضاء رحب، وقاعة صامتة فسيحة يمكن أن تتم فيها هذه المعاناة. لا وجه للعجلة الآن، ولا شيء للتخطيط من أجله، ولا شيء للإنجاز. سألتها: ماذا سأفعل به، ماذا سأفعل الآن بحبي لك الذي أعدته إلى الحياة على هذا النحو الرهيب بعودتك للظهور في حياتي؟ لماذا عدت، إذا كنت لا تقدرين على إسعادي؟ ماذا أستطيع أن أصنع الآن بالآلة الضخمة العقيمة لحبي، الآلة التي لا تجد لها عملاً تصنعه؟ لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك، يا حبيبتي. وساءلت نفسي هل قدِّر عليّ أن أحيا بهذا الحب، بحيث أجعل منه محراباً ليس في الإمكان الآن تدنيسه؟ لعلي عندما كنت أعيش وحيداً، وكنت عمًّا لكل إنسان مثل قسٍّ عَزَب، كان عليّ

أن أحتفظ بهذا الحب العظيم بوصفه محرابي السري للعبادة. أكان من الممكن عندئذٍ أن أتعلم كيف أحب سدى وبلا رغبة للتملك، وأن يثبت هذا أنه التصوف الرهباني الذي تمنيت الوصول إليه عندما جئت إلى البحر؟.

تراكمت الظلمة شيئاً فشيئاً فأشعلت المصباح. وأغلقت النافذة لأحول دون دخول الهوام. ولاح لي هذا الخاطر بشيء من التعجب الغامض ألا وهو أنني لم أفكر في أي لحظة أن أستقل الطائرة إلى سيدني. لم أستطيع أن أتذكر هل قال «بن» بأنهما سوف يقيمان في سيدني، غير أن أستراليا لم تكن بكل هذا الاتساع، وعندي أصدقاء يسعدهم أن ينضموا إلى مطاردة فتاة. أستطيع أن أبحث، وأن أتحرى، وأن أنشر إعلاناً. ستكون هذه مشغلة. ولكن كان من الواضح على نحو ما أنني لن أفعل ذلك. لقد استسلمت. أتابعها بتواضع من بعيد، مجرد أن أدعها تعلم أنني ما زلت موجوداً؟ ما أشبهني عندئذٍ بشبح مخيف. كلا، لقد أعلنت التسليم، وقد فعلت ذلك ـ كما يبدو الآن ـ على نحو تنبؤي قبل هربها النهائي المريع مباشرة. لماذا جلست أنتظر فحسب، بعد حفل الشاي الذي لا يصح ذكره ـ متخيلاً أنها سوف تتصل بي هاتفياً؟ أكنت أتخيل حقاً أنها سوف تتصل بي؟ أكنت أتخيل حقاً أنها ستقفز في زورقي، في اللحظة الأخيرة؟ من المؤكد أنني لا بد قد عرفت وقتئذٍ أنها لم تكن قادرة على القفز. وفكرت وأنا أدير رأسي بين يدي جيئة وذهاباً في جزع، أوه لو كان من الممكن أن يعمل الحظ من أجلنا كِلَيْنَا على نحو ما! لو كانت هارتلي أختي، إذن لاستطعت أن أرعاها في سعادة غامرة وأن أعتني بها في حنان وفير.

لم أكن أستطيع أن أقرر أكل أي شيء. لم تكن لدي شهية للطعام أو أي إحساس بأنني سأريد أن آكل مرة أخرى. صعدت إلى الطابق العلوي أخيراً شاعراً بأنني مخمور عليل. وكان ستار الخرز يصلصل بفعل ريح تهب من البحر وتتسرب إلى الداخل على نحو ما. وكان هناك قمر صغير يتسابق خلال سحب مهلهلة، وجعلتني سرعته أشعر بالدوار. ربما كان لا بد لها من أن

تحب «بن»، فطبيعتها طبيعة مُحِبَّة، وليس لديها بديل، أو هدف ممكن آخر. كانت تريد أن تحب تيتوس، غير أن «بن» حطّم حبها لتيتوس، وحين فعل ذلك حطمها هي أيضاً. وما رأيته كان صَدَفَة، قشرة خارجية (لحاء)، امرأة ميتة، شيئاً ميتاً. ومع ذلك كان هذا بالضبط هو الشيء الذي وددتُ ـ باعتزاز ـ أن أسكن فيه، أن أرد إليه الحياة، أن أتعلق به. ابتلعت ثلاث حبات منوِّمة. وفيما كنت أدخل في النوم تساءلت: لماذا احتفظتْ بالخطاب حتى على الرغم من أنها لم تقرأه؟ لماذا وضعت الحَجَر في الحديقة حيث كان من المؤكد أن أراه؟ أكانت هذه، قبل كل شيء، علامات باعثة على الأمل؟.

استيقظت في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، وتأكدت من الهاتف أنها التاسعة والنصف. كنت أشكو من صداع. دخلت المطبخ فسقطت فوق حوض الحمام الذي ما برح منتصباً هناك ممتلئاً بالماء إلى منتصفه. تمكنت من تفريغ الحوض، نصفه فوق البلاط، والنصف الآخر فوق المرجة، ثم أعدته إلى مكانه تحت الدرج. حاولت أن آكل شيئاً من البسكويت غير أنه كان ناعماً ورطباً على نحو عجيب. لم يكن هناك خبز ولا زبدة ولا لبن. على أي حال، لم أكن جائعاً، ففكرت أن أذهب للتسوق، غير أنني لم أكن متأكداً من اليوم. وظننت أنني سمعت أجراس كنيسة بعيدة، ومن ثم يمكن أن يكون يوم الأحد. وفي شيء من الشرود تساءلت إن كان ينبغي أن أذهب إلى لندن. على كل حال، لم يكن لدي دافع معين للذهاب إلى هناك، كما لم يكن هناك من أريد أن أراه، أو شيء أريد أن أفعله.

خرجت إلى الطريق لأتأمل الطقس. كان أدفأ وأشد زرقة. ولمحت بعض الخطابات في سلة جيلبرت الذكية. كان من الجلي أن الاضراب أو العطلة ـ أو أي شيء كان ـ قد انتهى. بالطبع لم يكن هناك خطاب من هارتلي، وإنما كان هناك واحد من ليزي. أخذت الخطابات إلى الحجرة الصغيرة الحمراء وجلست إلى المائدة.

عزيزي، لست سعيدة بلقائنا. كنتَ كريماً وعذباً، غير أنني تمنيت لو التقيت بك

على إنفراد. كل هذا الضحك كان مريعاً على نحو ما. فيم كنت تفكر حقاً؟ أشعر أنني كنت مخطئة على نحو ما، ولكن ينبغي عليك أن تضعني على طريق الصواب. أحببني، يا تشارلز، أحببني حباً كافياً. منذ خطابك وأنا أحيا من جديد حبي لك كأنه تطعيم، لا لكي أُشْفى، ليس هذا إطلاقاً، وإنما لكي أحبك كما ينبغي أخيراً، لا مجرد أن أكون «مغرمة» بغباء. الحب هو المهم، لا «الوقوع في الغرام». لا تكن بيننا افتراقات بعد الآن، يا تشارلز، أو عواطف تملكية وضيعة، أو كيد. فليحل السلام بيننا الآن وإلى الأبد. فنحن لم نعد شابّيْن كما كنا من قبل. أرجوك، يا حبيبي.

ليزي

حاشية: تعال وقابلنا في لندن.

يا له من خطاب مؤثِّر، ينتهي بدعوة من «نحن»! «إنني كنت مخطئة ولكن ينبغي عليك أن تضعني على طريق الصواب». أسلوب ليزي المتميزة. فتحت رسالة أخرى، وكانت من روز ماري آسن.

تشارلز الأعز.

أكتب إليك هذه الرسالة لأحمل إليك فحسب الأنباء المحزنة عن انفصالنا أنا وسيدني. إنه يطلب طلاقاً. كنا مسالمين في كل شيء من أجل الأطفال، ولكن يبدو أنهم لا يعبأون كثيراً. إنها بالطبع ممثلة أصغر مني سناً، المصادفة المهنية، بالإضافة إلى الجو عبر الأطلنطي Transatlantic الذي يبدو أنه دفع سيدني إلى الجنون. ربما كان شيئاً وقتياً. لم أتخلَّ عن الأمل بعد، كل ما في الأمر أن الأمل شديد الإيلام. أنا عائدة إلى الوطن وأشتاق إلى رؤيتك. أيمكنني أن أقوم بزيارتك في منزلك البديع الوديع على شاطىء البحر؟ هذا بالضبط هو ما أحتاج إليه.

(لك) حبي الجم

روزماري

كثير من هذا عن الحب المثالي. من الأفضل أن أبدأ في صقل دوري

بوصفي عمًّا عَزَباً. فتحت خطاباً آخر، ومكثت فترة لا أعرف ممن هو، حتى وإن كنت أستطيع أن أقرأ التوقيع بسهولة: آنجيلا جودوين.

عزيز تشارلز.

أنصت، إنه أنا، وأنصت بعناية، ليس عليك أن تُعْرض عن عشيقاتك العجائز، ولماذا ينبغي عليك؟ ألعلك تحسب أنك لا تستطيع الحصول على عشيقة شابة؟ غير أنك لا تبدو في سِنِّك الحقيقية، لعلمك، ليس عليك أن تكون لك عشيقات شمطاوات مثل ليزي شيرر وروزينا ڤامبورج، ولماذا ينبغي عليك إذا كان في إمكانك أن تنالني؟ أنا أميل - مع ذلك - إلى روزينا، فهي - على الأقل - ذكية، والأمور قد تبعثرت في البيت منذ رحيل پام، ومن ثم لا تفكر في أنني أنظر إليك بوصفك طريقاً للهرب، أنا لا أفعل ذلك. لقد أطلت التفكير في هذه الأشهر الأخيرة، وأظن أنني تغيرتُ كثيراً، ووصلت أخيراً إلى نوع من المصالحة مع نفسي. كنت أفكِّر في هويتي. ما زلت لا أعرف ماذا أنا صانعة بحياتي، لا أريد أن أقوم بالتمثيل، ولهذا لستَ بحاجة إلى الظن بأنني أسعى إلى ذلك أيضاً. أنا بارعة في الرياضيات، وأظن أنني قد أصبح عالمة في الفيزياء، وسأدخل إمتحان كمبردج في الخريف. وعلى كل حال يمكن أن أكون شخصاً مرموقاً. السبب في إرسال هذا الخطاب؟ طرأت عليّ فكرة عبقرية. في تلك الليلة التي جئتَ فيها لزيارة برجراين كنت أنصت (بالطبع) عند الباب وسمعته يقول إنك تريد ابناً، أو لعلك أنت الذي قلت ذلك، لقد نسيت، على أن هذا القول استقر في ذهني، على كل حال. والآن، جاءت الفكرة: لماذا لا أنجب لك ابناً؟ إنه يمكن أن يكون لك، ولن أستحوذ عليه. أعني، أنني سأزوره، وما شاكل ذلك. إنني لا أرى نفسي مرتبطة بطفل بعد، ومن الممكن أن نستخدم ممرضة. وفضلاً عن ذلك، سأكون مشغولة جداً في كمبردج. وبالطبع، أنا لا أعرض عليك الزواج. وأظن أنني سأتزوج فيما بعد، أو لن أتزوج على الأطلاق. ولكن، لماذا لا يكون لك ما تريد ببساطة؟ الناس لا يفعلون ذلك بما فيه الكفاية، وهذه آفة مدنيتنا، أنا لا أعني أن الناس يتضورون جوعاً، وإنما أعني أنهم لا يملكون الشجاعة لتحقيق ما تشتهيه نفوسهم حتى لو كان أمام أنوفهم. وإليك هذه المعلومات عني: أنا في السابعة عشرة، وفي صحة كاملة.

وأنا عذراء وأريد شخصاً خاصاً يجتاز بي هذه الحدود، أنت في الواقع. أرفق صورة، ومنها يمكن أن ترى إلى أي مدى تغيرت. ماذا عن هذا الاقتراح، يا تشارلز؟ أنا جادة. ولست أقل من ذلك في قولي إنني أحبك، وأنني - إذا ومتى أردتني - مِلك يمينك.

آنجيلا جودوين

انتزعت الصورة من المظروف وأخذت أتفحص صورة ملونة لفتاة جميلة ظاهرة الذكاء ذات عينين واسعتين ووجه مشرق رقيق حييّ لم تتشكل قسماته. سحقت هذه الرسالة وقذفت بها في الرماد الناعم المتخلف عن خشب المدفأة. وكانت هناك رسائل أخرى عديدة، غير أنني شعرت بأنني قرأت ما يكفي من الرسائل في هذه الفترة.

خرجت لأشاهد ما طرأ على البحر الفظيع. كان هادئاً زلقاً، ينزلق بين الصخور كالزيت. مشيت حتى مرجل مين، ووقفت على الجسر. كان المد ينسحب والمرجل يقوم بتفريغ ما فيه من مياه جياشة دوّارة مهتاجة بفقاعات متسارعة كان تدفقها الأبيض يمتصه البحر الأهدأ فيما وراء المرجل. نظرت إلى أسفل. ما أعمق الفجوة وأشد انحدارها وملامسة جوانبها. من المؤكد أن أية قوة على الأرض لم تكن قادرة على إخراجي من تلك الفجوة. ومع ذلك فقد خرجت، وهاأنذا حي أُرْزق، على حين أن تيتوس المسكين الذي كان يقضي عطلته سابحاً قد مات. ارتقيت الصخور حتى بلغت البرج ثم نزلت إلى الدرجات. كان الماء الصقيل يرتفع وينخفض، ولكن دون عنف شديد، وكان المد ميامنا، والدرابزين الحديد يصل إلى تحت حتى يلامس الأمواج. أحسست في جسدي - وبصورة لم أشعر بها إلا نادراً في عقلي - بشعلة من الحياة، إختلاجة الخوف القديمة المألوفة شبه - الجنسية، مثل تلك التي اعتدت أن أشعر بها فوق ألواح الغطس العالية في كاليفورنيا أو قبل الغوص في مياه الصقيع المهلكة في أيرلندا.

خلعت ثيابي مرتعشاً بالانفعال، واقتحمت البحر. الصدمة الباردة، ثم الدفء، ثم حركة الرفع القوية اللطيفة للأمواج الهادئة ـ كل هذا ذكّرني تذكيراً رهيباً بالسعادة. أخذت أسبح هنا وهناك شاعراً بوحدة البحر وبذلك الإحساس الخاص الذي حدَّدته الآن بأنه إحساس بالموت حملته دائماً في صميم قلبي. وليس معنى هذا أنني تمنيت الموت أو ظننت أنني قد أغرق. بل إن أطرافي القوية تجاوبت مع الماء المتحرك، وتصاعدت أنفاسي في يسر، وكانت السماء زرقاء فوق رأسي والشمس في كل مكان، فأخذت أراقب الأفق القريب للأمواج القادمة، وقد جَلَد النسيم قممها جَلْداً رفيقاً، وكانت قوية ولطيفة، فجعلت تداعبني. سبحت وطفوت حتى بدأت أشعر بالبرد. ثم خرجت إلى البر وعدت عارياً إلى المنزل، حاملاً ملابسي.

أعاد إليّ البحر شهيتي، وعندما حان وقت الغداء سخّنت بقايا حساء الخضروات وفتحت علبة من الفرانكفورتز وعلبة من الساوركراوت Sauerkraut. كدت أقرر الذهاب إلى لندن غداً، وكدت أفكر في الاتصال هاتفياً بجيمس الذي يمكن أن يكون هناك على كل حال، وتماديت في هذا التفكير إلى درجة البحث عن رقمه وكتابته على إضمامة الورق الموجودة بجوار الهاتف. وأوشكت أن أتصل برجل التاكسي لأطلب منه توصيلي إلى القطار الباكر. ومع أن الشمس كانت دافئة، إلا أنني كنت أشعر قليلاً بالبرد بعد السباحة، فارتديت الجيرسي الأيرلندي الأبيض. أخرجت حقيبة ملابسي وأخذت أحزم شيئاً من الثياب. بل لقد دخلت حجرة الكتب لأبحث عن كتاب أقرأه أثناء الرحلة. وخطر لي أنه رغم أن مشروعي للتقاعد يشمل نظاماً للقراءة فإنني لم أفتح كتاباً منذ أن وصلت إلى «شراف إند». قلّبت الكتب لأعيدها إلى ما كانت عليه. كان جيمس قد فحصها، وكان تيتوس قد نام فوقها. كنت أحتاج إلى كتاب مثير يستغرقني. بل إن هذه اللحظة كانت مناسبة لقراءة كتب الجنس الفاحشة، غير أنني لم أكن أطيق حقاً هذا الصنف

من الكتب. اخترت أخيراً «أجنحة اليمامة» وهي قصة عن الموت والانهيار الأخلاقي.

يبدو أن النهار كان يمر، والمساء على وشك الوصول، وأنا لم أتصل هاتفياً لا بجيمس ولا برجل التاكسي. ورأيت أن الوقت قد تأخر على اتخاذ قراري بالسفر في الصباح المبكر. سأتصل هاتفياً برجل التاكسي غداً، وسأستقل القطار المتأخر. أما ماذا سأفعل في لندن فأمر لم أبحثه. ترتيب شقتي، وتركيب الستائر؟ مثل هذه الأشياء تنتمي إلى عالم آخر. وعلى الرغم من أن المساء كان دافئاً فإنني أوقدت النار لمؤانستي في الحجرة الصغيرة الحمراء، وبهذا أستوعب رسالتي روز ماري وآنجي وصورة الفتاة الذكية الحيية. تناولت عشائي وجلست برهة أحاول البدء في قراءة «أجنحة اليمامة»، غير أن بدايتها المدهشة الرصينة أخفقت في الاستيلاء عليّ كان ضوء النهار مايزال منتشراً، وكنت أستطيع أن أرى دون الاستعانة بالمصباح .جلست هنيهة بعينين تعلوهما غشاوة، منصتاً إلى إيقاع البحر الرتيب وخفقان قلبي. وبدأت أشعر بشيء من النعاس أو الغيبوبة. من المؤكد أن تلك السباحة فعلت شيئاً فيّ. اتجه فكري إلى تيتوس، ثم بدأت أفكر في نفسي بوصفي شخصاً غريقاً وتذكرت كيف نمت ـ في ليلة بعثي من مرجل مين ـ فوق أرضية هذه الغرفة أمام النار المتوهجة، متعجباً في امتنان من سبب بقائي حياً. وتراءى لي أنني أشاهد نفسي هناك، أحرك أطرافي برفق في الدفء لأتأكد من أنني كلٌ متكامل.

ارتخى جفناي قليلاً، وعندئذٍ أبصرت بوضوح شيئاً مثيراً للاهتمام لم أكن قادراً فيما بعد على القول بأنه كان هلوسة أو صورة من الذاكرة. من المؤكد أنها تمثّلت لي ـ بغتة تماماً ـ على أنها ذكرى. كنت أفكر على نحو غامض مشتت في تلك السقطة المرعبة في حفرة المياه المصطخبة، وفي «معرفتي» بموتي، وفي الطريقة التي ظهرت فيها المياه خضراء فوق رأسي حتى في الضوء

المعتم. ثم تذكرت أنه قبل أن يرتطم رأسي بالصخرة مباشرة - وقبل أن يطويني الظلام - رأيت شيئاً آخر. رأيت رأساً صغيراً غريباً بالقرب من رأسي، بأسنان بشعة، ورقبة سوداء مقوّسة. كان أفعوان البحر المتوحش معي بالفعل في المرجل.

فتحت عينيّ على آخر ما فيهما من سعة، وأخذت - وأنا ألهث الآن ويقلب يكاد يثب بعنف من ضلوعي - أتلفت حولي. كل شيء كالمعتاد، النار تتوهج، الخطابات التي لم تُفْتح متناثرة على المائدة، كأسي من النبيذ الذي لم أشرب سوى نصفه. كنت موقناً بأنني لم أكن نائماً. كل ما في الأمر أنني تذكرت شيئاً كنت قد نسيته تماماً لسبب ما. كان هذا بالتأكيد هو النسيان الذي أخبرني الطبيب أنني لا بد أن أتوقعه، نتيجة ارتجاج المخ حيث تُطمس آثار الذاكرة. غير أنني كنت أستطيع الآن أن أستحضر ذلك الشيء الأسود الملتفّ على نفسه، قريباً جداً مني، ينتصب فوق رأسي، لا يخطئه المرء في الضوء المعتم، ورأسه ورقبته مرسومان لحظة على مهاد السماء. وأبصرت في ذاكرتي عينيه الخضراوين الشفافتين. واستغرق المنظر ثوانيَ، بل ربما ثانية واحدة، غير أنه كان واضحاً لا سبيل إلى الشك فيه. وبعد هذه الثانية جاءت الضربة فوق الرأس.

ولكن كلا، كان هناك شيء آخر للتذكّر، شيء آخر حدث قبل أن أفقد الوعي مباشرة. ولكن ما هو، ما هو؟ جلست ممسكاً برأسي، معذِّباً ذاكرتي، وأنا أرتعد انفعالاً. كان هناك شيء ما ينتظر انتظاراً أليماً أن أتذكره، شيء غير مألوف على أكبر جانب من الأهمية، ينتظر خارج نطاق رؤيتي، ينتظرني لكي أقبض عليه، غير أنني لا أستطيع. زمجرت بصوت مرتفع. نهضت ودخلت المطبخ وعدت إلى مكاني. احتسيت مزيداً من النبيذ، أغمضت عينيّ، فتحتهما. راقبت عقلي، وكأنني لا أكاد أجرؤ على لمسه خوفاً من أن ينتقل أو يتصلب أو يحطم تجاوراً لحظياً. غير أن الشيء المستتر لا يريد أن يظهر؛ وراودني إحساس مرعب بأنني لو لم أقتنصه الآن فسيختفي إلى الأبد، غائصاً

في الظلمة العميقة الشاملة للاشعور. الآن فحسب،وربما للمرة الأخيرة، أخذ يغلو ليلمس السطح.

تخليت بعد برهة عن التوتر، وإن لم يفارقني الأمل بأن الذكرى النهائية، الجوهرية على نحو ما، سوف تأتي بغتة. جلست مرة أخرى إلى المائدة، وبدأت أفكّر في أفعوان البحر، راجعاً إلى نظرياتي السابقة المتعلقة بالعقار LSD. حاولت أن أتذكر هل شعرت بالكائن الملتف حول نفسه فحسب، أم رأيته أيضاً. كانت لديّ ذكرى بصرية عن الحيوان، ولكن دون أن تكون لديّ أي ذكرى عن حالتي الذهنية حينذاك، وإن كنت أستطيع أن أتذكر أفكاري أثناء «الغرق» عندما أصبحت تحت الموجة. وخطر لي أن أخرج لفحص المرجل على أمل أن هذا قد يساعد ذاكرتي، غير أن الظلام أوشك الآن أن يكون سائداً، فلم أجرؤ على الخروج. أحسست بالخوف، ثم هزّني خوف الموت هزًّا إيجابياً. حاولت أن أضيء المصباح، غير أنني لسبب ما، لم أستطع. أوقدت شموعاً عديدة، ثم ذهبت وأوصدت الباب الأمامي والباب الخلفي، ثم رجعت إلى الغرفة الصغيرة الحمراء.

وعندما عدت ودخلت الحجرة لمحت فوق رأسي مباشرة، وكأنما ضبطت عيناي بغتة على طول موجة جديدة ضيقة - شقًّا في الألواح الخشبية البيضاء تحت السقف مباشرة حيث تنتهي الألواح عند نتوء صغير على بُعد أقدام قلائل من الأرض. وكانت هناك كمية كبيرة من الشقوق بين الألواح، وبعضها يكسوه الطلاء جزئياً. أما هذا الشق فكان قصيراً جداً، حوالي ست بوصات من حيث الطول، وكان هناك شيء محشور فيه: شيء أبيض توقف بعد أن برز منه قليلاً. اجتزت الحجرة مبهور الأنفاس مصاباً بدوار الذكرى - وانتزعت قصاصة من الورق. كانت هي القصاصة التي كتبت عليها - عندما استيقظت في الليلة التي غرقت فيها - ذلك الشيء المهم الذي لا ينبغي أن أنساه بأي حال من الأحوال. وحتى بعد أن أمسكت الورقة بيدي لم يكن

بوسعي أن أتذكر ما كتبت، وإن كنت قد افترضت من فوري أنها تتعلق بأفعوان البحر. نشرت الورقة، وكان ما قرأته هو هذا:

ينبغي أن أكتب هذا بسرعة بوصفه دليلاً، إذ بدأت أنساه حتى وأنا أكتبه. لقد أنقذني جيمس، إذ غاص مباشرة على نحو ما في الماء، وقد وضع يديه تحت إبطيّ وأحسست بنفسي أرتفع وكأنني في مصعد. وقد شاهدته على جانب الصخرة منحنياً عليّ، ثم نهضت وهو يمسك بي لصق جسده، وصعدنا معاً. غير أنه لم يكن واقفاً على أي شيء. ففي لحظة كان مستنداً إلى الصخرة وكأنه متشبث بها كالوطواط. ثم كان يقف ببساطة على الماء. وبعد ذلك..

هنا انتهت الكتابة، إذ تحولت بعد ذلك إلى خرابيش غير واضحة. جلست لاهثاً إلى المائدة وأنا أقرأ هذه الفقرة عدة مرات، وبعد ذلك شق الشيء المظلم الذي كان يلامس سطح عقلي طريقه إلى الظهور، وألفيت نفسي قادراً على تذكر المشهد. هذه الذكرى لم تكن تشبه ذكراي عن الأفعوان، وإنما كانت أشبه بذكراي عن ليزي وهي تغني أو تيتوس وهو يرقد ميتاً، فيما خلا أنها كانت ذكرى عن استحالة.

كنت قادراً الآن على أن أتذكر بوضوح تام ما كنت أحاول التعبير عنه بقولي إنه كان ملتصقاً بالصخرة «كالوطواط» وبأنني ارتفعت «كأنني في مصعد». كان ذلك بعد أن تكسَّرت الموجة الخضراء فوقي، وأتذكر أن رأسي وصل إلى ما فوق السطح، وكنت أتقيأ الماء من فمي وأحاول أن أصيح. ثم رأيت جيمس في منتصف الطريق بالفعل إلى أسفل الصخرة، وهو يركع في مقابل أحد جوانبها، وينزل كما ينزل الحيوان. ولم تكن صورة الوطواط صحيحة تماماً، بل كان أشبه بسحلية، غير أن المسألة كانت أنه لم يكن ينزل بقدميه ويديه كما يفعل الإنسان، بل كان يزحف فوق السطح الأملس كما يفعل نوع من الحيوان. وأتذكر أنني حاولت أن أمد يدي نحوه، غير أن الماء كان متحكماً تمام التحكم في جسدي، ويقذف بي هنا وهناك كأنني سدادة. وعلى أي حال كنت قد ابتلعت كثيراً بحيث أوشكت أن أبلغ نهاية التنفس

والمناضلة. وأتذكر بوجه خاص أن جيمس كان يشبه رجلاً غريقاً هو نفسه في هذه اللحظة، يغمره الماء، والبحر المتوثب يتدفق من فوق رأسه. وبقدر ما كنت أستطيع أن أفكر حينذاك يبدو أنني اقتنصت إحساساً بأن جيمس يغرق هو الآخر. كل ما في الأمر أن هذه الفكرة لم تكن فكرة يائسة. ثم استطاع جيمس وهو يزحف هابطاً إلى الدوامة الصاخبة مباشرة أن ينتزع نفسه من الصخرة كالجرّار. كان هناك تأثير أشبه بشيء لاصق ملتصق ينتزع نفسه عمداً. لم يأخذ اليد التي كنت أحاول أن أمدها إليه، ولكنه انحنى عليّ ووضع يديه تحت إبطيّ، كما وصفت ذلك في الكتابة. وأستطيع أن أتذكر الآن الإحساس بيديه عندما لَمستاني، ثم الإحساس الغريب الذي وصفتهُ بأنه أشبه بالارتفاع في «مصعد». لم أستطع التذكر أنني جُرِرت أو سحبت إلى أعلى، لم يكن ثمة إحساس بالجهد. نهضت حتى حاذى رأسي مستوى رأس جيمس، وضغط جسده على جسدي. وأتذكر إحساساً بالدفء، وأنني في تلك اللحظة فقدت أيضاً وعيي.

ولكن ألم أُضْرب على رأسي بعدئذ، وأعانِ من ارتجاج في المخ؟ تلمست مؤخر رأسي، وأحسست بأنه ما زال هناك ورم متميز رقيق. من الممكن بالطبع أن أكون قد خبطت رأسي قبل ذلك دون أن أفقد الوعي. ومتى شاهدت الأفعوان، إن كنت قد شاهدت أفعواناً؟ وهل رأى جيمس الأفعوان أيضاً؟ ولماذا لا تحتوي الكتابة التذكُّرية القصيرة أية إشارة إلى الأفعوان؟ وماذا كنت على وشك أن أقوله عندما انتهت الكتابة؟ بالطبع، إذا كنت قد ضربت رأسي على الصخرة عندما رأيت الأفعوان مباشرة، فقد كان من الممكن بالفعل أن أنسى ذلك عندما هممت بالكتابة، حتى وإن كنت لا أزال أتذكر إنقاذ جيمس لي. ولماذا نسيت ذلك أيضاً، ولماذا كان عليّ أن أتذكره الآن بغتة؟.

وَثَبْتُ من مكاني وأنا في أشد حالات الإثارة. إن ذكراي عن فعلة جيمس البطولية لم تكن بالتأكيد مجرد هلوسة. فأياً كان الأمر، كيف خرجتُ من تلك

الحفـرة، حفرة المـوت الصخابـة؟ولم أستنتج إلا اليـوم فحسب بالنـظر إليها، أنـه ما من قوة بشرية كانت تستطيع أن ترفعني، كما لم يكن من الممكن أن تصعد بي الأمواج إلى قمة الصخرة. لقد أنقذني ابن عمي بممارسة تلك القوى التي تحدث عنها عَرَضاً بوصفها «حِيَل» وعُدْت إلى التفكير في قصة متسلق الجبال الذي اعتزم جيمس الإبقاء على حياته بمثل ذلك «التحايل». هل كنت أشك حينئذ في إشارة جيمس إلى «زيادة حرارة الجسم بواسطة التركيز الذهني»؟ لم أمعن الفكر كثيراً في هذه المسألة. وهذه القصة يمكن أن تُرى في ضوء عادي تماماً. رجلان يتلاصقان معاً طلباً للدفء في خيمة، في حقيبة، في الجليد، فيموت أحدهما. إن ما أثّر في نفسي وأثار اهتمامي هو - أنه مهما يكن ما فكَّر فيه جيمس على أنه بسبيل فعله - فقد فَشِل. أما من حيث هذا الزعم نفسه فإنه لم يعد يبدو لي بعيداً عن التصديق تماماً أن يستطيع زاهد شرقي غريب الأطوار أن يتعلم التحكم في حرارة جسمه. أما أن يزحف هابطاً صخرة ثم يقف عليها، أو (كما تذكرت الآن)، تحت سطحها مباشرة، على الأمواج الثائرة ويرفع رجلاً وزنه إحدى عشرة صخرة إلى أعلى مسافة تتراوح من ست عشرة إلى عشرين قدماً بمجرد أن يضع يديه تحت إبطيه! هذه مهمة مختلفة يواجهها تصديق رجل غربي متشكك. ومع ذلك فقد تذكرتها. كما أن هناك أيضاً دليل الكتابة. فمن المؤكد أن شيئاً غريباً أشد الغرابة قد حدث.

جلست مرة أخرى إلى مائدتي، محاولاً التنفس بانتظام، وعند فكرة أن ابن

★ دانايه في الأساطير اليونانية هي ابنة أكريسيوس Acrisius ملك آرجوس. وكانت هناك نبوءة بأن هذا الملك سيقتله حفيده من هذه الابنة. فسجنها في برج حتى لا يقترب منها أحد.

غير أن زيوس أحبَّها وأنجب منها برسيوس. ومن ثم وضعها أبوها مع طفلها في صندوق وألقى بها في البحر. وحملها البحر إلى جزيرة سيريفوس وعاشا في حماية ديكتيس شقيق ملك الجزيرة (المترجم).

عمي قد استخدم قوة غريبة يمتلكها لإنقاذ حياتي ـ عند هذه الفكرة أُفْعمت نفسي بغتة بسرور أشد ما يكون نفاذاً ونقاءً وحناناً، وكأن أبواب السماء فُتِحت وهبط منها جدول من النور الأبيض. أحسست بما أحست به دانايية* Danae. وعندما شعرت في آخر حديث لي مع جيمس بأنني في بداية علاقة جديدة أكثر انفتاحاً معه، كان ذلك مجرد لمعة تنبؤية لما شعرت به الآن. وخطر لي أيضاً ـ على نحو مضحك غريب، يا له من ترفيه! وتذكرت جيمس وهو يقول: «يا للقبّرات التي لدينا!»، وأردت أن أقدم له الشكر، وأن أضحك وأنا أفعل ذلك.

نظرت إلى ساعتي. كانت قد تجاوزت الحادية عشرة مباشرة، إذن فالوقت ليس متأخراً للاتصال بالهاتف، وهرعت إلى حجرة الكتب حاملاً شمعة وأنا أكاد أختنق انفعالاً. أدرت رقم جيمس. ولم يكن لديّ أية فكرة عما أعتزم قوله له. ولكن خطر لي أنه لا بد من أن أتذكر سؤاله عما إذا كان قد رأى أفعوان البحر. وبدأ الهاتف في الرنين، وكلما استمر في هذا الرنين تحول انفعالي إلى خيبة أمل. لعله قد رحل بالفعل إلى التبت؟ أو لعله في الخارج ليتناول عشاءه هذا المساء في أحد النوادي مع أحد العسكريين؟ يا إلهي، ما أقل ما أعرفه عن حياته! وقررت أن أتصل به هاتفياً مرة أخرى في الصباح، وأن أرحل بعد ذلك إلى لندن.

عدت إلى المطبخ، وفتحت الباب الخلفي الذي كان موصداً. أما الخوف البارد الذي شعرت به قبل ذلك فقد فارقني تماماً. خرجت إلى المرجة. كان المنزل مظلماً بارداً، غير أن الضوء كان وفيراً في الخارج، والهواء أدفأ. فقررت النوم في الخارج، فذهبت، وجمعت بعض الوسائد من حجرة الكتب، وأحضرت بطاطين وحشيّة حملتها من الطابق العلوي. وتسلقت إلى المكان المجاور للبحر حيث نمت في المناسبة السابقة ونصبت سريري. ثم رجعت صوب المنزل حيث كانت الشموع ترسل وَهَجاً ودوداً في نافذة الحجرة الصغيرة الحمراء. وكانت السماء، رغم عتمتها وشحوبها ـ ما تزال مضيئة بما

يكفي لحجب النجوم، فيما خلا نجمة السماء التي كانت تسطع بحدة وضخامة. أما نصف القمر المنخفض الغارب فكان في شحوب قطعة الجبن.

دخلت الحجرة الصغيرة الحمراء حيث كانت الشموع تحيط بكأس من النبيذ والزجاجة الفارغة تقريباً، كأنها قائمة في محراب. صببت ما تبقى من النبيذ وجلست مستغرقاً في التفكير. حاولت أن أتذكر مزيداً من الأمور. كنت على يقين من أن الآخرين لم يلحظوا شيئاً شاذاً. قال برجراين إنه دفعني ثم مضى في سبيله. كان في حالة بيِّنة من السُّكر، وقد يكون من الصحيح حقاً أنه لم يعلم بالضبط ما حدث. وفي الوقت التي شاع فيها الإنذار العام كنت ممدداً بالفعل فوق قمة الصخرة، وجيمس يحاول أن يعيدني إلى الحياة. ولم أسأل جيمس كما ينبغي لأنه أصبح مريضاً مباشرة بعد ذلك، كان قد أصيب بنوع من الانهيار ولزم الفراش. لماذا كان مرهقاً إلى هذا الحد؟ بسبب ما تحمَّله في إنقاذي، الطاقة الجسمانية والذهنية التي صرفها في ذلك النزول الذي يفوق الخيال. وتذكرت كلماته عن «تلك الأشياء التي يفعلها أولئك الناس، إنها يمكن أن تكون مُتْعبة جداً». لا عجب إذن إن كان جيمس قد تداعى وبدا عليه أنه فَقَد قبضته. ولكن بعدئذ. . «أرخيت إمساكي به، فَقَدت قبضتي عليه». من كان ذلك الشخص الذي تحدث عنه جيمس أثناء دخولي في النوم تلك الليلة، متسلق الجبال الذي يعرفه أو لعله. . . تيتوس؟ كيف خطر تيتوس على بالي في هذه اللحظة بالذات؟ لماذا سأل جيمس بذلك الاهتمام عن اسم تيتوس؟ الاسم طريق. ولماذا قال تيتوس إنه رأى جيمس «في حلم»؟ كان جيمس هو الذي يعثر دائماً على الأشياء المفقودة. أتراه مَدَّ مَجَسًّا من مجسات عقله فوجد تيتوس وأحضره إلى هنا واحتفظ به تحت رعايته بخيط رابط، خيط من الاهتمام انقطع عندما صار جيمس مريضاً على ذلك النحو الغريب بعد أن انتشلت من البحر؟ إن رد فعل جيمس على موت تيتوس «هو أنه ما كان ينبغي أن يحدث»، وكأنه يشعر بأنه غلطته. ولكن إذا كان هذا الموت غلطته، فهو أيضاً غلطتي. هناك سببية لا ترحم للخطيئة،

وقد مات تيتوس لأنني استلبت روزينا من برجراين كل تلك السنين الماضية. وليس من شك أن غروري هو الذي قتل تيتوس كما قتل غرور جيمس ذلك المتسلق للجبال (شيربا). وفي كلتا الحالتين كان ضعفنا هو الذي حطَّم الشيء الذي أحببناه.. والآن أتذكر شيئاً آخر قاله جيمس. السحر الأبيض هو السحر الأسود. والتصدي الذي لا يبلغ درجة الكمال في العالم الروحي يمكن أن يمسخ الأشخاص الآخرين، والجان المستخدمة في الخير يمكن أن تحوم حولهم لتُلْحق بهم الأذى فيما بعد. هل استغل واحد من هؤلاء الجان الذين استعان بهم جيمس لإنقاذي - انهيار جيمس ليقبض على تيتوس ويسحق رأسه الصغير على الصخرة؟.

كانت هذه الأفكار مسرفة في الجنون وبما تنطوي عليه من مضامين مخيفة بشكل بشع إلى درجة أنني قررت التوقف عن التفكير، ومحاولة النوم. أحسست بأنه لا بد لي من أن أنام جيداً، رغم كل شيء. كنت أتلهف بشدة على الحديث مع جيمس بشأن هذه الأشياء جميعاً، أو أن أكتب إليه، إن كان قد رحل فعلاً، ولكن كيف يمكن أن أجد عنوانه، وهل سيكون له عنوان؟ لم أكن أعرف أحداً يعرفه حقاً فيما عدا «توبي إليسمير»، وقد كان توبي يبدو دائماً غامضاً أو جاهلاً تماماً بأفعال جيمس وأسلوبه في الحياة. أمن الممكن أن أتوجه إلى مركز رئيسي من مراكز الجيش، أو إلى وزارة الدفاع للسؤال عنه؟ بالطبع «لن يكونوا على معرفة بشيء».

استهلكت النبيذ كله، وتحولت النار إلى ركام من الرماد الملطخ عشوائياً باللون الأحمر. تنهدت بعمق وأنا أفكِّر في كل تلك السنين التي بدَّدتها، وكان من الممكن أن نكون فيها - أنا وجيمس - صديقيْن، بدلاً من مجرد قريبيْن مرتبكيْن مُحرجيْن، أو شيء أشبه بعدوَّين. وصلت إلى المائدة، وشرعت في إزاحة كومة الخطابات التي لم أفضها لأرى إن كان من الممكن أن أتعرف على أيٍّ من خطوطها. بالطبع، لم يكن فيها شيء من جيمس، وإلا لتعرفت عليه من فوري. ربما كان فيها واحد من سيدني يحكي فيه جانباً من جوانب قصته

مع «الممثلة الشابة». ولاحظت ـ لأن مظهره استرعى نظري ـ خطاباً عليه طابع بريد لندن موجهاً إلى السيد «ت. آروبي» بخط كاتب كان من الواضح أن الحروف الرومانية غير مألوفة له. وفي فضول متكامل هذّه التعب سحبته نحوي وفتحته. كان مؤرخاً بتاريخ يومين مضياً، وكان كالآتي:

عزيزي السيد آروبي.

يؤسفني أن أكون حاملاً لأنباء محزنة. لم أستطع أن أجد اسمك في دليل الهاتف. غير أن لك مطلق الحرية في الاتصال بي هاتفياً في الرقم المكتوب على هذه الورقة. أنبائي المحزنة هي أن ابن عمك السيد جيمس آروبي قد قضى نحبه، وأنا طبيبه. وقد ترك لي مذكرة بأنك ابن عمه ووريثه وأنه ينبغي عليّ إخطارك بوفاته. وها أنذا أفعل ذلك. كما أريد أيضاً أن أخبرك بشيء على انفراد. لقد مات السيد آروبي في هدوء تام. اتصل بي هاتفياً للحضور إليه، وعندما وصلت كان قد وافاه الأجل بالفعل، ولكنه كان قد ترك الباب مفتوحاً. كان يجلس على مقعده مبتسماً. وينبغي أن أخبرك بهذا. بمصادفة ليست مصادفة أتيت إليه بوصفي طبيبه. وأنا هندي، جئت من «دِهرا دون» Dehra Dun. وعندما التقيت بالسيد آروبي لأول مرة أدركت من فوري أنه شخص يعرف كثيراً من الأمور. لعلك ستفهم. وكان لدي تفكير تنبؤي يتعلق به، وعندما أتيت إليه شاهدت ما كان. وقد عرفت مثل حالات الوفاة هذه في الهند الشمالية، وأنا أخبرك بها حتى لا تغرق في الحزن. مات السيد آروبي وهو في حالة من السعادة حقّق فيها كل شيء. ولقد كتبت في شهادة الوفاة أنها بسبب «نوبة قلبية»، ولكنها لم تكن كذلك. هناك بعض الأشخاص الذين يختارون بمطلق حريتهم لحظة موتهم، وبدون عنف ضد الجسد يستطيعون بمجرد إرادة القوة أن يموتوا. وكان هذا هو ما حدث بالنسبة إليه. إنني أنظر إليه بكل إجلال وأنحني أمامه. لقد رحل في هدوء، وبقوة فكره أطفأ وعيه. وهكذا يكون الخير في الرحيل. صدقني يا سيدي، إنه كان شخصاً مستنيراً.

سأكون في خدمتك إذا اتصلت برقم الهاتف. وبتمنياتي الطيّبة، فأنا المخلص لك، ب. ر. تسانج.

قرأت الرسالة كلها مرتين فنزلت عليّ سكينة باردة رهيبة، وجلست

كتمثال بلا حراك فترة طويلة. ولم يخطر لي أن أتساءل عما إذا كانت الرسالة الغريبة خدعة أو غلطة. لم يراودني شك في أن جيمس قد رحل. رحل في هدوء، بمجرد ضغط لطيف طفيف من عقله على جسده جعل الشعور المشتعل الذي لا يقر له قرار يسلكه إلى الأبد. أحسست بأسى عميق ينكمش ويبقى ساكناً كأنما يخشى أن يتحرك. كما شعرت بإحساس جديد غريب لم أعرفه من قبل، واستغرقت وقتاً قصيراً لأدرك أنه الوحدة. بغير جيمس أصبحت وحيداً في نهاية المطاف. كم كنت أعتمد على حضوره في العالم، على نحو ما، وكأنه كان شقيقي التوأم وليس ابن عمي.

رأيت من ساعتي أن الوقت يقترب من منتصف الليل. سأذهب إلى لندن غداً بكل تأكيد. وأخذت أتساءل في اضطراب حزين عاجز عما حدث، ماذا فعلوا به؟ أما زال جيمس جالساً هناك في مقعده، ميتاً ومبتسماً ابتسامته الجوفاء؟.

نهضت لكي آوي إلى الفراش، فتذكرت حينئذٍ أنني قد أعددت فراشي في الخارج فوق الصخور. فأزمعت الذهاب إليه. كان الليل دافئاً في الخارج، وقد أظلم بما يكفي للكشف عن نجوم متناثرة وقوس ضبابي خافت يرسمه الطريق اللّبني Milky Way. كانت هناك إضاءة منتشرة في السماء، على كل حال، فتذكرت أن منتصف الصيف قد حان قبل موعده أو بعده بيوم أو يومين. وكنت قادراً على التماس طريقي دون خطورة كبيرة فوق الصخور التي صرت أعرفها الآن حق المعرفة، وإن تكن قدمي قد زلت أثناء سيري في بركة ماء. وكان ماء البركة دافئاً. وجدت فراشي الخشن، واستلقيت فوقه بالقميص والسروال، ولم أخلع سوى حذائي. وأسندت رأسي بحيث أستطيع أن أتطلع إلى الأفق الذي كان يميِّزه خط قاتم، وآخر فضيٌ. وكانت المياه ترتطم برفق أسفل مني، وكأنها مويجات تتكسر على زورق بطيء الحركة.

لماذا رحل جيمس، لماذا قرر أن يرحل الآن؟ هل هناك سبب فوري،

سبب يمكن أن أفهمه، أم كان هذا كله جزءاً من نموذج دوَّار من وجود ابن عمي الذي لا أستطيع أن أتصوره؟ وأخذت جميع أنواع الافتراضات المخبولة تنثال على رأسي. أكان هذا شيئاً يتعلق بليزي؟ محال. أم بتيتوس؟ ألعله كان ممتلئاً بتأنيب الضمير بشأن تيتوس، متخيلاً نفسه مسؤولاً عن ذلك الموت؟ بل لقد بدأت هنا أخمِّن بأن جيمس كان يعرف تيتوس من قبل حقاً، وأنه ربما كان هو نفسه الشخص الغامض الذي لقَّن تيتوس تلك الأغاني والأناشيد الصغيرة، كما كان هو الذي أعطاه نسخة من قصائد دانتي. غير أن هذا كان بعيداً عن التصور، مثل هذا الخداع لا يمكن أن يكون المرء جاداً في تخيله. وبينما استلقيت هناك متطلعاً إلى السماء فوق البحر أبصرت قمراً ذهبياً تابعاً يبدأ رحلته البطيئة الدقيقة فوق قوس السماء، فبدا أشبه بروح هادئة مسافرة. قال جيمس إنه كان مسافراً في رحلة. كان الموت هو الرحلة. كان «حيلته» الأخيرة.

كلا، لا أستطيع أن أعزو هذا «الإبعاد» إلى أي سبب عادي أو حاضر. إذ كان قرار جيمس ينتمي إلى نموذج مختلف للوجود، إلى تاريخ آخر تماماً للمغامرة أو المحنة الروحية. وأياً كان «العيب» الذي أدى إلى موت متسلق الجبال - كما يراه جيمس - فإنه ربما كان ينتمي إلى حالة أعم. الدين قوة، أو ينبغي أن يكون كذلك، ومع ذلك، فإن هذا هو مصدر هلاكه. ذلك أن ممارسة القوة متعة خطرة. ولعل جيمس كان يريد أن يتخفف من عبء تصوف انحرف عن طريقه، نزعة روحية انحدرت بطريقة ما فأصبحت سحراً. أيمكن أن يكون التقزز قد استولى عليه لأنه لم يجد بداً من استخدام «سلطانه» لإنقاذ حياتي، أكانت هذه هي القشَّة الأخيرة، وكان هذا كله هو غلطتي على كل حال؟ هل أثبتُّ في النهاية أنني عبء لا يعترف بالجميل، ورابطة خطرة؟ وهنا فهمت - وأنا أشعر بالأسى - المغزى الممكن لزيارة جيمس الأخيرة. لقد جاء جيمس ليعقد صلحاً معي، وكان ذلك من أجله، لا من أجلي، لكي يفصم عرى ارتباط، لا لكي يجعله كاملاً. كان يعلم أن

هذا هو حديثنا الأخير، وهذا هو سبب استرخائه البيِّن، وانفتاحه وصراحته ولطفه غير المعهود. إنه لم يأت لأية رغبة عادية في المصالحة، وإنما لكي يحرر نفسه من انشغال أخير يضيق به. فمن الممكن أن يعكر القلق أو الذنب الذي يشعر به نحو ابن عمه التعس ـ أن يعكر صفو الأحوال المحيطة برحيله الكامل التي ربما كان يصبو إليها منذ زمن طويل.

تساءلت كيف سار هذا القَطْع (الفَصْل). هل استجاب لرؤية «الواقع الشامل» الذي يأتي في لحظة الموت، والرؤية التي لا بد للمرء أن ينتفع بها في الحال؟ هل ذهب مشتاقاً إلى ذلك الموعد، وهل هو الآن، في أية سماء غريبة من الانطلاق، قد «تحرر»، أياً كان ما تعنيه هذه الكلمة؟ أم أنه متوجِّع ضعيف مثل ظل أخيل*، سجين في مطهر للتكفير عن خطاياه التي لا أستطيع حتى أن أتخيلها؟ أتراه يتجول الآن في جحيم (باردو Bardo) مظلمة، حيث يلتقي بنسخ من الأشخاص الذين عرفهم ذات مرة، ويصيبه الذعر من شياطين الجن؟ ذلك أن الأحلام التي تأتي إلينا في سبات الموت عندما نكون قد تملّصنا من هذا الالتفاف القاتل لا بد أن تمنحنا وقفة. كيف يمكن أن يخرج الإنسان من الجحيم؟ لم أستطع أن أتذكر ما أخبرني به جيمس. لماذا لم أطلب منه قط أن يشرح لي؟ هل سيقابلني هناك، على هيئة رعب دائم، في شكل طيف بغيض، من خَلْق عقله؟ إن كان الأمر كذلك فإنني أتمنى ألا ينساني حين يحقِّق تحرره، بل أن يصل بالشفقة والرحمة إلى معرفة الحقيقة. أياً كان معنى هذه العبارة.

وبينما كنت مستلقياً هناك، أنصت إلى ارتطام البحر الهيِّن، وأفكِّر تلك الأفكار الحزينة الغريبة، كانت حشود وحشود وحشود من النجوم قد تجمعت، فطمست ما كان في الطريق اللبني من فروج، وملأت السماء جميعاً. وهناك في البعيد البعيد في ذلك المحيط الذهبي كانت النجوم تشق سُبُلها وتسَّاقط

* البطل الإغريقي في الياذة هوميروس (المترجم).

وتلتقي بمصائرها وسط تلك البلايين والبلايين من الأضواء الذهبية المندمجة. وانزاح ستار شفاف إثر ستار في هدوء، وشاهدت نجوماً وراء نجوم وراء نجوم، مثلما شاهدت في مسارح شبابي السحرية. ونفذت ببصري إلى الباطن الشاسع الأملس للكون الذي كان ينقلب ببطء ورفق ظهراً لبطن. ذهبت للنوم، وفي نومي، خيِّل إليّ أنني أسمع صوت غناء.

صحوت من نومي فكان الفجر. اختفت بلايين بلايين النجوم، وكانت السماء ذات زرقة ضبابية رقيقة شاحبة شديدة الشحوب، وفوق الشروق الصامت رداء ضخم بارد، فلم تكن الشمس قد لاحت بعد. وكانت الصخور مكشوفة بوضوح، وإن كانت دون ألوان على نحو غير محدود. والبحر هادىء هدوءاً تاماً، لامع، رمادي، يكاد يكون بلا تموجات، لا يميزه سوى خط أشد ما يكون نحولاً وشحوباً عند الأفق. وخيّم صمت تام وإن يكن واعياً بصورة ما، وكأن الكوكب المسافر يتنفس بلا صوت. وتذكرت أن جيمس قد مات. من يكون حب المرء الأول؟ من يكون بكل تأكيد؟.

استجمعت نفسي للنهوض، وركعت، ثم شرعت أنفض بطاطيني ووسائدي التي بللها الندى. ثم سمعت ـ وسط هذا السكون الشامل ـ صوتاً غريباً مخيفاً صادراً من الماء، رشاشاً مباغتاً عالي الصوت تماماً، وكأن شيئاً تحت الصخرة يوشك على الظهور، والزحف، ربما إلى البر. استولت عليّ لحظة من الذعر عندما انقلبت وانحنيت صوب حافة البحر. وهنا شاهدت عجولاً بحرية أربعة بوجوهها الكلبية المبللة تشرئب برؤوسها إلى أعلى بصورة غريبة، وتسبح على مقربة شديدة من الصخرة حتى كدت ألمسها. نظرت إلى أسفل إلى أنوفها المدببة على بُعْد أقدام قليلة تحتي، وإلى سوالفها التي تقطر ماءً، وإلى عيونها المستديرة البراقة المتسائلة، وإلى رشاقة ظهورها المبللة اللامعة. أخذت تتقوس وتلعب برهة من الزمن، وهي تغرغر وتبتلع الماء قليلاً، وهي شاخصة بأبصارها إليّ طيلة الوقت. وبينما كنت أراقب لعبها، لم يراودني أي شك في أنها كائنات خيِّرة جاءت لتزورني وتباركني.

حاشية

ومضت الحياة في سبيلها المعتاد

هـذا بلا شـك هو مـا ينبغي أن تنتهي عنده القصـة، بعجـول البحـر والنجوم، والتفسير، والزهد، والمصالحة، كل شيء متناول في دلالة مشرقة صريحة مبهمة عليا، في صفاء العقل، بعد أن خمدت كل عاطفة. غير أن الحياة، التي تختلف عن الفن، لها طـريقة مثـيرة في التصادم والـترنح، في تقويض الانقلابات الروحية، وإلقاء ظلال الشك عـلى الحلول، وتصويـر استحالة العيش في السعادة أو الفضيلة بوجه عام فيها بعد أبـداً؛ ومن ثمّ رأيت أن أواصل الحكاية قليلاً في قالب اليوميـات مرة أخـرى، وإن كنت أظن أنه، إن كان هذا كتاباً، فلا بد له من أن ينتهي بصورة عشوائيـة تمامـاً ـ لا ريب في ذلك ـ بعد فترة قصيرة. وقد شعرت بأنه ينبغي علـيّ الاستمرار ـ بوجه خاص ـ حتى أصف جنازة جيمس، رغم أن جنازة جيمس لم تكن حقاً حدثاً مهماً بحيث لا يوجد فيها ما يدعو إلى الوصف. ثم شعرت أيضاً بأنني يجب أن أغتنم هذه الفرصة لأربط بين أطـراف قليلة سائبـة، وإن تكن الأطراف السائبة لا يمكن أن تربط أبداً بالطبع على الوجه الصحيح، فكل طرف منها ينتج دائماً أطرافاً جديدة. والزمان كـالبحر، يحـل كل العقـد. والأحكام التي نصدرها على الناس لا يمكن أن تكون نهائية، ذلك أنها تتولد عن مختصرات توحي في الحال بالحاجة إلى إعادة النظر. وما التدابير الإنسانية سوى أطراف سائبة، وافتراضات غائمة، مهما زعم الفن خلاف ذلك لكي يجلب إلينا شيئاً من العزاء.

كنا في شهر أغسطس وأنا أكتب هذا، بيد أنه لم يكن أغسطس البروفنسالي

(الإقليمي) الأصفر الذي ابتدعه الخيال الإنجليزي، بل أغسطس لندن البارد العادي الذي تهب فيه الرياح على التيمس عند نهاية الشارع. أجل، لأنني أقيم في شقة جيمس. فهي من وجهة نظر قانونية تعد شقتي، ولكنها تظل بالطبع شقة جيمس حقًا. فما كنت أجرؤ على تغيير شيء، بل لم أكن أجرؤ على تحريك أي شيء. أصنام «الغيب» تحيط بي. وقد غامرت بوضع بعض «الفتشيات» الغريبة في صِوان، وأرجو ألا يضيرها ذلك، وأنزلت الثريات الزجاجية المعلقة في الصالة لأن صلصلتها تؤرق نومي. غير أن الصندوق الخشبي المزخرف الذي يضم الجني الأسير بداخله، ما زال رابضاً على سنادته (لم ينكر جيمس مطلقاً أن بداخله جنياً، وإنما كان يكتفي بالضحك كلما سألته). وتماثيل بوذا التي لا تعد ولا تحصى ما برحت في أماكنها، ما خلا واحداً منها أعطيته لتوبي إليسمير لأنه بدا متضايقاً لأنه لم يذكر في وصية جيمس. تركت الوصية كل شيء لي، وفي حالة تبرعي بها، أوصى بأن يكون هذا التبرع للجمعية البريطانية البوذية. فكان أن أعطيت هذه الجمعية واحداً من تلك التماثيل.

خطاب نَكِدٌ مراوغ آخر من وكيل المنزل وصلني اليوم. لقد عُرِض «شراف إند» للبيع. ولم أكن قد قضيت هناك ليلة أخرى بعد ليلة النجوم التي ظهرت بعدها عجول البحر في الصباح. وبينما كنت أخرج متاعي استعداداً للانتقال مكثت في فندق الغراب الأسحم. وكان بوسعي أن أرى البرج من غرفة نومي، وإن لم أكن أستطيع رؤية المنزل. يبدو أن أحداً لا يريد شراء المنزل، ربما بسبب الرطوبة، وربما لأسباب أخرى. وقالت عائلة آركرايت التي تقيم في مزرعة آمورن والتي عهدت إليها بالمفتاح، أنها ستقوم بإصلاح السقف، غير أن الوكيل يقول إنهم لم يفعلوا ذلك. ولحسن الحظ لم أكن في حاجة عاجلة إلى النقود، إذ تركتني وصية جيمس في حالة من اليسر.

أظن أنه لا بد لي من وصف جنازة جيمس كما قلت إنني أعتزم ذلك. كان

هناك شيء عبثي غريب بهذه الجنازة. لم أكن مضطراً إلى تنظيمها، حمداً لله. وإنما قام بتنظيمها الكولونيل بلاكثورن الذي ظهر من أجل هذا الغرض، ثم اختفى. وعندما وصلت إلى لندن في اليوم الذي أعقب رسالة الطبيب، ألفيت الكولونيل بلاكثورن والطبيب في شقة جيمس بالفعل. وفسَّر لي الكولونيل تنظيمه للجنازة (حرق الجثة) بأنهم لم يستطيعوا الاتصال بي. ولكن إذا كنت أرغب في شيء آخر... ولم أكن أرغب في شيء آخر. وحاولت أن أتحدث إلى الطبيب ولكنه تلاشى على حين كان بلاكثورن لا يزال يشرح لي كيفية الوصول إلى المحرقة. وكان جيمس قد نقل بالفعل نقلاً رحيماً إلى «كنيسة الراحة». ولم أقم بزيارته.

تمت عملية الحرق بعد يومين في إحدى الحدائق الواسعة المخصصة لذلك في شمال لندن. ثمة شيء أجوف خالٍ من العزاء يتعلق بـ «حديقة للذكرى» إذا قيس بالشعور الجياش الذي توحي به «الجبانة». وكانت عملية الحرق عملية صارمة تخلو من كل رشاقة، يتعجلها القائمون عليها، الذين تركونا ننتظر في الخارج، بينما كانوا يتخلصون من «الزبون» السابق. لا شك أن طلب الكولونيل المحترم بحجز «مكاننا» كان مقتصداً. وكان الكولونيل هناك، والطبيب أيضاً. وحضر توبي إليسمير وكان يبدو مصدوماً حقاً. ولم أكن قد أمعنت التفكير من قبل (ولم أفكر حتى الآن) في طبيعة علاقته بجيمس، ولكن أياً كانت هذه العلاقة فهي ترجع إلى الماضي البعيد. إذ لم يكن جيمس وتوبي جنديين شابَّيْن خدما في العسكرية معاً فحسب، بل كانا أيضاً زميلين في المدرسة. ولعل توبي قد أضمر له شيئاً من الإعجاب أثناء الدراسة؛ مثل هذه الروابط يمكن أن تدوم عمراً بأكمله. وظهر أيضاً أربعة رجال آخرين تبدو عليهم الأناقة ويلبسون ثياباً سوداً وجيهة. وأظن أنهم من العسكريين. ولم تبد عليهم أية علامة تدل على أنهم يعرفون من أنا، كما أنهم لم يكونوا معروفين بالنسبة لتوبي الذي تبادلتُ معه بضع كلمات. والحق أن أحداً لم يخاطبني على الإطلاق سوى توبي وحده. واستغرقت العملية بضع

دقائق، ولم تكن هناك صلاة بالطبع، فيما عدا موسيقى ناعمة فاترة انتهت بسرعة، ثم وقفنا حِداداً في صمت قَطَعَتْه جلبة رسمية صاحبت فتح الباب الخلفي. وعندئذٍ تمنيت أن يكون هناك احتفال مناسب من نوع معين. غير ان إجراء أية طقوس أقترحُها كان من الممكن أن يسيء إلى ظل جيمس. فكان كل ما تمنيته أن يكون لي من حضور الذهن ما يجعلني أطالب بشيء من الموسيقى المحترمة لتوديعه.

خرجنا إلى الحديقة. صافحني الكولونيل بلاكثورن. وبدأ الجميع بالإنصراف. فحاولت مرة أخرى أن أتحدث إلى الطبيب، غير أنه قال إنهم يتوقعون حضوره في المستشفى. ولكنه كان يشعر بشيء من العصبية فيما يتعلق بشهادة الوفاة. وعرض عليّ توبي بفتور أن يقوم بتوصيلي بسيارته، فاعتذرت. كنت أعتقد أنه يريد أن يخلو إلى نفسه أيضاً. تسكعت زمناً طويلاً في الشوارع الحزينة الحقيرة، وأضعت نفسي.

وجدت لتوي في أحد الأدراج في المطبخ المطرقة التي حاولت إصلاحها في الأمسية الأخيرة التي أتى فيها جيمس إلى «شراف إند». لا بد أنه آثر الحيطة فحملها معه. أحببت المطبخ، كان فيه خزانة ضخمة جافة لحفظ اللحوم والمأكولات، وكانت خاوية تماماً عندما وصلت. كما كان هناك أيضاً منظر يطل عليه المرء هو محطة باتريس لتوليد الطاقة، التي تبدو في المساء أشبه بأثر أشوري.

وكنت قد بعت شقتي في شبردز بوش (أجمة الرعاة) ونقلت إلى هنا بعض قطع الأثاث، كما نقلت حاجياتي الخاصة من «شراف إند»، ولم أنقل شيئاً من حاجيات السيدة تشورني. وقاومت في نفسي إغراءً بالاحتفاظ بالمرآة البيضاوية المصنوعة وفقاً «للفن الجديد» art nouveau التي كسرتها روزينا، والتي لم أعد طلاءها أبداً. وقد وضعت معظم متاعي في حجرة اللبس التي كان يستخدمها جيمس. وهذه الحجرة أصبحت الآن، داخل معبد جيمس،

المحراب الصغير لتشارلز. وأنا أدخلها أحياناً للجلوس فيها. وما زالت كتبي في الصناديق الموضوعة في الصالة، ومعظم ثيابي في الحقائب، إذ لـم أكن قد وجدت من نفسي الشجاعة للمس ملابس جيمس المعلقة بعناية، المطوية بعناية. وصوان ملابسه الضخم في حجرة نومه أشبه بالدخول في عالم آخر. لا أستطيع أن أقول إنني أشعر بالألفة في هذه الشقة، غير أنني لن أفكر في الإقامة في أي مكان آخر سواها. ويبدو لي أحياناً أن غيابه عنها شيء لا سبيل إلى تصديقه. وفي الليلة الماضية كنت مقتنعاً بأنه في الحجرة المجاورة بحيث وجدت نفسي مدفوعاً إلى الذهاب إليها والنظر فيها.

التقيت بليزي وجيلبرت يوم الجمعة في بيتهما الصغير في «جولدرز جرين». فأنا أزورهما الآن من حين إلى آخر، فيقدمـان إليّ صنوف الأطعمـة ذات الروائح التي يقضيان اليوم كله في طهوها. وكان جيلبرت الآن ناجحاً جداً بوصفه البطل الهزلي في ذلك المسلسل التلفزيوني المضحك الذي لا ينتهي. صار مشهوراً لأول مرة في حياته، فكان الناس يُقْبلون عليه ويتحسسونه في الشارع. بل إن النقاد كانوا يعقدون المقارنة بينه وبين ولفرد دانتج، وهي بالطبع مقارنة غير معقولة. وها هي ليزي تبدو سعيدة، فقد تخلّت عن وظيفتها في المستشفى، وازدادت بدانة. وما زالا كلاهما يتحدثان عن اليوم الـذي يشتركان فيه معي في منزل واحد، فأقيم أنا في الطابق العلوي، ويقيمان هما في الطابق الأرضي، ويصبحان «جهازي الإداري». فكنا نُطلق النكات حـول هذا الموضوع.

أتراهما يبدآن في معاملتي بوصفي عجوزاً مريضاً؟ إنهما يعتقدان أن شقة جيمس مكان للسكنى. وبالطبع لم أوجه إليهما الدعوة للحضور إلى هنا أبداً. بل إنني لم أوجه الدعوة إلى أحد مطلقاً.

أتـراني أتقمص دوري بوصفي العم القس الـعَـزَب؟ بالأمس صحبت سكرتيرتي الآنسة كاوفمان التي لم أذكرها من قبل لنتناول القهوة، فاستمعتُ

إلى حكاية مؤثرة عن أمها الطاعنة في السن. ثم رافقت روز ماري آسن لتناول الغداء في حانة، وسمعت كل شيء عن سيدني ومايبل Maybelle. مايبل في العشرين من عمرها. وروز ماري ما زالت تأمل في شفاء سيدني. والأطفال يحبون كندا. وروز ماري تعتقد أنهم يتفلسفون أكثر من اللازم بشأن الطلاق. وقد أسعدني أن روز ماري لم تصل إلى فكرة واضحة تمام الوضوح عما وقع في «شراف إند»، ولم أفعل شيئاً لتنويرها. وتتلخص معلوماتها في أنني كنت هدفاً لاضطهاد إمرأة قروية مخبولة، وأن صبياً من أصدقاء جيلبرت قد غرق. ولحسن الحظ لم تكن بها رغبة لمناقشة مشكلاتي.

كان المساء قد بلغ أواخره في الشقة. وبدت تماثيل بوذا وكأنها تنظر إليّ، وإن كنت أعلم أنها لم تكن من تحت جفونها المرتخية عالم الظاهر. والمكان يبدو مكسواً بالغبار لأنني لا أستطيع المغامرة باستخدام خادمة نهارية. وقد قمت بشيء سطحي قليل من إزالة الغبار، غير أنني لم أكن أميل إلى تحريك الأشياء، لأن بعضها هش. وأنا معنيٌ بوجه خاص بذلك الجني المحبوس في القفص والموضوع فوق الرف! هل بدأ المشهد يبدو أشبه فأشبه بمتحف كلما انسحبت روح جيمس رويداً رويداً؟ المنطقة التي أسكنها لا تزداد. وأتناول طعامي في المطبخ، ثم أهرع راجعاً إلى هذا المكتب في حجرة الجلوس. وأرتدي ملابسي في الصالة، وأنا في حجرة النوم الاحتياطية الكبرى. طبعاً، لم أكن أجرؤ على النوم في سرير جيمس. حجرة نوم جيمس الأنيقة لم تُسْتخدم، وقد أُغلقت بابها.

غير أنني قد استحوذت ـ علي الأقل ـ على المكتب، وجمعت فيه حاجياتي المفضلة من بين الحيوانات القيِّمة المصنوعة من اليَشَب. وعلى رسائلي وأوراقي حَجَران (ما زالت الآنسة كوفمان تمد لي يد العون، حمداً لله) أحدهما الوردي المخطط المنقط الذي أهديته لهارتلي، والآخر البني ذو الخطوط الزرقاء الذي أعطيته لجيمس. وكنت سعيداً عندما وجدت هذا الحجر الأخير رابضاً

هنا حين وصلت. وأراني في كثير من الأحيان أتحسس هذين الحجرين. كما أصلحت أيضاً صورتين فوتوغرافيتين إحداهما للعم هابيل والعمة إستيل وهما يرقصان، والأخرى لكليمنت عندما كانت شابة في دور كورديليا. ولم أستطع أن أجد صوراً مناسبة لأبويّ، كما لم تكن لدي بالطبع صورة حديثة لجيمس. ومن الواضح أن استعداداته التي قام بها لرحلته كانت شاملة إلى أقصى حد. فلم أعثر في الشقة على أية أوراق شخصية (وإني لأتساءل هل نقل الكولونيل بلاكثورن شيئاً منها؟). لم تكن هناك أية مخلفات مهمة على الإطلاق، لا خطابات قديمة ولا صور فوتوغرافية، ولا فواتير. وكانت الوصية مربوطة في حزمة رفيعة مع إقرار من المصرف عن الاستثمارات. ولم يكن هناك أي أثر يدل على أن جيمس تعامل مع محامٍ. وكانت الوصية مكتوبة بخط يده. ويبدو أن الشاهدين كانا شخصين غير متعلمين. وبغباء، أخذت أفتش فترة من الزمن عن رسالة مختفية موجهة إليّ، بل لقد بحثت في شقوق الجذار.

ليلة أمس، في حفل أقامه جيلبرت وليزي، سمعت أن برجراين موفّق كل التوفيق في مسرحية في لندنديري Londonderry وقد أصبح صاحب شهرة واسعة بوصفه داعية للسلام في أيرلندا. كما أن روزينا أصبحت لا تقل عنه في هذا حماسة، ويُشاع عنها أنها أضحت ذات وعي سياسي، ومجنونة بالسلطة. ويقول جيلبرت إن «أوديسا» فريتزي قد انقضى أجلها.

أجل، أنا أتردد الآن على الحفلات. وأتسكع في لندن، وآكل وأشرب وأغتاب الناس وكأنني شخص عادي. ألست شخصاً عادياً، على كل حال؟ وأسأل نفسي ماذا حدث لذلك الطلسم الذي كنت أعتزم فك رموزه في ذلك الكهف المتوحد بجوار البحر؟.

لعل ذلك علامة على الشيخوخة أن أكون مشغولاً طيلة اليوم دون أن أفعل شيئاً في واقع الأمر. وهذه اليوميات أخذت تنمو وتنتشر، إنها صحبة بالنسبة لي، وَهْم الانشغال. وأنا أشعر الآن بالحرج لأنني قبل بلوغ نهايتها

ينبغي أن أقدِّم نوعاً من التلخيص المتأمل لـ. . . لأي شيء؟ أنا أجزع من هذا. فلا بد دون هذا من ألم عظيم. وأنا لم أسجِّل ذيّاك الألم.

كم أبدو أنانياً في الصفحات السابقة. ولكن، هل أنا شخص استثنائي إلى هذا الحد؟ ينبغي أن نحيا في ضوء رضانا عن أنفسنا، من خلال تلك الجوانِّيه السرية الحيوية المنشغلة التي تعد أعظم من عقلنا. وهكذا ينبغي أن نحيا إلاّ إذا كنا قديسين، وهل هناك أحد منهم؟ هناك كائنات روحية، وربما كان جيمس واحداً منهم، ولكن ,لا وجود لقديسين.

فليكن، سأحاول أن أمعن الفكر، ولكن ليس اليوم. وعندما ينتهي هذا كله فهل سأكتب شيئاً آخر على الإطلاق؟ قصة كليمنت؟ أم ذلك الكتاب عن المسرح الذي يظن أصدقائي ـ متفضلين ـ أنه ضروري للغاية؟ أم سأجلس ببساطة إلى جوار المدفأة لأطالع شكسبير، عائداً إلى المكان الذي لا يقوم فيه السحر بتقليص الواقع وتحويله إلى أشياء غاية في الصِّغر لتكون دُمىً تعبث بها الجنيات؟ قد لا يكون هناك قديسون، ولكن ثمة دليل واحد على الأقل على أن ضوء الرضا عن النفس يمكن أن ينير العالم بأسره.

رسائل قليلة وصلت لجيمس، غير أنها جميعاً من زملائه الباحثين. يبدو أن ابن عمي كان مستشرقاً ذائع الصيت يراسل العلماء في جميع أنحاء العالم. وقد بعثت هذه الرسائل إلى رجل في المتحف البريطاني اتصل بي هاتفياً ليسألني عن مصير كتب جيمس. فطلبت من هذا الرجل أن يلقي نظرة على الكتب، فحضر أمس، وعندما شاهد كل ما في الشقة من مواد كاد يغمى عليه انفعالاً وجشعاً.

ليس بوسعي أن أفكر فيما أصنعه بأشعار جيمس. أجل، أشعار جيمس! أظن أنني لم أذكر ذلك من قبل! إذن، فإن جيمس قد فعل ـ بمعنى ما على كل حال ـ ما قال إنه سيفعله: يلتحق بالجيش ويصبح شاعراً. هناك، في الدرج الأعلى من هذا المكتب، كانت تلك القصائد، مكتوبة كلها على الآلة الكاتبة

بعناية شديدة تملأ عدة كراسات كبيرة من ذوات الأوراق القابلة للانفصال looseleaf. «بقايا شخصية» من غير شك، ولكن بدون أية توجيهات، أو رسالة تفسيرية. وقد علم توبي إليسمير الذي يعمل الآن ناشراً ـ كما أظن أنني ذكرت من قبل ـ بوجودها، فاتصل بي هاتفياً مرتين بشأنها. لعل جيمس قد ذكرها له ذات مرة. ولم يكن «توبي» قد رآها أبداً، كما أنني لم أُطْلعه عليها. والواقع أنني لم أجرؤ على النظر إليها، أو حتى اختلاس النظر إليها خوفاً من أن أتبينّ أنها رديئة على نحو يبعث على الإحراج! ويكون الأحرى بي أن أمزّقها دون قراءة.

وخَطَر على بالي أن الأبيات الشعرية الوحيدة التي سمعت جيمس يستشهد بها، وكان يستشهد بها في كثير من الأحيان هي: **«مهما حدث، فإننا نملك مدفع مكسيم وهم لا يملكونه!»**.

بالطبع، ليست هذه اليوميات الزاخرة بالثرثرة سوى واجهة، أو هي المعادل الأدبي للوجه المبتسم كل يوم الذي يواري اللواعج الباطنية من غيرة، وتأنيب ضمير، وخوف، وشعور بالفشل الأخلاقي الذي لا سبيل إلى علاجه. ومع ذلك، فإن مثل هذه الادعاءات ليست عزاءات فحسب، ولكن من الممكن أن تكون مولِّدة لشيء من الشجاعة المصطنعة (أو البديلة).

وصلتني رسالة أخرى من آنجي، أرفقت بها صورة فوتوغرافية أخرى. وكررت فيها عرضها الكريم.

الخريف يتولى الآن المسؤولية في لندن رويداً رويداً. ومن الغريب أن يبكِّر في الوصول على هذا النحو. وأوراق الأشجار الملساء الصفراء والحمراء والمنقطة اللامعة تبدو أشبه برسائل صغيرة أُلصقت على الرصيف الرطب. وحبات البرتقال من حقول كوكس يمكن أن تجدها في المحلات. وأقوم بتخزينها في الرف الأعلى من صوان الأطعمة. وأسير كل صباح ومساء في الشارع حتى أصل إلى الجسر، فأشاهد السموات الملبدة بالغيوم فوق أبراج

أغسطس لمحطة باترس لتوليد القوى الكهربائية، لأتأمل الدراما الأبدية لنهر التيمس وهو يعلو وينخفض. إني أنتظر. برجراين على وشك أن يتسلم شيئاً من قبيل الجائزة على خدماته من أجل السلام. وروزينا قد سافرت إلى أمريكا لتشغل وظيفة ما. تناولت الغداء مع روز ماري، ومع الآنسة كاوفمان، ومع فابيان العجوز المسكين، ومع ممثل شاب أهوج يدعى إراسموس بليك. لم أتكلف بالطبع عناء تسجيل أنني أتعرض باستمرار لإلحاح أهل المسرح بالعودة إلى اللعبة القديمة. متى يدركون أنني لم أعد مهتماً؟ ولقد فرضت الصمت على هاتفي بلولب من الورق، ولم أدخل مسرحاً، حتى لو كان ذلك للفرجة على إخراج جديد لمسرحية هاملت قام به السيد بليك، وهو إخراج من المفروض أن يكون أفضل شيء منذ اختراع شرائح الخبز.

نعم، إني لأتساءل هل سأكتب ـ على الإطلاق ـ ذلك الكتاب عن كليمنت؟ كان الأمر يبدو وكأن هذا الكتاب قد احتل إلى الأبد المكان الذي أفسحته لها. ما أبعد ذلك الآن عن العدل! لقد كانت كليمنت حقيقة حياتي، خبزها ونبيذها. لقد صنعتني، اخترعتني، أبدعتني، وكانت جامعتي، وشريكتي، ومعلميّ، وأمي، وابنتي فيما بعد، وتوأم روحي، وعشيقتي المُطلقة. كانت هي ـ لا هارتلي ـ السبب في امتناعي عن الزواج إلى الأبد. وكانت بالتأكيد هي السبب لإحجامي عن البحث والعثور على هارتلي في وقت كان من اليسير تماماً أن أفعل فيه ذلك. لماذا لم أحاول جاهداً، فترة أطول؟ كانت كليمنت هي التي أوقفتني. وفي الذاكرة مددت جيداً فترة اشتياقي الأرعن لهارتلي المختفية في العهد الذي حكمت فيه كليمنت. غير أن الذاكرة يمكن أن تكون مضللة. كيف يمكن ألا يكون في وسع كليمنت أن تشفيني؟ عندما التقيت بكليمنت أول مرة كانت شخصية باهرة، فاتنة وذكية وفي قمة شهرتها، ولمّا تزل شابة، وإن كنت أفكر فيها على أنها عجوز. إذ كنت في العشرين من عمري، وهي في التاسعة والثلاثين، أو الأربعين. يا إلهي، لقد كانت أصغر سناً من ليزي الآن. وعندما قابلتها أول مرة كنت

صبياً أخضر العود، خجولاً جاهلاً يخلو من كل رشاقة، وكانت معجزة أن تنظر إليّ على الإطلاق. وقد عاملتها - فيما بعد - بفتور، وكانت نزعتها التملكية تثيرني، بل لقد ألفيت حبها باعثاً على السأم. فرحلتُ، ورحلت هي، ومع ذلك كنت أرجع دائماً، وكانت ترجع دائماً. لم يفقد أحدنا الآخر تماماً، وفي النهاية، عندما كانت على فراش الموت، طردت الجميع خارج حياتي.

استغرقت كليمنت زمناً طويلاً في احتضارها. وظلت عناوين الصحف (التي تعلن وفاتها) جاهزة للنشر عدة أسابيع. استلقيت إلى جوارها على السرير، أُربِّت على وجهها الذي أصبح، مؤخراً جداً فحسب، أكثر تغضّناً بتأثير الألم والخوف. وما زالت أصابعي تتذكر تلك الغضون الناعمة والدموع التي ملأتها في هدوء. قالت إنها تريد أن تموت في عاصفة من الضوضاء، فظللنا ندير جهاز «الهاي فاي» أياماً استمعنا فيها إلى أسطوانات ڤاجنر، وشربنا الويسكي، وانتظرنا معاً. كان أعجب انتظار أتذكره في حياتي، فقد كان انتظاراً، ولم يكن انتظاراً. كان هناك نوع من اللازمانية في الطريقة التي كان كل منا حريصاً بها على رفقة الآخر. عمل الخوف على انقسامنا، خوفها، وخوفي، من الحدث: خوفان مختلفان مرهفان كان علينا أن نتغلب عليهما بقوة مستديمة من الانتباه المتبادل، بحيث يضع كلٌّ منا يده على قلب الآخر. نال منَّا التعب، وأسكتنا الضجة وبكينا، وما زلنا ننتظر. يا إلهي من دموع كليمنت، ما أغزر ما رأيت منها من قبل، وما أشد ما أمرضتني! والآن أحسست بأنها ستجعل مني قديساً، ولعلها أوشكت أن تصنع مني ذلك بعد شهر. وفي النهاية، وافاها الأجل أثناء نومي. كنت في كل صباح أظن أنني سأجدها ميتة، غير أنني كنت أراها تتنفس، وأرى صعود وهبوط ملاءات السرير التي تغطي جسدها الذي انكمش وتضاءل، صعوداً وهبوطاً وفق إيقاع رتيب. وذات يوم لم تعد ثمة حركة، ورأيت عينيها مفتوحتين ووجهها متغيِّراً.

تلك الفترة من الحزن المتنبِّه على موتها كانت مختلفة تمام الاختلاف عن الفزع الأسود الصريح من الحدث نفسه. تشاركنا معاً في الحزن، وحاول كل منا أن يخفف من آلام الآخر. غير أن هذا الألم الذي تشاركنا فيه كان أقل كثيراً من عذاب اختفائها، الزمان المعيش المريع لغيابها الأبدي. ما أشد اختلاف كل موت، ومع ذلك فإنه يسوقنا إلى بلد واحد بعينه، ذلك البلد الذي نادراً ما نسكنه، حيث نشاهد تفاهة ما سعينا طويلاً من أجله، والذي سرعان ما نعاود السعي إليه.

لم أكن أعتزم الكتابة عن موت كليمنت. فلقد أتعست نفسي حين فعلت ذلك، وما فتىء يطاردني رغم مرور عدة أيام. لقد اجتزت هذه المحنة بالطبع، وبسرعة فائقة. فقد تركت لي أموالها، غير أنها لم تكن في نهاية الأمر سوى ديون.

منذ أن أخرست هاتفي قَلَّت الدعوات التي تسلمتها. وعلى كل حال أظن أن الناس قد تغلبوا على الانفعال الذي أثارته عودتي إلى لندن. وهكذا أمضيت أمسياتي مؤخراً في المنزل أحتسي النبيذ وأستمع إلى الموسيقى، أية موسيقى، تصدر عن الإذاعة. وكان لديّ جهاز للأسطوانات، ولكنه كُسِر أثناء النقل. وأنا أطهو بنفسي عشاءً من الأرز أو العدس أو الكرنب بالتوابل. ثم أتسلى بحبات برتقال كوكس، وآوي إلى فراشي مخموراً في وقت مبكر. ولا أظن أن لديّ المقومات التي تجعل مني مدمناً للكحوليات. أصابني ألم في صدري، غير أنني أعتقد أن لهذا صلة بكليمنت.

أتساءل هل كان جيمس مجنوناً؟ ألفيتني أفكر في هذا لأول مرة. ألا يفسِّر هذا الافتراض كثيراً من الأشياء؟ على سبيل المثال الوهم الذي انتابه بأنه رفعني من تلك الدوامة بنوع من القوة الخارقة؟ ولكن، لحظة، ألم يكن هذا الوهم وهمي أنا؟ ربما كنتُ مجنوناً؟ من المؤكد أنني سكران وأنني أغفو الآن.

لقد تأخر الوقت عن موعد نومي. تماثيل بوذا تتقاصر. هيا إلى الفراش، هيا إلى الفراش.

عندما أطلت التفكير في جيمس خطر ببالي شيء جليّ. إنه لم يمت على الإطلاق. كل ما في الأمر أنه التحق بالعمل السري! وهذه التمثيلية الزائفة كلها قامت المخابرات بتنظيمها! وعندئذٍ غاظني أشد الغيظ أن أتبينّ مدى التهافت المفرط الذي اكتنف المسألة كلها. فأنا لم أشاهد جثة جيمس على الإطلاق. وعندما وصلت كان الكولونيل الغامض بلاكثورن قد تولى الأمر كله، وتم نقل «الجثة». كما لم أكتشف من الذي كان من المفروض أن يحدد هويتها. وكان من الجلي أيضاً أن الطبيب الهندي ـ المخادع إلى أقصى حد ـ مأجور للمخابرات البريطانية. وكان خطابه تحفة رائعة في المخاتلة. وعندما تلقيتها اضطرب فكري، واشتد تأثري، بحيث لم أعد قادراً عل التفكير في الغرابة القصوى التي أحاطت بالأحداث. وكان جيمس يتمتع بصحة كاملة عندما رأيته آخر مرة. وفكرة انتحاره بإرادة القوة كانت غير معقولة مثل فكرة سيره على الماء. وخطر لي أنني لم أعثر على جواز سفره أبداً في الشقة. أين ابن عمي الآن؟ إنه ليس في المطهر أو النرفانا، وإنما جالس فوق ثور من ثيران التبت زوده به الجيش، متقدماً إلى موعد بين الجليد مع مخبر من ذوي العيون المنحرفة!.

منذ أن كتبت ما سبق لاحظت أن عدداً من الأشخاص الشرقيين يحومون في الشوارع المجاورة. أرجو ألا يكونوا «الآخرين»، الذين يحسبونني جيمس خطأً؟ أما بالنسبة لذلك التولبا القَبَلي، فمن المؤكد أنه كان من عملاء المخابرات، وهذا هو سبب ضيق جيمس عندما رأيته.

سمعت لتوي الأنباء المزعجة المريعة بأن برجراين قد قتل بأيدي الإرهابيين في لندنديري. لم أكد أصدق ما سمعت. وأدركت الآن أنني كنت أنظر إلى أنشطته بوصفها هزلية محضة. بعض الناس يلعبون حيواتهم كلها

بوصفها ملهاة. الموت وحده هو الذي ليس ملهوياً ـ ولكنه ليس مأساوياً أيضاً. هذا الرعب الخاص مسّني مرة أخرى، مصحوباً بحزن هو الخوف الخالص، غير أنني أعلم أنني لا أحزن حقاً لموت پيري، وإنما لميتات أخرى، ربما كان منها موتي. يا لپيري المسكين! كان رجلاً شجاعاً. لا أستطيع أن أدَّعي أنني أحببته حقاً على الإطلاق، ولكني مُعجب به لأنه حاول قتلي، ولو لم تتدخل تلك الموجة المنفلتة لكان قد أفلح في محاولته. وتلك الرؤية الغريبة لجيمس التي بدت على تلك الدرجة من الأهمية لا بد أنها كانت نتيجة للضربة التي هوت على الرأس. كانت نجاةً تدخل فيها الحظّ.

أقيمت عدة حفلات تأبين لبرجراين بعد وفاته تحت إشراف الأسقفين الكاثوليكي والبروتستانتي. كان شهيداً بحق. وقد تقرر إنشاء مؤسسة سلام باسم برجراين آربلو. وعندما عادت روزينا من كاليفورنيا لتنعم بمجد الشهيد، قامت بتنظيم مقدار كبير من الأموال الأمريكية. وتقول ليزي إنها سمعت أن روزينا تركت پيري بالفعل قبل موته دون أية نية للعودة، ولكن ربما كان هذا كله مجرد نميمة خبيثة.

من الغريب أن الصدمة التي تلقيتها من جراء موت پيري جعلتني أقل يقيناً ـ بدرجة كبيرة ـ مني بوفاة جيمس. وما زالت النظرية التي عرضتها فيما سبق تبدو جيدة ومعقولة إلى أقصى حد. غير أنني أشعر بأنني أقل مَيْلاً إلى تصديقها. ربما كان من الأفضل أن أحسبه في عداد الأموات، وأن الروح التي أزعجتني طويلاً قد آبت إلى السكينة في نهاية المطاف. ليست هناك أسرار على كل حال، وقد مات جيمس بالسكتة القلبية. أما فيما يتعلق «بالأشخاص الشرقيين» فإنني أدرك أنهم مجرد جرسونات يعملون في مطعم هندي في طريق جسر فوكسهول.

كلا، لا أريد أن أصدق أن ابن عمي جيمس حي يرزق ويعيش في التبت، مثلما لا أريد أن أصدق أن هارتلي حية ترزق وتقيم في أستراليا؛ وهناك أحيان أشعر فيها بالاقتناع فعلاً بأنها هي الأخرى قد ماتت.

فتح برجراين الباب وخرَّ إلى الأرض ممزَّقاً بالرصاص. لقد مات بطلاً على كل حال، أثناء نضاله.

الغداء مع الآنسة كاوفمان. وصل سيدني ليتداول في أموره مع روز ماري. تحدثت روزينا في اجتماع عقد في ميدان الطرف الأغر. تفرجت أنا وليزي على جيلبرت في التليفزيون.

عمي هابيل يراقص العمة إستيل ويلامس يدها برفق، وبرفق شديد يلمس كتفها وكأنه يرفعها من الأرض بمجرد قوة حبه. كل منهما يركِّز نظره على الآخر؛ هو بنظرة تنم عن الحماية. وهي بنظرة تفيض بالثقة المطلقة. أكانا يرقصان الفالس، في تلك اللحظة العابرة التي التقطتها آلة التصوير وألقت بها في المستقبل؟ كانت قدماها لا تكادان تلمسان ساحة الرقص.

كان أبي شيئاً لم يقدِّر أن أكونه أبداً: سيداً مهذباً. جنتلماناً. أكان عمي هابيل واحداً من هؤلاء؟ ليس تماماً. أكان جيمس واحداً منهم؟ السؤال نفسه غير معقول.

قال جيمس إنني كنت مفتوناً بشبابي، لا بهارتلي. أوقفتني كليمنت عن العثور على هارتلي. ودمَّرت الحرب عالماً عادياً كان من الممكن أن أتزوج فيه جبيبة طفولتي. لا وجود لقطارات تذهب إلى حيث تقيم.

أمضيت من فوري أمسية سَكْرى مع توبي إليسمير، وأشعر بشيء من الخزي منها. قال توبي عن جيمس إنه كان «مخبولاً على نحو ما» وأنه كان «أبا هوْل بلاسر». لم أخالفه الرأي، بل أحسست بشيء من الرضا في الاستماع إلى التهوين من شأن جيمس. وما زَال إليسمير يريد تلك القصائد، غير أنني لن أتخلى عنها، كما أنني لم أنظر فيها. وحتى لو كان جيمس أعظم شاعر في هذا القرن، فلا بد له من أن ينتظر فترة أطول للاعتراف به. وأظن أنه سينتظر إلى ما بعد وفاتي.

قال جيمس إنه لا بد لي من إعادة تمثيل حبي لهارتلي، وعندئذٍ سوف ينهار

جذاذاً كشيء في حكاية خرافية حين تدق الساعة الثانية عشرة. أكانت تلك تمثيلية زائفة ضرورية، وهذا الحب الذي يعاد تمثيله مجرد وسيلة للتخلص من حقد قديم؟ أكنت لا أريد سوى انتزاعها من «بن»، كما انتزعتُ روزينا من بيري؟ بالطبع، لقد جعل موت تيتوس هارتلي مستحيلة بالنسبة لي، وهذا الشطر ـ على الأقل ـ من الدرس البارد، أعني كشف الغرور الإنساني، هو الذي تبقّى. وهل بدأت الآن فعلاً أتساءل إلى أي مدى أحببتها حقاً حتى منذ البداية؟ الحقيقة المحزنة هي أن هارتلي لم تكن على قسط كبير من الذكاء حقاً. وإذا رجعت ببصري إلى الوراء، فأي ثنائي مضجر لا ظَرْف فيه كنا سنبدو، وبلا حضور بديهة ولا أسلوب ولا إحساس بالدعابة. هذه الأشياء جميعاً هي التي تعلمتها من كليمنت. أتراني أخطىء فأحسب الغباء طيباً لأن أمي كانت تكره العمة إستيل؟.

لماذا كتبت تلك التجديفات جميعاً هكذا بغتة؟ هذا هراء الهزيع الأخير من الليل.

ما أطول الوقت الذي انقطعت فيه عن الكتابة عن هارتلي، رغم أنني كنت أفكّر فيها طيلة الوقت. ربما كان ذلك راجعاً إلى أنني لا أجد الآن إلا القليل إذا تحدثت عنها. منذ أيام قليلة مضت، وإن لم أقم بتسجيله، اتضح لي بغتة أن حكاية الرحيل إلى أستراليا لم تكن بالطبع إلا مجرد خدعة. لماذا لم تخبرني هارتلي من قبل أنها سترحل إلى أستراليا؟ لأنها لم تكن ذاهبة إليها! اختلق «بن» هذه الخطة في اللحظة الأخيرة. أليس من الغريب أن يبتاع المرء كلباً في اللحظة التي قرر فيها مغادرة البلاد؟ وبطاقة البريد الصادرة من سيدني التي أبرزتها الجارة المتواطئة بهذه الطريقة المتعجلة، يمكن أن يتم تزويرها بسهولة بمعونة صديق أسترالي. لقد عقد «بن» عزمه على أن يطرحني خارج المشهد إلى الأبد، حتى لو استدعى الأمر أن يرسلني إلى الجهة المقابلة من الكرة الأرضية لمطاردة البط البري، ثم نقل زوجته المستكينة إلى بورنموث أو ليثام ـ سانت ـ آنز. بل ربما عادا بعد فترة إلى النيبليتس إذا علما من آل

آركرايت أنني رحلت. ماذا سأفعل حينذاك؟ هل أرجع وأقوم بتحريات سرية في القرية؟ لن يكذب كل من فيها.

غير أن الدافع إلى أن أفعل هذا قد فارقني. لقد صوبت مدافع التدمير عبثاً على أسرار حياة شخص آخر، ولا بد أن أكف في نهاية الأمر. وانتهيت فيما بعد إلى أنه ليس من المهم حقاً أن يكونا قد رحلا إلى سيدني أو إلى ليثام ـ سانت ـ آنز. وتبدو لي الآن فكرة اختلاق هذه الخدعة المعقدة من أجلي، فكرة غير معقولة.

متى استقر رأيهما على الرحيل إلى أستراليا، إذا كانا قد رحلا فعلاً؟ أكان «بن» يعتقد حقاً أنني والد تيتوس؟ إذا كان يعتقد ذلك، فقد سلك سلوكاً يغلب عليه التعقل الواضح، بالنسبة لرجل عنيف الطبع. بل لعله اعتبرني مفيداً بوصفي ذريعة. وبالنظر إلى الوراء في النسيج السببي، كان من الخير أنني أخبرت جيمس بظني في أن «بن» حاول قتلي، إذ مكّنه ذلك من إدراك مقاصدي الإجرامية، وبالتالي قرر أن يحث بيري على الاعتراف. هل كنت أعتزم حقاً قتْل «بن»؟ كلا، كانت هذه تخيلات تتراءى على سبيل العزاء. غير أن مثل هذه التخيلات يمكن أن تكون سبباً في «حوادث».

لماذا أتخيل أن هارتلي كانت مُسْتَغْرَقَة في رغبة للموت؟ لقد كانت متعلقة بالبقاء، صُلبة مثل حذاء قديم برقبة.

إذا كانت هذه اليوميات «تنتظر» تقريراً توضيحياً نهائياً أقدّمه عن هارتلي، فلا مناص لها من أن تنتظر إلى الأبد. ذلك أنها ليست بالطبع وصفاً تفصيلياً لأفعالي، والأحداث والأشخاص الذين لا تربطهم صلة بما جرى من قبل قد استبعدتهم منها. كما حذفت أيضاً التواريخ من هذه التأملات. مضى الزمان ونحن الآن في أكتوبر، تمر علينا أيام باردة مشمسة ساطعة، وتظللنا سماء شمالية زرقاء، وتزورنا ذكريات متناثرة طائرة لمواسم خريف أخرى. إنه طقس أشبه بعش الغراب، ولقد شاركت في ولائم حقيقية لعش الغراب، القطع

السوداء الكبيرة اللزجة، لا الأقراص الصغيرة التي لا طعم لها. كما ظهر الكعك الساخن أيضاً في المحلات، وأصبح من الممكن أن يتطلع المرء بالفعل إلى شتاء لندن المألوف، بأصائله المعتمة، وضبابه، وإلى ألَق عيد الميلاد ومثيراته. ومهما يكن من تعاستي فليس في وسعي ألا أستجيب تلقائياً لهذه المثيرات، كما فعلت في الماضي - بلا ريب - في فصول خريف أخرى ران عليها الشقاء.

منذ أن كتبت تلك المادة عن كليمنت أحسست بافتقادها. ومن الغريب أن يحدد المرء ألمه بأنه «افتقاده كذا وكذا». وما برحت صورة كليمنت تتخايل لي عندما أركب الحافلة، أو فوق سلّم صاعد عندما أكون نازلاً، واثباً داخل تاكسي، وأختفي. لعل الحال سيكون كذلك في الجحيم. يا إلهي، لو أنها هناك، فما أطول الزمن التي يمكن أن تمكثه فيها! ولو تحدثنا عن الارتباطات، لكان في رأس كليمنت من العذاب ما يكفي لقضاء عشرة آلاف سنة.

بالطبع أنا لا أؤمن بتلك «التجديفات» التي كتبتها فيما سبق.

متى بدأت أُرْخي قبضتي على هارتلي، أو بالأحرى على صورتها، على قرينتها، هارتلي التي أنشأها عقلي؟ هل أرخيت قبضتي، هل حدث ذلك من قبل، أم أن هذا لم يحدث إلا الآن، حينما أستطيع أن أنظر إلى الوراء وأطل على الصيف وأرى أفعالي وأفكاري على أنها صادرة عن رجل مخبول؟ أتذكر أن روزينا قالت لي إن رغبتها فيّ مصنوعة من الغيرة، والحقد، والغضب، لا من الحب. أيصدق هذا أيضاً على رغبتي في هارتلي؟ أكان الهدف من كل هذه العملية، هذه الفكرة المتسلطة كلها، أن أكون قادراً في نهاية الأمر أن أراها ساحرة خرافية من ساحرات الحكايات شبه واعية صانعة للمتاعب، غير خليقة بالتفاني من جانبي، وأن ينتهي بي الأمر إلى نبذها في تقزز يمتزج بالخلاص؟ قال جيمس إنني سأراها يوماً ساحرة شريرة، وحينئذٍ سوف أغفر لها. ولكن، ألن يكون الصفح عنها في نهاية الأمر هزيمة للغرض من هذه

اللعبة النفسية التي ألعبها مع نفسي؟ أكنت قد عشتُ حبي مرة أخرى حقاً لمجرد أن أفسّر لنفسي أنه كان حباً زائفاً، مكوَّناً من حقد اختزنته منذ أمد بعيد، ومن الدوافع الحاضرة الصادرة عن غيرة مخبولة تملكية؟ أكنت على مثل هذا الحقد منذ زمن طويل؟ ليس بوسعي أن أتذكر. قالت هارتلي ـ وكان قولها هذا في غاية من الغرابة ـ إن عليها أن تفكِّر فيّ بوصفي كارهاً لها لكي تقلل من قوة الجاذبية التي تتمتع بها صورتي. والآن، عندما أفكِّر في الأمر كله، محاولاً بلا جدوى الانقضاض لاحتواء الماضي البعيد، يبدو لي أنه ربما كان ما شعرت به تجاه هارتلي حينذاك ـ أو على الأقل بعد أن أسَرَتني كليمنت ـ نوعاً من الشعور بالذنب لأنني لا أتعذب بما فيه الكفاية، ولا أبحث عنها بالجدية الكافية. سحقاً لهذا البحث، فقد كنت غارقاً في حب كليمنت، لا بد أنني كنت كذلك، وإن كنت أعذبها بإنكاري لهذا الحب! أكان من الممكن أن أشعر بالخلاص حينذاك لأنني لا أستطيع العثور على هارتلي؟ لم يكن لدي دفتر يوميات ليخبرني، وحتى لو كان لدي هذا الدفتر فلعلي لا أصدقه. وليس بمقدوري أن أتذكر التسلسل الدقيق للأحداث في تلك الأعوام السابقة على التاريخ Prehistoric. فإذا كنا لا نستطيع أن نتذكر مثل تلك الأشياء، وكانت ذاكرتنا التي هي ذاتنا ضئيلة، محدودة وعرضة للخطأ، فإن هذه الحقيقة هي واحدة من أهم الحقائق في تكويننا، مثل دخيلتنا وعقلنا. بل هي بكل تأكيد ماهية كلٍّ منهما.

أياً كانت العلة فمن الواضح الآن أن شيئاً ما قد انتهى. إن حبي الجديد، حبي الثاني لها، «استردادتي» الثانية، تبدو في ذروتها شيئاً جليلاً، يكاد يخلو من الوهم، عندما رأيتها مثيرة للشفقة، محطَّمة، ومع ذلك بوصفها شيئاً أستطيع رعايته، شيئاً أستطيع أن أتشبث به وأن يتشبث بي، وأن يكون منبعاً للنور حتى لو فقدتُها تماماً، كما فقدتها تماماً بكل تأكيد. ماذا أصبح هذا النور الآن؟ لقد اختفى، وكان في أفضل أحواله شعلة خفاقة تلوح في مسيرة، وصارت «استنارتي» العظيمة ضرباً من الهراء. لقد ولَّت، إنها لا شيء، ولم

يعد لها وجود بالنسبة لي، وكان قتالي على كل حال من أجل طيف هيلين*.
إننا لا نحب سوى مرة واحدة، هي المرة الأولى On n'aime qu'une fois, la premièe . ما أكثر الحماقات التي ارتكبتها لإثبات هذه العبارة الفرنسية الغبية!.

ما الذي غيَّر الأشياء، أهي مجرد حركة الزمان التي لا ترحم، والتي تعمل بهدوء وآلية لتغيير الأشياء جميعاً؟ لقد كتبت آنفاً أن موت تيتوس قد «أتلف» هارتلي، أتلفها بمجرد بقائها من بعده. أجل، غير أن هذا لم يكن موضع لومي لها. بل الأحرى أنه قد كان هناك. شيء من العفن الشيطاني يفسد بالتدريج كل شيء، ويبدو أنه يأتي منها، دون أن يكون غلطتها، ولهذا كان لا بد أن نفترق إلى الأبد، من أجلها ومن أجلي. ويبدو أنني أراها الآن مشوَّهة إلى الأبد بهذا العفن، مشعثة، زرية، قذرة، شمطاء. ما أشد قسوة هذه الرؤية، وما أشد ظلمها! دون خطأ منها. الغلطة الوحيدة التي أستطيع أن أقيسها هي غلطتي. لقد أطلقت شياطيني، وليس أقلها أفعوان البحر الذي هو الغيرة. غير أن إيماني الشجاع الذي قال: «أياً كان شكلها فإنها هي مَنْ أحبها» هذا القول قد أخفق الآن وولّى، انحلّ كل شيء في التفاهة واللامبالاة التي لا تنظر إلا إلى نفسها، وأعرف أنني أقلل من شأنها بهدوء، كما يقلل كل مخلوق بشري عمداً من كل مخلوق آخر. وحتى القلائل الذين نحبهم حباً صادقاً نهوِّن من شأنهم سراً من حين إلى آخر، كما قللت أنا وتوبي من شأن جيمس لكي نغذِّي الشهية المفتوحة لذواتنا الضرورية المدهشة.

غير أن الألم يبقى بالطبع، وسيبقى. نحن كائنات مشروطة(متكيِّفة)**

(★) بطلة حرب طروادة في «إلياذة» هوميروس، والمقصود هنا أن القتال كان من أجل وهم. (المترجم).

(★★) الإشارة إلى الفعل المنعكس الشرطي Conditioned Reflex الذي توصل إليه العالم الروسي الشهير بافلوف Pavlov بتجربة أجراها على كلب يدق له جرس أثناء تناوله الطعام، فأصبح كل رنين جرس إشارة إلى تقديم الغذاء للكلب حتى =

يسيل لعابها عندما تدق الأجراس. وهذا التكييف المحض هو سمة أخرى من السمات المميزة لمقدَّراتنا. كل شيء يمكن طلاؤه بتداعي المعاني، وإذا كنت تملك تداعيات كافية فإنك تستطيع أن تلطّخ العالم بالسواد. فكلما سمعت كلباً ينبح، يلوح لي وجه هارتلي كما رأيتها آخر مرة، مليئاً بالغضون التي أحدثها الألم، ثم تتلاشى هذه الغضون من الوجه فيبدو كالصفحة البيضاء. وهذا مثلما يحدث لي كلما استمعت إلى موسيقى ڤاجنر تذكرت كليمنت في احتضارها، وبكائها على موتها. في الجحيم أو في المطهر، لن تكون هناك حاجة إلى تعذيبات أخرى أو مزيد من التعذيبات المتطورة.

أسبوع مزدحم بالانشغالات. تناولت الغداء مع الآنسة كاوفمان ورتّبت الأمور من أجل انتقال أمها إلى دار مريحة مرتفعة التكاليف أعدت للمسنين. ويبدو أنني من سيدفع الفواتير. هل أصبحت في عداد القديسين على كل حال؟ تناولت كأساً من الخمر مع روزينا، وهي تفكّر في دخول حلبة السياسة. تقول إنه من اليسير كل اليسر التأثير على الناس بإلقاء الخطب. التقيت بآلويسيوس ويل بوس. يريدان أن أنضم إلى شركتهما الجديدة. رفضت. ذهبت في مشاهدة خاصة لرسوم دوريس البشعة. تناولت الغداء مع روز ماري التي تقول إن العمل التجاري الذي تقوم به «مايبل» أوشك على الانهيار. تلقيت رسالة أخرى من آنجي. ذهبت إلى كمبردج لزيارة أسرة بانستيد، ورأيتهما وهما يستعرضان زواجهما السعيد وأطفالهما الأذكياء الحلوين. تناولت العشاء مع ليزي وجيلبرت. تم اختيار جيلبرت بوصفه «شخصية العام للاستعراض المسرحي». تحدثنا عن ولفرد، وجيلبرت يتجه إلى التواضع، أو يصطنع ذلك.

يجب أن أتحدث عن ليزي. كنت ظالماً لها في الصفحات السابقة. ومع ذلك فقد احتفظت برسائلها إليّ، والاحتفاظ برسالة له دائماً دلالته. (لماذا

= من دون تقديمه. وقد سمّى بافلوف هذه الاستجابة باسم «الفِعْل المُنعكس الشرطي» (المترجم).

بحق السماء احتفظت هارتلي بخطابي الأخير دون أن تقرأه؟ أظن أنها كانت تريد التخلص منه بسرعة. (وليس من المُمكن دائماً إتلاف الرسالة المطولة بسرعة، كما لمست ذلك بنفسي في زماني). وقد أعدت قراءة رسائل ليزي، وهي الرسائل التي سجلتها آنفاً. وكانت تبدو لي في وقتها مجرد تنفيسات عن هراء الخداع الذاتي. غير أنها تبدو لي الآن مؤثرة إلى حد كبير، بل متسمة بالحكمة. (أتراني أشعر لأول مرة منذ كليمنت بافتقاري إلى المعجنات؟) ومنذ أن أصبح جيلبرت مشغولاً وشهيراً أصبحت أرى ليزي بمفردها أكثر قليلاً مما سبق، أشاطرها الغداء الآن بانتظام وأقنعتها أخيراً بأن تقلع عن الطهي. وهذا يعد بحد ذاته في أية صداقة خطوة على أكبر جانب من الأهمية. ونحن ننعم بالهدوء والمرح معاً. ونضحك ونمرح كثيراً، ولا نناقش شيئاً جاداً، ويبدو أن بلاغة ليزي ترن في ذهني أشد مما ترن في ذهنها.

أخيراً هذا حبي لك. أنا لا أريده أن يكون أتوناً هادراً. ولو كان بوسعي أن أتعذب أكثر من ذلك لتعذبت أكثر من ذلك. استقبلنا الآن كما تستقبل أطفالك. إن الحنان والثقة المُطلقة والتواصل تتزايد أهميتها كلما تقدم العُمْر بالمرء. دعنا لا نبدد الحب على كل حال، فإنه نادر. ألا نستطيع أن يحب أحدنا الآخر أخيراً بحرية، دون ذلك النزوع البغيض إلى التملك والعنف والخوف؟ الحب هو المهم، لا «الوقوع في الحب أو الغرام». لا تدع شيئاً يفرِّق بيننا الآن، دع السلام يسود بيننا وإلى الأبد، لم نعد شابّين كما كنا. أحبيني يا تشارلز، أحبيني بما فيه الكفاية.

لا شك أن ليزي وجيلبرت سعيدان حقاً معاً، كما قالت في خطابها الأول، ولم أصدقها حينذاك. «تبيّن لنا بغتة أن الأمر كله بسيط وبريء». ولم تؤثر شهرته على هذا مطلقاً. بل إنها أتاحت لي فرصاً لرؤيتها على انفراد، وأظن أن هذا يسعده. وأدى نجاحه التليفزيوني إلى انتصارات أخرى، فرحل فترة ما في أيلول (سبتمبر) للمشاركة في مهرجان إدنبره حيث يقوم آل بول Al Bull بإخراج مسرحية جديدة. وعندما أصبح مدعَّماً بحب الجمهور البريطاني

أصبح أقل خوفاً مني بدرجة كبيرة عما اعتاد أن يكون من قبل. وكذلك كانت ليزى. هل صار الأسد عجوزاً بلا مخالب؟ ومهما يكن من أمر فإنني ألاحظ ذلك دون جهد، ودون أن يقال شيء، ودون مناقشة شخصية أياً كانت، ودون أن تكون ثمة ريبة بشأن العلاقات الجنسية، أصبحت ليزي ما كانت عليه ذات مرة، وما قالت أنها تريد أن تكونه، طفلتي، تابعتي، ابني. وهكذا حصل شخص واحد على الأقل في هذه القصة على ما يصبو إليه.

كانت ليزي تفزع من الرجوع إليّ خوفاً من أن يجعلها حبها جارية لي. كانت مذعورة من تلك التبعية المعذِّبة المخيفة لوعي بشري في خضوعه لوعي آخر. هل أشعر بالأسف لأن ذلك الخوف قد فارقها؟ هناك طاغية شرير يسكن بين جنبيّ. كيف استطاعت ليزي أن تتحمل ذلك؟ ربما كان عليها هي أيضاً أن تعيد تمثيل حبها، أن تعاني الأمر كله مرة أخرى، لكي تتمكن من تحويله. كل ما في الأمر أنها تبدو وكأنها نَجَحَتْ فيما فشلتُ أنا فيه؛ لقد أكملت حبها، على حين أنني ـ ببساطة ـ حطمت حبي. أكنت أنا المحنة المقدّرة التي طهّرت قدرتها على الحب. النظر في هذا الموضوع متسام إلى حد بعيد! ربما تمكنت فظائع الصيف من انتزاع خيط ما، وحل التعب بليزي. نحن جميعاً شياطين بالإمكان كل منا للآخر، غير أن بعض العلاقات الحميمة تنجو من هذا المصير. ويبدو أن علاقتي بليزي قد نجت على هذا النحو، بفضل إلهي ما، دون ميزة أختص بها، ودون إرادتي، وأظن أن كلاً منا قد حلَّ به التعب، ويسعده أن يستريح في صحبة الآخر.

نتلامس ويقبِّل كل منا الآخر، لا حاجة تدفعنا إلى أكثر من ذلك. وأنا ـ كما قلت من البداية ـ أختلف عن البطل الحديث في أنني لست مفرطاً في الجنس! وأستطيع أن أتصرف بدونه، بل إنني أتصرف بدونه، وأشعر بأنني مستمتع بدونه. وبالنظر إلى الوراء، لا مناص من الإدلاء باعتراف يُخجل البطل الحديث حقاً. وأنا لم تكن لي كل تلك الغراميات الكثيرة، والنسوة اللواتي نجحت في إغوائهن لم يسعدنني دائماً في الفراش. بالطبع كانت هناك

استثناءات. منها كليمنت التي علّمتني. وجان. ماذا كان من الممكن أن يكون الحال مع هارتلي؟.

لم نتحدث أنا وليزي مطلقاً عن جيمس، وكان يبدو أحياناً أن هذا لا أهمية له. وكأنما كانت واقعة معرفته بها قد مُحيت تماماً من ذاكرتينا. وكذلك، وبمعنى قد لا ينطوي على أي ضرر، فصلني جيمس عن ليزي، وكأنه قام بعملية خصاء لعلاقتنا. ألعل هذا بالضبط هو الفضل الإلهي الذي لا أستحقه، مصدر السلام السائد بيننا؟ والجان الذين خصصوا لإفساد علاقتنا قُتِلوا جميعاً. وأنا لا أفتقدهم. وأحياناً عندما أبتسم أنا وليزي كل منا للآخر في هدوء، أتساءل ترى هل تدور بخلدها هذه الأفكار نفسها.

عاودني وجع الصدر الذي عانيته لأول مرة في اليوم الذي حاولت فيه الاستحمام في مطبخ «شراف إند». لجأت إلى طبيبي فقال إن سببه «الفيروسات».

أجلس أحياناً وأتساءل لمن ينبغي أن أترك أموالي. ربما كان من الأفضل أن أبدأ بتوزيعها من الآن. أرسلت حوالة مالية إلى الجمعية البوذية، وحوالة أخرى إلى مؤسسة آربلو للسلام، وسأثير قريباً بكرمي دهشة الشاب إيراسموس بليك الذي يستعد للزواج. ما زالت مسرحية هاملت التي يخرجها معروضة على المسرح، غير أنني لم أشاهدها بعد. وأتخيل أنني سأترك كل المواد الشرقية للمتحف البريطاني، والواقع أنهم يستطيعون الحصول على الكتب الآن. وسأترك أشعار جيمس لتوبي. لِمَ هذه اللهفة على ترتيب الأشياء؟ أتراني أتخيل أنني سأموت قريباً؟ ليس الأمر كذلك حقاً ـ ومع ذلك يبدو أن ذلك السقوط في البحر قد أتلفني على كل حال، لا أعني الإيذاء الجسدي، بل نوع من الإيذاء الروحي. ربما مات جيمس بهذا التلف الروحي؟ أنا في كامل صحتي، ولا أشعر بأنني أصبحت في عداد العجائز، غير أنني ألاحظ أن الناس يعاملونني على أنني أصبحت كذلك، ولا بد أن

يكون هذا انعكاساً لإحساسي بنفسي. إنهم يقدمون إليّ هدايا، ونباتات في أصص، وعلباً من جيلي الدجاج، ويسألونني إن كنت على ما يرام. هل أنا على ما يرام؟ لقد أهدتني روز ماري جفاناً خزفية للحساء.

في الليلة الماضية، وفي برنامج من برامج الألغاز في هيئة الإذاعة البريطانية، لم يعرف أحد المتسابقين من أكون.

لا بد أنني كنت أمس متوعك المزاج قليلاً عندما كتبت ما سبق. الواقع أنني كنت أشعر بشيء من الغثيان بعد أن حضرت وليمة مزعومة أقامتها إحدى الكليات في أكسفورد. لا ينبغي أن أعطي أموالي بهذه السرعة الفائقة عندما أكون في مثل هذه الحالات. وأياً كان الأمر فقد أخبرت المتحف البريطاني بأنهم يستطيعون الحصول على الكتب الآن. وأظن أن هذا هو الصواب، وإن كان هناك نوع من العقوق ينطوي عليه تفريطي في الأشياء التي تركها جيمس. أكنت أظن إذن أنه من المحتمل أن يعود في أية لحظة؟.

ألمس بيدي الأخرى وأنا أكتب هذه السطور ـ الحجر البني الذي تتخلله خطوط زرقاء، والذي انتقاه جيمس من مجموعتي في شراف إند. لقد كان رابضاً على المكتب عندما أتيت إلى هنا، وربما كان قد تناوله كثيراً، وهكذا كانت ملامسته أشبه بملامسة يده (يا لها من طرطشة عاطفية!). أمسكت الحجر ولعبت في نوع من الانفعال أكبح جماحه. حب الناس، أليس ذلك ارتباطاً؟ إنني لا أريد أن أتعذب بلا طائل. أشعر بالندم ووخز الضمير لأنني لن أعرفه أبداً معرفة أفضل. لم نكن أبداً صديقين حقاً، وضيعت شطراً كبيراً من حياتي وأنا أحسده بغباء، وأراقبه في عصبية، ومستهلكاً نفسي في منافسة من المحتمل أنه لم يَدْرِ أبداً بوجودها. وكان سروري بقدر فشله، وكنت أقدر نجاحي لأنه يبدو أنني ألمع منه. وكان وعيي به خوفاً وقلقاً وحسداً ورغبة في التأثير. أيمكن أن ينطوي مثل هذا الوعي على الحب أو يؤلف حبًّا؟ ولقد فَقَد كل منا الآخر بسبب انعدام الثقة، والشجاعة، والسخاء، بسبب الكرامة التي لم توضع في موضعها الصحيح، وبسبب التحفظ الإنجليزي. والآن

أشعر بأن شيئاً مني قد ذهب بموت جيمس، مثلما يجرف الفيضان شطراً من جسر.

خطرت على بالي الآن فحسب نظرة جديدة تماماً إلى النقيصة الثانية التي تعيب هارتلي، وإلى النقيصة الأولى بكل تأكيد. وأظن أن شيئاً من هذا القبيل أوحى إليّ به جيمس. عندما قالت هارتلي إن عليها «أن تحمي نفسها» بالتفكير في أنني أبغضها وألومها، أضافت بأنها «تشعر دائماً بالذنب». وعندما قالت إن عليها أن تتأكد من أن كل شيء قد انتهى وأن «تجعله ميتاً في ذهنها»، تخيلت أن هذه الصورة الغاضبة المعادية عني قُصِد بها تخدير حبها القديم، والجاذبية التي ما زلت أمارسها، لأن مثل هذه الجاذبية يمكن أن تكون شديدة الإيلام إذا عاشت بها. ولكن، ربما لم يكن الرباط الأساسي حباً على الإطلاق، وإنما مجرد ذنب؟ والذنب المسيطر يمكن أن يدوم خلال السنين وأن يشيع الحياة في شبح الشخص الذي وقع عليه الضرر. أيمكن أن يحاكي مثل هذا الذنب (على سبيل التنكر) حباً مدفوناً؟ ربما لم تكن هارتلي نفسها، في تلك الفترة الطويلة ـ ربما لم تكن تعرف معنى شعورها الأليم نحوي. ولا بد أن الأمر كان بالنسبة لها رهيباً وعملاً عسيراً أن تهرب مني وأن تغدر بحياتينا اللتين لا تنفصمان، وبعهودنا المتفانية. «لم يكن لي مناص من أمضي على هذا النحو، كان هذا هو السبيل الوحيد، ولم يكن هيِّناً». أظلَّت صدمة هذه الخيانة تتردد في عقلها كالانفجار الأصلي للكون؟ ولمّا لم تكن هناك مناسبة لتحديدها، كيف كان من الممكن أن تعرف ما تشعر به بالضبط: أهو صدمة، أم ذنب، أم حب؟.

ثم عدت إلى الظهور، وبغتة جعلت من الواضح وضوحاً لا مزيد عليه أمام عينيها أنني لا أبغضها ولا ألومها، وأنني واصلت حبها دون حقد. وكان شعورها الأول هو الامتنان، ومع هذا الخلاص جاء إحساس بحب يُبْعث من جديد. لعل هذا هو ما شعرت به في الليلة التي جاءت فيها من أجل تيتوس. وكما تعلمت من حالتي وحالة برجراين، لا يشعر المرء بالذنب في أغلب

الأحيان لأنه ارتكب الإثم، ولكنه لأنه ووجه بالاتهام! وسحب الاتهام المتخيَّل كان سبباً في شعور هارتلي بالامتنان، والمودة، في البداية. ولكن، ما إن بدأ الشعور بالذنب وشدة الانفجار المترددة التي جلبها إلى علاقتنا، ما إن بدأ هذا في الخمود حتى أصبحت حقيقة مشاعرها نحوي المدفونة في أغوار أعمق ظاهرة لها. وعلى كل حال فقد كان هجرانها لي من أشق الأمور، ولا بد أنها كانت تعاني من دوافع قاهرة. كان الأمر يتطلب شجاعة عظيمة أن تهرب إلى خالتها التي تقيم في ستوك ـ أون ـ ترنت Stoke-on-Trent . لماذا ذهبت؟ لأنني كنت واقعاً في الحب، وهي لم تكن؛ لأنها لم تكن تحبني بما فيه الكفاية، لأنني كنت شديد الأنانية، مفرطاً في حب السيطرة، أو على حد تعبيرها «محباً للرياسة». وقد خدعتُ نفسي طيلة هذا الوقت بفكرة إحياء حب مستتر لم يكن له وجود على الإطلاق. وبعد تحررها من أغلال الذنب عاد إليها ذلك الحقد القديم المُنقذ، واستردت تلك اللامبالاة الأساسية البحتة لصحبتي التي مكَّنتها في الماضي من الهرب، وأن تصحب آمالها في الحياة إلى مكان آخر. وربما التقت في ذلك المكان الآخر بصحوة جنسية لم أكن قادراً على إعطالها لها.

غير أن هذه النظرات كابوسية إلى أبعد حد، ومن الأفضل أن أشعر «بأنني لن أعرف أبداً».

جاء رجال المتحف البريطاني وحملوا الكتب الشرقية جميعاً. وكانوا ينظرون بشوق إلى التحف الأخرى. بل إن أحدهم أراد أن يفحص علبة ـ الجني، غير أنني عدوت إلى الأمام صارخاً. والكتب الأخرى التي تبقَّت الآن بجلاء هي في معظمها كتب التاريخ، والشعر في اللغات الأوروبية. (لم أستطع العثور على مؤلفات ميلاريبا. هل هو شاعر إيطالي؟) لا توجد روايات. وقد أخرجت بعض كتبي الخاصة من الصناديق، غير أنها كانت تبدو بائسة تافهة ولن تستطيع أبداً أن تملأ تلك الأماكن الخالية. هل سيجرِّد المكان تدريجياً كما تجرَّد قصر علاء الدين؟.

رسالة من «جين» التي تطلب مني أن أزورها في إيران حيث يقيم زوجها الكردي أو شيء من هذا القبيل، وهو من الأمراء. من يدري، قد أغدو ضحية إحدى الجرائم العاطفية crime passionel.

بيعت «شراف إند» أخيراً، حمداً لله، إلى الطبيب والسيدة شفارتسكويف. أتمنى لهما حظاً أسعد من حظي الذي صادفته هناك.

وأحدث شائعة عن روزينا هي أنها تعيش في واد ضيق في لوس آنجيليس مع امرأة معالجة نفسانية. وأسمع أن الأبله «ويل بوس» قد نال لقب فارس. ولم أطمع أبداً في مثل هذه «التشريفات»، وأنا سعيد بأن أقول هذا.

حلمت ليلة أمس أن هارتلي قد ماتت، وكان موتها غرقاً..

رسالة أخرى من آنجي.

تحدثت مع ليزي عن هارتلي، ومع أنني لم أقل شيئاً مهماً، إلا أن قلبي يشعر بأنه تخفف من عبء ثقيل، وكأنه فُتح برفق. لقد اتهمت هارتلي بأنها «خيالية»، أو لعل هذه كانت كلمة تيتوس، ولكن كم كنت «خيالياً» أنا نفسي. لقد كنت أنا الحالم، أنا الساحر.. ما أكثر ما أرى حين أنظر إلى الوراء أنني أقرأ فيه كله، أقرأ نص الحلم الخاص بي، ولا أنظر إلى الواقع. كانت هارتلي على حق حين قالت عن حبنا إنه ليس جزءاً من العالم الواقعي. لم يكن له مكان. غير أن ما يصدمني الآن هو أنني عند نقطة معينة، لكي أعمد إلى تيسير الأشياء على نفسي، قررت أن أنظر إليها خفية ـ على أنها كاذبة. ولكي أحرر نفسي من عبء رباطي المعذِّب، بدأت أراها ـ بذلك المكر نصف الواعي الذي يميِّز الأنا البشرية الحامية لنفسها ـ بوصفها ناشزاً هستيرية مسكينة؛ وهذه الشفقة الخسيسة التي حاولت أن أتخيلها على أنها نوع من التعاطف الروحي، كانت دار منتصف الطريق في رحلة هربي. ما كنت أستطيع أن أحتمل منظر تلك الضحية الأسيرة المنتحبة في تلك الحجرة البشعة الخالية من النوافذ التي أراها في الكوابيس. إن خيال حبي تخلّى عن هارتلي

الحقيقية وأخذ يعزي نفسه بأفكار مجردة رفيعة عن «قبول كل شيء» عميانياً. وكان ذلك هو المَخْرَج.

قالت ليزي في معرض حديثنا: «من الممكن بالطبع أن يبدو الزواج مريعاً لكنه في حقيقة الأمر على ما يرام تماماً». أَجَل، أَجَل، ولكن، أليست لديّ البيِّنة؟ بالطبع أنا لم أخبر ليزي أبداً باستراقي السمع، وكيف سمعت هارتلي تردد مرة إثر أخرى: «أنا متأسفة، أنا متأسفة، أنا متأسفة». إن «بن» لم يستقر أبداً في الحياة المدنية. لقد فاز بوسام لأنه قتل جمعاً كبيراً من الرجال في معتقل للأسرى في الآردن Ardennes . وجرّنا الحديث إلى الوحشية التي لا لزوم لها. وهناك من الناس من هم أفضل من غيرهم في القتل، وقد قالت هارتلي إنها كذبت فيما يتعلق بعنف «بن»، ولكن ربما كانت هذه أكذوبة قيلت على سبيل الوفاء، أو عن خوف لا عقلاني؟ ألا يمكن للمرء أن يشم رائحة الكذب؟ إلى أين يمكن أن تفضي هذه النظرات، وفي أي ضوء يمكن حتى أن تتوخى العدل؟ الباب موصد أمام خيال الحب. وقابلية الذاكرة للخطأ وضعف مداها يجعلان المُصالحات الكاملة مستحيلة. ولكن ليس من شك أن هارتلي كانت ملتاعة، كما لم يكن من شكّ في أنها كانت تشعر أحياناً ـ كما ظننت لأول وهلة ـ بالأسف لأنها فقدتني. لقد جاءت إليّ، لقد هربت إليّ، ولم يكن ذلك حلماً. لم يكن ذلك الذي قبَّلتهُ تلك الليلة طيفاً. وفي تلك الليلة قالت إنها أحبتني. وفكرتي عن عودتها إلى «الحقد الأصلي» بارعة أكثر من اللازم. ومن الممكن للمرء أن يكون بارعاً أكثر من اللازم في محاولته البحث عن الحقيقة. ولا بد للمرء أن يحترم في بعض الأحيان وجهها المحتجب. بالطبع هذه قصة حب. لم تكن قادرة على أن تكون بياتريسي my Beatrice ، كما لم أكن قادراً على النجاة على يديها، غير أن الفكرة لم تكن تافهة خالية من المعنى. وليست شفقتي عليها بحاجة إلى أن تكون حيلة أو وقاحة، وإنما تستطيع أن تدوم ـ على كل حال ـ بوصفها مجرد ذكرى جاهلة هادئة تخلو من نزعة التملك، ذكرى لم تعد الآن شطراً رئيسياً في حياتي، وإنما ذكرى

مستديمة. الماضي يدفن الماضي، ولا مندوحة عن أن ينتهي في الصمت، غير أن هذا الصمت يمكن أن يكون صمتاً واعياً يظل مفتوح العينين. ولعل هذا هو الغفران النهائي الذي تحدث عنه جيمس.

حلمت ليلة أمس بأنني أسمع صوت صبي يغنّي Eravamo tredici وعندما استيقظت كنت لا أزال أسمع ترديد الجوقة المضحك «بيبا - بوما - بيبا - بوما» ما برح يرنُّ في جنبات الشقة. ما أشد اختلاف شعوري تجاه هذه الممتلكات جميعاً لو كان تيتوس ما يزال حياً! وفي إخراجي مزيد من الكتب صادفت طبعته الفاخرة من قصائد دانتي الغرامية.

يا لها من أغلال لا حصر لها من الأسباب القاتلة التي فرشها غرور الإنسان وغيرته وجشعه وجبنه على الأرض لتكون فخوخاً لصيد الآخرين!! ومن الغريب أن يخطر على بالي أنني عندما جئت إلى البحر تخيلت أنني أتخلى عن الدنيا، غير أن المرء يتنازل عن القوة في شكل من الأشكال، ليقبض عليها في شكل آخر. ربما كنت أنا وجيمس نواجه المشكلات نفسها؟.

ما زلت أحاول أن أتذكر الأشياء التي قالها جيمس، ولكن يبدو أنني أنساها بسرعة غير عادية. الشقة تبدو موحشة بدون كتبه. وأظن أن الجو سيكون أميل إلى البرودة هنا في الشتاء. بل إن أوقات النهار أخذت تبدو بالفعل صفراء شاحبة. ولا بد لي من أن أتعلم كيف أرفع درجة حرارتي بالتركيز العقلي!.

ذهبت إلى طبيبي مرة أخرى، ولكنه لم يكتشف عندي هذه المرة أيضاً شيئاً غير طبيعي. وبدأت أتساءل هل تكون كل هذه «الحكمة» تمهيداً لانهيار جسماني! استمر المطر طيلة اليوم، فمكثت في البيت. وعلى مخزوني الحالي من الأرز والعدس وحبات برتقال كوكس أستطيع أن أجتاز هذا الشتاء. ما زلت أُخْرس جرس الهاتف. هل أنا وحدي الآن بعد كل شيء، كما قصدت أن أكون، وبلا علائق؟ هل انتهى التاريخ؟.

أيستطيع الإنسان أن يغيِّر نفسه؟ أشك في ذلك. أو إذا كان هناك أي تغيير فينبغي أن يقاس بواحد على مليون من الملليمتر. وعندما ترحل الأشباح المسكينة فإن ما يتبقى هو الالتزامات العادية والمصالح العادية. ويستطيع المرء أن يحيا في هدوء وأن يعمل أعمالاً صالحة صغيرة ولا يؤذي أحداً. وليس في وسعي أن أفكر في إتيان أية أعمال صالحة صغيرة في هذه اللحظة، غير أنني ربما فكرت في عمل صالح غداً.

الضباب كثيف هذا اليوم. وكان الجانب الآخر من التيمس غير مرئي عندما نزلت هذا الصباح. غير أن الطقس البارد يجعلني أكثر انتعاشاً. أخذت المتاجر تستعد فعلاً لاستقبال رأس السنة. مشيت إلى بيكاديللي واشتريت كمية من الجبن. وعندما عدت وجدت في انتظاري برقية مطوَّلة مسرفة في العاطفية من فريتزي الذي هو الآن في طريقه إلى لندن. وهو يريدني أن أتولى إخراج شيء يسميه «الباليه الجديد neo-ballet». و «الأوديسا» عادت إلى العرض من جديد.

اصطحبت الآنسة كاوفمان لمسرحية «هاملت»، واستمتعت بها. تلقيت دعوة شديدة الإغراء من اليابان.

قررت تحرير جرس الهاتف، وفي الحال، كانت آنجي على الخط. رتبت أن أتناول معها الغداء يوم الجمعة.

فريتزي يصل غداً.

نعم، كنت عاشقاً لشبابي. العمة استيل؟ ليس ذلك حقاً. مَنْ تكون الحب الأول للمرء؟.

يا لله، تلك العلبة اللعينة سقطت على الأرض! كان بعض الناس يدقون في الشقة المجاورة فهوت من على رفِّها. انكسر الغطاء، وما كان بداخله خرج

بكل تأكيد. عن رحلة الحج التي تقطعها الحيـاة الإنسانيـة ويسيطر عليهـا الشيطان، أتساءل: ماذا بعد؟.

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان



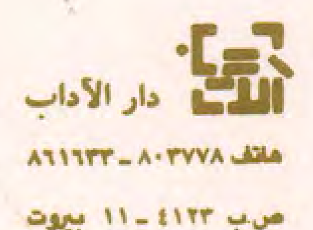


ينسحب تشارلز آروبي، وهو نصف إله من آلهة المسرح - مُخْرِجاً وممثّلاً - من عيشه المتألِّق في لندن، ومن حكايات حبّه وكُرهه الكثيرة، ليغدو ناسكاً. وهو يتوجَّه إلى البحر الصاخب الهادىء، الشفَّاف الصَّفيق...

«لا ريب في أن ايريس مردوخ واحدة من أفضل روائيين ثلاثة باللغة الإنكليزية اليوم» (سوزان هيلّ) - التايمس - لندن.

* * *

«إن هذا العمل العجيب الصوفيّ السحريّ أهمّية كبرى من جميع النواحي.» (پبلشر ويكلي).



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر